

التَّارِيخُ وَالْمُؤَرَّخُونَ فِي مِصْرٍ وَالْأَنْدَلُسِ

فِي الْقُرُونِ الرَّابِعَةِ الْهَجْرِيَّةِ. الْعَاصِمَةُ لِدَيْلَى كَادِي

دراسة تحليلية مقارنة

تأليف

الدكتور عبد الفتاح فؤاد عبد الفتاح

قسم التاريخ الإسلامي - جامعة القاهرة
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المجلد الأول

مكتبة
دار الكتب
للطباعة والنشر
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

التَّبَرُّكُ وَالْمَوَدَّةُ فِي مَصْرٍ وَالْأَنْدَلُسِ

فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ - الْعَاشِرِ الْمِيلَادِيِّ

دَرَسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ مُقَارِنَةٌ

تَأَلَّفَ

الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْقَنَّاخِ فَتْحُ عَبْدِ الْقَنَّاخِ

قِسْمُ التَّأْرِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَتَحْقِيقَاتُهَا
كَلِيَّةُ تَارِيخِ الْعُلُومِ - جَامِعَةُ الْقَاهِرَةِ

شبكة كتب الشيعة

المجلد الأول

مستورات

محند عيسى بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

مستشرقون في رواق بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés ©

جميع حقوق الملكية الأدبية والعلمية محفوظة
لدار الكتب العلمية ببيروت لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تصديق الكتاب كاملاً أو
مجزأ أو تسجيله على أي شكل كتابي أو إلكتروني على الكمبيوتر
أو برمجته على أي شكل من أشكاله إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated
reproduced, distributed in any form or by any means
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle par tous procédés, en tous pays, faite
sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite
et expose à la poursuite des poursuites judiciaires

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رئيس التحرير: طارق النجدي - ساهم في كتاب

الأدب والفكر: عمرو - الفقه: حسن دار الكتب العلمية

هاتف: ٩٦١ ٥١ ٨٠٤٨١٠ - ١١ ١٢ ١٣ - ٩٦١ ٥١ ٨٠٤٨١٠

فكسوف: ٩٦١ ٥١ ٨٠٤٨١٠ - ١١ ١٢ ١٣ - ٩٦١ ٥١ ٨٠٤٨١٠

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ram Al-Zarf - Bohtary Str - Meikart Bldg - 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg

Tel & Fax: (+961 51) 804810 / 11 12 13

P.O. Box 11 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ram Al-Zarf - Rue Bohtary - Imme Meikart - 1er Etage

Administration général

Aramoun - Imme Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 51) 804810 / 11 12 13

B.P. 11 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3931-2



9 782745 139313

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا ومولانا محمد (صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله، وصحبه أجمعين).

ثم أما بعد، فإنني أحاول في هذه المقدمة الموجزة المركزة أن أعرف بموضوع كتابي : التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، وأبرز مقصوده، وأبين مضمونه، ومحتوياته، ومنهجي الذي اتبعته في عرض مادته العلمية، والتغلب على العقبات الكثيرة، التي اعترضت طريق البحث، واحدة بعد الأخرى، حتى وصل هذا العمل المضني إلى غايته المرجوة، ونهايته المنشودة ما أمكن، بفضل الله (تعالى). ويمكنني حصر نقاط هذه المقدمة المختصرة فيما يلي :

أولاً - موضوع الكتاب، ومضمونه :

يتضح موضوع هذا الكتاب من عنوانه، وهو كالآتي :

(التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري - دراسة تحليلية مقارنة)

ويلاحظ على هذا العنوان الملاحظات التالية :

١ - أنني لم أطلق عليه اسم (المصادر التاريخية)؛ وذلك كي لا يتطرق إلى ذهن القارئ أننا سنعالج كتاباً كثيرة ليست تاريخية صرفه، وإن كانت بها مادة تاريخية، فهي من مصادر التاريخ المساعدة، وليست هي المصادر التاريخية الرئيسية، مثل : كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ-)، وكتاب (المكافأة) لابن الداية المصري (ت ٣٤٠هـ-)، فهما كتابان أدخل في باب (الأدب) منه في باب (علم التاريخ). ومن هنا - ومنعاً لاختلاط المفاهيم - استعبدت صيغة (المصادر) رغم دلالتها على تناول الكتب الأساسية، التي تمثل نتاج مؤرخي مصر والأندلس في القرن المذكور.

٢ - أنسى لم أرحح استخدام مصطلح (الدراسات التاريخية)، على الرغم من أن منجزات مورخى البلدين في قرن النضج والازدهار (ق ٤هـ) قيمة بأن يطلق عليها هذا؛ لبلوغ المؤرخين - في هذا العصر - درجة عالية من المنهجية والموضوعية، وإلمام بعضهم بثقافات، جعلت التأريخ - على أيديهم - أكثر منطقية وموضوعية. لقد أثرتُ ألا أفرض على القارئ، مثل هذا العنوان، ورأيتُ أن أترك له فرصة الحكم على هؤلاء المؤرخين، ومستوى مؤلفاتهم بنفسه.

٣ - أننى اخترت الصيغة المرادفة صيغة (التاريخ والمؤرخين)؛ لأنها تُجَنِّبُ ما أردتُ تُجَنِّبُهُ في المصطلحين السابقين، ثم إنها - في الوقت ذاته - تعطى ظلالاً حقيقية، يمكن لمن أراد أن يقف عليها أن يرصدها من خلال قراءة العمل بدقة وأناة من بدايته حتى منتهاه.

إن الموضوع - ببساطة شديدة - يُعنى بدراسة أهم وأبرز اتجاهات التأليف التاريخي في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، فيقوم الباحث - في سبيل ذلك - بالترجمة لعدد من مؤرخي هذا القرن، ويقوم بدراسة مؤلفاتهم التاريخية - سواء كانت مطبوعة، أم مفقودة - ببيان محتوياتها، ومواردها، واختبار مدى صحة بعض ما ورد فيها من الوجهة التاريخية، والمنهج العلمي الذى أتبع في تأليفها، مع المقارنة بين مؤرخي كل إقليم على حدة مقارنة داخلية، ثم رصد أوجه الاتفاق والاختلاف بين مؤرخي الإقليمين، في إطار وحدود عدد من اتجاهات التأليف التاريخي، التي رأى الباحث أنها يمكن أن تمثل حصاد جهود هؤلاء المؤرخين إلى حد مقبول؛ إذ إن استقصاء كافة زوايا البحث التاريخي في هذا القرن مما يستحيل أن ينهض به باحث بمفرده.

ثانياً - دوافع اختيار هذا الموضوع، وتاريخ البحث فيه :

١ - أن هذا الموضوع يعد امتداداً للدراسة أخرى، تناول فيها الباحث التاريخ والمؤرخين في مصر الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى مع مقارنات بمؤرخي الأقاليم الإسلامية الأخرى ما أمكن. وأحب أن أنوه إلى أن هذا الكتاب، وإن كان يتناول قرناً واحداً (هو القرن الرابع الهجري فقط)، في مقابل ثلاثة قرون فيما مضى، إلا أن هذا الكتاب أضخم حجماً، وأصعب منالاً، وذلك من وجوه هي :

أ - أن الدراسة الأخرى كانت مُنصَّبة على مصر (مع مقارنات يسيرة - حسب المادة العلمية - بالأقاليم الإسلامية الأخرى). أما في هذا الكتاب، فهي تشمل مصر، والأندلس معاً، وهو عبء جسيم وكبير.

ب - أن القرون الثلاثة الأوائل لم يُنصَّح فيها التاريخ والمؤرخون نضجه وإسهام في القرن الرابع الهجري، فمؤلفات القرون الثلاثة في مصر لم يبق منها سوى (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم، بينما فقدت مؤلفات سابقه، وإن أمكن تجميع بعض بقاياها، إلا أنها بقايا يسيرة.

أما القرن الرابع، فهو يَعْبُجُ بالمؤرخين، وبه مؤلفات كثيرة مطبوعة، وقليل مخطوط، وعدد من المصادر المفقودة، التي أمكن تجميع قدر كبير منها^(١)، فبلغت كماً هائلاً من النصوص التاريخية، التي لا نظير لها من قبل.

ج — أن الباحث اتبع في دراسته الأخرى منهجاً، اضطرته إليه طبيعة العصر، وثقافات مؤرخيه، فكان لا بد أن يُحَدِّد نصيب كل مؤرخ من تلك العلوم، التي مثَّلت ثقافة العصر (من قراءات، وتفسير، وحديث، وفقه، ولغة، وأدب)، حتى ظن البعض أن ذلك خروج عن الموضوع، ومخالفة لمنهج البحث القويم. وهو - في الحقيقة - في صميم الموضوع، إلا أنهم غاب عنهم أنه منهج جديد وعسير، وصل بنا - في النهاية - إلى أن نعرف - بالضبط - أين يقف علم التاريخ بين هذه العلوم، وأين مكانة المؤرخين وسط الفقهاء، والمحدثين، وغيرهم.

أما في القرن الرابع الهجري - وهو موضوع كتابنا هذا - فالأمر جدٌ مختلف؛ لأن التاريخ استوى على سؤقه في ذلك القرن، وتخلص - إلى حد بعيد - من سيطرة منهج المحدثين عليه، وغدا المؤرخ ذا شخصية مستقلة، وأضحى ملئاً بعلوم جديدة كالمنطق، والفلسفة، والطب، والفلك، ومعرفة لغات أخرى إلى جانب مؤرخين ظلوا يحافظون على ثقافتهم التقليدية المعروفة - وغير ذلك من العلوم، التي طوَّعها بعض المؤرخين لخدمة (علم التاريخ). ومن هنا كانت الصعوبة الحقيقية، التي تمثَّلت في ضرورة أن يقف الباحث على أدوات جديدة في تحليل مناهج المؤرخين في ذلك القرن الجديد، وأن يزداد عمقاً في بحثه؛ نتيجة الاقتصار على دراسة اختصاص واحد هو (التاريخ)؛ مما تطلب مزيداً من القراءة، ووقتاً طويلاً من التأمل والدرس، والمقارنة والتركيب.

وهكذا، كانت مواصلة القراءة الجادة لتراثنا التاريخي المجيد، والرغبة في رصد ما لحقه من تطورات عبر القرون، دافعاً لمواصلة السير في هذا الطريق، الذي يوقفنا على حقيقة تفكير هؤلاء النفر من المؤرخين، وما أَلَدَ النظر والتأمل في عقول الرجال، كما يقولون. واعتقد أن ذلك عمل مهم للغاية؛ لأنه يعيد تقويم تراثنا، ويعد خطوة مهمة وضرورية وأساسية لإعادة كتابة (تاريخ الأمة) من جديد، بعد قراءة تراثها في هدوء وأناة.

٢ - أن هذا البحث كان فرصة نادرة، ومحاولة جادة، لابتعاث كوامن الحياة في مؤلفات تاريخية، صدرت في هذا القرن عن مؤرخين كبار، لكننا لا نقف عليها؛ نظراً لضياعها. ويقابل الباحث - وهو يلهث لاقتناص معلومة يريد بها - نصاً من هنا، وآخر من هناك كشذرات

(١) من ذلك: (تاريخ المصريين)، و(تاريخ الغرباء) للمؤرخ المصري ابن يونس الصدي (ت ٣٤٧هـ). وقد صدرا في مجلدين كبيرين بتحقيق (ط. دار الكتب العلمية - بيروت) سنة ٢٠٠٠م.

متفرقات من تلك المؤلفات، فلا يستطيع أن يحسن الإفادة منها، ولا يستطيع إدراك أهميتها، وحجمها، وما فيها من إبداع، وجُهد بذل، ومنهج صحيح سلكه أصحابها، حتى بلغوا بها ما أرادوا أن يبلغوا، فكان إقدام الباحث على تجميع ما تيسر له من بقاياها، وهو كبير كبير، عملاً جديراً بأن يُبحث، ويُنْذَل فيه العرق والدم، والوقت المطوّل؛ حتى نخرج بمجديد، لا عهد للناس به، فيما نعلم. لذا اخترتُ هذا الموضوع.

٣ - وقد يثور سؤال، مفاده: ولِمَ مصر والأندلس بالذات؟ ولم كان القرن الرابع الهجري على وجه التحديد؟ والجواب جدٌ سبيل. فمن جهة: لم تُدرس مصر والأندلس - فيما أعلم - دراسة علمية مستقلة مفصلة من هذه الزاوية من قبل. ومن جهة أخرى: فالقرن الرابع - بالتحديد - لم يُحظ بالعناية، التي هو جدير بها حتى الآن في مجال (التاريخ والمؤرخين) في هذين الإقليمين من أقاليم أمة الإسلام.

إنني أعتقد أن المقارنة بين مصر والأندلس في ذلك المجال الخصب ليست بالأمر الهين ولا اليسير؛ لتناهي ديارهما، ولأن إدراك عوامل الالتقاء بينهما تحتاج إلى تفكير عميق، فنحن أمام بلدين، إذا نُظر إلى علاقتهما السياسية في ذلك القرن، ألفتيهما أقرب إلى التعادى والتخاصم والتدابّر، منها إلى التلاقي والتعاون. ورغم ذلك، فإنني أعتقد أن هناك مجموعة من أرضيات مشتركة غير مباشرة بينهما على مستويات عدة، منها:

أ - معاناة كليهما من الاضطرابات والثورات والفتن (في مصر فترة ما بين العصرين الطولوني، والإخشيدي (٢٩٢ - ٣٢٣هـ). وفي الأندلس (في فترة ما قبل الناصر، خاصة عهد الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠هـ)، وأوائل عصر الناصر حتى استقامت له الأمور). إلا أن البلدين حظيا بالاستقرار في عهد (الإخشيدي في مصر، والناصر في الأندلس). ويضاف إلى ذلك استقلال كليهما تماماً في عهد (العبيديين في مصر، والناصر في الأندلس)، وذلك بإعلانهما الخلافة في مواجهة العباسيين بالشرق. كان هذا على الصعيد السياسي.

ب - وبالنسبة للجانب الثقافي، فهو الباقي بين الشعوب، فعلماء الأندلس - رغم ازدهار العلم في بلدهم، واستقلالهم كثيراً عن الشرق، خاصة مصر في مجال التاريخ بالذات - إلا أنهم لم تنقطع رحلاتهم إلى المشرق عامة، وإلى مصر خاصة، فقام التلاقح الفكري بينهما عن طريق الرحلات والمكاتبات، والمراسلات في مجال (التاريخ، والحديث، والفقه، وغيرها من العلوم).

ج - انعكست الأوضاع السياسية والاقتصادية على حالة الشعبين: المصري، والأندلسي الاجتماعية. لقد ذاقا وبال الثورات والفتن فقراً مُدَقِّعاً، وضيقاً ونِعْماً بحياة الاستقرار واتساع العيش ورنحائه - على تفاوت بينهما - في أوقات الهدوء والسكينة والاطمئنان.

إذا الموضوع جديد شكلاً ومضموناً. وإذا بحثنا في (التاريخ العلمي) له، فإننا لا نجد من تناولوه هذا التناول. وعلى كل، فنحن نؤمن أنه لا يوجد موضوع جديد كُـلُّ الجِدَّة، ولا يمكن أن نبحث موضوعاً من فراغ؛ ولذلك فقد سبقنا إلى طرق بعض جوانب هذا الموضوع دراسات سابقة، نقدر لها جهودها، التي أضأت لنا السبيل، ووضعت أقدامنا على الطريق الصحيح، وكشفت لنا عن ثغرات، نفذنا منها إلى الموضوع، محاولين معالجته بتفصيل وعمق. ومن أمثلة هذه الدراسات ما يلي :

أ - دراسات دكتور أحمد مختار العبادي عن المؤرخين الأندلسيين في مقال له بمجلة (عالم الفكر) الكويتية، وما كتبه عنهم في كتابه : (في تاريخ المغرب والأندلس).
ب - ما كتبه دكتور حسين مؤنس عن مصادر التاريخ الأندلسي في كتابه : (معالم تاريخ المغرب والأندلس).

ج - كتابات د. طه ذى النون عن التاريخ العربي بالأندلس.

د - بحثان للدكتور محمد عبد الحميد صقر، والدكتور عبد الله جمال الدين، عن مرويات التاريخ الأندلسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري.

هـ - مؤلفات الأستاذ محمد عبد الله عنان عن (مؤرخي مصر الإسلامية).

و - مجموعة من الرسائل العلمية الجامعية، التي أسهمت في تعميق هذه الدراسة، منها : ماجستير الدكتور سيد محمد قطب عن (كتاب المكافأة لابن الداية، و) حضارة مصر في عهد الدولة الإخشيدية) رسالة ماجستير للباحث (فرج الأحول)، و(الحركة الأدبية والعلمية في الفسطاط منذ الفتح العربي إلى نهاية الدولة الإخشيدية) للباحثة (صفى على محمد)، و(الحياة الاجتماعية والثقافية في قرطبة في القرن الرابع الهجري) للدكتورة سلوى عبد الخالق على... إلى آخر هذه الدراسات التي سُـخِّلَتْ بيانها تفصيلاً في (قوائم المصادر، والمراجع).

والخلاصة : أن أدعُ القارئ يقارن بنفسه بين هذه الأعمال، وبين تناولنا لهذا العمل، وأعتقد أنه سيجد أنها كانت معالجات سريعة، تتلاءم مع الموضوعات التي تُـنَوِّلُت فيها؛ فلا يستعدي تناول مؤرخي مصر في رسالة (الأحول)، وغيره سوى صفحات قليلة. وكذلك لم تناول رسالة الباحثة (سلوى عبد الخالق) مؤرخي الأندلس إلا في تعريفات مقتضة سريعة، تتوافق مع موضوعها، الذي يتناول - فيما يتناول - الحياة الثقافية ككل. وحتى دراسات كبار المشتغلين بالتاريخ الأندلسي، مثل : الدكتور العبادي، والدكتور مؤنس، لم تعد التعريف العام المقتضب بمصادر التاريخ الأندلسي ككل في مختلف القرون والعصور. وهكذا، فإنني أعتقد أن دراستي هذه تُعد من الدراسات القليلة، التي حاول صاحبها أن يخص (الكتابات التاريخية) فيها بالدرس والفحص، والتأمل والمقارنة.

ثالثاً، وأخيراً - خُطّة الكتاب، وفلسفة التقسيم، ومنهج التناول :

١- يبدأ الكتاب بـ (فصل تمهيدى) بعنوان :

(مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى) : في هذا الفصل المهم أُرسيّت الأرضية الأساسية للكتاب ككل. وفيه تناولت أبرز الأوضاع السياسية في مصر - خلال القرن الرابع الهجرى، وأهم سماتها خلال الفترات التاريخية المتعاقبة (ما قبل حكم الإخشيد، والدولة الإخشيدية، والفترة التي حكمت فيها دولة العبيديين مصر من ذلك القرن).

ثم انتقلت - بعد ذلك- إلى دراسة (الأوضاع السياسية في الأندلس)، خاصة فترات حكم الناصر، والمستنصر، والمنصور. وختمت ذلك بعقد مقارنة بين البلدين في ذلك المجال.

ثم تناولت الأوضاع الاقتصادية، ثم الاجتماعية، وأخيراً الثقافية (خاصة ما يتصل بعلم التاريخ)، ومتبعاً المنهج السابق نفسه، مطبقاً منهج الخلاصات المقارنة بين الإقليمين في كل مجال من المجالات السابقة. وأخيراً، قمت بكتابة (خلاصة عامة) للتمهيد ككل.

وهكذا، يمكن القول بأننا عالجنا في هذا (التمهيد) الأوضاع في هذا القرن بطريقة شاملة متكاملة، ورؤيتها وفق ترتيب منطقي محكم، بحيث تصب الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية - في النهاية - في المجال الثقافي بعامة، والتاريخي بخاصة. ولا أظن أننا أسهنا في علاجه، بل تناولناه بتركيز شديد، وإن تجاوزت صفحات معالجة الأوضاع السياسية مقدار ما تُنَوَّل في بقية الجوانب، فتلكم هي طبيعة الظروف السياسية في كل عصر.

وأتمنى أن أكون قد وفّقت في إعطاء صورة واضحة عن ذلك القرن، الذي عايشه مؤرخو مصر والأندلس؛ كسى ننظر أثر وانعكاس ذلك على هؤلاء المؤرخين، ونتائجهم العلمى، والموضوعات التي طرّقوها بالبحث والتأليف، ومدى مشاركتهم في الأحداث الجارية على أرض بلادهم، والمنهج الذي عالج به كل منهم مؤلفاته، وفقاً لطبيعة ثقافته، وظروف بيئته ومجتمعه، الذي نشأ في رحابه.

ملاحظة :

قبل أن أنتقل إلى عرض وبيان أبواب الكتاب الثلاثة، أشير إلى أنني كنتُ بين منهجين في التناول :

أ - إما أن أدرس كل مدرسة تاريخية على حدة دراسة كاملة بكافة مؤلفات التاريخ المتيسرة فيها، وفق تسلسل زمني، يضع في الاعتبار مواليد، ووفيات المؤرخين.

ب - أو أن أقسم الفصول تقسيماً موضوعياً، بحيث أضع كل مجموعة من المؤلفات

التاريخية، تشترك في اتجاه من (اتجاهات التأليف التاريخي) معاً، مرتباً إياها ترتيباً زمنياً، بادئاً بمدرسة (مصر التاريخية)، ومُتتياً بـ (مدرسة الأندلس التاريخية)، ثم عاقداً في نهاية دراسة كل اتجاه مقارنة مركزة بين المدرستين.

وقد رجَّحتُ المنهج الأخير في التناول؛ لأن إيجابياته كثيرة، منها :

أ - أنه يحقق للموضوع وحدته وتماسكه، وانسجام جزئياته.

ب - أنه سيحقق الترابط المنطقي بين الأبواب (فنبداً بالسير التاريخية على اعتبار أنها أقدم ألوان الكتابة التاريخية، ثم يأتي الباب الثاني، فيسجل فيه المؤرخون حركة النهضة العلمية في بلادهم، بعد ازدهار العلم، وغو الثقافة، فتأتي كتب (التراجم، والطبقات). وأخيراً، يأتي دور كتب (الحضارة، والنظم)، التي سجل فيها المؤرخون معالم النظام السياسي، والإداري، والقضائي في بلادهم.

ج - أن هذا المنهج يضمن تحقيق المقارنات بدقة داخل كل فصل، على أن تتم الإشارة إلى خلاصتها في (خاتمة الكتاب).

وقد لاحظتُ على هذا المنهج أمرين :

أولهما - أنه يؤدي إلى تكرار ذكر المؤرخ الواحد في أكثر من فصل، إذا تعددت مؤلفاته، من حيث الكم والنوع، فأين نترجم له ؟ وحلاً لتلك المشكلة رأيتُ الترجمة الوافية له في أول مرة يُذكر فيها فقط؛ حتى يتم التعريف به جملة واحدة، إلا إذا وجد سبب وجيه يستدعي تأخير الترجمة قليلاً.

ثانيهما - أن نتاج بعض المؤرخين ذوى الإنتاج العلمي المتنوع كابن زولاق في مصر، والحشني في (الأندلس) سيكون مبعثراً، عبر أبواب الكتاب. ويُردّ على ذلك بأنه يمكن تجميعه في جداول إحصائية بيانية في قسم الملاحق).

والآن، نتابع عرضنا لبقية أبواب الكتاب، ومنهجنا في تناولها :

٢- الباب الأول - (مؤرخو السَّير التاريخية) :

في هذا الباب بدأنا بدراسة هذه النوعية من المؤلفات التاريخية في مصر، فقمْتُ بالترجمة للمؤرخ المصري (ابن الداية ت ٣٤٠هـ) ترجمة مفصلة، مستعيناً بمؤلفاته، التي أمكن استنباط الكثير عن شخصيته منها، مما لم يكن متيسراً، لو تم الاكتفاء بما أوردته كتب (التراجم) عنه.

ثم ترجمتُ - بعد ذلك - للمؤرخ المصري (البَلَوِي، المتوفى في منتصف ق ٤هـ)، متبعاً الطريقة نفسها، ثم قمت بدراسة مؤلفيهما معاً، بطريقة مقارنة، على اعتبار أن

موضوعهما واحد، وهو (سيرة أحمد بن طولون)، واشتملت الدراسة على بيان :

أ - محتوى السيرة.

ب - موارد كل من المؤرخين.

ج - النقد الداخلى لبعض أحداثها، ووضع تصور شامل للحكم التاريخي على دولة

(ابن طولون).

د - المنهج الذى اتبعه كلا المؤرخين في معالجة مادته التاريخية.

وأتى دور المؤرخ العظيم (ابن زولاق ت ٣٨٧هـ)، فترجمت له، وقمت بتحليل كتابه : (سيرة الإخشيد) على المنهج نفسه المتبع من قبل. ثم أعقبْتُ ذلك بكتابة (خلاصة مقارنة) بين (سيرة ابن طولون) لابن الداية، و(سيرة الإخشيد) لابن زولاق. بقی - بعد ذلك - دراسة (سير العلماء)، ومثل ذلك في مصر كتاب (أخبار سيويه للمصرى) لابن زولاق.

ولم أشأ التوقف عند هذا الحد، فهناك مادة مهمة لعدد من كتب السير التاريخية - خاصة كتب المؤرخ الفذ ابن زولاق - لكنها مفقودة، فقامتُ بجمع ما تيسر لي منها، ورتبتها ترتيباً تاريخياً، وقمت بدراستها والتعليق عليها. وبذلك انتهت دراسة (سير الحكام والعلماء في مصر).

أما بخصوص الأندلس، فلم أقف - بعد طول بحث، وسؤال - على كتاب مطبوع في مجال (السير التاريخية)، فقامتُ بتجميع ما تيسر لي من بقايا الكتب المفقودة، والإشارة إلى أسماء مؤلفيها، وعناوينها، وما تدل عليه من موضوعات. وحاولتُ - في النهاية - التعليق لفقد هذه النوعية من تلك المؤلفات التاريخية في الأندلس بالذات، وحاولتُ - كذلك - عقد شيء من المقارنة بين ما بقى منها في مجال (سير العلماء)، وبين ما أثر عن مدرسة مصر التاريخية، وذلك من خلال ملاحظات عامة، قامتُ بتسجيلها. وعلى كل، فقد تنكشف - عما قريب - بعض هذه المفقودات، فنستكمل هذا النقص في تلك الدراسة، وعزاؤنا - الآن - أننا لا دخل لنا به، ولا حيلة لنا فيه.

٣- الباب الثاني (مؤرخو التراجم، والطبقات) :

جمعت - في هذا الباب - ما تيسر لي من كتابي (ابن الربيع الجيزي ت ٣٢٤هـ) عن (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر)، والكندى (ت ٣٥٠هـ) عن (العلماء الموالى في مصر)، وحاولت استخلاص ملاحظات عامة منهجية على كل منهما، حسب المادة العلمية المتوفرة. وأحب أن أذكر بأن المؤرخ المصرى ابن يونس له كتابان في التراجم، يندرجان تحت هذا الباب إلا أنني لن أتعرض لهما؛ لأنى خصصتهما بدراسة مستقلة أشرت إليها من قبل.

وعلى صعيد الأندلس كانت المؤلفات متعددة ومتنوعة في اتجاهاتها، وقمت بدراسة كتاب (أخبار المحدثين والفقهاء) للخشنى (ت ٣٧١هـ)، وقارنت مطبوعه ومخطوطه، وأبرزت أهميته من خلال كثرة نقول المصادر التالية له من تراجمه ومعلوماته. وكنت - كما تعودت - قدمت للمؤلف - قبل ذلك - ترجمة وافية، ألقت الأضواء على شخصية هذا المؤرخ الأندلسي العظيم، ذى الصلات العلمية الطيبة، والمراسلات المتبادلة مع مؤرخ مصر الأشهر (ابن يونس الصديق).

بقى ثلاثة من المؤرخين الأندلسيين في هذا الباب، ترجمت لهم، وحللت كتبهم، وبينت مناهجهم، وهم (ابن حنبل ت بعد ٣٧٧هـ)، صاحب (طبقات الأطباء والحكماء)، والزبيدي (ت ٣٧٩هـ) صاحب (طبقات النحويين واللغويين). وأخيراً المؤرخ الأندلسي العظيم ابن الفرّسي (ت ٤٠٣هـ) في (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس). وفي نهاية هذا الباب رصدنا أوجه الاتفاق والافتراق، والصلات بين مدرستى مصر، والأندلس في مجال (التراجم، والطبقات).

٤- الباب الثالث والأخير - (مؤرخو الحضارة، والنظم) :

وهو باب جديد، يعكس اهتمام مؤرخى مصر والأندلس الكبير بهذا الجانب المهم من جوانب المكتبة التاريخية الإسلامية في ذلك القرن، ويدحض دعاوى باطله، تزعم أن المؤرخين ما كتبوا إلا حكايات، وما سردوا إلا قصصاً وروايات. فهذا هو باب كامل يثبت أن لهم اهتماماً بالكتابة الحضارية، وأنهم غنّوا بالأسس الحضارية، والنظم السياسية والإدارية والقضائية، ضمن ما غنّوا به في كتاباتهم.

تناول هذا الباب الختامى ما يلى :

أ - دراسة كتاب الولاة، للكندى.

ب - دراسة كتاب (القضاة) للكندى أيضاً.

وأخيراً، فإننا لم نجد في الأندلس كتاباً مطبوعاً سوى كتاب (قضاة قرطبة)، للخشنى، وهو كتاب يُعنى بمن ولى قضاء الجماعة بقرطبة، وأغفل القضاء والقضاة في بقية نواحي الأندلس. وعلى كل، فقد تمت دراسته وتحليله، وبيان منهجه. وفي النهاية، كتبت خلاصة مقارنة بين إنجاز مؤرخ مصر الكندى في هذا المجال، وبين العمل الأوحى الباقي الذى كتبه الخشنى بالأندلس.

وفي النهاية، ختمتُ هذا الكتاب بـ (خاتمة) لَخَصْتُ فيها أبوابه، وركزتُ أهم النتائج، والتوصيات، ثم أوردت ملاحق الكتاب، وبعدها كانت (قوائم المصادر، والمراجع) مرتبة وفق منهج معين، ارتضيته لنفسى، وذكرته هناك. والمطالع لتلك القوائم المفصلة، التى تبلغ عدة مئات من الكتب، يدرك - على الفور - مقدار ما بُذِل من جهود شاقة مضنية، عبر سنوات متلاحقة متعددة فى مسح كثير منها، واستخراج المادة العلمية اللازمة لإتمام هذا الكتاب. وتجدر الإشارة إلى أننى اكتفيت فى الحواشى بالمواظبة على ذكر طبعة الكتاب، متعدد الطبعات. أما غير ذلك، فمن أراد معرفة طبعة، فعليه بالبيانات المفصلة فى (قوائم المصادر، والمراجع)، فالحواشى مثقلة لا تحتمل المزيد، وقد يتكرر المصدر بعد عشرات الصفحات، فينسى القارئ طبعته التى ذُكرت بالحاشية فى المرة الأولى، فلا غنى - إذن - عن العودة إلى هذه القوائم.

وأخيراً، فإنه لا يسعنى مع نهاية هذه المقدمة المقتضبة، إلا أن أسجد لله (تعالى)؛ شكراً على عظيم نعمه، وموفور آلائه، التى مَنَّ بها عَلَيَّ، حتى وصلتُ بهذا العمل إلى نقطة النهاية، ومنحنى من الصبر الدعوب، والعمل المتواصل، ما مَكَّننى من تحويله من حلم وخاطر إلى حقيقة واقعة، لا خيال فيها، وأسأله أن يجعل كل ما تحمّلته من المشاق والصعاب خالصاً لوجهه الكريم، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يكلل جهودى بالنجاح والتوفيق فى الدنيا والآخرة.

(وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمْ تسليماً كثيراً)

دراسة في أهم المصادر والمراجع

تقديم :

اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على عدد كبير من المصادر والمراجع، وأود - هنا - أن أقدم تعريفاً سريعاً مختصراً ببعض هذه الكتب، مبيّناً - ما أمكن - مدى إفادتها في تأليف هذا الكتاب، ذاكراً بعض ما فيها من إيجابيات، أو سلبيات، أو هما معاً؛ كي يستفيد الباحثون من بعد. وغني عن البيان أنني سأعتني بذكر الكتب المساعدة على إتمام تلك الدراسة، ولن أتعرض للمصادر، التي كانت موضوع الكتاب، دراسة وتحليلاً؛ وذلك منعاً للتكرار.

أولاً - مخطوطات :

١ - مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطلميوس)، لأحمد بن يوسف بن الديات (ت ٣٤٠هـ) : وهو مخطوط نادر، يدخل في علم (الفلك والتنجيم)، ولكنه به مادة تاريخية نادرة، فقد أفادني كثيراً في الترجمة لمؤلفه، ومعرفة عقليته وشخصيته، وأوقفني على ملمح جديد من ثقافته، وقد ربط فيه ابن الديات - براءة، ورسالة، وإحكام - بين الفلك، والرياضيات، والتنجيم، والتاريخ. وقد كشف عن مكان وجود والده (يوسف بن إبراهيم) عند اختفاء ابن المهدي، وهو ما لم نجده في غيره، ورسم لنا صورة واضحة لطبيعة التفكير في مصر في العصر الطولوني. فكانت إفادته متركزة في الفصل الأول من الباب الأول).

٢ - مخطوط (مختصر تاريخ مصر) لابن زولاق (ت ٣٨٧هـ) : وهو مخطوط اختزل فيه ابن زولاق تاريخاً كبيراً ألفه عن مصر، وهو - للأسف - مفقود، وقام بحذف الأسانيد التي تشير إلى موارد مروياته، إلا أنني أفدت منه في معرفة (تاريخ الشيعة في مصر، وتاريخ علمائه بها، والصلة الوثيقة لبنت ابن زولاق بهذا المذهب؛ مما كان له أثره في مواقفه من العبيديين بعد دخولهم مصر) فأفادني ذلك في الفصل الثالث من الباب الأول).

٣ - مخطوط (تاريخ دمشق) لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) : وقد أمدني هذا السفر الجليل الضخم بمادة كثيرة متنوعة في (الفصل الثاني من الباب الأول)، فيما يتصل بالطولونيين بالشام، ووقائع الملاعة بين ابن طولون والموثق. ويلاحظ أن هذا المخطوط الضخم اكتمل تحقيقه وطبعه منذ فترة وجيزة، وبعد إعدادي هذا الكتاب، وسأعود إلى المطبوع في المؤلفات القادمة، إن شاء الله.

٤ - مخطوط (عيون التواريخ) للكثبي (ت ٧٦٤هـ) : وترجع أهميته في إمداده هذا الكتاب - في الفصل الرابع من الباب الأول - بعدد من مؤلفات المؤرخ المصري العظيم ابن زولاق، لم تذكرها معظم المصادر الأخرى، مثل: (سيرة المادرائيين).

٥ - مخطوط (رفع الإصر)، لابن حجر (ت ٨٥٢هـ) : ونقص به التراجم التي لا تزال مخطوطة، لم تمتد إليها يد التحقيق بعد. ولا شك أنه من المصادر المهمة في (التأريخ لقضاة مصر). وقد أفادني في (الباب الثالث) من هذا الكتاب، وهو المعنى في جزء كبير منه بـ (القضاة في مصر)، فساعد على كشف النقاب عن حياة بعض القضاة، وحوى مادة غير قليلة.

ثانياً - مصادر :

ونعني بها الكتب المطبوعة، التي صنفها علماءنا الأقدمون، وهي كثيرة متنوعة، لكنني سأجهد في تصنيفها وتقسيمها، مع بيان مدى أهميتها في ذلك الكتاب، وهي على النحو الآتي :

(١) مجموعة كتب الصحابة (رضوان الله عليهم) : وهذه أفادتني إفادة هائلة في (الفصل الأول من الباب الثاني) تحديداً، وذلك في تجميع بقايا كتاب (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر) لابن الربيع الجيزي. وهذه المصادر هي (طبقات ابن سعد)، و(الاستيعاب) لابن عبد البر، و(أسد الغابة) لابن الأثير، و(الإصابة) لابن حجر.

(٢) كتب التراجم والطبقات الأخرى : وهذه كتب تُعنى بتراجم العلماء. ويمكن أن نُقر بأن لهذه النوعية من المصادر أهمية قصوى؛ إذ وجدنا بها مادة غزيرة، لا عهد لكتب التاريخ العام والمجلى بها. ويمكن أن نقسمها إلى مجموعة من الفئات :

أ - فئة عُنى بتراجم الأندلسيين (محدثين، وفقهاء، ومؤرخين، وأدباء، وأمرأء) : ومن هذه المصادر : (جذوة المقتبس) للحمدي (ت ٤٨٨هـ)، و(الصلة) لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)، و(بغية المتلمس) للضي (ت ٥٩٩هـ)، و(الحلة السراء) لابن الأبار (ت ٦٥٨هـ)، وكذلك كتابه الآخر (تكملة كتاب الصلة، ط. الحسيني)، و(ط. مدريد) على وجه الخصوص، التي أمدتنا بمادة نادرة عن بعض بقايا كتب السير التاريخية بالأندلس في (الباب الأول من الكتاب)، ولولاها لجهلنا كل شيء بهذا الخصوص تقريباً. وأفاد - كذلك - في التعريف بالمؤرخ الأندلسي (ابن جليل) في (الفصل الثالث من الباب الثاني).

وحدير بالذكر أن الكتب المتقدمة خاصة (الجدوة، والبغية) أفادتني كثيراً في التعريف بعلماء الأندلس في (الفصل التمهيدى).

وكذلك كتاب (المغرب في حلى المغرب) لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، الذي يمتاز بالدقة الكبيرة في إيراد المعلومات، وأفادني في (الفصل التمهيدى) في التعريف بعدد من الشخصيات المهمة فيه. وكذلك كتاب (نفع الطيب) للمقرئ (ت ١٠٤١هـ)، وذلك في معرض تناول الصلات الثقافية بين مصر والأندلس في (الفصل التمهيدى)، وكذلك (الحياة الاجتماعية بالأندلس). ولا ننسى كتاب (المغرب - قسم مصر) لأبي سعيد، فهو من الكتب التي لمؤلفها

الفضل الأكبر في حفظ (سيرة ابن طولون) لابن الداية، ومعظم (سيرة الإخشيد) لابن زولاق من الضياع؛ مما كان له أكبر الأثر في إتمام دراسة (الباب الأول) من هذا الكتاب، وكذلك أفاد قبلها في كتابة (التمهيد)، وعلى وجه الخصوص في دراسة (الأوضاع السياسية في مصر في القرن الرابع الهجري).

ب - وهناك مصادر ترجمت لفئات مخصوصة، منها : (ترتيب المدارك) للقاضي عياض (ت ٥٤٤هـ)، وفيه ترجم لأعيان مذهب الإمام مالك (ووزعهم على طبقات، وترجم لعلماء كل إقليم على حدة). وهو مصدر غاية في الأهمية، وبه نصوص ليست في غيره، منها : أجزاء من كتاب (أعيان الموالى) للكندى، و(أخبار المحدثين والفقهاء) للخشنى، وإن عابه أنه لم يميز بينه وبين (القضاة)، و(طبقات المالكية)، ولم يوضح منتهى مقبساته من تلك الكتب المفقودة. وأعتقد أن (طبعة مكتبة الحياة) في بيروت، تحتاج إلى تحقيق من جديد؛ نظراً لكثرة ما فيها من تحريفات وتصحيحات، وعدم خدمة النصوص في الحواشى، وعدم دقة ووفاء الفهارس المفصلة. وقد طالعت طبعة مغربية لهذا الكتاب، فلعلمها أفضل من حيث ضبط النص، لكنها لم تخدمه هي الأخرى في الحواشى؛ مما يتطلب جهداً جديداً في هذا المضمار.

وكتاب (طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة (ت ٦٨٨هـ) كتاب مفيد في بابه، ساعدنى على تتبع أخبار (يوسف بن إبراهيم)، والوقوف على كثير من بقايا كتبه، وحياته في بغداد، ودمشق، وذلك كله أفادنى في كتابة (الفصل الأول من الباب الأول). وكذلك كان له دور كبير في دراسة (طبقات الأطباء) لابن جلدل في (الفصل الثالث من الباب الثاني).

وهناك كتاب (تقذيب التهذيب) لابن حجر، وهو خاص بتراجم المحدثين، الذين لهم مرويات في كتب الحديث الستة المشهورة. ولما كان الحديث قاسماً مشتركاً ثقافياً بين معظم علماء القرن الرابع، وعدد من مؤرخيه، فقد كان الاحتياج إلى هذا المصدر كبيراً جداً، وتغلغل مادته في كافة أبواب الكتاب، وعلى رأسها (الباب الثاني).

ج - وهناك كتب التراجم التي عُنيت بالعلماء، والأعيان، والأدباء عامة، ومنها : (معجم الأدباء) لياقوت (ت ٦٢٦هـ)، وهو مصدر مهم ترجع أهميته إلى مطالعة مؤلفه كثيراً من الكتب التاريخية المفقودة الآن، كان قد رآها بنفسه رأى العين. ومن هنا وجدنا لديه منها مادة ليست عند غيره، فهو أفضل من ترجم لابن الداية، وبه نص مطول من (سيرة العزيز)، لابن زولاق. وكذلك ترجم لابن زولاق ترجمة بما ليس في المصادر الأخرى. وكل ذلك أفاد في (الفصلين : الأول، والرابع من الباب الأول) من الكتاب. أما (الفصل الثاني من الباب الثاني)، فحوى ترجمة للخشنى المؤرخ الأندلسي، كشفت النقاب عن عمق الصلات بينه، وبين مؤرخ مصر (ابن يونس).

وهناك كتابا : (وفيات الأعيان) لابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ-)، و(الوفاء بالوفيات) للصفدي (ت ٧٦٤هـ-)، وكلاهما أفاد في كتابة أجزاء مهمة من فصول الكتاب ككل، فكلاهما أسهم في معرفة الكثير عن تراجم حكام مصر، فأفادا في كتابة (الحياة السياسية) في (التمهيد) خاصة أولهما، وكذا ما عُرف به ابن خلكان من دقة في إيراد الأنساب، وضبط الأعلام. وأفاد في ترجمة ابن زولاق في (الفصل الثالث من الباب الأول). وبه تراجم لبعض (قضاة مصر)، أفادت في كتابه (الفصل الأول من الباب الثالث) من هذا الكتاب. وبالنسبة لكتاب الصفدي، فقد كان من المصادر المهمة، التي أسهمت تراجمها في الإلمام بـ (الحياة الثقافية في القرن الرابع الهجري).

د - وتوجد مصادر للتراجم، اهتمت بالعلماء الموجودين في قُطْر بعينه : وعلى رأس تلك المصادر (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ-)، الذي اهتم بالترجمة لكل من نزل حاضرة الخلافة (بغداد). وبه ترجمة طيبة للقاضي ابن حَرْثويه أحد كبار قضاة مصر، وأفادنا في (ترجمة ابن الربيع في الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب). وبعد، فإن (تاريخ بغداد) موسوعة علمية كبرى، نحتاج إلى من يقوم بتحقيقها، وإخراجها في ثوب جديد.

وهناك رائعة المقرئ (المقفى الكبير)، الذي أخرج الموجود منه في ثمانية مجلدات كبار، بفهارسه المفصلة، ذلك المصدر الذي ترجم فيه مؤرخنا لكل من وقف عليه من العلماء، الذين قدموا مصر عبر قرون طويلات ممتدات (من قبل الإسلام حتى عصر المؤلف المتوفى سنة ٨٤٥هـ-). ومن ثم، فإن فائدته لا تقف عند باب من أبواب الكتاب، بل تتوزع عبر مختلف الأبواب (في الفصل التمهيدى : به كتاب تكين إلى العبيدين، وهو مهم للغاية في تفسير توالى حملاتهم على مصر، وفي نجاح شعب وحيش مصر في صدّها، وأورد تفاصيل الخلاف بين كافور وأونوجور). وفي (الفصل الثالث من الباب الأول) نقلنا عنه خطبة ابن زولاق المؤرخ بين يدي المعز لدى دخوله مصر، وأكد تشييعه، وتولية منصب المظالم لبني عُبيد في مصر، وكان ذلك من المعالم الجديدة في ترجمة ذلك المؤرخ. وبه العديد من تراجم (قضاة مصر)؛ مما ساعدنا في دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث).

هـ - وأخيراً، أفاد هذا الكتاب من مصادر التراجم، التي جمعت - إلى جانب ذلك - ذكر الحوادث التاريخية. ويأتي - في المقام الأول - موسوعة الذهبي، التي لعلها قاربت الخمسين مجلداً حتى الآن (تاريخ الإسلام)، الذي طالعتُ منه (ثمانية وعشرين مجلداً)، تخص القرون الأربعة الأولى من الهجرة، وهو مصدر به ما ليس في غيره من المصادر الأخرى (خاصة ذكره تاريخ ميلاد ابن الربيع الجيزي، وما أفاده ذلك في ترجمته، والتعريف به، ودراسته، إلى غير ذلك من الفوائد الجمة المبثوثة في تضاعيف أبواب هذا الكتاب).

(٣) كتب التاريخ العام : ويمثلها الطبرى في (تاريخ الرسل والملوك). ورغم ما يقال عن معاييب النظام الحولى الذى اتبعه في تنظيم كتابه (من تقطيع أوصال الحادثة الواحدة الممتدة عبر السنين)، ورغم قلة المادة العلمية التى أوردها خاصة بمصر، إلا أنه لم يخلُ من بعض الفوائد، التى أفاض بها على هذا الكتاب (في ذكره تواريخ أحداث مهمة، أهل ذكرها ابن الداية، والبلوى في سيرتهما، وذلك في الفصل الثانى من الباب الأول، وساعدنا - أيضاً - على توثيق أشعار، وردت على لسان الواسطى، وهو يكتب للمعتضد يحرضه على حمارويه).

وهناك - أيضاً - كتابا : (الكامل) لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ-)، و(نهاية الأرب) للثوري (ت ٧٣٣هـ-). وقد أنادا في كتابة (الفصل التمهيدي، خاصة ما يتصل بالجانب السياسى منه). وأفادنا النويرى في (الفصل الرابع من الباب الأول) في جزئية تتعلق بسيرة (جوهر) لابن زولاق.

(٤) كتب التاريخ المحلى : وهذه مصادر مهمة، ترجع أهميتها إلى أنها تركز وتعمق اهتمامها بتاريخ إقليم محدد، أو إقليمين مرتبطين معاً. ومن أهم هذه المصادر : كتاب (المقتبس) لابن حيان القرطى (ت ٤٦٩هـ-)، وهو أعظم مصادر الأندلس قاطبة، رغم ضياع جزء ليس بالقليل منه، لكن الأجزاء التى حُققت وصدرت منه، توقفنا على عظمة هذا الكتاب، وعبقريه صاحبه. وقد أفادنى المجلد الذى حققه د. محمود مكى، فيه مادة لا بأس بها، ساعدت في دراسة المؤرخ ابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ-) في (تاريخ علماء الأندلس)، وبه كذلك مادة من كتاب (قضاة قرطبة) لمحمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ-)، أثبتت أهميته عند دراسته. ولا شك أن لكليهما أهمية قصوى في كتابة الشق الخاص بالمؤرخين الأندلسيين في (الباب الثانى). ويضاف إلى ذلك الدروس والفوائد الجمة، التى استقيناهما من عمل المحقق فى دقته، وعمقه، وغزارة عمله، وثراء حواشيه وتعليقاته. وبالنسبة للجزء الخامس من هذا الكتاب، فقد بلغت أهميته المنتهى فى كتابه (الفصل التمهيدي) بجانيه : (السياسى، والاجتماعى)، فهو مصدر أساسى موثوق به فى فترة حكم الناصر، وسياسته الداخلية، ثم أخبار غزواته ضد نصارى الإيبان بالشمال، خاصة (غزوة الخندق) سنة ٣٢٧هـ-. وكذلك الجزء الخاص بجانب من حكم (المستنصر) من سنة ٣٦٠ - ٣٦٤هـ-، وتعليق ابن حيان الرائع، وتحليله أسباب الفتنة، وعلاماتها الكبرى مع نهاية القرن الرابع الهجرى بالأندلس.

وكتاب (بغية الطلب) لابن القلم (ت ٦٦٠هـ-) : وهو خاص بتاريخ حلب، وبه نصوص نادرة من بقايا مصادر تاريخية مفقودة لابن زولاق. فأفادنا فى كتابة (الفصلين الثانى، والرابع من الباب الأول)، خاصة فيما يتصل بتاريخ بنى طولون بالشام. وصاحبه رجل ثقة، ودقيق، وقدم إلى مصر، وذكر لنا أسانيد مروياته.

دراسة في أهم المصادر والمراجع

وكتاب (البيان المغرب) لابن عذارى (توفي في ق ٧هـ) : وهو خاص بتاريخ المغرب والأندلس، ونقلت عنه مادة غزيرة في (الفصل التمهيدى)، تتصل بالسياسة الداخلية والخارجية للأندلس في عهدي : الناصر، والمستنصر، وكذلك أخبار (الدولة العارمة).

وكتاب (أعمال الأعلام، قسم الأندلس)، لابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) : ومؤلفه علامة فيما كتب، وقد استمعت بلغته وأسلوبه البليغ، وهو يصوغ الأحداث التاريخية برشاقة وعمق كبير، فنقلت عنه ما يتصل بمبايعة الفقهاء لـ (هشام المؤيد) بالخلافة في الأندلس، ونص ولاية العهد لـ (شنجول)، وأسباب الفتنة العارمة ببلاد الأندلس نهاية ق ٤هـ.

وكتاب (اتعاظ الحنفا) للمقرئى (ت ٨٤٥هـ) : وهو كتاب اختص به صاحبه الدولة العبيدية في مصر والشام بالتأليف. ومؤلفه دقيق فيما يورد، ويعتمد على وثائق مفيدة، وشخصيته حاضرة، فيعلق أحيانا على بعض الأحداث والوقائع. وقد أفادنى كثيرا في عرض النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية في مصر في العهد العبيدى. وحوى بعضاً من (كتاب سيرة المعز) لابن زولاق، خاصة أحداث سنة ٣٦٥هـ (التي يبدو أنه نقلها عنه كاملة). فخدم الكتاب في (الفصل التمهيدى، والفصل الرابع من الباب الأول).

وكتاب (النجوم الزاهرة) لابن تَغْرَى بُرْدَى (ت ٨٧٤هـ) : وهو موسوعة تاريخية مصرية مفصلة، تبدأ من فتح مصر إلى عصر المؤلف في القرن التاسع الهجرى. وقد أفادنا بمعلومات قيمة جديدة، لا تجدها بهذا الوضوح والتفصيل في غيره (خاصة في كتابة التاريخ السياسى لمصر في ق ٤هـ). وكذلك أفاد - من خلال تراجمه الكثيرة - في دراسة الولاة والقضاة في (الفصل الأول من الباب الثالث) من الكتاب.

وأخيراً، كتاب (حسن المحاضرة) للسيوطى (ت ٩١١هـ) : وهو كتاب مهم في النواحي السياسية، والثقافية في مصر بما احتواه من أحداث سياسية، وتراجم عديدة لعلماء مصر من محدثين، وفقهاء، ومؤرخين، وغيرهم. وقد كان المصدر الأول الذى أعاننى في إعادة تشكيل وتكوين كتاب ابن الربيع الجيزى عن (الصحابه)، فأفاد في (الفصل الأول من الباب الثانى)، وكذلك أفاد في كتابة (الفصل الأول من الباب الثالث). بما حواه من مادة عن تاريخ مصر، وتراجم ولائها وقضاها. وأعتقد أن السيوطى ألف هذا الكتاب على عجل، فبه عدد غير قليل من الأخطاء التاريخية، ولعل النساخ أسهموا في الوقوع في الكثير منها، إلى جانب أن محققه لم يذل فيه جهداً، يتناسب مع كتاب كهذا، يحتاج إلى مزيد توثيق لنصوصه، فكثرت التحريفات والتصحيحات فيه، إلى جانب عدم خدمة النصوص بالشرح والتعليق الكافيين في الحواشى.

(٥) كتب الحضارة والنظم : وهى المصادر التى تركز على الأسس النظرية السياسية، وتطبيقها العملية - مثلاً - في شريعة الإسلام في مجال الحكم والإدارة والقضاء. ومن الكتب

المفيدة في هذا المجال : (الأحكام السلطانية، والولايات الدينية)، للماوردي (ت ٤٥٠هـ)، و(الأحكام السلطانية) لأبي يَغْلَى القَرَاء (ت ٤٥٨هـ). وهما كتابان جيدان يساعدان على تقويم الولاة والقضاة في (الباب الثالث) من الكتاب. وكذلك يدخل في مصادر النظم، الكتب التي تناولت النظم الإدارية، ونواحي الخطط والعمران، ويأتي على رأسها : (الانتصار) لابن دُقَمَاق (ت ٨١٤هـ)، فهو رغم ضياع معظمه، وحاجته الماسة إلى التحقيق، إلا أن ما بقي منه يشهد بدقة مؤلفه، وبراعته في مجال (الخطط والعمران).

وهناك (صبح الأعشى) للقلقشندي (ت ٨٢١هـ) : وهو مفيد في كتابة (الفصل التمهيدى) في التعريف بالنواحي الإدارية والتنظيمية (مثل : نقابة الأشراف، والطلابين)، وكذلك أفادنا في النواحي الاجتماعية، حيث ذكر الكثير من مظاهر الاحتفالات والأعياد لدى القبط، والمسلمين في العصر العبيدى خاصة.

وأخيراً، رائعة المقرئى (الخطط) : وهو كتاب جامع حافل بكل مفيد سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً في (الفصل التمهيدى من الكتاب). وبالنسبة للفصل الرابع من الباب الأول من الكتاب، فقد احتفظ لنا بقطعة مهمة من (سيرة الماذرائيين) لابن زولاق، وكذلك احتفظ لنا بقدر كبير من (سيرة المعز) لابن زولاق أيضاً.

(٦) كتب السير التاريخية : ويأتي على رأسها : (أخبار الراضى بالله، والمتقى لله) للصُّولى (ت ٣٤٥هـ). وتنبع أهمية هذا الكتاب إلى معاصرة مؤلفه للأحداث، ومصاحته للمتقى، فهو يكتب أخباره عن كُتُب، ويعرض لأدق دقائق حياة (الراضى)، وعمله وأمراضه، وبطائه، وحقيقة صلة الإخشيد به. ومن ثم، أفادنا في (الفصل التمهيدى).

وكتاب (المجالس والمسايرات) للقاضى النعمان (ت ٣٦٣هـ) : وهو من المقرئين الملازمين للمعز العبيدى، فسجّل لنا حواراته وكلامه، وحكمه ومواعظه، ومواقفه. إلا أننا يجب ألا نُسَلِّم بكل ما فيه؛ لأنه يكتب عن عصبية وهوى. وعلى كل، فقد أفادنا في معرفة أفكار المعز وأهدافه، وعلاقات بلاده بالأمويين في الأندلس، وسر الصدام والتعادى بين الجانبين. وهذا مفيد في (الفصل التمهيدى).

(٧) كتب المؤلف والمختلف، والأسماء والكُنى، والأنساب : وهذه النوعية من المصادر قد تبدو في نظر البعض غير ذات أهمية. والحقيقة أنها ذات أهمية قصوى؛ لأن ضبط الأعلام، وتحقيق صحة الأنساب من عمل المورخ الحق:

أ - كتاب (الإكمال) لابن ماکولا البَحَّانة المدقّق (ت ٤٧٥هـ). بمجلداته السبعة يُعد من مصادر الكتاب المفيدة؛ وقد حَظِيَ الكتاب بفهرس محتويات في كل مجلد من مجلداته، وتحقيقات

وتعليقات واسعة في حواشيه، باستثناء (المجلد السابع)، الذي حققه محقق آخر (هو نايف العباس)، فلم يحظ بدقة وجودة تحقيق المجلدات الستة الأولى. وعلى كل، فقد أفدنا منه بعض الإفادة في (العلماء الموالي) للكندى (في الفصل الأول من الباب الثاني). وبالكتاب تراجم العديد من (عمال الخراج، والولاة، والأمراء، وأصحاب الشرطة، وغيرهم)؛ مما ساعد على دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث). وإني لأرجو أن يُعاد طبع الكتاب بعد تنسيقه، وتحسين إخراجة، وعمل فهرس مفصلة له، تيسر على الباحثين استخدامه، وتوفيقهم على المعلومة المرادة بسرعة فائقة، نظراً للمنهج المعقد الذي اتبعه ابن ماكولا في تبويه. ويستحق هذا المؤرخ دراسة متأنية منهجية لكتابه المذكور.

ب - كتاب (الأنساب) للسمعاني : وهو يأتي في المقام الثاني بعد (الإكمال) لابن ماكولا. وقد عَمَّت فائدته في (البابين : الثاني، والثالث)، وامتاز بتحقيق نصوصه، وضبطه أعلامه بالحروف، وتنظيم فقراته. وترجم للكثير من الشهود، والقضاة في مصر، وذلك مفيد في دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث). والكتاب - بعد طبعته الجديدة - ينقصه بعض التصويبات، والفهارس التفصيلية، التي تيسر سبل استخدامه.

ج - كتاب (تبصير المنتبه) لابن حجر : وفيه تتجلى دقة ابن حجر في الضبط، وتوزعت فوائده على أبواب الكتاب المختلفة.

(٨) كتب الجغرافية : وهي كتب تفيد في التعريف الجغرافي بالأماكن، التي يرد ذكرها في الأحداث التاريخية، لكنها لا تخلو في الكثير من الأحيان من مادة تاريخية نادرة مهمة تفرد بها. وقد أفاد هذا البحث من كتاب (المسالك والممالك) للإصطخرى (المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري)، في الوقوف على وصف الفسطاط في ذلك القرن، ومظاهر الثراء الاقتصادي بها، وكثرة حلقات العلم بمساجدها، وكثرة المصلين بها، خاصة يوم الجمعة (فأفاد في رصد الحياة الاقتصادية، والنفاية في مصر في ذلك القرن). وهناك كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل (ت ٣٦٧هـ)، وقد أفاد في معالجة التمهيد، فيما يخص الأوضاع الاقتصادية بالأندلس في عهد الناصر، ورواج ازدهار الحياة هناك، ووجود تبادل تجاري مع المشرق. وكذلك تعرض لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية، وطبيعة أهل الأندلس، وأوردنا ذلك في مكانه من (الفصل التمهيدي). وبعد كتاب (نزهة المشتاق) للإدريسي (ت ٥٦٠هـ) من المصادر المفيدة في التعريف بالبلدان الأندلسية الواردة في الكتاب، وكذلك في وصف المعالم العمرانية بالأندلس (كجامع قرطبة مثلاً)، وذلك عند التعرض لذلك في (التمهيد).

وأخيراً، يأتي كتاب (معجم البلدان) لياقوت (ت ٦٢٦هـ) : وهو على رأس المصادر التي تفيد في التعريف بالأماكن والبلدان بدقة كبيرة. فقد زار مؤلفه معظم البلدان التي وصف

مواقعها في كتابه، وضبطها بدقة (بالحروف في معظم الأحيان). وقد اعتمدت عليه في التعريف — (معظم ما مرَّ من الأماكن في الكتاب، سواء كان ذلك في مصر، أم بالأندلس). ويمتاز على غيره من المصادر الجغرافية بأنه كان يتطرق إلى ذكر أحداث تاريخية وقعت بالمكان الجغرافي الذي يُعرَّف به، بل يقوم — كذلك — بالترجمة لعدد من أبرز علمائه المنتسبين إليه. ومن هنا، فلا غرو أن نتخذه مصدراً لعدد من الأحداث التاريخية.

وأخيراً، فإن الطبعة الجيدة الجديدة المحققة، التي اعتمدنا عليها، لها فهارس مفصلة، يسَّرت لنا الكثير، ونأمل أن يصدر العاملون في الحقل الجغرافي كتاباً، يذكرّون فيه ما يقابل تلك الأماكن القديمة في العصر الحديث، كما نرجو أن تراجع بعض الفهارس؛ لتكون أكثر دقة، وأن تكون الإحالات لها على (أرقام الأجزاء، والصفحات، لا أرقام التراجم)؛ كي يكون العثور على المعلومة أيسر منالاً، فبعض التراجم يمتد عبر صفحات طويلة.

(٩) كتب اللغة : وهذه كان لا بد منها؛ للوقوف على معاني بعض الألفاظ الواردة في النصوص التاريخية؛ حتى يحسن توجيه النص وفهمه، وحسن الاستنباط منه. وقد اعتمدت كثيراً على (لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ثم يليه (القاموس المحيط) للفيروزابادي (ت ٨١٧هـ)، الذي كنا نجد به بعض المعلومات التاريخية المهمة. واعتمدت — أحياناً قليلة — على (مختار الصحاح) للرازي (ت ٦٦٦هـ). وقد نجحت في الوقوف على المعاني الحقيقية لمعظم ما جاءني من ألفاظ، وعبارات وردت في المصادر. وجدير بالذكر، أنني كنتُ أستعين بأحد المعاجم الحديثة (المعجم الوسيط) كثيراً؛ لما يمتاز به من وضوح وشمول، وسهولة ويسر في التناول، فيكون كالضوء الذي يرشدني للبحث في المصادر المعجمية الكبرى. وقد امتاز باحتوائه على كلمات محدثة، ومفاهيم جديدة للألفاظ، نفتقدها في المعاجم القديمة.

(١٠) كتب الحديث النبوي الشريف : وهذه استعنتُ ببعضها — قدر ما تيسر لي — في معرفة مظان ورود عدد من الأحاديث النبوية الشريفة بالكتاب (خاصة التمهيد، والفصل الأول من الباب الثاني). فاستخدمتُ في ذلك التوثيق عدداً من هذه المصادر، مثل: (صحيح الإمام البخاري، ومسلم، ومسند أحمد، ومستدرک الحاكم، والمعجم الكبير للطبراني، وغيرها).

ثالثاً - مراجع :

استعان الباحث بمطالعة العديد من الكتب الحديثة، التي لها نظرات جديدة مفيدة، ووجهة نظر معتبرة في موضوع الكتاب، منها على سبيل المثال:

١ - (مصر في عصر الإخشيديين)، للدكتورة سيدة كاشف : وهي دراسة رائدة علمية موثقة في ذلك المجال، درست العصر من مختلف زواياه، وأفادتنا إفادات طيبة في (التمهيد)،

ومناقشة عصر الإخشيد، ودراسة سيرة ابن زولاق عن (الإخشيد) في (الفصل الثالث من الباب الأول). ورغم مضي حوالى نصف قرن على تأليفها هذا الكتاب، فلا يزال الباحثون يعتمدون على هذا المؤلف حتى الآن، رغم وجود بعض هفوات يسيرة هنا أو هناك، نشر إليها في مكانها من الكتاب.

٢ - (تاريخ الدولة الفاطمية) د. حسن إبراهيم حسن : وقد أفادنا هذا المؤلف في دراسة علاقة العبيدين بالروم في عهد العزيز (وذلك في الفصل التمهيدى).

٣ - (الأدب الأندلسى)، للدكتور أحمد هيكمل : وقد أفادنا هذا الكتاب القيم في كتابه (الحياة الثقافية والاجتماعية بالأندلس) في (الفصل التمهيدى).

٤ - (معالم تاريخ المغرب والأندلس)، للدكتور حسين مؤنس : وهو كتاب فريد في بابه، استفدت منه خلاصة علمية مركزة عن رأيه في عصر الناصر، والمستنصر، والمنصور (المزاي، والعيوب)، وكذلك تحليله للفترة في نهاية عهد العامين. (وأفادنى ذلك في الفصل التمهيدى).

٥ - (دولة الإسلام في الأندلس)، للأستاذ محمد عبد الله عنان، وكتاب (العلاقات بين الأندلس الإسلامية، وإسبانيا النصرانية) للدكتور رجب عبد الحليم. وقد استفدت منهما في التركيز على العلاقات مع نصارى الشمال (وذلك في الفصل التمهيدى).

٦ - وهناك مجموعة من المراجع جمعت مؤرخى مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى، وألفت عليهم الأضواء، ترجمة، ومؤلفات، فساعدنى ذلك على دراستهم في مختلف أبواب الكتاب. ومن ذلك : (تاريخ الأدب العربى) لبروكلمان، و(تاريخ التراث العربى) لسزكين، و(التاريخ العربى والمؤرخون) لشاكر مصطفى.

٧ - (القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة)، للدكتور البرى : وقد أفادتني هذه الدراسة القيمة في تحليل، ومناقشة بعض القضايا المثارة في كتابى الكندى : (الولادة)، و(القضاء)، وذلك في (الفصل الأول من الباب الثالث).

٨ - مجموعة من الكتب الطبية المفيدة في دراسة النظام الإدارى، والقضائى في مصر : على رأسها : (الشرطة في مصر الإسلامية)، لأحمد عبد السلام ناصف، وكتاب (الإدارة المحلية في مصر في عصر الولاية) للدكتورة صفاء حافظ، وكتاب (القضاء في مصر الإسلامية من الفتح الإسلامى حتى قيام الدولة الطولونية) د. عبد المجيد بدوى. ولا شك أن هاتيك المؤلفات كان لها دور طيب في دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث من الكتاب).

٩ - كتب مفيدة في معالجة (النظام القضائى بالأندلس) : منها : (تاريخ القضاء في الأندلس من الفتح الإسلامى إلى نهاية ق ٥٥هـ)، للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف. وكتاب

(نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي) لظافر القاسمي. وهي مفيدة في كتابة (الباب الثالث).

رابعاً - دوريات :

هناك مجموعة من الأبحاث والمقالات أفادت الكتاب، منها : بحث الدكتور حسن علي، عن (أبعاد النشاط السياسي لحملات الفاطميين على مصر). وهو بحث مفصل يعالج بدقة وإسهاب وتحليل طيب هذه الحملات. وقد أفادني كثيراً في معالجة الجانب السياسي في مصر (في الفصل التمهيدى). وكذلك ساعدني في تفهم سياسة العبيديين في مصر بحث د. فهمى عبد الجليل عن (أهل الذمة والإدارة في العهد الفاطمى).

وللدكتور محمود مكى بحث عن (التشيع في الأندلس)، استفدت منه في دراسة (الفصل التمهيدى)، في الجزئية الخاصة بعلاقات العبيديين بالأمويين في الأندلس.

وبخصوص الأبحاث المتصلة بعرض التراث التاريخى الأندلسى، والتعريف به، وهو ما أفادني في (الباين : الثانى، والثالث من الكتاب)، طالعت بحث الدكتور العبادى عن (التراث العربى الإسلامى بالأندلس).

خامساً - رسائل جامعية :

طالع الباحث عدداً كبيراً من الرسائل، التى أفادته في كتابه، ويسرت له سبيل البحث فيه، منها :

١ - (التخطيط الإعلامى للدعوة الفاطمية في مصر) للباحث شعبان أبى اليزيد، بكلية اللغة العربية بالأزهر، وهى رسالة نجح فيها صاحبها في الربط بين مصادر التاريخ الإسلامى، ومفاهيم الإعلام الحديثة، فطَوَّع المادة التاريخية للكشف عن دعايات العبيديين، وتخطيطهم الذكى، وإجادتهم إطلاق الشائعات، وسياسة جوهر الذكية في بنود أمانه الذى منحه المصريين، فتمكن من إخضاعهم له بسهولة ويسر. وقد زادتني هذه الرسالة معرفة بطبيعة سياسة العبيديين في مصر.

٢ - رسالة ماجستير : (أحمد بن يوسف المصرى، وكتابه : المكافأة) للباحث سيد محمد قطب، بكلية الألسن/جامعة عين شمس. كتبها صاحبها ببراعة واقتدار، لفت نظرى إلى الجديد في الترجمة لأحمد بن يوسف، وعرفنى نواحي ثقافته المختلفة، وطبيعة عصره وتفكيره، وطبيعة شخصيته. وكل ذلك كان له أثر طيب فيما كتبت عنه، وعن دراسة مؤلفه عن (سيرة ابن طولون) في (الفصلين : الأول، والثانى من الباب الأول).

٣ - رسالة دكتوراه : (الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر، والمستنصر) للباحث مصطفى محمد إبراهيم، بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر. وقد أفادتني تلك الدراسة الجديدة في الإمام بالحياة الثقافية في الأندلس في (الفصل التمهيدى). وكذلك تعرفت منجزات مؤرخى

دراسة في أهم المصادر والمراجع

الأندلس في ذلك العهد الزاهر، وأفادتني في دراستي المفصلة التحليلية المنهجية لمؤلفات هؤلاء المؤرخين في (البابين : الثاني، والثالث) من هذا الكتاب.

سادساً وأخيراً - مراجع أجنبية :

لم تسنح للباحث الفرصة كافية لمطالعة قدر من المراجع الأجنبية؛ نظراً لضخامة وكثافة المراجع العربية، لكن ذلك لم يمنع من مطالعة بعض الكتابات، التي تطرقت إلى هذا الموضوع المنهجي، الذي يحتاج إلى مراجعة المصادر العربية أكثر من مطالعة ما كُتب بأفلام أجنبية. ومما أفاد في هذا الموضوع دراسة (بونس بويجس) بالإسبانية عن عدد من مؤرخي الأندلس الداخليين في الدراسة، مثل : ابن الفرضي، والحشني، وغيرهما. وكذلك ما كتبه توري في (مقدمة فتوح مصر لابن عبد الحكم)، وجست في مقدمة (الولاة، والقضاة للكندي) من دراسة منهجية في تحليل الموارد، وكذلك ما ذكر عن ابن الربيع ومؤلفاته، وما ورد من أسماء مؤلفات الكندي المفقودة الأخرى، ومحاولة بيان ما تدور حوله من موضوعات.

وهكذا، سطر قلمي هذه العجالة السريعة، التي كتبها - بإيجاز - عن عدد من مصادر ومراجع الكتاب، وإيجابيات بعضها وسلباتها، ومدى إفادتنا منها في أبواب الكتاب المختلفة.

القسم الأول

الدراسة التمهيدية لمناهج المؤرخين
(مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى)

ويشمل هذا القسم:

- أولاً - الأوضاع السياسية في مصر والأندلس .
- ثانياً - الأوضاع الاقتصادية في مصر والأندلس .
- ثالثاً - الأوضاع الاجتماعية في مصر والأندلس .
- رابعاً - الأوضاع الثقافية في مصر والأندلس .

مدخل

نحاول - في صدر دراستنا عن: (التاريخ والمؤرخين في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجرى) - أن نعطي صورة واضحة شاملة، بأسلوب مركز، لمصر والأندلس في القرن المشار إليه سلفاً. ويأتى ذلك من خلال رسم الملامح العامة، وبيان الخطوط العريضة للأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في كلا الإقليمين موضع الدراسة.

وغنى عن البيان أن هذا التمهيد لا يُقصد لذاته قصداً، وإنما هو مجرد وسيلة فعّالة لخدمة الموضوع الأساسى، بمعنى: أننا ما دمنا ندرس ونخلل المصادر التاريخية، التى أبدعتها قرائح مؤرخى البلدين، فلا بد من إلمامة - تُقَدَّر بِقَدْرها - بالظروف السياسية، التى نشأ وعاش - فى ظلها - هؤلاء المؤرخون. ولما كانت السياسة موجّهة للاقتصاد فى ذلك العصر - وفى كل عصر - رأينا الإبانة عن أهم الملامح والمعالج الاقتصادية المؤثرة فى كلتا المنطقتين. ومعلوم أن مردود الأوضاع السياسية والاقتصادية ينعكس - سلباً وإيجاباً - على أفراد المجتمع، ويؤثر فى تشكيل أدقّ دقائقه، وأخصّ خصوصياته، من طبائع وسلوكيات، وطرائق للتفكير، وعادات وتقاليد، ومطاعم ومشارب، وأعياد وأساليب احتفالات، إلى غير ذلك من الأمور المهمة، التى حَدَثَ بنا لبيان مجمل الأحوال الاجتماعية.

وأخيراً، فإن الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية جميعها نصب - فى النهاية - وتؤثر فى تشكيل الأوضاع الثقافية لأى مجتمع من المجتمعات. وإذا كان المؤرخون فى طليعة المثقفين المتأثرين بكل هاتيك الظروف السابقة، أيقناً ضرورة التعرض لها؛ لأجل إخراج دراسة محكمة عن التاريخ والمؤرخين فى ذلك العصر، فالمؤرخ يراقب - عن كثب، وعلى بصره - الأحداث التى يعاصرها ويتأثر بها حتماً، سواء عند التأريخ لها، أم الكتابة عما سبقها. ولما كانت كتابات المؤرخين هى خلاصة تجاربهم وأفكارهم وثقافتهم فى هذه الحياة؛ فقد رأيت التعرض السريع للحو الثقافى العام فى كل من: مصر، والأندلس؛ كى أبرز صورة واقعية للعلم وللعلماء عامة (وللمؤرخين خاصة)، تأثرت - ولا شك - بمعطيات السياسة، ومتجهات الاقتصاد، وخصائص المجتمع، فأفرزت لنا ما نعتز به من كتابات تاريخية فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، مهمة هذه الدراسة أن تجلّى جوانب هذا التأثير من خلال تراجم المؤرخين، ودراسة مؤلفاتهم بواسطة بيان محتوياتها، ومصادر معلوماتها، ومناهج عرضها، ونقد وتقويم لبعض أحداثها، كل ذلك فى إطار منهجى مقارن يضع الكتابات التاريخية المصرية والأندلسية فى الميزان.

أولاً - الأوضاع السياسية في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري

(٣٠٠ - ٣٩٩ هـ / ٩١٢ - ١٠٠٨ م)

أ - الأوضاع السياسية في مصر:

بعد سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسي (محمد بن سليمان) في مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ هـ^(١)، عادت مصر ثانية إلى عهد التبعية للخلافة العباسية. وورد كتاب الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) بولاية الحسين بن أحمد على الخراج، وجعل إليه النظر في أمر بني طولون وضياعهم، ثم ورد منه كتاب آخر بولاية عيسى التوشري^(٢) على مصر^(٣).

تسلم الوالي الجديد عمله في مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٩٢ هـ^(٤). وفي عهده وقعت أحداث ابن الخليفة^(٥)، ذلك القائد المصري الذي تخلف عن جيش محمد بن سليمان عند مغادرته مصر، واستمال إليه بعض الجنود وغيرهم حتى كثرت جموعه، يبغي الاستقلال بالبلاد عن سيطرة الخلافة. ولم يستطع الوالي التوشري مقاومة ابن الخليفة؛ الذي

(١) الكندي: كتاب الولاة (ط. جست) ص ٢٤٧.

(٢) له ترجمة في (سير أعلام النبلاء)، للذهبي ٤٦/٤١ (ط. مؤسسة الرسالة - بيروت)، وأخرى ضافية في: (الحجرات الزاهرة)، لابن تغري بردي (ط. دار الكتب العلمية - بيروت) ج ٣ ص ١٦٢-١٧٣. وذكر السمعاني أن هذا اللقب منسوب إلى (توشري)؛ ولم يرد تعريف به (الأنساب، ط. دار الكتب العلمية - بيروت) ٥٣٦/٥.

(٣) الكندي: كتاب الولاة ص ٢٥٨.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٥٨.

(٥) لمزيد من التفاصيل تراجع: تاريخ الطبري (ط. دار المعارف): ج ١٠ ص ١١٩-١٢١، ١٢٨-١٢٩، وصفة تاريخ الطبري، لعريب بن سعد القرطبي (ضمن ذبول تاريخ الطبري، ج ١١، ط. دار المعارف) ص ٢٠-٢١، و(الكامل) لابن الأثير (ط. دار الكتب العلمية - بيروت)، ج ٦ ص ٤٢٨، والعبير للذهبي ٤٢٢/١-٤٢٣، و(تاريخ الإسلام) للذهبي ج ٢٢ ص ١٢، ١٤، والبداءة والنهاية، لابن كثير (ط. دار الريان للتراث) ج ١١ ص ١٠٧، وتاريخ ابن خلدون ٤٤٤/٣ (ط. دار الفكر)، و(الحجرات الزاهرة) لابن تغري بردي ج ٣ ص ١٦٤-١٦٩، ولين بول: سورة القاهرة (مترجم) ص ٩٥، و(مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين)، للدكتور حسن محمود، ود. سيدة كاشف: ص ١٢٨-١٢٩، و(مصر العربية الإسلامية)، للدكتور الخربوطلي ص ٨٦، والعلاقات بين الشام ومصر، للدكتور زبد ١٧٦-١٧٧، والشرطة في مصر الإسلامية، لأحمد ناصف ١٨٦، ٢٢١، ورسالة دكتوراه: (التيارات المذهبية والزعات التحررية) لحسن عبد الحميد حبر ص ١٨٦-١٩٢.

ألحق الهزيمة ببعض القواد؛ مما جعل الخلافة تُهْرَع إلى إرسال جيش بقيادة فاتك مولى المعتضد، ومعه القائد بدر الحَمَامِي^(١). وازداد قلق الخلافة، حتى إن الخليفة نفسه أعد مضاربه، ينفى الخروج على رأس جيش آخر؛ للقضاء على هذا الناصر، إلا أن الأخبار توافدت بهزيمة ابن الخليفة وأُسِرَه لست خلون من رجب سنة ٢٩٣هـ^(٢)، ثم أمر به وحُمِلَ إلى بغداد ومعه وجوه أصحابه، فطُيِفَ بهم هناك؛ ثم قُتِلَ شر قتلة. ومرت سنوات حكم هذا الوالي، يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار، إلى أن وافته المنيّة لأربع بقين من شعبان سنة ٢٩٧هـ.

ولى أبو منصور تَكِين^(٣) حكم مصر لإحدى عشرة خلّت من شوال سنة ٢٩٧هـ من قِبَل الخليفة العباسي المُقتدر بالله (٢٩٥هـ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢م)، وصدرت إليه الأوامر بالجد في أمر المغرب والاحتراس من العبيدين هناك؛ مما دفعه إلى إرسال جيش كثيف بقيادة (أحمد بن صالح)، الذي نجح في فرض سيطرته على برقة، وجبى منها الأموال، وسار حتى سُرّت^(٤)، لكنه واجه جيشاً عبيدياً بقيادة (حَبَاسَة بن يوسف الكُتَامِي)^(٥). ولم يستطع أى من القائدَين فرض إرادته على الآخر، فلجأ حَبَاسَة إلى إضعاف غريمه بإخباره عن عزم الوالي تَكِين على عزله عن برقة؛ مما جعله يعود القَهْقَرَى إلى مصر، ويترك المجال رحباً لخصمه، يستولى عليه أنى شاء^(٦)!

اضطر تَكِين إلى إرسال جيش آخر إلى برقة بقيادة خير المنصوري، وعبد العزيز بن كُليب، لكنهما تنازعا، ففُشِلَا، وذهبت ريجهما، فهزمهما جيش حَبَاسَة، فارتدّا إلى مصر، تاركين برقة لعدوهما^(٧).

أحوال مصر السياسية من (سنة ٣٠٠ - ٣٢٣هـ / ٩١٢ - ٩٣٥م):

بعد سقوط برقة في أيدي العبيدين كتب والى مصر تَكِين كتاباً إلى صاحب إفريقية، وجعله على لسان أمير المؤمنين الخليفة المُقتدر بالله العباسي، يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها، وكان ذلك

(١) نسبة إلى الحمام الذي يُقْتَنَى (الأنساب ٢/٢٥٥).

(٢) الكندي: الولاة ص ٢٦٧.

(٣) ترجم له ابن تَعْرَى تَرْدَى في (النجوم الزاهرة) ح ٣ ص ١٩١-١٩٤.

(٤) مدينة على ساحل البحر الرومي (الأبيض) بين برقة وطرابلس، لأهلها غُلّ، وبساتين، وآبار عذبة، وهم من أسوأ الناس معاملة، لا يبيعون ولا يتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وهم بذلك يَنْتَلِعون عن أهل طرابلس، فزى الأخلاق الحسنة، والمعاملة الحيدة. (معجم البلدان، لياقوت، ط. دار الكتب العلمية) ج ٣ ص ٢٣٢-٣٣.

(٥) ورد في (الأنساب)، للسمعاني مادة: (الحَبَاسِي) ج ٢ ص ١٦٣: أن هذه النسبة إلى (حُباسَة) بنفخ الحاء، وهو قائد الجيش، الذي واه من الغرب يطلب مصر، أيام المُقتدر بالله.

(٦) الكندي: الولاة ص ٢٦٨، والمقريزي: المقفى (ط. دار الغرب الإسلامي) ج ٢ ص ٦٠١.

(٧) المصدران السابقان: الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

سنة ٣٠٠هـ. وقد حرص تكين - قبل إنفاذ هذه الرسالة - على جمع وجوه أهل مصر، وقراءتها عليهم^(١). ولى على هذا النص الفريد، الذى يكاد يتفرد بالسبق إليه المؤرخ المصرى الكندى، تعليق يسير، وهو أنه أراد بهذا الكتاب، الذى كان على يقين من تجاهل العبيدين له، أن يُعَرِّجهم أمام المنخدعين بهم في مصر، ويكشف بغيتهم وخروجهم على الخلافة العباسية^(٢)، فيقف الناس على حقيقة هؤلاء، فإذا غزوا مصر، كان الشعب ومثله على بينة من أمرهم، فيتم التلاحم بينهم وبين الجيش لمطاردة الغزاة.

كانت هزيمة جيش تكين في برقة^(٣)، ثم وَقَعَ كتابه المشار إليه سلفاً إلى العبيدين من أكبر الدواعى، التى حفزت جيوشهم للمضى قدماً تجاه مصر للاستيلاء عليها. ففى يوم السبت لثمان خلون من شهر المحرم سنة ٣٠٢هـ، قدمت جيوش حباسة بن يوسف من برقة إلى الإسكندرية، واستتجد تكين بجيوش الخلافة، فأغاثته بجيش عليه القاسم بن سيماء، ثم تبعه دخول الحسين بن أحمد المادرائى ومحمد بن على بن أحمد المادرائى؛ لتدبير شئون مصر الإدارية والمالية أثناء تلك الظروف العصيبة. كما وفد إلى مصر عدد من القادة الكبار، مثل: أحمد بن كَيْفَلُغ، وغيره. وخرج عامة أهل مصر وخاصتهم على قلب رجل واحد، يصعدون اعتداءات العبيدين، وأبلوا في قتالهم بلاء حسناً، حَلَّتْ على إثره الهزيمة الفادحة بجيوش العبيدين، حتى اضطر حباسة إلى الانسحاب لإفريقية، حيث قتله صاحبها؛ نتيجة فشله الذريع في تلك الموقعة^(٤).

(١) الكندى: الولاة ص ٢٦٨-٢٦٩، والمقرئى: المغنى - نقلاً عن الكندى دون أن يذكر، فيما أرى - ج ٢ ص ٦٠١. وترى د. سيدة كاشف أن ذلك من قبيل الشورى (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٢٦، و(مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين - القسم الثانى) ص ١٣٠. الحق أنها لو كانت شورى، لأحضر كبار القوم قبل أن يكتب الكتاب، وكذلك قبل استشارة الخلافة، لكن الرواية تفيد أنه أحضرهم بعد إبرام الأمر وانقضائه، فهو لا معنى منهم رأياً ولا مشورة، وإنما يُخيطهم به علماً.

(٢) رسالة دكتوراه حسن عبد الحميد حبر: (التيارات المذهبية، والزعات التحررية في مصر من منتصف القرن الثالث الهجرى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى) ص ٢١٠.

(٣) د. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٢٦، ود. عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية: قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر ص ٩٥.

(٤) تاريخ الطبرى ١٠/١٤٩-١٥٠، وصلته ص ٥١-٥٢، والولاة للكندى ص ٢٦٨-٢٧٣، وتكملة تاريخ الطبرى، للهمدان (ط. دار المعارف، ضمن ذيل تاريخ الطبرى، ج ١١) ص ٢١٧، وسير أعلام النبلاء، للذهبي ١٤/٢٢٣-٢٢٤، وتاريخ الإسلام، للذهبي (ط. دار الكتاب العربى - بيروت، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمرى): ج ٢٣ ص ١٦، واتعاط الخفيا للمقرئى (ط. ١٩٤٨)، تحقيق: د. الشيبان) ج ١ ص ٩٩-١٠٠، والمغنى للمقرئى ج ٣ ص ١٥٢، ونعت الدكتور حسن على حسن بعنوان: (أبعاد النشاط السياسى والعسكرى في استيلاء الفاطميين على مصر)، المنشور في مجلة: (ندوة التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم - المجلد الرابع ١٩٨٤م) ص ٣٢٢-٣٣٦.

قدم مؤنس بجيوشه من قبل الخلافة إلى مصر، فقام بعزل الوالي تكين عن مصر^(١)، وأقام بالفسطاط يُصَرِّف شئون البلاد، مطلق اليد في تصريف أمورها، حتى قدم كتاب المقندر بتولية **ذُكا الأعمور**^(٢)، فدخلها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٣هـ. وخرج مؤنس عن مصر في ربيع الآخر من العام نفسه يقود جيوشه راجعاً إلى دار الخلافة^(٣)، بعد استقرار الأحوال في مصر.

بدأ الوالي ذكا عهده باتخاذ عدد من التدابير الوقائية؛ تحسباً لمحى جيوش المهدي إلى مصر ثانية. وقد قام - في هذا الصدد - بالقبض على عدد ممن يكتابون المهدي، ويوافونه بأخبار مصر، ويُطلعونه على أسرارها ونقاط الضعف بها، وسجن كثيراً منهم، وتُكَلِّمُهم بقطع أيديهم وأرجلهم؛ حتى يرتدع الآخرون. وبعد ذلك اهتم اهتماماً خاصاً بالإسكندرية، باعتبارها المكان الذي يُلج منه الأعداء سريعاً إلى داخل مصر، ولا بد أنه أقام التحصينات الدفاعية اللازمة، كما عمرها بالجند والمقاتلة، ورَتَّب لها القواد، يتفقدون شئونها بين الحين والآخر، بقيادة ابنه مُظفَّر، الذي ولَّاه المدينة نفسها^(٤).

وفي شهر صفر سنة ٣٠٧هـ، قدمت جيوش القائم ولي عهد المهدي إلى الإسكندرية، ويبدو أنه دخل نقواته على حين غفلة من حندها وأهلها؛ مؤملاً الدخول سريعاً إلى الفسطاط. وشاع الرعب والفرع بين الناس ففروا إلى الشام برأً وبحراً، وتعرض أكثر الفارين للهلاك. وأراد الوالي ذكا الخروج بجنده إلى الجزيرة؛ استعداداً للقاء الأعداء، لكن الجند أبوا الانصياع لأوامره، وسألوه العطاء. ويبدو أنه نجح في إرضاء الجند بعد جَهدٍ جهيد، وصرف لهم الحسين بن أحمد المادرائي العطاء. وقام ذكا ببناء حصن على الجسر الغربي بالجزيرة، وحفر خندقاً يحيط بالجزيرة وبمسكره داخلها؛ حرصاً على الدفاع عنها، لكن المرض داهم الوالي، فتخطَّفته يد الرَّذَى بغتة، وهو مقيم بين جنده في شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ^(٥).

نظراً لخبرة وكفاءة تكين الحربية في مواجهة جيوش المغاربة، أعادته الخلافة إلى ولاية مصر ثانية، فكان عند حسن الظن به، فأتم استعداداته البرية بحفر خندق ثانٍ حول الجزيرة. ويبدو أن قيادة الجيش

(١) وذكرت د. سيدة كاشف أن سبب عزل تكين غم معلوم، والراجح أن كبار القواد المقربين من الخليفة كان لهم

سلطان واسع، وفي استطاعتهم عزل الولاة الذين يفقدون لحدهم. (مصر في عصر الإخشيديين ص ٣٠).

(٢) له ترجمة في (البحر الزاهرة) ج ٣ ص ٢٠٧-٢٠٨. هكذا صُطِّح بالفتح في (الولاد) ص ٢٧٣. وذكر أنه بالضم،

وأن اسمه بالإغريقية ducas وأنه رومي الأصل:

Iane - Poole: A history of Egypt in the middle ages, P. 80

(٣) الكندي: الولاة ٢٧٣.

(٤) الكندي: الولاة ص ٢٧٤، والمقريزي: الخطط ١/٣٢٨.

(٥) الكندي: الولاة ص ٢٧٥-٢٧٦.

العبيدي قُطعتْ إلى صعوبة الغزو البري، ففاجأت جيش تكين بأسطول بحري، يحاول غزو مصر من طريق البحر بقيادة سليمان الخادم، فأمدت الخلافة مصر بأسطول من طَرَسُوس عليه (تُمَلُّ الخادم)^(١)، استطاع الإجهاز على أسطول المغاربة، وساعدكم رياح هُوج عاتية تجاه الأعداء، أغرقت مراكبهم، فسقط جندهم بين أسير وقتيل. ولما كان للعبيدين قوات برية بالفيوم وغيرها، فقد تكفلت بها جيوش الخلافة التي أقبلت مسرعة إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذي طهر البلاد منهم، وفروا أمامه لا يَلُوُونَ على شئ إلى برقة، بينما عاد مؤنس وتكبين بقواتهما إلى الجزيرة في ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ^(٢). ولم يرحل مؤنس عن مصر - كعادته - إلا بعد أن أبعد نفوذ تكين عن مصر بعزله عن ولايتها، وصرفه إلى الشام^(٣).

ولى مصر هلال بن بدر في ربيع الآخر سنة ٣٠٩هـ، فلم يستطع السيطرة على الجند الرجالة (المشاة) والبحرين، الذين كان يحرضهم محمد بن طاهر صاحب الشرطة؛ للمطالبة بأرزاقهم. وقام بالقبض على صاحب الشرطة وأخيه، وأمر بقتلهما، لكن الأحوال ازدادت سوءاً عبَّر عنه الكندي بقوله: "وكانت مصر في أيام هلال من النهب والقتل والفساد على نهاية"^(٤).

حاول الخليفة المقتدر إصلاح الخلل الواقع في ولاية مصر، فعزل ابن بدر، وجعل مكانه (أحمد بن كبلغ)^(٥)، وذلك أواخر شهر رجب سنة ٣١١هـ. وقد بدأ عهده باتخاذ إجراءات عقابية مشددة ضد الجند المشاغبين، ولكن شدته جوهت بثور عنيقة، ألقت به خارج القسطنطينية، فلم يجرؤ على دخولها؛ مما أدى إلى عزله^(٦)، وتولية تكين مكانه شئون مصر للمرة

(١) ترجم له المقريزي في (المقفي): ج ٢ ص ٦٤٦-٦٤٧، وذكر أنه توفي سنة ٣١١هـ.

(٢) صلة تاريخ الطبري: ص ٧٣، ٧٥، ٧٨، والولاء ص ٢٧٥-٢٧٧، وتكملة تاريخ الطبري ص ٢١٧، ونهاية الأرب للنويري ٤١/٢٨، وتاريخ ابن الوردي ٣٥٣/١، ورواة الجنان، للباقي ٢٤٦/٢، واتعاط الحنفا (ط. ١٩٤٨م)، تحقق: د. الشيال) ج ١ ص ١٠٣-١٠٤، والنجوم الزاهرة ٢١٩/٣-٢٢٠، والقروان ودورها في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد زيتون ١٤٠، وبحث الدكتور حسن علي حسن: (أبعاد النشاط السياسي والعسكري في استيلاء الفاطميين على مصر)، نشر في مجلة (ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم - المجلد الرابع ١٩٨٤م) ص ٣٣٦-٣٤٤.

(٣) الكندي: الولاية ٢٧٨. وعلقت د. سيدة كاشف على هذا العزل بأنها ترجح أن مؤنساً كان يعقد علي تكين؛ لأنه محبوب من أهل مصر. وأقول: إن ابن تغري بردي في (النجوم) ج ٣ ص ٢٢٥، زاد هذا الأمر توضيحاً، وذكر اعتراض أهل مصر على عزل تكين، وإلحاح أعيانها على مؤنس أن يعيده؛ حتى لا تحدث فتنة، فاضطر لإعادته أربعة أيام فقط، حتى رتب مؤنس أموره، وأقنع القواد بعزله، ثم عزله، وأخرجته من مصر؛ خوف الفتنة. وقد نقلت د. سيدة كاشف ذلك عن المصدر المذكور، وذكرته في: (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٤.

(٤) الولاية: ٢٧٩. وترجم له كل من: المقريزي في (المخطوط): ٣٢٨/١، وابن تغري بردي في (النجوم): ٢٢٦/٣-٢٢٧.

(٥) ترجم له المقريزي في (المقفي): ج ١ ص ٥٦٩-٥٧٢، وأشار إلى شاعريته، ولورد له بعض الأشعار، وذكر وفاته سنة ٣٣٠هـ.

(٦) الكندي: الولاية ص ٢٨٠-٢٨١. ابن تغري بردي: النجوم ٢٣٢/٣.

الثالثة، ففرض هيئته على الجند، وأسقط الرجالة الثائرين منهم، ونفاهم خارج القسطنطينية؛ مما أدى إلى هدوء الأحوال، واستقرار وأمن الناس، فأتوا إليه - وقد اكتسب جبههم واحترامهم - يقدمون له أسمى آيات الشكر والعرفان، بعد أن خلصهم من فساد الجند وقبهم وفجورهم. وظلت مصر تنعم في ظل الأمير تكين، حتى كُتب نداء ربه في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ^(١) مُخْلَفًا وراءه أثرًا طيبًا؛ نتيجة حسن السياسة، والدربة بالأمور، ومعرفة الحروب^(٢).

تدهورت شئون مصر بعد وفاة تكين، فحفلت بصراع مرير بين محمد بن تكين وصاحب الخراج محمد بن علي المافرائي، وصراعات طوائف الجند المشاركة والمغاربة^(٣)، وتَحَطَّت الخلافة في تولية وعزل الولاة في مصر، لدرجة أنها ولَّت أحد ولاتها - وهو مقيم بدمشق - على مصر، فلم يستطع دخولها؛ لكثرة الاضطرابات بها، وظل على ذلك مدة اثنين وثلاثين يوماً، ثم عُزِل عنها، وهو لم يدخلها بعد^(٤).

ويمكن تلخيص أهم سمات تلك الفترة فيما يلي:

١- شيوع الاضطرابات وعدم الاستقرار الداخلي؛ نتيجة صراع الجند والرعية^(٥) من جهة، وصراعات وانقسامات طوائف الجند من جهة أخرى. والشعب المصري يعاني الأمرين من ذلك الفساد، إضافة إلى معاناته من ولاية عاجزين، وعمال خراج مستبدين، وجيوش هائلة متوالية، تزارحهم في ديارهم، وتضيق عليهم في مآكلهم ومشاربهم، يقدم بها مؤنس الخادم، وقواد العباسيين، في أثناء حملات المغاربة وفي أعقابها. وأثر كثرة تغيير الولاة بـله^(٦) الصالحون الأكفأ منهم (مثل: تكين) تأثيراً سيئاً للغاية في حياة الناس، فأبدلهم بالأمن خوفاً، وأيقنوا معه أن الخلافة لا يحكمها في التولية والعزل إلا مصالحها الخاصة، دون اعتبار لمصلحة الشعب، ودون إدراك نمو

(١) الكندي: الولاة ص ٢٨٠-٢٨١. وقد علل ابن تغري بردي إعادة تكين لولاية مصر للمرة الثالثة سنة ٣١١هـ، بأن ذلك كان حرصاً من الخلافة على دفع المخاطر المحتملة للعبيدين على مصر، وتكين - بالطبع - أجدر من يلي هذا الأمر بحكم نجاحاته السابقة. (النجوم الزاهرة ٣/٢٣٢-٢٣٣).

(٢) ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة) ج ٣ ص ٢٣٧.

(٣) تفاصيل هذه المواجهات أوردتها الكندي في (الولاة) ص ٢٨٢-٢٨٤.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٨٢، وزامباور: معجم الأسرات الحاكمة (مترجم) ص ٤٢. وهذا الوالي هو مؤسس الدولة الإخشيدية بعد، إنه (عبد بن طُفَّح الإخشيد).

(٥) كان ذلك في عهد الوالي (ذكا الأعور) سنة ٣٠٥هـ، حينما ذُكر الصحابة والقرآن بما لا يليق (الولاة: ص ٧٤، والنجوم ٣/٢٠٨).

(٦) اسم فعل بمعنى: دُغ، ويكون ما بعدها منصوباً، أو تكون مصدرًا، ويكون ما بعدها مجروراً. وقد تكون بمعنى كيف (كما هو هنا)، ويكون ما بعدها مرفوعاً. (المعجم الوسيط)، مادة: (ب. ل. د). ج ١/٧٣.

روح الاستقلالية فيه بعد أن ذاقها زمن الطولونيين، وتطلع إليها في ثورة ابن الخليلج^(١). فلم يعد شعب مصر بعد الطولونيين كما كان قبلهم^(٢)، لكنهم - جهالة منهم - ساسوه السياسة نفسها، فدفعوه دفعاً للالتفاف حول أول داعٍ إلى رعاية مصالحه، والاستقلال عن الخلافة، كما سنرى.

٢- التعرض لخطر العبيدين الخارجى:

تطلع العبيدون نحو احتلال مصر، يدفهم إلى ذلك أهداف يريدون تحقيقها: مذهبية، وسياسية، واقتصادية، وأمنية^(٣). وهناك مجموعة من العوامل شجعتهم للتعبيل بمحاولة تحقيق تلك الأهداف^(٤)، منها: أهمية موقع مصر الإستراتيجي، وما تتمتع به من ثراء وخيرات، لا تقارن بها طبيعة بلاد المغرب المجردة القاحلة. وكذلك الضعف الداخلى الذى تعانيه مصر في تلك الآونة، ووجود نشاط شعبي مسترر بها، ومكاتبات ومراسلات تشجع هؤلاء على القدوم إلى مصر، بل تحثهم على ذلك^(٥). وأخيراً، حالة الضعف والتفكك الذى تعانيه الخلافة العباسية^(٦)، والضربات المتتالية، التى تعرض لها على أيدي القرامطة^(٧). لذلك كله، انتهز العبيدون الفرصة، وحاربوا كلاً من: مصر، والخلافة العباسية عن طريق الهجمات الحربية المباشرة، والمؤامرات غير المباشرة^(٨)، ولئن لم تحقق نتائجها المرجوة لأسباب

(١) رغم أنما لم تكن على المستوى المأمول، وصاحبها أفسد ديار مصر، وتركها يباباً من كثرة الفتن والمصادرات والظلم، الذى لحق أعيان البلد، وإن كان إذا أخذ من أحد شيئاً، أعطاه إيصلاً، ووعد به برّد ما أخذ منه أنام الحراج، لكنه - في النهاية - كما قال صاحب النجوم في شعر استشهد به:

رام نفعاً وضّرّ من غير قصد
ومن البرّ ما يكون عقوقاً

(النجوم الزاهرة: ج ٣ ص ١٦٧، ١٧١).

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور مؤنس ص ٥٧.

(٣) تفاصيل ذلك في بحث د. حسن على حسن (مجلة ندوة التاريخ - مجلد ٤، سنة ١٩٨٤م) ص ٢٩٥-٣١٠، ورسالة ماجستير (التخطيط الإعلامى للدعوة الفاطمية في مصر)، للباحث شعبان أبى الزيد ص ١٦١-٦٧.

(٤) من هنا لا يصح عندي ما أورده القاضي النعمان في (المجالس والمسايرات) ص ٢٥٢، حيث زعم المهدي أن فتح مصر لن يتم على يديه، ولكنه يرسل ابنه عنى رأس الجيوش إلى مصر؛ كي لا يضيع الجهاد، وأنه إن نقل الأمر على القائم، فمض المهدي له بنفسه، وهذه دعاية كاذبة؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله. وقد سعوا حينئذ لفتح مصر، لكن الظروف لم تكن مواتية لهم.

(٥) الكندي: الولاة ص ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٤، والخطوط ٢/٣٣٤، ٣٤٠، والنجوم ٣/٢٢٠، ود. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون في مصر ص ٨٩، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٢٨، والقرآن وعلومه في مصر للدكتور البرى ص ٨٣.

(٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٥/٩٨، ١٠١-١٠٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٩٦-١٩٧، والنجوم ٣/٢٧٢، وشاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ١/٢٦٩-٢٧٠.

(٧) النجوم ٣/٢٩٩، وعطية القوصى: تجارة مصر في البحر الأحمر ص ٥٨-٥٩.

(٨) مثل: مقتل المعتز على أيدي بعض دعاة البربر المغاربة، وأثره الخطير في دار الخلافة، وفي جند مصر (صلة تاريخ الطبرى ص ١٥٦-١٥٧، ومسكويه: تجارب الأمم ١/٢٣٧، وابن الأثير: الحلة السيرة ١/٢٨٩، والذهبي: تاريخ الإسلام ٢٣/٦٠٤).

عديدة^(١) فقد كانت خطوة مهمة على الطريق، كان من الممكن أن تصل إلى نهايتها المأمولة، لولا قيام الدولة الإخشيدية في مصر، الذي أجل تحقيق أحلامهم في السيطرة على مصر إلى حين.

أحوال مصر السياسية تحت حكم الإخشيديين (٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م):

هذه مرحلة جديدة من مراحل الحياة السياسية في مصر في ذلك القرن، بما وضع والى مصر الجديد نهاية لعصر الفوضى والضعف والاضطرابات، وحظيت مصر في عهده بكثير من الأمن والاستقرار.

ولاية محمد بن طُغج^(٢) على مصر:

منذ ولاية ابن طغج الصورية الأولى على مصر^(٣)، وهو يرقب الأحداث، ويعد العدة للاستيلاء على ولاية مصر^(٤)، في وقت أصبحت فيه الغلبة للأقوى، ولم يعد للخلافة سيطرة على ولاياتها، وغدا تقليد الخلافة لولاها لا يحظى بشئ من الاحترام، وصارت القوى هي اللغة الوحيدة التي يفهمها الوالى القديم، وذوو المصلحة في الإبقاء عليه؛ حتى يسلموا مقاليد السلطة للوالى الجديد^(٥).

انتهز محمد بن طغج حالة الفوضى السابقة، وتحرك في كلا الإطارين السياسى والعسكرى؛ للوصول إلى مآربه. فعلى المستوى السياسى نجح في استغلال نفوذه صهره الوزير الفضل بن جعفر في الحصول على تقليد منه بولايته على مصر^(٦). وعلى المستوى العسكرى، حاول التفاهم

(١) منها: مهارة وصلابة الوالى تكين، وجهود المصريين، ومشاكل وقلقل المغرب الداخلية، واهتمام الخلافة الفائق وإرسالها

الجيش إلى مصر (الوزراء للصائى ٣٨٠-٣٨١، ود. على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ص٢١٦).

(٢) تفسيره: عبد الرحمن. (المغرب)، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) ص١٤٩، ولهاية الأرب للنويرى ٤٤/٢٨.

(٣) ورد كتاب ولايته من قبل (القاهر بالله) يوم الأحد ٧ من رمضان ٣٢١هـ (الولاية ص٢٨٢).

(٤) أقصد: أنه يأخذ في الاستعداد الحاسم لدخول مصر وامتلاكها بالقوة المسلحة، التى أخذ في تكوينها وتنميتها وتوطيد نفوذه عن طريقها ببلاد الشام منذ ولايته على الرملة، ثم دمشق المشار إليها سلفاً. (العلاقات بين الشام ومصر في المهدين: الطولوق، والإخشيدى)، للدكتور زبود ص٢٧٧-٢٧٩.

(٥) وذلك واضح من الصراع السياسى والحربى على ولاية مصر بين محمد بن تكين، وأحمد بن كيغلف في ولايته الثانية وأتصارهما، وتخطيط الخلافة في التولية والعزل لأكثر من وال، وفي الصلاحيات الواسعة المعطاة للمأذرائى (الولاية ص٢٨٢-٢٨٥، والعلاقات بين الشام ومصر في المهدين الطولوق والإخشيدى ص٢٧٩).

(٦) المغرب، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر). ص١٥٧. وكان الإخشيد قد زوّج ابنته من جعفر بن الفضل بن جعفر، وتوطدت العلاقة بينهما، وكان الفضل بن جعفر ولى الوزارة للخليفة المقنن سنة ٣٢٠هـ (الكامل، لابن الأثير ٧٢/٧). ثم لما ولى الخليفة الراضى، استعمله على شئون الخراج في مصر والشام، فاشترط -

مع (محمد بن علي الماذرائي) المسيطر على شئون مصر الإدارية والمالية؛ ليركه يدخل إلى مصر دون صدام. فلمّا فشلت المحاولة^(١)، لم يجد مفرّاً من دخول مصر بقواته برّاً وبحراً. وقد أحرر الوالي ابن كيخلف^(٢) على دخول معركة، لم يكن يريد خوضها، أرغمه عليها الماذرائي، الذي لا يريد لوال قوياً كابن طغج أن يكون له سلطان بجانبه. ونجحت قوات ابن طغج في دخول مصر برّاً وبحراً، وألحق الهزيمة بقوات ابن كيخلف، الذي لم يجد بُدّاً من التسليم بعد أن عاين قوة بن طغج واستبسال جنده، بينما رأى جنده هو يطلبون الأمان، ولا يشتون عند النزال^(٣).

وعلى صعيد آخر، رفض الجند المغاربة بقيادة (حبشي بن أحمد) التسليم لابن طغج، وأنفوا المقام مع رجل حاربوه وقاوموه، وسينقلص نفوذهم المادي والمعوي إلى حوار شخصيته المهيبة الخازمة. سار هؤلاء الجند ومعهم قادتهم نحو الفيوم، فأرسل إليهم ابن طغج قائده صاعداً في مراكبه، الذي اشتبك معهم في معركة، أسفرت عن هزيمة صاعد وأسرده وقتله مع أصحابه، وذلك في شهر شوال سنة ٣٢٣هـ. وشجعهم ذلك على مهاجمة القسطنطينية، فتصدى لهم ابن طغج ففروا إلى الإسكندرية، ومنها إلى بركة، وكتبوا صاحب إفريقية أن يرسل إليهم جيشاً، يستولون به على مصر، فهم أقدر الناس معرفة بطرقها، وسبل السيطرة عليها. لكن القدر لم يمهّل القائد حبشيّاً، فاعتلّ، ثم وافته منيته؛ متحسراً على ما خلفه بمصر^(٤)، وذلك في صفر سنة ٣٢٤هـ. بعد ذلك قاد بحكم الجند المغاربة بعد مجيئ مدد العبيدين، متوجّهاً نحو مصر، فسارع ابن طغج بإخراج جيوشه إلى الصعيد والإسكندرية بقيادة أخيه الحسن، والقائد صالح بن نافع، فأحرزوا النصر على المغاربة، وطيف بالأسرى منهم، وذلك في شهر جمادى الآخرة في سنة ٣٢٤هـ^(٥).

- على كل من: الخليفة، ووزيره محمد بن علي بن مُقَلَّة أن يكون له مطلق التصرف في هذا الأمر، فالشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فوافق على ذلك. فلما جاء إلى مصر، كتب للإحتييد بولاية مصر؛ استناداً إلى الشرط السابق (المغرب، لابن سعيد - قسم مصر - ص ١٥٧).

- (١) المصدر السابق: ١٥٧. ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإحتيدين: ص ٧١.
- (٢) ذكر القلقشندي في (صبح الأعشى) ج ٣ ص ٤٢٥: أن القاهر بالله ولي (محمد بن طغج) على مصر سنة ٣٢١هـ، ثم ولي (أحمد بن كيخلف) ثانية ٣٢٢هـ. وأقره عليها المكنتي ثم المستكني بالله بعده. وهذا كلام يناق الحقائق التاريخية النافذة؛ إذ لم يذكر ولاية محمد بن طغج الثانية، التي امتدت من ٣٢٣-٣٣٤هـ، والتي عاصر فيها الخليفة الراسي (٣٢٢ ٣٢٩هـ)، والمنفي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ)، ثم المستكني (٣٣٣-٣٣٤هـ).
- (٣) الولاة ص ٢٨٥-٢٨٦. والمغرب (قسم مصر) ص ١٥٨-١٥٩، ولهاية الأرب ٢٨/٤٥، والخطط ١/٣٢٩، والنجوم الزاهرة ٣/٢٧٨. ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإحتيدين ٧٢-٧٣.

(٤) المغرب (قسم مصر) ص ١٦١.

- (٥) الولاة ٢٨٦-٢٨٨، والمغرب (قسم مصر) ص ١٥٩، ١٦١، ولهاية الأرب ٢٨/٤٥-٤٦، والخطط ١/٣٢٩، واتعاظ الخنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١/٧٤، والنجوم ٣/٢٨٨-٢٨٩، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإحتيدين ٧٤-٧٥، ونعت د. حسن علي في (مجلة ندوة التاريخ) - المجلد الرابع ص ٣٤٥-٣٤٨.

تمكن محمد بن طفنج من فرض إرادته وولايته على مصر، عن طريق قوته الحربية، التي استطاع بها أن يحقق الانتصارات العسكرية سائلة الذكر في الداخل والخارج على سواء. وقد توطد ملكه بمصر وتثبت برضا الخلافة العباسية عنه^(١)، واطمأنها إلى قوته، واستقرار مصر في عهده، وقدرته على حمايتها من مطامع العبيدين بالمغرب^(٢). فلا غرَؤ في أن يسارع الخليفة الراضي إلى توليته على مصر (صلاً، وحرباً، وخراجاً)^(٣)، فتم له بذلك السيطرة الإدارية، والمالية على تلك الولاية المهمة من ولايات الخلافة. ولا عجب - أيضاً - في أن تجمع له الخلافة بين ولايتي مصر، والشام معا^(٤) فيحقق بذلك الوحدة المصرية الشامية التقليدية، التي ستمنحه فرصة نادرة بعد ذلك للاستقلال بدولته في ظل شرعية الخلافة، واحترامها، وكسب ودها. وأخيراً، لم يخجل الخليفة الراضي على ابن طفنج بمنحه اللقب^(٥) الذي غنى، بما يتلاءم مع نفوذه الكبير، ومكانته السامية.

علاقات الإخشيد بقوى عصره:

لم يكن من الممكن أن يبلغ الإخشيد ما بلغ من نفوذ وتوسعات، وامتلاك لزمزم

(١) كان الإخشيد حسن الطاعة للخليفة الراضي، ويرسل إليه الهدايا الرائعة التي تطلب اللب. وفي المقابل يقول الصولي: ما رأيت الراضي يقرض أحداً تقريبه الأمر أباً بكر محمد بن طفنج، وكان يستحسن هداياه، ويفرق علينا منها، وكان يصفه بأنه رجل كبير العقل، حسن الطاعة، وهو لا يدري بم كفايته (أخبار الراضي بالله، والمتقى لله) من كتاب (الأوراق) للصولي ص ٤٤. وفي المقابل أرسل الراضي إلى الإخشيد - بعد توليته مصر والشام - رسول خاص من لدنه، يحمل الخلع إليه، والطورق، والسواريز؛ تعبيراً عن عظيم مكانته عنده. وقد استقبل ابن طفنج، والوزير الفضل بن جعفر هذا الرسول في مصر سنة ٣٢٤هـ، وذلك في احتفال كبير، وركب ابن طفنج إلى الجامع العتيق ومعه الوزير، فجلس فيه، وعليه خلع الراضي (المغرب) لابن سعيد (قسم مصر) ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) وقد أورد ابن سعيد في (المغرب) بالقسم الخاص بمصر ص ١٦٦: أن الراضي كتب إلى الإخشيد كتاباً - أرسله بعد كتاب الإخشيد إليه في شعبان ٣٢٤هـ بشأن ضياع الماتراني في مصر والشام - بأمره فيه بالجد في أمر المغاربة، وقتال عساكرهم، وإنفاذ العساكر إليهم. ولا شك أن هذا ورد بعد صد ابن طفنج المغاربة، وفرار فلولهم المنهزمة إلى برقة. ولعل الراضي لم يفتع بذلك، فأراد مبادأهم بالهجوم. إلا أن ابن طفنج رأى بعقله الكبر انتشال المغاربة عنه بقتلهم، وانتهاجهم سياسة مسالمة معه، مما لا بدع بحالاً لفتح جهة جديدة عليه وعلى الخلافة لا داعي لها.

(٣) الولاة ٢٨٦.

(٤) تجارب الأمم، لمسنوكة ج ١ ص ٣٣٢، وتسكملة تاريخ الطبري، للهمذان ص ٢٩٨، والكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٦، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٤/ ٣٤٤.

(٥) وهو لقب الإخشيد (بالدال، أو بالنال)، ويعني: ملك الملوك بالتركية (سر أعلام النبلاء ٣٦٦/١٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٩). وورد كتاب الراضي به، ودُعي به على المنبر في رمضان ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨، ووفيات الأعيان ٥٨/٥، والمغرب - قسم مصر - ص ١٧٤). أما ما ذكرته د. سيدة كاشف في كتاب (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٥٥ (هامش ١)، من أن ابن سعيد يرى أن تاريخ منح الراضي ابن طفنج لقب الإخشيد كان سنة ٣٢٦هـ، فهو دقيق؛ لأن الرجل حملته تاريخ كتاب ابن طفنج إلى الراضي يطلب إليه فيه تلقيبه بهذا اللقب (المغرب ١٧٣)، ثم رد عليه بمنحه إياه سنة ٣٢٧هـ. وكذلك لا يصح تاريخ ٣٢٨هـ، الذي ذكره النويري لنسب اللقب (نهاية الأرب ٤٦/٢٨).

الأمر في مصر والشام دون أن يصطدم برجالات عصره، ذوى النفوذ الكبير، والتأثير العظيم في بحريات الأمور بدار الخلافة، تلك القوى التي كانت ترقب بزوغ نجم الإخشيد بكنير من الخوف والقلق، وتلقى في رُوع الخلافة مخاطر انفراد الإخشيد بحكم مصر والشام، وما يمكن أن يفضى إليه ذلك من تكرار تجربة استقلال الطولونيين عن الخلافة.

١- علاقته بأمر الأمراء ابن رائق:

كانت الخلافة العباسية في عهد الخليفة الراضى بالله تعالى أشد المعاناة من الضعف والانحلال، وكان الخليفة المذكور - وقد تعاونت عليه علله وشهوته - ليس له من أمر شيء، وكان يستعين على تصريف أمور الدولة (أو بغداد بالأحرى) بإحدى الشخصيات القيادية الفذة، التي منحها منصب (أمير الأمراء)، تلك هي شخصية (محمد ابن رائق)^(١)، الذى سيطر على مقاليد السلطة في العراق، وتطلع إلى بلاد الشام؛ لتقليص نفوذ الإخشيد بها^(٢)، ثم النفاذ منها إلى مصر بعد ذلك.

تقدم ابن رائق بقواته سريعاً نحو الشام، وسيطر على دمشق سنة ٣٢٧هـ؛ مما دفع الإخشيد لتجهيز جيش، يقوده بنفسه لمواجهة ابن رائق، وذلك في المحرم سنة ٣٢٨هـ، لكن سفراء الصلح بين الطرفين حققوا الدماء. وتم الاتفاق على تسليم ابن رائق مدينة الرملة^(٣) للإخشيد^(٤).

نجح ابن رائق في هجوم مباغت سريع في السيطرة على كثير من مدن الشام، وتوجه نحو مصر. جرت معركة شديدة مع الإخشيد وقواته بالعريش، انتهت بانتصار الإخشيد، الذى عادت قواته مظفرة بالأسرى ورعوس القتلى إلى القسطنطينية في شوال سنة ٣٢٨هـ. وفي النهاية عقد صلح بين الطرفين امتلك بموجبه ابن رائق الشام إلى الرملة، واتفق أن يرسل له الإخشيد ١٤٠ ألف دينار سنوياً^(٥).

(١) حول مكانة ابن رائق وسيطرته على مقاليد الأمور، يمكن مراجعة: كتاب (أخبار الراضى بالله) للصول ص ٤٢-٤٤، ١٤٦، ٢٠٩، والكامل لابن الأثير ١٢٣/٧، ووفيات الأعيان ٤٢٥/٣، وسير أعلام النبلاء ٣٢٥/١٥-٣٢٦، وتاريخ الإسلام ٢١/٢٤، ٦٦، والبداء والنهاية ١١/١٩٧، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٤٦، ومصر في عصر الإخشيديين ٧٩-٨٠.

(٢) خاصة أنه ارتفعت مكانة لدى الراضى، وغدا منافساً لابن رائق. ولعل ما أسره به الراضى لبعض جلسائه من تمجيد إجلال الإخشيد محل ابن رائق وصل إلى مسامع الأخير، بعد تغير الراضى عليه (أخبار الراضى بالله) ص ٤٥، ١٠٢-١٠٣، ١٤٣.

(٣) مدينة عظيمة بفلسطين، كانت رباطاً للمسلمين. احتفظها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وكانت موضع اهتمام الخلفاء في مختلف العصور، وتفرج فيها عدد من العلماء والأئمة. (معجم البلدان ٧٩/٣-٨٠).

(٤) الولاة ٢٨٨-٢٨٩، والغرب (قسم مصر) ص ١٧٨-١٨٠.

(٥) تكملة تاريخ الطبري ٣٢٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥٧/٢٤، والمقفى ٦٥٨/٥.

لقد أسفر اتفاق الإخشيد وابن رائق عن مكاسب واضحة للأخير^(١)، لكن القدر عاجل ابن رائق، ففقد حياته على يد الحمدانيين سنة ٣٣٠هـ^(٢)، فانتهاز الإخشيد الفرصة، وأرسل جيوشه إلى الشام مع علي بن محمد بن كلا^(٣)، ثم خرج بنفسه وبسط نفوذه على بلاد الشام وتسلمها ثانية، وعاد إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٣١هـ^(٤). وبعد عودته أحس أنه أصبح من القوة وبسط النفوذ في كل من: مصر والشام، بحيث يمكنه أخذ البيعة - دون رجوع إلى الخلافة المتهاوية - لآبته أونوجور على جميع القواد، وذلك في آخر ذي القعدة ٣٣١هـ^(٥).

٢- علاقته بالخليفة العباسي المتقي لله (٣٢٩-٣٣٣هـ):

ولا أقصد بهذه الجزئية أن الخليفة المتقي كان من القوة والنفوذ المادى، بحيث يعد من رجالات تلك الفترة المؤثرين في أحداثها؛ إذ الوقائع التالية تثبت خلاف ذلك تماماً. لكنني أعرض للقاء الإخشيد به؛ لألقى الضوء بطريق غير مباشر على الشخصيات المؤثرة، مثل: أمير الأمراء توزون التركي، وأمراء الحمدانيين، ثم ما نتج عن هذا اللقاء من نتائج، تتعلق بالإخشيد، وأسرته، وممتلكاته بالشام.

تعد فترة حكم الخليفة المتقي لله امتداداً لفترة الضعف، الذى عانته الخلافة أيام سلفه الراضى، بل ازداد نفوذ الأتراك اتساعاً، ودخل في حلبة الصراع أطراف آخرون كالحمدانيين، وكلهم يحاول بسط نفوذه والتحكم في مجريات الأمور، والخليفة بينهم حائر لا حول له ولا قوة، يلتمس النصراء المدافعين عنه. وبلغ به الأمر أن أرسل يستنجد بالحمدانيين من هول بطش ونفوذ أمير الأمراء توزون التركي. وبالفعل أرسل ناصر الدولة جيشاً بقيادة ابن عمه (الحسين بن سعيد)، وتمكنوا من إخراج الخليفة في حرمة، وأهله، ووزيره، وبعض أعيان بغداد. وحدثت مواجهات بين توزون والحمدانيين هُزم فيها الحمدانيون، وتقهقروا إلى الموصل، ثم إلى قريب من بلاد الشام^(٦). وأقام الخليفة في حماية الحمدانيين، حتى

(١) وقد دافع عن موقف الإخشيد من هذا الاتفاق، وعذبه عملاً له ما يبرره من الظروف المحيطة به كل من: د. حسن

إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ١٤٥/٣، ود. زبد: العلاقات بين الشام ومصر ص ٢٩٨.

(٢) حول ظروف مقتله راجع: (أخبار الراضى بالله) ص ٢٢٦، وتجارب الأمم ٢٧/٢-٢٨ (وذكر أنه قُتل بالموصل على يد غلمان أبي محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان، المعروف بـ (ناصر الدولة)، وتكملة تاريخ الطبرى ص ٣٣٢-٣٣٣، و(مخطوط تاريخ دمشق ٣٢٥/١٥، ووفيات الأعيان ١١٨/٥).

(٣) الولاة ٢٩١.

(٤) الولاة: ٢٩١-٢٩٢، وغاية الأرب ١٦٧/٢٣، والبدية والنهاية ٢١٥/١١.

(٥) المغرب (قسم مصر)، ص ١٩١ (كان الدعاء في مصر للخليفة المتقي، ثم للإخشيد، ثم لآبته أونوجور، ثم لعمه أبي المظفر الحسن بن طغج)، والمخطوط ٣٢٩/١، والنجوم ٢٩١/٣، وتاريخ الإسلام، للذكور حسن إبراهيم حسن ٣/١٤٥، و(مصر في عصر الإخشيديين) للذكورة سيدة كاشف ص ٨٩.

(٦) كان ذلك خلال عامي ٣٣١-٣٣٢هـ (غاية الأرب ١٧٠/٢٣، ١٧٣، وتاريخ ابن خلدون ٢٩٨/٤).

أحسن منهم الضجر والسأم^(١)، ففكر في مراجعة توزون ببغداد. ويدلو أن الخليفة المتقي لم يكن يثق بحواب توزون ولا بتمام حماية الحمدانيين له، فأرسل إلى الإخشيد يشكو له حاله، ويستدعيه لحمايته. واقتصر الإخشيد تلك الفرصة الذهبية النادرة، وقدم بقواته، حاملاً الأموال والهدايا. وتم اللقاء بالرقة في منتصف المحرم سنة ٣٣٣هـ^(٢). وقد بالغ الخليفة في إكرام الإخشيد، وبالغ الإخشيد في احترام الخليفة وتقديره. وحمل الإخشيد إلى الخليفة الكثير من الأموال والهدايا والتحف الثمينة النادرة، وبراً وأحسن إلى جميع من مع الخليفة، وعلى رأسهم: وزيره أبو الحسين علي بن محمد بن مقلّة^(٣). وقد عرض الخليفة على الإخشيد أن يصطحبه إلى بغداد، ويولي إمرة الأمراء. وبعد موافقة سريعة، بادر الإخشيد إلى التخلص من هذا الأمر بذكاء^(٤). وفي الوقت نفسه عرض هو أن يصطحب الخليفة إلى مصر، أو يبقى ببلاد الشام ولا يعود إلى توزون. فالأترك لا أمان لهم، وهو على استعداد لإمداده بالأموال والرجال، لكن الخليفة اعتذر^(٥)، وكذلك اعتذر وزيره^(٦). وتحرك الخليفة في طريقه إلى بغداد، فتحققت مخاوف الإخشيد، وقبض توزون على الخليفة ووزيره^(٧)، ووكلَ بهما، وسُملتَ عينا المتقي، فدخل بغداد فاقد البصر، مخلوعاً من منصبه في المحرم ٣٣٣هـ^(٨)، بينما مرّ الإخشيد على بلاد الشام، فاطمأن على أوضاعها، ودبر

(١) أقام عندهم المتقي من شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢هـ إلى غاية هذه السنة (راجع: تجارب الأمم ٦٧/٢، وتاريخ ابن خلدون ٥١٩/٣).

(٢) نهاية الأرب ١٧٦/٢٣. والرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حرّان ثلاثة أيام، وهي داخلية في بلاد الجزيرة؛ لأنها من جانب الفرات الشرقي (فهي واقعة بين العراق والشام). (معجم البلدان ٦٧/٣).

(٣) انفراد المسعودي من بين المصادر يجعل كنيته (أبا الحسن)، وذلك في (مروج الذهب مجلد ١٢، ص ٦٩٢)، ولعله تحريف من الناسخ. ويجب التفريق بينه وبين الوزير (محمد بن علي بن الحسن بن مقلّة)، الذي قبض عليه سنة ٣٢٦هـ فقطعت يده، ثم لسانه بأمر ابن رائق؛ لتخريبه عليه. وسجن عامين حتى مات في عهده ٣٢٨هـ. (راجع النجوم ٣/ ٣٠١-٣٠٢، ٣٠٨). وتنبه أن هذا الترجيح له ليس هو المصاحب للخليفة المتقي إلى الرقة، ويعلب على الظن أن المذكور أعلاه في المتن هو ابنه؛ بدليل استفساره عن أحوال ولده أبي الحسين أثناء معالجه يده بواسطة الطبيب ثابت بن ستان، وكانت تطيب نفسه عندما يبلغه الطبيب باستتار وسلامة ولده (وفيات الأعيان ١١٥/٥).

(٤) لما تدارك الموقف المتأزم، وأدرك الخطورة التي يمكن تعرض لها في بغداد، وضياح ملكه في مصر والشام، فاعتذر بأن العبيدين سيفزون مصر، فأمره الخليفة بالعودة سريعاً (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٢).

(٥) فهو لا يريد أن يبدع عاصمة ملكه، كما أن وسطاء الصلح بينه وبين توزون أكدوا له أنهم أخذوا عليه أغلظ الإيمان وأوثقها، وأشهدوا عليه القضاة والعلماء، أن يسمع ويطيع الخليفة في أمره ونهيهِ، فوثق به الخليفة وصدقه (تجارب الأمم ٦٧/٢، والكامل ١٨٦/٧، وفوات الوفيات ١٧/١). ولا يصح ما ذكره د. علي إبراهيم حسن في (تاريخ جوهر الصقلي) ص ٢٨، من أن الإخشيد كان يفاوض توزون؛ ليتعهد بحماية الخليفة.

(٦) وذلك مراعاة للخليفة المتقي (تاريخ الإسلام ١٢/٢٥).

(٧) ندم الوزير على عدم استجابته لنصح الإخشيد له، فقد قبض عليه، ونهب ما منحه الإخشيد من أموال (تجارب الأمم ٦٨/٢). وكانت وزارته سنة، وخمسة أشهر، واثني عشر يوماً (الكامل ١٨٧/٧).

(٨) تجارب الأمم ٦٧/٢-٦٨، وتكملة تاريخ الطبري ص ٣٤٧، والكامل ١٨٦/٧-١٨٧، وتاريخ الإسلام ١١/٢٥-١٢، والنجوم ٢٩١/٣-٢٩٢. ومات توزون بعد حرمه في حق المتقي بأقل من عام، بينما مات الخليفة في -

شوتها^(١)، ثم عاد إلى مصر في جمادى الأولى سنة ٣٣٣هـ^(٢) تناوشه مشاعر متباينة، فهو - من جهة - يشعر بالغبطة والسرور بما أنعم عليه المتقى من توطيد ملكه في مصر والشام، وتوليته وأسرته حكم تلك البلاد مدة ثلاثين عاماً، يخلفه عليها من بعده ابنه (أونوجور)^(٣)، ومن جهة أخرى يملؤه الأسف على ما جرى للخليفة المتقى من إيناء وخلع. وعلى كل، فقد أقرّه الخليفة الجديد (المستكفي ٣٣٣-٣٣٤ هـ/٩٤٤-٩٤٦م) على مصر والشام، على ما جرت عليه عادة الخلفاء من قبل^(٤).

٣- علاقته بالحمدانيين

نركزها في النقاط الآتية:

- أ- دور الحمدانيين المؤثر في الصراع الدائر بين القوى المختلفة في عصر الخليفة المتقى لله، وقوة الإخشيد المتصاعدة في مصر والشام؛ مما أدى إلى صراع خفي بين القوتين.
- ب- تحول العداء المستتر إلى صراع ظاهر سنة ٣٣٣هـ، تمكن سيف الدولة على أثره من السيطرة على حلب وسائر الشام، لكن الإخشيد سار بقوته، وهزم سيف الدولة، الذي ظل معسكراً رغم ذلك^(٥).
- ج- تيقن الإخشيد أن الانتصار على سيف الدولة ليس حاسماً؛ مما دفعه إلى الدخول في مفاوضات صلح معه في ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ^(٦). وتم دعم الاتفاق بإقامة علاقة مصاهرة بينهما^(٧)، ثم توفي الإخشيد بعدها بقليل في دمشق في شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ^(٨).

= سجنه في شعبان ٣٥٧هـ (سمر أعلام النبلاء ١١١/١٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٤٥١).

(١) النجوم ٢٩٢/٣.

(٢) الولاة ٢٩٢، والنجوم ٢٩٢/٣-٢٩٣.

(٣) المغرب (قسم مصر): ص ١٩٢.

(٤) الولاة ٢٩٢، والنجوم ٢٩٣/٣.

(٥) الكامل ٢٠٣/٧، والمغرب (قسم مصر) ص ١٩٣-١٩٤، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٥٠-٣٥١.

(٦) حول وجهة نظر الإخشيد في هذا الصلح ونصومه يراجع: المغرب (قسم مصر) ١٩٤-١٩٥، وبقية الطلب ٥

٢٤٠٩/، وتاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١٢٨/٣، ومصر في العصور الوسطى

للدكتور علي إبراهيم حسن ٢٢٤، وبحث (دور الحمدانيين في حماية الثغور الإسلامية) للدكتور فهمي عبد الجليل

في (ندوة التاريخ ع ٨، ١٩٩٠م ص ٢٤١-٢٤٢).

(٧) تكملة الهمدان ٣٥٢، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٥/٢٤.

(٨) الولاة (ط. جست) ص ٢٩٣.

وقبل أن نسدل الستار على فترة حكم الإخشيد، نركز سمات عصره في النقاط الآتية:

١- تميزت فترة حكم الإخشيد بشيوع الهدوء والاستقرار إلى حد بعيد^(١). وقد ساعد على تحقيق ذلك: شخصية الإخشيد القوية، وثباته في منصبه لفترة لا بأس بها^(٢)، وقضاؤه على الفتن في مهدها^(٣)، وحسن التنظيم الإداري لأجهزة دولته^(٤)، وإشرافه على تحقيق العدالة في البلاد^(٥). وبمقارنة مسيرة بين مصر والشام في عهده، وبين دولة الخلافة العباسية وحاضرتها (بغداد)، نجد الأمن والاستقرار في دولة الإخشيد، بينما الخلافة تُنتقص من أطرافها^(٦)، وتتلاحق الفتن بها، حتى نزح كثير من أهل بغداد وتجارها إلى مصر والشام مع الحجاج^(٧)؛ فراراً مما حلّ ببلادهم، وطلباً للسكينة والطمأنينة.

٢- حظيت دولة الإخشيد بجيش قوى وأسطول متمكن^(٨)، أحسن الإخشيد تكوينهما وإعدادهما، ورَدَّ بهما أطماع الداخل (أمير الأمراء ابن رائق، وسيف الدولة بن حمدان)، وأطماع الخارج (العبّيديين).

(١) لم تذكر المصادر سوى ثورة واحدة قام بها رجل علوى في مصر في عهد الإخشيد، ويدعى (ابن السراج)، قام بها في الصعيد، مستغلاً فرصة خروج الإخشيد؛ ليسط نفوذه على بلاد الشام بعد مقتل ابن رائق، إذ خرج بالجيش في السادس من شوال سنة ٣٣٠هـ. فلما خلت الفسطاط من الجند، خرج هذا الخارج في حركة لهب وسلب، ثم هرب إلى العبّيديين بالمغرب (الولاة ٢٩١، المغنى ٤٥٣/٧، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ٣٣٨). ولعله كان على صلة بالعبّيديين، وأوغزوا إليه بضرب الاستقرار في مصر.

(٢) من ٣٢٣-٣٣٤هـ. ودولته نموذج للعدل المستقلة عن سلطان الخلافة العباسية مع الاحتفاظ لها بسلطانها الروحية، مستقلة ما حل لها من ضعف وهرم (مقدمة ابن خلدون ٧٦٤/٢).

(٣) قضاؤه على تنازع المالكية والشافعية وأتباعهم في مصر، وكرهيته النجاح في مجلسه (المغرب - قسم مصر - ص ١٧٣، ١٨٢).

(٤) يمكن مراجعة ما يتصل بالنظام الإداري في العصر الإخشيدى (خاصة الشرطة) في: د. على إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى ٣١٤-٣١٥، ود. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ١٥٥ وما بعدها، وأحمد عبد السلام ناصف: الشرطة في مصر الإسلامية ص ١٢٨.

(٥) عن طريق حلوسه للمنظام (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٠-١٩١، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٢٨).

(٦) فمثلاً لم يبق للراضى سوى بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق. وبقية أطراف الخلافة في أيدي التغلبيين عليها (فالبصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدى، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه... والموصل، وديار بكر، ومُصّر، وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد، والمغرب وإفريقية في يد القائم، والأندلس في يد الناصر... والبحرين والهمامة في يد أبي طاهر القُرَيْطِيّ (تجارب الأمم ٣٦٦/١، والكامل ١٢٣/٧، ومهابة الأرب ١٣٥/٢٣-١٣٦).

(٧) تكملة تاريخ الطبرى (أحداث ٣٣١هـ): ص ٣٤٠، وتاريخ الإسلام ٦/٢٥.

(٨) مراجع: وفيات الأعيان ٥٩/٥، وسر أعلام النبلاء ٣٦٦/١٥، وتاريخ الإسلام ٣٠/٢٥-٣١، ١١٢، والمخطوط ٨٦/١، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٤٥ وما بعدها.

٣- نجح الإخشيد في إقامة علاقات سياسية متوازنة مع مختلف القوى ذات النفوذ الروحي والمادى - داخلياً وخارجياً - في عصره، فحصل على ما يريد من مُلك له ولولده من بعده في عهود الخلفاء العباسيين المعاصرين له (الراضى، والمتقى، والمستكفى، والمطيع)^(١)، مانحاً إليهم كل ود واحترام وتقدير. كما استخدم نظام المصالحات والمصاهرات السياسية مع المنافسين له (ابن رائق، وسيف الدولة) في الوقت المناسب. وأخيراً، نجح - بذلك - في إقامة علاقات سلمية مع قوتي: الروم^(٢)، والبيديين في عهد القائم^(٣). وبذلك ضمن بقاء حكمه، وامتداد نفوذه، واتساع دولته.

مصر بعد الإخشيد:

بعد وصول نبأ وفاة الإخشيد إلى مصر في يوم الاثنين لليلتين خلتا من المحرم ٣٣٥ هـ^(٤)، دخلت البلاد منعطفاً جديداً بعد خلو مركز القيادة من مؤسس الدولة الإخشيدية. واجتمع أهل الرأى والحكم يتشاورون فيمن يلي الأمر بعده. ورغم وجود تقليد لأونوجور^(٥) أكبر أولاد الإخشيد بولاية العهد بعد أبيه، إلا أنه يبدو أن صفر سنه^(٦) جعل هؤلاء المجتمعين يترددون في توليته بادئ الأمر، خاصة في ظل وجود أمثال: محمد بن على المادرائى، والوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، وصاحب الخراج محمد بن على بن مقاتل، وأبى المظفر الحسن بن طفج أخى الإخشيد. ولا بد أن يكون من هؤلاء من له تطلع إلى السلطة. ولم يطل التشاور بين هؤلاء الكبراء، حتى حسمه المادرائى لصالح أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد. ولعل في كتاب التعزية، الذى أرسله الخليفة المطيع لأونوجور، وقرئ في المسجد الجامع، إقراراً من الخلافة بما تم الاستقرار عليه^(٧).

(١) الولاة ص ٢٩٣ (دعى للمطيع لله في مصر يوم الجمعة ٣ من شوال ٣٣٤ هـ)، وأقر الإخشيد على عمله (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٥).

(٢) بلاخط رد الإخشيد على كتاب رومانوس البيزنطى إليه، وما احتواه من بيان سياسة الإخشيد، وما يدل عليه من مكانته العظيمة لدى الروم (المغرب - قسم مصر - ص ١٦٧-١٧٢، وصبح الأعشى ١٠/٧-١٨).

(٣) تراجع في العلاقة بينهما: المغرب (قسم مصر) ص ١٧٥-١٧٧، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١١٩-١٢١.

(٤) الولاة ص ٢٩٣.

(٥) ويعنى بالعربية اسم (عمود). (وفيات الأعيان ٩٩/٤، وتاريخ الإسلام ١٥٠/٢٦). وقد وقع كلا المصدرين في وهم واحد؛ إذ ذكرا أن الراضى هو الذى عقد لأونوجور على ولاية مصر.

(٦) ولد أونوجور يوم الخميس التاسع من ذى الحجة سنة ٣١٩ هـ بدمشق (وفيات الأعيان ٩٩/٤). وهذا يعنى أنه رولى مصر وعمره حوالى ١٥ سنة.

(٧) حول ظروف تولية أونوجور مصر تراجع: مؤلف مجهول: الذيل على كتاب الولاة للكندى ص ٢٩٤، والمغرب (قسم مصر) ص ١٩٧-١٩٨، والمقننى ٣١٣/٢-٣١٤.

وفي شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥هـ، ورد الخبر باستيلاء سيف الدولة بن حمدان على دمشق، وطَبْرَةَ، وتوجه نحو الديار المصرية، حتى وصل إلى الرملة، وأنه دُعي له على جميع منابر الشام. أفلق هذا الأمر أونوجور والقادة في مصر، فتحركت الجيوش على رأسها كافور غلام الإخشيد، وتم اللقاء بين الجانبين في معركة هائلة، هُزم فيها سيف الدولة، وارتدَّ إلى الشام، وتبعته جيوش مصر، فتخلَّى عن دمشق وحلب، وانهمز إلى الرقة^(١). واضطر سيف الدولة إزاء هذا الانكسار، الذي تعرضت له قواته إلى العود إلى اتفاق الصلح، الذي أبرم من قبل مع الإخشيد، فكانت دمشق لأونوجور، وحلب وما وراءها شمالاً في يد سيف الدولة، وأقر أونوجور يأنس المؤنسي على دمشق، وعاد بقواته مع عمه الحسن، وقائده كافور إلى مصر سالمين^(٢).

استغل أبو نصر غَلْبُون بن سعيد المغربي (متولى أسيوط وإحميم من صعيد مصر) خروج الجيوش لمجابهة سيف الدولة بالشام، فخلع الطاعة، فأرسل إليه كافور من الشام جنداً محاربه، لكنه نجح في إنزال الهزيمة بهم واتسع نفوذه، فوصل إلى الشرقية، ومنها وصل إلى القسطنطينة، ونزل دار الإمارة بها، فخرجت إليه جماعة من الجند الإخشيدية، وطاردوه ولحقوا به وقتلوه، وخلصوا البلاد من شره المستطير، الذي أدى إلى تعطيل الحج في مصر؛ لشدة الانشغال بثورة هذا الثائر، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٦هـ^(٣).

يبدو أن المكانة التي شغلها كافور في عهد الإخشيد، ودوره في إلحاق الهزيمة بسيف الدولة بالشام باعتباره قائد الجيش، وجهوده في تهية الأوضاع بالشام، ثم خلو الساحة من بعض ذوى النفوذ والسيطرة في مصر آنذاك^(٤). كل ذلك مهَّد له الأمر لفرض نفسه على مجريات الأمور، فأصبح مدير شئون أونوجور، والقائم على أمر ولايته. ووصل الأمر به أن شغل الأمير الحدث

(١) حول تفاصيل صراع كافور وسيف الدولة بالشام تراجع المصادر والمراجع الآتية: المغرب - قسم مصر - ص ١٩٧-١٩٨، ومختصر تاريخ دمشق ١٢٩/٢١، ولهاية الأرب ج ٢٨ ص ٥٠، ومرآة الجنان ٣١٩/٢، والبدية والنهاية ٢٢٧/١١، وتاريخ ابن خلدون ٣٠١/٤، وصبح الأعشى ١٦٤/٤، والمقفى ٣١٥/٢، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٥٣-٣٥٤، والعلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولوني والإخشيدى، للدكتور زيود ٣١٥-٣١٧، وبحث (دور الحمدانيين في حماية النفور الإسلامية)، للدكتور فهمي عبد الجليل (في مجلة ندوة التاريخ)، العدد الثامن ١٩٩٠م، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) النجوم ٣/٣٣٥.

(٣) الذيل على كتاب الولاة للكندي ص ٢٩٥-٢٩٦، ولهاية الأرب ٥١-٥٠/٢٨ وتاريخ الإسلام ٣٦/٢٥ والمقفى ٣١٥/٢.

(٤) مثل: صاحب الخراج محمد بن علي بن مقاتل، الذي قبض عليه في بداية عهد أونوجور، وسجن حتى مات ٣٥٠هـ (المغرب - قسم مصر - ص ١٩٨، والمقفى ٣١٤/٢، والنجوم ٣٧٦/٣)، والحسن بن طغج الذي توفى سنة ٣٤٢هـ بالرمة (المصدر السابق ٣٥٤/٣). ومحمد بن علي المافرائي الذي توفى ٣٤٥هـ (المصدر السابق ٣٦١/٣).

عن شئون البلاد^(١)، وأصبح هو الأمر الناهي، والحاكم الحقيقي لها. والظاهر أن الخلاف الذي دبَّ بين أونوجور وكافور تصاعد شيئاً فشيئاً بدءاً من سنة ٣٤٣هـ بازدياد نفوذ كافور، حتى بلغ أوجَه سنة ٣٤٧هـ، بعد أن شبَّ أونوجور، وأصغى لوجوه الأمراء والقواد، الذين حرصوه، بل تأمروا معه ضد كافور؛ ليسترد ملكه المغتصب، وليدفع عن نفسه الحجر الذي فرضه كافور عليه، ولعله سيثم حياة اللهو والصيد والملاذات التي يعيشها. لكن كافوراً تنبه لذلك الأمر، وتدخلت أم أونوجور، وأصلحت بينهما؛ خوفاً على ابنتها من بطش كافور، وإشفاقاً عليه من عواقب الفتنة^(٢) وظلت الأمور تسير على هذا النحو حتى توفي أونوجور - بعد مرض شديد أَلَمَ به - يوم السبت السابع، أو الثامن من ذى القعدة سنة ٣٤٩هـ، ودفن بالقدس عند أبيه^(٣)

بعد وفاة أونوجور بن الإخشيد، أقام كافور أخاه أبا الحسن علي بن الإخشيد مكانه، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج، وأضاف إليه الشام، كما كان لأبيه ولأخيه من قبل^(٤). وبالرغم من كبر سن عليّ نسبياً عن أخيه أونوجور عند ولايته مصر^(٥)، إلا أنه كان أضعف من أخيه وأقل شأناً؛ نظراً لازدياد نفوذ كافور^(٦) عن ذى قبل.

وقد تعرضت مصر والشام وأقريطش^(٧) في عهده لتكبات متواليات، أسفرت عن تأمر سيف

(١) فكان يطلق كل عام ٤٠٠ ألف دينار (الخطط ٣٢٩/١، والنجوم ٣٣٤/٣)، ويتركه مُغرَى بالصيد والأكل والشرب والتبذير (المقفى ٣١٧/٢).

(٢) تراجع ذلك الخلاف في: (تاريخ الإسلام ٢٥/٢١٨، وتاريخ ابن خلدون ٤/٤٠٨، والمقفى ٣١٧/٢) (وفيه أن أنرجور شكاً كافوراً لغاتك غلام أبيه الإخشيد، عندما ذهب إلى الفيوم، فوعده فاتك النصر، ثم لم يجرؤ على مخالفة كافور، فغضب أونوجور، ومهادى في لومه ولعبه).

(٣) وفيات الأعيان ٩٩/٤، والخطط ٣٢٩/١، (مع ملاحظة وجود تحريف - في الغالب - في تاريخ وفاته فحمل لفظة سبع بدلاً من تسع)، والنجوم ٣٣٥/٣.

(٤) النجوم ٣٣٦/٣. ذكر أن كنية (عليّ بن الإخشيد) هي (أبو الحسين) على سبيل التحريف.

(٥) فقد كان عمره حوالى ٢٣ سنة؛ لأنه ولد يوم الثلاثاء ٢٦ من صفر سنة ٣٢٦هـ بمصر (وفيات الأعيان ١٠٠/٤).

(٦) هو كافور بن عبد الله الإخشيدى. كان عبداً لبعض أهل مصر، ثم اشتراه الإخشيد سنة ٣١٢هـ. وظل يترقى في المناصب، حتى غدا قائد جند ولَدَى الإخشيد؛ لنشاطه، وذكائه، وإخلاصه. وكان له موقع متميز لديه. وساعدته الظروف على الاستبداد بالحكم في مصر، وكان له فضل تأخر استيلاء البيهدين على مصر، وتوفى سنة ٣٥٧هـ (ترجمته في مصادر كثيرة، منها: المصدر السابق ٩٩-١٠٥، والخطط ٢٦٦-٢٧٠، ومخطوطة (ترجمان الزمان في تراجم الأعيان) لابن دقماق (نسخة مصورة عن أحمد الثالث) ورقة ٤٥-٤٦، والنجوم ٢٠٣-١٢).

(٧) جزيرة مهمة يونانية تقع في بحر المغرب (الأبيض)، وهى جزيرة كريت الآن. (الأنساب ٢٠٠/١) ومعجم البلدان ١/٢٨٠، وهامش ٦ ص ١٢ تحقيق (عيون الأنباء) لابن أبي أصيبعة، وتعليق محقق (نهاية الأرب ج ٢٨ ص ١٢١، هامش ١). وحول فتح هذه الجزيرة وإرتباطها الإدارى بمصر، وسقوطها على يد رومانوس البيزنطى ٣٥٠هـ، واستنجد أهلها بكافور وبالمز في المغرب، واستعداد المز تحريك أسطوله بالتعاون مع أسطول مصر؛ لضرب الروم. لكن عدم استجابة مصر له، حمله يترافع فيما يبدو. حول ذلك كله، وهدف المز من وراء هذا التدخل تراجع: -

الدولة مع القرامطة، فأمدهم بما احتاجوا إليه من الحديد لتصنيع السلاح اللازم للهجوم على طَبْرِية، والاستيلاء عليها من أيدي على بن الإخشيد وجنده، وذلك سنة ٣٥٣هـ^(١). وكانت قد سبقتها اضطرابات في مصر سنة ٣٥١هـ؛ بسبب الغلاء الفاحش الذي تعرضت له مصر بعد انخفاض مياه النيل^(٢). ويدعو أن الروم استغلوا هذه الظروف القاسية، فهاجموا بلاد الشام، وامتلكوا كلاً من: حلب، والمَصْبِصَة، وطَرَسُوس^(٣). وظلت الأحوال تنتقل من سيئ إلى أسوأ، حتى مات على بن الإخشيد عليلاً لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة ٣٥٥هـ^(٤).

استبد كافور بالأمر صراحة بعد موت على بن الإخشيد، وأعلن أنه ولي من قبل الخليفة المطيع على مصر والشام، وذلك في صفر ٣٥٥هـ^(٥)، رافضاً تولية (أحمد بن علي بن الإخشيد)؛ لصغر سنه^(٦). وفي فترة حكم كافور تلك لم تعرف البلاد الهناقة والاستقرار ما بين هجوم القرامطة^(٧)، والعبيدين^(٨)، والزلازل المروعة والقحط والمجاعات^(٩). ولم يستطع كافور - رغم كفاءته^(١٠) - السيطرة على شئون البلاد، حتى رحل عن دنيانا في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ^(١١).

- المجالس والمساربات ص ٤٤٢-٤٤٧، والمز لدين الله، للدكتور حسن إبراهيم حسن وغيره ص ٤٨-٥١، وتاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص ٦٩.

(١) البداية والنهاية ٢٧٠/١١، ومخطوط (عقد الجمان) للعيني (نسخة أحمد الثالث) ورقة ٤٨.

(٢) المخطوط ٣٢٩/١-٣٣٠.

(٣) وفيات الأعيان ٩٩/٤، وتاريخ الإسلام ١٥٠/٢٦.

(٤) وفيات الأعيان ٩٩/٤، والنجوم ٣٧٤/٣.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٩١/١٦.

(٦) كان ابن إحدى عشرة سنة يوم وفاة كافور (النجوم ١١/٤).

(٧) هاجم أعراب بني سليم ركب الحخيخ من مصر والشام سنة ٣٥٥هـ، وتمزق الناس في الصحارى، وفقد أهل الشام أموالهم، التي فروا بها من هجوم الروم عليهم (الكامل ٢٩٦/٧، ورواة الجمان ٣٥٨/٢). ويدعو أن هؤلاء الأعراب كانوا من القرامطة - أو على صلة بهم - ويدعو أن كافوراً كان على علاقة حسنة بصاحب هَجَرَ القرمطي، إذ وافق رسله مصر، عاتدة بما تيسر استرجاعه من مناع هؤلاء الحخيخ. ورد كافور ذلك المناع إلى أصحابه (الذيل على الولاة للكندي ص ٢٩٧).

(٨) كان كافور يظهر الرد واللين للمعز، ويظهر الخضوع للعباسيين، ويخضع هؤلاء وهؤلاء (سير أعلام النبلاء ١٩٢/١٦). وكان يتبادل الهدايا مع المعز (مخطوطة عقد الجمان، نسخة أحمد الثالث، أحداث ٣٥٣هـ) ورقة ٤٤، وتاريخ الإسلام ١٥١/٢٦. لكن هنا لم يمتعه من صد حملة المعز على الواحات (المخطوط ٢٧/٢).

(٩) المصدر السابق ٢٧/٢.

(١٠) حول موهب كافور وعناصر نجاحه في حكم مصر، لولا انخفاض النيل والكوارث (راجع: مخطوط أعيان المعصر وأعيان النصر - نسخة دار الكتب المصرية، للصفدي ورقة ١٤٣-١٤٤، والمخطوط ٢٠٧/٢، ومصر في عصر الإخشيديين ١٣٣-١٣٤).

(١١) وهو المرجع عندي؛ بليل ما ذكره الذهبي، وابن خلدون من أنه ولي مستقلاً بمصر عامين، وأربعة أشهر (تاريخ الإسلام ١٥٢/٢٦، وتاريخ ابن خلدون ٤٠٩/٤).

اجتمع الرأي على تولية أبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد شئون مصر على أن يدبر له الأمر الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات^(١)، لكن الدولة الإخشيدية كانت تعاني الاحتضار؛ نتيجة عدم وجود القيادات القادرة على انتشال البلاد مما هي فيه، ناهيك عن الأزمات الاقتصادية الطاحنة الناتجة عن نقصان مياه النيل؛ مما أدى إلى انتشار الأوبئة والمجاعات بين الناس^(٢)، بالإضافة إلى سيطرة الحسن بن عبيد الله بن طغج على الرملة، وأخذة البيعة لنفسه هناك، واحتجانه أموال كافور بالشام لنفسه^(٣)؛ مما عجل بمقدم جيوش العبيديين بقيادة جوهر، الذي لم يلق سوى مقاومة من بقايا الإخشيديين في مصر والشام^(٤)، استطاع بعدها أن يقنع أهل مصر أنه أمين على أرواحهم، وأموالهم، وعقائدهم، فدخلها دخول الفاتحين في شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ^(٥).

مصر تحت نير^(٦) العبيديين من سنة (٣٥٨هـ - ٣٩٩هـ / ٩٦٩ - ١٠٠٨م)^(٧):

رأينا - فيما مضى - كيف دأب العبيديون منذ بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، على توجيه الحملات العسكرية، واحدة تلو الأخرى إلى مصر؛ لإخضاعها لنفوذهم،

(١) له ترجمة في: (تاريخ بغداد، ٢٣٤/٧-٢٣٥، ومعجم الأدباء ١٦٣/٧-١٧٦).

(٢) للغزب (قسم مصر)، ص ٢٠١، والخنط ٩٩/١.

(٣) الذيل على كتاب الولاة ٢٩٧.

(٤) وفيات الأعيان ٦١/٥، وغاية الأرب ٦١/٢٨-٦٢، والنجوم ٣١/٤-٣٢.

(٥) حول أمان جوهر للشعب المصري براجع: اتعاظ الخفا (ط. الفكر العربي ١٩٤٨) ص ١٤٨-١٥٣، ومصر في عصر الإخشيديين ٣٦٦-٣٧٠، وذكره حسن عبد الحميد ٢٦١-٢٦٤.

(٦) الخشية المفترضة فوق عنق الثور، أو عنق الثورين المقرونين؛ بجزء المخرات أو غيره. (المعجم الوسيط، مادة: ن. ي. ر.) ج ٢ ص ١٠٠٥. وهذا يدل على مقدار ما سبغناه المصريون من قيود وأغلال تحت الحكم العبيدي.

(٧) اختلف المؤرخون حول صحة ما أدعوه من الانتساب إلى (إسماعيل بن جعفر الصادق)، وانتهاء بالسيدة (فاطمة الزهراء)، التي لقبوا لأجل انتسابهم إليها بـ (فاطميين):

١- من المؤيدين: ابن خلدون في: (أخبار ملوك بني عُبد وسيرهم) ص ٣٥، وبعدها، وابن الأثير في: (الكامل) ٤٤٦/٦-٤٤٨، والمقريزي في: (اتعاظ الخفا- ط. دار الفكر - ص ١٧، ٢٥-٧٠)، والمقفي ٥٢٣/٤-٥٧٠.

٢- ما عليه أغلب المحققين: وهم علماء أهل السنة والفتاوى أصحاب التواريخ والأنساب، الذين يرون أنهم كاذبون فيما ادعوه من نسب؛ لأنهم رافضة خبيثاء. وهم أصل القرامطة، الذين هلك الدين على أيديهم. وأثبت الوثائق أن الصلة جد وثيقة بين العبيديين والقرامطة. (راجع: الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٤١-٤٢، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (ط. بروفنسال) ص ٥٤، وكشف أسرار الباطنية للحمادي ص ٢٠-٢٩، ٣١ وما بعدها، والمثل والمثل للشهرستان ١٤٧/١، ١٦٧-١٦٨، ١٩١، ومعالم الإيمان ٣/٣٤، وكتاب (فضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي) للدكتور عبد الحليم عويس.

٣- خلاصة الرأي عندي: أنه لا يصح نسب هؤلاء العبيديين؛ لعدم جدارتهم بالانتساب إلى بيت النبوة. ولو فرض - حداً - صحة نسبهم، فأعلمهم لا يحملهم جذرين حقيقة هذا الانتساب. وسبقنا إلى إقامتهم حجة للمؤرخين -

ماواتهم ظروفهم الداخلية، وشجعتهم أحوال البلاد المصرية. وتعد آخر هذه المحاولات وأنجحها تلك الحملة التي قادها جوهر^(١) من قبل المعز، التي تضافرت على تحقيق أهدافها عدة عوامل سبقتها^(٢)، وسياسة متوازنة صحتها^(٣)، وأخيراً حُنْكة ومهارة في إدارة شئون البلاد تبعتها. والذي يعين في - المقام الأول - الخطوط العامة للسياسة، التي انتهجها جوهر في مصر بعد دخولها، ويمكن تركيز تلك الخطوط فيما يلي:

أولاً - بذل القائد جوهر جهوداً كبيرة؛ لبسط نفوذ الدولة الشيعية الإسماعيلية على كافة أنحاء مصر، مع قبضة كافة الأحواء فيها؛ لتستقبل سيده ومولاه المعز. ومن هنا، فقد بادر إلى إنشاء عاصمة للدولة الجديدة سميت (القاهرة)، وعُنِي بإنشاء قصر للمعز بها، يكون مقراً للحكم، وإقامة مسجد جامع بها، يكون مركزاً لنشر المذهب الشيعي للدولة الجديدة^(٤).

ثانياً - تخفيف المعاناة عن جموع الشعب المصري، الذي طحنته المجاعات سنوات

- النفقات كالذهبي، الذي سُمِّاهم العبيدين، ووصم من لقيهم بالخلفاء الفاطميين بألم حيلة الناس (تاريخ الإسلام: ٢٣/٢٤). وأخيراً، فالحدث يقول: "وَمَنْ نَطَأَ بِهِ عَنَّهُ، لَمْ يُسْرِغْ بِهِ نَسَبُهُ". (ذيل حديث طويل لرسول الله ﷺ، أخرجه مسلم في (صحيحه)، كتاب (الذكر والدعاء)، باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) ج ٤ ص ٢٠٧٤ (رقم ٢٦٩٩). وشرحه النووي في شرح (صحيح مسلم) ج ١٧ ص ٢١-٢٢. وكذا أخرجه ابن ماجه في (سننه) في (المقدمة)، باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) ج ١ ص ٨٢ (حديث ٢٢٥) بلفظ: "وَمَنْ أُنْطَأَ".
- (١) هو القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله الرومي، المعروف بـ (الكاتب). كان من موالى المعز، وارتقت مكانته لديه بدءاً من سنة ٣٤٥هـ، وبلغ مكانة كبرى بفتح المغرب الأوسط والأقصى ٣٤٧هـ. وورثه ذلك لإرسال المعز له في الخيوش إلى مصر، فكان عند حسن الظن به وفتحها ٣٥٨هـ، وضبط أمورها حتى دخلها مولاه ٣٦٢هـ. ثم خبا ذكره حتى ظهر أيام العزيز في حرب هفتكين التركي. توفي جوهر ٣٨١هـ. (مخطوط تاريخ دمشق ٥٣/٤، والكمال ٢٦١/٧، ٤٥٦، ووفيات الأعيان ٣٧٥/١-٣٨٠، والبيان المغرب ٢٤٥/١ وسير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦-٤٦٨، وتاريخ الإسلام ٣١/٢٧-٣٢، والوفاء بالوفيات ٢٢٤/١١-٢٢٦، والمخطوط ٣٧٧/١-٣٧٩، والنجوم ٢٩/٤-٣٥).
- (٢) تتمثل في ضعف الخلافة العباسية وانتفاخها في مصر بالفتن والصراعات وما عانته مصر من مجاعات وقحط، وأوبئة وأمراض، ثم انتشار الدعاة العبيدين يتون أفكارهم بين الناس بحرية وعلاية، خاصة أيام حكم كافور، إلى جانب مكاتبات جعفر بن الفضل بن جعفر بن القرام للمعز، وإغرايات ابن كلس له بالمغرب بالهني إلى مصر، إلى غير ذلك من العوامل الدخانية، التي تراعى تفاصيلها في: (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة لابن سعد ص ١٠١، وكتو الدرر ١٢٠/٦-١٢١، ١٢٨، ٢٢٦، وسير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦، وفوت الوفيات ٢٩٣/١، والفضائل الباهرة لابن ظهيرة ص ١٨٠، وصح الأعشى ٣/٣٤٥، وتمام الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٣، والمخطوط ٢٧/٢، ومصر في عصر الإخشيديين، للذكورة سيبة كاشف ص ٣٦٠-٣٦٥، وبحت دكور حسن على حسن في (مجلة ندوة التاريخ)، المجلد الرابع (١٩٨٤م) ص ٣٨٠-٣٨٩.
- (٣) في برد الأمان الذي أعطاه لأهل مصر (حللها كل من: علي إبراهيم حسن في: تاريخ جوهر الصقلي ص ٤٣-٤٤، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٣٧٠، وبحت د. حسن على في (مجلة ندوة التاريخ)، المجلد الرابع (١٩٨٤) ص ٣٨٠-٣٩٠، وماجستير شبان أبي الزيد عن (التخطيط الإعلامي) ص ١٣٥-١٣٨ وما بعدها).
- (٤) المخطوط ٣٧٨/١، ٢٧٣/٢-٢٧٤، وتمام الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٥٤-١٦٢، والنجوم ٣٥/٤ وما بعدها، وسَمَطُ النجوم العوال ٤٠٧/٤.

متواليات، فاستحدثت من السياسات ما يضمن به توفير الأقوات لتلك الأفواه الجائعة، والبطلون الخاوية^(١). وفي الوقت نفسه اتبع طريق الحزم والشدة مع كل من يعكر صفو الأمن، أو يلجأ لأسلوب السلب والنهب، فضمن بذلك احترام ممتلكات الناس، وعم ترويع الآمنين منهم^(٢)، فاستقرت الأوضاع، ووثق الناس بما وعدهم في وثيقة الأمان. وسهّل ذلك عليه القضاء على شراذم الجند الإخشيدية ومن ثار معهم من القادة^(٣)، الذين ساءهم أن يفقدوا سلطاتهم ونفوذهم.

ثالثاً - بعد أن اطمأن الناس إلى عدله وكفائته^(٤)، أخذ في القيام بإجراءات وتعديلات إدارية ومذهبية متدرجة^(٥)؛ كى يضمن بما عدم ثورة الناس من جهة، وصبغ الدولة بالصبغة الشيعية، التي يدين بها من جهة أخرى.

رابعاً - وجّه جوهر القائد جعفر بن فلاح^(٦) إلى الشام؛ للسيطرة عليها، فالتقى بالرملة الحسن بن عبيد الله بن طنج (صاحب الشام)، فهزمه جعفر وأسره، وأرسله إلى مصر^(٧). ثم سار

(١) نهاية الأرب ٢٨/١٣٠، وإغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزي ص١٣، واناظر الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٦٩، وتاريخ جوهر الصقلي، لعلي إبراهيم حسن ص٧٥.

(٢) سمر أعلام النبلاء ١٦/٤٦٧، واناظر الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص١٦٨، وتاريخ جوهر الصقلي ص٧٦، والشرطة في مصر الإسلامية ص٦٧.

(٣) مثل: ثورة القائد تير الإخشيدى، الذى ثار بأسفل الأرض، داعياً للخليفة المطيع لله، ولم يجب جوهرًا إلى الطاعة، وذلك في شعبان سنة ٣٥٩هـ، وأعمل النهب والسلب، فحورب، فاهزم وطورد، ففر يبريد الشام، لكنه قبض عليه في صفر بالشام، وحُبس، فحرق نفسه، فمات سنة ٣٦٠هـ. (نهاية الأرب ٢٨/١٣٤، والخطط ٢/٤١٣)، والمقفى ٢/٥٨٥.

(٤) كان جوهر يجلس للمظالم كل أسبوع يوماً، ثم عين صاحباً للمظالم. وهذا يدل على مدى حرصه على رد الحقوق لأهلها، وإشاعة العدل، حتى أتى عليه الناس؛ لحسن سيرته فيهم. (وفيات الأعيان ١/٣٧٩، واناظر الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص١٦٥، والخطط ٢/٢٠٧، والنجوم ٤/٣٤٤).

(٥) ومثل ذلك في وضع موظف مغرب مع كل موظف مصرى في الدواوين، وكذلك مع القاضي المصرى أبى طاهر النُعلَى وُضِعَ قاضٍ للمغاربة (ابن توبان). وبالتدريج يتم إلقاء دور الموظف والقاضى المصرى؛ ليحل محله المغربى؛ لتلا يثور الناس. بالإضافة إلى تعديلات في الأذان، وزى الخطباء، وقطع الخطبة للباسيين، وجعلها للمعز العبيدى، وغير ذلك من مبتدعات في العبادات. (أخبار الدول المنقطعة ص٢٩، وأخبار ملوك بنى عبّيد ص٥٠، والكامل ٧/٣٠٩-٣١٠، ونهاية الأرب ٢٨/١٣٣، وكتا الدرر ٦/١٣١، وتاريخ الإسلام ٢٧/٣١-٣٢، وعظومة (عيون التواريخ) - النسخة التيمورية ١٢/٥٦، والخطط ٢/٢٧٠، ٣٤٠، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٣٠٧، وبحث (أهل الغمة والإدارة الإسلامية)، للدكتور فهمى عبد الجليل، المجلد الثانى، ١٩٨٢ (ص١٤٢).

(٦) له ترجمة في: (وفيات الأعيان ١/٣٦١-٣٦٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/٢٠١).

(٧) البيان المغرب ١/٢٢١، ونهاية الأرب ٢٨/١٣٥، وتاريخ ابن خلدون ٤/٦١-٦٢. وقد أرسله جوهر ومجموعة الإخشيديين من مصر إلى المغرب بالتاريخ (تاريخ الإسلام ٢٦/٤٤، واناظر الحنفا - ط. دار الفكر العربي - ص١٦٧).

جعفر - بعد ذلك - إلى دمشق، فملكها سنة ٣٥٩هـ^(١). وفي سنة ٣٦٠هـ، غزا الحسن الأعصم^(٢) القُرْمِطِيَّ الرملة^(٣). وتقدمت جيوش القرامطة سريعاً، قاصدة السيطرة على مصر، فأخذ جوهر يتأهب لقتالهم، وقام بجفر عدة خنادق؛ للدفاع عن البلاد، وفرق السلاح على المغاربة والمصريين معاً؛ مما يدل على دقة موقفه وحرصه الشديد. وواصل القرامطة زحفهم حتى بلغوا (عين شمس) في المحرم سنة ٣٦١هـ. وفي مستهل ربيع الأول التحم الفريقان على باب القاهرة، واستمر القتال أياماً، حتى أوقع جوهر الهزيمة بأعدائه، الذين سقط منهم قتلى كثيرون، ونُهبت خيامهم بتدبير جوهر مع الأعراب من بني عقيل، وبني طَيٍّ، مقابل جوائز أنفذهما إليهم. واضطر القرمطي بعد هزمته المنكرة، التي لم يذق القرامطة مثلها من قبل، إلى الانسحاب. ولولا خشية جوهر من الحيلة والمكيده في القتال ليلاً، لطارد فلولهم، وقبض على زعيمهم. وقام جوهر بالقبض على نحو ألف من الجند الكافورية والإخشيدية، الذين كانوا يقاتلون مع القرامطة^(٤)؛ نكاية في العبيدين. وبذلك هيأ جوهر الأمور، ومهد البلاد لاستقبال مولاه المعز تمهيداً.

استنهض القائد جوهر مولاه المعز، وطلب إليه المسير إلى مصر، شارحاً له خطورة القرامطة على مصر والشام^(٥). هنا نظر المعز في شئون المغرب قبل الرحيل عنه، واستتاب عنه يوسف بن زيري، وفوَّض إليه أمور البلاد، وأمر الناس له بالسمع والطاعة^(٦)، وزوده بنصائح تعينه على حكم تلك البلاد^(٧). وبعد ذلك سار المعز في طريقه إلى مصر، حاملاً ركائبه وخزائنه، ومعه جيوشه وآل بيته وحاشيته، وتوالت آيائه، فوصل إلى الإسكندرية لست بقين من شعبان سنة ٣٦٢هـ، فاستقبله قائده جوهر، وكبار رجال مصر وأعيانها، وقاضيه أبو طاهر الذُهَلِيّ. وقد أحسن المعز استقبالهم، فأكرمهم وخلع عليهم،

(١) نهاية الأرب ١٣٥/٢٨.

(٢) هو أبو علي الحسن بن أحمد بن أبي سعيد حسن بن بهرام الجُبَّائِي القُرْمِطِيّ. ولد ٢٧٨هـ، وأصله من الفرس. سيطر على الشام سنة ٣٥٧هـ، ثم عاد إليها سنة ٣٦٠هـ، وهزم جعفر بن فلاح وقتله. وتوفي بالرملة سنة ٣٦٦هـ، وبوفاته كتبت نهاية القرامطة إلى حد كبير (سير أعلام النبلاء ١٦/٢٧٤-٢٧٥)، والمعر للذهبي ١٢٣/٢، والوفاء بالوفيات ١١/٣٧٣-٣٧٦، ورواة الجنان ٢/٣٨٥، والبداية والنهاية ١١/٣٠٥-٣٠٦.

(٣) البيان المغرب ١/٢٢٨، ووفيات الأعيان ٢/١٤٩-١٥٠، والدولة الفاطمية للدكتور عبد الله جمال الدين ص ١٦٠.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، لابن القلاسي - (ط. أمدرود) ص ٢، والكامل ٧/٣٢٦-٣٢٧، وفوات الوفيات ٢/٦٢، واتعاط الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ٢٥٠-٢٥١، وتاريخ الخلفاء ص ٤٥٩.

(٥) تاريخ الدول المنقطعة ص ٢٥.

(٦) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، لابن سعيد ص ٤٤-٤٥، واتعاط الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٢-١٤٣. ويراجع التعليق على هذا الاختبار في: (معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ١٣٨-١٣٩، وقيام الدولة الفاطمية، لعادلة علي الحمد ص ٢٤٨).

(٧) اتعاط الحنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٥، والمؤنس لابن أبي دينار ص ٧٥، ويراجع شرح د. حسين مؤنس لهذه الوصايا والنصائح في العالم ص ١٣٨.

وأعلمهم أن هدفه الحق والجهاد ضد الروم، وأن غايته أن يقيم أوامر حده ﷺ، وأن يُخْتَمَ له بالصالحات^(١). وتقدم بعد ذلك نحو القاهرة، ودخل قصره بها في الخامس من رمضان سنة ٣٦٢هـ^(٢).

ظهرت أولى ملامح سياسة المعز، لما جمع أشرف أهل مصر، وكان قد سأله بعضهم عن نسبه، وسَلَّ لهم نصف سيفه، وقال: هذا نسبي. ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبي. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا^(٣). وهذا يعني أن سياسته قائمة على (الترغيب، والترهيب)، وأن مَنْ لم يُغْرِه المال أُرْهِبهِ السيف. إلا أن ذلك لا يمنع من بيان بعض الخطوات الإيجابية، التي سلكها المعز في إدارة شئون مصر، مثل اهتمامه بالمظالم^(٤)، وتنظيمه أمور الجند ومكان سكناتهم خارج القاهرة^(٥)؛ لتلا يضيّقوا على الناس دورهم، إلى جانب التنظيمات الداخلية، التي أحدثها في شئون المال والخراج، والشرطة، والحسبة، وغيرها من الأعمال^(٦). وحرص المعز على إشاعة الأمن بين الناس^(٧)، ويُذَكِّر له تأمينه طريق الحج البري، فسلكه الحجاج بعد انقطاع دام سنين^(٨).

وعلى الصعيد الخارجي كان اهتمام المعز بشئون الحجاز عظيماً^(٩)، وكان حريصاً على بسط نفوذه هناك، وأن يُدْعَى له بالخرمين الشريفين بدل الخليفة العباسي^(١٠)، على اعتبار أن ذلك نوع من الزعامة الروحية، التي يتطلع إليها المعز؛ لتحقيق أهدافه في إمامة المسلمين

(١) مخطوطة (تاريخ القضاء)، نسخة البلدية، ورقة ١١٨، والكمال ٣٣٢/٧، وسير أعلام النبلاء ١٦١/١٥-١٦٢.

(٢) مخطوطة (تاريخ القضاء)، نسخة البلدية، ورقة ١١٨، وأخبار الدول المتقطعة ص ٢٥، والكمال ٣٣٢/٧، ووفيات الأعيان ٢٢٧/٥، وكتر الدرر ١٤٧/٦.

(٣) أخبار الدول المتقطعة ص ٢٧-٢٨، ووفيات الأعيان ٨٢/٣.

(٤) كان النظر فيها يضاف إلى (قاضي القضاة) تارة، وأخرى ينفرد بها أحد عظماء الدولة (الخطط ٢٠٧/٢).

(٥) اتعاط الخنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٩٧، والوئس ٦٦.

(٦) تراجع أعماله الداخلية، والمناصب المسندة إلى وزيره يعقوب بن كلس في: (اتعاط الخنفا- ط. دار الفكر العربي - ص ١٩٢-١٩٦، والشرطة في مصر الإسلامية ص ٢٠٩).

(٧) اتعاط الخنفا (ط. دار الفكر العربي) ص ١٩٤.

(٨) كان ذلك سنة ٣٦٤هـ (المصدر السابق: الطبعة الثانية، طبعة المجلس الأعلى ١٩٦٧م) ج ١ ص ٢٢٣.

(٩) أدرك المر بثابت فكره أهمية الحجاز منذ كان بالمغرب؛ لذلك رأبها يتدخل في الحرب بين بني حسن، وبني جعفر بن أبي طالب بالحجاز، فأرسل ملاً ورجلاً سراً، سحوا بالصلح بين الطرفين، ودفعوا ديوات القتلى عن بني حسن، وتم الصلح في المسجد الحرام سنة ٣٤٨هـ. عرف بنو حسن ذلك الجميل للمعز، وبادروا بالدعاء للمعز لما فتح جوه مصر، فقلد حسن بن جعفر الحسني الحرم وأعماله. (اتعاط الخنفا- ط. دار الفكر العربي) ص ١٤٥-١٤٦.

(١٠) دُعي للمعز في الحرمين مكان الخليفة العباسي سنة ٣٦٣هـ (الكمال ٣٤٩/٧، و امرأة أجنان ٣٧٩/٢، والبدابية والنهاية ٢٩٥/١١).

جميعاً، وسحب البساط من تحت قدمي الخلافة العباسية^(١).

أما بالنسبة للقرامطة، فإن المعز لما قدم إلى مصر وتيقن خطراً عليهم عليه وعلى دولته، أرسل إلى زعيمهم (الحسن بن أحمد القرمطي) كتاباً مطوّلاً مفصلاً يهدده فيه ويتوعده، ويحضه على اتباع آباءه الذين كانوا يتبعون العبيدين، ولا يخرجون عن مراسمهم في جميع تصرفاتهم^(٢). وكان رد القرمطي موجزاً معبراً^(٣)، أردفه بتسيير جيوشه إلى مصر، وذلك سنة ٣٦٣هـ. وقد توجهت سرايا من هذه الجيوش للسيطرة على الوجه البحري، بينما توغلت الأخرى في الصعيد. وقد أعمل المعز الجانب الحربي^(٤) والمعنوي^(٥) معاً في مواجهة القرامطة، حتى تمكن - في النهاية - من إلحاق الهزيمة بهم، وطاردتهم قواته إلى بلاد الشام^(٦). وهكذا، تمكن المعز بخبرته ودهائه من السيطرة على مصر، ورد الخطر الخارجي عنها، وظل - كذلك - النجم الأواحد اللامع في حكم مصر، حتى وافته المنية في شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ^(٧).

بعد وفاة المعز ولى بعده ابنه العزيز، الذي اتسم عهده بالتسامح المفرط مع أهل الكتاب، فاتخذ يعقوب بن كلس اليهودي الأصل له وزيراً، يدير له دولته، ويصرف له شئونها^(٨)، فقام ابن كلس بهذه المهام أحسن قيام^(٩)، حتى إن العزيز لم يعزله من منصبه سوى

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٣٧، ود. عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ص ١٠٩-١١٠.

(٢) اتفرد المقرئ بمراد الكتاب بنصه كاملاً في (اتعاط الخنفا). وقد نشره د. الشبال في (ط. دار الفكر العربي ١٩٤٨) ناقصاً؛ لنقص المخطوطة (ص ٢٥١-٢٦٥)، ثم نشره كاملاً في (الطبعة الثانية، ط. المجلس الأعلى ١٩٦٧)، فورد باقي الكتاب ج ١ ص ٢٠٠-٢٠١.

(٣) أخبار الدول المنقطعة ص ٢٦، وتاريخ ابن أبي الهيثم ص ٥٢، ونهاية الأرب ١٤٨/٢٨-١٤٩، واتعاط الخنفا (ط ٢- المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٠٢.

(٤) بالاشتراك المباشر (نهاية الأرب ١٤٩/٢٨، واتعاط الخنفا (ط ٢- المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٠٢-٢٠٣).

(٥) بإعمال الحيلة عن طريق التآمر مع أمير العرب بالشام (وكان في جند القرامطة بقواته الكثيرة)، وهو حسان بن أخرج الطائي، فينهزم الطائي بجنده، ويغر من المعركة أمام المغاربة، وذلك مقابل منح المعز له مائة ألف دينار. وقد خدعه المعز بتزييف معظمها. وكان قراره سبباً في هزيمة القرامطة. (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣، والكمال ٣٤٣-٣٤٤/٧، وتاريخ ابن أبي الهيثم ص ٥٢-٥٣).

(٦) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٣، والكمال ٣٤٤/٧، وتاريخ ابن أبي الهيثم ص ٥٣، واتعاط الخنفا (ط ٢- المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٠٦.

(٧) مخطوط تاريخ القضاء (البلدية) ورقة ١٤٨، وأخبار الدول المنقطعة ٢٦-٢٧، ووفيات الأعيان ٢٢٨/٥.

(٨) كان وزير تنفيذ، كوسيط بين الإمام وعباده، معتمداً على رأى الإمام وتديروه. وعبر عنها - بعد ذلك - بالوساطة. (حول معنى الوزارة، ونوعيتها: التفويض، والتنفيذ يراجع: قوانين الوزارة للمأزدي ص ٦١-٦٩، وصبح الأعشى ٤٤٩/٥).

(٩) راجع مواصفات الوزير الجيد، والتي كان - ولا شك - يتحلّى بها ابن كلس في (المصدر السابق) ٧٧/١-٨٠).

فترة قليلة^(١)، اضطر بعدها إلى إعادته؛ لاضطراب شئون البلاد. وظل هذا الوزير في منصبه حتى وفاته سنة ٣٨٠هـ^(٢)، فضرِب العزيز في الوفاء له، والحزن عليه إبان مرض موته، وبعد وفاته، أروع الأمثلة^(٣).

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد وفاة ابن كلس ولى الوزارة للعزيز عدداً من الوزراء^(٤)، حتى وجد بغيته سنة ٣٨٤هـ في عيسى بن نسطورس النصراني، فسلم له الدواوين، فنظر فيها جميعاً وأمر ونهى، وصار الواسطة بين العزيز وسائر الناس^(٥). واستتاب بالشام يهودياً اسمه (مَنْشَأ إبراهيم بن القَزَّاز)، فاعتز بهما النصراني واليهود، وآذوا المسلمين وظلموهم، حتى شكوا المسلمون إلى العزيز، فأدرك خطأه في الاعتماد الكامل على أهل الذمة، وظهرت له خطورة ذلك على استقرار البلاد، فقبض عليهما، وصادر منهما مالاً كثيراً^(٦). وقد علل بعض الباحثين ظاهرة ميل العزيز إلى استخدام أهل الذمة في المناصب الإدارية الكبرى، بأنه كان في حاجة ماسة إلى رجال أكفأ يديرون له البلاد، كما أن بعضهم (مثل: ابن كلس) تفانى في خدمة الدولة والإخلاص لها. ويشيرون إلى سبب مهم، وهو أن العبيدين وجدوا أنفسهم أمام أهل البلاد السَّيِّئِينَ (وهم الغالبية)، الذين يعادونهم، فتعاونت الأقلية الحاكمة مع أقلية محكومة (أهل الذمة)؛ لتحقيق أغراض أهل السلطة، الذين يطمنون إليهم؛ إذ لا خطر عليهم منهم^(٧). ولا بأس من كبح جماحهم، عندما يشيع ظلمهم، بدرجة تثير جماهير أهل السنة.

(١) مدققا شهران (سنة ٣٧٣هـ)، وصودرت منه خمسمائة ألف دينار منهما بئس السم ل (ألف تكين)، ثم أعيد إلى منصبه، ورُدَّتْ له أمواله، بعد أن اختلَّت دواوين البلاد. (تكملة تاريخ الطبري، للهمذان ص ٤٤٨، والكامل ٧/ ٣٥٨، واتعاظ الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ٢٦٢/١).

(٢) المصدر السابق (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٦٨.

(٣) ذيل تجارب الأمم ص ١٨٥، وذيل ابن القلانسي ٣٢، واتعاظ الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٦٩.

(٤) المصدر السابق ٢٦٩-٢٨٣.

(٥) اتعاظ الحنفا (ط. المجلس) ٢٨٣/١.

(٦) الكامل ٧/ ٤٧٧، واتعاظ الحنفا - ط. المجلس - ج ١ ص ٢٩٧، ومخطوط عقد الحمان - نسخة أحمد الثالث - ١٠/ ١٢٣، وحسن المحاضرة ١/ ٦٠١. وأضاف بعض المصادر أن ابن نسطورس أعيد بشفاعته ست الملك بنت العزيز،

على أن يستخدم المسلمين في دواوينه (الذيل على تجارب الأمم) ١٨٦-١٨٧، وكذلك ابن القلانسي ص ٣٣، وأخبار الدولة المنقطعة ٤١، وبحث (أهل الذمة والإدارة الإسلامية)، للدكتور فهمي عبد الجليل في (مجلة الندوة) مجلد ٢/ ١٩٨٢م ص ١٤٤-١٤٥.

(٧) بحث د. فهمي عبد الجليل السابق ص ١٧٣-١٧٤، وأهل الذمة في مصر للدكتور سلام شافعي ص ٢٨، وموسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور أحمد شلي ١٣١/٥.

ويمكن تركيز أهم عناصر أحداث بقية فترة حكم العزيز في النقاط الآتية:

١- موقفه من بلاد الشام:

اهتم العزيز بإخضاع بلاد الشام لسلطته^(١)، لذا ألقاه استيلاء (ألف تكين)^(٢) على دمشق، وتهديده عدداً من بلاد ساحل الشام (مثل: صيدا، وعكا، وطبرية). وقد حاول العزيز استمالته، فأبى إلا مخالفته، فأرسل إليه الجيوش بقيادة (جوهر). لما علم ألف تكين بذلك، تحالف مع القرامطة بقيادة الحسن القرمطي، الذي أناب عنه بعض القواد، وتمكنت قواتهما معاً من إلحاق الهزيمة بجوهر، الذي تفرق من الرملة إلى طبرية، ثم عسقلان، وقد عانت جيوش جوهر حصاراً شديداً، أشرفت معه على الهلاك، إلى أن تمكن جوهر بداهته من الحصول على أمان، انسحب على أثره. بما بقي من جنده إلى مصر، بعد معارك طاحنة وظروف قاسية، استمرت من ذي القعدة سنة ٣٦٥هـ، إلى أواخر سنة ٣٦٧هـ^(٣)، حينما هبّ العزيز لنجدة جوهر، وخرج بنفسه على رأس جيش كبير، قاتل به ألف تكين في المحرم من سنة ٣٦٨هـ، ونجح في إنزال الهزيمة به وأسرته، والعودة به إلى مصر، حيث عزّزه وكرّمه، وخلع عليه^(٤). واسترضى القرامطة بسبعين ألف دينار، يدفعها لهم سنوياً^(٥)، يستجلب بها ودهم، ويتخلص من شرهم. ولعل سياسة العزيز القائمة على التسامح والعفو، هي التي أثمرت لمحوها المرجوة مع الزمن، فإذا به يتجح في احتواء القرامطة، فيأتيه رسولهم سنة ٣٨٢هـ، يُعلمه أنهم في دعوته ونصرته^(٦).

٢- صلته بكل من المغرب والحجاز:

جمعت بين كلا هذين الإقليمين؛ لأن صلة العبيديين بهما -في عهد العزيز- غدت إلى حد

(١) تعرض للأسباب الاستراتيجية لذلك الاهتمام الباحث سمير عبد الفتاح في ماحسن (مصر في عهد العزيز بالله الفاطمي) ص ١٢.

(٢) ورد اسمه بصور متعددة في المصادر: الفتيكن (الكامل ٣٥٨/٧)، وهفتكن (سير أعلام النبلاء ٣٠٧/١٦)، وأفتكن (نهاية الأرب ١٥٦/٢٨). وقد حققه د. صبحي عبد المنعم، ورجّح صورته المذكورة أعلاه بالثمن ومعناها بالتركية: عبد جلد (تاريخ ابن أبي الهيثم هاشم ٥ ص ٥٨). وهو مولى مُعز الدولة بن بُوته، وسار بقواته بعد هزيمته في فتنة الأكراد بالعراق. وتوجه إلى الشام، وسأله أهل دمشق أن يزل بينهم ويزيل عنهم حكم العبيديين، فأجابهم وأصلح كثيراً من أحوالهم، وقطع حطبة للمعز، وحطب للخليفة العباسي الطائع لله في شعبان سنة ٣٦٤هـ. ثم دخل في معارك كثيرة ضد جوهر أيام العزيز وانتصر فيها، حتى تغلّت عليه جيوش العزيز، ووقع أسيراً بعد أن ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة؛ ممّا دفع العزيز للعفو عنه وتقريبه منه في مصر. مات بعد دس ابن كلث السهم له؛ لخلاف بينهما أول ٣٧٣هـ. (الكامل ٣٥٨-٣٥٥/٧)، وسير أعلام النبلاء ٣٠٧/١٦-٣٠٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/٤٠٦-٤٠٧، وتمعّظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٦٢.

(٣) هذا هو التاريخ الذي اخترته موافقاً تفاصيل الأحداث في (تمعّظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٣٩-٢٤٢).

(٤) الكامل ٣٥٨-٣٥٧/٧، وتمعّظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٤٢-٢٤٥.

(٥) تكملة تاريخ الطبري ص ٤٤٨، والكامل ٣٥٨/٧ (جعلها عشرين ألف دينار - أحداث سنة ٣٦٤هـ).

(٦) وتمعّظ الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٧٤.

ما صلة معنوية روحية. ومع ذلك، فقد حرص العزيز منذ بداية عهده على توثيق علاقته بالمغرب، إذ أرسل سنة ٣٦٥هـ، أموالاً من دنائير الذهب إلى هناك، حيث وزعت على الناس، وأقر بُلُكَيْن (يوسف) ابن زيري^(١) على ولاية إفريقية.

وزاده ما لم يكن تحت إمرته في عهد المعز (مثل: أَطْرَابُلس، وسُرْت، وأجْدَابِيَّة)، فأرسل إليها يوسف عماله، وعظم شأنه، وأُمِّن^(٢) ناحية العزيز، واستبد بالملك، وكان يظهر الطاعة للعزيز؛ بحاملة ومراقبة لا طائل وراءها^(٣).

بالنسبة للحجاز، فقد ظل على ولائه للعزيز، فخطب له بالحرمين سنة ٣٦٥هـ، ولم تعترض السلطة البويهية الحاكمة بالعراق؛ نظراً للخلافات المحتملة بين التُّرك والذَّيْلَم هناك^(٤). ويبدو أن عطاء مادياً كان يصرف لأمرء الحجاز مقابل ذلك^(٥)، فلعله ضعف أو توقف، وربما تجرأ هؤلاء؛ لانشغال العزيز بالحروب في الشام، فلم يخطبوا له في هذا العام، إلا بعد أن استخدم القوة ضدهم، فأرسل جيشاً حاصر مكة بالتحديد، وضيق على أهلها، حتى قل الطعام، وارتفعت الأسعار، وعادوا سيرتهم الأولى^(٦). وبعد ذلك لا تقيد المصادر وجود أى تمرد، فخطب للعزيز - مثلاً - في سنوات: ٣٧٠، ٣٨٠، ٣٨٥هـ^(٧).

٣- صلته بالبويهيين، والروم، وأموي الأندلس:

تتسم علاقة العزيز بهذه القوى الثلاث بالعداء، الذي حال دون تحويله إلى صدام مباشر ظروف خدعت العزيز، ووفرت عليه ما ينتج عن ذلك من المخاطر الجسام.

(١) وفيات الأعيان ٢٨٦/١، والخطط ٢٨٤/٢ (وتوقف عند إقراره على إفريقية، وسماه تحريفاً: يوسف بن ملكين). وهو أبو الفتح يوسف بن زيري بن مَتَاد الحِمَيْرِي الصَّنْهَاجِيّ. ولاء المعز إفريقية ٣٦٢هـ، وكان حسن السيرة، تام النظر في مصالح دولته ورعيته، حتى توفي في يوم الأحد ٢١، أو ٢٣ من ذي الحجة ٣٧٣هـ في عهد العزيز. (وفيات الأعيان ٢٨٦/١-٢٨٧، والبيان المغرب ٢٣٩/١).

(٢) ورد مشدداً في (الكامل) ج ٧ ص ٣٦١، وقد يعني أن ولايته على كل تلك المناطق تأمين للوجود العبيدي في مصر. وورد مُعَرَّباً من التشديد في (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى) ١: ٢٣٨، وقد يعني هذا أن العزيز بتوليته إياه على تلك المناطق قد أعطاه الأمان والثقة، ومنحه رضاه، فيدوم على طاعته.

(٣) ورد النص كاملاً في (الكامل) ٧/٣٦١، ونقله عنه المقرئ (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٣٧-٢٣٨ بزيادة لفظة: (ومراقبة) في (الكامل).

(٤) أخبار الدول المنقطعة ٣٣.

(٥) د. عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر ص ١١١-١١٢.

(٦) الكامل ٧/٣٦٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/٦٥، واتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى - ج ١ ص ٢٣٨.

(٧) البداية والنهاية ١١/٣٠٦، ٣١٦، ٣٣٥ (على التوالي).

فبالنسبة للعلاقة مع بنى بويه، فقد كانت أعمال الجاسوسية بينهما قائمة^(١)، والرسائل الودية متبادلة^(٢). وقرب وفاة عَصْد الدولة (ت ٣٧٢هـ) كاد أن يُسَيَّر الجيوش لمهاجمة مصر، لكن خروج أخيه فخر الدولة عليه حال دون ذلك، ثم أدركته الوفاة^(٣).

وبخصوص علاقته بالروم، فقد عزم العزيز على جهادهم أكثر من مرة، وجهد لذلك الأساطيل اللازمة، لكن يبدو أن هناك عيونا للروم بين الصفوف تأمرت على سفن بنى عبيد فأحرقتها^(٤) وقد حكمت العلاقات مع الروم هدنة بين الطرفين، أظهرت ما للإسلام آنذاك من عزة ومنعة^(٥).

بالنسبة للعلاقة مع الأندلس:

لم أجد بخصوص صلة العزيز بالأمويين في الأندلس من علاقة مباشرة، سوى ما تناقلته المصادر من حادثة وحيدة، تُنم عن مدى البغض والكراهية بين الجانبين. وملخص الواقعة: أن العزيز العبيدي كتب إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي بالأندلس كتاباً، يَسُبُّ فيه ويهجو، فرد عليه المستنصر ردّاً مفجعاً قائلاً له: "أما بعد، فإنك قد عرفتنا فجهوتنا، ولو عرفناك لأجبناك"^(٦). ويعلق الذهبي قائلاً: يعنى أن العزيز دَعَى في نسبه لا تُعَرَّف له قبيلة ينتسب إليها حتى يهجو^(٧) وهكذا، عرضنا لأهم أحداث عهد العزيز، الذي توفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان ٣٨٦هـ^(٨).

ولى الحاكم بأمر الله بعد وفاة والده العزيز، وكانت سنه يومئذ حوالى إحدى عشرة سنة ونصف^(٩). وطَبَعَى ألا يكون الحاكم - في تلك السن المبكرة - قادراً على الاضطلاع

(١) راجع أخبارها المبالغ فيها في: أخبار الدول المنقطعة ٣٤، وتاريخ الإسلام ٤٧١/٢٦، واناظر الحنفا (ط. المجلس) ٢٦١/١.

(٢) الكامل ٣٩٠/٧، والعبر للذهبي ١٣١/٢، والبداية والنهاية ٣١٤/١١، وتاريخ الخلفاء ٤٦٥.

(٣) أخبار الدول المنقطعة ٢٥، واناظر الحنفا (ط. المجلس) ٢٥٢/١.

(٤) حدث ذلك سنة ٣٧٧هـ (تاريخ الإسلام ٤٨١/٢٦، والنجوم ١٥٥/٤). وسنة ٣٨٦هـ (اناظر الحنفا - ط. المجلس - ٢٩٠/١، والخطوط ١٩٦/٢).

(٥) راجع شروط الهدنة في: (النجوم الزاهرة ١٥٥/٤، وتاريخ الدولة الفاطمية د. حسن إبراهيم حسن ص ٢٥٧).

(٦) وفيات الأعيان ٣٧٢/٥-٣٧٣، وتاريخ الإسلام ١٣٠/٢٧، ومخطوط (أعيان العصر وأعيان النصر)، للصفدي (مصورة بدار الكتب) ص ٢١. (وذكر أنه لا تصح الرواية بالعكس أى: لا يصح أن يكون العزيز هو صاحب الرد المفجع؛ لأن الدعوى في نسبه هو العزيز لا المستنصر، فالأمويون نسبهم معروف مشهور، لا مجال للريبة فيه)، والنجوم ١٥٣/٤، والفتح ٥٥٨/٣، والمؤنس ص ٦٨.

(٧) تاريخ الإسلام ١٣٠/٢٧.

(٨) أخبار الدول المنقطعة ٤٢ (وذكر أنه توفى عن ٤٢ سنة، و٨ أشهر، و١٤ يوماً)، وفيات الأعيان ٣٧٤/٥.

(٩) اناظر الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ٢ ص ٤، ومصادر ترجمة الحاكم كثيرة، منها: مخطوط تاريخ القضاة، -

بمسئوليات الحكم في دولة متسعة الأرجاء كالدولة العبيدية. وقد كان الحسن بن عمار (شيخ كُتامة) ذا مكانة بارزة أيام العزيز، وتولى إدارة الدولة للحاكم، الذي خلع عليه في الثالث من شوال سنة ٣٨٦هـ، ولقبه (أمين الدولة)، فصارت إليه مقاليد الأمور. وقد أشار عليه أصحابه بالتخلص من الحاكم، لكنه لم يعبأ بذلك؛ استهانة به لصغر سنه. وفي الوقت ذاته، كان برنجوان^(١) يلازم الحاكم ويحرسه، ويمنعه الركوب، والظهور من قصره، ويتربص بابن عمار الدوائر؛ كي ينفرد بالوصاية على الحاكم من دونه. وحانت الفرصة لما اقتتل المغاربة والترك، وشارك ابن عمار في القتال، فسادت الفوضى، وتدخل برنجوان في الأمر ليصلحه في الظاهر، وليغري القلمان والجند بابن عمار في الباطن، حتى إنهم نهبوا داره، وكادوا يقتكون به. وتم المراد، وعزل ابن عمار في السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٨٧هـ، بعد حوالي أحد عشر شهراً من النظر في شئون الدولة^(٢).

حل برنجوان محل ابن عمار في الوصاية على الحاكم، ويذكر أبو شجاع^(٣) أنه كان يواصل النظر في قصر الحاكم ثمارة كله إلا ساعة وقت الظهيرة، ثم يعود إلى مباشرة أعماله حتى منتصف الليل، وأنه كان يوق السياسة حقها، وينفذ كتابه فهد بن إبراهيم الأمور بين يديه كأحسن ما يكون التنفيذ. وفحاة دبر الحاكم مع الخادم ريدان^(٤)، وبعض العبيد مؤامرة قتل برنجوان، وتم تنفيذها في السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ^(٥). وقد أحدث قتل

- ورقة ١٢٠، ومخطوطة التاريخ المظفرى، لابن أبي الدم الحَمَوَى (نسخة ٦٠٤ تاريخ بالمعهد) ص ١٦١، ووفيات الأعيان ٢٩٢/٥-٢٩٨، والبداية والنهاية ٣٤٠/١١، والمخطوط ٢٨٥/٢، وبعدها، والنجوم ١٧٧/٤، وبعدها.

(١) ترجمته في: تاريخ الإسلام ١٩٦/٢٧، والبداية والنهاية ٣٤٩/١١-٣٥٠، والمقفى ٥٧٢/٢-٥٧٥.

(٢) تراجع تفاصيل ما دار من أحداث منذ ولاية الحاكم حتى عزل ابن عمار في (الكامل ٤٧٩/٧-٤٨٠، وتاريخ ابن خلدون ٧١/٤-٧٢، والمخطوط ٣٦٠/٢-٣٧، واناظر الخفا (ط. المجلس الأعلى) ج ٢ ص ٥٥، ١١-١٣ (حيث حُدِّثت إقامته في داره، وأطلقت له عطايها كالمعتاد). وفي المصدر السابق ٢٦/٢: أذن له بالركوب إلى القصر عدة أيام من (٥ من شوال إلى ١٤ من شوال ٣٩٠هـ)، ثم أوعز الحاكم إلى مجموعة من الأتراك أن يقتلوه عند منصرفه من القصر.

(٣) ذيل تجارب الأمم ص ٢٣٠.

(٤) يُنسب إليه البستان المعروف بـ (الرَّيْدَانِيَّة) الموجود خارج باب الفتوح، وهو أحد أبواب القاهرة. وقد قتل الحاكم ريدان الصقلي هذا بعد ذلك على يد صاحب السيف مسعود الصقلي أوائل سنة ٣٩٣هـ. (وفيات الأعيان ٢٧١/١، والمخطوط ١٣٩/٢). وقد فات مُحَقِّقُ كتابي: (تاريخ الإسلام) ١٩٦/٢٧، و(اناظر الخفا) ج ٢ ص ٢٥ وغيرها، تصويب هذا القلم، فأثبتاه بالزاي (زيدان) بدل الراء، وهو غير صحيح.

(٥) ذيل تجارب الأمم ٣١، وذيل ابن القلاسي ص ٥٥، والكامل ٤٨٢/٧ (قتل ٣٨٩هـ، وهو غير صحيح)، وتاريخ الزمان لابن العَرَبِيِّ ص ٧٤ (قال مقالة ابن الأثير)، وتاريخ ابن أبي الهيثم ٧٧-٧٨، والمخطوط ٣-٤، واناظر الخفا ٢٥/٢-٢٦.

برجوان غيلة هزة عنيفة في الدولة بين الأرباء والعوام على سواء، حتى اضطر الحاكم إلى جمع الناس، وشرح ملابسات قتله برجوان، بل أصدر مرسوماً، ضمته أسباب ذلك، حتى هدأت الأحوال، واستقرت البلاد^(١).

دخل الحاكم - بعد تخلصه من برجوان - مرحلة جديدة، انفرد خلالها بالحكم، وتخلص من الوصاية، التي كانت مفروضة عليه، فإذا به وكأنما أطلق من عقال، وفك من إصار، وإذا به يقوم بعدة إجراءات، ويصدر مجموعة من القرارات الغريبة التي هزت المجتمع هزاً^(٢)، وتحول إلى وحش كاسر متعطر إلى الدماء، يسفكها بغزارة، ولا يكاد ينجو من سيفه البتار أحد من رجال دولته للمقربين إليه^(٣). وانعكس ذلك - ولا شك - على الناس جميعاً بجميع فئاتهم وطبقاتهم، فكأنما يعيشون في سجن كبير. وقد حاول الباحثون^(٤) تحليل هذه الظاهرة العجيبة (عهد الحاكم، وأفعاله)، وحاولوا تَفْهَمُهُ، وتعليل تصرفاته، وتلمس الجوانب المضيئة خلال فترة حكمه. ورغم ذلك، فإن اعتقد أننا لا نزال في حاجة لتضافر الجهود لدراسة نفسية هذا الرجل، وتحليلها على النحو المرضي.

وعلى كل، فقد ظلت أمور الدولة وعلاقاتها الخارجية تمضي بقوة الدفع، التي خلفها له جده وأبوه من قبل. فقد ظلت هيمنة العبيدين على الحجاز^(٥)، ونفوذهم في إفريقية قائماً.

(١) أسهب أبو شجاع في ذكر أسباب قتل برجوان، فذكر أنه شدد على الحاكم، وضيق عليه بكثرة النصع والتعذيب، فمنعه الركوب خوفاً عليه، ومنعه التذير في غير موضع الاستحقاق، فاحتلمها الحاكم ذنباً له. كما أن ريدان أوقع بينهما لما أغرى الحاكم به، بأنه يريد أن يجعل من نفسه كافوراً، ومن الحاكم ابن الإخشيد في المحر عليه. (ذيل تمارب الأسم ٢٣٠-٢٣١). واقتضب ابن الأثر (الكامل ٤٨٢/٧)، وابن خلدون (تاريخه ٧٢/٤) الأسباب بقولهما: لازم برجوان خدمته، فنقل مكانه على الحاكم. أما الأسباب التي ذكرها الحاكم بنفسه، فهي عدم قيامه بالخدمة ولهاونه، وانشغاله باللهو، وإساءته الأدب معه (ذيل ابن القلانسي ٥٥-٥٧)، واتعاط الحنفا ٢٥/٢-٢٩). ويمكن أن أضيف تقربه للقلوب، واصطناعه الغلمان والمشاركة (النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة) ص ٥٥. فلعل ذلك كله عجل به؛ لينفرد الحاكم بالحكم.

(٢) تراجع تفاصيل إجراءاته حول: العمل ليلاً، ومنع النساء من الخروج عشاء، واضطهاد أهل الذمة وهدم كنائسهم، ومنع بيع وأكل بعض الأطعمة، وإشاعة التحسس على الناس في: ذيل ابن القلانسي ٦٦-٦٨، وتاريخ الزمان ٧٦-٧٧، وكثر الدرر ٢٧٨/٦، والخطط ٢٨٦/٢، ٤٩٦، واتعاط الحنفا ٣٨/٢، ٥٣.

(٣) رأينا قتله برجوان، وابن عمار، وريدان. وقتل جماعة أعيان ٣٩٥هـ (النجوم ٢١٣/٤).

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي للدكتور شلي ١٣٣/٥-١٤١ (إيجاباته، ونشأته المضطربة)، و(مصر العربية الإسلامية)، للدكتور الخروبلى ص ٥٢، ١٥٥ (غاياته طيبة، لكن أخطأ في الوسائل، فبدا شاذاً)، و(الحاكم بأمر الله) لعنان ص ١٦٥-١٧٤ (وتفسير يحمل لتصرفاته الشاذة)، والدكتور أحمد كامل في ماحسته (الحاكم بأمر الله في عصره) ص ٥٢-٥٣، ٦٩، ٧٨-٨٧ (كان على وعى بما يدور حوله، ثم انتقم لنفسه، ويحرص على العدالة، ومن قتلهم يستحقون القتل).

(٥) حُطِبَ له هناك ٣٩٤، ٣٩٥هـ (البداية والنهاية ٣٥٦/١١-٣٥٧).

وبفضل الأسطول الذي أقامه العزيز تم صد الهجوم البيزنطي على الشام^(١)، فعقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات^(٢). ويبدو أن سياسته الداخلية الفاشحة الباطشة^(٣) كانت من عوامل ثورة أبي ركنة على الحاكم، والتي كلفته كثيراً، حتى تغلب عليها^(٤). ونمضى الأمور على هذا النحو حتى نهاية القرن الرابع الهجري، وهو منتهى تلك الدراسة، بإذن الله.

ب- الأوضاع السياسية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

ولى الأمير عبد الله بن محمد حكم الأندلس في الفترة الممتدة من يوم السبت السابع عشر من صفر سنة ٢٧٥هـ إلى يوم وفاته (الثلاثاء) التاسع والعشرين من صفر سنة ٣٠٠هـ^(٥). وخلال هذه الفترة التي تربو على خمسة وعشرين عاماً أياماً قلائل^(٦)، لم يهدأ للأمير عبد الله بال، ولم يقر له قرار؛ ذلك أنه ورث تركة ثقيلة في حكم البلاد. لقد تابعت طوال عهده المحن والثورات، وتغلب الخارجون على مختلف الجهات بالأندلس^(٧)، حتى أتى على الأمير وقت، كانت فيه خيول عمر بن حفصون^(٨) زعيم الثوار غادية ورائحة بجوار قرطبة وضواحيها، تهدد

(١) جملة ابن الأثير أول فتح خلال وصاية برجوان سنة ٣٨٦هـ. (الكامل ٧/٤٨٠-٤٨١). والظاهر وقوع

اشتباكات بحرية أخرى سنة ٣٨٩هـ (ذيل تاريخ ابن الطبري) ص ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) ورد ذكر الهدنة سنة ٣٦٨هـ، لما راسل برجوان بسيل ملك الروم (ذيل أبي شجاع ص ٢٣٠، والكامل ٧/

٤٨٢). وورد ذكر هدنة أخرى سنة ٣٩٠هـ (ذيل تاريخ الأنطاكي) ص ٢٤٨.

(٣) ذكر ابن خلدون في المقدمة ٥٧٥/٢ : أن مغالة أي حاكم في البطش مضّر بالملك، ومفسد له في الأكثر. وقد أدى ذلك لمقتل الحاكم ٤١١هـ، وهاك روايات تفيد تألّفه، وتذكر مظاهر ذلك (النجوم ٤/١٨٤-١٨٧)، وحسن المحاضرة ٢/٢٩١، (وتاريخ الخلفاء) ص ٤٧١. وأرجح وقوعه، فهو من مظاهر تقديس الأئمة عندهم

(دعائم الإسلام) للقاظمي النعمان ١/٣٤٩-٣٥٠.

(٤) يُنسب لبني أمية بالأندلس، وبزعم دعوته إلى التقوى والعدل في الحكم بدل بطش اخاكم وجبروته، وكان يريد أخذ مصر، ولأصغاره الشام، وقُتل ٣٩٦هـ. (البيان المغرب ١/٢٥٧-٢٥٨، والنجوم ٤/٢١٦-٢١٨).

(٥) هذا هو التاريخ الذي اخترته لمعاصرة صاحبه للأحداث (العقد الفريد لابن عبد ربه، مجلد ٣ ج ٥ ص ٢٥٩).

(٦) جعل ابن الخطيب هذه الأيام ١٥ يوماً (أعمال الأعلام قسم الأندلس) : ص ٢٨. والصواب - عندي - أن هذه الأيام تبلغ اثني عشر يوماً.

(٧) كبير الثوار في الأندلس، بدأ خروجه وعصيانه في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)، وذلك سنة ٢٦٧هـ بناحية (رَبَّة)، وقويت شوكته بانضمام المولدين إليه، زاعماً أنه يريد تحريرهم من العبودية. كاد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) يقضى عليه لولا موته. تحصن بقلعته الحصينة في (بُشْتَر)، وتمكن الأمير عبد الله من هزيمته، ثم توفي سنة ٣٠٥هـ، وولى بعده أولاده : جعفر، ثم سليمان، ثم حفص، وبعد ذلك انقرض أمرهم. (القبس، ط. العربي) ص ٧٢ وما بعدها، وحذوة القنيس ٢/٤٦٧-٤٧٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣١ وبعدها، والإحاطة ٤/٣٨-٤٢).

(٨) كبير الثوار في الأندلس، بدأ خروجه وعصيانه في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)، وذلك سنة ٢٦٧هـ بناحية (رَبَّة)، وقويت شوكته بانضمام المولدين إليه، زاعماً أنه يريد تحريرهم من العبودية. كاد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ) يقضى عليه لولا موته. تحصن بقلعته الحصينة في (بُشْتَر)، وتمكن =

قصر الأمير نفسه كل حين^(١).

وبالرغم مما حل بالأندلس خلال عهده؛ نتيجة تراكمات عهود سابقة، وعدم قدرة الأمير على تدارك الأمر، إلا أنه امتاز بالثبات العظيم في مواجهة الثورات والضربات المتوالية^(٢)، ونجح في إنسزال الهزيمة بابن حفصون^(٣)، وظل حتى أواخر عهده يرسل الصوائف ضد الخارجين^(٤)، على قلعة في الموارد، وضعف في الإمكانيات، وندرة في الثَّصَاء.

حيات الأقدار الأمير عبد الرحمن الثالث^(٥) حفيد الأمير عبد الله، لإنقاذ الأمة الأندلسية من التردى والضياع. لقد ولي حكم البلاد، والأعداء متربصون به من كل جانب، وكان عليه أن يتوج كفاح جده، فيعيد الوحدة للبلاد، واهية للأمويين، فينقذ الأندلس من نفسها، ويتفرغ لنصارى الشمال المُخْدِقِينَ لها.

الأمير عبد الرحمن الثالث وتوحيد الجبهة الداخلية:

حدد عبد الرحمن الثالث أعداءه جيداً، وسلك الطرق العملية الموصلة إلى القضاء على هؤلاء الأعداء، واحداً تلو الآخر. ومن أوائل المناطق التي أخضعها الأمير عبد الرحمن لسلطانه

- الأمير عبد الله من هزيمته، ثم توفى سنة ٣٠٥هـ؛ وولى بعده أولاده: جعفر، ثم سليمان، ثم حفص، وبعد ذلك انقرض أمرهم. (المقتبس، ط. العربي) ص ٧٢ وما بعدها، وجذوة المقتبس ٤٦٧/٢-٤٧٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣١ وما بعدها، والإحاطة ٣٨/٤-٤٢).
- (١) أخبار مجموعة ص ١٣٣.
- (٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس. للدكتور حسين مؤنس ص ٣٠٦.
- (٣) من أهمها: غزوة بُلَى poley صد ابن حفصون، التي أسست كل غزوة تقدمتها (العقد الفريد مجلد ٣ ص ٢٥٩).
- وتابوها الذهبي في (تاريخ الإسلام) ١٨٥/٢٢، وقال: تكبد فيها ابن حفصون خسائر فادحة، وكان لها دورها في اكسار شوكة بعد ذلك أيام عبد الرحمن الثالث. وجعلها ابن الخطيب في (الإحاطة) ج ٤ ص ٤١، سنة ٢٧٧هـ.
- والصواب: ألفا سنة ٢٧٨هـ (المقتبس ط. د. إسماعيل العربي) ص ١١٦ وما بعدها، وعان في: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الأول ص ٣٢٥.
- (٤) منها صافته إلى (بشتر) معقل ابن حفصون الحصين، وكذلك إلى غيره من الخارجين سنة ٢٩٩هـ، (المقتبس - ط. العربي) ص ١٦٨-١٦٩.
- (٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل). ألقبته كفاءته أن يلى بعد جده، وكان عمره يوم قُتل أبوه يوماً، أو عشرين يوماً. وكفله جده وأحسن تشيته للمهمة الثقيلة، التي تنتظره. ولد حوالي ٢٧٧هـ، وولى ٣٠٠هـ، وتوفى ٣٥٠هـ بعد ما نجح في توحيد الأندلس، والقضاء على الأعداء في الداخل والخارج (العقد الفريد مجلد ٣ ص ٢٦٠-٢٦٤، وأخبار مجموعة ١٣٥-١٤١، والكمال ٢٧٠/٧، والحلة السراء ١٩٧/١-٢٠٠، والبيان المغرب ١٥٦/٢ وما بعدها، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٢٨-٤١).

(إشبيلية)^(١). وكان بنو حجاج قد استقلوا بالأمر هناك^(٢). وبعد وفاة (إبراهيم بن حجاج) سنة ٢٨٨هـ^(٣)، ولى ابنه عبد الرحمن حتى توفي سنة ٣٠١هـ. فلما مات اجتمع أهل إشبيلية على تولية (أحمد بن مسلمة)؛ مما دفع (محمد بن إبراهيم بن حجاج)^(٤) إلى مغالفته، والاتصال بالأمير عبد الرحمن الثالث، الذى بعث جيوشه لمحاربة ابن مسلمة، وأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج بالتضييق على أهل إشبيلية، وعقد له مع قاسم بن الوليد صاحب شرطة الأمير لإتمام هذه المهمة. فلما حوَصِر ابن مسلمة، استغاث بجيوش عمر بن حفصون، الذى أغاثه بالفعل، لكن جيوش الأخير هُزمت، واضطر إلى الفرار من المعركة. هنا قلب ابن مسلمة الأمر على وجوهه، وعلم أن لا طاقة له بالحرب، وأصلح ما بينه وبين الأمير عبد الرحمن مقابل أن يوليه إشبيلية. وبذلك دخلت قوات الناصر هناك دون قتال. لم يعجب هذا الأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج، واعتدى على بعض أغنام لأهل قرطبة، وهو فى طريقه إلى قرمونة^(٥)، ولم يرفع الحصار عن إشبيلية كما أمر بذلك، بل سار من قرمونة إلى إشبيلية مهاجماً إياها. هنا أرسل الأمير عبد الرحمن مزيداً من القوات لتأمين إشبيلية، وما زال يتوَدَد إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج ويلاينه،

(١) مدينة كبيرة عامرة حصينة ذات أسوار، وأسواق كثيرة. أهلها مياسو، وحلّ تجارهم الزيت. هواها طيب، وما شجر الزيتون، وسائر الفواكه. تفوق غيرها من نواحي الأندلس بزراعة القطن، وتصدره للمغرب وبقية مدن الأندلس، وتقع على النهر الكبير (نهر قرطبة)، وتسمى حصص الشام؛ ليزول أهل حصص من المشرق لها، (البلدان لليعقوبى ١١٠، ونزهة المشتاق للإدريسى ٢٣٩/١، ٥٤١/٢، ورحلة ابن جبير ٢٣٢-٢٣٣، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٣٨-١٣٩، ١٦٤).

(٢) كان بيت بنى حجاج بيت رئاسة وشرف بإشبيلية، وقد استبدوا بالأمر دون بنى أمية، وكان إبراهيم بن حجاج زعيمهم، فخالف الأمير عبد الله، ثم هادنه على أن يوليه بلده ولا يعرض له. فحجى الأموال، وأضعف الرجال، وتوسط على الأمير عبد الله، حتى ساء ما بينهما، فحدث الخلاف والتحالف مع ابن حفصون، (البيان المغرب ١٢٥-١٢٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٤-٣٥).

(٣) البيان المغرب ١٢٩/٢، وأعمال الأعلام ٣٥. ومن ثم، فلا يصح ما ورد فى كتاب: (التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فى العصر الأموى) للدكتور حمدى عبد المنعم ص ١٠١، من أن وفاته سنة ٢٩٨هـ/٩١٠-٩١١م.

(٤) وكان محمد هذا مقيماً فى مدينة قرمونة، وله بها فضل وشهرة زاد ما على أبيه، وظل يحكم حتى بعد وفاة أبيه، وإلى ممات أبيه. ولم يستقر بإشبيلية ولا حكمها. وكان له جاه يفوق أخاه، فمدح بجيد الأشعار، ومنع المادحين، وكانت دولته أضخم من دولة أخيه وأطول؛ إذ عاش بعد وفاة أبيه ١٤ سنة. وتوفى أخوه سنة ٣٠١هـ، فقيل: دس لأخيه جارية ستمت، فمات. توفى هو سنة ٣٠٢هـ، وبموته انقضى أمر بنى حجاج (البيان المغرب ١٢٩/٢، وأعمال الأعلام ٣٥).

(٥) سماها ياقوت (قرمونية)، وذكر أن أكثر الناس يسميها (قرمونة). قال فى (معجم البلدان) ٣٧٥/٤: هى كورة بالأندلس، يتصل عملها بأعمال إشبيلية، غرى قرطبة وشرقى إشبيلية، قدعمة النبيان، عصت الأمير عبد الرحمن بن محمد، فحرها بجنده وفتحها، ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه.

حتى عاد إلى الطاعة والجماعة. ثم أنزله الأمير قُرْطُبَة^(١)، على أن يترك نائباً عنه في قرمونة، وأحسن الأمير إليه وإلى من معه، وأكرمهم ووصلهم، بل ولاه الوزارة من حينه، حتى وقع ما أغضب الأمير عليه فحبسه وعزله^(٢)، ثم أطلقه، فمات بعدها بقليل في شهر شوال سنة ٣٠٢ هـ^(٣). وبذلك انقضت أيام بني حجاج النافرين بإشبيلية.

من الثوار الذين عُيِّن الأمير عبد الرحمن بالقضاء على ثورتهم عمر بن حفصون وأولاده من بعده. وقد كان عمر قد حل به الضعف في عهد عبد الرحمن، ورأى أن يسالم الأمير، فأمنه، وكتب له عهداً ولعقبه من بعده ما وقَّفاً. وارتحن عنده عبد الرحمن بن عمر بن حفصون؛ لضمان تنفيذ الاتفاق. لكن الأمر اختلف بعد موت ابن حفصون سنة ٣٠٥ هـ^(٤) إذ عاود بنوه نُكْتُ العهد، وشق عصا الطاعة، وقطع الطرق، والاعتداء على الآمنين، لكن الأمير عبد الرحمن وجيوشه كانوا لهم بالمرصاد، حتى وفاة حفص آخرهم بعد سنة ٣٢٠ هـ^(٥).

بعد أن نجح الخليفة عبد الرحمن الناصر في افتتاح مدائن غربي الأندلس^(٦)، سَمَتَ همته لفتح مدينة طَلَبُطَّة^(٧). ورأى الناصر -قبل أن يرسل إليها الجيوش- أن يقدم الإعدار والإنذار أولاً؛

(١) هي أعظم مدن الأندلس، وهي قاعدة الأندلس، وأم المدائن، ومُسْتَقَرَّ الخلافة، ودار الإمارة. بينها وبين الساحل خمس ليال. وآثار بنى أمية بها ظاهرة، وبها الجامع المشهور. وهي حصينة بسور من حجارة، ومبانيها متصلة من الشرق والشمال، ومساكن العامة في رضاها، وأكثر ركوب أهلها العجلات (المسالك والممالك لابن خُرْداذبَة ٨٩، والمسالك والممالك للإصطخري ٣٥، ونزهة المشتاق ٥٧٤/٢-٥٧٥، وفرحة الأنفس لابن غالب ص ٣٦).

(٢) ابن حيان في (المقتبس) : ٨٣/٥-٨٤.

(٣) تراجع التفاصيل في المقتبس ٦٩/٥ وما بعده، والبيان المغرب ١٢٩/٢-١٣١، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٣٥، وتاريخ ابن خلدون ١٧٥/٤، والتاريخ السياسي لمدينة إشبيلية، للدكتور حمدي عبد النعم ص ١٠٢-١١٨.

(٤) المقتبس لابن حيان ١٣٨/٥، وهو أرجح من تاريخ ٣٠٦ هـ، الذي أورده ابن الخطيب في (الإحاطة) ٤٢/٤، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٢. وقد بعد كل من الضبي في (بغية الملتبس) ص ٤٠٦، والذهبي في (تاريخ الإسلام) ٤٠٧/٢٠، لما ذكر أوفاته سنة ٢٧٥ هـ.

(٥) تعاقب بعد وفاة عمر بن حفصون بنوه : جعفر، ثم سليمان، ثم حفص. وقد حاصرتهم قوات الناصر في قلعتهم الحصينة (بُشْتَر)، التي مات بها أبوه (في كورة رية). وقاد الناصر الحملات بنفسه سنة ٣٠٨، ٣١١ هـ، ثم أوفد قائده الوزير عبد الحميد بن بسيل سنة ٣١٤ هـ (بسبب القحط). وأنزل بهم ضربات موجعة، ومانوا واحداً بعد الآخر، ولم يتخدد الناصر بطلبهم الأمان؛ لتعدد نكبتهم وحيانتهم، خاصة بعد التأكد من ارتدادهم، ودفن أبيهم عمر، وأخيهم سليمان على النصرانية (المقتبس ١٦٨/٥-١٦٩، ١٨٤-١٨٥، ٢٠٤-٢٠٦، ٢٠٩-٢١٢، والبيان المغرب ١٨٠/٢، ١٨٣-١٨٤، ١٩٢-١٩٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٣٢-٣٤، ودولة الإسلام في الأندلس لعنان (المصر الأول، القسم الثاني) ص ٣٨٣-٣٨٦).

(٦) مثل : باجة، وأكشونية، وماردة، وبَلْبُوس، وشترين. وذلك سنة ٣١٧ هـ (المقتبس ٢٤٥/٥-٢٨٠).

(٧) هي أم المعاف، وقاعدة المدائن منذ الملوك الأوائسل، وليس في الجزيرة أمتع منها. وأهلها أحلاط من العرب، =

كسى يقطع على أهلها وقادتها الحجة، فأرسل إليهم وفداً من أكابر الفقهاء والشخصيات^(١)، داعياً إياهم إلى الطاعة والجماعة. فلما تبين له خداعهم، خرج إليهم بالجيوش سنة ٣١٨هـ، وقد أعمل فكره وعقله وخبرته في تشديد الحصار على طليطلة ومن بها^(٢). وفي سنة ٣١٩هـ واصل إرسال قاداته وجيوشه إلى هناك؛ لمزيد من تشديد الحصار^(٣). وفي سنة ٣٢٠هـ خرج الناصر بنفسه يغزو تلك المدينة الحصينة للمرة الثانية. وقد حاول أهلها وقادتها الاستحاد بالنصارى في الشمال، لكن قوات الناصر تصدت لهم، وأجبرهم على الفرار؛ بما دفع قائد وأمر طليطلة (ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث) إلى طلب الأمان، فأمنه الناصر، وعفا عنه. فامتلأ أهل طليطلة فعله، فأمن الناصر الجميع، وهدم ما رأى هدمه من المدينة، وأعاد تجديد ما رآه، وترك فيها من القوات والقادة ما يضمن حسن السيطرة عليها^(٤).

تعد غزوة الخليفة الناصر لسرقسطة^(٥) سنة ٣٢٥هـ، وما تبعها من استئمان صاحبها (محمد ابن هاشم التجيبي) سنة ٣٢٦هـ^(٦) أعظم برهان على ما يمتلكه الناصر وجيوشه وقاداته من قدرات فائقة على الحرب والتدبير، والحصار الطويل، وإرغام العدو - في النهاية - على الانصياع للطاعة، والاستسلام للجماعة^(٧).

- والبربر، والموال. ولما هز عظيم (تاج)، وأهلها حارحون عن الطاعة، ولا بدفعون لى أمية حباية. كانت عاصمة الروم، ووجد بها المسلمون كنوزاً هائلة. لها فواكه وسائر عذبة المائل (اللدان ص ١١١ - بكسر الطاء الثانية، والمسالك والممالك للإصطخرى ٣٦، ونزهة المشتاق ٥٥١/٢، ومعجم البلدان ٤٥/٤ - ٤٦، فتح الطاء الثانية، وفرحة الأنفس ص ١٩، ضم الطاء الثانية، ووصف الأندلس لابن الشباط ص ١٤٨، والمغرب على المغرب (قسم الأندلس)، ٩٨/٢، ونفع الطيب ١٥٦/١ - ١٥٧).

(١) من أكابر الفقهاء: محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن عبد الله بن أبي عيسى. ومن وجوه أهل الخدمة: عبيد الله ابن عبد الله الزنجاني في نقر معهم. (المقتبس ٢٨٠/٥).

(٢) البيان المغرب ٢٠٣/٢ - ٢٠٣، والمقتبس ٢٨٠/٥ - ٢٨٤.

(٣) البيان المغرب ٢٠٤/٢، والمقتبس ٢٨٧/٥ - ٢٨٨.

(٤) مروج الذهب ١٣٩/١، والمقتبس ٣١٧/٥ - ٣٢٢، والكامن ٣٦/٧ - ٣٧ (وحمل تاريخها سنة ٣١٥، وهو غير صحيح)، والبيان المغرب ٢٠٦/٢ - ٢٠٧، ومخطوط عيون التواريخ (نسخة الظاهرية) ورقة ١٦ (ومعلوماته غير صحيحة، إذ حمل الفتح تم قهراً؛ لغرض الطاعة. وأن حلقاً من أهلها قتلوا، كما حمل تاريخها ٣١٦هـ)، وتاريخ ابن حلدون ١٨١/٤، والمسنون في الأندلس لدوري (ترجمة: د. حسن جيني) ٢٣١/١ - ٢٣٦.

(٥) بلدة مشهورة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال نطيلة. ذات فواكه عذبة، ولها فضل على سائر فواكه الأندلس، وتقع على هز كبير، وتنبت التباة والمنسوجات الرقيقة الرافقة، وتشتهر بالملح الأبيض الصافي. (معجم البلدان ٣/ ٢٤٠، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٥٠).

(٦) نصر الأمان في (المقتبس) ٤٠٥/٥ - ٤٠٧. وشهده من الفقهاء: عمر بن يحيى بن عمر بن لبابة (الذيل والتكملة، للمراكشي، السفر الخامس، القسم الثاني ص ٤٧٢ (رقم ٨٣٩). لكن به تحريفاً؛ إذ حمل اختلاص هذا الشاعر سنة ٣٣٦هـ، بدلاً من ٣٣٦هـ.

(٧) المقتبس ٣٥٧/٥ - ٣٦٥، ٣٩٣ - ٣٩٩، وترصيع الأخبار للدلائلي ص ٤٥.

وهكذا، نجح الناصر بهذه المعارك التي خاضها، وبغيرها^(١)، وبإجاده فن الحصار، واستئصال القواد وتأمينهم، في توحيد البلاد تحت رايته.

علاقات الناصر مع نصارى الشمال:

لم يكن حرص الناصر على إخضاع كافة الثائرين لسلطان بني أمية بالأندلس نابعاً من فراغ، وإنما كان عملاً له ما وراءه من مواجهة اعتداءات نصارى الشمال، وكَفَّ ترويع الأمنيين في مناطق الشغور خاصة، وإبراز هيبة المسلمين كعامل مهم يردع به أطماع ممالك الشمال المسيحية^(٢). لقد توالى انتصارات الناصر الداخلية، وأحسن قيادة جيوشه، وأحسن التصرف مع شعبه ومع الثائرين عليه، حتى استقطبهم، وضمهم إلى صفوفه، فحرم أعداء الشمال من تأييد حكام الشغور. لقد كان نجاح الناصر - في تحقيق ذلك كله - يُعظّم فرصة انتصاره على النصارى، ويحقق أهدافه حيالهم^(٣).

علاقة الناصر بالمغرب:

ونعني بذلك موقفه من العبيدين المناوئين لأهل السنة، وموقفهم منه. ولا شك أن العداء الشديد متبادل بين الطرفين؛ نظراً لاختلاف المذهب من جهة، ولتناقض المصالح من جهة أخرى. وقد بذل كلا الطرفين ما في وسعه - في ضوء ظروفه الداخلية، وعلاقاته الخارجية - للسيطرة على الآخر، بل لتقليص نفوذه في مناطق سيادته؛ توطئة للقضاء عليه. لقد تطلع العبيديون للسيطرة على المغرب الأوسط والأقصى؛ تمهيداً للعبور إلى بلاد الأندلس ونشر التشيع بها. وفي الوقت نفسه أحسَّ الناصر - منذ ادعاء العبيديين الخلافة - خطورتهم الشديدة، وتهددهم القوى لدولته، خاصة وهم يمتلكون أسطولاً بحرياً قوياً، يستطيعون به العبور إلى الأندلس.

(١) مثل، فتح إفريقية (٣٠٠هـ). (المقتبس ٦٦/٥)، وفتح القائد أحمد بن محمد بن إلياس ماردة صلحاً ٣١٦هـ (السابق ٢٣٨/٥) وبعدها. وقيل ذلك إخضاع بني ذى النون بكورة شتت بركة ٣١٢هـ (السابق ١٩٥/٥-١٩٦)، وثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية (١٣٨-٣١٦هـ) للدكتور حمدي عبد المعصم ص ٦٣.

(٢) وهي ممالك: ليون، ونبرة (نافار)، وقشتالة. (حول التعريف بها، وبظروفها الداخلية التي أثرت في علاقاتها بالمسلمين في الأندلس يراجع: صبح الأعشى ٢٧٠/٥، وكتاب الدكتور رجب عبد الحليم: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) ص ١٩٣-٢١٠.

(٣) حول عوامل القوة في عهد الناصر، وتأثيرها في العلاقات بإسبانيا النصرانية ينظر في (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) ص ١٦٦-١٦٨، ويمكن مطالعة أخبار بعض حروب الناصر ضد نصارى الشمال سنوات: ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٧ (ضد نصارى حليقية، وبشكنس، وجموع الصرانية من الجلالة في موقعة الخندق) في: (المقتبس ١٥٩/٥-١٦٨، ١٨٩-١٩٥، والبيان للمغرب ١٨٤/٢-١٨٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص ٣٦).

ويمكن تحديد المعالم العامة لسياسة الناصر في بلاد المغرب في النقاط الآتية:

- ١ - قطع الصلة بين العبيدين بالمغرب، وثوار الأندلس (خاصة عمر بن حفصون)^(١).
- ٢ - استغلال الصراع القائم ببلاد المغرب بين صنهاجة وكُثامة المواليين للعبيدين من جهة، وبين زناتة المعادين لهم من جهة أخرى، إذ قام الناصر بتأييد زناتة، ومدها بما تحتاج إليه من سلاح وعتاد؛ لزعزعة استقرار العبيدين بالمغرب^(٢).
- ٣ - إعلان الناصر قيام الخلافة الأموية بالأندلس في ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ، ونصب نفسه أميراً للمؤمنين^(٣)، متحدياً بذلك بني عبيد، مهدداً نفوذهم.
- ٤ - الترحيب بكافة الخارجين على طاعة العبيدين، وتقديم الرعاية لهم في الأندلس^(٤)، وإرسال الجيوش الأندلسية التي تمكنت من ضم سبتة^(٥) وطنجة^(٦)، مما ساعد على التحكم في الشواطئ القريبة من الأندلس، ومنع الأسطول العبيدي من الهجوم على الأندلس.
- وبعد، فقد وُقِّع الخليفة الناصر في إدارة شئون الأندلس (داخلياً، وخارجياً)، رغم قسوة وصعوبة الظروف، التي ولى فيها أمور البلاد، لكن كما يقول المثل العربي: (وَأَقْفَ شَرْطَ طَبَقَةٍ)^(٧). ولعل من أفضل من عبّر عن منجزات الناصر بصدق مُنذر بن سعيد القاضي في خطبة له بين يديه، إذ يقول: "ألم تكن الدماء مسفوكةً فحققتها، والسبلُ مخوفةً فأمنها، والأموالُ مُنتَهبةً فأحرزها، والبلادُ خراباً فعمرها، والثغورُ مُهْتَصَمةً فحماها وصرها؟"^(٨).
- وبالنظر والتأمل في عوامل نجاح الناصر، يمكن رصد الخطوط العامة لسياسته كما يلي:
- ١ - تقديم الاهتمام بالأولويات دون التشاغل بتوافه الأمور^(٩)، التي يمكن أن يقوم بها

(١) البيان المغرب ١٦٥/٢، وتاريخ الحربة الإسلامية في المغرب والأندلس للدكتور سيد سالم، والدكتور عتار العبادي ص ١٧٤.

(٢) البيان المغرب ١٨٠/١.

(٣) المغتبس ٢٤١/٥-٢٤٢، ونعت: (مظاهر من الصراع المذهبي بالأندلس) د. فرحات الدشراوي و (الخطبة العربية للثقافة) ع ٢٧، ١٩٩٤م، ص ٢٥-٢٦.

(٤) البيان المغرب ١٧٥/١.

(٥) السابق ١٨٨/١.

(٦) الاستقصا ١٧٨/١.

(٧) وهو يُضرب للمتوافقين في الشدة وغيرها، فظروف الأندلس عند تولي الناصر شتوها كانت قاسية، وهو رجل هذه الظروف، وعلى موعد مع القدر؛ لمصارعتها والتغلب عليها. (لمزيد من شرح مورد المثل، وأصل مضربه، يراجع: لسان العرب، مادة ش.ن.ن، ج ٤ ص ٢٣٤٥، والمعجم الوسيط ١/٥١٦، ومعجم الأدباء لياقوت ج ١١).

سواء: فاهتم بشأن الثغور وحمايتها، وتأمين أهلها وحل مشكلاتهم، واستشارة ذوي الخبرة فيما يصلح لهم^(١).

٢ - حسن تنظيم الدولة، والتدقيق في اختيار المسؤولين والوزراء والقواد^(٢):

فحظيت الأندلس في عهده بنظم إدارية راقية^(٣). وكانت له سياسة في كثرة تغيير الوزراء، ونقلهم من وظائفهم كل عام تقريباً^(٤)، كما كان يحسن توزيع الأعمال على وزرائه؛ حتى يتم تصريف شئون الرعية، والتسهيل على الناس^(٥). وكان شديد الحرص على تحقيق العدل في البلاد، فاهتم بخطط المظالم^(٦)، وبتولية القضاة وتوجيههم^(٧).

٣ - سياسته مع المتمردين والثائرين: العفر خُلة أصيلة في الناصر^(٨). وقد أحسن عندما ولى الأندلس، وقام بإصدار عهود أمان لكافة الخارجين عند استسلامهم، على أن يعودوا إلى

- الأمير عبد الله بن محمد انشغاله بالأمر السيرة، كالحكم للمرأة في غرنا، والحمال في من ما يحمله، والدلال في من ما ينادى عليه. وأضاع الأمور المهمة، والنظر في الحروب، ومداواة الثائرين، حتى اضطرت جزيرة الأندلس. وأمر الناصر بضرب رجل، آناه يشكو ويصيح؛ لأنه اشترى حملاً من السوق، فإذا به عيب، وقد ألزمه أهل السوق به، وهو لا يريد أخذه. فعاقبه الناصر؛ لأنه شغله بأمر يمكن لصاحب السوق علاجه.

(١) اهتم الناصر بثغوره سواء المنطقة جهة بلاد المغرب، أم تلك المتاخمة للصارى في الشمال. وأعتقد أنه كان يُنحِر لها موابطوها، وقوادها (يمكن معرفة بعض مواصفات الموابطين لها، وشروط قادها والقائمين عليها في (مخطوطة تحفة الأنفس لابن هذيل ورقة ١٣، ٣٨). وكان الناصر يستشير ذوي الخبرة بالثغور لِمَا فيه صلاحها (ترتيب المدارك مجلد ٢ ج ٤ ص ٤٥٤). وكان يزيل شكاوى أهلها، ويخفف عنهم مغارمهم، كما حدث مع أهل ثغر طرطوشة في ربيع الآخر سنة ٣٢٩هـ (المقتبس ٤٦٨/٥)، وبحث دكتور كمال أبو مصطفى (تاريخ مدينة طرطوشة)، في ندوة السعودية ١٩٩٣م، ص ١٢.

(٢) اعتمد الناصر على عدد من الوزراء والقادة العظام، ويمكن معرفة أسماء بعضهم والتعريف بهم في: أحبار مجموعة ١٣٧-١٣٨، وحنوة المقتبس ٥٣٦/٢، ٥٥٤، والبغية ص ٤٥٥، وتعريف د. محمود مكي بالقائد العظيم أحمد بن محمد بن أبي عبدة (ت ٣٠٥هـ) في تعليقاته على (المقتبس) لابن حيان (بتحقيقه) ص ٥٥٥-٥٥٦، ود. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٨. وأعتقد أن الناصر كان يطبق معايير اختيار الأكفاء للقيادة (الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة) للمدعى ٣٦١ وما بعدها. وكان الناصر يعزل كثيراً من الوزراء دفعة واحدة؛ لما يذكره عليهم، فلعلهم فُضروا في أداء واجهم (المقتبس ٤٧٠/٥-٤٧٢).

(٣) يمكن معرفتها من حلال كتاب: (نظم وإدارة بني أمية بالأندلس) للدكتور التهامي الراحي ص ٢٨ وبعدها.

(٤) فلهل أراد عدم استئثار أحد بسلطة دونه، فهو يريد جمع كل السلطات في يده، وعدم إعطاء فرصة للخروج عليه، أو للتبسط معه. (شيوخ العصر في الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ٦٢-٦٣، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٣-٣٢٥).

(٥) البيان ٢٢٠/٢.

(٦) تاريخ القضاء في الأندلس، للدكتور خلاف ٥٤٧-٥٤٨.

(٧) تراجع بعض توجهاته لقضاته في: (قضاة قرطبة ط. الكتاب المصري اللبناني) ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٨) البيان ٢٠٦/٢.

الطاعة والجماعة^(١). وكانت سياسته مع المعاندين منهم تقوم على الإرهاب وإظهار القوة، والمحاصرة للقلاع والحصون فترة طويلة، حتى يستسلم الثوار، ويطلبوا الأمان، فيمنحهم إياه، ويتركهم بحواره في قرطبة مكرمين، حتى ينصلح حالهم، فيستفيد منهم في حروبه وغزواته، ثم يوليهم بلادهم بعد الاطمئنان إلى إخلاصهم. فهي سياسة تتراوح بين الشدة واللين الحذر، الذي يحفظ للدولة هيبتها، ويحقق بالسلم ربما ما يمكن الاستغناء به عن الحرب^(٢). والناصر خلال ذلك كله لا يقف مدافعاً عما بقي تحت سلطانه كما فعل جده عبد الله^(٣)، بل كان بشخصيته وعزمه، وعلمه بسوء حال شعوب الثائرين، يجبرهم على الاستسلام والانقياد له^(٤)، حتى بسط نفوذه على كافة النواحي. وقد يؤخذ عليه قسوته أحياناً^(٥)، ونعتقد أنها كانت في ظروف استثنائية، وفي أمور لا تقاوم فيها، ولا تسامح من وجهة نظره.

٤ - حسن متابعته تنفيذ توجيهاته: فقد كان يهتم بمصالح أهل الكور والثغور والحصون التي يفتحها، فينظم شئونها، ويأمر بتعميرها، وإصلاح ما خرب منها، ثم يعود بعد فترة - بصورة مفاجئة - في زيارات ميدانية، أو عند العود من إحدى الغزوات الأخرى فيشرف بنفسه على تنفيذ ما أمر به من قبل^(٦).

٥ - موضوعيته واتزان علاقاته الخارجية: أيقن الناصر أنه لا سبيل إلى القضاء على العبيدين بالمغرب، فقام بالممكن مُتَمَلِّلاً في إثارة القلاقل، وإمداد الثائرين عليهم بصفة دائمة، بحيث تشغل الدولة العبيدية عن التفكير في ضرب الأندلس، بالإضافة إلى السيطرة على أهم المدن المغربية، التي تعد مفاتيح دخول الأندلس (سبتة، وطنجة) وإعداد أسطول ضخم مستعد للدفاع عن الشواطئ الأندلسية. وبالنسبة للنصارى في الشمال، فهو وإن لم يستأصل شأفتهم^(٧)،

(١) المقتبس ٥٥/٥، ٥٨ وغيرها، والبيان ٢٠٠/٢-٢٠١، ودولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني ص ٣٧٧-٣٧٨، وفي تاريخ المغرب والأندلس ١٨٠، ومعالص ٣١٣.

(٢) النقود الإسلامية (الكتاب الثاني) د. طاهر راجب ص ٨٨-٨٩.

(٣) دكتوراه (الحياة العلمية في قرطبة)، لمصطفى محمد إبراهيم ص ٥٧.

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامي ٥٣/٤.

(٥) مثل: قتل بعض حواريه أو إحقاقه، وتسليط أسود مغربية على بعض من يسخط عليهم، وقله ولده عبد الله بيده. (البيعة ٣٤٦-٣٤٧، ٣٥٠، والمغرب قسم الأندلس- ١٨٦/١، والبيان ٢١٧/٢، ومخطوط عيون التواريخ (الظاهرة) ورقة ٦٠، وتاريخ ابن خلدون ١٨٤/٤، والجموع ٣٤٦/٣).

(٦) يراجع في ذلك ما يختص بـ (بشتر) سنة ٣٠٨ هـ (البيان ١٧٩/٢-١٨٠، وسنة ٣١٧ هـ (المقتبس) ٥٥/٢٠٥. وكلذا ما يتعلق بـ (سرفسطة) سنة ٣١٦ هـ، ٣٢٦ هـ في (المقتبس) ٥٥/٢١٥، ٤١٩.

(٧) يذكر عنان في (دولة الإسلام في الأندلس) ج ١ ص ٤٧٥-٤٧٧: أن حروب الناصر وفتوحاته في بلاد النصارى براها البعض أقرب إلى الغامرة وحب الغنيمة، إلا أن فيها معنى الجهاد، ولم تنح فيها فرصة الاستقرار. وينظر للأمر مثالية باحث آخر، ف يرى أن الناصر من بعده المستنصر، والمنصور - أعرفوا في الاهتمام بالمغرب، ومواجهة الشيعة به على حساب تحويل الأندلس كلها إلى دولة إسلامية (يقصد: بما فيها ممالك نصارى -

إلا أنه نجح في إلحاق عدة هزائم بهم، وأظهر لهم من القوة والهيبة ما جعلهم يتورعون عن الاعتداء على النفور الأندلسية. ووصل الأمر - في النهاية - إلى وجود سفارات، ووفود تأتي إلى قرطبة بالهدايا والرسائل والكتب، تخطب ود الناصر، وتلج في السلم، والمصالحة،^(١) فاستجاب لهم مع الحذر من غدرهم وعدوانهم.

الخليفة الحَكَم المستنصر بالله* (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م):

توفي والده الخليفة الناصر بعد عمر مديد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة، بعد أن قضى في حكم الأندلس ما يزيد على نصف قرن^(٢)، حقق خلالها إنجازات طيبة على المستوى الداخلي والخارجي على سواء. وعنى الرغم مما عيَّب على الناصر من حكم مطلق، إلا أنه أحسن إعداد ولي عهده الحكم، ودَرَّبَه على تحمل مسؤوليات الحكم، والنهوض بأعبائه الضخمة^(٣). ولا شك

- (الشمال). بحث : الأندلس بين الاحتيار والاعتار : محاولة لدراسة ضياع الأندلس من الفتح حتى نهاية العصر الأموي) ص ١١ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(١) تراجم السفارات الواردة على الناصر من قبل ملوك القسطنطينية، والصفالية، والجلالقة، ورسولونه وغيرهم في سنوات ٣٢٣هـ، ٣٢٤هـ، ٣٣٤هـ، ٣٣٨هـ، ٣٤٢هـ في: المقتبس ٣٦٥/٥، ٣٦٨-٣٧٩، ٣٨١-٣٨٢، ٤٤٩-٤٥٠، ٤٥٤، والبيان ٢١٣/٢، ٢١٦-٢١٥، ٢١٨، وتاريخ الإسلام ١٣٣/٢٦-١٣٤. وأعمال الأعلام ٣٧، والفتح ٣٦٤/١-٣٦٦. وأرهار الرابض ٢٥٨/٢، وبعدها، وعمل : دولة الإسلام في الأندلس ع ١٤ ص ٢٢ وفي تاريخ المغرب والأندلس ٢١٣-٢١٨، وماحسب سولي عبد الحائق ص ١١٤-١١٦، ودولة الفرنجة وعلاقتها بالأمازيغ ٢٥٤-٢٥٥. وأحياناً، فإن ابن خلدون يذكر أنهم كانوا يُحكَمون الناصر فيما سحر بينهم من منازعات (تاريخه ١٨٢/٤-١٨٤).

(٢) له ترجمة في : الجذوة للحمدي ٤٢/١-٤٦، والبيعة ص ١٨-٢١، والحنة السيرة ٢٠٠/١-٢٠٥، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٧-١٨٦/١، والبيان المغرب ٢٣٣/٢، وبعدها، ونهاية الأثر ٤٠٠/٢٣-٤٠٢، وتاريخ الإسلام ٣٥٨-٣٥٩ (وفيات سنة ٣٦٦هـ)، والإحاطة ٤٧٨/١-٤٧٩، والفتح ٣٨٢/١-٣٨٦. (٢) لا يفوق في طول فترة حكمه سوى المستنصر العبيدي، الذي حكم ٦٠ سنة. (الدباية والنهاية ١١/٢٥٣).

(٣) ودلائل ذلك موفرة متضاربة في المصادر : لقد عُني الناصر بتربيته تربية خاصة متميزة عن سائر إخوته في قصر الإمارة (المقتبس ١٨/٥-٢٠). واستحجمه على قصده مع الوزير ابن خُذَير لما حرج الناصر لغزو سنة ٣٠٨هـ (البيان ١٧٦/٢)، وسنة ٣٠٩هـ (المقتبس ١٧١/٥-١٧٢)، وكان ما بسبب السادسة من عمره. وفي حوال ٣١٠هـ (وهو ابن ثمان سنين) أخذ له الناصر البيعة بولاية العهد من بعده وقَدِّ ترعرع (البيان ٢٢٨/٢)، وأعمال الأعلام ٤١. وفي سنة ٣١٥هـ أحضره الناصر من قرطبة؛ استنفاً إليه، وتعبداً له على حو المعارك والجهاد في بداية عزوة بسنتر، ثم أمر الغادة بإعادته، فأعادوه، وعادوا للمعركة ثانية دون أن يتم أحد منهم عمره ولا نأله. (المقتبس ٥/٢١٢). ثم حرج لأول مرة مع والده للغزو في العام التالي (البيان ١٩٣/٢-١٩٤). وأخرجه معه سنة ٣١٦هـ؛ ليرى أناه وهو يضبط أمور سنتر، ويصرف شتونها (المقتبس ٢١٥/٥-٢٢٠). وفي سنة ٣٢٩هـ اختار الناصر كفايته، فأسد إليه عدة أعمال للإشراف عليها كالجاية والخرانة، ودار الضرب، ففهم ما في هذا كله، وأحسن إدارته، فاستراح الناصر إلى كفايته. (المقتبس ٤٦٩/٥-٤٧٠). وفي سنة ٣٣٠هـ قلده أبوه الإشراف على مملكته ككل بدل (أحمد بن شَهْدَن)، الذي صُرف عن حطة الإشراف، فاستراح الناصر بذلك إلى أمير دي قسوة (المقتبس ٤٨٧/٥). وفي عام ٣٤٥هـ، عهد أبوه إليه بالظر وإبداء الرأي في شروط الصلح مع ملك حليفته (أرذون بن رُذْمِر)، فأفضاه الحكم (البيان ٢٢١/٢). ويعلق دوزي في كتابه: (المسلمون في الأندلس)، مترجم، ح ٢ ص ٤٥ : أراد الناصر وقد كبرت سنه، ورأى الأمر يتعلق بانه الحكم من بعده، فأشركه في ذلك الأمر.

أن طول عمر الناصر^(١) أعطى الفرصة كاملة لنضج شخصية الحكم، وتراكم خبراته. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تسلم بعد وفاة والده دولة مستقرة قوية مهية الجانب موحدة. ومن هنا، فإن عهد المستنصر يعد امتداداً لعهد أبيه، وحتّى لثمرات كفاحه الطويل. وعلى الجملة، فقد كانت سياسة الابن كأبيه، فلم يغب إلا شخصه^(٢).

وأحب أن أبين الملامح العامة لسياسة المستنصر الداخلية مركزة فيما يلي:

١ - حرصه الشديد على إقامة شرع الله بين رعيته: فقد تطلع المستنصر إلى القضاء على الخمر نهائياً في الأندلس، وأمر بإزالتها، وتشدد في ذلك، حتى استشار المقربين منه في استئصال شجرة العنب من كافة جهات الأندلس، لكنه توقف عن ذلك لما قيل له: إنما يمكن عملها من التبن وغيره^(٣).

٢ - اهتمامه بأحوال رعيته وتفقدته لها: وسلك في سبيل ذلك طرقاً عدة، منها: الاهتمام بإقامة العدل بين الناس، فهو يستشير الثقات من أهل العلم والخبرة قبل تولية المناصب^(٤)، ويهتم بتوجيه قضاته للحكم بالعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه^(٥). وكان يرسم لعماله ولولاته منهج الحكم الصحيح، الذي يجب أن يتوخوه في مهامهم الموكلة إليهم^(٦). وكان يقرب عماله، ويتابع سيرهم في رعيته، وذلك عن طريقين: إما أن يرسل من لدنه مندوبين يسألون أهل كل

(١) أحس الناصر بذلك، فقال يوماً للحكم: " لقد طَوَّنَا عليك يا أبا العاصي ". (الحلة السواء ٢٠٠/١). ومن هنا، فقد ولّى الحكم الخلافة وهو في سن الكهولة، فقد ورد في (الجنوة) ٤٣/١، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٦/١: أنه ولّى وهو ابن ٤٧ سنة. ووردت رواية أخرى في (الجنوة) تقول: وقيل: ٤٨ سنة، وشهرين، ويومين (الخميس ٣ من رمضان ٣٥٠هـ). وأعتقد أن الرواية الأخيرة هي الأرجح، فهي تتفق تماماً مع ما ورد من تحديد مولد الحكم بفرع رجب، ساعة صلاة الجمعة سنة ٣٠٢هـ. (المقتبس ١٠١/٥-١٠٢، والبيان ١٦٦/٢).

(٢) النفع ٣٨٢/١، وأزهار الرياض ٢٨٦/٢.

(٣) جنوة المقتبس ٤٣/١، والبنية ١٨، والحلة السواء ٢٠٣/١، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٦/١، ولهاية الأرب ٢٣/٤٠٠، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٥٩.

(٤) كان أحمد بن مطرف بن عبد الرحمن المعروف بـ(ابن المشاط)، المتوفى ٣٥٢هـ صاحب الصلاة، وكان رجلاً مُعظماً عند حكام الأندلس، يشاورونه فيمن يصلح للأمور، ويرجعون إليه في ذلك. وقد سألّه المستنصر يوماً عن بلازمة من أحداث (شباب وأعد) قرطبة، يصلح أن يؤهلّ خلال ربيعة، فأشار المشاط بـ(حلف بن أحمد) المعروف بـ(ابن أبي جعفر)، الذي كان من أزم نلاميذه له، وكان أحد رجال القاضي محمد بن يثقب بن زَرْب العلول (جنوة المقتبس ١/٢٢٨، ٣٢١).

(٥) تراجع توجيهاته الصادرة في ظُهر (مرسوم) ولايته للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم. (تاريخ قضاة الأندلس، للباهي ص ٧٥-٧٦). وقد انتصف لشاعر ضُرب ظُلماً من عامل مُرسية (الذيل والصلة للمراكشي، السفر الخامس، القسم الأول ص ٢٤٠-٢٤٢)، وكان يهتم بالمظالم (تاريخ القضاة في الأندلس) للدكتور خلاف ص ٨٢-٨٤، ٥٥٠.

(٦) كفعله مع عامله على شطر كورة رثّة. (المقتبس، ط. المحيى) ص ٧٧-٧٨.

إقليم عن أحوالهم، ويعرفون منهم رأيهم في عملهم، ويلمسون بأنفسهم رضا الناس أو سخطهم على معاشهم وحياتهم^(١). وإما أن يستدعى وفود الولايات والكرور إلى حضرته بقرطبة، وهي وفود تضم العمال، ويمثل عامة الناس، ويستمع من العمال إلى تقارير عن كورهم، ويسأل الطرف الآخر عن مدى صدق ما رُفِع إليه، فإن صدقوا عاملهم كافأه، وإن كذبوه عاقبه^(٢).

٣ - المهذوء والرفق: وهذه سمة بارزة في عهده، فلم نقرأ - فيما قرأنا - عن ثورة تائر، أو اضطراب إقليم، أو خروج عن الطاعة. لقد مر عهده في أمن وسلام، وسكينة واطمئنان. ولعل مرد هذا يرجع إلى جهود أبيه الناصر من قبل، وإلى صفى: التسامح^(٣). والرفق^(٤) اللتين يتحلى بهما المستنصر.

والآن، أحاول تركيز العنصر الثانى والأخير في سياسة المستنصر، وهو علاقاته الخارجية، على النحو الآتى:

موقفه من المغرب:

أ - استمرار النفوذ الأموى الأندلسي في المغرب في بدايات عهد المستنصر، كما كان أيام الناصر. وزاد الاهتمام بمدينة سبتة، فبنى حولها سور سنة ٣٥١هـ^(٥)، وأسقطت الضرائب عن أهلها سنة ٣٥٣هـ^(٦).

ب - استكمال المستنصر تحصينات ثغر ألمرية المتاخمة للسواحل المغربية؛ لمواجهة أى هجوم عبيدى محتمل، وذلك سنة ٣٥٣هـ^(٧).

ج - استمرار المستنصر استقبال وفود المغرب المايعة له، المعادية للعبيديين^(٨).

(١) السابق: ص ١٠٠.

(٢) المتنس (ط. الخجى) ص ٥٧، ١٥٢-١٥١.

(٣) الأئمة على تسامحه متعدد، منها: أنه كان يوقع العقوبة بمسحقتها، ثم يقبل فيهم شفاعة الشافعين، ويردهم بعد فترة إليه، ويعمر عنهم (عفا عن كثير حذمه وبعض خدمه الصقالبة لما أهلوا، فرحمهم، وقتل عطاء كبيرهم، ثم عفا عنهم). (السابق ١٠٣-١٠٤، سنة ٣٦٢هـ). وعفا عن محمد بن سعيد (ابن حال أبيه الناصر)، فأخرجه من السجن سنة ٣٦٣هـ (السابق ١٥٣). وسخط على حازن بيت المال (أحمد بن محمد بن حاجب) سنة ٣٦٤هـ، ثم أطلقه وردده إلى منصبه (السابق ٢٠٢).

(٤) تخرم المؤرخون بأن عصره كان عصر هدوء ورفق بالرعية. (جمهرة أنساب العرب لاس حزم (ط. بروكسال) ص ٩٢، وإخلة السراء ٢٠٣/١، وأعمال الأعلام ٤١، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثامن ص ٢٨٤). ومن أبرز مظاهر رفق وإشفاق قلبه: إكثاره من إخراج الصدقات وتوزيعها هو وابه هنياء، خاصة في رمضان، على الفقراء والمحتاجين. (المتنس، ط. الخجى) ص ٢٣، ٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٤.

(٥) البيان المغرب ١/٢٢٧.

(٦) السابق: ١/٢٢٧.

(٧) السابق: ٢/٢٣٦.

(٨)راجع في ذلك: المتنس (ط. الخجى) ص ٢٦-٢٧، ٣٢، ٨٠-٨١، وبعدها، والبيان المغرب ٢/٢٤١-٢٤٢.

موقفه من نصارى الشمال:

أ - واجه المستنصر نكث الجلائقة بعهودهم عقب وفاة الناصر، فردّ جيوشهم التي طمعت في اجتياح ثغور المسلمين، وضرب بلادهم بنفسه سنة ٣٥١هـ^(١)، وسنة ٣٥٢هـ^(٢).

ب - رغم أحداث الغدر والنكث المتوالية^(٣) من جانب النصارى في الشمال، إلا أن المستنصر لم يفلق الباب أمام المصالحة معهم، فظل يستقبل وفودهم ورسلمهم وسفراءهم، ويجدد المعاهدات معهم^(٤)، بل حَكَمَوه فيما شجر بينهم من خلافات، وسارعوا إليه؛ ليحوزوا رضاه وتأييده^(٥).

وهكذا، مضى عهد المستنصر الأموى بالأندلس، وبقي أن نذكر بعض الملاحظات النقدية، التي وجهت إليه، وكان لبعضها آثار بعيدة المدى في عدم استقرار الأندلس، وهي كما يلي:

١ - يذكر الدكتور حسين مؤنس^(٦) أن المستنصر أسرف في الانصراف إلى العلم، وأن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي. ويرى أنه لو عدّل سلوكه نوعاً ما، فاكتمى بتشجيع العلم دون الاشتغال به (قراءة، وتأليفًا، وتعليقًا)، ما ظهر مثل ابن أبي عامر، وما وجد له سبيلًا إلى السلطان.

والحق أن الوضع السياسي في عهد المستنصر كان مستقرًا، وأحسن المستنصر توزيع مهام الدولة على خيرة رجاله وقواده، وكان أخف استبدادًا من أبيه الناصر. أما ظهور ابن أبي عامر وسيطرته على السلطة، فليس راجعًا إلى انشغال المستنصر بالعلم، وإنما إلى ضعف صحته واعتلاله أو آخر حياته، وإصابته بالفالج^(٧)؛ مما شجع على غمؤ نفوذ كبار رجالات الدولة، ومنهم: ابن أبي عامر، الذي استطاع بكفائه - أمام الحكم - التدرج السريع في المناصب. هذا إلى جانب عوامل أخرى، سنظهرها بعد قليل.

٢ - أعطى الحكم لأمر العبيدين في المغرب اهتماماً مبالغاً فيه، وظل مشغولاً بخطرهم حتى بعد رحيلهم إلى مصر واستقرارهم بها، وجنّد كل إمكانات الدولة من جند وقادة وأساطيل وأمور، وحفلات استقبال ضخمة للمثالث منهم، ونفقات إسكانهم وإعاشتهم في قرطبة، وإرسال الهدايا إلى مناصريه هناك، كل ذلك لأجل أن يعلنوا الطاعة له، والدعاء على منابريهم.

(١) المصدر السابق : ٢/ ٢٣٥.

(٢) السابق : ٢/ ٢٣٦.

(٣) كما حدث ذلك سنة ٣٦٣هـ (المقتبس ط. المحيى) ص ١٨٨-١٨٩، وسنة ٣٦٤هـ (السابق ٢١٨-٢٢٢).

(٤) التفاصيل في المقتبس (ط. المحيى) ص ٢٠-٢٢، ١٣٨-١٣٩، ١٨٢-١٨٣، وتاريخ ابن خلدون ١٨٦/٤-١٨٧، والفتح ١/ ٣٨٤-٣٨٦، وغيرها.

(٥) دولة الإسلام في الأندلس، لعنان ع ١٤ في ٢ ص ٤٨٩.

(٦) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٣.

(٧) المقتبس (ط. المحيى) ص ٢٠٣ وبعدها (سنة ٣٦٤هـ)، ودولة الفرنجة ص ١٣٠.

وكان يكفي ما اكتفى به والده من حماية سواحل الأندلس، والاحتلال المستلم لسبته وطنجة. ويبدو أن هناك أطرافاً مستفيدة من إعطاء صورة غير حقيقية لخطر العبيدين، فاكتمبت من ذلك جاهاً وتقوذاً ومناصب وأموالاً. ولا شك أن ذلك أثر في احتياجات الأمن والدفاع عن الشغور الشمالية، وكان الأولى توجيه وتكثيف جهوده إلى أولئك النصارى ناكثي العهود، وناقضى الموائيق^(١). ويضاف - إلى ذلك - أن الإكثار من اجتلاب هؤلاء البربر بمجندهم إلى قرطبة، ومزاحمتهم أهلها، لم يعد على الأندلس بشئ، بل كلف خزائنها الكثير، وثبت - بعد قليل - عدم جدارة هؤلاء المجتلبين، وعدم إخلاصهم وولائهم للمستنصر؛ مما جعله يزل بهم النكبات، ويخرجهم من الأندلس^(٢). وبإلته أخرج جميع البربر الوافدين من المغرب، إذاً لجُنب البلاد مأساة ستقع بعد سنوات قليلة، فيها يتقاتل البربر مع سكان قرطبة في الفتنة الكبرى، التي هدمت الخلافة الأموية بالأندلس^(٣).

٣ - وأخيراً، دفعت عاطفة الأبوة الحكم المستنصر إلى الوقوع في خطأ قاتل، مال في ارتكابه إلى هواه، وعاطفته الشخصية، وهو ما لا يليق برجل دولة مثقف سياسى؛ خبير بمحن مثله. وذلك عندما عهد بالأمر من بعده لابنه الوحيد هشام الطفل الصغير^(٤)، مما يعنى فتح الباب لتدخل الأوصياء والطامعين من ذوى النفوذ في تسيير شؤون الحكم؛ مما أضعف نفوذ الخلافة، ومهد الطريق إلى إحلال سلطة العامرين محلها؛ مما جرَّ على البلاد الوليات، وأنذر بأوخم العواقب، عندما خلعت الساحة من القائد، الذى يستطيع إدارة الدولة.

الأندلس بعد وفاة المستنصر:

توفي الخليفة الحكم المستنصر في الرابع من شهر صفر سنة ٣٦٦هـ^(٥)، وخلف وراءه دولة قوية مستقرة في الداخل، مرهوبة الجانب في الخارج. وكانت في الأندلس بعض القوى ذات

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٣٥-٣٣٧.

(٢) أساء جعفر ويحيى ابنا عليّ الأندلسي الأدب مع المستنصر، وأظهرا له من التبسط والجفاء ما لا يحتمل، فحبسهما. وبعد فترة أكرمهما، وأطلقهما، وسبهما إلى بلاد المغرب ٣٦٣هـ (المقبس، ط الحجي) ص ١٧١-١٧٤. وكذلك الحسن ابن كُتُون الذى ظل في كنف المستنصر حتى ٣٦٥هـ، ثم اختلفا، فصادر أمواله، وأجله وعشيرته إلى المشرق، فتوجه إلى تونس. وكان هدف الحكم التخفيف منهم، والراحة من نفقاتهم، مع التخلص من لوم قومه له عليهم. ونزل الحسن مصر، وأعلن الطاعة للعزير، فأكرمه، وأقام مع عشيرته حتى سنة ٣٧٣هـ ثم ولاد العزيز المغرب، وأمر يوسف بن زبري بإمداده. ودخل المغرب فاطاعه البربر، وأظهر دعوة بن عبيد. (الاستقصاء ١٨٤/١-١٨٥).

(٣) تنبه إلى هذه العواقب في تحليل علمي رائع ابن حبان في (المقبس، ط الحجي) ص ١٨٩-١٩٣.

(٤) في سنة ٣٦٥هـ أعلن المستنصر عن أخذ البيعة لابنه هشام من الخاصة والعامة بسائر كور الأندلس وقرطبة، ومن في طاعته ببلاد المغرب. وهذا يعنى: أنه بوع له وهو ابن ١١ سنة، وولى الخلافة وهو ابن ١٢ سنة. (البيان ٢/٢٤٩، وتاريخ القضاء في الأندلس، للدكتور خلاف ص ٤٨٤-٤٨٥)، وبالتالي، فغير دقيق ما ذكره الذهبي من أن هشاماً ولى وله ٩ سنين (تاريخه ٢٦/٣٥٩).

(٥) البداية والنهاية ١١/٣٠٤، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٤٣.

الستطلعات المتباينة حول مستقبل الخلافة الأموية بالأندلس، منها: ولّى عهد الحكم (ابنه هشام) وأمه (صُبُح)، والحاجب (جعفر بن عثمان المصحفى)^(١)، وهؤلاء يريدون إنفاذ عهد الخليفة الراحل. وهناك الفتيان الصقالية القائمون على شئون الحكم والقصر، وكانوا يرون تولية الخليفة ابن الناصر^(٢). وهناك (ابن أبي عامر)^(٣)، ذلك الرجل الكفاء اللامع، ذو المواهب المتعددة، الذي حاز إعجاب وثقة الحكم، فتدرّج في المناصب، حتى صار من المقرّبين إليه^(٤). وكان يتطلع إلى حكم الأندلس من خلال الوصاية على الخليفة الصغير (هشام المؤيد).

لقد أفلس ابن أبي عامر -بغض النظر عن مراعاة القيم والأخلاق- في القضاء على كافة منافسيه، واستولى على الحكم في الأندلس دون منازع. ودون دخول في تفاصيل مؤلة، نكتفي بإيراد عبارة جامعة تعبر عن مراحل بلوغه هدفه المأمول: "استعان -أولاً- بالمُصْحَفِيِّ على الصقالية"^(٥)، ثم بغالب على المصحفى^(٦)، ثم بجعفر ممدوح ابن هاني على غالب^(٧)، ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيبى على جعفر^(٨)، وعدا بنفسه على عبد الرحمن^(٩)، وقال للدهر: "هل من مبارز!"^(١٠).

(١) مؤدب الحكم في صفرو. ولما ولّى الخلافة استورده، وحمله على كئاشته الخاصة، وولاه الشرطة أيضاً، وأحدمه ابنه هشاماً. أشرف على أخذ البيعة له هشام المؤيد وحجه. استطال عليه ابن أبي عامر؛ لعدم كفايته في الدفاع عن الثغور، وتغلب عليه بمساعدة صهره غالب القائد مولى الخليفة الناصر. قبض عليه ابن أبي عامر، وظل في عيسه حتى توفى سنة ٣٧٢هـ. (الجدوة ٢٨٩/١، والغبة ٢٥٧، والحلة السراء ٢٥٧/١-٢٥٩).

(٢) البيان المغرب ٢٦٠/٢.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر. دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق بن زياد، وله أثر جميل في فتحها، ونسب إلى الجزيرة الخضراء، فساد أهلها، وكثر عقيه لها. وكان والد المنصور من أهل الدين والعفاف والزهد. صاحب الخليفة الحكم، وولى له الأعمال من القضاء وغيره، وصار في أهل الخدمة، ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام، فاتصل بولي العهد، وعظمت منزلته عند الناس لقضاء الحاجات. تولى الحماية بعد جهد كبير، واستند بالأمر، وغرا الصاري، ودوّخ بلادهم وجبوشهم حتى توفى سنة ٣٩٢هـ. (الجدوة ١٣١/١-١٣٣، حمل وفاته ٣٩٣هـ، والبيان ٢٥٦/٢ وما بعدها، وتاريخ الإسلام ٢٧/٢٩١، والإحاطة ٢/١٠٢-١٠٨).

(٤) يمكن مراجعة المناصب التي تقلدها المنصور أباه الحكم في: (المقتس. ط. اخجي) ص ٤٣-٤٤، ٧٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٩-١٧٠، والمعجب ٢٩-٣٠، والبيان ٢/٢٣٩.

(٥) المصدر السابق: ٢/٢٦٠-٢٦٤.

(٦) أظهر ابن أبي عامر تغافل المصحفى في الدفاع عن الثغور، وإنقاذ أهلها، وقوّى شوكة غالب، وتزوج ابنته أسماء، ثم صرف المصحفى عن الحماية سنة ٣٦٧هـ، وقبض عليه (السابق ٢/٢٦٥-٢٧٠).

(٧) المقصود به: حعفر بن علي بن حمدون، الذي ولى المغرب مع أخيه يحيى من قبل المنصور (البيان ٢/٢٧٨-٢٧٩).

(٨) ذكر ابن عذارى (المصدر السابق ٢/٢٧٩): أن الذي قتله بإيعاز من المنصور هو أبو الأخوص مفرّج من عبد العزيز التجيبى فارس العرب مع طائفة من أصحابه الأندلسيين سنة ٣٧٠هـ، ثم قتله المنصور.

(٩) ظروف مقتل عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة، الذي أغرى عبد الله بن المنصور بالقيام على والده سنة ٣٧٩هـ في (السابق ٢/٢٨٣-٢٨٤).

(١٠) المغرب (قسم الأندلس) ٢/٢٠٢.

تحقق لابن أبي عامر أمله، واستطاع عزل الخليفة هشام المؤيد وحجبه عن إدارة شئون دولته، ومنعه من لقاء رعيته، ومن التصرف في أمواله^(١)، واتخذ مجموعة من الإجراءات، التي تهدف - في النهاية - إلى تركيز سلطات الدولة كلها في يديه، وتشكل - في مجموعها - الملامح العامة للسياسة الداخلية، وهي:

١ - تمزيق الروابط بين أفراد القبائل العربية بالأندلس، فشئت شمل القبيلة الواحدة، بعد أن كانت كل قبيلة متمتاز بأفرادها وبمكان معين تقطنه، وبراية تقاتل تحتها. وأحل محل ذلك أن يكون الولاء للقائد، وله شخصياً في النهاية، فضمن بذلك إضعاف هذه القبائل، والقضاء على العصية^(٢).

٢ - إضعاف شأن البيوتات القرطبية ذات الأصول العريقة بالأندلس، والتي كانت تتوارث المناصب والخطط (مثل: أسرة بني حدير، وابن أبي عبدة، وغيرها)، فاستغنى عن كفاءات رجالها، وخبرات قادتها ووزرائها؛ خوفاً من ولائهم لبني أمية. وبذلك أضعف نفوذهم في سبيل تفرد بالسلطة، واستبداده بشئون الحكم^(٣).

٣ - قضى على نفوذ العلماء والفقهاء الروحي، وأضعف مكانتهم أمام عامة الناس، فقلت قيمتهم وانحط إجلالهم في عيونهم. لقد جمعهم على بيعة هشام المؤيد^(٤)، رغم مخالفتها لشرط الإمامة، فأظهروهم أمام الناس مشاركين في هذا الأمر، أو على الأقل اضطروا للموافقة؛ قنأناً وخوفاً^(٥). وكان يتدخل في أحكام القضاة أحياناً، فيسيّرهما تبعاً لهواه^(٦)، أو يتدخل لإصدار الفتاوى التي يريدونها من بعض العلماء^(٧). وقد دفع البعض للتأمر ضده، لكن يقطنه وعبونه المنبثة في كل مكان أحبطت كل تخطيط معادٍ له، ساعٍ إلى إقصائه عن السلطة^(٨).

(١) الجمهرة لابن حزم ٩٢، وتاريخ الأندلس لابن الكَرْدُبُوس ٦٢، والبيان ٢/٢٧٢.

(٢) نفع الطيب ١/٢٩٣.

(٣) مقدمة الدكتور محمود مكي لكتاب (المقتبس) لابن حبان ص ١٢٣.

(٤) أورد ابن الخطيب أسماء الفقهاء، الذين شهدوا بيعة المؤيد بالخلافة (أعمال الأعلام) ص ٤٨-٥٧.

(٥) شيخ العصر في الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ٧٤، وما بعدها.

(٦) كما في حالة الشاعر (قاسم بن محمد القرشي الروان) شاعر الدولة العامية، الذي شهد عليه عند القضاة بما يوجب القتل، فسُجن، فكُتب إلى المنصور قصيدة طويلة يستعطفه فيها، فخلصه. (جنوة المقتبس ٢/٥٢٥-٥٢٦).

(٧) فكان يتعرض لأحكام القاضي محمد بن إسحاق بن السليم (ت ٣٦٧هـ)، وينقض قضاياه؛ حتى يجبره على تغيير رأيه المعارض لتولية صبي كهشام المؤيد، فاضطر ابن السليم إلى منارته حتى تولى (ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٤٨-٥٤٩)، والقضاء والقضاة في الأندلس، للدكتور السيد محمد داود ص ١٨٩-١٩٠).

(٨) كانت عيون المنصور في كل مكان في دولته (أعمال الأعلام ٧٦-٧٧، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهي ص ٨٠). ولاحظ إحباط مؤامرة استهدفت حياة هشام المؤيد، وبالتالي سلطان المنصور (الحلة السراء ١/٢٧٩-٢٨٠)، وفيها صلب عبد الملك بن منذر ٣٦٧هـ.

٤ - استطاع بشدته وصرامته أن يحفظ أمن الناس، ونشر الاستقرار في عهده^(١)، وفي مقابل ذلك كان حريصاً على الارتقاء في الألقاب، وإحاطة نفسه بكل مظاهر الفخامة والوقار، فلقب بالمنصور^(٢)، وأمر أن يُخاطَب بالملك في المكتاتبات والمراسلات^(٣)، بل فكر جدياً في انتزاع لقب الخلافة، لكن عواقب ذلك دفعته إلى التراجع^(٤).

سار المنصور في علاقته بالمغرب مسير الناصر والمستنصر، وإن فاقهما في استجلاب جند البربر والاستعانة بهم في حروبه وغزواته. وقد استدعى المنصور جعفر بن علي بن حمدون المعروف بـ (ابن الأندلسي) من المغرب؛ ليستعين به على القائد (غالب)، فحضر ومعه ستمائة من خيرة جند البربر، فأكرمهم المنصور وأحسن إليهم، وتمكن بهم من القضاء على منافسه (غالب) سنة ٣٧٠هـ. وعلى طريقة المنصور المعهودة في القدر، قتل جعفرًا بعد أن دعاه إلى مجلس أنس وشراب، فشرب حتى الثمالة وسكر، ثم وكل به من قتلته في طريق منصرفة إلى داره، وذلك سنة ٣٧٢هـ^(٥).

وفي سنة ٣٧٥هـ، جهز المنصور جيشاً كثيفاً، أرسله إلى المغرب؛ لمهاجمة الحسن بن قُتُون الشريف الحَسَنِي، الذي حاول الخروج على الدعوة المروانية. وقد أراد المنصور بذلك أن يظهر أنه حامى حمى الخليفة هشام المؤيد، المحافظ على ممتلكاته بالمغرب، رغم أنه -في الحقيقة- يدافع عن نفوذه هو، فهو الأمر النهائي. هذا، وقد نجح الجيش في محاصرة ابن قُتُون، الذي لم يجد مفرّاً من الاستسلام، فأمنه قائد الجيش، لكن المنصور - على طريقته - خان العهد والميثاق، فأمان قائده أمانه، وأمر بقتله، وبتشريد أتباعه^(٦).

كانت للمنصور إستراتيجية جديدة، تختلف عن سبقة من خلفاء بني أمية، إذ كان يهدف إلى القضاء الكامل، والاستئصال التام لقوى الشمال النصرانية^(٧). ولذلك وجدناه يواصل الغزو لها طوال سني حكمه، حتى بلغت ٥٢ غزوة^(٨). وكان المنصور لا يُعَوِّل كثيراً على سفارات

(١) نهاية الأرب ٢٣/٤٠٥.

(٢) البيان المغرب ٢٧٩/٢ - ٢٨٠ - (٣٧١هـ).

(٣) السابق ٢٩٤/٢ (سنة ٣٨٦هـ).

(٤) حول هذا الأمر تراجع: (نَقَطُ العروس لابن حزم ٧٧، ودولة الإسلام في الأندلس ١٤، في ٢ ص ٥٥٤).

(٥) الحلة السراء ٣٠٦/١، والبيان المغرب ٢٧٩/٢ - ٢٨١، وتاريخ ابن خلدون ١٠٩/٤. وقد جانب ابن خلدون الصواب لما جعل وفاة جعفر بالأندلس ٣٦٤هـ. (وفيات الأعيان ١/٣٦٠).

(٦) الحلة السراء ٢٢٦/١، والبيان المغرب ٢٨١/٢.

(٧) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، للدكتور رجب عبد الحليم ص ١٦٥.

(٨) النفع ١/٤٠٢، ومقدمة د. محمود مكي لديوان ابن دُرَّاج ص ٥٢.

الصلح والمسالمة؛ لأنه يوقن أنها ستار يخفى وراءه استعدادات هائلة لغزو بلاد المسلمين^(١). ولم يكن المنصور ينتظر حتى يهاجم نصارى الشمال الثغور الإسلامية، فيهب للدفاع عنها، أو يكتفى برُسُو الأساطيل هناك؛ لمنع العدو من مجرد التفكير في الهجوم، وإنما كان يبدأ بالهجوم، ويفزو الأعداء في عقر دارهم، ويوسعها تدميراً وتخريباً^(٢)، وغزواته خير شاهد على منهجه، الذى اتبعه في التعامل مع ممالك الشمال النصراني^(٣). وظل المنصور على غرامه بجهاد النصارى حتى أواخر أيامه، إذ وافته منيته وهو عائد من إحدى غزواته قشتالة ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢هـ^(٤).

ولى عبد الملك بن المنصور حجابة الخليفة هشام المؤيد بعد وفاة والده^(٥). وملخص أحداث ولايته ذات السنوات السبع تتمثل في نجاحه في ضبط الأمور داخل الأندلس، رغم ضعف مؤهلاته وإمكاناته بالقياس إلى والده^(٦). وقد أخذ عليه انهماكه في الشراب والملاذات^(٧)، وتركه تصريف الدولة لقلمانه ووزيره عيسى بن سعيد بن القُطّاع، حتى اتكشفت أمامه مؤامراتهم ضده، فانقم منهم^(٨)، وأفاق إلى نفسه، ودبر شئون دولته، فحظى بحب الناس ورضائهم^(٩). وظل في علاقته بالخليفة هشام حريصاً على حجبهِ والاستيلاء بالأمر دونه، رغم ثورة بعض الناس مطالبين بظهور الخليفة^(١٠)، وحصل عبد الملك بن المنصور على لقب المظفر^(١١).

وبالنسبة للمغرب، فقد حرص على مخاطبة أمرائه المواليين للخلافة الأموية، وإجابه المعز بن زيرى بتوليته على فاس والمغرب الأقصى^(١٢).

(١) فقد اعتلوا على ثغور المسلمين بعد وفاة المستنصر، وخارت العزائم عن ردهم على أعقابهم إلا ابن أبى عامر، الذى غزا بلادهم ٣٦٦هـ - ٣٦٧هـ في ثلاث غزوات خلال عامين؛ مما ملكه جيوش الأندلس. (البياض ٢٦٤/٢-٢٦٧).

(٢) اعتقد أب التدمير والتخريب الذى كان يحدته المنصور في غزواته للنصارى سلوك غير إسلامي؛ فقد ورد في توجيهات عمر لعمر وحده في فتح مصر: "لا تغربوا ولا تفسدوا، ولا تعرضوا لأهل قرى مصر ومبارزها". (المغرب قسم مصر ص ١٧).

(٣) تفاصيل حروبه مع النصارى تراجم في: (البياض ٢٩٤/٢-٢٩٨، وأعمال الأعلام ٦٧-٧٣، وأزهار الرياض ١٠٦/٥-١٠٩).

(٤) الإحاطة ١٠٧/٢.

(٥) وكان والده قد رشحه للحجامة من بعده سنة ٣٨١هـ. (البياض ٢٩٣/٢).

(٦) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ٦٦.

(٧) البياض ٣/٣، وأعمال الأعلام ٨٤.

(٨) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص ١٢٣-١٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ح ١ ص ٢١٣، والبياض ٢٤/٣-٢٩٠.

(٩) المغرب (قسم الأندلس): ٢١٢/١.

(١٠) نهاية الأرب ٤٠٧/٢٣.

(١١) البياض ١٥/٣.

(١٢) أعمال الأعلام ٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٦/٧-٤٧، وصح الأعشى ١٦٨/٥، ١٨٦، والمع ٤٢٣/١.

وبالنسبة لجهاد النصارى، فقد واصل هجومه على ممالك النصارى الشمالية، مقتنياً بذلك آثار والده، وظل في غزو بلادهم وتخريبها حتى عند اشتداد علته، التي مات فيها في صفر سنة ٣٩٩هـ^(١).

ولى عبد الرحمن بن المنصور بعد وفاة أخيه عبد الملك، ولم تكن له أية مؤهلات للقيادة، بل إن المؤرخين يتهمونه بالفسق والجون والخلاعة. وقد كان فتى غراً مغروراً، دفعه جنون العظمة للضغط على الخليفة المحجوب المقهور، وهدده بالقتل، حتى أصدر مرسوماً بتوليته العهد من بعده^(٢). هنا انقلب الناس - خاصتهم وعامتهم - على عبد الرحمن، وأظهروا له التأيد، بينما أبطنوا له الكراهية والبغضاء. وأراد تقليد أخيه في غزو بلاد النصارى، وفي أثناء ذلك وصلت إليه أنباء استيلاء محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على شئون الحكم، فأراد العود إلى قرطبة. وفي الطريق خذله جنده ورجاله، وانفضوا من حوله، حتى قبض عليه، وتم قتله وصلبه في شهر رجب من سنة ٣٩٩هـ^(٣). وبذلك فتح باب شر كبير على بلاد الأندلس، ودخل أهلها مع البربر في صراعات دامية، شاع فيها القتل والنهب والسلب، والتدمير في كل مكان، حتى خربت قرطبة ومدينة الزاهرة، وظلت الفتنة متأججة، حتى نهايتها المحتومة، التي أدت إلى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ^(٤)، ودخلت البلاد في طور جديد من الضعف على يد (ملوك الطوائف).

خلاصة مقارنة:

في هذه الخلاصة المركزة نذكر أوجه الاتفاق والاختلاف بين كل من: مصر، والأندلس من حيث الأوضاع السياسية، التي عايشها كل منهما خلال القرن الرابع الهجري، وذلك على النحو الآتي:

أولاً - مرت مصر في القرن الرابع الهجري بمراحل ثلاث متعاقبات: مرحلة ما بين العصرين الطولوني والإخشيدي، وهذه عانت خلالها مصر من الفوضى والاضطرابات السياسية، وصراعات الجند الداخلية. ويضاف - إلى ذلك - حالة النفير العام والطوارئ؛ نتيجة للخطر العبيدي على مصر، ومحاولات غزوها أكثر من مرة، ونخبط الخلافة العباسية ورجالاتها في سياسة تولية وعزل الولاة في مصر؛ مما أدى إلى عدم الاستقرار. وفي مرحلة حكم الدولة الإخشيدية عرفت مصر الاستقرار والهدوء في ظل الاستقلال شبه التام عن العباسيين؛ نتيجة الاهتمام الأكبر باستقرار أوضاعها الداخلية، والاتزان في علاقاتها الخارجية. ثم انتقلت مصر إلى مرحلة جديدة

(١) البيان ٣٦/٣-٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٣٨-٣٩، وأعمال الأعلام ٩١-٩٣ (في ربيع الأول ٣٩٩هـ).

(٣) البيان ٤٩/٣-٥٠، وأعمال الأعلام ٩٦-٩٨.

(٤) تفاصيل الفتنة في: (البيان ٥٠/٣ وما بعدها، وكتاب العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، د. رجب عبد

الحليم ٢٦٤-٢٦٨، وقيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، للدكتور العمري ج ٢ ص ١٢٢-١٢٣).

خضعت فيها لحكم العبيدين، الذين سيطروا على شئون البلاد من كافة نواحيها. ولم تستقر الأوضاع السياسية في ظلهم على النحو المعقول، فعاتت مصر من هجمات القرامطة، وسيطرة أهل الكتاب على مقدراتها في شئون الإدارة والمال، إلى جانب عمليات الابتزاز المالي، واصطناع الرجال بالأموال، بالإضافة إلى القرارات والإجراءات المتناقضة، التي أشاعت جوّاً عاماً من السخط والكراهية، والخوف والفرع في كافة طبقات الشعب المصري.

أما الأندلس، فإنها لم تمر بتلك المراحل، وإنما حُكمت بخلافة أموية، يعد عهد الناصر والمستنصر أفضل فتراتها، بما تحقق من قضاء على الثائرين، وحماية البلاد من هجمات نصارى الشمال، وبما تم إرساؤه من نظم إدارية ناجحة تقوم على الكفاءات، وتحقيق للأندلس الاستقرار والوحدة، والهبة والعزة. وبدأ الأُمَير بترشيح المستنصر ولده الصغير للخلافة من بعده، ففتح ذلك الباب لتدخل الأوصياء والصراع فيما بينهم، حتى سيطر على الحكم المنصور دون وجه حق وبطرق غير سوية، إلا أن مهارته وكفاءته غطت على سلبياته، خاصة انتصاراته المدوية على النصارى. وموته ظهرت عوامل الأُمَير في عهد ابنه عبد الملك، ثم وقع الأُمَير الكامل في حكم ولده الآخر عبد الرحمن؛ مما أدى إلى نهاية مأساوية مبكرة للمسلمين بالأندلس.

ثانياً - كانت العلاقات السياسية بين مصر والأندلس في هذا القرن عدائية؛ نتيجة تعادى العبيدين والأمويين، ووصلت في بعض مراحلها إلى التهديد^(١) والسباب واللعن المتبادل بين الطرفين بعد فشل الاتفاق السلمي بينهما. وقد حال رحيل العبيدين إلى مصر دون وقوع الصدام الحربي المباشر بين الطرفين، وإن ظل أسلوب الدس والوقعة، والتحريض وإثارة القلاقل قائماً بين الطرفين عن طريق أنصارهما في بلاد المغرب.

ثالثاً، وأخيراً - كان الاستبداد في الحكم هو الطابع الغالب والمسيطر على أوضاع مصر والأندلس السياسية، وكأنه كُتب على شُعبي الإقليمين أن يُحكَمَا حكماً وراثياً مستبدًا، وإن كان حكم العبيدين أشد قهراً وتسليطاً لاختلاف المذهب العقدي مع الشعب المحكوم. وقد نتجت عن طبيعة الحكم الواحدة نتائج خطيرة كانت سريعة حاسمة في الأندلس، وبطيئة تظهر على المدى البعيد في مصر؛ نظراً لاختلاف ظروفهما، وطبيعة شعبيهما^(٢).

(١) وأمر ما لدينا في هذا الشأن أبيات شعر، أُرثت عن المنصور بعد أن اشتد سلطانه وتوالى ظَفَره، كتب بما إلى صاحب مصر العبيدي يتوعده. ولا تدري مناسبتها، ولا ظروفها، ولا تاريخها بالتحديد. (الأبيات في: الحلة السراء ٢٧٥/١-٢٧٦).

(٢) كان الإسراف في اجتلاب البربر وانتياهم من المغرب إلى الأندلس، والاعتماد عليهم في جيوش المنصور وولديه ذا دور خطير في الفتن، التي أعقبت مقتل عبد الرحمن بن المنصور في ظل صراع سكان قرطبة حادٍ الطابع مع البربر البداة الخفافة. وكان جلب العزيز في مصر للترك سبباً في اضطراب الأحوال فيما بعد عهد الحاكم في مصر؛ للنزاع بين طوائف الجند (حول اتخاذ العزيز لهم وخطورة ذلك تراجع: (الخطط ٢٨٤/٢-٢٨٥، واتعاظ الخفاط ٢-٣ المجلس الأعلى) ٢٩٤/١، وموسوعة التاريخ الإسلامي ١٢٦/٥).

ثانيا - الأوضاع الاقتصادية العامة في مصر

والأندلس في القرن الرابع الهجري

١- مجمل الأوضاع الاقتصادية في مصر:

من خلال معالجتنا للأوضاع السياسية في مصر في ذلك القرن، اتضح لنا أن فترة ما قبل الدولة الإخشيدية كانت مملوءة بالاضطرابات، وعدم الاستقرار؛ ولذلك لا نتوقع وجود نشاط اقتصادي واضح بها^(١). ومن هنا فإن تركيزنا سيكون حول فترة الحكم الإخشيدى، والعبيدى خاصة؛ إذ عرفت مصر خلال هذين العصرين الاستقرار، وما يترتب عليه من وجود سياسة اقتصادية واضحة، تنعكس آثارها على مجالات الحياة المختلفة.

في عهد الإخشيد يذكر ابن سبيد^(٢) أنه كان إذا أقبل شهر رمضان، أطلق النفقات للمسجد الجامع، وأمر بعمارة المساجد وترميمها، والعناية بمظهرها، وإضاءتها بالمصابيح، وتوفير الأئمة لها. وهذا لون من الاهتمام بالعمران في ذلك العصر. وكان الإخشيد يهتم بإقامة المتنزهات الفخمة التي تستكلف أموالاً كثيرة؛ كى يفاخر بها أهل العراق^(٣)، وكان كثيراً ما يقيم بيستانه المعروف بـ(المختار)، والذي أقام إلى جانبه ميداناً، وكان كافور - من بعده - يقيم به أيضاً^(٤). وبخصوص كافور فقد أمر ببناء دار له، يبدو أنها كانت على قدر كبير من الأبهة، وذلك بمدية العسكر^(٥) سنة ٣٤٦هـ، بجوار بركة قارون. وقد تكلفت مائة ألف دينار، وهو رقم مبالغ فيه. وعلى كل، فقد سكنها شهر رجب من السنة المذكورة، وانتقل منها بعد أيام؛ بسبب الوباء الذى وقع لفلمانه من بخار تلك البركة^(٦). وهذا - ولا شك - لون من الإسراف في الإنفاق. وفي العام نفسه قام كافور الإخشيدى بعمل نافع في دولة الإخشيديين، لما قام ببناء مَارَسْتَان لعلاج المرضى^(٧).

(١) بالإضافة لبعض الكوارث التي أصابت الزراعة، كما في سنة ٣١١هـ، لما هاجمت أسراب الحراد غلة مصر، فأتت عليها، محظوظة نزهة الأنام في تاريخ الإسلام) لابن دُقَمَاق : ورقة ٢٨.

(٢) المغرب (قسم مصر) ص ١٦٣.

(٣) السابق : ١٦٠-١٦١.

(٤) وصفه المقرئى في (الخطط) ١/٣٦٠، ٤٥٧.

(٥) هي ثاق مدينة اتخذها العرب عاصمة لمصر بعد الفسطاط. بناها أبو عَوثَ ثامر صالح ابن على ١٣٣هـ، وصار أمراء مصر يسزلون لها، وكثرت بها الأسواق. (م. البلدان ٤/١٣٩، والخطط ١/٣٠٤، والقاموس الجغرافى) القسم الأول - البلاد المدرسة) ص ٨٤.

(٦) الخطط ١/٣٠٤.

(٧) المصدر السابق : ٤٠٦/٢.

شهدت الدولة الإخشيدية عدداً من مظاهر النشاط الاقتصادي، فقام كافور سنة ٣٣٦هـ بمشروع حفر خليج بساحل مصر، يَسُرُّ على الناس وصول الماء إليهم عند جفاف النيل^(١). وشهدت الصناعة رواجاً، خاصة صناعة السفن^(٢)، وازدهرت التجارة^(٣)، وانتعشت حركة البيع والشراء، وبدأت مظاهر ذلك في مدينة الفسطاط وأسواقها وحوانيتها^(٤)، وكذلك فيما يدخل إلى خزانة الدولة من الأموال، وانتشار الثراء والضياع^(٥). وقد عنى الإخشيد بدار الضرب وبلغت العملة في دولته درجة من القوة تدل على نمو الاقتصاد فيها^(٦). وساعد ذلك الإخشيد - ومن بعده كافور - على صرف الرواتب لأرباب الحاجات والفقراء، وكان منهم طائفة من الأشراف الذين افتقروا بعد النعمة^(٧).

وأخيراً، فقد عانت البلاد من محن وبلاء بعد الإخشيد، تمثل فيما حل بها من جفاف وانخفاض لمياه النيل، وزلازل مدمرة^(٨)، وما نتج عن ذلك من أوبئة وغلاء في الأسعار شديد، وتفاقمت الأزمات في المجاعة التي امتدت بعد وفاة كافور^(٩)؛ مما أزهق الناس وأضعفهم، وساعد على ترحيب الكثيرين بمقدم العبيدين، على أمل الخلاص مما هم فيه من ضيق وعنت شديد.

اهتم العبيديون في مصر ببناء عاصمة جديدة للملكهم (القاهرة). وقد شرع جوهر قائد المعز في حفر أساساتها بمجرد دخوله مصر بجيوشه، وحرص على تقسيمها إلى حُطَط وحارات، تنزل فيه فرق الجيش المختلفة^(١٠)، وبنيت بها عدة قصور لنزول المعز وحاشيته وقواده وكبار رجال دولته^(١١)،

(١) السابق: ٣٤٤/١، ومصر في العصور الوسطى، لعلي إبراهيم حسن ٣٩٩.

(٢) المغرب (قسم مصر) ص ١٦٠، ١٦٦، ١٧٣، ١٩٧.

(٣) مصر في عصر الإخشيديين ٢٧٩، وتجارة مصر في البحر الأحمر، للدكتور الفوصي ٧٩-٨٠، ورؤية الرحالة المسلمين ٣٠٨-٣٠٩. وراجع كتاب رومانوس للإخشيد، وبه طُنب تيسر التجارة بين مصر وبيزنطة (المغرب - قسم مصر ص ١٧٢).

(٤) المسالك والممالك للإصطخرى ٣٩-٤٠، وأحسن التقاسيم للمقدسي ١٦٨-١٦٩، والخطط ٣٣٠/١-٣٣٣.

(٥) راجع مقدار خراج مصر - الذي بلغ في عهد ملبوئي دينار سوى ضياعه التي يملكها - في: الخطط ٩٩/١، ومصر في عصر الإخشيديين ٣٤٢-٣٤٣. وما يدل على عظم الأموال والثراء في مصر أخبار مصادر الإخشيد لأثرياء مصر، ويمكن مراجعتها في: المغرب (قسم مصر ص ١٥٤، ١٦٠، ١٦٣-١٦٥). وكذلك تركة كافور الهائلة، التي خلفها من بعده (الخطط ٢٧/٢).

(٦) حول أهمية سك العملة في دعم الاستقلال السياسي والاقتصادي، وجهود الإخشيد في ذلك المضمار. راجع المغرب (قسم مصر) ص ١٨١-١٨٢، ومقدمة ابن خلدون ٦٣٧/٢، ٧٠٠-٧٠٦، ومصر في العصور الوسطى ٣١٤.

(٧) الخطط ٩٩/١، وتاريخ الدولة الفاطمية، د. حسن إبراهيم ٢٩٧، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٠٠.

(٨) كما حدث سنة ٣٤٤هـ، والذي هدم البيوت، وأفرغ الناس (تاريخ الإسلام) لذهبي ٢٠/٢.

(٩) مثل: غلاء سنة ٣٣٨هـ، ٣٤١هـ، ومجاعة استمرت ٩ سنوات متوالية بدءاً من ٣٥٢هـ، واشتداد الغلاء آخر عهد كافور (إغاثة الأمة ١٠-١١، والخطط ٢٧/٢).

(١٠) صورة الأرض ١٣٨، وصحح الأعشى ٣٤٤/٣، والخطط ٣٦١/١، وبعدها، والنجوم الزاهرة ٣٥/٤ وبعدها.

دولته^(١)، كما بنيت بها دور لتخزين ما يحمل إلى الناس من أطعمة ونحوها في الأعياد والاحتفالات المختلفة^(٢)، وأقيمت بها مخازن لحفظ الغلال^(٣)؛ كى توزع على الناس عند انخفاض النيل، وانتشار الجماعات. ومن أوائل ما وضعه جوهر في الحسبان إنشاء الجامع الأزهر بمدينة القاهرة؛ ليكون منطلقاً لنشر الدعوة الشيعية في أرجاء مصر وبين جموع شعبها. وقد حظي هذا الجامع باهتمام كبير عبر العصور، وأدخلت فيه عدة تجديدات^(٤). وعُني المعز - كذلك - بتهيئة مصلى العيد، واتخذ من الترتيبات ما يوصل التكبيرات إلى الحرم بالقصر^(٥). وتوسع بنو عبيد في إنشاء مزيد من المساجد، فأقام العزيز مسجداً تم بناؤه في عهد ابنه الحاكم ونُسب إليه^(٦). وكذلك أنشئ مسجد راشدة في عهد الحاكم ٣٩٣هـ^(٧). وفي المقابل دفع التعصب الحاكم إلى هدم مسجد عمرو بن العاص بالإسكندرية سنة ٣٩٤هـ^(٨). وإذا كان العبيديون تسامحوا في ترميم بعض الكنائس، بل في إقامة الجديده منها^(٩)؛ فإن الحاكم كان يأمر - أحياناً - بهدم بعض الكنائس، وذلك في ثورات غضبه وهياجه المعهودة^(١٠) ولم يعدم العزيز بناء منظره يجلس فيها، وأمامها بستان عظيم، وكانت كأنها من جثات الدنيا المزخرقة، وبها عدة أماكن مجهزة لنزول الوزير وغيره من رجال الدولة^(١١).

(١١) الخطط ١/٣٨٣-٣٨٥، ٤٥٧، ومخطوط عقد الجمان ١٠/ورقة ١٢٤.

(١) وتسمى كل دار منها بـ(دار الفطرة). (الخطط ١/٤٢٥).

(٢) وتعرف بالأهراء السلطانية، وتعدد أماكنها بالقاهرة (السابق ٤٦٤/١-٤٦٥).

(٣) الخطط ٢/٢٧٧-٢٧٥. وذكر المقرئى أنه بدأ في إنشائه السبت ٢٤ من جمادى الأولى ٣٥٩هـ، واكمل ٩ من رمضان ٣٦١هـ، وصُبت فيه الجمعة ٧ من رمضان ٣٦١هـ، ومكث في لوحة بالمسجد بجوار الخراب أنه مبنى بأمر المعز على يد جوهر، وذلك سنة ٣٦٠هـ (السابق ٢/٢٧٣). والمح أن التاريخين الأولين صحيحان، وأما تاريخ اللوحة، فقد يحتاج إلى تفسير، ولعله يعنى تاريخ الانتهاء من هذا الجزء من المسجد. أما بخصوص تاريخ أول جمعة جُمعت فيه، فالصواب أنها كانت سنة ٣٦٢هـ؛ لأن المعز كما ذكرت من قبل دخل مصر في الخامس من رمضان (وكان يوم الثلاثاء)، ثم افتتح الجامع الأزهر، وصلى فيه أول جمعة بعد دخوله بثلاثة أيام (الثامن من رمضان). ومن ثم، فإن القلقشندي لم يكن على صواب (صبح الأعشى ٣/٣٦٠) عندما ذكر أن جوهرًا بنى الجامع بعد دخول المعز إلى القاهرة، وإقامته بها، وأنه جمعت فيه الجمعة في السابع من رمضان سنة ٣٦١هـ. ومن عجب أن نص المقرئى الذى نقلته آنفاً، واحتاج إلى تعليق وتصويب منى، قد نقله مؤلفنا كتاب : (المعز لدين الله) ص ٢١٩، ولم يُعلق عليه!

(٤) كان مصلى العيد يقع شرقي القصر الكبير من خارج باب النصر. وقد بناه جوهر - أولاً - في رمضان ٣٥٨هـ لصلاة العيد، ثم جددّه العزيز. وقد أمر المعز بعمل مصاطب، تصل المصلى بالقصر، ويقف عليها المؤذنون؛ حتى يصل التكبير من المصلى إلى القصر. (الخطط ١/٤٥١، وتمعظ الحفا - ط. دار الفكر ص ١٦١).

(٥) الخطط ٢/٢٧٧ (٣٨٠هـ)، ومخطوط (عقد الجمان) ١٠/ورقة ١٢٤.

(٦) صبح الأعشى ٣/٣٤١، والخطط ٢/٢٨٢-٢٨٣.

(٧) اتمعظ الحفا (ط. المجلس) ٢/٤٩ (٣٩٤هـ).

(٨) أهل الذمة في العصر الفاطمي الأول، د. سلام شافعى ٢٢٤.

(٩) هُدمت كنيسة بجانجامع راشدة (تمعظ الحفا) ٢/٤٨ (٣٩٤هـ).

(١٠) الخطط ١/٤٦٥، ٤٧٠.

دخل العبيديون مصر بقيادة جوهر الصَّقَلِيّ، وهي تعاني مجاعة شديدة تمتد منذ سنوات، ولنا أن نتوقع ما يبذله جوهر؛ لتخفيف تلك المعاناة على المدى العاجل والممتد؛ لمحاصرة تلك الأزمة الغذائية الطاحنة^(١). وقد اعتنى العبيديون بالأراضي الزراعية، وخفضوا وطأة الضرائب على الفلاحين^(٢)، فعمرت الأرض بصنوف المحاصيل الزراعية طوال العام^(٣). وساهم المعز في منع احتكار التجار السلع؛ تجنباً لارتفاع الأسعار، وكذلك لم يسمح بحبوط الأسعار هبوطاً حاداً، يؤدي إلى خسائر فادحة لهؤلاء التجار، وذلك عندما نحى في شوال سنة ٣٦٢هـ عن النداء العام بمقدار زيادة النيل^(٤).

اهتم العبيديون بالصناعة اهتماماً كبيراً، ولعل في تنوع النشاط الصناعي في عصرهم دليلاً على الازدهار، فوجدت صناعة المنسوجات، وصناعة الأسلحة، والسفن، والصناعات الخشبية، والصناعات النباتية والزيتية^(٥). ويعد عهد العزيز من أفضل عصور الابتكار في كثير من المجالات خاصة المجال الصناعي^(٦). ومن البديهي أن تزدهر التجارة في ظل نمو الزراعة والصناعة، وتقدم العبيديين في شئون النقل البحري خاصة، فتوطدت صلاتهم التجارية مع بيزنطة^(٧)، ومع بلاد المغرب والأندلس^(٨). ورغم العداء السياسي الشديد مع الأندلس، إلا أن الحدود كانت مفتوحة في ذلك الزمان، ولا توجد قيود تمنع انسياب حركة التجارة بين المشرق والمغرب. وساعد على رواج التجارة موقع مصر الجغرافي الممتاز، وتعدد مراكزها التجارية داخلياً وخارجياً^(٩).

زاد الخراج في العصر العبيدي في مصر زيادة ملحوظة، إذ يذكر المقرئى أن الخراج بلغ في السنة، التي دخل فيها جوهر القائد مصر (٣٥٨هـ) ثلاثة ملايين دينار، وأربعمئة دينار

(١) على المدى العاجل : وزع القمح بين الناس، ثم قام بتوزيع الصدقات (نهاية الأرب ٢٨/١٣٠)، وقام المختب ٣٥٩هـ بتوجيه الأوامر إلى القسّاحين بعدم توزيع القمح إلا في وجوده، وعاقب المخالفين من الطحّانين (اتعاظ الحنفا - ط.دار الفكر - ص١٦٩، ١٧٢). وعلى المدى البعيد قام بخفر الترع والجسور؛ لارتفاع ثمن النيل. (المخطط ١/٦١، ١٠١، وتاريخ الأمة القبطية ١٠/٣، وتاريخ جوهر ٧٥).

(٢) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٦٦.

(٣) أنواعها بالتفصيل، وأوقات رعايتها في (المخطط) ١/١٠١-١٠٣.

(٤) المصدر السابق : ٦١/١، وتاريخ الدولة الفاطمية ٥٧٢-٥٧٣.

(٥) راجع : صورة الأرض ١٤٣، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٩٢، والحرف والصاعات لأبي سديرة ١٧٢-١٧٣، ٢٠٦، ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٢-٢٣٤، ٢٤٤؛ وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم ٥٩٤ ومبدها، وتاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، للدكتور عبد العادي، وسالم ص٨٨-٩٣.

(٦) انتدعت أيامه عمائم مذهبة، لها حريم وعزل غالية الثمن بدمياط (المخطط ١/٢٢٦)، وأنواع مبتدعة من السفن (نهاية الأرب ٢٨/١٦٣)، وغير ذلك.

(٧) رؤية الرحالة المسلمين، للدكتور أمينة الشورنجي ص٣٧٢ ومبدها.

(٨) رؤية الرحالة المسلمين، للدكتور أمينة الشورنجي ص٣٨٥-٣٨٩.

(٩) تاريخ الدولة الفاطمية ٥٩٨-٦١٨ وما بعدها.

ونيفاً^(١). وقد اتخذت مجموعة من الإجراءات الاقتصادية على يدى: يعقوب بن كلس، وعُسلوج ابن الحسن، فيما يتصل بالشدة في استخراج الأموال، والمطالبة ببقاياها عند الناس، والاستقصاء في طلبها، وطرح مزيد من الضياع للمتقبلين، كل ذلك شجع على زيادة إيرادات الدولة^(٢)، بالإضافة إلى تخفيض قيمة الدينار الراضى، الذى كان يُعامل به في مصر؛ إذ رفض ابن كلس ومسئولو الخراج التعامل إلا بالدينار المعزى، فهبطت قيمة الآخر أكثر من الربع^(٣)، ولم يستطع الوقوف أمام عملة العبيدين الجديدة القوية المعبرة عن قوة اقتصادهم^(٤). وقد أورد لنا المقرئى أرقاماً لقيمة ما استخرج من أموال عدد من مدن وبلدان مصر، ترجع إلى عهدى: (المعز، والعزیز)^(٥)، إلا أنما مبالغ فيها جداً، لكنها على أية حال تدلل على مقدار الطفرة الحادثة في إيرادات الدولة. وعلى الجانب الآخر يجب ألا تغفل الأثر السلبي لذلك على عامة الناس، ففي الوقت الذى أراد فيه المعز تعويض الأموال الطائلة التى أنفقها في غزو مصر^(٦)، وتخفيف آثار المجاعة بها، كان الناس يفقدون أموالهم، ويعانون الأزمات المالية الحائقة^(٧)، وكانت المبالغة - من جانب ابن كلس - في جباية الضرائب من بلد، مثل: تنيس، وهى مشهورة بصناعة المنسوجات، تؤثر تأثيراً سلبياً في إنتاجها ورواج صادراتها^(٨)؛ لانعدام التوازن بين الإيرادات والمصروفات^(٩).

وأخيراً، فلا ينبغي أن نُخدع بمظاهر العمران من قصور ونحوها، أو بكَمِّ الكنوز والثروات والذهب والمجوهرات، والمقتنيات النادرة لدى الحكام وبلاتنتهم ورجال دولتهم^(١٠)، فعلى الجانب الآخر توجد أخبار تظهر وتختفى - على استحياء - في المصادر، تعبر عما يقاسيه الناس من

(١) المخطوط ٨٢/١.

(٢) اتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٩٧، وأهل الذمة في مصر في العصر الفاطمى الأول د. سلام شافعى ٤٧-٤٨.

(٣) اتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٩٩، ورؤية الرحالة المسلمين ص ٧٦.

(٤) وهى قوة معطنة؛ لأنها تنافس عملة أضعفت (الدبهار الراضى).

(٥) اتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٩٩.

(٦) فسر المقرئى حيلة أمل المعز في مصر، فقال: كاد يظن أنه سيحد فيها الأموال بجمعة، فوجدوا قد فرقها مؤن مصر وكثرة عساكرها. وما أنفقه المعز على مصر لا يُحصى، ولا يعرف مقداره إلا هو، أو خزائنه. (اتعاظ اخفا، ط. دار الفكر ص ١٩٩).

(٧) لأهم حسموا أكثر أموالهم بعد هبوط قيمة العملة، التى كانت معهم (الدبهار الراضى). (المنصر السابق، ط. دار الفكر ص ١٩٩).

(٨) صورة الأرض ١٤٣، وأحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٨١.

(٩) فهناك عوامل تتحكم في زيادة الحياة الحقيقية وقتلها. ومن ذلك: ضرورة مراعاة مستوى الإنتاج وقيمه

ومقداره عند فرض الضرائب، وإلا أحس المنتجون بالظلم الفادح، فانهار الاقتصاد. (المقدمة ٧٢٩/٢-٧٣١،

وبنت التفكير الاقتصادى لدى ابن خلدون، لسبب التكريف، في مجلة (الأفلام الغدانية)، ج ٦، السنة الأولى،

رمضان ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م). ص ٩٦-٩٧.

(١٠) راجع: الجماهر في معرفة الجواهر، لليبرون ٢٣٨، ووفيات الأعيان ١٠١/٣-١٠٢ (حيوانات نادرة)، ونهاية

الأرب ١٤٣/٢٨، واتعاظ اخفا (ط. دار الفكر) ص ١٤٤، والمخطوط ٣٣١/١، ٤١٥، ٤١٨، وتاريخ

الدولة الفاطمية ٥٥١-٥٥٨، وتجارة مصر في البحر الأحمر، لعطية القوصى ص ١٣٤.

غلاء فاحش في الأسعار^(١).

مجمال الأوضاع الاقتصادية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

لعل جهود خلفاء بني أمية بالأندلس في مجال العمران في هذا القرن هي أبرز آثار حضارتهم الماثلة للعيان في زمنهم، والتي لا تزال بعض بقاياها شاهدة على عظمة منجزات هؤلاء القوم حتى العصر الحالي^(٢). لقد أُولع هؤلاء الخلفاء بكل مظاهر التشييد والعمران أيما إيلاع، حتى بلغوا في ذلك درجة من الإسراف، عرّضهم لانتقادات بعض رجال زمانهم^(٣)، وجعلهم في عداد المسرفين في نظرنا، ونظر الباحثين الآخرين^(٤). لقد رأى الخليفة الناصر أن أجرة الملك تقتضى ما قام به من منشآت وتجديدات، وأن تخليد آثار الملوك من بعدهم إنما يكون بهذه الطريقة^(٥). ومن هنا رأينا أكبر حركة عمران في عصره، الذي امتد أكثر من نصف قرن. لقد حظى المسجد الجامع بقرطبة بعمليات تجديد وتوسيعات متتالية؛ ليلائم النهضة الحضارية والعمرانية، وكثرة عدد السكان بقرطبة عاصمة الخلافة. واستمر ذلك في عهد ابنه المستنصر من سنة ٣٥٤هـ إلى سنة ٣٥٥هـ، فجددت منارته، وأبوابه، ومقصورته، ومنبره، وتضاعفت مساحته، وتم إجراء الماء العذب إليه في أنابيب، تحفظها من التلوث. وأنشئت دار الصدقة؛ لتكون مقراً لتوزيع الصدقات على الفقراء والمُعوزين^(٦). كما أنشئ مسجد آخر في عهد الحكم، استمر بناؤه خمس سنوات كاملة، واكتمل بناؤه سنة ٣٦٥هـ، وتكلف أموالاً طائلة^(٧). وإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كثرت المساجد جداً في قرطبة وغيرها^(٨)، وشرح ذلك الدكتور مؤنس بأن الناس -فيما يبدو- كانوا ينشئون زوايا صغيرة في بيوتهم، ويعبدونها مساجد،

(١) كما في سنة ٣٨٦هـ (اتعاظ الحفاط. المجلس الأعلى) ٢٩١/١ : غلاء سعر القمح، وسنة ٣٨٧هـ (السابق ٨/٢):

وتثبت سعر الحنّيز). وفي سنة ٣٩٧هـ (السابق ٦٩/٢): مواجهة اضطرابات الأسعار تسعير السلع، وغلاء

٣٩٨هـ وانعدام الأقوات، وظهور الأوبئة (الكامل ٤٩/٨-٥٠، والخطوط ٢٨٦/٢).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور شلي ٩٦/٤-٩٧، ١٠٠-١٠١.

(٣) مثل : قاضي الجماعة منذر بن سعيد البلوطي. (المغرب، قسم الأندلس) ١٧٩/١-١٨٠، وتاريخ قضاة الأندلس للنهاي ٧١-٧٢، وأزهار الرياض ٢٨١/٢-٢٨٢.

(٤) انتقد ابن خلدون هذا المسلوك بعمامة (المقدمة ٥٥٦/٢، ٥٩٩-٦٠٠)، وانتقده من المعاصرين د. عبد الحليم عويس في (التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس) ص ٥-١٩، وقيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، للدكتور العمري ١٣٧/١-١٣٧.

(٥) للناصر شعر مأثور، يدافع فيه عن وجهة نظره، ويطل شغفه بالعمران (الفتح ٥٢٠/١-٥٢١، ٥٧٥).

(٦) نزعة المشتاق ٣٥٩/١-٣٦٠، ٥٧٥/٢، والبيان (٣٤٨هـ) ٢٢٩/٢-٢٣١، ٢٤٠ (أحداث ٣٥٦هـ)،

والفتح ٥٤٨/١ وبعدها، وبحث د. سحر سالم : (مصحف عثمان بن عفان في الأندلس) في (المجلة العربية للثقافة)

السنة ١٤، ع ٢٧، سبتمبر ١٩٩٤م، ص ٦٣ وبعدها.

(٧) البيان ٢٥٩/٢.

(٨) الفتح ٥٤٠/١.

وبكثرة عدد الدور، وانتشار حركة العمران، بلغت هذه المساحد أعداداً هائلة^(١).

تطلبت مقتضيات التوسع العمراني، ثم أُبْهِتَ الخلافة أن ينشئ الناصر عاصمة جديدة، تتسع طرقها وشوارعها لجيوشه الجرّارة دون إيذاء عامة الناس. ومن هنا بدأ ينشئ مدينة الزهراء وجامعها^(٢) وقصر الحكم، مع توصيل المياه العذبة إليه في مشروع ضخم. وقد بدئ في إنشاء هذه المدينة - بإشراف ولي العهد الحكم - أول المحرم سنة ٣٢٥هـ، واستوعب ذلك طوال عهد المستنصر تقريباً، حتى انتهى من بنائها سنة ٣٦٥هـ (أى: استغرقت حوالي أربعين عاماً^(٣)، ولنا أن تصور - بعد ذلك - مقدار ما تكلفته من جهد ومال، وهو لون من الإشراف المقوت. وفي عهد المنصور أنشأ مدينة الزاهرة على مقربة من جنوب قرطبة سنة ٣٦٨هـ، وأنشأ بها مسجداً وقصراً، وجعلها مقر دواوين الحكم ومركزه، بينما كان المؤيد ينتقل بين قرطبة والزهراء^(٤).

واهتم الناصر ببناء مدن ثغرية، تكون في مواجهة النصارى، وتكون شجى في حلوقهم، وتعمّر بالمرابطة والسفّ الحربية؛ لمواجهة الهجمات البحرية، فأقام مدينة أَلْمَرِيَّة سنة ٣٤٤هـ^(٥)، ومن قبل أعاد الناصر إحياء مدينة سالم سنة ٣٣٥هـ^(٦). ويضاف - إلى ما سبق من مظاهر العمران - ما يتعلق ببناء الحصون، والقلاع في مناطق الثغور^(٧)، وتعمير المناطق المفتوحة بعد سقوطها في أيدي المسلمين^(٨). واهتم الخليفة المستنصر بتنظيم عمارة السوق، وتوسيع طريقها؛ تيسيراً على الناس الصادقين والواردين^(٩)، كما لمس الحكم بنفسه - وهو في طريقه إلى دار الطراز - وقد مرّ على مقبرة باب اليهود المعروفة بـ(أم سلمة)، فرأى ضيقها؛ لتكاثر الدفن بها، فاشتري دوراً كثيرة من أصحابها، وأمر بدمها، وتوسعة المقبرة^(١٠).

ساعد الاستقرار السياسي والأمن الداخلي في عهد خلفاء بني أمية على ازدهار مظاهر

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٧.

(٢) تم بناؤه ٣٢٩هـ (أزهار الرياض ٢/٢٦٦). وتعريف الزهراء في (صورة الأرض ١٠٧، ومعجم البلدان ١٨١/٣).

(٣) المغرب (قسم الأندلس) ١٨١/١، والبيان ٢٣١/٢، ومعجمها، وأزهار الرياض ٢/٢٦٧، ٢٧١، والفتح ١/٥٢٣-٥٢٤، ٥٦٨-٥٦٣.

(٤) أزهار الرياض ١١١/٥، ونحت عباد عن (جغرافية الأندلس) في مجلة (نظّرات) بالمغرب (العددان: ٣، ٤)، ١٩٥٨/١٩٥٩، ص ٤١.

(٥) تراجع أهميتها في: (تاريخ الجغرافية، والجغرافيين بالأندلس) للدكتور مؤنس ص ٣٨٢، وتاريخ مدينة لربة، للدكتور محمد أبو الفضل ص ٤٤-٤٥، ٥٦.

(٦) صورة الأرض ١١٢، والبيان ٢/٢١٣-٢١٤.

(٧) المقتبس ٤٥٦-٤٥٧ (سنة ٣٢٨هـ).

(٨) مثل: متانة البهاء في قلعة بنشتر ٣١٧هـ. (البيان ٢/٢٠١).

(٩) المقتبس (ط. الخي) ص ٦٧-٦٨، ٧٠-٧١.

(١٠) المقتبس (ط. احجى) ص ٩٢.

النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة^(١). ومن هنا، فقد ازدهرت الزراعة بالأندلس، وكثر الإنتاج خاصة عند هطول الأمطار بغزارة كافية^(٢). كما اهتم المستنصر بتنظيم عمليات السرى، فأقسام السدود والقناتر لتنظيم الاستفادة من مياه الأنهار^(٣)، واستخدمت آلات الري المختلفة^(٤)، وأثمر هذا كله زراعة جيدة لمختلف المحاصيل والفواكه التي تشتهر بها كثير من مدن الأندلس^(٥). وفي بعض السنوات كان القحط يعم البلاد^(٦)؛ نتيجة منع القطر من السماء، فترفع الأسعار مع قلة المحاصيل وندرتها، وهلاكها أحياناً؛ مما كان يدفع الخلفاء إلى سد حاجات الناس، والإكثار من توزيع الأطعمة والصدقات على الناس^(٧)، لدرجة كانت تمنع الناصر من الخروج بنفسه في غزواته المعتادة^(٨)؛ مشاركة للناس، وإشرافاً على توزيع الغذاء، وضبط أمور البلاد.

وبخصوص الصناعة، فقد عمرت أرض الأندلس بالكثير من المعادن كالنحاس والذهب والفضة، والرخام الأبيض، فقام على ذلك العديد من الصناعات المعدنية والحربية^(٩). وبرع الأندلسيون في صناعة السفن، وقاموا بإنشاء الأساطيل البحرية اللازمة للدفاع عن ثغور الأندلس^(١٠). وطبعاً أن تروج التجارة بين مدن الأندلس، وأن تساعد ثغورها في تيسير حركة التبادل التجاري مع المغرب^(١١)، ومصر^(١٢)، وممالك الشمال النصراني^(١٣).

- (١) ابن حزم وجهود في البحث التاريخي والحضاري، للذكور عبد الحليم عويس ٢٨-٢٩.
- (٢) كما في سنة ٣٦١هـ (المقتبس، ط. الخي) ص ٦٦، والنقود الإسلامية (الكتاب الثاني)، للذكور طاهر راغب ٩٣.
- (٣) أشرف المستنصر على هذا نفسه، واستعمل إنعازه قبل حلول الشتاء (السابق: ٥٨).
- (٤) مثل: آلة تعرف بـ (السانية)، وهي كلمة أندلسية تقابل (الساقية). (الإحاطة ٥/٢ بالخامش).
- (٥) النصح ١/٢٠٠.
- (٦) مثل: قحط سنة ٣٠٣هـ، ويُسبب مجاعة ٢٦٠هـ (المقتبس ٥/١٠٩-١١٠). وفي سنة ٣١٧هـ ظهر القحط أيضاً (البياض ٢/١٩٩)، ومجاعة ٣٥٣هـ (السابق ٢/٢٣٦).
- (٧) السابق: ٢/٢٣٦.
- (٨) كما في قحط ٣١٤هـ (السابق ٢/١٩٢).
- (٩) النصح ١/٢٠٠-٢٠٢.
- (١٠) (المقتبس ٥/٣٢٣-٣٢٤هـ) و(ط. الخي) ص ٢٣-٢٥، وتاريخ مدينة المربة، للذكور أن الفضل ٧٢-٧٤.
- (١١) كاستيراد سائلك الفضة الخالصة والدياح، وغيرها من فبس المتاع بأوسط الأسعار، واستعداد بتلك الصفقات تعار الأندلس (استودوها من ثمار جزيرة سرديانية بالبحر الأطلنطي (المقتبس ٥/٤٧٨، ٤٨٥، أحداث سنة ٣٣٠هـ).
- (١٢) حيث وجدت مسوحات مصرية بأسواق الأندلس. وقد تمجد الأندلس تصديرها إلى أقاصي خراسان وغيرها. (صورة الأرض ١٠٥). وذكرت د. سمعان ماهر في (السيح الإسلامي) ص ١٢٣-١٢٤: أن نسيج الأندلس يشبه جداً نسيج مصر، وقالت: توجد قطعة نسيج تعود إلى عصر المؤيد؛ مما يدل على وجود مصانع طرار بالأندلس، استفادت من مصر للعمل بها.
- (١٣) حول العلاقات الاقتصادية مع تلك الممالك تراجم التفاصيل في كتاب: (العلاقات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية) ص ٤٦٦ ٤٧٦ (وذكر أن التبادل التجاري كان يتم على الحدود، وفي مناطق الثغور في المربة، وطرطوشة، وغيرها).

وعلى الجملة، فقد حظيت الأندلس ونعمت - نتيجة الازدهار الاقتصادي - بوفرة في الدخل، وارتفاع في إيرادات الدولة، فبلغ الخراج في قرى وكور الأندلس خمسة ملايين، و ٤٨٠ ألف دينار^(١)، وكان الناصر يقسم تلك الجباية أثلاثاً: للجنود، وللبناء والتعمير، وللدخار^(٢). وكانت الدولة لا تنهون في جباية الخراج من مختلف أقاليمها^(٣)، فهو ضروري لبسط سيادتها، ووسيلة للوفاء بالتزاماتها، وقد تُفرض ضريبة خاصة عند غزو الجيوش سنوياً^(٤)، لكن ذلك لا يعني أنها تنعت في جمع الخراج، أو تكلف الناس مالا يطيقونه، بل كان الخليفة يُنَفِّع عماله إذا اشتطوا في استخراج الأموال من الرعية^(٥)، وفي بعض المناسبات السارة كانوا يسقطون قدرًا من الضرائب عن كاهل الناس^(٦)، أو يسقطون ضريبة مستقلة لدى الناس؛ لتحقيق هدف سياسي^(٧). وقد شهد الرحالة ابن حوقل^(٨)، الذي زار الأندلس في القرن الرابع الهجري بمدى ما تَنَمَّع به هذه البلاد وأهلها من الغنى والثراء، وما تمتلئ به أسواقهم من صنوف الأطعمة والفواكه وأسعار رخيصة. ومن ثم، نتوقع لعملة بلاد الأندلس الثبات والقوة الاقتصادية الحقيقية في ظل ذلك الرخاء الحقيقي على مستوى العامة والخاصة^(٩)، وفي ظل إشراف الخلفاء على دور الضرب، وحرصهم على نقاء العملة وخلوص وزنها^(١٠)، ومعاقبة أي تلاعب في هذا الشأن^(١١). وامتد النفوذ الاقتصادي وراء السيطرة السياسية والعسكرية للأندلس

(١) أزهار الرياض ٢/٢٧١. ونقل ابن حوقل في (صورة الأرض) ص ١٠٧: أنه سمع غير واحد من ثقات محصلي الخراج بالأندلس في عهد الناصر أن قيمة ما جمعه إلى سنة ٣٤٠هـ، كانت ٢٠ مليون دينار إلا قليلاً، بخلاف ما في حزائه من حلى ومتاع ونحوه.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٣١-٣٣٢، وأزهار الرياض ٢/٢٧١. وفي (تاريخ الأندلس) لابن الكردبوس ص ٥٩: جعل بدل ثلث البناء (توزيع العطاء على الشعراء، والوافدين). وأرى أن رواية ابن عذاري أرجح. فالخليفة يرسل الجيوش لإحبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥/٤٨٦).

(٣) فالخليفة يرسل الجيوش لإحبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥/٤٨٦).
(٤) وهي ضريبة الحشد التي تُفرض على أصحاب الضياع في الريف، وتُعطى خييل الخليفة و غزواته (الحلة السيرة ٢/١٠٠، بالمعاش).

(٥) البيان ٢/٢٣٩ (أحداث ٣٥٦هـ).
(٦) مثل: إسقاط سدس المغارم عن الرعية؛ فرحاً بشفاء المستنصر، (المقتبس، ط. الحجي، أحداث ٣٦٤هـ) ص ٢٠٧-٢٠٨، والبيان ٢/٢٤٩.

(٧) مثل: إسقاط ضريبة الرتبون المأخوذة على الزيت المستخرج منه بقرطبة، وكانت مستكربة للباس. وقد سُرَّ الناس بإسقاط هشام المؤيد لها في صفر ٣٦٦هـ. ثم أُشيع أن الذي أشار على الخليفة بذلك أني ابن عامر، فأجبه الناس (المصدر السابق ٢/٢٥٩).

(٨) صورة الأرض ١٠٩، وبعدها.
(٩) عن الخاصة ولزومهم الفاحش معروف، ومثاله: افدبة التي فعلها ابن شهيد الناصر (أزهار الرياض ٢/٢٦٢-٢٦٣).
(١٠) البيان ٢/١٩٨ (٣١٦هـ)، والنقود الإسلامية (الكتاب الثاني)، للدكتور طاهر رانغ ص ١٢٧.
(١١) غزل الناصر صاحب السكة، عندما عث في ورن الدينار سنة ٣٣٠هـ (المقتبس ٥/٤٨٦-٤٨٧).

في بلاد المغرب، فضُرِبَت السِّكَّة باسم الخليفة المستنصر هناك^(١).

خلاصة مقارنة:

١ - شهدت كل من: مصر، والأندلس نهضة اقتصادية واضحة في المجال الزراعي والصناعي والتجاري. وقد انعكس ذلك على ازدياد قيمة إيرادات الدولة، لكن الفارق بينهما أن هذه النهضة كانت حقيقية منعكسة على حياة الشعب الأندلسي، بينما لم نشهد لها انعكاساً واضحاً على حياة الناس في عصر بني عُبيد في مصر. فالأسعار رخيصة في أسواق الأندلس، ومظاهر الغنى والازدهار بارزة للعيان في الأسواق، وفي حياة الناس. أما ما يحدث من أزمات اقتصادية ومجاعات، فهو يعود في الأندلس إلى القحط، ورجالون علاجه بتوزيع الغذاء والصدقات على الناس، مما يدخره الخليفة للنكبات والنواب. أما في مصر، فالغلاء وارتفاع الأسعار متكرر لا لانخفاض مياه النيل فحسب، وإنما لسوء تدبير الحكام^(٢)، ووجود اغترافات في القوائم على شئون الغذاء. صحيح أن العقاب ينزل على المنحرفين^(٣) والمحتملين^(٤)، لكن تكراره يعنى وجود خلل إداري اقتصادي. ثم إن موائد الأطعمة التي تُحفل بها الأعياد والاحتفالات الكثيرة، التي يقيمها العبيدون وإقبال الناس عليها بنهم شديد، هو دليل على تفشي الفقر والحاجة بين صفوف عامة الشعب.

٢ - مقدار ما خلف كل فريق من آثار تشهد له بالتقدم والازدهار الاقتصادي، يتضح بصورة كبيرة في مجال العمران وتتفوق فيه الأندلس على مصر. وللأسف فحكام الأندلس مدانون لهذا السرف الشديد، الذي كان ينبغي أن يُفَقَّ في أمور تعود بالنفع والفائدة على جموع الناس. وكذلك ما أنفق حكام الأندلس من أموال باهظة في سبيل السيطرة على بلاد المغرب، واصطناع الرجال والمؤيدين هناك كان من قبيل الإنفاق المبالغ فيه، والموضوع في غير محله. وقد أدرك المستنصر ذلك، وندم عليه^(٥).

٣ - يمكن الحكم -بصفة عامة -من الناحية الاقتصادية -على عصر الخلافة في الأندلس بأنه كان عصر ازدهار ورخاء (فيما عدا بعض سنوات القحط والمجاعات)، وأن عهد المستنصر ثم

(١) السابق (ط. الخفي) ص ١٨٢ (٣٦٣هـ).

(٢) إغانة الأمة، لمقريري ص ٨٤، ٨٧.

(٣) ارتفعت الأسعار، مع العزيز بيع القمح لغير الطحّانين (اتعاظ الخفا - ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٩٠-٢٩١. وفي سنة ٣٩٨هـ عاقب الحاكم الخازين، لعدم وجود الخبز مساء (السابق ٧١/٢).

(٤) كمعاقبة الحاكم صاحب ديوان الفئات في دولته بضرب عنقه (سنة ٣٩٤هـ) لسرفته ٢٠٠ ألف دينار ذهب (اتعاظ الخفا ٤٨/٢).

(٥) وذلك أواخر أيامه (البيان المغرب ٢٥٢/٢).

المنصور فالمنظفر^(١) كانت عهود رخاء واستقرار، أعقبها ضياع وانحيار. أما مصر، فإن عهد الإخشيد كان على درجة كبيرة من الازدهار، وبعده حلت بالبلاد النكبات. وفي عصر العبيديين يعد عهد العزيز^(٢) في ذلك القرن أفضل العصور، فقد استقرت فيه أمور الاقتصاد، وظهرت فيه علامات الازدهار والرخاء، ثم اهتزت الأوضاع في عهد الحاكم؛ لطبيعة حكمه، وتناقض تصرفاته وقراراته !

(١) بعد عصره عصر رخاء وحصب ؛ لأنه حتى لمرات كفاح سانقيه (الناصر، والمستنصر، وأبيه المنصور). (المعجب ص ٤٠، ومقدمة : د.عمود مكي لديوان ابن قزّاج ص ٢٧).

(٢) تذكر المصادر أن أيام العزيز كلها أعراس وأعياد، ويُصرب بها المثل في ذلك. (الحوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة) لان سعيد ص ٤٨، واتعاط الحنفا، للمقريزي (ط. الثانية - ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٩٧.

ثالثاً - الأوضاع الاجتماعية العامة في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري

١ - مجمل أوضاع مصر الاجتماعية:

عانت مصر في فترة ما قبل العصر الإخشيدى في ذلك القرن من الاضطرابات السياسية المفضية إلى المتاعب الاقتصادية. وقد انعكس ذلك على المجتمع المصرى، الذى لا بد أن عامته تكبدت ويلات الفقر، والقلق النفسى وسط أجواء تمور بصراعات الجند الداخلية واعتداءاتهم على أموال الناس وممتلكاتهم، إلى جانب مقاساتهم تحول بلادهم إلى هدف لهجمات العبيدين، ومرتع يعيث فيه جند الخلافة، الذين تتواتر إمداداتهم لمواجهة الخطر العبيدى بما له من تأثير بالغ في حياة الناس ومعيشتهم.

وطبيعى في مثل هذه الأجواء الفاسدة أن تظهر عوامل الانحلال الخلقي واللهو والجون، الذى تصدى لشيء منه الوالى تكين^(١) في محاولة منه - فيما يبدو - لإعداد شعب مصر لمواجهة خطر العبيدين. وقد أثمرت جهود هذا الوالى المخلص، فنجح في جمع المصريين على قلب رجل واحد بصورة لا مثيل لها من قبل، وألحق بالعبيدين هزيمة كبيرة سنة ٣٠٢هـ؛ بفضل توحيد كلمة الناس ومشاعرهم وتضحياتهم، وحسن بصيرتهم عند الخطر، رغم ضعف خبرتهم القتالية، واستشهاد عشرة آلاف منهم^(٢). وظل الروح الجهادى نامياً ومتصاعداً في صفوف شعب مصر، وظهر دورهم الإيجابي، عندما وجدوا القيادة الواعية الأمينة ممثلة في الوالى تكين، فشاركوا في صد الغزوة العبيدية الثانية، وشاركوا الجند في قتل الأسرى المغاربة من الجيش العبيدى، وذلك في شوال سنة ٣٠٧هـ^(٣) وعندما قام مؤنس بعزل الوالى تكين، غضب شعب مصر وثار، وأرسل نوابه يطالبون مؤنساً برده واليهم الكفاء إلى منصبه، فاضطر إلى الموافقة صاغراً، ريثما يدبر أموره لإحماذ أية ثورة شعبية، ثم قام بعزله بعد أيام قلائل^(٤). ويبدو أن الناس لم تستطع

(١) يذكر الكدى أنه أمر بجمع المؤنكين (المتشبهين من الرجال بالإناث)، وأمرهم بإظهار المعازف والمزامير والطبول، وشهرهم في لباسهم، وطيف بهم الفسقاط، وذلك يوم الثلاثاء السابع من ذى القعدة سنة ٣٠٠هـ. (الولادة - ٢٦٩).

(٢) المصدر السابق: ص ٢٧٠.

(٣) الولادة: ص ٢٧٦. ويلاحظ أن الوالى أمر بتمييز الأسارى، فأطلق أهل القيروان، وطرابلس، وبرقة، وصقلية. وأذن للناس بقتل الأسرى من كُتامة وزُويّة (البربر المغاربة). ولا شك أنها حكمة من ذلك الوالى، الذى أدرك أن أشد عناصر الجيش العبيدى هم الكتاميون. وهم عموده الفقرى الذى قامت دولتهم على أساسه. أما الآخرون، فقد يكونون مجرمين على القتال في صفوف العبيدين.

(٤) وذلك سنة ٣٠٩هـ (النجوم ٢٢٥/٣).

المقاومة، فظلوا يترقبون الأحوال، حتى أُعيدَ تكوين إلى منصبه ثانية، فخلّص الناس من الجند المشاغبين، فأحس شعب مصر، الذي لا يعرف النكران، بالأثر الطيب لهذا العمل، فتوجه الناس يشكرون الوالي، ويحمّلون له حسن صنيعه^(١) وهكذا، استخلصنا سمة مهمة لهذا الشعب في تلك الفترة، وهى أنه يتوحد في ساعات الخطر^(٢)، ويتوق إلى القيادة الماهرة الحكيمة، التى تحسن توجيهه، وعند ذلك يعطيها إخلاصه وتفانيه بلا حدود، ويطالب ببقائها، ويحرص على إظهار الامتنان لها، ويتأسف لفواتها^(٣).

لا نلمس تطوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في مصر في العصر الإخشيدى؛ لأن التغيرات الاجتماعية تحتاج إلى زمن طويل، ولا تتم بين يوم وليلة. وعلى كل، فالمادة المتوفرة لدينا عنها أكبر حجماً مما عليه الحال في الفترة السابقة؛ نظراً لما حظيت به مصر في ظل استقلال الإخشيديين شبه التام من اهتمام، وما تمتعت به مصر من استقرار سياسى واقتصادى. وقد كان المجتمع المصرى مجتمعاً متآلفاً متناسقاً في ذلك العصر، ويعد العلويون فيه على رأس عناصره^(٤) المكونة لنسيجه، المتمتع بميزة اجتماعية واقتصادية طيبة.

وقد كان الإخشيد على صلة وثيقة بزعمى الأشراف في عهده: عبد الله بن طباطبا الحُسَيْنِي، والحسن بن طاهر الحُسَيْنِي، على ما بينهما من تنافس على الرئاسة^(٥). وكان الحسن بن طاهر وسيطاً في الصلح بين الإخشيد وابن رائق، وكان أبو إبراهيم الرُّسَيْي العلوى موضع احترام وتقدير الإخشيد؛ إذ قبل شفاعته في الكاتب البغدادى المستر (سهل بن محمد)^(٦). ولم تتغير مكانة العلويين بعد وفاة الإخشيد، فقد لقوا معاملة طيبة، وتُحَلَّ واحتراماً في عهد كافور، الذى تفقّد نساء الأشراف، وخَصَّهن بالإحسان والعطاء والرعاية^(٧). وبالإضافة لما تقدم، فقد كانت لهم نقابة تعرف بـ (نقابة الطالبيين)^(٨).

(١) الولاة ص ٢٨٠ (سنة ٣١١هـ).

(٢) ومن هنا فلا حجة لما يذكره الذهبي من فزع العوام من جيوش العبيدين، وإظهارهم القلق الشديد وكثرة البكاء، والتأهب للهرب، لما ملكت جيوش القائم الجزيرة من الفسطاط، وذلك سنة ٣٠٨هـ. (تاريخ الإسلام ٣١/٢٣).

(٣) كان ذلك - أيضاً - موقف الناس لما استعفى القاضي العادل الحازم ابن خربوية من منصب القضاء، فأعفى سنة ٣١١هـ. (السابق ٣٥٠/٢٣).

(٤) تناولت د. سيدة كاشف عناصر المجتمع المصرى وطبقاته في: (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٢٣٣-٢٤٤.

(٥) المغرب (قسم مصر): ص ١٦٦.

(٦) السابق: ص ١٨٨.

(٧) المغرب (قسم مصر): ص ٢٠٠-٢٠١.

(٨) وهى التى عرفت - بعد ذلك - بـ (نقابة الأشراف)، ويتولاها شيخ هذه الطائفة وأجلها قدراً، وله النظر في أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا ارتاب بأحد طالبه بإثبات نسبه. ويقوم بعيادة مرضاهم، والسير في حناجرهم، والسعى في حوائجهم، والأخذ على يد المعتدى منهم، ولا يقطع أمراً يتعلق بهم إلا بموافقة مشائخهم. (صبح الأعشى ٤٨٢/٣). وكان أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا العلوى نقيب الطالبيين (ت ٣٤٥هـ). (وفيات الأعيان ١٢٩/١-١٣١، وتاريخ الإسلام ٣١٢/٢٥).

ووجد في المجتمع المصري - آنذاك - طائفة من كبار الموظفين والملوك والتجار، وهؤلاء هم الأثرياء من القوم، وكانت بأيديهم إدارة شئون البلاد، وعلى رأسهم أسرة المادرائين المشهورة^(١).

وأخيراً، هناك عامة الناس وأهل الذمة، والأولون منهم من المسلمين هم غالبية السكان، وهم المقياس الحقيقي لحال المجتمع وسماته في تلك الفترة. وأعتقد أنهم كانوا أحسن حالاً في ظل دولة شبه مستقلة، يسعى مؤسسها ومن بعده غلامه كافور لتثبيت أركانها ودعائمها، ولا يكون ذلك إلا بالاهتمام بهذا العنصر السكاني المهم، الذي على أكتاف أفرادته تنهض تلك الدولة. وقد تعرض عوام الناس ليلاء كبير وفناء عظيم في المجاعة الحادثة في عهد كافور؛ بدليل أن الأغنياء لم يجدوا من يقل الزكاة (ربما لأن الفقراء يريدون الطعام لا المال)، فأتوا إلى كافور، فقال: ابنوا بها المساجد، واتخذوا لها الأوقاف^(٢). أما أهل الذمة، فلم نسمع عن وقوع اضطهادات لهم من قبل الدولة، وكان الإخشيد يتدخل باستخدام القوة، عندما تلجأ إليه بعض الطوائف النصرانية ضد الأخرى، ويقوم بإلغاء الخلاف بينهم^(٣). وقد وردت بعض النصوص تفيد وقوع مصادمات واعتداءات من عامة المصريين على بعض كنائس النصارى في مصر كرد فعل غاضب غير مسئول؛ نتيجة اعتداءات البيزنطيين على المسلمين في أطراف الشام^(٤)، وعندما ينتج العوام على السماح لنصارى مصر بتعمير الكنائس^(٥).

يمكننا أن نشير - في عجالة - إلى أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية، وأهم خصائص المجتمع في العصر الإخشيدى على النحو الآتي:

١- في ظل حالة الاستقرار السياسى، والنمو الاقتصادى أحب الناس للإخشيد، وسُرُّوا برجوعه سالماً من حربه في الشام أمام ابن رائق، وزينوا له الطرق والأسواق، فأقرَّ الزينة على حالها (يوم رجوعه الخميس سنة ٣٢٨هـ)، ثم ركب من الغد إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، فكان يوماً عظيماً مشهوداً^(٦).

٢- كثرة المواكب والاحتفالات^(٧): مثل موكب الأسبوعى إلى مسجد ابن طولون لأداء

(١) ستعرض لهذه الأسرة بالتفصيل عند دراسة بقايا كتاب المؤرخ ابن زولاقي عنها، إن شاء الله.

(٢) صبح الأعشى ٣/٣٤٢.

(٣) عرض تفاصيل هذا الخلاف يحيى بن سعيد الأنطاكي في ذيله على (تاريخ ابن البطريق - أحداث ٣٢٨هـ)

ص ٢٣-٢٧، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٢٤١-٢٤٢.

(٤) تفاصيله في (تاريخ ابن البطريق - أحداث ٣٤٩هـ): ص ٩٢-٩٣.

(٥) المغرب (قسم مصر) ١٨٣-١٨٤.

(٦) المغرب (قسم مصر) ص ١٧٥.

(٧) مثل: عيدى الثوروز، والمهرجان الفارسيين، اللذين كانت تُمنح للإخشيد فيهما الهدايا (خاصة العنبر). -

صلاة الجمعة^(١)، وحضوره ختم القرآن في شهر رمضان^(٢)، واستعراضه الجند ليلة عيد الفطر مقتدياً في ذلك بابن طولون^(٣).

٣- شيوخ الترف في حياة القوم في حفلات السمر^(٤)، ومآدب الطعام والشراب^(٥).

٤- ظهور بعض ألوان الانحراف في المجتمع؛ مما دفع الإخشيد لمحاربة ذلك، ومحاولة القضاء عليه^(٦).

٥- وأخيراً، نما وعى الشعب المصرى في تلك الفترة، فازدادت إيجابيته ومتابعته للأحداث، وانفعاله بها وتفاعله معها. ولعل اتباع الإخشيد سياسة اللين والمداورة، مع ما تحقق من ازدهار مع حسب الناس للتطلع^(٧)، شجع الناس على ألا تكون على هامش الأحداث، بل كانت في قلبها، وتدخل في مجرياتها^(٨)، ويُعمل لها حساب في هذا الصدد^(٩).

- (السابق ١٨٦). وكذلك الاحتفال بليلة عيد الفطاس النصراني (ليلة ١١ طوبة - ٦ كانون الثاني/يناير). وقد شهد المسعودى بنفسه مظاهر الاحتفال بذلك العيد، عندما كان بمصر سنة ٣٣٠هـ. وشارك فيه الإخشيد بنفسه، ومعه مئات الآلاف من المسلمين والنصارى في الزوارق النيلية، وعلى الشواطئ، حيث يشعلون المصابيح طوال الليل، ويسرفون في الأكل والشرب، والملبس والملاهي، وبغض أكثرهم بالنيل؛ زاعمين أنه أمان من المرض، وشفاء من الداء. (مروج الذهب مجلد ١ ص ٢٩٨-٢٩٩، والمخطوط ٢٦٥/١).

(١) المغرب (قسم مصر) ص ١٥٩، ١٨٥.

(٢) السابق ١٦٠، ١٨٥.

(٣) المغرب (قسم مصر) ١٦٣.

(٤) بعض ملامح مجالس السمر في (المصدر السابق ص ١٦٣، ١٨٤).

(٥) السابق: ١٥٤، ١٨١، والمخطوط ٣٣٢/١.

(٦) فقد أمر بدمد المواعير (جمع ماحور)، وهي بيوت تجمع الفسقة والفاستدين، وأهل الريبة، وهدم دور المقامرین وعاقب أهلها. (المغرب - قسم مصر - ص ١٨٠، ١٨١، و (المسعودى) للخبزوطلى ص ١٦). ولا يصح ما ورد في (اتعاط الخفا - ط. دار الفكر ١٤٣، والمخطوط ٣٥٣/١) من أن ابنة الإخشيد ذهبت إلى سوق الرقيق؛ لتشتري جارية، تستمتع بها. ذلك في - غالب الظن - من قبل الدعاية الكاذبة، التي روج لها المعز؛ ليعين استثناء الفساد في مصر، فيُهَوَّن على حبشه وجنده أمر غزوها، والاستيلاء عليها.

(٧) ينصف شعب مصر - حتى الآن - بحب التطلع، والوقوف لمشاهدة ما يصادفه من أشياء، والتكالب والتزاحم عنها في الشوارع والطرقات، ولو عَرَّضه ذلك للأخطار. (راجع ذيل تاريخ ابن البطريق - أحداث ٣٤٩هـ، ص ٩٣، بخصوص تجمع الناس زمن كافور عند إزال مركب جديد في الأسطول إلى البحر، وتزاحمهم، حتى قتل منهم غرقاً زهاء ٥٠٠ رجل).

(٨) تابع الناس أخبار حرب الإخشيد وابن رائق بالشام (شعبان ٣٢٨هـ)، وكان لهم رد فعل عنيف لما سمعوا بالهزيمة أولاً، ووقعت اضطرابات واحتجاجات حتى ركب أبو المظفر ابن طغج، ومحمد بن على المادرائي؛ لتسكين غضب الناس. ثم وردت الأخبار بنحول الهزيمة إلى نصر، ودخول الأسرى، ورموس القنلى، فزُيِّت الأسواق. (المغرب - قسم مصر - ص ١٧٨).

(٩) راجع تفاصيل موقف الرعية الناصر الغاضب، مما بلغهم عن أحد الفقهاء بشأن السماح بترميم ما تهدم من كنيسة أبي شودة سنة ٣٢٦هـ، وما قاموا به من محاولات لتفك هذا الفقيه، ومحاصرتهم الطسرق، وإغلاقهم =

في عصر بني عبيد في مصر لم يطرأ كبير تغيير على تركيبة الشعب المصري^(١)، اللهم إلا ما استحدث من عنصر المغاربة (من قبيلة كتامة)، الذين كانوا يمثلون العنصر الأساسي في جيوش العبيديين، وساعدوهم على إقامة دولتهم بالمغرب أولاً، وكانوا يتمتعون هم وكبرائهم (كالحسن بن عمّار أمين الدولة مثلاً) بمكانة ممتازة^(٢)، أهدرت بعد ذلك على يد الحاكم، الذي أراق دماء سائر الناس على مختلف طبقاتهم حتى شيوخ كتامة وأصاغرهم^(٣).

وبالنسبة لعامة أهل مصر، فقد تعددت صداماتهم مع الحكام الجدد^(٤)، ومع الجند المغاربة^(٥). ورغم ما قيل عن كثرة الأعياد والمواسم^(٦)، التي يُتاح فيها الأكل والشرب بيزخ شديد، إلا أن هناك من لا يجد ما يسد رمقه، ومن لا يتوفر له القوت الضروري للحياة^(٧).

-
- الدروب، وقدفهم الجند الإخشيدي بالحجارة. ولم تدا آثارهم حتى علموا بإبقاء الكنيسة على ما هي عليه (المصدر السابق ص ١٨٣-١٨٤). وهذا الموقف وغيره مما كان الإخشيد يعمل له ألف حساب، ينفي صحة ما تذكره د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧٦-٣٧٧، من أن الشعب المصري في العصر الإخشيدي كان هادئاً خاضعاً، يلب على أفراد طابع الانصراف إلى شغلهم الخاصة، والعيش على هامش الحياة السياسية، وأنه لم يكن هناك رأى عام، تحسب الحكومة حسابه.
- (١) تفاصيل طبقات المجتمع المصري في العصر الفاطمي تراجع في: (تاريخ الدولة الفاطمية) د. حسن إبراهيم حسن ص ٦٢١-٦٢٤.
- (٢) المجالس والمساربات ص ٢١٩-٢٢٠، ٢٢٢ وما بعدها، والخطط ١١/٢-١٢.
- (٣) ذيل تاريخ ابن البطريق: ص ٢٥٧.
- (٤) راجع نماذج ذلك في: (اتعاظ الحفا، ط. دار الفكر) ص ١٨٠-١٨١.
- (٥) المصدر السابق: ص ١٨٣، وط. المجلس الأعلى (٢٢٣/١).
- (٦) هناك أعياد إسلامية معروفة، عملوا لها طقوساً جديدة مرتبطة بالطعام والشراب (في عيدي: الفطر، والنحر). (السابق، ط. المجلس) ٢٢٣/١، ٢٦٧، والخطط ٣٨٧/١، ٤٣٦، والنجوم ٩٨/٤-١٠٢. واحتفلوا بشهور عربية لم يحتفل بها السلف، مثل: غرة رمضان (الخطط ٤٩١/١)، وليالي الجُمُع في رجب (اتعاظ الحفا- ط. المجلس - ٢٦٧/١). وهناك أعياد اخترعها العبيديون في مصر: مثل، عيد القدير (الكاظم ٧/٢٨٠)، والخطط ٣٨٩/١، وليالي الوقود (المصدر السابق ٤٦٥-٤٦٦، ٤٩١) والتعريف، بمصطلحات صبح الأعشى ٢٩٣، ويوم عاشوراء (اتعاظ الحفا ٦٧/٢، والنجوم ٢١٩/٤)، ويوم ميلاد ولدى الحاكم (اتعاظ الحفا ٥٥/٢، ٥٨). وتوجد أعبياد فارسية الأصل، انتقلت إلى النصارى، مثل: عيد النوروز (تاريخ يعقوب ٢٣٤/١، و صبح الأعشى: ٤١٨-٤٢٠، واتعاظ الحفا ١٨/٢، ٥٩، وتاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥٩-٦٦١. وعيد المهرجان (المروج: مجلد ١ ص ٤٩٩-٥٠٠، و صبح الأعشى ٤٢٠-٤٢٢، واتعاظ الحفا ٢٧٢/١). كما شارك العبيديون النصارى في أعيادهم الدينية الخاصة بهم، مثل: (ميلاد المسيح: الخطط ٤٩٤/١)، وخميس العهد (السابق ٢٦٦/١)، وعيد الصليب (صبح الأعشى ٤٢٨/٢، والخطط ٢٦٦-٢٦٧، واتعاظ الحفا، ط. المجلس ٢٧٦/١)، وعيد الشهيد (الخطط ٦٨-٦٩). راجع دراسة الأعياد في العصر العبيدي تفصيلاً للدكتور عبد المنعم سلطان في: (المجتمع المصري في العصر الفاطمي) ص ١٢٩ وما بعدها.
- (٧) راجع نماذج الفقر المذق في طبقة العامة من الناس في الذيل على كتاب الكندي ص ٦٠٧، والمغرب (قسم الأندلس) ١٦٦/١-١٦٧.

وبخصوص العلويين في ظل الحكم العبيدي، فقد ارتقت منزلتهم، وحُظُوا بالاحترام والتقدير، بل قُدِّموا في المرتلة خلال المواكب والمجالس التي يحضرها عظماء رجال الدولة، على مكانة الأمراء^(١). وخُصِّصَتْ لهم نقابتان: (الأشراف، والطاليون)^(٢)؛ لرعاية مصالحهم.

أما المرأة في العصر العبيدي، فكانت حرة طليقة دون قيود تُحدِّد من حركتها ونشاطها الطبيعي في المجتمع المصري، إلا أن إساءة استخدام هذه الحرية خاصة عهد الحاكم، وشيوع الفجور والاختلاط بالرجال، بعد أن حوِّل الحاكم الليل إلى نهار مضى، دفع الحاكم إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ضد المرأة^(٣)، قُدِّت حركتها إلى حد بعيد. أما نساء القصور^(٤)، فقد احتفظ لنا التاريخ ببعض أخبارهن، فهناك تغريد زوج المعز^(٥)، التي كانت تهتم بأعمال الخير والبر، ومن بعدها ست الملك التي كان لها دور في إدارة البلاد عند الوصاية على أخيها الحاكم، بالإضافة إلى ما قامت به عمة الحاكم من أعمال نافعة للناس آنذاك^(٦).

وإذا أردنا رصد السمات العامة لمجتمع مصر في ظل حكم العبيدين، خرجنا بما يلي:

- ١- لم تكن عناصر المجتمع متناسقة في ذلك العصر، فهناك أغلبية الشعب (سنية المذهب)، تنظر بعين الترقب والتوجس إلى الحكام الجدد. وهناك أقلية شيعية حاكمة، لها أهداف تريد تحقيقها، ولو على حساب هذه الأغلبية، وتساندها أقلية من أهل الذمة، تولت مناصب إدارية ومالية مهمة، ألحقت بالأهالي ظملاً اجتماعياً فادحاً. وقد اضطر الحكام العبيديون إلى عزلهم إلى حين هدوء نائرة جموع الشعب، وامتصاص غضبهم. وفي عهد الحاكم اضطهد أهل الذمة، وهدم كنائسهم، ضمن ما اتخذ من إجراءات قاسية عَمَّت المجتمع كله مسلمين ونصارى.
- ٢- عرف العبيديون طبيعة المصريين الهادئة الطيبة، التي لا تثور إلا إذا استثرت. ومن هنا

(١) اتعاظ الحنفا (ط. الفكر) ص ٢٠٠، والخطوط ٣٥٨/١، والمجتمع في العصر الفاطمي ص ٣٦.

(٢) راجع في التعريف بمهما: (صبح الأعشى ٤٨١/٣، ٤٩٦، والخطوط ٣٨٦/١)، وفي التعريف ببعض من ولي نقابة الأشراف (المقتنى ٣٧/١، ٣٨، ٤٦٥-٤٦٦). وقد فرق بينهما د. عبد النعم سلطان، فجعل الأشراف أقارب العبيدين، والطاليين نسية إلى أبي طالب (المجتمع المصري في العصر الفاطمي) ص ٣٦-٣٧.

(٣) راجع (اتعاظ الحنفا ٣٨/٢، ٥٣، ٧٦، والخطوط ١٠٨/٢، والمرأة في مصر في العصر الفاطمي ٨٤-٩١، والحاكم بأمر بالله، لعنان ١٧٢).

(٤) نقصد الحرائر منهن. أما الجوارى، فلا يتضح لهن تأثير في المجتمع، وإن كان لبعضهن سيطرة على قلوب حكام بني عبيد (مخطوط مسالك الأبحار، عن مصورة أحمد الثالث - ٢٦ معارف عامة) ص ١٣٨-١٣٩.

(٥) هي أم العزيز التي بنت جامع القرافة ٣٦٦هـ (الخطوط ٤٨٦/١، ٣١٨/٢، والمرأة في مصر في العصر الفاطمي ص ٦٠-٦١). وأقامت مدرسة منازل العز التي صارت مترواً (الخطوط ٣٦٤/٢).

(٦) هي ست الملك بنت المعز (وهي غير أخت الحاكم)، التي بنت أحواضاً وآباراً للسقيا بالقرافة (الخطوط ٤٦٠/٢).

كان حرص بني عبيد على نشر مبادئهم بحدوء وبالتدريج. فأدرك هؤلاء حب المصريين للجديد، وتطلعهم إليه بشغف، وميل عامتهم إلى الاحتفالات والموائد، فأكثروا من الاحتفالات، وحافظوا على القديم منها، وابتدعوا لهم الجديد، وزينوا لهم الإغراق في ذلك حتى آذاهم، رابطين ذلك كله بالبذخ في تقديم الأطعمة والأشربة ومظاهر اللهو المختلفة، مستغلين حالة البؤس والفقر التي يعانيها الناس، لعلهم بذلك يتقربون إلى قلوبهم، ويحظون بتأييدهم^(١).

٣- نتيجة ما يحدث في الأعياد والاحتفالات من انحرافات أخلاقية، وأعمال فاحشة، تخالف تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ضعف الوازع الديني في نفوس الناس، وتضعف السياج الأخلاقي الحامى لهم والضابط لسلوكهم. ولذلك شاع شرب الخمر، وارتكاب الفواحش والمنكرات، وانتشرت السرقات، وعاث المفسدون في الأرض^(٢) ففقد المجتمع في أحيان كثيرة أمنه واستقراره، رغم محاولات بعض العبيدين درء المفسد، والضرب بقوة على أيدي المفسدين، ومنع ما يحدث من تجاوزات في الأعياد والاحتفالات^(٣).

٤- ضعفت حساسة الإيجابية عند الشعب المصري، والتي رأينا بعض مظاهرها في العصر الإخشيدى، وحلت محلها مشاعر عاطفية مخلوطة^(٤)، وتصرفات مندفة^(٥)، وخوف وفرع ملأ القلوب^(٦)؛ نتيجة الحكم الجائر الباطش الداعي إلى السلبية والانكفاء على الذات^(٧)، الذى قاسى منه

(١) المعز لدين الله، د. حسن إبراهيم، وغيره ص ٢٨٧، وماجستير أحمد كامل ص ٢٧-٢٨، ودكتوراه زغروت ص ٢٧-٢٨، وماجستير (التخطيط الإعلامى) ص ١٢٧. ولا يصح قول من عدت الاحتفالات والأعياد اهتماماً من بني عبيد برفاهية الشعب المصري (المرأة في مصر في العصر الفاطمى ص ٣٣).

(٢) أجل المقرئى ما شاع في هذه الاحتفالات من منكرات وفواحش وانحرافات في عبارات بليغة حاملة في: (المخطوط) ٤٩٣/١-٤٩٤.

(٣) بذلت في ذلك محاولات أيام المعز والعزير، والحاكم في أعياد الصليب، والبروز، والنحر، سنوات: ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٩٩ هـ. (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس - ٢١٤/١، ٢٧١-٢٧٢، ٧٩/٢، والمخطوط ٢٦٧/١-٢٦٨).

(٤) من مظاهر ذلك: توسلات العامة، ووجوه الرعية، والتجار إلى العزيز، وحمل الناس السلاح، وطلبهم إليه ألا يخرج بنفسه لغزو الروم بالشام، وأرادوا الخروج هم للقتال، وهو يشكرهم، ويتظاهر بالجهاد قائلاً: "إنما أسر لصرة الإسلام، والذب عن بلدانه، وصيانة أهله". وما إن قدم رسول ملك الروم بخبره بالهدنة، حتى أحجب إلى الصلح. (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس ج ١ ص ٢٨٧-٢٨٨). وكذلك موقف الناس وابتهاجم في الشوارع، وعلى أبواب الدور ليلاً بالنصر على أبي ركنة (السائق ٦٣/٢).

(٥) مثل: هجوم الرعية على الروم التميمين بأحرار أسطول العزيز ٣٨٦ هـ، إذ قتلوا منهم مائة وسبعة أشخاص، وألقوا جثثهم في الطرقات، قيل أن ثبت التهمة ويعترفوا، (المخطوط ١٩٥/٢-١٩٦).

(٦) راجع تضرع العامة والخاصة إلى الحاكم، لما علموا نيته في البطش بالناس، يسألونه الشفاعة والعفو سنة ٣٩٥ هـ (اتعاظ الحنفا ٥٤/٢-٥٥).

(٧) كالسجل الذى أصدره الحاكم بترك الناس الخوض فيما لا يعن، وأن يشتغل كل بمعيته عن الخوض في أعمال الحاكم وأوامره. ومرسوم آخر بعدم الخوض في أحوال السلطان، وأوامره، وأسرار الملك (السائق ٦٩/٢، ٧٧، سنة ٣٩٩ هـ). ففرغ الناس، فصدر سجل بطمائهم لخوفهم من أوامر الحضرة (السائق ٧٧/٢).

الأهلون السويلا، فاستبدلوا بالقوة والعزة ضعفاً وخضوعاً وذلة. وبعد أن جنى هذا العصر على النفوس، أضعف العقول، وملأ بالخزغيات والأباطيل والعقائد الفاسدة^(١).

٢- مجمل أوضاع الأندلس الاجتماعية:

استطاع الخليفة الأموي الناصر توحيد الجبهة الداخلية بالأندلس على تعدد، وتنوع عناصرها^(٢) بحيث استفاد من الروابط التي تشد طبقات هذا المجتمع بعضها إلى بعض في أغلب الأحيان، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز كالبينة المشتركة، والثقافة المشتركة، والخلافة الواحدة، والسياسة الموحدة، والمهدف الواحد الذي يجتمع عليه الكل، وهو بناء حضارة أندلسية رائعة، يسهم الجميع في إقامة صروحها، بقص النظر عن أصله وجنسه^(٣).

يأتي على رأس عناصر المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة العنصر العربي، الذي ينتسب إليه الفاتحون، ودخل أفراد الأندلس ضمن الجيوش الإسلامية الفاتحة، واضطروا إلى التزاوج من الإشبانيات، فتكونت من هؤلاء وأولئك - عن طريق المصاهرة - سلالات جديدة، صارت أبرز عناصر المجتمع الأندلسي، وأهم مكوناته البشرية^(٤). وكانت للعرب مكانتهم في دولة بني أمية بالأندلس، وعانت شبه الجزيرة من صراعات القيسية واليمينية. ولما ولي الناصر استبدل بالعنصر العربي عنصراً جديداً هو (الصقالبة)^(٥)، الذي استكثر منه، فكان منهم الغلمان والخدم وقتيان القصور، بل اعتمد عليهم في بناء جيشه، فغدوا أهم عناصر الجيش. وبلغ إهمال العنصر العربي؛ نظراً لاستحكام العصبية القبلية في أفرادهم، بلغ أوجه في غزوة الخندق (٣٢٧هـ)، التي

(١) وهي المتصلة بتقديس الأمة، وقور الأولياء الصالحين، والقيام بالسجود لها، مع ما فيه من شرك، يعود إلى مبادئ الفاسدة، ودعائم المظلمين (سمر أعلام النبلاء ١٠/١٠٦، والداية والنهاية ١٠/٢٧٢-٢٧٣). وكذلك أسطورة اختفاء المعز، والزعم بأن الله رفعه إليه (سنة ٣٦٢هـ)، وأنه غاب في السماء. وأدى ذلك إلى ابتلاء قلوب الرعية منه رعباً. (تاريخ ابن أبي افيحاء ص ٥٢).

(٢) تراجع: العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي في: (الأدب الأندلسي، د. هيكل ٣٠-٣٢، ودولة الإسلام في الأندلس، لعنان ١٤) ٢ ص ٥١٤-٥١٦، وظهر الإسلام، لأحمد أمين ج ٣ ص ٢.

(٣) الأدب الأندلسي، د. هيكل ٣١.

(٤) المرجع السابق: ص ٣١-٣٢.

(٥) جمع صقئي، وهم الروس غالباً، وكانت بعض الشعوب الأوربية تبيعهم عبيداً للأندلسيين، وكانوا يُخصَّون، ويعملون في خدمة القصور، حيث بلغ عددهم في مدينة الزهراء لحين وفاة الناصر (٣٧٥٠ شخصاً). (راجع: صورة الأرض ١٠٦، وأعمال الأعلام ٤٠، والنفع ١/٥٦٧، وفي تاريخ المغرب والأندلس د. العبادي ص ٢١١-٢١٣، والعلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميللي (مترجم) ص ٣٤١، ٣٤٤، و (الحضارة) للدكتور مؤنس ص ٣٢ (هامش ١)، وبحث (اللغة العربية وسكان الأندلس في القرون الوسطى)، ببرس الفرنسي، المنشور في: مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق، مجلد ١٩ (١٩٤٤م) ص ٣٩٩-٤٠٠، وتاريخ النصارى في الأندلس، د. عبادة كحيلة ٣٥-٣٧.

أسند الناصر قيادة الجيش فيها إلى الصقالبة؛ مما أثار الجند العربي المشارك فيها، وتآمروا ضد الناصر، فكانت الهزيمة التي كاد الناصر يفقد حياته من جرّائها. وقد نجح المنصور في القضاء على نفوذ الصقالبة، الذي كان قد تنامي وتزايد في عهد الحكم المستنصر، واستحدث عنصراً جديداً، اعتمد عليه بدرجة كبيرة في تكوين جيوشه، هو عنصر (البربر)، الذي بدأ الاهتمام به في عهد المستنصر. وقد ترتب على الاستكثار من هذا العنصر تراجع مكانة العرب والصقالبة، وانفقاد الأندلسيين حاسة الجندية، فتضاءلت الروح الجهادية عندهم، وخذت جذوة الحماس للغزو، فاستكانوا واستاموا إلى ذلك العنصر الحربي المحترف، الذي حقق به المنصور انتصاراته المدوية على نصارى الشمال، ثم انقلب إلى خطر ماحق، وشر مستطير في الفتنة، واصطدم مع أهل قرطبة الكارهين له، فكانت الكارثة^(١).

ومن عناصر المجتمع الأندلسي أهل الذمة من اليهود والنصارى، وقد لقوا من المسلمين كل عدل وإنصاف، وترك لهم الأمويون حرية إدارة شئونهم الدينية والإدارية^(٢)، بل استعان الناصر بالناخبين من اليهود في بعض المهام الدبلوماسية^(٣). وهناك (المولّدون)^(٤)، وهم المسلمون من أصل إسباني، وبعبارة أخرى: هم (مسلمو الإسبان). وكانوا يحتلون مكانة بين الطبقات المتوسطة والميسورة، وبينهم الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثروة. وعلى كل، فقد كان هؤلاء يعدون أقل مكانة من المسلمين الأصليين^(٥).

وأخيراً، فإن للمرأة في المجتمع الأندلسي تأثيراً لا يستهان به، بعد أن أكثر المسلمون من الاقتران بالإسبانيات؛ مما أدى إلى تحول المجتمع - بعد عدة أجيال - إلى عناصر لاتينية، وبالتحديد إسبانية من جهة الأم^(٦). ولا شك أن كثرات منهن لم يكن مخلصات لأزواجهن، وربما عملت بعضهن جاسوسات لصالح نصارى الشمال. وقد وصل الأمر أن بلغ بعضهن

(١) بحث (المنصور بن أبي عامر: المسند المستنصر) د. محمود مكي، مجلة العربي بالكويت، ع ٢٢٤ (يولي ١٩٧٧م) ص ١٣٩.

(٢) تاريخ النصارى في الأندلس، د. كحيلة ص ٨٤، وبعدها.

(٣) هو حسداى بن إسحاق الإسرائيلي الكاتب (راجع مهامه في المقتبس ٤٥٤/٥، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٧٣، سنوات ٣٢٨-٣٣٣هـ).

(٤) وهؤلاء يختلفون عن (المستعربين)، أي: الإسبان الذين عايشوا المسلمين في المجتمع الأندلسي مع بقائهم على دينهم، واتخذوا العربية لغة، واتبعوا بعض تقاليد الإسلام، كاختنان، عادة وأسلوباً (كتاب المقتبس، ط. المحي ص ٢٠ هامش ١).

(٥) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١٤ ق ٢ ص ٥١٤-٥١٥، ود. كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس ٤٣-٤٤، وبحث (جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس) د. عمر بنميرة ص ٨-٩ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(٦) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميلي (مترجم) ٣٣٨-٣٣٩، ٣٤١.

مراكز حساسة في قصور الخلفاء، مثل: مرجان زوج الخليفة الناصر^(١)، ذات الدلال والتأثير الكبير في هذا الخليفة العظيم، وكان ابنها الحكم أثراً لديه دون سائر إخوته، وصار ولي العهد وخليفة من بعده. ونذكر من هؤلاء النساء (صُبْح) زوج الخليفة المستنصر، والدور الذي لعبته في حياة زوجها وبعد وفاته، وصلتها الوثيقة بابن أبي عامر حتى وصل إلى قمة السلطة في الأندلس، وصار حاجباً لابنها الخليفة الصغير هشام المؤيد^(٢)، ثم تدهورت العلاقات بينهما بعد اقتضاح نوايا المنصور في الاستبداد بالسلطة والحجر على الخليفة^(٣). وكان من أسباب قتل المظفر بن المنصور وزيره عيسى بن سعيد عداوته للحرم (نساء القصر)^(٤). وأخيراً، فقد لعبت أم المظفر دوراً ملموساً في الثورة على عبد الرحمن بن المنصور؛ لاثامها إياه بلس السم لابنها^(٥)، تلك الثورة التي انتهت بمقتل عبد الرحمن، وضباع الخلافة الأموية بالأندلس.

والآن، نركز - في اختصار شديد - أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في الأندلس في القرن الرابع الهجري:

١- اعتزاز الأندلسيين بأنفسهم وبلادهم وبأزيائهم وعاداتهم: فالجاري على ألسنة الناس دوماً هو أن يُسمُّوا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليمياً، مثل: إقليم (مصر)، وإقليم (إفريقية)، وهكذا. أما أهل الأندلس خاصة، فمن شدة اعتدادهم بأنفسهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة في بلادهم إقليمياً، فيقول الأندلسي: أنا من إقليم كذا، أى: من بلدة كذا^(٦). والفقراء منهم لا يعرفون السؤال، فهو أمر مستقيم عندهم إلى نهاية، فهم لا يعرفون ذلك الدل، ولا الكسل الذي يقعدهم عن الكد. وإذا رأوا شخصاً صحيحاً معافى يسأل الناس سيئوه وأهانوه، فلا يوجد بالأندلس سائل إلا أن يكون صاحب عذر حقيقى^(٧). وهم - في الغالب -

(١) يمكن معرفة مكانتها عند الناصر، ودلالها عليه، وكيف توصلت بأساليبها الناعمة المؤثرة إلى ذلك بمطالعة (المقتبس) ٧/٥ وما بعدها، والنفع ٣٦٠/١-٣٦١.

(٢) حول صبح (الخاتبة النافارية الأصل)، وشغلها بابن أبي عامر، ومساعدتها منذ عهد المستنصر له، حتى وصل إلى ما وصل إليه، راجع: (البيان ٢٣٩/٢، ٢٨٠، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ع ١٤ ق ٢ ص ٥٢٤-٥٢٥، ٥٣٦-٥٣٧، وظهر الإسلام ١٢٦/٣).

(٣) المغرب (قسم الأندلس ١٩٥/١، ودولة الإسلام في الأندلس ع ١٤ ق ٢ ص ٥٣٧). والظاهر أنها لم تستطع الوقوف أمام المنصور بعد أن سيطر الأخير على الأمور كلها، وسلب السلطة منها ومن ابنها، فاحتفت أخبارها حتى سنة ٣٨٩ هـ، فيذكر لنا ابن الفرضي في (تاريخ العلماء والرواة) ٢١٠/١ أنها توفيت في هذه السنة.

(٤) البيان ٢٩/٣.

(٥) انقصر السابق ٥٢/٣، ومعانم تاريخ المغرب والأندلس ٢٥٣ وبعدها (تأمرت الدلائل أم المظفر مع محمد بن هشام بن عبد الحبار؛ للظفر بعد الرحمن بن المنصور، وانتزاع الخلافة من هشام المؤيد).

(٦) معجم البلدان ٤٢/١.

(٧) النفع ٢٢٠/١، ٢٢٣.

لا يلبسون العمائم، وإذا رأوا أحداً من المشرق يلبسها، يظهرون التعجب والاستظراف، ولا يقلدونه؛ لأنهم لم يستحسنوا غير أوضاعهم^(١). وقد اعتادوا النظافة الشديدة فيما يلبسون ويفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، ويُقدّمونه على طعامهم^(٢).

٢- الترف والنعيم المفضى إلى الترهل: وقد شجعهم على ذلك كثرة خيرات بلادهم، وتوفر طعامهم وغذائهم وفاكهتهم في كافة الأقاليم مع تنوع في ذلك^(٣)، فاندفعوا يسرفون على أنفسهم في الطعام والشراب؛ مما أضعف عزائمهم، وقوّض بنيان دولتهم^(٤).

٣- تعدد مظاهر الاحتفالات^(٥)، والمواكب^(٦)، ومناسبات الجلوس والتهان^(٧)، ومجالس السمر والشراب، وما يترتب على ذلك من فساد ومجون^(٨)، وذلك على مستوى الحكام وعلية القوم.

٤- على الرغم مما يشيع في المجتمع الأندلسي من مظاهر التراحس^(٩)، والتمسك بأداء الشعائر^(١٠)، إلا أن هذه المعاني السامية لم تغفل في نفوس وقلوب عوام الناس (خاصة أهل قرطبة)^(١١)، فاستجابوا لأول ناعق، وخرّبوا بأيديهم حضارة بلادهم، ومظاهر رقي مجتمعاتهم، الذي كان يبدو بَرَاقاً من الخارج، لكنه خوّاء من الداخل.

(١) السابق: ٢٢٣. ولذا كان تعديل عبد الرحمن بن المنصور أرباء رجال الدولة ذا أثر كبير في انعطاف مكانتهم لدى العامة، فأنماؤا عليهم سخرية واستهزاء، وهُوّن ذلك عليهم الثورة بعد ذلك. (البيان ٤٨/٣).

(٢) النفع ٢٢٣/١.

(٣) صورة الأرض ١٠٩، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٢٩-١٣٠.

(٤) اراجع بحث: (تغريب للمائدة في الأندلس)، لسهام الدباي، المجلة العربية للثقافة، ٢٧٤، السنة ١٤ (سبتمبر ١٩٩٤م) ص ١٦٥-١٨٠.

(٥) اراجع: المقتبس ٣٢١-٣٢٠/٥ (٣٢٠هـ)، وترتيب المدارك ٤٢٩/٤/٢، ووفيات الأعيان ٢٢٧/٧-٢٢٨، وأزهار الرياض ٢٨٢/٢ وبعدها.

(٦) اراجع: المقتبس (ط. الحجى) ص ٢٠٨-٢١٢، ٢١٣، ٢٢٣، والنفع ٤١٩/١.

(٧) المقتبس (ط. الحجى) ص ٢٩-٣٠، ٥٩-٦٢، ٩٣-٩٥، ١٥٢-١٥٣، ١٨٤-١٨٦، ٢٢٩-٢٣٣.

(٨) (الغرب - قسم الأندلس) ١٨٤/١، ١٨٩، والبيان ٢٨٩/٢، ٣٨٩/٣، وبعدها، والنفع ٢٤٤/٣.

(٩) كما في صدقات الناصر في فسط سنة ٣٠٣هـ (البيان ١٦٨/٢) وصدقات المستنصر الكثرة في رمضان

(المقتبس، ط. الحجى ص ٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٤)، وإعناق الرقاب بعد شفاء الحكم (السابق ٢٠٦)، والبيان ٢/٢

(٢٤٨-٢٤٩)، ورعايته أولاد إخوته المتوفين (المقتبس، ط. الحجى ص ٩٢)، واستحابة الناس لداء خطيب

الجمعة (القاضي محمد ابن إسحاق بن السليم بالتصدق على الفقراء سنة ٣٦٣هـ) (السابق ١٤٩-١٥٠).

(١٠) صورة الأرض ١١١، وأزهار الرياض ٢٧٢/٢.

(١١) اراجع نماذجهم ومعابهم في: البيان ٩٠/٣، ومقدمة د. محمود مكي للمقتبس ص ١١٣-١١٧.

خلاصة مقارنة:

١- عانى المجتمع المصري في القرن الرابع الهجري من تميز طائفة الجند على عامة الشعب في فتراته المختلفة، ومن احتكار المغاربة الحكم في العصر العبيدي، بعد أن تحوّل العبيديون المصريين من إدارة شئون الحكم في بلادهم شيئاً فشيئاً، ثم اعتمدوا على الصقالبة^(١)، فظهر منهم: برحوان وصيّ الحاكم، ورّيدان حامل المظلة.

أما الأندلس، فقد اعتنى الناصر بجلب الصقالبة إلى الأندلس، وتسّموا ذروة السلطة بها إلى جانب الأسر الأندلسية العريقة، وجلب المستنصر من بعده البربر، وجعلهم المنصور مُعتمَدة الرئيسى في الجيش. وبذلك نرى تنوع أهم العناصر في كلا الإقليمين، لكن حكام الأندلس نجحوا في المحافظة على وحدة البلاد، وتكامل عناصرها حتى وفاة المظفر. أما مصر، فالعبيديون الحكام لم يستطيعوا المزج بين طبقات المجتمع، فكان عدم التناقص بينها قائماً.

٢- اعتمد العبيديون في مصر على أهل الذمة (يهود، ونصارى) اعتماداً كبيراً في الشئون الإدارية والمالية، حتى ضجّ الشعب من ذلك، وحاول حكامه استرضاءه. أما في الأندلس، فلا توجد هذه الظاهرة، وإن استعين ببعض الناهجين منهم في بعض المهام المحددة^(٢).

٣- كثرت الاحتفالات والأعياد والمواكب والبراسم في مصر في عصر العبيديين بالذات، وكانت مرتبطة بالطعام والشراب، ويشترك فيها الخواص والعوام، وتقام وتبتدع لأهداف سياسية، وتنتج عنها فواحش ومنكرات، واختلاط سعي بين المسلمين والنصارى، ومجاعة ومشاركة لهم في أباطيلهم^(٣)؛ مما أضعف الوازع الديني، وأوهى العقائد الدينية لدى المصريين. أما الأندلس، فالاحتفالات فيها

(١) اعتمد المر على عنصر (الصقالبة)، وطلبوا من جميع الناس، وأخذوا بالنسب سنة ٣٦٤هـ (اتعاظ الحنفاء، ط. المجلس ١/٢٢٣). وبرحوان كان خصياً صقلياً (المقتضى ٢/٥٧٢). وقد كان المر يقدم كُتامة على الصقالبة؛ لأن الأولى ساندته طائفة. أما الأخويون، فاستقوا بعد السيوف (المجلس والمساربات ٢٤٦).

(٢) وقد حذرت بعض المصادر من استكاثهم وتقريرهم، وحذرت من شرهم (محطوط منهج الصواب في قبح استكاث أهل الكتاب نسخة أحمد ثلثت) ورقة ١١-٣٣، ومحطوط (للذمة في استعمال أهل الذمة) - مصورة دار الكتب - ٨١ وبعدها.

(٣) ولا أوافق د. الخربوطلي في كتابه: (السعودى - ١٥)، لما اعتبر مشاركة المسلمين النصارى في عيد الفطاس وغيره دليلاً على تماسك عناصر المجتمع مسلمين وأقباطاً آنذاك. فالأمر ينبغى أن يُنظر إليه من زاويته الشرعية، التي توجب تمييز المسلمين عن سواهم، وعدم الذوبان في غيرهم. وقد أثر عن عليّ قوله: "لا تدخلوا عليهم كنائسهم في أيام أعيادهم، فإن السخطة تنزل عليهم، فتصيبكم معهم". (تاريخ بغداد ٨/٢٦). وفي تفسير ابن كثير (ط. دار إحياء الكتب العربية) ج ٣ ص ٣٢٨-٣٢٩ في تفسير قوله (تعالى): "وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا". (الفرقان: ٧٢)، قال أبو العالية وطاوس، وابن سيرين، والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هو أعياد المشركين.

قليلة ومناسبتها محدودة^(١) بالنسبة لمصر العبيدية. والنصوص تشير إلى مجالس السمر والشراب لدى الخواص. وإن وجدت لدى العوام، فهي تختلف عن احتفالات مصر الصاخبة، التي تُرتكب فيها المنكرات جهاراً ثمّاراً على رؤوس الأشهاد. وبالنسبة لأعياد أهل الكتاب فهي محدودة، ولا نرى ثقافة المسلمين عليها كما كان الحال في مصر.

٤ - يشترك عوام أهل مصر والأندلس في صفات الفوغاء، الذين يُسَوِّدون غير السيّد، ويفضلون غير الفاضل، ويتشوّقون إلى اللهو واللعب، ويحبون الاجتماع حول مضروب، أو يقفون عند مصلوب. يُصاح بهم فلا يرتدعون، لا ينكرون منكرات، ولا يعرفون معروفات. إذا اجتمعوا غلبوا، هَمَجَ رَعاع يتبعون كل ناعق^(٢). وينفرد عامة أهل مصر بغلبة الفرح عليهم، والغفلة عن العواقب، فلا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة ماكلهم من أسواقهم، وتراهم فارغى البال، كأنما فرغوا من الحساب^(٣). وهذا على عكس أهل الأندلس، الذين يتصفون بالحرص والحذر، وما يترتب على ذلك من قلق، يخفف منه ميلهم إلى الفكاهة^(٤)، وطردهم للأحزان والآلام^(٥). وأخيراً، فإن أهل الأندلس قوم ذوو خِيَلَاءَ وغرور واعتداد بالنفس، وثورة لأنفه الأسباب. وكان عامة أهل قرطبة قومًا لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، ولا عقول معهم^(٦)، فخرّبوا ديارهم بأيديهم. أما أهل مصر، فأهدأ طبعاً، وأطول صبراً على ظلم حكامهم، ويتريثون ولا يسارعون في الثورة عليهم، فحفظوا ديارهم وأوطانهم، وإن أورثهم ذلك جبنًا شديدًا، وهلعًا عظيمًا، وسلبية مقبّية.

(١) تاريخ النصارى في الأندلس، د. كحيلة - ١٠٧، وبعبدا.

(٢) مروح الذهب مجلد ٢ ص ٣١-٣٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٣٩٢/٢، والخطط ٥٠/١، وحسن المحاضرة ٣٣٦/٢-٣٣٩. وراجع تعليق د. هيكل في

(الأدب الأندلسي) ص ٤٩-٥٠، ود. مؤنس في (الحضارة) ص ٣٢-٣٣، ورفض الأخير ما يقال عن البيئة

وتأثيرها في سلوك الإنسان وطبائعه.

(٤) النفع ٣٨١/٣.

(٥) المصدر السابق: ٤٤٠/٣-٤٤١ (يلبسون البياض في الحزن، لا السواد كما يفعل المشارقة).

(٦) تفاصيل ذلك في فتنه البربر نهاية في ٤هـ (البيان ٩٠/٣).

رابعاً وأخيراً: (الأوضاع الثقافية العامة في

مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري)

١ - الخطوط العامة للثقافة في مصر:

أولاً - القراءات: وقد شهدت مصر عدداً من علماء القراءات في هذا القرن، منهم: أحمد بن أسامة بن أحمد التجيبي المصري، الذي كان من أئمة القراءات، وعُمر طويلاً فجاوز المائة، وتوفي في رجب ٣٥٦هـ^(١) وهناك المقرئ المصري محمد بن علي (أبو بكر الأذفوي)، الذي لازم أبا جعفر النحاس، وبرع في علوم القرآن^(٢)، وهو آخر أساتذة مدرسة ورّش العظام في القرن الرابع الهجري (ت ٣٨٨هـ)^(٣). وأخيراً، فهناك آل غلبون: الوالد عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون المقرئ، أبو الطيب الحلبي الأصل، الذي ولد بحلب سنة ٣٠٩هـ^(٤)، ثم قدم مصر واستوطنها حتى وفاته بها في السابع من جمادى الأولى سنة ٣٨٩هـ^(٥). وكان حافظاً للقراءة، ضابطاً، ألف كتاب (الإرشاد في القراءات)^(٦). وكان ابنه أبو الحسن طاهر أحد المهرة المحققين في مجال القراءات في مصر. وله مؤلف: (التذكرة في القراءات). وقد توفي في مصر - أيضاً - في سن الكهولة، ودُفن بها مع والده^(٧) في ٢٠ من شوال سنة ٣٩٩هـ^(٨).

ثانياً - التفسير: من علماء التفسير في مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحّس، الذي تفوق في عدة علوم، يأتي التفسير على رأسها. واشتغل بالتأليف في علوم القرآن. من

(١) تاريخ الإسلام ١٣٥/٢٦. ورجح تاريخ الوفاة المذكور ابن الجزري على تاريخ ٣٤٢هـ في (طبقات القراء) ١/

٣٨، وحسن المحاضرة ٤٨٨/١.

(٢) معرفة القراء الكبار، للذهبي ٢٨٤/١، وحسن المحاضرة ٤٩٠/١.

(٣) القرآن وعلومه في مصر ص ٢٢٥.

(٤) وقد أخطأ السيوطي لما جعل تاريخ مولده سنة ٣٥٩هـ (حسن المحاضرة) ٤٩١/١.

(٥) ولم يكن ابن خلكان على صواب، لما جعل تاريخ الوفاة ٣٠٩هـ (وفيات الأعيان ٢٧٧/٥). واعتقد أنه سهر من السابغ، لم ينتبه إليه المحقق.

(٦) وفيات الأعيان ٢٧٧/٥، ومعرفة القراء الكبار ٢٨٥/١-٢٨٦، وطبقات السبكي ٣٣٨/٣، وطبقات الإسوي

٢/٤٠٠-٤٠١، وطبقات ابن الجزري ٤٧٠/١-٤٧١، وحسن المحاضرة ٤٩٠/١-٤٩١، وتاريخ التراث العربي (ط. الهيئة العامة) ٣٣/١ (وسماه ابن عبد الله تحريفاً).

(٧) الكواكب السائرة ١٤١-١٤٣.

(٨) معرفة القراء الكبار ٢٩٧/١، وتاريخ الإسلام ٣٧٢/٢٧، والواق بالوفيات ٤٠٤/١٦-٤٠٥، وطبقات الإسوي ٢/

٤٠١، وحسن المحاضرة ٤٩١/١، وتاريخ التراث العربي (ط. الهيئة) ٣٢/١ (أورد اسم جده عبيد الله صحيحاً).

مصنفاته: (تفسير القرآن)، (الناسخ والمنسوخ)، وغيرها. توفي في مصر سنة ٣٣٨هـ^(١). ويأتى - بعد ذلك - المفسر أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النقاش، وهو عراقي الأصل، ورحل إلى بلاد كثيرة (منها: مصر)؛ طلباً للعلم. وقد ألمَّ بمصر فترة من الزمن، وخلف كتاباً في التفسير، سمَّاه (شفاء الصدور)^(٢)، وتوفي ٣٥١هـ^(٣). وأخيراً، المفسر المصري أبو بكر الأدفوي، الذى ترك مصنفًا كبيراً في التفسير، سمَّاه (الاستغناء في التفسير)، ويقع في مائة وعشرين مجلداً، استغرق تأليفه اثنتي عشرة سنة^(٤) وتوفى بمصر سنة ٣٨٨هـ^(٥).

ثالثاً - الحديث: عُنى علماء مصر بحديث رسول الله ﷺ، رواية، وتأليفاً، ورجالاً. من أبرز هؤلاء المحدثين وأشهرهم في ذلك القرن: الإمام الحافظ القدوة، محدث الديار المصرية (أبو القاسم حمزة بن محمد الكنانى)^(٦)، الذى ولد سنة ٢٧٥هـ، وسمع الحديث سنة ٢٩٥هـ، ورحل إلى العراق في طلبه سنة ٣٠٥هـ. وخلف في مصر حديثاً وتلاميذ كثيرين، وعنى على الله أن يقبضه قبل دخول العبيدين مصر، فتوفى في ذى الحجة سنة ٣٥٧هـ^(٧).

ومن محدثي مصر أيضاً: (أبو محمد الحسن بن رشيقي العسكرى)، وهو إمام صادق معدل، له فهم ومعرفة وإسناد عال. ولد سنة ٢٨٣هـ، وتوفى سنة ٣٧٠هـ^(٨). ويأتى - بعد ذلك - إمام الحديث في مصر الحافظ (أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدي)^(٩)، الذى أثنى على علمه المحدث الشهير الدارقطني (ت ٣٨٥هـ). له تأليف نافعة في رجال الحديث، مثل: (مُشْتَبِه

- (١) طبقات النحويين للزبيدي ٢٢٠-٢٢١ (وجمل وفاته ٣٠٧هـ خطاً)، ومعجم الأدباء ٢٢٤/٤-٢٣٠، ووفيات الأعيان ٩٩/١-١٠٠، وتاريخ الإسلام ١٥٥/٢٥، والبدية والنهاية ٢٣٦/١١، والمقفى ٧١٣/١-٧١٥، ومخطوط (طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضي شعبة (الظاهريه) ص ١٩٤-١٩٦.
- (٢) طعن أكثر من محدث فيه، وضعف ما ورد به من أحاديث (المقفى ٥٦٢/٥).
- (٣) تاريخ بغداد ٢٠١/٢-٢٠٥، واللباب لابن الأثير ٣٢١/٣-٣٢٢، ووفيات الأعيان ٢٩٨/٤-٢٩٩، والعمر للذهبي ٩٨/٢، وتاريخ الإسلام ٩/٢٦، والوفاء بالوفيات ٣٦٤-٣٦٤/٧، والمقفى ٥٦٢-٥٦٠/٥.
- (٤) تاريخ الإسلام ١٧٧/٢٧، ومخطوط (مسالك الأضرار) للعمري (مصورة أحمد الثالث) ص ٢٣٦، والمقفى ٦/٢٥١-٢٥٠.

(٥) مخطوط (مسالك الأضرار، مصورة أحمد الثالث) ص ٢٣٦، والمقفى ٢٤٩/٦-٢٥١، وطبقات المفسرين للدوادى ١٩٤/٢-١٩٦.

(٦) بقية الطلب ٢٩٥٧/٦-٢٩٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٧٩/١٦-١٨١، وتاريخ الإسلام ٤٣٧/٢٦-٤٣٨، والمقفى ٦٦٦/٣-٦٧١.

(٧) ورد في سير أعلام النبلاء ١٨١/١٦: أنه بلغه أن عسكر المعز المغاربة وصلوا إلى الإسكندرية، فدعا الله أن يمته قبل دخولهم مصر، فدخلوا بعد موته بثلاث. وى (المقفى) ٦٧٠/٣: بثلاثة أيام. وأشك في صحة هذا الكلام، لأن جوهرًا دخل مصر في شعبان ٣٥٨هـ، (انتعاض، ط. دار الفكر ص ١٥٧)، وهذا المحدث مات في ذى الحجة ٣٥٧هـ، أى: قبل دخولهم بحوالى ٧ شهور.

(٨) سير أعلام النبلاء ٢٨٠-٢٨٢، والوفاء بالوفيات ١٦/١٦-١٧.

(٩) مخطوط تاريخ دمشق ١٤/٤١٢، والمنظم لابن الجوزى (ط. الهند) ٢٩١/٧-٢٩٢، ووفيات الأعيان ٢٢٣/٣-٢٢٤، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ١٦٥/١٥-١٦٦، ومخطوط (مسالك الأضرار، نسخة أحمد الثالث) ص ٣٣٨-٣٣٩.

النسبة)، و(المؤتلف والمختلف)^(١). ولد سنة ٣٣٢هـ وتوفي سنة ٤٠٩هـ، وكانت جنازته حاشدة، وتآلم لفقده الخاص والعام، وكان يُنادى فيها: هذه جنازة الحافظ لكتاب الله، ونافى الكذب عن رسول الله^(٢).

وفي النهاية، فقد انتشر المحدثون في أقاليم مصر الأخرى، فهناك المحدث خالد بن محمد الدمياطي (المتوفى سنة ٣٣٠هـ)^(٣)، ومحمد بن إبراهيم الأسواني (ت ٣١٥هـ)^(٤).

رابعاً - الفقه: عرفت مصر في القرن الرابع الهجري عدداً من المذاهب الفقهية المشهورة، وقام علماء هذه المذاهب بتدريسها في المساجد، وتعليم الناس أحكام دينهم. ومن فقهاء مصر المالكية: محمد بن أحمد بن أبي يوسف (أبو بكر بن الخلال)، وكان يدرس بجامع مصر، وأخذ عنه الناس. أُلّف أربعين جزءاً من متقى قول الإمام مالك. توفي سنة ٣٢٢هـ^(٥). والفقيه محمد بن أحمد بن أبي الأصمخ الحرّاني، الذي سكن مصر، وأمّ بالجامع العتيق، وكان فقيهاً مشهوراً، فصيح اللسان. توفي في شوال سنة ٣٣٩هـ^(٦). وأخيراً، نذكر شيخ المالكية محمد بن القاسم بن شعبان المصري، وكان ذا باع طويل بالفقه والسنة. وترك عدة مؤلفات بديعة، مثل: (الزاهر في الفقه)، و(أحكام القرآن)^(٧). توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٥هـ^(٨).

ومن أشهر فقهاء المذهب الحنفي في مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الشهير بـ (الطحاوي)^(٩)، وكان رأس المذهب الحنفي في مصر، بعد أن تحول عن المذهب الشافعي لما انتهره خاله المزني الشافعي في بداية عهده بالطلب^(١٠). ولد سنة ٢٣٩هـ^(١١)، ونبغ

(١) وفیات الأعيان ٢٢٣/٣.

(٢) عسوط تاريخ دمشق ٤١٢/١٤.

(٣) المقفى ٧٣٩/٣-٧٤٠.

(٤) السابق ٨٥/٥.

(٥) الديباج ١٨٨/٢.

(٦) تاريخ الإسلام ١٧٦/٢٥-١٧٧، والديباج ٣٠٧/٢، وطبقات ابن الجزري ٦٨/٢.

(٧) سير أعلام النبلاء ٧٨/١٦.

(٨) تاريخ الإسلام ١٣١/٢٦-١٣٢، والسير ٧٨/١٦-٧٩، والديباج ١٩٤/٢-١٩٥. وغير صحيح ما ذكره الأخير

١٩٥/٢: أن موته وافق دخول بن عبيد الروافض مصر، وأنه شدد الدم لهم؛ لأن بن عبيد دخلوا سنة ٣٥٨هـ.

(٩) طبقات الفقهاء للشيرازي (ط. إحسان) - ١٤٢، وفیات الأعيان ٧١/١-٧٢، وسر أعلام النبلاء ٢٧/١٥-٣١، والرواي ٩/٨-١٠، ومرآة الجنان ٢٨١/٢، وطبقات المفسرين للدودي ٧٣/١-٧٥، والطبقات السنية في

تراجم الحنفية ٤٩/٢-٥٢.

(١٠) طبقات الشيرازي - ١٤٢، والسير ٢٩/١٥.

(١١) سير أعلام النبلاء ٢٨/١٥. وفي (وفيات الأعيان) لابن حلكان ٧٢/١: ذكر أنه ولد ٢٣٨هـ، وقال: لكن

السمعان حمل ولادته سنة ٢٢٩هـ، وهو الصحيح. هذا كلام ابن حلكان. وبالرجوع إلى (الأنساب ٥٣/٤)،

تبين لي أن السمعاني جعل ولادته سنة ٢٣٩هـ لا ٢٢٩هـ، كما نقل ابن حلكان خطأ فيما مضى.

في فقه الحنفية^(١)، وترك مؤلفات فقهية غاية في الأهمية، مثل: (أحكام القرآن)، و (اختلاف العلماء)، و (مُشْكِلُ الآثار)، و (شرح معاني الآثار)^(٢). وكانت وفاته سنة ٣٢١هـ.

وأخيراً، نشير إلى عالم عصره، وإمام الشافعية في مصر: الفقيه أبي بكر محمد بن أحمد الكناني، المعروف بـ (ابن الحَدَّاد)^(٣). ولد سنة ٢٦٤هـ، ونبغ في المذهب الشافعي، وألّف مجموعة من الكتب، منها: (الفروع) في المذهب الشافعي، و (أدب القاضي) في أربعين جزءاً، و (الفرائض) في حوالي مائة جزء^(٤). وتوفي سنة ٣٤٤هـ.

خامساً - اللغة: ازدهرت اللغة العربية في مصر في القرن الرابع الهجري، واكتمل انتصارها على اللغة القبطية، التي أخذت طريقها نحو الاندثار^(٥). ورأينا في هذا القرن لغويين ونحويين على درجة كبيرة من القدرة على هضم واستيعاب نتاج علماء البصرة والكوفة، ثم التجديد والإبداع. ومن هؤلاء: (علي بن الحسن الهَمَّانِي الأزدِي اللغوي)^(٦)، الذي يعرف بـ (كُرَاع السمل)^(٧)؛ لأنه كان دميم الخلقة. ومن مصنفاته اللغوية الجيدة: كتاب (المنظّد) في اللغة على الحروف، واختصره مستعبداً الاستشهادات في كتابه (المجرد). وجعل كتابه (المنجد) فيما اتفق لفظه واختلف معناه^(٨). وقد توفي حوالي سنة ٣١٠هـ.

ومن علماء اللغة والنحو في مصر - أيضاً - شيخ العربية، وورث علمها عن أبيه وجده، وقسيم الشيخ أبي جعفر النحاس، ومنافسه في إبداع مؤلفاتها: (أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمي)^(٩)، صاحب كتاب (الانتصار لِسَبِيوَيْهِ على المُبرِّد)، و (المقصود والممدود). توفي

(١) بعض مسائله الفقهية في (الاستذكار) ٤١٩/١، ٣٦٨/٢، وجمعه د. غنم - في رسائله للذكوراه ص ٣٨٠ - مجتهداً في المذهب الحنفي. وذكر صاحب ماجستير: (الربيع المرادي) ص ١١١-١١٢: أن الطحاوي كان تلميذ الربيع تلميذ الشافعي.

(٢) وفيات الأعيان ٧١/١، والسير ٢٩/١٥، ومعجم المطبوعات العربية، لسركيس ١٢٣٢/٢-١٢٣٣، وتاريخ الأدب العربي، لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٢٦١/٣-٢٦٥.

(٣) الأنساب ١٨١/٢، والسير ٤٤٥/١-٤٥١، والوفاء بالوفيات ٦٩/٢، وطبقات السبكي ٧٩/٣-٨٣، والمفقي ٢٥٣/٥، وبعدها.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٤٧/١٥.

(٥) تاريخ اللغة العربية في مصر، د. أحمد مختار ص ٤٥.

(٦) إنباه الرواه ٢٤٠/٢، ومخطوط (الوفاء بالوفيات، نسخة أحمد الثالث) ج ٢٠ ورقة ١٧٩.

(٧) الكُرَاع من الإنسان: مادون الركبة إلى الكعب، وهو يذكر ويؤنث. وفي البقر والغنم: مُسْتَذَقُ الساق العاري من اللحم. الجمع: أَكْرُع، وأكارع. وفي التل: (لا تطعم العبد الكُرَاع، فيطمع في الذراع) والمعنى: أنه شديد النحافة (اللسان مادة ك. ر. ج، ص ٣٨٥٨، والمعجم الوسيط ٨١٤/٢).

(٨) تاريخ اللغة العربية في مصر ١٣٦-١٣٧، وماجستير (الحياة العلمية في مصر من قيام الطولونيين إلى سقوط الإخشيديين) ص ٢٥٧، وبعدها.

(٩) تاريخ الإسلام ٧٢/٢٥، ومرآة الجنان ٣١١/٢-٣١٢.

سنة ٣٣٢هـ. وهناك النحوى المصرى (على بن الحسن) المعروف بـ (عَلَّان)، وكان من ذوى النظر والتدقيق فى المعان^(١). توفى فى مصر سنة ٣٣٧هـ.

وأخيراً، يأتى (أحمد بن إسماعيل النحاس، أبو جعفر النحوى)، الذى تلقى كتاب سيبويه على الزَّجَّاج ببغداد، ثم عاد إلى مصر، فأبدع أكثر من خمسين مصنفًا، من أشهرها فى مجال النحو: (إعراب القرآن)، وفيه حشد وجوه الإعراب دون اختيار، أو تعليل^(٢). وكذلك ألف (الكافى فى علم العربية)^(٣). توفى سنة ٣٣٨هـ.

سادساً - الأدب: من شعراء مصر فى العصر الإخشيدى: سعيد المعروف بـ (قاضى البقر)^(٤)، وأبو الفتح بن البيئ^(٥)، وكلاهما يشترك فى غلبة أشعار الجون، ووصف مجالس الشراب عليه.

وبعد الشاعر المتنبى أشهر شعراء العربية دخولاً إلى مصر، ومكثاً بها^(٦). وتعد مدائحه فى كافور من أشهر ما قيل فى هذا المجال. ولما أيس من بلوغ مراده عنده^(٧)، عدا عليه فهجاه، وفَرَّ من مصر ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ^(٨). وتوجه إلى عضد الدولة، ثم قُتل بعد انصرافه نحو البادية سنة ٣٥٤هـ.

ويأتى على رأس شعراء العصر العبيدى الشاعر محمد بن المعز^(٩)، الذى أراد تعويض ما لحقه من ظلم بعزله عن ولاية العهد^(١٠)، عن طريق الاتجاه للتلذذ والتنعيم فى بساتين مصر، ومتزهاً بها^(١١)، والانخراط فى احتفالاتها وأعيادها، يديج الأشعار، ويسمع الغناء، ويشرب كنوس

(١) طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٠.

(٣) السابق: ص ٢٢٢ والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدماطى ص ٧٢-٧٣.

(٤) المغرب (قسم مصر) ص ٢٧٢، وفى الأدب المصرى الإسلامى حتى الفاطميين، د. محمد كامل حسين ٢٣١.

(٥) المغرب (قسم مصر): ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٦) يبدو أنه دخل مصر بعد وفاة الإخشيد ورثاء، وعزى ابنه أونوجور بمصر سنة ٣٣٥هـ (بغية الطلب ٦٧٥/٢). ثم

دخلها مرة المشهورة سنة ٣٤٦هـ، ومدح كافورا، وأونوجور (وفيات الأعيان ١٢٢/١).

(٧) كان كافور وعده بأشياء (مناصب)، فلما رأى تعالى المتنبى عليه منعه، فلما سئل فى ذلك، قال: (من ادعى النبوة، يذمى أنه يحكم معنى). (المصدر السابق ١٢٢/١).

(٨) الواقي بالوفيات ٣٣٦-٣٤٦، ومراة الجنان ٣٥١/٢-٣٥٧، والبداية والنهاية ٢٧٣/١١-٢٧٦، وفى الأدب المصرى د. محمد كامل حسين ٢٤٢. وله أشعار فى الأهرام (المخطوط ١١٨/١).

(٩) أخبار الدول المنقطعة ٢٨، والحلة السراء ٢٩١/١. وبعدها، ووفيات الأعيان ٣٠١/١-٣٠٣، ومراة الجنان ٢/٤٠٤-٤٠٥، والبداية والنهاية ٣١٣/١١ (ت ٣٦٨هـ خطأ)، وتاريخ التراث العربى (ط. السعودية) مج ٢ ج ٥ ص ١٠-١١.

(١٠) الحلة السراء ٢٩١/١. وذكر أنه شاعر بن عبيد، وكان ولى عهد أبيه وبه بُكِّى، ثم خُلِعَ بإشارة جوهر؛ لأنه عقيم لا يولد له. ولى العهد أخوه عبد الله، فلما مات ولىه نزار (العزير).

(١١) الديارات، للشابشقى ص ٢٨٩.

الراح، مشاركاً أهل مصر هزلم ولهوهم^(١)، مطمئناً أحياه العزيز من جهته، ومؤكداً بعده عن شئون السياسة والحكم. وظل هكذا حتى وفاته. بمصر في ذي القعدة سنة ٣٧٤هـ.

وأخيراً، فإن من أشهر كتّاب النثر في العصر الإخشيدى: إبراهيم بن عبد الله النجيمى الكاتب (توفى حوالى ٣٥٥هـ)^(٢). حظى بمكانة طيبة في بلاط الإخشيد، وغدا زعيم الكتّاب في عهده بعد أن هيأته مؤهلاته في النحو واللغة والعربية لتسّم هذه المكانة، التي تأكدت بكتابه الذى أنشأه على لسان الإخشيد رداً على رسالة الإمبراطور رومانوس الرومى إليه^(٣). وفي عهد كافور ظلت مكانته محفوظة لديه، وكان من البارزين في بلاطه، الذى ضم العلماء والشعراء والكتّاب^(٤).

سابعاً وأخيراً - علم التاريخ: اهتم مؤرخو مصر في هذا القرن بالتأريخ لبلدهم. فأول ما استرعى انتباههم كتابة سير حكامهم، ممن استقلوا بمصر، وحققوا لها من النمو والازدهار ما حاز إعجابهم، ودفعهم إلى تسجيل حياتهم، وتخليد مآثرهم. ولذلك نرى اثنين من مؤرخي هذا القرن يدونان سيرة (أحمد بن طولون)، ولكل منهما، وهما: (أحمد بن يوسف بن إبراهيم) المشهور بـ (ابن الداية) المتوفى حوالى سنة ٣٤٠هـ. والآخر (البلوى) الذى طوّر كتابة هذه السيرة، وفصلها تفصيلاً. واهتم المؤرخ (ابن زولاك ت ٣٨٧هـ) - كذلك - بتدوين سيرة (الإخشيد)، وسيرة النحوى المصرى المعروف بـ (سيبويه المصرى). وسجل - أيضاً - سيرة أسرة (المادرائين)، وكتب سيرة (جوهر)، و(المعز).

أما الاتجاه الثانى من اتجاهات التأليف التاريخى المحلى في مصر في ذلك القرن، فهو كتب (التراجيم)، وقد واكبت هذه المؤلفات حركة الازدهار العلمى في ذلك القرن، وكثرة العلوم والعلماء، وكثرة الرحلات؛ طلباً للعلم، فأراد بعض المؤرخين أن يؤرخ لتلك الحركة العلمية المهمة، فأرخ بعضهم للعلماء الأوائل في مصر (الصحابه)، مثل: محمد بن الربيع الحيزى (ت ٣٢٤هـ)، وتلاه (ابن يونس الصّدقى) المتوفى سنة ٣٤٧هـ، فألف عن (تاريخ المصريين)، و(تاريخ الغرباء)، أى: العلماء الوافدين على مصر من الخارج. واهتم الكندى (ت ٣٥٠هـ) بنوعية معينة من العلماء هم (العلماء الموالي).

(١) الخطط ١٥٤/٢ - ١٥٥.

(٢) إنباه الرواه ١٧٠/١ - ١٧١، والوائ ٣٤/٦، والأعلام للزركلى ٤٢/١، وفي الأدب المصرى الإسلامى د. محمد كامل حسين ١١٣ وبمدها، والأدب العربى في مصر، د. عبد الرزاق حميدة ص ١٢٤ وبمدها. وهو ينسب إلى (نجيم)، وهى عملة بالبصرة. (الأنساب ٤٦٣/٥). وذكر القفطى في (إنباه الرواه) ١٧٠/١: أنها قرية على ساحل البحر الهندى في طريق فارس من البصرة.

(٣) نصه في المغرب (قسم مصر) ص ١٦٧ - ١٧٢.

(٤) إنباه الرواه ١٧١/١.

وبالنسبة للاتجاه الثالث في كتابة (التاريخ المحلي) في مصر، فقد اهتم أصحابه بالتأريخ للنظم والحضارة، فكتب المؤرخ الكندى عن (الولاية)، و(القضاة) في مصر، وكذلك اهتم ابن زولاق بتكملة ما بدأه الكندى عن القضاة.

وأخيراً، فقد عُني فريق من المؤرخين بتدوين (الحوادث التاريخية) عن طريق السرد التاريخي لها. وأهم من يمثل هذا الاتجاه ما دوّنه المؤرخ ابن زولاق بإيجاز من تاريخ مصر في مخطوطة (مختصر تاريخ مصر).

٢- الخطوط العامة للثقافة في الأندلس:

أولاً - القراءات: شهدت بلاد الأندلس اهتماماً متزايداً بالقرآن الكريم وإقرائه، وتلقين ذلك لطلاب العلم. ومن هؤلاء: أحمد بن عمر بن أبي الشعري المقرئ القرطبي^(١). كان أهل قرطبة يتلقون عليه الكتاب العزيز، وكان يكتب المصاحف، والناس يقبلون ويتنافسون على شرائها؛ لجودة خطه وجماله. توفي سنة ٣٥٠هـ. وهناك (أحمد بن حكم بن محمد العاملي القرطبي)^(٢). كان من أهل العناية الشامة بالقرآن، وتجويد تلاوته على أئمة المقرئين. ذكره القاضي (أحمد بن ذكوان) للمنصور بن أبي عامر، فرقاه في المناصب، حتى تقلد قضاء طليطلة، إلى أن توفي سنة ٣٩٠هـ. وكان الأندلسيون يرحلون إلى المشرق؛ لاستكمال معارفهم بالقراءات، فمثلاً رحل المقرئ (خلف ابن قاسم بن سهل الأندلسي)^(٣) إلى الرملة ومصر؛ لتلقى القراءات هناك، ثم رجع إلى الأندلس، وأقرأ بها وألف. ولد ٣٢٥هـ، وتوفي سنة ٣٩٣هـ.

ثانياً - التفسير: ممن اهتم بالتفسير إلى جانب القراءات بالأندلس المفسر (يحيى بن مجاهد الإلبيري)، وكانت له رحلة إلى مصر؛ لتلقى العلم. وكان لا نظير له زهداً وعبادة. توفي شهر جمادى الأولى ٣٦٦هـ^(٤). وهناك (عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس)، وكان مشاركاً في سائر العلوم، وخلف بعده مكتبة ضخمة، وعدة مؤلفات، منها: أسباب الغزول، والناسخ والمنسوخ، وهما على قدر كبير من الأهمية لطالب التفسير. توفي سنة ٤٠٢هـ^(٥).

ثالثاً - الحديث: كان للأندلسيين ولع بحديث رسول الله ﷺ، حفظاً، ورواية، ودرساً. وعلى رأسى محدثي الأندلس يأتي الإمام المحدث (أبو محمد قاسم بن أصبغ البياضي القرطبي)^(٦)،

(١) الصلة لابن شكوال (نشر الحسين) ١١/١.

(٢) الذيل والصلة للمراكشي، السفر الأول، القسم الأول ص ٩٩-١٠٠.

(٣) طبقات القراء لابن الجزري ٢٧٢/١.

(٤) طبقات المفسرين، للدواودي ٣٧٥/٢.

(٥) السابق ٢٨٥-٢٨٧.

(٦) ترجم له: ابن القزويني في (تاريخ العناء والرواة للعلم بالأندلس) ٤٠٦/١-٤٠٨، والجلوة ٥٢٦/٢-٥٢٨، ومخطوط عيون التواريخ، نسخة الظاهرية) ورقة ٨٥، ومخطوط الوالي بالوفيات (مصورة دار الكتب) ٢١٢/٧.

الذى كان مُسند عصره، وحافظ بلده (الأندلس). ورحل إلى المشرق، وسمع على أعلامه، ثم أتى إلى بلده، وطال عمره (٢٤٤-٣٤٠هـ)، حتى سمعت منه أجيال أندلسية متعاقبة. وكان مكثراً مصنفًا. من أهم مصنفاته: كتاب في السُّنة حسن، و(غرائب حديث مالك مما ليس في الموطأ)، و(المجتبى على أبواب المنتقى لابن الجارود. والمحدث الحافظ (خالد بن سعد القرطبي)^(١): كان بصيراً بعلل الحديث، عالماً بطرقه، مقدماً على أهل زمانه في ذلك. وضع كتاباً للخليفة الحكم المستنصر في (رجال الأندلس). وكان المستنصر يقول: "إذا فاخترنا أهل المشرق بـ (يحيى بن معين)، فاخترناهم بـ (خالد بن سعد)".^(٢) توفي سنة ٣٥٢هـ.

وأخيراً، نأتى إلى دُرّة المحدثين بالأندلس الإمام الحافظ (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن يحيى بن مُفرّج، مولاهم الأموى القرطبي)^(٣). هذا المحدث تلقى على الإمام (قاسم بن أصبغ)، ورحل إلى المشرق سنة ٣٣٧هـ، فسمع الحديث في مكة والمدينة، واليمن، والشام، ومصر، ثم عاد إلى وطنه سنة ٣٤٥هـ^(٤)، فكان من أكثر الناس عناية بالحديث حفظاً، وبصراً برجاله، وتصحيحاً وتجويداً وضبطاً لكتبه^(٥). كانت له صلة طيبة بالمستنصر، وجمع له مسند حديث (قاسم بن أصبغ)، وكان له فقه وفهم للحديث، فترك كتباً في فقه التابعين مبنية على الحديث، مثل: (فقه الحسن البصري) في سبع مجلدات، و(فقه الزهرى) في أجزاء كثيرة^(٦). وله المستنصر القضاء حتى وفاته (أى: المستنصر) سنة ٣٦٦هـ، وامتدت له الحياة بعد المستنصر، حتى لقي ربه سنة ٣٨٠هـ.

رابعاً - الفقه: كان للفقهاء الأندلسيين دور متميز فعّال، وتأثير كبير في حياة المجتمع (العوام والخواص) في تلك الفترة التي ندرسها (خاصة قبل سيطرة المنصور على مقاليد الأمور). وكان المذهب المالكي الأوسع انتشاراً هناك؛ نظراً لتبني الحكام له، ورضا الناس عنه. ومن فقهاء المالكية آنذاك: (أبو عبد الله، محمد بن عمر بن بُبابة القرطبي)^(٧)، الذى كان إماماً في الفقه، بصيراً بالفتيا، حافظاً لآراء الفقهاء. توفي سنة ٣١٤هـ. وهناك الفقيه (محمد بن يحيى بن عمر لبابة القرطبي)^(٨): كان يحفظ الفقه على مذهب مالك وأصحابه،

(١) راجع تاريخ العلماء لابن الفرضى ١٠٤/١، ١٥٦، وتاريخ الإسلام ٧٢/٢٦-٧٣.

(٢) تاريخ العلماء لابن الفرضى ١٥٥/١.

(٣) تُرجم له في: (تاريخ العلماء) ٩٣/٢-٩٥، والجدوة ٧٦/١-٧٧، ومخطوط تاريخ دمشق ٧١٩/١٤، والعبر للنهى ٢/

١٥٦، والديباج ٣١٤/٢.

(٤) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٩٣/٢-٩٥.

(٥) مخطوط تاريخ دمشق ٧١٩/١٤.

(٦) الجدوة ٧٦/١.

(٧) البيان المغرب ١٩٢/٢، ومخطوط (عيون التواريخ) ١٠٤/١٢، والديباج ١٨٩/٢-١٩١.

(٨) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٥٣/٢-٥٤، والجدوة ١٥٩/١، وتاريخ الإسلام ١٤٢/٢٥-١٤٣.

وبينه وبين أصحاب الحديث عداً متبادلاً. ترك بعض المؤلفات الفقهية، مثل: (المنتخب)، (الوثائق). توفي سنة ٣٣٠هـ^(١). ومن علماء المالكية وفقهائها أيضاً: (عبد الله بن محمد ابن أبي ذؤيم القُرطبي، المتوفى سنة ٣٥١هـ^(٢))؛ وأخوه (محمد)، المتوفى سنة ٣٧٢هـ^(٣)، و(أحمد بن مُطَرِّف بن عبد الرحمن، المشهور بابن المشاط)، المتوفى سنة ٣٥٢هـ^(٤).

ومن أشهر فقهاء الشافعية في الأندلس في ذلك القرن:

أ- عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ت ٣٣٨، أو ٣٣٩هـ^(٥)).

ب- حسن بن سعد بن إدريس القرطبي (ت ٣٣١هـ^(٦)).

خامساً - اللغة: في هذا القرن حدثت نهضة لغوية في بلاد الأندلس، وظهر عدد من اللغويين والنحاة، أثروا الدراسات اللغوية والنحوية العربية، بعد انتشار اللغة العربية، وتفوقوا على ما عداها من اللغات.

ومن أبرز اللغويين والنحاة إبان هذه الفترة:

١- محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرُّبَاحي (ت ٣٥٨هـ^(٧)).

٢- محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بـ (ابن القُوطيَّة)، والمتوفى سنة ٣٦٧هـ^(٨).

(١) ذكر الذهبي في (تاريخ الإسلام) ١٤٣/٢٥: أنه توفي في ذي الحجة ٣٣٦هـ، وهو غير صحيح.

(٢) فقيه مُسَاوَر له تأليف (ت ٣٥١هـ). (ترتيب المدارك ٤٤٠/٤-٤٤١، والديباج ٤٤١/١).

(٣) عالم فقيه، زاهد تقي، جلس يُسمع الناس العلم قبل وفاته بثلاث سنوات، فأخذوا عنه علماً كثيراً. له أقوال صائبة في شروط الفقيه، وضوابط الوصول إلى تلك المكانة، والتلقب بهذا اللقب (من حيث السن، والعلوم اللازمة)، وإلا سُمِّيَ طالباً (الديباج ٢٠٢/٢-٢٠٣).

(٤) كان من أعيان فقهاء المالكية بالأندلس، وولى الصلاة بقرطبة، (تاريخ الإسلام ٦٩/٢٦).

(٥) كان الحكم المستنصر مالكيًا، وأخوه عبد العزيز حنفيًا، وكان عبد الله هذا شافعيًا، (المغرب - قسم الأندلس - ١/ ١٨٨). وقال صاحب (البغية) ص ٣٥٠: كان عبد الله فاضلاً، قتل أبوه؛ بسبب متابعة أكثر الناس له، لأدبه وفضله (ت ٣٣٨هـ). أما ابن خلدون في (تاريخه) ١٨٤/٤، فذكر أن الناصر رشح الحكم لولاية العهد دون إخوته، وكان عبد الله يُساميه في الرتبة، فحسده، ونكث بالعهد، واتفق مع بعض رجال الدولة الخفونة ضد الناصر. ونمى الخبر إلى الناصر، فاستكشف الأمر، حتى وقف على الجليَّة منه، وقبض عليهم جميعاً، وقتلهم سنة ٣٣٩هـ (ذكرها سنة ثلاث وتسعين تحريفاً). وفي النجوم ٣٤٦/٣ (أحداث ٣٣٩هـ): حاف الناصر خروجه عليه، فقتله.

(٦) كان بكرة التقليد الفقهي، ويمثل لآراء الشافعي واجتهاداته، وعُنِّن في الشورى. فلما رأى الشورى دائرة على فقه المالكية، ترك مكانه فيها (تاريخ الإسلام ٥٤/٢٥).

(٧) سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وغيره، ورحل إلى المشرق، فسجع بمكة ومصر على أبي جعفر النحاس، وحمل عنه رواية كتاب سيبويه. كان جيد النظر، دقيق الاستنباط، حاذقاً بالقبلي. أذنب المغيرة بن الناصر، وحكم المستنصر في مقابلة الدواوين والظر فيها. (طبقات النحويين واللغويين، للزبيدي ص ٣١-٣١٤، وتاريخ العلماء لابن الفرضي ٧١/٢-٧٢).

(٨) إشبيلي الأصل، قرطبي المولد والدار. عالم بالحو واللمغة، له مؤلفات حسان، منها: (تصارييف الأفعال)، و(المقصود والممدود). كان عظيم القدر لدى أبي على القالي، الذي استوطن الأندلس. (تاريخ العلماء ٧٨/٢-٧٩، والبغية ١١٢، ووفيات الأعيان ٣٦٨/٤-٣٧١).

٣- أبو بكر محمد بن الحسن الزُبَيْدِيُّ الأندلسي (ت ٣٧٩هـ)^(١).

٤- أحمد بن أبان بن سيّد اللقوى (ت ٣٨٢هـ)^(٢).

٥- حسين بن وليد بن نصر القرطبي، المعروف بـ (ابن العريف)، المتوفى سنة ٣٩٠هـ^(٣).

سادساً - الأدب: في ظل الرقي السياسي الذي تمثل في تحول الأندلس إلى خلافة، وفي ظل الحياة الاجتماعية العامرة بالخصب والرخاء، والنهضة الثقافية المزدهرة، وازدهار الأدب غمو وارتقاءه، فظهر عدد من الشعراء والكتاب، الذين أثروا الحياة الأدبية بالأندلس، وصوروا جوانب الحياة، ومدحوا الحكام، ووصفوا معاركهم وغزواتهم. ومن أبرز هؤلاء:

١- الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨هـ)^(٤).

٢- الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندي، المعروف بـ (الرّمادي)^(٥).

٣- الكاتب البليغ (عبد الملك بن إدريس الجزيي)^(٦).

٤- الشاعر أحمد بن محمد بن ذرّاج القَسْطَلِيّ (ت ٤٢٠هـ)^(٧).

٥- الكاتب أبو حفص أحمد بن بُرْد^(٨).

(١) إشبيلي، نزيل قرطبة، واحد عصره في النحو واللغة. من مؤلفاته: (مختصر كتاب العين)، و (طبقات النحويين واللغويين)، وخن العامة، والواضح في العربية. أدب هشام بن الحكم، وتولى قضاء إشبيلية. (تاريخ العلماء لاس الغرضي ٩٢/٢، ووفيات الأعيان ٣٧٢/٤-٣٧٤).

(٢) كان بلي منصب صاحب الشرطة بقرطبة أيام المستنصر، وفي الوقت نفسه كان عالماً لغوياً، حدث بالكامل للمرد، وبالنوادر لأبي علي الفاي، ألف في اللغة كتاب (العالم) في مائة مجلد، وله (العالم والمتعلم) في النحو، وشرح كتاب الكسائي. (الجدوة ٦٤١/٢، والصلة ١٤/١، والبغية ٥٣٨، وإنباه الرواه ٣٠١-٣١).

(٣) نحوى عالم بالعربية. أخذ عنه ابن القوطية بقرطبة. رحل إلى المشرق، وأقام أعواماً في مصر. عاد إلى الأندلس، فاستأذنه المنصور لبنيه، وقربه من صحبته. (تاريخ ابن الغرضي ١٣٤/١-١٣٥).

(٤) أحد شعراء الأندلس الكبار، وصاحب الناصر، ومدحه بأشعار كثيرة، وتعتى بصفاته، وأزّج بالشعر غزواته من سنة ٣٠٠ إلى ٣٢٢هـ، (العقد الفريد ٢٦٠/٥-٢٨٨، والمقتبس ٤١٥-٤٢، والبداية والنهاية ١١/٢٠٦، والنجوم ٣٠٦/٣-٣٠٧)، والأدب الأندلسي د. هيكل ١٩٩ وما بعدها).

(٥) يُظن أنه ينسب إلى رَمَادَة (موضع بالمغرب)، ينسب إليه أحد أبياته. وهو شاعر قرطبي سريع القول، مشهور لدى العامة والخاصة. تُنسب إليه شعر في ذم المستنصر فحسه. عمل بالسجن كتاب (الطير) في أجزاء، كله من الشعر (في وصف كل طائر معروف، وذكر خواصه)، وذُيّل كل قطعة شعر فيه بمدح ول المهد هشام؛ ليشفع له. ويبدو أنه أطلقه. وكان بعد ذلك من مُدّاح المنصور. توفي ٤٠٣هـ (الجدوة ٥٨٩/٢-٥٩٣، ووفيات الأعيان ٧/٢٢٥-٢٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ٣٩٢/١، والأدب الأندلسي ٢٨٣-٢٨٨).

(٦) كان أحد بلغاء الأندلس، وكان كاتب المنصور، ثم سجنه وعفا عنه بعد ذلك. كتب لابه المظفر بعده، لكنه اقم بالتأمر مع طرفة الفتي، وقتل في السجن ٣٩٨هـ. (المغرب - قسم الأندلس - ٣٢١/١-٣٢٢، وبيان ٢٦/٣).

(٧) شاعر موهوب، له أشعار كثيرة، لازم المنصور في خرجاته وغزواته، ومدحه وتلقاه؛ ليسلم من الأذى. ومدح وهنّا المظفر بعده. توفي ٤٢٠هـ (راجع أخباره وأشعاره في: ديوانه ٨-٩، ١٢-١٥، ٣٧٣-٣٧٧، ٣٨٠-٣٨١، والجدوة ١٧٧/١-١٨١، والبغية ١٥٨-١٦١، والصلة ٤٤/١).

(٨) كاتب مقدم في الدولة العامرية ومعدّها. ولاد المظفر ديوان الإنشاء بعد مقتل أبي مروان عبد الملك بن إدريس -

سابعاً وأخيراً - التاريخ: شهد القرن الرابع الهجري طفرة في حركة التأريخ في الأندلس، واستقلت تلك البلاد في ذلك العلم عن مدرسة مصر، وبدأت شخصية المؤرخين الأندلسيين واضحة فيما تركوه لنا من مؤلفات.

ومن هؤلاء المؤرخين: ابن جُلجل في (طبقات الأطباء)، وتوفي حوالي سنة ٣٧٧هـ واليزيدى في كتابه: (طبقات النحويين واللغويين)، وأبدع ابن القرظي (ت ٤٠٣هـ) في كتابه الموسوم بـ (تاريخ علماء الأندلس). وفي مجال الحضارة والنظم ترجم الحشني (ت ٣٦١هـ) لبعض كبار قضاة قرطبة في كتابه: (قضاة قرطبة)، وأورد فيه معلومات قيمة عن نظم القضاء، وملامح الحياة الاجتماعية آنذاك. وسرد لنا اللغوي والمؤرخ المشهور أبو بكر بن القوطية (ت ٣٦٧هـ) ما تيسر له من تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله في كتابه: (تاريخ افتتاح الأندلس).

ملاحظات عامة على الأوضاع الثقافية في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري:

أولاً - من حيث الظروف والعوامل المؤثرة في تلك الأوضاع:

أما عن مصر، ففي ظل الاستقرار السياسي والرواج الاقتصادي، والهدوء الاجتماعي في العصر الإخشيدى، تمت الثقافة وازدهرت في ظل حكم الإخشيد وكافور من بعده، بفضل رعايتهما للعلم والعلماء، وتشجيعهما لهم، فظهرت ثمار ذلك على هيئة كتب ومؤلفات في أكثر من فرع من فروع المعرفة^(١). ويكفي أن نشير إلى أن أعظم مؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري، تُنسب أعمالهم ومؤلفاتهم إلى ذلك العصر^(٢). ويحيى العبيديون إلى مصر، وتستجد ظروف لا عهد للناس بها. فالعبيديون أتوا ينشرون فكرهم الشيعة، وحاولوا بدهاء وتدرج نشر مذهبهم الإسماعيلي في ربوع مصر، وبين مختلف طبقات شعبها^(٣)، وتصادعت طريقتهم في

= الجزيري، وهو كاتب رسالة الظفر حين قتل صهره الوزير (عيسى بن سعيد القطاع)، وكاتب ولاية عهد عبد الرحمن بن المنصور. توفي ٤١٨هـ (الخطوة ١/١٨٨)، والذخيرة في ١ ج ١ - ١٠٣ - ١٠٨، والصلة ١/٤٢، والمغرب (قسم الأندلس) ١/٢٠٤ - ٢٠٦.

(١) منها: الطب. ففي عهد الإخشيد كان للطبيب النصراني (نسطاس بن حريج) كتب في الطب، منها: (رسالة إلى يزيد بن رومان النصراني الأندلسي في البول). (طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ٥٤٤). وفي عهد كافور وضع الطبيب (البائسي) كتاباً سماه (التكميل في الأدوية المفردة) ألفه لكافور الإخشيدى (السابق ٥٤٥).

(٢) وهم: ابن يونس الصديقي (ت ٣٤٧هـ)، والكندى، وابنه عمر، الذي كتب (فضائل مصر) بناء على أمر كافور له بجمعها (كتاب فضائل مصر ص ١٩)، وإن زولاقي (ت ٣٨٧هـ) في (سيرة الإخشيد)، التي كتبها بناء على طلب أبي الحسن علي بن الإخشيد سنة ٣٥٠هـ (وكان كافور وصياً عليه). (المغرب - قسم مصر - ١٤٩).

(٣) تراجع توجيهاً للمز لدعاته ولأولياته في: (المجالس والمسايرات) ص ١٣٧، ٣٠٣ - ٣٠٦، ٣١٢ - ٣١٣، ٤٢٠. وتراجع الخطوات العملية لجذب الأنصار في: (المخطط ١/٣٩١ - ٣٩٨)، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٣٣٨، وبعدها).

فرض مبادئهم وآرائهم على الناس في بعض الفترات، فانغذوا من القسوة واستخدام الشدة وسيلة لذلك^(١). وقد ساعدتهم على بعض النجاح الظاهري حكامهم، الذين كانوا يتصفون بالذكاء والعلم والثقافة^(٢)، وإذعان شعب مصر لهم؛ خوفاً من بطشهم وجبروتهم^(٣). وعلى كل، فإننا لا ننكر - رغم الاختلاف العقدي - وجود نهضة ثقافية في عصر العبيديين، شجع على إحداثها سعة أفق بعض حكامهم، ورعايتهم للعلم وللعلماء^(٤)، ووجود وزراء على درجة من الوعي والعلم والثقافة^(٥)، إلى جانب الانفراجة في حرية الفكر والبحث، التي أحدثها قرار إنشاء الحاكم دار الحكمة، ومكبتها الملحقة بها المسماة بـ (دار العلم) سنة ٣٩٥هـ^(٦).

وقد انعكست تلك الأوضاع على علماء أهل السنة، فداراهم البعض واستغل هامش الحرية السدي أتاحه الحاكم، إلا أن انقلابه السريع سنة ٣٩٩هـ أودى بحياة بعض علماء أهل السنة، وأدى إلى استتار البعض الآخر^(٧). وبالنسبة للمؤرخين فقد جاراهم ابن زولاق؛ إيماناً منه بمعتقداتهم، وسطر بقلمه سير بعض حكامهم وقادهم البارزين^(٨).

أما الأندلس، فقد شهدت نهضة علمية مزدهرة في ذلك القرن الذهبي. لقد حرص الخليفة الناصر - رغم انشغاله في غزواته بالداخل والخارج - على استقدام العلماء الناهجين من المشرق،

(١) من نماذج ذلك: منع العزيز صلاة التراويح من مصر كلها سنة ٣٧٢هـ (الخط ٣٤١/٢)، وضرب رجل، وطيف به المدينة؛ لوجود موطأ مالك عنده سنة ٣٨١هـ (اتعاظ الحفاط. المجلس ١-٢٧٣، والخط ٣٤١/٢). ومزيد من الأمثلة في: (المصدر السابق ٤٩/٢، ٥٤، ٨٠).

(٢) راجع دلائل ذلك في: (المجالس والمساربات ٥٣٣، ومعجم الأدباء ١٦/١٧-١٨، ووفيات الأعيان ٣/٣١٩، والوقا ٢/١٩٤، واتعاظ الحفا ١/٢٧٨، والخط ٤٠٢/١، ٤٠٨).

(٣) وهذا يفسر نزاحم الناس للدخول في الدعوة، وحضور مجالسها في القصر، حتى مات بعضهم من الزحام، مع حضور النساء والفرقاء كذلك. (الخط ١/٣٩٠، واتعاظ الحفا ٢/٥٤).

(٤) مثل: مؤلفات الطب التي وضعها بعض الأطباء للمعز، وما ألف في عهد العزيز (طبقات الأطباء ص ٥٤٥-٥٤٦).

(٥) مثل: ابن كلث (ت ٣٨٠هـ)، وأبي الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن جرتانة (ت ٣٩١هـ). راجع جهودهما لخدمة العلم ورعاية العلماء في: (طبقات ابن أبي أصيبعة ٣٣٢-٣٣٣، ووفيات الأعيان ١/٣٤٧، والسير ١٦/٤٨٥).

(٦) راجع مهمتها المنشأة لأجلها في: (النجوم الزاهرة في خلى حضرة القاهرة) لابن سعيد ٦٠، وصبح الأعشى ٣/٣٦٢، واتعاظ الحفا ٢/٥٦، والخط ٢/٣٤٢، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم ٤٣٥، والتربية الإسلامية، ربيرا (مترجم) ص ٢٦٢-٢٦٣، وموسوعة التاريخ الإسلامي، د. شلي ٥/١٣٦-١٣٧، وماجستير (الحياة العلمية بمعز في عهد العبيديين الأول) ص ١١٣.

(٧) أمر الحاكم بقتل (جنادة بن محمد المروئي المغوي النحوي)، ومعز المقرئ (الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوي)، بينما استمر المحدث عبد الفخر بن سعيد. وكان سبب القتل اجتماعهم في دار العلم، وجلسهم فيها. (وفيات الأعيان ٣/٢٢٣-٢٢٤، واتعاظ الحفا ٢/٨٠). بينما ذكر ياقوت أن الحاكم قتل المروئي؛ لتهامه بأنه شوم على النيل، ذلك أنه كان يجري دروسه النحوية في جامع المقياس، فظن أنه سبب انخفاض النيل (معجم الأدباء ٧/٢٠٩-٢١٠).

(٨) مثل: سيرة المعز، وجوهر. وسوف ندرس مؤلفاته تلك فيما بعد، إن شاء الله.

وحسن الاستفادة منهم^(١). وقد أنعم الله على بلاد الأندلس بالحكم المستنصر العالم المثقف، سواء في فترة ولايته للعهد، أم في فترة توليه الخلافة^(٢)، فأولى العلم والعلماء كل عنايته، وسلك في سبيل النهوض بالثقافة في الأندلس طرقاً عديدة، منها: استقدام العلماء المتفوقين من أقاليم الأندلس الأخرى إلى العاصمة قرطبة؛ للاستزادة من علومهم^(٣)، وتوجيه الدعوة وبذل كل المغريات لاستجلاب العلماء من المشرق^(٤)، وتوجيه علماء الأندلس للتأليف في موضوعات معينة، يثرى بها المكتبة الأندلسية^(٥)، بل عرفت الأندلس - بحسن توجيهه - التأليف العلمي المشترك في مجال الفقه المالكي^(٦). وكذلك حرص المستنصر على إقامة علاقات وطيدة بالورّاقين، يجلبون له من المشرق كل كتاب قيم جديد، ويبدل في سبيل ذلك الأموال^(٧)، فتكونت له مكتبة ضخمة من جُزء ذلك كله^(٨).

وفي عهد المنصور بن أبي عامر كان له اهتمامه بالعلم والعلماء، وكان له مجلس أسبوعي، يستقدم فيه العلماء من كل فن وعلم، يتناظرون ويتناقشون في حضوره، إبان وجوده في قرطبة^(٩). وكان للمنصور موقف عدائي من كتب الفلسفة، أمر فيه بجمع كتبها من مكتبة المستنصر بعد وفاته، وأمر بإحراقها في محضر الفقهاء؛ تحيياً للعوام، وتقيحاً لرأى المستنصر عندهم^(١٠). وقد اهتم المنصور بالعالم

(١) مثل: أبي علي القائل البغدادي الأصل، الذي دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، وظل ١٤، وعاصر المستنصر بعد وفاة أبيه الناصر. توفي القائل سنة ٣٥٦هـ (أخباره في: البقية ص ٢٣١-٢٣٤، والنفع ٧٠/٣-٧٥).

(٢) حول ثقافة المستنصر، وسعة اطلاعه، ومولفاته (يراجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، لابن الغرضي ١/ ١٢٠، ١٥١، ١٤٠، ٣٨٨/٢، ١٣٣، ١٤٧، ١٩٥، وطبقات الأمم ٥٩، والنفع ٦٠/٣).

(٣) تاريخ العلماء والرواة لابن الغرضي ١٧٧/١.

(٤) أحسن المستنصر من قبل إلى أبي علي القائل. ويذكر الذهبي أنه أحسن استقبال الفقيه أبي الطيب محمد بن أحمد ابن إبراهيم البغدادي الشافعي، وإن كان المنصور أخرجه بعد ذلك سنة ٣٧٣هـ؛ لاقامته بالاعتزال (تاريخ الإسلام ٥٤٦/٢٦-٥٤٧).

(٥) تاريخ العلماء والرواة، لابن الغرضي ٨٩/١، ١٥٦، والخلاصة ١٦٩/١، والبقية ١٥٩، والمغرب (قسم الأندلس) ١/ ١٦، والنفع ١٧٣/٣.

(٦) ترتيب المدارك ٦٣٤/٤-٦٣٥، والصلة ٢٨/١. وذكرت روايات أخرى أن هذا المؤلف كان بأمر المنصور (ترتيب المدارك ٦٣٥/٢-٦٣٦، والبقية ٥٢٩). والأول - عندي - أرجح؛ لاهتمام المستنصر بالعلم حدثاً، بينما كان الغزو شغل المنصور الشاغل.

(٧) ترتيب المدارك ٥٧٣/٤-٥٧٤، ومعجم الأدباء ١٠٠/١٣، والخلاصة السواء ٢٠١/١-٢٠٢. وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ٣٤٧/١، ووفيات الأعيان ٣٠٨/٣.

(٨) خاصة بعد أن ضم إليها مكتبة أخيه عبد الله بعد قتله. (ترتيب المدارك ٦٣٨/٤-٦٣٩، والخلاصة السواء ٢٠١/١، ٢٠٣، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ٣٤٧/١).

(٩) حذوة المغتصب ١٣١/١، والمحب ٣٨.

(١٠) طبقات الأمم ٦٦-٦٧، والبيان ٢٩٢/٢-٢٩٣، وتاريخ الإسلام ٢٧/٢٩١، والنفع ٢٢١/١.

السبغدادى (صاعد بن الحسن)، وأكرم نزله، وأحسن استقباله، وأحدث بالأندلس رواجاً علمياً كبيراً، ومناقشات حامية مع علمائها^(١).

على الرغم من العداء السياسى بين العبيدين في مصر والأمويين بالأندلس إلا أن الصلات الثقافية بين البلدين لم تنقطع لا قبل العبيدين ولا في عصرهم؛ مما يدل على عمق الصلات بين شعوب المشرق والمغرب^(٢). وتفيد النصوص الموجودة في كتب التراجم وغيرها وجود رحلات محدثين^(٣)، ومؤرخين^(٤)، ولغويين^(٥)، وفقهاء^(٦) أندلسيين إلى مصر. ولم أعثر على ما يفيد وجود علماء مصريين بالأندلس؛ مما يدل على أن مصر كانت لا تزال كعبة القُصّاد، وموئل طلاب العلم، بينما كانت تستكمل الأندلس أدوات الاستقلال العلمى، الذى تحقق - بالفعل - في مجال التاريخ، كما سنرى بعد ذلك.

ثانياً - من حيث الظواهر الثقافية في ذلك العصر:

في الوقت الذى كانت مصر فيه قبلة طلاب العلم الأندلسيين في رحلاتهم إلى المشرق، وعند أداء فريضة الحج، استمرت بلاد الأندلس تنظر إلى المشرق على أنه المثل الأعلى الذى يُحْتَذَى في مختلف العلوم. وفي الوقت الذى لم تُقبَل فيه العلوم العقلية والفلسفة في الأندلس، كانت مصر تفتح ذراعيها لمختلف التيارات الفكرية^(٧).

وفي الوقت الذى كانت الثقافة الدينية الفقهية المالكية بالذات هي محور اهتمام الأندلسيين، وكان أتباع المذهب الشافعى، والظاهرى محدودين، ولم يجد المذهب الحنفى رواجاً هناك^(٨)، كانت مصر أرحب أفقاً، فاحتضنت كافة المذاهب الفقهية، بل واجه علماءها المذهب الشيعى الإسماعيلى؛ بدليل عدم اندثار السنة.

(١) أخباره في: الجذرة ١/٣٧٣-٣٧٩، والصلة ١/٢٣٢-٢٣٣، والبغية ٣١٩-٣٢٣، وتكملة الصلة (ط. مدريد) ص ٢٨٤، ووفيات الأعيان ٢/٤٨٨-٤٨٩، والنفع ٣/٧٥-٩٨.

(٢) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمى، الدوميلنى (مترجم) ص ٣٣٧-٣٣٨.

(٣) راجع أخبار رحلة (خلف بن قاسم بن سهل - ويقال: سهلون - بن محمد الدبّاغ القرطبى (ت ٣٩٣هـ) إلى مصر في: الجذوة ١/٣٢٩-٣٢٩، وبيعة الطلب ٦/٣٣٤٧-٣٣٤٧، وتاريخ الإسلام ٢٨/٢٨٥، والديباج ١/٣٥٥. وذكره د. محمد عيسى الخربى في بحث: (دراسة عن بعض علماء الأندلس في مصر) في مجلة (ندوة التاريخ) مجلد ٢/ ١٩٨٢ ص ٢١٢-٢١٣، لكنه ذكر أن اسمه (سهلون بن محمد)، وهو غير صحيح.

(٤) راجع نماذج ذلك في: تكملة الصلة: (ط. الحسينى): ١/١٣-١٤، ٢٠٦.

(٥) تاريخ الإسلام ٢٧/١٩٧-١٩٨، وتذكرة الحفاظ ج ٣ من مج ٢ ص ٨٦٩-٨٧٠.

(٦) ترتيب المدارك مج ٢ ج ٣ ص ٣٠٠، والنفع ٢/٦٣٣.

(٧) ومنها: المعتزلة؛ بدليل وجود (سبويه المصرى المعتزلى) ت ٣٥٨هـ، الذى سندرس سيرته، إن شاء الله.

(٨) تاريخ الفكر الأندلسى، بالنشأ (مترجم) ص ٤٣٩-٤٤١، و (في تاريخ المغرب والأندلس) ص ١٢١-١٢٤، والتربية الإسلامية في المغرب د. محمد عادل عبد العزيز ص ٩١-٩٢، وظهر الإسلام ٣/٢٩-٣٠، و (ان حزم

وجوهده في البحث التاريخى والحضارى) ص ٨٥-٨٧، ٨٩.

ثالثاً، وأخيراً - دور المجتمع ونصيبه من الحركة الثقافية:

من المعلوم أن المجتمع يتأثر بالوضع الثقافي بعد أن يسهم في تشكيله وتكوينه والتأثير فيه^(١). فالثقافة تأخذ من المجتمع وتعطيه. فعناصر المجتمع وأفراده يشتركون في صياغة ثقافته ولغزته الفكرية، ثم تنعكس هذه النهضة ثانية على أفراد هذا المجتمع وعقول أبنائه وسلوكياتهم.

والحق أن الحكام الواعين المثقفين والعلماء الناهجين، هم الذين حملوا لواء النهضة العلمية في مصر والأندلس في تلك الفترة، لكن حكام الأندلس كانوا أعظم دوراً وأكبر أثراً، والثقافة العلماء والشعب حولهم كان عظيمًا؛ نتيجة الالتحام والاتفاق الفكري والمذهبي بينهم، بينما كانت الفجوة واقعة في مصر، ولم يكن الالتفاف والتوحد قائماً.

ولولا جهود علماء أهل السنة والثقافة بعض الناس حولهم، لا غارت تلك العلوم تحت تأثير ضغوط العبيدين، وما وجدنا المساجد عامرة بالمصلين، والمتلقين للعلوم^(٢). وخطي الفقهاء والمؤرخون وغيرهم من أهل العلم بمكانة أسمى في الأندلس لدى الخلفاء وعوام الناس^(٣) بدرجة لم ترق إليها مكانة الفقهاء وعلماء السنة في مصر، خاصة العصر العبيدي.

كان انعكاس النهضة الثقافية على الشعب الأندلسي الطموح الجاد العامل ذى العقل المنفتح الواعي^(٤) أكثر وضوحاً وبروزاً عنه في مصر. لقد اهتم خلفاء بني أمية بنشر الفقه المالكي بين الناس حتى في أسواقهم^(٥)، وأدى الفقهاء دورهم كاملاً، حتى إنهم كانوا يقرئونه في حوانيتهم^(٦)، ناهيك عن مجالس العلم في المساجد العامرة هنا وهناك. وتلك ظاهرة لم نلمسها بهذه الدرجة في مصر، وانعكست الثقافة وحب العلم على عوام الناس في الأندلس، فألفينا ظاهرة (المؤدّين) شائعة في الأندلس في كافة طبقات المجتمع على مستوى الأمراء والعوام في

(١) فمثلاً: أثر حب المصريين للثروة، والخروج إلى الرياض، وحب الطبيعة والتبيل، أثر في موضوعات (الأدب)، وهو مُكوّن من مكونات الثقافة، فكثير شعر وصف الطبيعة في مصر. (شعر الطبيعة في الأدب المصري)، لعوض الغباري ص ١١، ٣٢.

(٢) أحسن التقاسيم، للمقدسي ص ١٦٨-١٦٩، ١٧٤.

(٣) ترتيب المدارك ٤/٢-٤٢٤-٤٢٩، والنفع ١/٣٧٧-٣٧٩.

(٤) حول صفات الأندلسيين وعقليتهم وحبهم العلم، والرد على ابن حوقل وما أثاره عن ضعف عقولهم في (صورة الأرض ص ١٠٤-١٠٥)، راجع: إنباه الرواه ٣/٣٦٢-٣٦٣، والنفع ١/٢٢٠-٢٢١، ٣/١٥٠-١٥٢، ١٥٥-١٥٥، (شيوخ العصر)، د. مؤنس ص ٦١، وبخت عنان: (جغرافية الأندلس) ص ٤٧ (مجلة الأبحاث المغربية) ١٩٥٩م.

(٥) راجع دور مفتي السوق وأهميته، ونماذج ذلك في: تاريخ العلماء لابن الغرضي ١/٣٥٦، ٢/٤٩، والقضاء والقضاء بالأندلس د. السيد محمد داود ص ١٧٠.

(٦) كان الفقيه (إسحاق بن إبراهيم الطليطلي) يقرئ الفقه في حانوت أحد الفقهاء بسوق الكتاب بقرطبة (تاريخ الإسلام) ٦٩/٢٦ (وفيات) ٣٥٢هـ).

آن^(١). وانتقل حرص اقتناء الكتب، والشغف بتكوين المكتبات من الحكام إلى العلماء وطلاب العلم، وطبقات الشعب: أغنيائهم ومتواضعيهم، فشااع العلم في المجتمع ككل^(٢)، وهو ما لم نلمسه في مصر، بل لمسنا ضده من الجهل والغباء، راح ضحيتها العلماء^(٣). ولم يكن العلم حكرًا على الرجال، بل شاركت فيه فُصُليات النساء في الأندلس^(٤)، بينما لمسنا مثلاً نادراً لإسهام المرأة العلمي في العصر الإخشيدى^(٥)، واقتصدناه تماماً في العصر العبيدي، بعدما فرض على المرأة من قيود وأغلال^(٦). وبعدُ، فهذا نحن قد عرضنا للنواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري، وتبين لنا: أن الاستقرار السياسي يُفضي إلى نمو اقتصادي، وأن رخاء الشعوب أساس لاستقرار الحكم^(٧)، وأن الاستبداد السياسي يؤدي إلى التحلل الاجتماعي والمفاسد والنفاق في المجتمع^(٨)، وأن اللهو والترف والسرف يؤدي إلى مفاسد خلقية واجتماعية خطيرة، وأن عناية الحكام بالعلم، ونشاط وإخلاص العلماء في توصيله إلى الناس يُحبب العلم إلى الشعب، وأن الثقافة تتأثر بالأوضاع القائمة، وتؤثر في جموع الناس.

ونتساءل أين يقف مؤرخو البلدين من هذه الظروف التي عرضناها، وما مدى تأثيرها فيهم، وفي مؤلفاتهم؟ وما مدى اضطلاعهم بمسؤولياتهم تجاه مجتمعهم والأجيال من بعدهم؟ ذلك ما نحبب عنه - تفصيلاً - في أبواب الكتاب التالية، والتي تبدأ بـ (كتب السير التاريخية)، أقدم اتجاهات التأليف التاريخي في ذلك القرن، وأقرها تعبيراً عن علاقة الشعب بحكامه، وقادته، وعلمائه.

(١) المقنيس (ط. الحجي) ص ٢١٦، وتكملة الصلة (ط. الحسيني) ٢٠٥/١، وشمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكه (مترجم) ص ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) التربية الإسلامية، ريمو (ترجمة: د. الطاهر مكي) ص ٢١٠-٢١٢، وبحث (مكتبة الأميين الإسلامية في قرطبة) د. زغروت ص ٣٣٥، وبعدها (مجلة البحوث الإسلامية بالرياض) ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ.

(٣) نسب جهل بعض عوام مصر في غرق أبي جعفر الثَّحَّاس اللغوي المشهور، إذ رآه أحد العوام يُفْطَحُ آيَاتاً من الشعر عروضاً عند شاطئ النيل، فظنه يسحره؛ لتخفيض مياهه، فقتله في النيل. (وفيات الأعيان ١٠٠/١)، والبداية والنهاية ٢٣٦/١١، والمقفى ٧١٥/١.

(٤) تراجم هؤلاء النسوة الكتابات النحويات الشواعر في: البقية ٥٤٦-٥٤٧، وتكملة الصلة (ط. مدريد) ص ٤٠٢-٤٠٤، والتربية الإسلامية، ريمو (مترجم) ص ٢٠٣-٢٠٥.

(٥) وهي فاطمة بنت الرهان المستملي، التي كانت تروى في دارها حديثاً للرسول روته عن الربيع المرادي صاحب الشافعي في مصر، شهر شوال ٣٤٢هـ. (الاستذكار ١/٢٣٤).

(٦) وذلك بمنعها من الخروج في عهد الحاكم.

(٧) معالم تاريخ المغرب والأندلس: ص ٢٨٤.

(٨) راجع مظاهر التحلل الاجتماعي، وفساد الناس، وشيوع الحقد والحسد والنفاق في عهد العامين، في: (المعجب ص ٣٨-٣٩، والأدب الأندلسي د. هبكل ص ٢٦٨، وبعدها).

القسم الثاني

الدراسة المنهجية للمصادر التاريخية

الباب الأول

مؤرخو السَّير التاريخية

يشمل هذا الباب الفصول الآتية:

- الفصل الأول - المؤرخان المصريان: ابن الداية، والبلوى.
- الفصل الثاني - سيرة أحمد بن طولون: نقد، وتحليل.
- الفصل الثالث - ابن زولاق مؤرخ سيرة الإخشيد، وصاحب (أخبار سبيويه المصرى).
- الفصل الرابع والأخير - من السير التاريخية المفقودة.
- ملاحظات عامة (خاتمة): بين مؤرخى السير المصريين، والأندلسيين.

مدخل

إذا كان هذا الكتاب يتناول الكتابات التاريخية المحلية^(١) في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري؛ فإن هذه الكتابات اتخذت عدة ألوان، وارتضى أصحابها من المؤرخين مناهج شتى في التأليف التاريخي.

وقد اختص هذا الباب بدراسة الاتجاه الأول من اتجاهات التأريخ في هذا القرن، ألا وهو (كتابة السير التاريخية). وهذا الاتجاه - في نظري - يعد أقدم ألوان التأليف التاريخي في هذا القرن^(٢)، وهو مرتبط بدافع الإعجاب، الذي يملك بعض المؤرخين سير ومناقب بعض الحكام، فيسطرون بأقلامهم مراحل حياتهم، وأهم منجزاتهم. ولا شك أن في ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة، أهمها: أنه إذا ذكرت سيرة حازم، ووصفت عاقبة أمره، علمنا بما فيها، وتعلمنا حسن التدبير، واستعمال الحزم في الأمور. وإن ذكرت سيرة مفرط، ورأينا سوء منقلبه، اعتبرنا بحاله، فتأدب المتسلطون، واعتبر المذكرون. وكذلك تطالعنا كتب السير والتواريخ بعجائب الأمور، وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، فيحتاط الإنسان لنفسه ويكون على حذر^(٣).

هذا، وقد رأيت بعد البحث والتحرى - أن مؤرخي مصر قد بهرتهم شخصية (أحمد بن طولون)، فذوّتوا سيرته، وذلك فيما كتبه كل من: ابن الداية، والبُلُوّي، على اختلاف بينهما إيجازاً وتفصيلاً. وقد انتقيت لدراستهما منهجاً غير تقليدي يتوافق مع توحيد الموضوع، الذي

(١) يرجع ظهور هذه النوعية من الكتابات التاريخية إلى ظهور الروح الاستقلالية وتناميها، ومحاولة جعل الصلة بالخلافة مقصورة على الناحية الشكلية والسلطة الروحية فحسب. ومن هنا ظهرت في مصر (الدولة الطولونية)، و(الدولة الإخشيدية)؛ استغلاً لضعف الخلافة، ورغبة في تحقيق أقصى درجات الاستفادة من خيرات مصر وثرواتها، ومن هنا ظهر مؤرخون مصريون اهتموا ببلدهم، وسجلوا تاريخه من مختلف نواحيه: (سير حكامه، وتراجم علمائه، ونظمه وحضارته، وأبرز أحواله). والشئ نفسه - وأكثر منه - وقع في بلاد الأندلس، التي قامت فيها إمارة تحولت إلى خلافة أموية مستقلة كل الاستقلال عن العباسيين في المشرق. (راجع عوامل ظهور التواريخ المحلية في: علم التاريخ عند المسلمين، لروزنال (مترجم، ط. مؤسسة الرسالة) ص ٢٠٦. وبعدها، والتاريخ العربي والمؤرخين ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩، ٣٥٥ - ٣٥٦، ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٢) حول تطور هذا اللون منذ كتابة سيرة الرسول ﷺ، وتنوع موضوعاته، راجع: كتابي (التاريخ العربي والمؤرخين ١/ ٣٦٥، ٣٦٧، وبحوث في الأدب العباسي، د. شعبان مرسى ص ٨).

(٣) المنتظم، لابن الجوزي (ط. دار الكتب العلمية)، مقدمة المؤلف ١/ ١١٧، والإعلان بالتوبيخ للسخاوي (ط. مؤسسة الرسالة، نفس مجلد كتاب روزنال) ص ٤١٢، والمؤنس ص ٤.

كتب فيه كلاهما. فبدأت بالترجمة لهما، وقمت بدراسة منهجيهما معاً في إطار مقارن، مبيناً قبل ذلك محتوى سيرتهما، ناقداً إياهما نقداً خارجياً (بذكر مواردهما)، وآخر داخلياً (بوضع بعض الأحداث في ميزان النقد التاريخي).

ولم تكن سيرة (ابن طولون) هي الوحيدة، التي لفتت أنظار مؤرخي مصر في تلك الحقبة، وإنما شغلت المؤرخ ابن زولاق - ضمن ما شغله من سير تاريخية - سيرة (الإخشيد)، فكان لزاماً علينا أن نتصدى بالدرس والفحص هذه السيرة على النحو، الذي اختططناه لأنفسنا وأشرنا إليه قبلاً.

وقد واصل المؤرخ اللاحق ابن زولاق اهتمامه بكتابة السير التاريخية، فسجل لنا سيرة إحدى الأسر عراقية الأصل، ذات المكانة البارزة في عالم المال والاقتصاد، وإدارة شئون البلاد في مصر عبر فترات طويلة من تاريخها. وقد فقدت - للأسف - هذه السيرة (سيرة المادرائيين)، ونحاول - في ضوء ما بقي منها في ثنايا المصادر - إعطاء ملاحظات منهجية عامة عليها.

لم يقف اهتمام المؤرخ البارع ابن زولاق المصري عند حد كتابة (سير الحكام)^(١)، بل كتب - أيضاً - سيرة أحد العلماء المبرزين في عصره في مجال النحو والكلام، فخلف لنا عنه كتاب: (أخبار سيويه المصري)، الذي حظي منا بدراسة، تتناسب مع حجمه، وموضوعه، وطبيعة شخصية صاحبه، وما تثيره تصرفاته من مدلولات عميقة، تغيد في تعرف حقيقة بعض ما يدور في ذلك العصر.

وأخيراً، فقد ألقينا بعض الضوء على ما ذكرته بعض المصادر عن أسماء بعض كتب (السير التاريخية) بالأندلس، وحاولنا الكشف عن بعض الأسباب، التي أودت بهذه الكتب، سواء من حيث ظروف الفتنة، التي تعرضت لها بلاد الأندلس آخر القرن الرابع الهجري، أم من حيث طبيعة الشعب الأندلسي المغيرة لطبيعة الشعب المصري.

* * * *

(١) أكتفى في هذا المدخل بإشارات سريعة إلى بعض ما يتخبره هذا الفصل، وإلا فإن زولاق له في مجال السير كتب أخرى عديدة مفقودة، توجد بعض بقاياها في المصادر المتأخرة، مثل: (سيرة المزدلين الله)، و(سيرة جهر).

الفصل الأول

المؤرخان المصريان: ابن الداية، والبلوى أولاً - كتب السير التاريخية في مصر

تقديم:

قبل الدراسة التحليلية لكتب السير التاريخية، نحاول أن نترجم ترجمة وافية لأول مؤلفي هذا الاتجاه التاريخي: (أحمد بن يوسف بن الداية)، بحيث تعيننا هذه الترجمة على تفهم شخصيته، ومعالم حياته، وثقافته، وأهم المؤثرات التي جعلت منه مؤرخاً مصرياً قديماً، ندين له بمعرفة سيرة مؤسس الدولة الطولونية.

ولما كان أحمد بن يوسف قد نشأ في ظلال أسرة عربية مثقفة، وجب أن نترجم لهذه الأسرة (خاصة والده يوسف) بالقدر الوافي^(١)، الذي يسلط الأضواء على البيئة الثقافية، التي رضع لبانها الكاتب والمؤرخ ابن الداية.

تعريف عام بأسرته:

أولاً - جدته:

كانت أم (يوسف بن إبراهيم) تعمل داية^(٢) في قصور خلفاء العباسيين. ويبدو أن طبيعة ذلك العمل لم تكن مقصورة على ما يُفهم منها اليوم (قابلة تقوم بتوليد الحوامل)، بل كان يتعدى ذلك إلى القيام بإرضاع هذا النبت الجديد، كنوع من الترف الذي تعيشه نساء القصور في ذلك الزمان. وينضاف إلى ذلك القيام على شأن الصغير ورعايته بديناً ونفسياً وتربوياً، حتى مرحلة سنّية معينة، بعدها يُحضر له الخليفة المؤدين، الذين يعدونه فكراً وثقافة وخلقاً لمهام الخلافة من بعد، خاصة إذا ظهرت عليه مخايل النجاح، وسمات القيادة التي تؤهله لولاية العهد.

(١) ولست مبتدعاً في ذلك، فقد سبق الدكتور محمود مكي إلى الإطالة في الترجمة لـ (حلف بن حسين) والد المؤرخ الأندلسي ابن حيّان عند الترجمة للمؤرخ نفسه؛ نظراً لتأثيره الكبير فيه، وكونه من أهم مصادره التاريخية. (مقدمة المحقق لكتاب المقتبس ص ٨-١٩).

(٢) وفي معاجم اللغة بدور معنى الداية، والظفر حول المرأة التي ترضع ولد غيرها. ويضاف إلى الداية معنى القابلة، والمخاضة. (لسان العرب مادة: (ظ.أ.ر.) ح ٤ ص ٢٧٤١-٢٧٤٢، والقاموس المحيط، باب الرء فصل الظاء ٢ ٧٩/، والمعجم الوسيط مادة: (د.و.ي.) ح ١ ص ٣١٦، ومادة: (ظ.أ.ر.) ح ٢ ص ٥٩٦).

ونحن لا ندرى شيئاً عن اسم هذه الجدة، فقد اكتفت المصادر بذكر وظيفتها، ولعلها من الجوارى اللاتي برعن في ذلك المجال، وحققن نجاحاً ملحوظاً فيه، حاز إعجاب أهل القصر، فعُهد إليها برعاية الأمير العباسي (إبراهيم بن المهدي)^(١).

والظاهر أنها نجحت في تلك المهمة، فكُلِّفَتْها ماردة^(٢) أم محمد بن الرشيد (الخليفة المعتصم بعد ذلك) بإرضاع ابنها هذا. وكانت هذه الداية قد رُزقت - غالباً - قبيل مولد الأمير محمد ابن الرشيد بابنها يوسف، فأرضعتها معاً، فلُقِّب ابن الداية بسـ (رضيع المعتصم)^(٣). ويترجح لدى ولادتها سنة ١٤٧هـ، ووفاتها ٢٢٤هـ^(٤).

ثانياً - جده:

ليست لدينا معلومات كافية عن جدّ (أحمد بن يوسف)، حتى إننا لا نعرف نسبه كاملاً، وكل ما نعرفه أن اسمه (إبراهيم). ويبدو أنه كان من موالى بني العباس؛ فقد ظل ابنه يوسف (والد أحمد) يقال له: يوسف مولى إبراهيم بن المهدي^(٥). وقد وردت نصوص تفيد تمتع هذا الجد بمكانة طيبة في ظل رجال الحكم بالخلافة العباسية، فقد حظى بثقة رجال ونساء القصر، فزوّجوه دايتهم الكفاء^(٦). وكان يقيم في سامرا بالعراق^(٧)، وهي مدينة أقامها المعتصم لقواده، وكبار رجال جيشه الأتراك، وجنده. فإقامته في عاصمة المعتصم دليل على مكانته وعظيم صلته بمؤلاء القادة والأمراء. ويضاف إلى ذلك ما كان يتمتع به من ثراء، حتى إنه كان له طبيب خاص يخدمه، ويقوم على علاجه^(٨). هذا، وقد حلت المصادر من ذكر طبيعة عمله، وثقافته، وتاريخ مولده، ووفاته.

(١) ولد غرة ذي القعدة سنة ١٦٢هـ، وتوفي - على الأرجح - ٩ من رمضان ٢٢٤هـ. (تاريخ بغداد ١٤٣/٦، ووفيات الأعيان ٤١/١).

(٢) هي إحدى جوارى الرشيد، وكان يهواها هوى شديداً؛ إذ كانت أحظى الناس عنده. وتعد من مؤلّفات الكوفة، وكانت أم ولد الرشيد، وأنجبت له أولاداً عديدين، منهم: المعتصم. (تاريخ الطبري ١٢٣/٩، والكامل ٧١/٦).

(٣) المكافأة (ط. أحمد أمين) لابن الداية ص ٢٠٤، ومعجم الأدباء ١٥٩/٥، والواق ٢٨٢/٨، وكوز الأجداد ص ١٢٥، ومقال كرد علي في مجلة الرسالة، العدد ٢١٨ ص ١٤٥١.

(٤) وهو يتوافق مع تاريخ ميلاد ابن المهدي (١٦٢هـ) الذي أرضعته، ومع رحيل ابنها يوسف من العراق إلى الشام بعد وفاة ابن المهدي، إذ انقطعت أخبارها تماماً.

(٥) تاريخ الحكماء، للقفطي ص ١٣٥.

(٦) رسالة ماجستير سيد محمد قطب: (أحمد بن يوسف المصري، وكتابه: المكافأة) ص ٣.

(٧) كان أبو مزاحم بن خاقان يسكن في الحارة التي بها دار إبراهيم، ثم ابنه يوسف من بعده بسـ (سَرَّ مَنْ رَأَى). (المكافأة، ط. أحمد أمين) ص ١٩٢، و(مختصر تاريخ دمشق، لابن مطور) ٦٨/٢٨.

(٨) هو الطبيب (سعيد بن توبل) الذي كان يخدم إبراهيم، وأخاه قله، وذلك قبل أن ينتقل لخدمة الأمير أحمد بن طولون. (سيرة أحمد بن طولون) للبلوي ص ٣١٩.

ثالثاً - والده(*) :

هو أبو الحسن يوسف بن إبراهيم البغدادي^(١) الدمشقي^(٢) المصري^(٣)، المعروف بـ (ابن الداية)^(٤).

(١) مولده:

سكنت المصادر عن ذكر تاريخ ميلاد يوسف. وقد حاولت استنتاج ذلك التاريخ بالتقريب من خلال ما قيل عن أخوة يوسف للمعتصم من الرضاع. ولما كان المعتصم ولد - على الراجح - آخر سنة ١٧٩هـ^(٥)، واجتمع مع يوسف على ثدى واحد، فالطبيعي أن يكون يوسف أسبق مولداً من المعتصم بقليل. وأعتقد أنه أكبر منه بحوالى شهرين، وهما كافيان لاسترداد أم يوسف عافيتها وصحتها؛ كى تنهض بالعبء الجديد المتمثل في رعاية شئون الأمير الصغير (محمد بن الرشيد). وعلى هذا، فإنى أرجح ميلاد يوسف آخر شوال سنة ١٧٩هـ.

(٢) نشأة يوسف وتكوينه:

عرفنا - فيما مضى - أن أمه كانت من ذابات القصور، وكان لها دور بارز خاصة عصر الرشيد، وقامت بإرضاع (إبراهيم بن المهدي)، و(محمد بن الرشيد). ولا شك أن يوسف نشأ مع أمه في أجواء القصور، فكان لذلك أثره في تنشئته وفكره وعلمه وخلقه، فهو ربيب القصور،

(*) ترجم له: معجم الأدباء ١٥٤/٥، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ٦٨/٢٨، والوفاء بالوفيات ٢٨٢/٨، وكشف الظنون ٢٥/١، ٣٠، وهدية العارفين، لإسماعيل البغدادي ٥٤٩/٢، ومعجم المؤلفين لكحالة (ط. مؤسسة الرسالة) ج ٤ - ١٣٩ - ١٤٠، وريحانة الأدب، لمحمد علي مدرس ٥١٤/٧، والأعلام للزركلي ٢١٢/٨، وتاريخ التراث العربي لسزكين ٦٠٣/١، وكنوز الأجداد، لمحمد كرد علي ص ١٢٥.

(١) نسبة إلى بغداد التي يترجح مولده بها، ونشأته في قصور خلفائها. (معجم الأدباء ١٥٥/٥، ومقدمة محقق (المكافأة) - ط. ١٩١٤م - لأمين عبد العزيز، صفحة يد).

(٢) نسبة إلى دمشق، باعتبارها البلد الذي هاجر إليه بعد وفاة مولاه (إبراهيم بن المهدي)، ومولاه (أبي دلف العجلي)، فقدمها سنة ٢٢٥هـ، كما سنرى بعد ذلك.

(٣) غلبت نسبه إلى مصر عليه، وبما عُرف؛ لأنه لم يظل مقامه بدمشق، إذ سرعان ما رحل إلى مصر، حيث استقر بها فترة طويلة، حتى وفاته، كما سنذكر فيما بعد.

(٤) قال ياقوت: كان يوسف ولداً داية ابن المهدي، وأظن أن المعروف بـ (ابن الداية) هو يوسف. (معجم الأدباء ٥/ ١٥٤). والحق أن هذا كلام صحيح، لكن لا بأس أن يطلق على ابنه (أحمد) على سبيل التجوز، مع وضع قرينة في السياق، تبين المقصود منه (الأب، أو الابن).

(٥) احترت هذا التاريخ من بين عدة تواريخ محتملة ما بين ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠هـ ذكرتها بعض المصادر (تاريخ الطبري ١١٩/٩، والكامل ٧٠/٦، وتسايرب الخلفاء ٣٧٧). وساعد على هذا الاختيار عدة أمور: عبارة مشهورة صحيحة تنقّب المعتصم بـ (المشئ)، ومبلغ عمره لما حضرته الوفاة بما يتوافق مع هذه العبارة، ومدة خلافته أيضاً. (راجع: الأحبار الطوال ص ٤٠٦، وتاريخ الطبري ٦٦٧/٨، ١١٨/٩ - ١١٩، والتنبية والإشراف ص ٣٠٧، والبداية والنهاية ٣٠٨/١٠، وتاريخ الخلفاء ٣٧٧ - ٣٧٨).

ورضيع الأمراء، وقرين أولاد الخليفة الرشيد، فلم يكن يعيش عيشة العوام من الناس، ولا الخاملين الهسابلين من الخدم، وإنما رُبِّي تربية كريمة، ونُشِئ تنشئة عالية من خلال أمه مربية الأمراء، ومُعَدَّة الخلفاء. أضف إلى ذلك مجالسة الأدباء والشعراء، والخدم، والأطباء، والمنجمين، والمترجمين، والأخباريين، الذين كانت تعمر بهم قصور الخلفاء، مما سنذكر طرفاً منه عند تناول ثقافته.

(٣) زوجه، وأولاده:

تزوج يوسف بن إبراهيم بامرأة تنتمي إليها إلى نفس مهنة أمه؛ دلالة اعترازه بعملها. ولا ريب، أن تلك الوظيفة كانت تمثل مستوى اجتماعياً محترماً، ويتعامل أصحابها مع عليّة القوم في القصور. لقد اقترن بابتة المرأة التي رُبَّت مزاحم بن خاقان، وذلك ببغداد^(١) في تاريخ لا نعلمه تحديداً، وإن كنا نرى عدم تأخره عن أواخر القرن الثاني الهجري، بما يتمشى مع سن الزواج للمبكر آنذاك. وقد كان هذا الزواج الذي أدى إلى الارتباط بمزاحم بن خاقان سبباً في إنقاذ حياة يوسف ابن إبراهيم في مصر بعد ذلك، كما سنرى فيما بعد.

هذا، وقد أثمر هذا الزواج - فيما يبدو - ثلاثة أبناء: الحسن، ويعقوب، وأحمد^(٢) (مؤرخنا). والراجع أن يوسف اصطحب أسرته معه للإقامة الدائمة في مصر، وكانت بصحبته حماته (والدة زوجته، و جدة أولاده)^(٣).

(٤) مصادر ثقافته، ومكانته:

أ- صلاته بعلماء عصره (أساتذته):

ساعدت حياة (يوسف بن إبراهيم) مع أمه في قصور الخلفاء على الاندماج مع العلماء، والانغماس في مجالسهم. فمن طريق شِكْلة أم (إبراهيم بن المهدي)^(٤) عرف كثيراً من أخبار الخلفاء

(١) لا نعرف اسم زوجة (يوسف بن إبراهيم)، فقد ستر ابنه أحمد اسم أمه، واكتفى - فيما ينقله عن أبيه - بذكر اسم أمها (جدته لأمه)، فهي (ميمونة مولاة أم محمد بنت الرشيد). (المكافأة، ط. أحمد أمين) ص ١٩٢-١٩٣. وقد حاولت تعرف اسم هذه الزوجة من خلال البحث في أسماء بنات هارون الرشيد، فعرفت أن أم محمد هذه تسمى (حمودة)، وأن أمها كانت من أمهات الأولاد، لكن لم يذكر شيء عن مولاتها ميمونة (داية مزاحم بن خاقان، وحماة يوسف بن إبراهيم)، ولا ابنتها (زوج يوسف). (تاريخ الطبري ٣٦٠/٨، والكمال ٣٥٦/٥، والبداية والنهاية ٢٣٢/١٠). وجددير بالذكر أن الرشيد لما أفضت إليه الخلافة (١٧٠هـ-)، زوّج حمودة من (جعفر بن موسى الهادي)، كما وعد قبلاً. (تاريخ الطبري ٢١٢/٨).

(٢) وردت ليوسف كنيان: أبو يعقوب (معجم الأدباء ١٥٤/٥، ١٥٩)، وأبو الحسن (المصدر السابق ١٥٥/٥)، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٤٧٥، وغيرها). ولا ندرى عنهما شيئاً، بينما عُرف واشتهر ابنه أحمد بن يوسف المؤرخ المصري، الذي يبدو أنه أصغر أولاده.

(٣) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ١٩٣.

(٤) تراجع ترجمته، وترجمة والدته في: الأغان ٩٥/١٠-٩٦، ١٨٤ وما بعدها، وتاريخ بغداد ١٤٣/٦-١٤٨، ووفيات الأعيان ٣٩/١-٤٢، وإسحاق الموصلي الموسيقار الدم، للدكتور الحفني ص ٩٦.

وأحداث التاريخ. وكانت ملازمته (إبراهيم بن المهدي) قد جعلته في خضم الأحداث، ونقل عنه كثيراً من الروايات^(١). وعرف يوسف حاشية الخلفاء واتصل بهم، وروى عنهم، وكان يحضر مجالسهم. ومن هؤلاء: فرخ الخادم (أبو خراسان مولى صالح بن الرشيد)^(٢)، وسليمان الخادم الخراساني مولى الرشيد^(٣)، أحمد بن رشيد الكاتب مولى سلام الأبرش خادم المهدي^(٤) العباس بن علي بن المهدي الأمير^(٥). وله صلات بالأطباء والمتكلمين والفلاسفة في مجلس (يوحنا بن ماسويه)^(٦) وبلنجنين، مثل: (إسماعيل بن أبي سهل بن ثوبخت)^(٧) وبلنجنين، مثل: (حنين بن إسحاق)^(٨).

وهكذا، عاصر يوسف بن إبراهيم عهود الرشيد، والمأمون، والمعتصم الزاهرة، وتلقى على أعلام المفكرين؛ مما كان له أثره الكبير في ثقافته، ومولفاته.

ب- علاقاته الوطيدة برجال عصره:

١- علاقته بالأمير العباسي (إبراهيم بن المهدي):

كان يوسف بن إبراهيم لصيقاً بهذا الأمير، ملازماً له، منذ حداثة سنه، حتى لقّب بـ (مولى إبراهيم بن المهدي)^(٩)، و(خادمه)^(١٠)، و(كاتبه)^(١١). وهذا يعني عظيم تأثيره به، ومعرفة أخباره وأحواله وعلومه، عبر مراحل حياته حتى وفاته. وبذا تكون أم يوسف خدمت الأمير ابن المهدي صغيراً، وخدمه ابنها يوسف كبيراً.

هذا، وقد مر إبراهيم بن المهدي في حياته بأربع مراحل:

أ- المرحلة الأولى (مرحلة ما قبل توليه الخلافة ١٦٢ - ٢٠٢ هـ):

وقد اتسمت هذه المرحلة بظهور مواهب ابن المهدي في عالم الفصاحة والبيان والشعر، إلى جانب موهبة الغناء وحب الموسيقى، فبرع في ذلك كله، وعاش حياة الترف واللمه. ومجالس غنائه وتلحينه تشهد بذلك^(١٢). وولى ابن المهدي بعض المناصب في هذه المرحلة^(١٣)، وشهد

(١) طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة ص ١٩٤، ٢١٨ - ٢١٩، وغيرها.

(٢) السابق: ١٩٥. (٣) السابق: ١٩١. (٤) معجم الأدباء ١٥٧/٥.

(٥) طبقات ابن أبي أصيبعة: ٢١٦. (٦) السابق: ٢٤٧. (٧) السابق: ٢١٩.

(٨) السابق: ٢٥٧ - ٢٥٩.

(٩) تاريخ الحكماء للنفطى: ٢٩١.

(١٠) معجم الأدباء ١٥٥/٥.

(١١) الروايات بالفوات ٢٨٢/٨.

(١٢) حول كل هذه المواهب راجع: تاريخ بغداد ١٤٧/٦، والأغانى ١٠١/٤ - ١٠٢، ١٧٢/٥، ٢٧٧، ٢٩٦، ٢٩٨، ١٧/١٠ - ٩٨/١٠١، ١٠٤ - ١٠٧، وغيرها، ومعجم الأدباء ١٢/٦ - ١٧، ١٣٧، وإسحاق

الموصلى للذكور الحنفى ص ١٠٤ - ١٠٧، ١١٣.

(١٣) ولى دمشق من ١٨٠ - ١٨٢ هـ، وعزل قليلاً، ثم أعيد في العام نفسه حتى ١٨٦ هـ، وتخلل ذلك إمارته للحج سنة ١٨٤ هـ. (تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٥٧، والبداية والنهاية ٣٠٣/١٠).

نكبة الغرامكة^(١)، وكذلك فتنة الأمين والمأمون^(٢). وأعتقد أن يوسف اتصل به في حوالى العقد الأخير من هذه المرحلة؛ مما ساعده على تسجيل حياة سيده، التي كانت مزيجاً من الفن والأدب والفكر، مع مشاركة واضحة في أحداث عصره.

ب- المرحلة الثانية (مرحلة توليه الخلافة ٢٠٢ - ٢٠٣ هـ):

هذه مرحلة مهمة - على قصرها^(٣) في حياة (إبراهيم بن المهدي)؛ نظراً للتجربة الجديدة التي خاضها خلالها، ولما نتج عنها من نتائج، طبعت حياته بطابع معين حتى وفاته. لقد حفلت هذه الفترة بالصراع والحروب، والثورات والفتن^(٤)، ولم يهنا فيها ابن المهدي يوماً واحداً، فقد تكالب عليه الأعراب الطامعون، واجند الثائرون لقلة المال، بينما عاث المفسدون واللصوص في الأرض فساداً^(٥)، فأقلت الزمام من بين يديه، وتفرق الناس عنه، وتركه مؤيدوه من بني هاشم واحداً بعد الآخر^(٦). أيقن ابن المهدي بزوال أمره، فأخذ يتحين الفرصة للنجاة بنفسه من الوقوع في أيدي رجال المأمون، وأفلح في الهرب والاختفاء عن العيون. وأعتقد أن (يوسف بن إبراهيم) عانى مثلما عانى سيده في هذه الفترة الكريهة إلى نفس كليهما؛ نظراً لخلوها من مجالس الأدب والعلم والفناء، وأرجح مصاحبتة إياه في الهرب من ساحة الحكم، والفرار من ميدان الصراع.

ج- المرحلة الثالثة (مرحلة الاختفاء ٢٠٣ - ٢١٠ هـ)^(٧):

فيها اختفى ابن المهدي تماماً عن عيون المأمون، الذين كانوا يقبضون عنه في كل مكان. وقد أفلق ذلك المأمون^(٨)؛ إذ يجد عمه وغريمه المنتزى على خلافته بعيداً عن متناول يده، بمنأى عن أن تناله يد العقوبة. وذلك يعنى عدم بسط هيبة الخلافة، ووجود من يؤيد ابن المهدي، ويؤويه بعيداً عن قبضة

(١) كانت سنة ١٨٧ هـ، وكان متعاطفاً معهم، راصداً تغيّر الرشيد نحوهم (تاريخ الطبري ٢٩١/٨ - ٢٩٢).

(٢) سنة ١٩٣ - ١٩٨ هـ، وكان مع الأمين، ثم انصرف عنه في النهاية، ورائاه بعد قتله. (السابق ٤٨٩/٨، ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٢٠ - ٥٢١، ٥٢٤، والأغان ١٢٠/١٠ - ١٢٢).

(٣) تبدأ هذه المرحلة بعد أن بايعه العباسيون بيعة خاصة يوم الثلاثاء ٢٥ من ذي الحجة ٢٠١ هـ، ثم بايعه أهل بغداد بيعة عامة أول المحرم سنة ٢٠٢ هـ (الكامل ٤٤١/٥)، ووفيات الأعيان ٣٩/١). ثم بدأت خلافته الفعلية يوم الجمعة ٥ من محرم ٢٠٢ هـ إلى ليلة الأربعاء ١٧ من ذي الحجة سنة ٢٠٣ هـ، فيكون قضى في منصبه سنة، وأحد عشر شهراً، واثني عشر يوماً. (تاريخ الطبري ٥٧٢/٨ - ٥٧٣، وتاريخ بغداد ١٤٣/٦، ووفيات الأعيان ٤٠/١).

(٤) تاريخ الطبري ٥٦٢/٨، ٥٦٤، والكامل ٤٤٣/٥ - ٤٤٤.

(٥) تاريخ الطبري ٥٥٧/٨، وتاريخ بغداد ١٤٤/٦.

(٦) تاريخ الطبري ٥٧٢/٨.

(٧) ظفر به المأمون لثلاث عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة ٢١٠ هـ، بعد فترة اختفاء، استمرت ست سنين وأربعة أشهر. (تاريخ بغداد ١٤٣/٦، وزاد عشرة أيام خطأ). وراجع خبر اختفائه في (تاريخ الطبري ٥٧١/٨ - ٥٧٢، والكامل ٤٥٠/٥).

(٨) كتاب بغداد، لطيفور ص ١١ - ١٢.

الشُرط وأنظار السلطة، متعاطفاً معه، غير هيّاب ولا وَّجِل. والحق أن ابن المهدي ومؤيديه - ومنهم: يوسف بن إبراهيم - نجحوا في القيام بعمليات التمويه، والتنقل من مكان إلى آخر طوال مدة الاستار الطويلة^(١). وكان يوسف - كما يحكي ابنه أحمد عنه - فيمن استر - مع ابن المهدي - من المأمون^(٢)، وشهد إحدى حيل المنجمين؛ لتضليل المأمون ورجاله، وإيهامهم أن ابن المهدي غادر بغداد، وركب بحر الهند، حتى أشيع ذلك بين الناس^(٣)، وأخيراً، تم الإيقاع بابن المهدي أثناء تنقله في إحدى المرات ليلاً، متنكراً في زي امرأة منتقبة تسير وسط امرأتين منتقبتين أخريين^(٤).

د - المرحلة الرابعة والأخيرة:

(مرحلة ما بعد عفو المأمون عن ابن المهدي ٢١٠ - ٢٢٤):

تعد هذه الفترة من أخصب فترات حياة ابن المهدي. فبعد أن ساعه المأمون وعفا عنه^(٥)، بعد ما تقدم إليه بأرق عبارات ومعاني الاعتذار والاستعطاف^(٦)، أقبل ابن المهدي على مجالس الأدب، والغناء والتلحين، ومختلف نواحي العلوم والثقافات والمعارف. لقد أراد ابن المهدي أن يطمئن المأمون من جهته، وأن يقنعه بابتعاده التام عن السياسة^(٧)، فبالغ في حضور مجالس الشراب والغناء، واكتفى بإشباع رغباته الفنية^(٨). وأعتقد أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن المهدي هي التي توطدت فيها صلاته بيوسف بن إبراهيم، واستفاد منه فيها يوسف أيما استفادة، فأرخ لحياته، وروى جُلّ مروياته، وعرف أدق خصوصياته، لاسيما بعد أن أضحى الكاتب الخاص لضياعه، والمشرف على شئونها^(٩) بعد أن ردها المأمون عليه، وكانت قد صودرت فترة

(١) السابق: ١٠٧.

(٢) وهذا ينقض استنتاج سيد محمد قطب في ماحسبته ص ٧، عندما ذكر أن يوسف لم يصحب ابن المهدي في اختفائه؛ بدليل مشاركته في مجالس الأدب والعلم سنة ٢٠٩ هـ (طقات ابن أبي أصيبعة ص ٢٢٩). والرد على ذلك أن يوسف لم يذكر أنه شهد ذلك المجلس بنفسه، فهو مما نقله عن بعض الرواة - وإن لم يحدددهم - ويحكي به بعض دُعابات الطبيب (سهل الكُوسج)، التي وقعت في السنة المذكورة.

(٣) مخطوط (تفسير كتاب الشرة لبطلميوس) لأحمد بن يوسف بن إبراهيم ص ٥٩.

(٤) حول الإيقاع به راجع: (كتاب بغداد لطيفور ص ١٠١، وتاريخ الطبري ٦٠٣/٨، والكمال ٤٧٥/٥ - ٤٧٦، والبداية والنهاية ٢٧٥/١٠ - ٢٧٦).

(٥) اختص المأمون عمه بالعفو رغم أنه "لا أرحام بين الملوك وبين أحد" (الوزراء والكُتاب، للجهتباري ص ١٨٧).

(٦) لعل هذه الكلمات الرقيقة المقررة بالذنب هي التي أثرت في قلب المأمون (راجع: بغداد، لطيفور ص ١٠١ - ١٠٤، ١٠٨، ١١٣، وتاريخ الطبري ٦٠٤/٨، والأغان ١١٨/١٠، والكمال ٤٧٦/٥ - ٤٧٨، والبداية والنهاية ٢٧٦/١٠).

(٧) وكان هذا - في الحقيقة - انسجاماً مع طبيعة ابن المهدي، الذي قال عن نفسه: إنه ذو رأي لغير، ضعيف الرأي في أمر نفسه. وعلل ذلك بأنه ينظر في أمر غيره بطباع سليمة مستقيمة، وينظر في أمر نفسه بطباع مائلة إلى الهوى (بغداد، لطيفور ص ١١٠). ومن هنا فشل في فترة خلافته، فهو رجل أدب وفن وغناء، لا رجل إدارة وسياسة.

(٨) راجع مجالس لموه في طعامه وشرايه، وغنائه في عهد المأمون (كتاب بغداد ص ١١١ - ١١٢، والأغان ٦٩/١٠)، وفي عهد المعتصم (المصدر السابق) ج ١٠ ص ١١١ - ١١٢.

(٩) الزوايا بالرفيات ٢٨٢/٨، وكوز الأحداد ص ١٢٥.

اختلافه^(١) وقد تعرض ابن المهدي في عهد المأمون لامتحان خلق القرآن فأجاب^(٢)، وعاصر فترة من حكم المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)، حتى أُلِّمَّ به مرض شديد، روى لنا تفاصيله (يوسف ابن إبراهيم)، الذي ظل على مصاحبة سيده حتى لحظاته الأخيرة^(٣)، التي ودَّع فيها الدنيا في شهر رمضان من سنة ٢٢٤ هـ^(٤)، بعد حياة حافلة بالأحداث الجسام.

٢- علاقة يوسف بن إبراهيم بـ (أبي دُلْف القاسم بن عيسى العجلي):

ما إن توفي (إبراهيم بن المهدي)، وكفكف يوسف دموعه، وهدد أحزانه، حتى انطلق يسعى نحو سيد جديد، يعوض به ما فقدته ب وفاة ابن المهدي. اتجهت أنظار يوسف إلى (أبي دلف)، الذي كان لا يقل في سماته عن ابن المهدي، إن لم يُقَفَّه في بعضها. كان الرجل جواداً^(٥)، شجاعاً، قائداً مفسوراً^(٦)، محباً للسمر والغناء^(٧)، على قدر كبير من الثقافة الأدبية الراقية^(٨). ولا شك أن مكث يوسف في رحابه - قرابة العام - أفادته عزة ومنعة وجاهاً، وخبرة وعلماً وثقافة^(٩). وسرعان ما ساءت حال أبي دلف، وتدهورت صحته، وتوفي كما توقع طبيبه^(١٠). وبذلك فقد يوسف نصيراً آخر، ومكانة ووجاهة حظي بها، ومنصباً إدارياً ومالياً كاد أن يليه^(١١)، لكن القدر كان أسرع إلى حرمانه منه.

(٥) يوسف بن إبراهيم في الشام:

لم تعد ظروف العراق مناسبة للإقامة هناك، فالظاهر أن قواد الأتراك في عهد المعتصم كانوا يضيقون الخناق على العرب ومواليهم، فلم يستطع يوسف البقاء في (سر من رأى)، فرحل عن العراق كلية إلى دمشق سنة ٢٢٥ هـ^(١٢)، حيث نزل ضيفاً على الطبيب

(١) بغداد، لطيفور ١٠٤، ١٠٥، والديلة والنهاية ٢٧٦/١٠.

(٢) تاريخ الطبري ٦٤١/٨، ٦٤٤، والكامل ٥/٦.

(٣) طبقات الأصباء، لابن أبي أصيبعة ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) تاريخ الطبري ١٠٢/٩.

(٥) كتاب بغداد، لطيفور ص ١٣٢، ووفيات الأعيان ٧٤/٤ - ٧٦.

(٦) تاريخ بغداد ٤١٦/١٢. (٧) الأغاني ١١١/١٠ - ١١٢، ١٢٠.

(٨) كتاب بغداد، لطيفور ١٣٥ - ١٣٦.

(٩) حدد يوسف مدة إقامته عند أبي دلف (عشرة شهور). (طبقات ابن أبي أصيبعة ٢٣٨).

(١٠) السائق: ٢٣٩.

(١١) عندما ولده أبو دلف الخراج والضياع في بعض أقاليم فارس، لكنه مات قبل توجهه إلى هناك (السائق: ٢٣٩).

(١٢) نصر على رحلته إلى دمشق ياقوت في (معجم الأدياء ١٥٥/٥)، وابن أبي أصيبعة في (طبقات الأدياء) ص ١٧٨، والزركل في (الأعلام) ٢١٢/٨، وكحالة في (معجم المؤلفين) ١٣٩/٤. وذكر علة التوجه إلى دمشق محمد كامل حسين في (الأدب المصري الإسلامي ٧٨)، وسيد محمد السيد في (ماجستير) ص ١٢ - ١٣. وأغفل ياقوت رحلته إلى دمشق في (معجم الأدياء) في موضع آخر ص ١٥٤. ونقل ذلك عنه كرد علي في (كنوز الأبحاد) ص ١٢٥، وإن كان قد أضاف أنه ورد بجيحه إلى دمشق ٢٢٥ هـ، فلهذا تاريخ رحلته من بغداد إلى هناك. وواضح هذا الخلط الذي وقع فيه الباحث، رغم أن رحلته إلى دمشق ثالثة، وتاريخها محدد، ومعروف.

الدمشقي (عيسى بن حَكَم) ^(١).

لقد يوسف كل رعاية وعناية وكرم ضيافة في منزل صديقه الطبيب (عيسى بن حَكَم)، أثرت فيما كان يجب أن يتناوله على يديه ^(٢)، خاصة أن يوسف كان يشكو علة شديدة (في معدته على ما يبدو).

وعند وداعه نصحه نصائح تخالف مقتضى ما كان يقدمه له عند مقامه في بيته ^(٣). ويبدو أن يوسف التزم بتلك النصائح، فعمر طويلاً كما سنرى.

وقد يكون أفاد من إقامته القصيرة - فيما يبدو - إفادة علمية طبية مهمة، ربما ساعدته على تأليفه: (أخبار الأطباء) فيما بعد.

(٦) هجرة (يوسف بن إبراهيم) إلى مصر، واستقراره بها:

توجه يوسف إلى مصر بعد منصرفه من دمشق ^(٤)، ولعله علم أنها بلد زراعي، للأمرء فيه إقطاعات واسعة، وهو ذو تجربة طويلة في الإشراف على المزارع والضياع وإدارتها. ومن هنا قام يوسف بالعمل نفسه في مصر مقابل مبلغ معين يؤديه للخلافة في وقته. وقد حقق ثراءً عريضاً، انعكس على حياته زياً وملبساً ومظهرًا، ومطعمًا ومسكنًا. وقد أدى ذلك إلى طمع (أحمد بن محمد بن المدبر) صاحب خراج مصر في أموال يوسف، رغم أن ليوسف عنده أيادي سابقة، وسوالف تُرعى ويحافظ عليها. لكن ابن المدبر استغل خسائر حاقت بيوسف، وديوناً لحقته؛

(١) له ترجمة في: تاريخ الحكماء لئقظي ١٧٩ - ١٨٠، ٢٤٩ - ٢٥٠، وطبقات ابن أبي أصيبعة ١٧٧ - ١٧٨. وترجمة أبيه الطبيب الحكم الدمشقي في (المصدرين السابقين: تاريخ الحكماء ١٧٨ - ١٨٠، وطبقات الأطباء ١٧٦ - ١٧٧). وترجمة جده (أب الحَكَم) في المصدرين نفسيهما: (تاريخ الحكماء ص ٤٠٤، وطبقات الأطباء ١٧٥ - ١٧٦).

(٢) كان عيسى خبيراً بالطب، حسن المباشرة (ظهر رمن الرشيد). ومع ذلك كان يتعهد يوسف بأغذية، تبدو غير متناسبة مع علته الشديدة، وكان يسقي الماء المثلج. ولما أنكر يوسف ذلك عليه، تعلل بأنه أدرى بما يفعل، فهو غذاء يناسب هواء وحو دمشق بما يتخالف جو العراق. (المصدر السابق ص ١٧٨). والمحجب أن الرواية لم تذكر أن يوسف اشتكى علة؛ لمخالفة قواعد الغذاء، حتى ظن الباحث سيد محمد قطب أن عيسى عالج فشفي (ماحسبته ١٣). وربما كانت حالة يوسف النفسية الطبية في ظل صحة ومعية صديقه، ولعل مقادير الغذاء المقدمة إلى يوسف لم تكن بالكَم الذي يؤديه، فأدى ذلك كله إلى راحته البدنية. وعلى كل، فنحن لا نوافق على مقالة عيسى: " إنه لا يحسن بالعاقِل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه في منزله ". (طبقات ابن أبي أصيبعة ص ١٧٨)؛ إذ لا يجوز أن نضر بصحة الضيوف بحجة إكرامهم.

(٣) نصحه أن يلتزم بما التزم به والده الحكم (فعاش مائة وخمس سنين، لم يتعهد فيها وجهه): ألا يذوق القديد، ولا يفصل يديه ورجليه عند الخروج من الحمام إلا بماء بارد ما أمكن (المصدر السابق ص ١٧٨).

(٤) فلا يصح ما ذكره د. شعمان مرسى في: (بحوث في الأدب العباسي) ص ٣٥، عندما قال: يبدو أن يوسف بن إبراهيم قد هرب إلى مصر بعد انتصار المأمون على إبراهيم بن المهدي.

لآفات تعرضت لها مزارعه، فأهلك محاصيله، ولم يوف خراجها. هنا طالبه ابن المدبر بما عليه من أموال، وتعرض للحبس، وكاد يُقتل لولا أن مَنَّ الله عليه بوالى مصر أيامها (مُزاحم بن خاقان)^(١)، الذى أسقط ما عليه من أموال؛ لصلات قديمة بينهما، ولم يكف بذلك بل جعله كاتباً ومشرفاً على ضياعه ومزارعه فى مصر^(٢). ورجعت إلى يوسف نعمته فى مدة يسيرة، بعد أن عصَّه الفقر المُذْقع، حتى باع فراش بيته، وأوشك على الهلاك على يد ابن المدبر.

علاقته بالأمير (أحمد بن طولون):

لا بد أن نتوقع وجود صلات بين رجل كيوسف بن إبراهيم فى شهرته، ومكانته الاقتصادية والأدبية والعلمية، وبين أمير كأحمد بن طولون، يتطلع إلى الاستقلال بإمارته والنهوض بها. وتشير النصوص إلى مجالسة ابن طولون يوسف بن إبراهيم، وسماعه منه جانباً من الحكم الفارسية^(٣)، التى تدخل فى نطاق ثقافة يوسف الحكيمية الفلسفية لكن حتى تكتمل الصورة لا بد أن نضع فى الحسبان أن يوسف من موالى العباسيين، وأن ابن طولون كان يحذر أولئك العراقيين، ويضع عينه عليهم دوماً؛ خشية اتصالحهم بعدوه الألد (الموفق)، وحرصاً على إفشال المؤامرات، التى تُحاك ضده؛ لإقصائه عن حكم مصر. ومن هنا، فقد وردت ثلاث وقائع^(٤) تنيد شك ابن طولون فى إخلاص يوسف له؛ مما يدفعه إلى حبسه فترات، تتراوح بين الطول والقصر، بتهمة تلقى كتب من الموفق، أو إرسال كتب إليه، تكون بمزلة التجسس على ابن طولون ودولته لصالح العباسيين. ولولا شفاعة الشافعين، ما أفرج ابن طولون عنه من محبسه، وما استنشق يوسف نسيمات الحرية من جديد، خاصة عندما بلغت ابن طولون - فى الحادثة الثالثة - كلمات ينتقده فيها يوسف على ما يبدو. والشئ العجيب الغريب أن ابن طولون أرسل جنده؛ للهجوم على دار يوسف بن إبراهيم فى الساعة التى توفى فيها (آخر سنة ٢٦٥هـ)^(٥)،

(١) ولى (مزاحم بن خاقان) صلاة مصر من قبل الخليفة العباسي (المعتز بالله) فى الثالث من ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ، ثم مرض واستخلف ابنه (أحمد)، حتى وافته المنية ليلة الاثنين فى الخامس من المحرم سنة ٢٥٤هـ. (كتاب الولاة للكندى، ط. جست) ص ٢٠٨ - ٢١١.

(٢) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ١٩٣.

(٣) من ذلك ما حدث به يوسف بن إبراهيم أحمد بن طولون عن أنوشروان كسرى فارس بقوله: "الملك المتمكن من نفسه لا يغضب سريعا، ولا يرضى سريعا؛ لأن ذلك من أخلاق النساء، ومن قارهن". وقد جرَّ هذا القول على يوسف شراً؛ إذ أطال ابن طولون حبسه، وأخر رضاه وصفحه عنه؛ تحقيقاً لهذه الحكمة. (سيرة أحمد بن طولون، للبلوى) ص ١٦٧.

(٤) راجع تفاصيل هذه الوقائع - على الترتيب - فى: (المصدر السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢). و(المكافأة لابن الداية - ط. أحمد أمين - ص ٤٨ - ٥٠، وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ٢٣٧ - ٢٣٩، ومعجم الأدباء ١٥٥/٥ - ١٥٧). و(سيرة أحمد بن طولون فى كتاب المغرب لابن سعيد، لابن الداية ص ١١٥، وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ١٦٥ - ١٦٨).

(٥) هذا هو التاريخ الذى ترجمه لوفاته، فيكون عمره قد تجاوز الثمانين. وقد تخطط الباحثون فى تحديد تاريخ وفاته ما بين سنة ٢٦٠هـ (تعلقب روزنثال فى: علم التاريخ عند المسلمين هامش ص ٥٤٨، ومقال كتاب (المكافأة)، =

وأخذوا ما في الدار من كتب؛ ظانين أن من بينها كتاباً من بغداد يُدين يوسف (حتى بعد موته)، وحملوا صندوقين كبيرين من الكتب، وقبضوا على أحمد بن يوسف، وأخيه (لعله الحسن)، وقدموا على ابن طولون. وثبتت براءة يوسف بعد موته، بل ظهرت أمارات إحسانه إلى العلويين في مصر، فتم الإفراج عن ولديه، ولحقا بمجازاة والدهما^(١).

(٧) تراثه الفكري والعلمي (مؤلفاته، وتلاميذه):

استطاع يوسف بن إبراهيم أن يكوّن حصيلة علمية كبيرة من خلال مجالسته العلماء ومناقشتهم، وروايته عنهم، وتعدد نواحي اهتمامه، وتشعب جوانب ثقافته. ومن الطبيعي أن يسفر ذلك الجمع الهائل من الروايات عن مؤلفات كثيرة، أبدعتها قريحته، خاصة بعد أن استقرت أموره في مصر، وتيسرت أحواله، فقام بالنظر في مُسوّداته والإضافة إليها، وتَذهيبها وتَقيقها، حتى خرجت في صورة مؤلفات قيمة في موضوعات شتى، يغلب عليها الطابع التاريخي^(٢). وإذا كانت الأيام لم تحفظ لنا شيئاً من مؤلفاته، فإنها ضُتّت علينا - كذلك - بذكر أكثر تلاميذه^(٣)، لكن الشيء اليقيني هو أن كتبه استفادت منها الأجيال، وتلقت عليها مئات التلاميذ، ولازلنا ننظر بإعجاب إلى بقاياها حتى اليوم.

من مؤلفات (يوسف بن إبراهيم):

١- كتاب (أخبار أبي تُوّاس، والمختار من شعره)^(٤).

- للدكتور سليمان العطار، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث - مجلة عالم الفكر ١٩٨٤م، ص ١٨٤، وبحوث في الأدب العباسي للدكتور شعبان مرسى ص ٢٣٥. ورأى البعض أنه توفي في عهد ابن طولون دون تحديد (٢٥٤ - ٢٧٠ هـ). (دراسة المحقق الدكتور عمر المالكي لكتاب (الفلسفة السياسية عند العرب، لابن الداية) ص ٢٦. وحلّد الباحث سيد محمد قطب وفاة يوسف في سنة ٢٦٣ هـ تقريباً (ماجسترو ص ٢١). ولحق أن هؤلاء جانبهم الصواب، وأقرهم إليه الباحث سيد محمد قطب، لكنه ظن أن صدام ابن طولون مع يوسف بخصوص واقعة كتاب (موسى بن نُفّار)، وهي الواقعة الأولى، ظنها آخر العهد به قبل وفاته. والصحيح أن واقعة الصدام الثالثة حدثت بعد ذلك، وطال حبس ابن طولون له بسببها، وامتد حتى قرب نهاية سنة ٢٦٤ هـ، ثم توجه إلى الحج، وبعده إلى بغداد، ولقى للموفّق، وتوجه إلى سامراء، حيث أحضر أهله، الذين كانوا يزورون بلعم. ثم عاد إلى مصر، فأقام بها، حتى أدركه الوفاة في العام الذي أُرجمه (٢٦٥ هـ). وأصاب كحالة لما حدده كذلك (معجم المؤلفين ١٣٩/٤).

(١) المكافأة لابن الداية (ط. أحمد أمين) ص ٨٨ - ٨٩، ومعجم الأدباء ١٥٨/٥ - ١٥٩.

(٢) يرى سيد محمد السيد قطب في ماجسترو ص ٢٣ - ٢٤: أن مؤلفات يوسف ليست تاريخاً بالمعنى الدقيق، بل هي مرحلة أولى لكتابة التاريخ؛ لجمعه فيها بين التاريخ والقصص، فهو - إذن - أديب أكثر منه مؤرخاً. وأعتقد أن هذا الكلام لا يصدق على يوسف بن إبراهيم، على الأقل في بقايا كتابه: (أخبار الأطباء)، الذي سوف نرى من خلال عناصر منهجه فيه أنه مؤرخ حقاً، لا مجرد قصاص أو أديب، وإن كان يمتلك لغة أدبية راقية.

(٣) من البدهي ألا نجد تلاميذ كثيرين ليوسف وهو في مرحلة الطلب، بل نجد أساتذته كثيرين له، يروي عنهم مروياته. وعلى كل، فنتيجة طول ملازمته بمجالس العلم كان يحصل على معلومات تفوت بعض أساتذته، فيسألونه عنها، فيرويها لهم، كما هو الحال مع الطبيب بختيشوع بن جبرائيل (طبقات ابن أبي أصيبعة ١٩١)، وابن المهدي (السابق ٢١٩).

(٤) ورد ذكره في (الفهرست، ط. طهران) لابن النعم ص ١٨٢، والوائق بالرفيات ٢٨٢/٨، وماجسترو سيد محمد قطب ص ٢٢. وورد اسمه محرفاً في (معجم الأدباء)، فسمي يوسف (الراوى أخبار أبي بونس) ١٥٤/٥.

٢- كتاب (أخبار إبراهيم بن المهدي)^(١).

٣- كتاب (أخبار الأطباء)^(٢).

٤- كتاب (أخبار المنجمين)^(٣).

٥- كتاب (الطبيب)^(٤).

(٨) عناصر منهج (يوسف بن إبراهيم) التاريخي من خلال أكبر بقايا كتبه (أخبار الأطباء):

١- القدرة على العرض الشامل للموضوعات التي يتناولها^(٥).

٢- دقته في اختيار موارده^(٦).

٣- العرض التاريخي الواضح المتميز مع تعريفه بموارده^(٧).

٤- الدقة والتمحيص في انتقاء الروايات التاريخية^(٨).

٥- البراعة في تصوير الأحداث التاريخية المصاحبة لتراجم أطباء عصره^(٩).

(١) ورد ذكره في: المكافأة لابن الداية (ط. أحمد أمين) ص ٢٠٤-٢٠٥، وكشف الظنون ٢٥/١، وهديّة العارفين ٢/٥٤٩، ومعجم المؤلفين ١٣٩/٤، والأعلام ٢١٢/٨، وكنوز الأجداد ١٢٥. ونسبه ياقوت إلى (أحمد بن يوسف) خطأ في (معجم الأدباء) ١٦٠/٥، وشارك مصطفى في (التاريخ العربي والمؤرخين ١٨٥/٢). وكثير من مادته عن (الغنين) في (الأغان) ٣٥٣/٢، ٣٦٠/٤، ٣٦٢، ١٧٣/١٠.

(٢) ورد ذكره بعنوان مقارنة في: مروج الذهب مجلد ٢ ص ٤٢٠، وكشف الظنون ٢٥/١، وهديّة العارفين ٢/٥٤٩، والأعلام ٢١٢/٨، ومعجم المؤلفين ١٣٩/٤. نسب د. شاعر مصطفى إلى ابنه أحمد خطأ. (التاريخ العربي والمؤرخون ١٨٥/٢). وتوجد روايات كثيرة من بقاياه في: (تاريخ الحكماء) للقفطي ١٣٥-١٤٠، وطبقات ابن أبي أصيبعة ص ١١٧-١٢١، ١٩٠-١٩١، ١٩٥-١٩٨، ٢١٦-٢١٨، وغيرها كثير.

(٣) كان ليوسف بن إبراهيم اهتمام كبير بالتنجيم، وكان له مرصد بمصر، أمر غلامه أن يرصد بالإسطرلاب دخول ابن طولون مساكن فسطاط مصر، وتنبأ من معرفة طالعه بأنه سيملك مصر هو وولده. (سيرة ابن طولون لابن الداية في كتاب المغرب لابن سعيد) ص ٧٧. وورد أنه كان يدرس التنجيم وهو في سجن ابن طولون (سيرة ابن طولون للبلاوي ١٦). ونسب له حاج حنيفة كتابا فيه (كشف الظنون) ٣٠/١. وكالعادة أخطأ البعض، فنسبه إلى ابنه أحمد (معجم الأدباء ١٦٠/٥، والواق بالوفيات ٢٨٣/٨، وهديّة العارفين ٢٠٧/٢، والأعلام ٢٧٢/١، وريحانة الأدب ٥١٤/٧). والكتاب لم نجد شيئا من بقاياه.

(٤) نسب أحمد إلى والده صراحة في (المكافأة، ط. أحمد أمين) ص ٢٠٤. ونسبه الصفدي إلى أحمد في (الواق بالوفيات) ٢٨٣/٨، ومن قبله وقع في الخطأ نفسه ياقوت في (معجم الأدباء) ١٦٠/٥. ولا نعرف شيئا عن هذا الكتاب المفقود، وأرجح أنه مكمل لكتابه عن الأطباء، وأنه يهتم بموضوعات الأطعمة الصحية، وطرق الطهي الخاصة بها؛ نتيجة خبرته الكبيرة، وبجاسته الطويلة للأطباء، وتجربته من قبل في متابعة طعام أبي دلف المعجلي.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ص ٢٣٣-٢٤٢، ٢٤٩-٢٥٢، وغيرها.

(٦) السابق: ٢١٦-٢١٨.

(٧) السابق: ٢٢٢-٢٢٣، ٢٣٣.

(٨) السابق: ٢١٩-٢٢٠، ٢٢٧-٢٢٨.

(٩) السابق: ص ١٩٤-١٩٦، ٢١٦-٢١٧، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٦-٢٣٧.

- ٦- طريقته في ترتيب عناصر تراجمه للأطباء^(١).
 - ٧- قدرته الفائقة - النابعة من ثقافته التاريخية العريضة - على الربط بين الأحداث التاريخية، وقياس بعضها على بعض^(٢).
 - ٨- استعراضه ثقافته الجغرافية بذكر متغيرات أسماء الأماكن الواردة في الحدث التاريخي^(٣).
 - ٩- حضور شخصيته، وتفاعله مع الحدث (تعليلًا، وتعليقًا)^(٤).
 - ١٠- حرصه على رصد الظواهر الحضارية لعصره^(٥).
- (٩) وأخيرًا - سمات يوسف بن إبراهيم الشخصية (من واقع حياته، وبقايا مؤلفاته):
- ١- جوده وإحسانه، ومروءته^(٦).
 - ٢- طبيعته الهادئة المؤمنة^(٧).
 - ٣- حبه الشديد للعلم (تمثل في ثقافته الموسوعية: أدب، وطب، وحساب، وتنجيم، وفلسفة، وتاريخ)^(٨).
 - ٤- عقلية المستنيرة المفتوحة (تساؤلاته، ومناقشاته، وحواره العلمي الجاد)^(٩).
 - ٥- إخلاصه، وفطنته، وحكمته^(١٠).
 - ٦- صدقه، وأمانته العلمية^(١١).
 - ٧- تصرفاته الحازمة، ودقته البالغة^(١٢).
 - ٨- قبوله النصيحة الخالصة الواعية^(١٣).
 - ٩- حبه للحق والصدق، ودفاعه عن المغمورين من ذوى الحرف والصناعات^(١٤).

(١) السابق: ص ١٩٠، ٢١٦، ٢٩٩ - ٣٣٠ وما بعدها.

(٢) السابق: ٢٣٠ - ٢٣٢، ٢٤٧ وما بعدها.

(٣) طبقات الأطباء لابن أصبغة: ٢٣٥.

(٤) السابق: ٢٣٧ - ٢٣٨، ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٥) السابق: ٢٢٠، ٢٤٧، وما بعدها.

(٦) معجم الأدباء ١٥٥/٥، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨، والوفا بالوفيات ٢٨٢/٨.

(٧) المكافأة لابن الداية (ط. أحمد أمين) ص ١٩٣، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨.

(٨) تاريخ الحكماء للنفطى ص ٢١٩، وطبقات ابن أبي أصبغة ص ١٩٢ - ١٩٣، ١٩٥ - ١٩٦، ١٩٩ - ٢٠٠.

(٩) ٢٢٢، ٢٤١.

(١٠) تاريخ الحكماء للنفطى ١٣٥ - ١٤٠، ١٤٥ - ١٤٦، وطبقات الأطباء ص ١١٧، ١٩٠ - ١٩١، ١٩٣ - ١٩٤.

(١١) ٢٤٠ - ٢٤٢.

(١٢) المصدر السابق: ٢١٦، ٢٥٦.

(١٣) السابق: ٢١٩. (١٤) طبقات الأطباء: ٢٣٩.

(١٤) السابق: ٢٤٥ - ٢٤٦، ٢٥٧ - ٢٥٩.

(المؤرخ المصرى أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية)

(٢٤٥ - ٣٤٠هـ)

أما قبل:

فإننا قبل أن نتعرض لترجمة هذا المؤرخ المثقف الواعى، نشير إلى ندرة المعلومات الواردة عنه في كتب التراجم، وتكرارها عن طريق نقل المصادر بعضها عن بعض، واجترار المراجع هذه الترجمة، مكتفياً أصحابها بتريديد ما تقدم من معلومات.

تعليل ندرة تراجم (أحمد بن يوسف):

١- على الرغم مما يتمتع به (أحمد بن يوسف) من ثقافات ومعارف متنوعة، كما سنرى فيما بعد، إلا أنه لم يحظ - مثلاً - بالمكانة السامية، والاهتمام الكبير، ولم تُسلط عليه أضواء المترجمين، كما سلطت على سميّه (أحمد بن يوسف كاتب المأمون)^(١)، رغم أن الثروة العلمية لمؤرخنا المصرى تفوق بكثير جداً تلك التوقعات والعبارات الجميلة المنتثرة هنا وهناك، منسوبة إلى كاتب المأمون. ولعل مرد ذلك أن الأضواء تسلط - عادة - على كتاب العاصمة (بغداد)، حيث الشهرة العارمة، والقرب من بلاط الخلافة. أما مصر التى ينتمى إليها أحمد بن يوسف مؤرخنا، فهى مجرد ولاية تابعة لولايات الخلافة العباسية، فلا يهتم بها كثيراً مؤلفو الطبقات والتراجم.

٢- أن (أحمد بن يوسف المصرى) عاصر الدولة الطولونية، وعمل كاتباً بدواوينها بعد أن أوشك نجمها على الأفول، فهو يعد من رجالها. ومعلوم أن صراعاً مريراً استمر طوال حكم (أحمد بن طولون)، ثم فترة من عهد ابنه (خُمارَوَيْه) مع الموفق (أخى الخليفة المعتمد)، ثم مع ابنه (المعتضد). فالطولونيون يُنظر إليهم على أنهم خارجون على الخلافة، معادون لها؛ ومن ثم يتم تجاهل مؤرخيهم، وعلمائهم، وكتّابهم^(٢).

٣- لم يكن أحمد بن يوسف المصرى من حيث السن أو الخبرة على درجة تمكنه من الاتصال بابن طولون، ولا ابنه خمارويه، أو على الأقل لم ننظر بما يفيد مشاركته في أحداث دولة بنى

(١) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب الكوفى. كان والده كاتباً لبني أمية في ديوان الكوفة، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور. قدمه طاهر بن الحسين إلى المأمون؛ لفصاحته وبلاغته (كاتب شاعر). ولى ديوان الرسائل للمأمون، وصار وزيراً له بعد (أحمد بن أبى خالد). أخوه القاسم شاعر أيضاً، وأولادهما جميعاً أهل أدب وبلاغة. توفى أحمد سنة ٢١٣هـ. (كتاب بغداد لطيفور ١٢٨-١٣٢، والفهرست (ط. طهران) لابن النديم ص ١٣٥-١٣٦، ١٤٠، ١٨٨، وتاريخ بغداد ٢١٦/٥-٢١٨، ومعجم الأدباء ١٦٦/٥-١٨٣، والوقائع بالوفيات ٢٧٩/٨-٢٨٢، وتهذيب تاريخ دمشق ١٢٤/٢-١٢٧). ويلاحظ أن العالمى فرق بين ثلاثة علماء، يُسمون (أحمد بن يوسف)، منهم مؤرخنا (أعيان الشيعة ٢٠٦/٣-٢١٥).

(٢) كنوز الأعداد ص ١٢٨.

طولون (ولو على عهد حمارويه). ومن هنا ضاعت عليه فرصة ذهبية للذوبع والاشتهار في العهد الذهبي لتلك الدولة (عهد ابن طولون). وأعتقد أن مؤلفاته (التاريخية) ظهرت بعد نكبة الطولونيين، وتغنية آثارهم؛ مما جعلها في منطقة الظل، وطمس كثيراً من شهرته.

٤- لم يبق من كتب ابن الداية وأشعاره إلا أقل القليل. فيخصوص شعره لم تحتفظ لنا المصادر إلا بأبيات قليلة متناثرة، ترتبط بمناسبات معينة^(١)، فلو كان من الشعراء المادحين الكبار، لطبقت شهرته الآفاق.

٥- وأما مؤلفاته في المنطق والفلسفة، والفلك، والرياضيات، فهي مفقودة في معظمها، ولم يظهر الاهتمام بتراجم هؤلاء إلا متأخراً^(٢). وفي مجال (القصص) بقى كتابه (المكافأة)، وهو يغلب عليه الطابع الأدبي، وله طابع أخلاقي تربوي، واتخذ من التواريخ مادة له. وجانب مما به من أحداث التاريخ، إلى جانب ما كتبه عن (سيرة ابن طولون) يدخل في إطار (التاريخ المحلي)، وهو دون كتب التاريخ العام في الاهتمام بمؤلفيه.

٦- وينضاف إلى ما تقدم عدم اشتها (أحمد بن يوسف) محدثاً، ولا مفسراً، ولا فقيهاً، ولا قارئاً، كما هو معتاد في ثقافات وعلوم المؤرخين الآخرين في تلك الفترة، حتى نتم به كتب تراجم هؤلاء المهتمين بتلك العلوم. فمؤرخنا ابن الداية له ثقافة متميزة، فهو فيلسوف ومنطقي، ورجل علم طبيعي رياضي، يغذى بتلك العلوم موهبته التاريخية وحاسته الأدبية، ويستمد - إلى جانب ذلك كله - روافده التاريخية من مخالطته رجل الشارع العادي، وتعامله مع طبقات المجتمع على اختلاف درجاتها ونوعياتها بحكم عمله في إدارة المزارع، والإشراف على الضياع، كما سنرى بعد، وهو ما لم يفتن إليه مؤلفو التراجم في مؤلفاتهم^(٣).

٧- وأخيراً، فلعل مؤرخنا (ابن الداية) حظي من مؤلفي التواريخ والتراجم المصريين بالاهتمام الذي يستحقه، لكن نظراً لفقد هذه الكتب - كتب ابن يونس^(٤)، والكندى^(٥)،

(١) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ٣٩ (أورد أربعة أبيات من الشعر، قالها مدحاً لمجموعة من الحراس، الذين حَمَوْه من قطاع الطرق).

(٢) كما ورد في الفهرست - ط. طهران لابن النديم ص ٣٢٨، قال: (أحمد بن يوسف المصري مفسر كتاب الثمرة لطلعموس). وكذا في (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسي ص ٥٧، واكتفى بقوله: (صاحب شرح الثمرة لطلعموس).

(٣) فعلمهم نظروا إليه كرجل أعمال، يتابع الأرض، ويستغل محاصيلها، وينشغل بتمهيتها؛ للوفاء بمخارجها، وعدم التعرض للمصادرة والخبس والمهلاك، فلمله غلبت عليه صفة (رجل الأعمال)، لا (العالم المؤلف المؤرخ). ونظراً لعدم اهتمام رجال التراجم بطبقات التجار والمزارعين والمُتَقَلِّين، ممن نُسب إليهم (أحمد بن يوسف بن الداية)، فقد تعرضت ترجمته للإهمال أيضاً.

(٤) هو صاحب (تاريخ المصريين)، ويتناول أعلام مصر، وعلماءها.

(٥) وله كتاب (أعيان الموالى في مصر)، وهو مفقود.

وابن زولاق^(١) - حُرِّمْنَا المعلومات الكافية الوافية، التي تعطينا ترجمة مفصلة واضحة لهذا المؤرخ الكفء المبدع في مجال التأليف التاريخي.

الملاحم العامة لحياة (أحمد بن يوسف المؤرخ):*

يمكن تلخيص حياة ابن الداية في المعادلة المركبة الآتية:

نشأته وتكوينه متأثراً بوالده يوسف + حصيلة علمية موسوعية اكتسبها من مصادر متنوعة + شبكة علاقاته السياسية + شبكة علاقاته الاقتصادية + علاقاته وخبراته الاجتماعية = إنجازاته العلمية والفكرية الذي أبدعه على مَرَّ سِنِي عمره الطويلة المباركة، التي انتهت سنة ٣٤٠ هـ^(٢).

والآن، مع تفاصيل المعادلة الحياتية السابقة:

أولاً - نشأته وتكوينه:

١- هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب والمؤرخ المصري المعروف بـ (ابن

(١) احتفظ لنا باقوت في (معجم الأديباء) جـ ص ١٦٠ بمادة طيبة في ترجمة (أحمد بن يوسف)، نقلاً عن (ابن زولاق)، فقلعه من كتابه المفقود عن (تاريخ مصر).

(٢) تُرجم له في: الفهرست (ط. طهران) لابن الندم ص ٣٢٨، ومعجم الأديباء ١٥٤/٥ - ١٦٠ (رقم ٣٥)، وتاريخ الحكماء للقفطي ص ٧٨، والوفايات ٢٨٢/٨ - ٢٨٣ (رقم ٣٧٠٤)، ومخطوط (عبرون التواريخ) للكني (مصور عن الظاهرية، وفيات ٣٣٠ هـ) ورقة ٦٧، وكشف الظنون ١/٦٦٧، ١٠١٥/٢، ومعجم المطبوعات العربية والمصرية، ليوسف سر كيس ٢٨٨/١ - ٢٨٩، وريحانة الأدب لميرزا محمد علي مدرس ٥١٤/٧ - ٥١٥، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٧٩/٣ - ٨١ (رقم ٣)، ومعجم المؤلفين (ط. مؤسسة الرسالة) ٣٢٦/١، والأعلام للزركلي ١/٧٧٢، وأعيان الشيعة للعائلي ٢/٦٤٤، ٢٠٧/٣ - ٢٠٧.

(٢) بالنسبة لتاريخ وفاته، فهو يتراوح بين ٣٣٠ - ٣٤٠ هـ. وأعتقد أن أساس ما ورد من آراء الباحثين هذا الصدد، يرجع إلى نص ياقوت في (معجم الأديباء) ١٥٩/٥، فيما ينقله عن أبي جعفر (علله الطبري في كتاب ترجمه المفقود المسمى: ذيل المذيل): "توفى سنة ثيف وثلاثين وثلاثمائة، وأظنها سنة ٣٤٠". فالبعض أخذ العبارة من طرفيها، وجعل تاريخ وفاة أحمد بن ٣٣٠ - ٣٤٠ (د. عمر المالكي محقق الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية في مقدمته ص ٢٦). والبعض حدد الوفاة بسنة ٣٣٠ هـ، ولم يلاحظ مدلول كلمة (ثيف في النص). (معجم المطبوعات العربية ٢٨٨/١ كأحد احتماليين، وكوز الأجداد ١٢٥، وهامش ص ٥٤٨ بكتاب الإعلان للسحايي تحقيق: روزنثال). واكتفى البعض بعبارة ياقوت: (ثيف وثلاثين وثلاثمائة) دون تحديد: (الوفايات ٢٨٢/٨)، وكرد على في مقاله بمجلة الرسالة ع ٢١٨ ص ١٤٥٢، والعائلي في (أعيان الشيعة ٢/٦٤٤). وجعلها البعض سنة ٣٣٤ هـ (ربما لم ينظروا إلى معنى الثيف أنه بين العقدين من واحد إلى ثلاثة، فعملوه إلى أربعة). (كشف الظنون ١/٦٦٧، ١٠١٥/٢، ومعجم المؤلفين ٣٢٦/١، وريحانة الأدب ٥١٤/٧). وحدد آخرون تاريخ الوفاة بسنة ٣٣٩ هـ (ربما لم ينظروا إلى المعنى الآخر للثيف، وأنه بين العدين، حتى تصل إلى العقد الآخر، فوقفوا عند ٣٣٩ هـ). وانفرد بذلك (محقق المغرب - قسم مصر)، صفحة ٣٧، ورجحت تاريخ ٣٤٠ هـ؛ لاتفاقه مع معنى من معاني الثيف اللغوية، ولترجيح ياقوت له، وإن عبر عنه بالظن الذي يفيد اليقين. (راجع مادة ن.و.ف في (اللسان) ٤٥٧٩/٦ - ٤٥٨٠، ومادة ظ.ن.د ٢٧٦٢/٤ - ٢٧٦٣). وهو يقين تدنر لا يقين عيان، الذي يقال فيه: علم. ويمكن مراجعة مادة الظن بمعنى: اليقين في القرآن الكريم (آية ٢٢ بسورة يونس)، وتفسير ابن كثير لها (٤١٢/٢)، وكذلك الآية ٥٣ بسورة الكهف، وتفسير ابن كثير لها (٩٠/٣)، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط. دار المعارف) ٧٩/٣، والأعلام للزركلي ١/٧٧٢.

الداية). قدم أبوه يوسف إلى مصر حوالي ٢٢٦هـ، وظل مقيماً بها، مستوطناً إياها حتى وفاته أواخر سنة ٢٦٥هـ. ورزق يوسف بابنه (أحمد) حوالي سنة ٢٤٥هـ^(١). وبناء عليه، فالمؤرخ (أحمد بن يوسف) مصري المولد والمربي والنشأة. ومن البدهي أن يعايش أحمد الجو العلمي الذي عايشه أبوه، فتشرب نفسه إلى حب العلم والثقافة (وعلى الأخص التاريخ)، وأن يتأثر بوالده تأثراً كبيراً في حضور مجالس العلماء، وتحصيل العلوم المختلفة، والاتصاف بالثقافة الموسوعية العريضة.

٢- تأثر أحمد بمهنة والده في تنمية الأموال وتثميرها، واستغلال المزارع وإدارة الضياع والإشراف عليها، فواصل العمل في المجال نفسه بعد وفاة والده. وقد علمنا أن والده كان حذراً بعيداً عن لعبة السياسة، ومؤامراتها ودسائسها ومخاطرها، ومع ذلك لم يسلم من اضطهاد ابن طولون وشكوكه وحبه. وكان يوسف غير متطلع إلى نفوذ، ولا طامح إلى منصب، بل كان على حد تعبير أحد الباحثين: يعيش على حرف، يحاول أن ينحو بسفينة حياته من الفرق في بحر الفوضى في العصر العباسي الثاني، الذي كثر فيه تغيير الولاة، وتبديل الجباة، وشاع فيه التمرد، كما شاع فيه قطع الطرق^(٢). لقد سار أحمد على النهج نفسه، ونجح في النأي بنفسه عن المخاطر ما أمكن، وإن كان ذلك لم يمنعه من اكتساب منزلة اجتماعية وعلمية طيبة من خلال علاقاته برجالات عصره.

ثانياً - مصادر ثقافته:

تعددت مصادر المعرفة التي نقل عنها (أحمد بن يوسف) ثقافته، وتنوعت بتنوع صلاته. وسوف أكتفي بالإشارة إلى عدد من أساتذته، الذين نقل عنهم علمه بـ (الفلسفة، والتنجيم،

(١) بالنسبة لتاريخ ميلاد (أحمد بن يوسف) لم تشر إليه المصادر، ولم نجد سوى استنتاجات بعض المحدثين، فمثلاً: ذكر روزنثال أن أحمد بن يوسف ولد قبل سنة ٢٦٠هـ (وهي السنة التي حدها لوفاة والده يوسف). (هامش ص ٥٤٨ من كتاب (الإعلان) للسخاوي، والمطبوع مع مجلد (علم التاريخ عند المسلمين). ولا شك أن هذا كلام غير محدد، ويصدق على أية سنة قبل ٢٦٠هـ. ونحن نعتذر روزنثال في عدم بحثه الأمر بدقة، فقد ذكر تلك المعلومة وهو في معرض التعليق على اسم يعقوب (أحمد بن أبي يعقوب) وفي محاولة لفض الاشتباك (التداخل) بين اسمه واسم (أحمد بن يوسف)، الذي يكنى والده بأبي يعقوب أيضاً. وهو تعليق، على كل حال، ألقى الضوء على وجود علاقة بين يعقوب، وأحمد بن يوسف المؤرخ. أما الدكتور سليمان العطار، فذكر في بحثه ع ٤٤ (عالم الفكر) مجلد ١٥، ع ٣، ١٩٨٤م (ص ١٨٤): أن ميلاد أحمد بن يوسف سنة ٢٤٠هـ، ووفاته ٣٤٠هـ. واعتقد أن تاريخ ميلاده غير دقيق، ولا اشتهرت ترجمته ضمن المعثرين قرناً كاملاً من الزمان. ويرى سيد محمد قطب في (ماحستره ص ٢٦): أنه ولد بين سنتي: ٢٤٠ - ٢٤٥هـ، ثم رجع الأخيرة. وقد احترقاً أنا كذلك، فعمره عند وفاة والده يكون عشرين عاماً، وهي كافية لاستدعائه، والتحقيق معه أمام ابن طولون لحظة وفاة والده، وكافية - كذلك - للاعتماد على نفسه؛ لمواصلة رسالة والده.

(٢) مقال د. العطار في (مجلة عالم الفكر) ص ١٨٥.

والحساب)، وغير ذلك من العلوم، التي يأتي على رأسها علم التاريخ، على اعتبار أنه أبرز مظاهر ثقافته، وعلى أساس أن التاريخ جزء مهم وجوهري في ثقافة رجل، كان يعمل كاتباً في دواوين الطولونيين^(١)، وما بقي من آثاره التاريخية يمثل خلاصة وعصارة فكره، الذي امتزجت فيه كل هذه العلوم.

يمكن تحديد عدد من أساتيزه، الذين كانوا مصادر معرفته في مختلف العلوم على النحو الآتي:

أ- من أفراد أسرته، وأقاربه: والده (يوسف بن إبراهيم)^(٢)، وعمه (إسحاق بن إبراهيم)^(٣).

ب- مؤرخون: نقل (أحمد بن يوسف) صراحة عن المؤرخ اليعقوبي^(٤) (أحمد بن أبي

(١) حول أهمية التاريخ في ثقافة الكاتب راجع: (صبح الأعشى ٤١١/١ - ٤١٢).

(٢) المكافأة ص ٢٥ - ٢٨، ٩٨، ١٤٥، ١٤٧، ١٩٠.

(٣) المكافأة ص ٢٠ (له صلة بالوزير الواسطي)، وسيرة ابن الداية في (المغرب - قسم مصر) ص ١٠٥ - ١٠٦، ١١٩ - ١٢٠، ١٢٧ - ١٢٩ (وفيها تبين امتداد عمره، إلى ما بعد وفاة ابن طولون ٢٧٠هـ)، وسيرة ابن طولون للبلبي ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٤) هو أحمد بن أبي يعقوب، إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الأخباري العباسي. تولى سنة ٢٨٤هـ، وترك لنا عدة مؤلفات، منها: التاريخ، والبلدان، ومشكلة الناس لزمامهم. (معجم الأدباء ١٥٣/٥ - ١٥٤). وحول مقامه في مصر، وتاريخ وفاته؛ من أجل التحقق من صلته بابن الداية المؤرخ المصري نذكر ما يلي:

أ- ذكر المسعودي في مقدمة كتابه: (مروج الذهب ج ١ ص ١٤) ضمن مصادره التي رجع إليها (كتاب التاريخ، تأليف: أحمد بن يعقوب المصري، وحمله في أخبار العباسيين وغيرهم. وهنا نلاحظ تلقيه اليعقوبي بلقب (المصري)؛ مما يفيد إقامته في مصر فترة كافية، جعلته أهلاً للنسبة إليها. ويلاحظ أن السخاوي نقل عن المسعودي هذا النص في كتابه: (الإعلان)، نشر ووزنثال ص ٥٤٧ - ٥٤٨، وضم إلى اليعقوبي - نقلاً عن المسعودي أيضاً - مؤرخاً آخر كتب في الموضوع نفسه. لكن المحقق عرض النص على فقرتين، فجعل العبارة كأنها عبارتان، والمؤرخين كأنهما ثلاثة، فبدأ النص غامضاً. ولم يعلق على ذلك، أو يصوبه المترجم.

ب- في آخر كتاب (البلدان) لليعقوبي، وردت له أبيات شعر في رثاء الطولونيين، بعدما تذكر ما كانوا عليه من أجماد، ومظاهر احتفال من ملابس وأزياء وأعلام وطبول ليلة عيد الفطر، تذكر ذلك كله سنة ٢٩٢هـ (ذكرت معرفة ٣٩٣هـ). وهذا يعني أنه كان في مصر تلك الفترة، ولعله مات بعد سنة ٢٩٢هـ بقليل، وأقام في مصر أواخر سني حياته. ويدعم هذا ما ورد في آخر كتابه: (مشكلة الناس لزمامهم - تحقيق: د. محمد كمال عز الدين) ص ٤٦، من أحداث متصل بعهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ)؛ مما يشير إلى رحيله بعد ذلك إلى مصر، وإقامته بها ولقائه بابن الداية، وينتهي خالص الأشعب في كتابه: (اليعقوبي) ص ١٠ - ١١، إلى خطأ القول بوفاته سنة ٢٨٤هـ، ورجح وفاته بعد سنة ٢٩٢هـ. ويؤكد صحة ذلك القول وصدق نسبة نص كتاب (البلدان) إلى اليعقوبي، أن ألفيت المقرئ - وهو الثب المصدق - ينقل هذا النص في كتابه: (الخطوط) ٣٢٦/١ بتاريخ ٢٩٢ هـ، وإن حُرّف التاسع اسم اليعقوبي من (أحمد) إلى (محمد).

ج- لازرنا في حاجة لمعرفة تاريخ حياة اليعقوبي، وملابسات قدومه إلى مصر، وتاريخ ذلك من خلال مادة جديدة في المصادر؛ لأن المراجع تتناقل عن بعضها أحداثاً تتراخى ليست صحيحة، أو معلومات لا ندرى مصدرها (راجع: -

يعقوب، عن أبيه) بعض الروايات، وأحياناً كان ينقل عنه، عن أبيه، عن جده واضح. ويبدو أن اليعقوبي نزل مصر، وأقام بها فترة؛ جالساً خلالها مؤرخنا، ونقل عنه بعض المعلومات التاريخية، أورد منها ما يتناسب مع موضوع كتابه^(١)، والظاهر أن مؤرخنا (ابن الداية) طالع بعض مؤلفات تاريخية لغير المصريين، مثل: الهيثم بن عدي^(٢) (ت ٢٠٧هـ)، والزبير بن بكار^(٣) (ت ٢٥٦هـ)، فقل عنها؛ إذ إنه لم يعاصر أولهما، ويُستبعد لقاءه بثنائيهما.

ج- كبار رجال دولة بني طولون: وهؤلاء منهم: الكتّاب، والقواد، وصاحب الشرطة، ومتولى شئون السجن، وغيرهم. ولا شك أن اتصالاته هؤلاء الرجال كانت بعد وفاة والده، ونضج خبراته وشخصيته، وبروز مكانته. ومن أمثلة أولئك: ربيعة بن أحمد بن طولون^(٤)، والكتّاب والوزير أحمد بن محمد الواسطي^(٥)، والكتّاب هارون بن مئول^(٦)، وأحمد بن أيمن^(٧)، والحسن بن رافع^(٨)، والحسن بن مهاجر^(٩)، وأبو جعفر بن عبد كان^(١٠)، ونسيم الخادم (أقرب الخدم لابن طولون)^(١١)، وأحمد بن دُعَيْم أحد قواد ابن طولون^(١٢)، ويعقوب بن صالح صاحب شرطة أسفل الأرض في مصر^(١٣)، وموسى بن مصلح صاحب السجن^(١٤).

د- علماء وفقهاء: ومن نقل عنهم أحمد بن يوسف: الفقيه الحنفي أحمد بن أبي عمران^(١٥)، والفقيه المحدث والمفسر المصري سعد بن عبد الله بن عبد الحكم^(١٦)، والفقيه الشافعي منصور بن إسماعيل^(١٧).

هـ- أطباء وفلاسفة: لعله نقل عن الفيلسوف المشهور الفارابي لدى دخوله مصر^(١٨).

- تاريخ الأدب العربي لبروكلمان - ط. اذنية العامة في ٢ - ٦٤٣: جعله في مصر سنة ٢٧٨هـ، (وأحمد بن طولون)، للدكتورة سيدة كاشف ص ١٠ (ذكرت وفاته في مصر ٢٧٨هـ)، وذكره حجازي طراوة (حضارة مصر في العهد الطولوني) ص ٣١٢ - ٣١٣: وذكر أن اليعقوبي ولد في مصر، وعاصر الحكم الطولوني، ومات بها.

(١) المكافأة (ط. أحمد أمين) ص ٧٤، ٩٦، ١٠٣، ١٢٨، ١٨٠، ٢١٥. وسيرة ابن الداية ١٢٢.

(٢) المكافأة ١٢٢. (٣) السابق ١٢٤.

(٤) المكافأة ١٨٢. (٥) السابق، وسيرة ابن الداية ٧٥، ١٢٧.

(٦) المكافأة ٨ - ١١، ٣٤، ١٥٥. (٧) السابق ٩١، ١٦٧، وسيرة ابن الداية ١١١.

(٨) المصدر السابق: ٧٦. (٩) السابق: ١٠٣.

(١٠) السابق: ٩٨، ١٠٥. (١١) المكافأة ١١٤، ١١٧، وسيرة ابن الداية ٧٦، ٩٤، ٩٨ - ٩٩، ١٢٦.

(١٢) المكافأة ١١ - ١٥. (١٣) سيرة ابن الداية ١١٤.

(١٤) المكافأة ١٥ - ١٩، ٨٩. (١٥) المصدر السابق: ١٠٠، ١٧٣.

(١٦) السابق: ١٥٧. (١٧) السابق: ١٨٤.

(١٨) من حلال وفيات الأعيان ١٥٣/٥ ١٥٧، والوفاء ١٠٦/١ - ١١٣، وطبقات ابن أبي أصيبعة ٦٠٣، ٦٠٨ - ٦٠٩: اتضح أنه ولد حوالي ٢٥٩هـ، وأنه تركي الأصل، وعلى علم بالموسيقى والفلسفة. من مؤلفاته العديدة في الفلسفة: 'المدنية الفاصلة'، التي بدأ تأليفها ببغداد، وحبها إلى الشام آخر ٣٣٠هـ، وأنها بدمشق ٣٣١هـ. ثم حررها ونظر في السجح المحررة. وقدم إلى مصر سنة ٣٣٧هـ، فأشار عليه علماؤها - ومنهم ابن =

وكان على صلة بـ (علّي المتطبب) المعروف بـ (الديدان)، الذى ذكر أحمد بن يوسف أنه حسن المعرفة بالطب، ويكتب الفيلسوف اليونانى أفلاطون^(١). هذا إلى جانب قراءاته فى كتب العجم كابن المقفع، وغيره^(٢).

و- **فَلَكْيُون، وَحُسَاب، وَمِنْجَمُونَ**: نقل أحمد بن يوسف المؤرخ عن علّي بن سند^(٣)، وبراقة الحاسب^(٤) وأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(٥).

ز- وأخيراً، فقد كانت للمؤرخ أحمد بن يوسف صلات ببعض نساء القصر القريبات من الأحداث، فنقل عن بعضهن ما احتاج من معلومات فى مؤلفاته. ومن هؤلاء: نعت مولاة أحمد ابن طولسون، التى كانت أماً لثلاث بنات كُنَّ لابن طولون^(٦). وكذلك نقل عن امرأة كانت تعمل قابلة فى قصر حمارويه، وتعرف بـ (أم آسية)^(٧).

وهكذا، عرضنا لأسماء عدد من أساتيد المؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف)، الذين نقل عنهم العلم، وكوّن على أيديهم ثقافته الموسوعية، التى ظهرت فى مؤلفاته التاريخية بعد ذلك، فحقّ للصمدى أن يجعله من فضلاء مصر ومؤرخيها، الذين جمعوا علوماً كثيرة أخرى فى: الأدب، والطب، والنجامة، والحساب، وغيرها^(٨).

ثالثاً - شبكة علاقاته السياسية:

وأقصد بذلك مدى إيجابيته ومشاركته وتأثره بالأحداث السياسية التى عاصرها، ومدى تعاونه مع القوى الحاكمة والسيطرة أيامه، من خلال مشاركته فى إدارة شئون البلاد فى منصب ما من المناصب وليّه، ودرجة صلاته ب كبار الساسة والقادة فى مجتمعه، ومقدار استفادته من تلك الصلات.

أحمد بن يوسف كاتب فى ديوان الطولونيين:

ليس بين أيدينا من النصوص ما يفيد وجود صلة سياسية لأحمد بن يوسف مع الأمير

= الدابة فيما يبدو - أن يُقسّمها إلى فصول تدل على معانيها، ففعل ذلك بمصر. والغالب أنه جالس ابن الدابة، فكان لقاء التجارب والحكم والثقافات (هو قارب الثمانين، وابن الدابة جاوز التسعين). ولعله ظل فى مصر حتى ٣٣٨هـ، ثم عاد إلى دمشق، حيث توفى ٣٣٩هـ. السابق: ١٧٦.

(١) المكافأة ٧٨.

(٢) السابق: ١٧٦.

(٣) السابق: ١٧٦.

(٤) سورة ابن الدابة ٨٢.

(٥) المكافأة ١٩٣، ١٩٥، ٣١١، وسورة ابن الدابة ٩٤.

(٦) المكافأة ١٣٥، وسورة ابن الدابة ١٠٣، ١٠٥.

(٧) المكافأة ٢٠٥.

(٨) الواقى بالوفيات ٢٨٢/٨.

(أحمد بن طولون)، اللهم إلا القبض عليه لحظة وفاة والده مع أخ له آخر، والتحقيق معهما، ثم إطلاقهما بعد التأكد من براءة والدهما، وخلو ساحتها مما يُدين. وأعتقد أن لقب (الكاتب)^(١)، الذى اشتهر به أحمد بن يوسف له أصل ودلائل تشير إليه، فتلميذه الفرغاني ألصق وأعرف به من غيره، وهو أثبت له ذلك الوصف. وفصاحة أحمد وأسلوبه الراقى في كتابيه: (المكافأة)، و(سيرة ابن طولون) يفيد أنه كاتب من طراز ممتاز، وذلك في زمن كان الكتاب يُختارون فيه ويُنتقون من ذوى الفصاحة والدقة والبلاغة والثقافة العريضة، وقد كان أحمد كذلك. والمعلومات الذى يذكرها أحمد في مؤلفاته الباقية، واهتماماته بالمادة الحضارية في (المكافأة)، و(سيرة ابن طولون) لا يكفى الحصول عليها صلاحته برحالات دولة بنى طولون، بل لا بد أن يكون صاحبها طالعها في الدواوين الرسمية، وسجلات الدولة، وهو مالا يتيسر إلا لمن ولى منصب كاتب الإنشاء في الديوان^(٢).

توقيت عمله في الديوان الطولوني:

لا نستطيع القطع في هذه المسألة، لكننا يمكن أن نستببط توقيتاً تقريبياً. فمن المقطوع به أن أحمد بن يوسف لم تكن له صلة بالديوان في عهد ابن طولون؛ نظراً للواسوس والشكوك التى كانت تساور ابن طولون تجاه يوسف والده. ويغلب على ظنى أنه لم يعمل - كذلك - في الديوان زمن حمارويه، وإلا لبلغنا عنه بعض المعلومات، فحمارويه ولى فترة معقولة من الزمان (٢٧٠ - ٢٨٢هـ). ويترجح لدى أنه عمل في فترة (هارون بن حمارويه ٢٨٣ - ٢٩٢هـ)^(٣)، فهى الفترة الباقية المتأخرة من حياة الدولة الطولونية، والظروف فيها مهيأة أمام مؤرخنا لتولى هذا المنصب، فقد خفّت قبضة الدولة، ولم تعد هناك حساسية تجاه موالى العباسيين، بعد أن تحسنت العلاقات معهم، بل صاهر حمارويه الخلافة مصاهرة سياسية. ثم إن أحمد بن يوسف لا

(١) ورد في (مقدمة المكافأة) لابن الداية ص ١: "وأخبرنا أبو محمد عبد الله الفرغان، قراءة منى عليه، قال: أخبرنا أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب قراءة منى عليه". فناسخ المخطوطة بنقل عن الفرغاني (أحد تلاميذ ابن الداية) هذا الكتاب بعد أن راجعه عليه قراءة، فأجاز له نسخه وروايته عنه. والفرغان نفسه نقل الكتاب عن أستاذه بالطريقة نفسها، ولقبه باللقب المذكور. ولى عنوان مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطليموس)، الذى وضعه ابن الداية ذكر أنه (كاتب آل طولون). وأخيراً، فقد وصفه ابن زولاقى - فيما ينقله عنه باقوت - أنه أحد وجوه الكتاب " (معجم الأدباء ١٦٠/٥).

(٢) ماجستير سيد محمد قطب ص ٥٤. وبضيف قائلًا: إنه يعمل لدى أمراء بعض بنى طولون، أو من تلاهم من حكام. وتساءل: ماذا يُقصد بالعبارة الأخيرة؟ هل المقصود أنه اتصل بحكام فترة ما بين المصريين، أو العصر الإخشيدى؟ إننا لا نجد ما يدل على ذلك، أو يشير إليه. ثم إن كتبه وعمله ارتبط بديوان الطولونيين، حتى عُذ المؤرخ الرسمى للأسرة الطولونية على نحو ما يعبّر د. الشيال في (تاريخ مصر الإسلامية ١/ ١٢٨)، وذلك على اعتبار أنه أول من أرخ لهذه الدولة، وعنه نقل المؤرخون. وارتبطت عاطفته بهم، وأكثر من ذكر محاسن عبيدهم في سيرته.

(٣) الولاة (ط. جست) ٢٤٢ - ٢٤٦.

صلة له بالعراق كأيّيه، فهو مصري المولد والنشأ، والمربي.

فإن قيل: ألا تعد كتابته (سيرة حمارويه)، و(سيرة هارون بن حمارويه) دليلاً على اتصاله بديوان (حمارويه)؟ أقول: ليس هذا شرطاً، وقد سبق أن قطعنا بعدم وجود صلة له بدين طولون، رغم أنه كتب سيرته أيضاً^(١).

وأعتقد أن هنا فارقاً مهماً بين (سيرتي: ابن طولون، وحمارويه) من جهة، و(سيرة هارون بن حمارويه) من جهة أخرى. فالأوليان كتبهما - في الغالب - من واقع مرويّات غلمان الأميرين، وقادقهما، ورجال الدولة، والمقرّين من القصر (رجالاً، ونساء). ولا بأس أن يدعمهما - بعد عمله بالديوان - بمزيد من التفتيح والتهديب، وذكر الوثائق. أما (سيرة هارون بن حمارويه)، فكان أقرب إلى الأحداث وصاحبها، فكتب من واقع تجربة عملية عايشها في الديوان.

وعلى كسل، فقد حرّمنا فقد السيرتين الأخيرتين فرصة معرفة توقيت اتصاله بديوان الطولونيين على نحو قاطع، وإن كان مجرد إقدامه على كتابة (سيرة هارون بن حمارويه)، وعهده عهد ضعف واضطراب، وشخصيته ليست من الأهمية والتأثير، بحيث تستأهل أن تُفرد لها ترجمة مفردة، كل ذلك يجعلنا نرجح أنه كتبها؛ بحاملة للرجل، الذي عيّنه في الديوان.

حدود صلته بالبيت الطولوني:

(١) أعتقد أنها صلة لا تتعدى كونه كاتباً، يقوم بعمل إداري في الديوان. ولست أتفق مع من يخرج هذه العلاقة، عن حدودها المعقولة؛ فيجعل له أحد الباحثين مقرباً إليهم^(٢)، ويجعله آخر أحد خواص دولتهم^(٣)، ويبالغ ثالث مبالغة مخالفة للواقع، فيقول: كانت له بهم خُلطة وأُسّة، وأنه لأصالة بيته^(٤)، وتُبلّ مَحَنَدَه تُفَتِّح له أبواب القصور، فيُطَّلَع على سر القوم وجهرهم،

(١) أما فترة حكم حمارويه، فلا يوجد نص، يدل على صلة أحد بن يوسف بحمارويه. وكل ما وجدته نص فريد في مخطوط (شرح كتاب الثمرة لبطلموس)، لأحمد بن يوسف ص ٣٢، يذكر فيه أن خادم حمارويه قدم إلى أحمد، وأعلمه أن مولاه حمارويه رُزق هارون، وسأله الخادم (بصفة شخصية) أن ينظر في النجوم، ويخبره ما إذا كان هارون سيتقلد أعمال مصر. ولما كان ابن الداية مؤرخنا في زمن الحداثة (فترة الطلب لعلم التنجيم)، لم يستطع معرفة الجواب الصحيح، فسأل أحد المخضرمين في حساب النجوم (صالح بن الوليد التميمي)، فأجابه بعد أن أعطاه مالاً بأنه سبلى الأمور، وحدد مدة توليه بالتقريب. من الواضح أن الصلة كانت بخادم حمارويه لا حمارويه نفسه، وأن ذلك كان بعد وفاة ابن طولون بقليل، وفي بداية عهد حمارويه (سنة ٢٧٠هـ)، إذ كان مؤرخنا ابن ٢٥ سنة. ومعلوم أن هارون (ولي ٢٨٣هـ، وقيل في صفر ٢٩٢هـ)، فيكون تولى عن ٢٢ عاماً، وولي وهو صغير السن (النجوم ١٤٢/٣)، وهذا أرجح عندي مما ورد في (الولاء ص ٢٤٦)، إذ جعل عمره ٢٨ سنة، فيكون ميلاده سنة ٢٦٤هـ (في عهد جده ابن طولون)، وهذا غير صحيح، فالرواية تذكر أن ميلاد هارون كان في عهد أبيه حمارويه.

(٢) تاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشبال ١٢٨/١.

(٣) هو ابن سعيد في (المغرب - قسم مصر) ص ٧٣.

(٤) وهذا غير صحيح، فالعروف أن أباه من موالى العباسيين، لكن ذلك لا يجعلنا نخط من قدره، بل نعجب بعلمه وثقافته.

وعلى عُجْرهم وُبُحْرهم^(١). إنه حقاً كلام إنشائي جميل، لكنه لا نصيب له من الحقيقة، فلا هو من أصل عظيم، ولا القصور مفتحة أمامه. هو - في كلمة موجزة - مثقف على درجة عالية من الذكاء، وثرى من الأثرياء، خدمته الظروف بعد موت أبيه، ثم موت ابن طولون، ثم تحسُن الصلة بالخلافة، فعمل بالديوان؛ ليفيدوا من خبرته ومواهبه في وقت عمت فيه الاضطرابات، فوظف عمله الجديد في خدمة مؤلفاته التاريخية، فوضع يده على كثير من البيانات في الدفاتر والسجلات والوثائق. وتابع الأحداث عن كثب، واستثمر صلاته السياسية والاجتماعية، فكتب تاريخ تلك الفترة على نحو رائد متطور جدير بالإعجاب، كما سنرى.

أبرز الأحداث السياسية، وموقفه منها:

نحاول من خلال هذه الفكرة - وفي ضوء المادة العلمية الموجودة - أن نبرز الدور الذي لعبه مؤرخنا خلال الأحداث الحسام، وهل كانت له هموم عامة، أو كان اهتمامه منصباً على رعاية مصالحه، وحماية أمواله الخاصة.

أ- **موقفه خلال حملة محمد بن سليمان ودميانة القائد البحري؛ للقضاء على الدولة الطولونية، وإعادة مصر إلى تبعتها للخلافة العباسية:** لقد تعرضت مزارعه - في البداية - لنهب وسلب جند دميانة، إلا أن القدر أنقذه من أضرار فادحة، كادت تلحق بضياعه، عندما ساندته وعُضَّده أحد أصحاب القائد دميانة، وقد تعرف إلى أحمد، الذي كان قد أحسن إليه فيما مضى. وبذلك ظلت مزارعه في حماية الجند حتى غادر الجيش تلك الناحية^(٢).

وثمة موقف آخر نجا فيه (أحمد بن يوسف) من التعرض للإهانة والتعذيب، واستصفاء أمواله على يد القائد (محمد بن سليمان)؛ نتيجة معروف صنعه بانه عم هذا القائد^(٣)، واشتياق ابن سليمان لرؤيته بعد ما سمع من أشعاره بالعراق، تلك التي يرويها عنه الشاعر العراقي سُوَّار بن أبي شُرَاعَة^(٤).

ب- موقفه أثناء حركة ابن الخليلج وبعدها:

يبدو أن مؤرخنا كان متحمساً لحركة هذا الرجل، باعتبارها محاولة لإعادة نفوذ وحكم الطولونيين من جديد، فقام بالتعاون مع هذا القائد، وظل على إشرافه على الضياع والمزارع مقابل استئفاع السيد الجديد بنصيب من غلاتها. وقد عانى مؤرخنا من الفوضى والاضطراب الذي أصاب البلاد لما أفلت الزمام من يدى ابن الخليلج، حتى اضطر إلى الاستعانة بمن يحميه

(١) مدخل كرد على لسيرة البلوى ص ٨. وفي (المعجم الوسيط) ج ١ ص ٤٠ مادة (ب.ج.ر): أفضيتُ إليه بمـ (عُجْرِي، وُبُحْرِي)، أى: أضلعتُه على معاني، وأمرى كله؛ لفتى به.

(٢) المكافاة ص ٤١-٤٣. (٣) السابق ٨٠-٨٢. (٤) السابق ٨٢-٨٤.

ويخرسه من اللصوص وقطاع الطريق، وهو في طريقه إلى الفسطاط بعد خلوها من الجند. فلما قبض على ابن الخليل وانتهى أمره، اختفى أحمد؛ مخافة الإيقاع به، ونُهبت ضياعه، وذهبت أمواله وأملاكه، فقاسى شديد الخوف والفقر، حتى أنقله الوزير أبو العباس أحمد بن محمد بن بسنطام^(١)، الذي دخل مصر للإشراف على شئونها^(٢).

رابعا - الملامح العامة لظروف (أحمد بن يوسف) الاقتصادية، وصلاحه الاجتماعية:

١- شارك أحمد بن يوسف أباه في عمله، وكون خيرة اقتصادية ومالية وإدارية لا بأس بها. وبعد وفاة والده تحمل تبعات هذا العمل، وأثرى فيه ثراء كبيراً، وكانت له أراض عديدة في أنحاء مصر، يشرف على زراعتها. ولا شك أنه تعرض لهزات عنيفة، أضرت به أبلغ الضرر وأفدحه خلال الاضطرابات السياسية.

٢- لا شك أن اتساع مجالات نشاطه الاقتصادي جعله على صلات اجتماعية وثيقة بالعاملين بالأسواق، والمزارعين من فلاحين بسطاء. ويعتقد أنه كان له خدم، وأجراء، ووكلاء وكُتّاب، يساعدونه في إنجاح مهامه التي يقوم بها. وذلك الاختلاط والاندماج عرفه طبقات الناس في مجتمعه بكل ما انطووا عليه من خير ومن شر^(٣)، وكان له انعكاساته في مؤلفاته.

٣- بخلاف الأزمات الاقتصادية التي أضرت بمؤرخنا؛ نتيجة انعدام الأمن، واضطراب الأحوال، فقد كان يُطالب - أحياناً - من مسئولى الخراج بأموال تفوق طاقته (ربما لتقديرات جزافية، أو لعدم مراعاة ما قد تتعرض له المحاصيل من آفات). وقد كان أحمد يحاول إظهار حاجته، وسوء ظروفه المالية لمسئولى الخراج؛ حتى يوضع ذلك في الاعتبار^(٤).

الخلاصة:

كان مؤرخنا يلي منصباً في ديوان الطولونيين أواخر دولتهم، ولكن مشاركته في التطورات

(١) راجع أخباره لـ (الوزراء) للصائغ ٤٩-٥٠، ٩٥-٩٦، ٢٧٥.

(٢) ثم ذلك خلال فحص أبي العباس حال الضياع في مصر بعد ابن الخليل، وحدودها، وأسماء المشرقيين عليها حتى سنة ٢٥٠هـ، فوجد اسم يوسف بن إبراهيم في ضياع كثيرة. فلما علم أنه صاحب ابن المهدي، سأل عن ولده، وعلم أن أحمد مقيم في مصر، فاستأمن له إسحاق بن نصير الكاتب، الذي كان يوزعه في داره، فأمنه أبو العباس، وحصل منه على نسختين من كتابي والده: (الطبيخ)، وأخبار إبراهيم بن المهدي. (المكافأة ٢٠٢-٢٠٥).

(٣) كنوز الأجداد ١٢٧.

(٤) دخل يوماً على صاحب الخراج (أبي الحسن علي بن المظفر الكرخي) مُسَلِّماً عليه، فسأله عن حاله: كيف حالك يا أبا جعفر؟ فقال أحمد على البديهة مستندراً عطفه:

بكفك من سوء حالي إن سألت به أتى على طبري في الكوائين

(معجم الأدباء ١٦٠/٥، والوالي ٢٨٢/٨، وماجستير سيد محمد قطب ٣٩). أي: في هيئة رثة، وحال رقيقة كمن يلبس ملابس حفيفة في برد الشتاء القارس في (كانون الأول، والثاني: ديسمبر، وبناير)؛ لغزوه الشديد.

السياسية في عصره لم تكن كافية. وكان همُّ أحمد بن يوسف وسط الخطوب المدهمة أن ينجو بأمواله وضياعه. ولم نر له قدرة على الوقوف أمام اعتداءات الجند وسلبهم ولهبهم مزارعه، وكان أعجز من الوقوف أمام طغيان أصحاب الخراج وظلم الدولة زملاءه في المهنة، بل هو ينجي ويترك ضياعه؛ لينجو بخاصة نفسه، فينقذه القدر وإحسانه السابق من الهلاك.

الإنجاز العلمي لأحمد بن يوسف المؤرخ المصري:

تلقي مؤرخنا معارفه وعلومه على أيدي الأساتيد والكتب^(١). وأعتقد أن طلبه العلم كان ميلاً وفطرة وطبيعة، ثم اكتساباً من بيئة والده العلمية. وأعتقد - أيضاً - أنه كان بإقباله على العلم يخفف عن نفسه ويلات القلق، وهوم التجارة، والانخراط في الحياة المادية بكل مخاطرها ومعاذيرها، فكان ينتشل نفسه بين الحين والحين، يقرأ ويحاور ويناقش، فيجد في مجالس العلماء لذة وسروراً وسعادة، كلما فهم جديداً، وأتقن علماً جديداً^(٢). ومن النطقى - بعد ذلك - أن يشتغل بالتصنيف، فيُخَلِّف لنا كتباً وتلاميذ، ينقلون عنه علمه، الذى تستفيد منه الأجيال التالية.

مؤلفاته:

- ١- في مجال التاريخ: سيرة أحمد بن طولون، وسيرة أبي الجيش (خمارويه)، وسيرة هارون بن خمارويه، وأخبار غلمان بنى طولون^(٣).
- ٢- في الأدب، والقصص: مجموعة من الأشعار ليست بالقليلة^(٤)، وكتاب (المكافأة)،

(١) فلا غنى عنهما معاً: يؤخذ العلم من الكتب لقوى الفهم، والأساتيد مطلوبون في كل علم يُطلب اكتسابه (طبقات ابن أبي أصيبعة ص ٦٩١).

(٢) ورد أن أرسطو الفيلسوف اليوناني أعاد على تلميذه مسألة، فقال له: أفهمت؟ قال التلميذ: نعم. قال: لا أرى آثار الفهم عليك. قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أراك مسروراً، وللدليل على الفهم السرور. (طبقات ابن أبي أصيبعة: ص ١٠٢).

(٣) معجم الأدباء ١٥٩/٥ - ١٦٠ (وعُتِبَ عن سيرة خمارويه بلفظ فيه تحريف: كتاب سيرته إلى أبي الجيش خمارويه)، والروايات بالوفيات ٢٨٢/٨ - ٢٨٣، ومخطوطات عيون التواريخ (ورقة ٦٧). وفسر كرد على في (كنوز الأحاديث) ص ١٢٦، غلمان بن طولون بقوله: رحلهم والقائمون بأمرهم. ويلاحظ أن كل هذه الكتب تتصل بالطولونيين،

وكلها مفقودة، إلا أن ابن سعيد نقل لنا الكتاب الأول منها في كتابه: (المغرب - قسم مصر) ص ٧٣ - ١٣٣.

وفي (بغية الطلب) لابن العديم ص ٣ - ١١١٤ - ١١١٥ يقول المؤلف: قرأت في سيرة خمارويه في نسخة عتيقة. ولم يُسَمَّ مؤلفها. ونقل لنا اضطراب جيش خمارويه الخارج إلى الشام، وخروج الواسطي عليه، وتحريضه الموفق ضده. وأعتقد أن هذا النص الوحيد الفريد من (سيرة خمارويه) لابن الداية.

(٤) فقد سأله صديقه الشاعر العراقي (نزيل مصر) قبل رجوعه إلى بلده أن يكتب أحمد له بعضاً من شعره، فكتب له أحمد مقدار خمسين ورقة منه، فكان يستحسنه ويعجب به، ويعرضه على الأشراف والسادة في بلده، فيُثَوِّن عليه

وكتاب (حُسن العُقْبَى)^(١).

- ٣- في السياسة، والأخلاق، والفلسفة: كتاب (السياسة)^(٢)، أو (العهود اليونانية)^(٣).
- ٤- في المنطق: كتاب (مختصر المنطق) الذي ألفه للوزير (علّى بن عيسى)^(٤).
- ٥- في الفلك، والرياضيات: فسّر أحمد بن يوسف المصري المهنس كتاب (الثمرة) لبطلميوس^(٥).

- (١) معجم الأدباء ١٦٠/٥. واعتبرهما الصّفي كتاباً واحداً باسم (المكافأة، وحسن العقبى). (الوال بالوفيات ٢٨٣/٨). وهو الصحيح المشهور الموجود مطبوعاً بين أيدينا. بينما اكتفى ابن أبي أصيبعة بتسميته (حسن العقبى)، ونقل عنه (الطبقات ص ٢٨٧). وكذا سَمَّاهُ حاجٌ خليفة في (كشف الظنون) ٦٦٧/١. والحق أن كتاب (المكافأة) عبارة عن ثلاثة أقسام:
 - ١- المكافأة على الحسن: وفيه يعرض أحداثاً مرت، أو نماذج من التاريخ لأناس أحسنوا، فلقوا جزاءهم خيراً.
 - ٢- المكافأة على القبيح: وهي عكس النماذج السابقة.
 - ٣- حسن العقبى: حكايات تفيد أن الصبر والمجد جزاؤه حسن العاقبة. وهو كتاب أدبى في المقام الأول، وإن وردت به بعض أحداث تاريخية ومظاهر حضارية من عصور مختلفة، استخدمت للتدليل على هدفه من الكتاب. (راجع: النشر الفني في القرن الرابع الهجري، للدكتور زكي مبارك ص ٣٧٣-٣٧٧، وتصويب بعض الأخطاء اللغوية الواردة فيه من خلال مقال عبد القادر الغربي في (مجلة المجمع العلمي بدمشق) مجلد ١٩، ١٩٤٤م، ص ٣٢-٤٠، ودراسة الكتاب دراسة أدبية تحليلية في مقال د. العطار في عالم الفكر، وماجستير سيد محمد قطب.
- (٢) تلك تسمية بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) - ط. دار المعارف - ج ٨/٣، والركلي في الأعلام ٢٧٢/١.
- (٣) ذكر هذا العنوان سيد محمد قطب في ما حُسِنه ص ٧٦. وحَقَّق الكتاب حديثاً بالجزائر على يد د. عمر المالكي بعنوان: (الفلسفة السياسية عند العرب). ولا صحة لما ذكره هذا المحقق في مقدمته ص ٢٨: أن المؤلف ابن الداية غادر مصر بعد سقوط الطولونيين إلى بعلبك، وأهدى هذا الكتاب إلى الوزير علي بن عيسى بن داود وزير المقتدر العباسي. وهذا الكتاب مهم، ويعبر عن عمق ثقافة ابن الداية الفلسفية، وحسن نقله آراء فلاسفة اليونان، وحسن تطويعها لمبادئنا، والتعبير عنها بلغة رقيقة عميقة. وهو على هيئة وصية ملك لابنه، ووزير لابنه، ورجل علمي لولده، وهو نظريات سياسية للإصلاح الشامل.
- (٤) معجم الأدباء ١٦٠/٥، والوقا ٢٨٣/٨، وهو كتاب مفقود، لعله جمع فيه مطالعته في كتب أرسطو المنطقية، التي عرفها العرب، وترجموها منذ ابن المقفع الذي ترجمها للنصور (تاريخ الحكماء للقفطي ص ٢٢٠). وهو يعبر عن حب ابن الداية للقبلى واحترامه للمعل، كما هو واضح من إيراده أخبار ذكاء وقراسة ابن طولون (سيرة ابن الداية ١٠٠-١٠١). ولعله أهداه إلى ذلك الوزير سنة ٣١٢هـ لما قد أعمال مصر والشام، وحُمل أمر المغرب كله إليه (صلة تاريخ الطبرى ١٠٧). وربما أهداه إليه سنة ٣١٨هـ، لما قدّم مُعَضَّد أباً بكر الماذناتى برأيه، لما ولى أعمال مصر (السابق ١٣٠).
- (٥) الفهرست لابن النديم (ط. طهران) ص ٣٢٨، ومعجم الأدباء ١٦٠/٥، وتاريخ الحكماء ٧٨ (حجته في أحكام النجوم)، والوقا ٢٨٣/٨ (سماه ترجمة كتاب الثمرة). وظن د. شاكر مصطفى أن كتاب الثمرة لبطلميوس في الفلسفة (تاريخ العربي والمؤرخون ١٨٦/٢). والصواب: أنه في (الفلك وأحكام النجوم). وذكر بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) - ط. دار المعارف - ج ٨/٣: أن نصير الدين الطوسى شرح كتاب (الثمرة). واعتقد أن لأحمد بن يوسف رسالة أخرى في (الفلك والنجوم) مفقودة، لكنه أشار إليها في مخطوطته (شرح كتاب الثمرة) ص ٣٢. ومن مطالعتي للمخطوط المذكور، تبين أنه يذكر عبارة بطليموس في هذا الكتاب تحت عنوان: (كلمة). وتحتها في وسط السطر تُكتب كلمة (التفسير)، وأسفلها شرح المؤلف (ابن الداية). والكتاب خليط من الفلك والتنجيم، وأحداث التاريخ، التي يبدل بوقوعها على صدق حسابات الفلكيين وتنبؤاتهم. ومن الأحداث المعروضة فيه: أخبار الطولونيين، وحمى الحملات العبيدية على مصر (حملة حياصة، وحملة القائم). وقد علّم البحث في النجوم ابن الداية الدقة والتثبت قبل إصدار الأحكام، والفصل بين التشابهات والاختلافات. ولا شك أن لذلك أثره في دقة التاريخية، واختيار موارده (راجع المخطوطة ص ٥٨-٥٩، ٦٦-٦٧، ١٠٠-١٠١).

وأمدنا القفطى^(١)، وبروكلمان^(٢) مجموعة كتب، نسبها إلى أحمد بن يوسف في مجال الرياضيات.

تلاميذه:

١- أبو محمد عبد الله بن أحمد الفرغاني^(٣) (ت ٣٦٢هـ): وهو راوى وناقل كتاب (المكافأة) عن مؤلفه (أحمد بن يوسف بن إبراهيم) قراءة عليه^(٤).

٢- الحسن بن إبراهيم بن زولاق اللبشي المصري (ت ٣٨٧هـ): وهو تلميذ مؤرخنا ابن الداية، وترجم له على نحو متكامل^(٥). وذكر ابن زولاق في مقدمة (سيرة الإخشيد): أن أبا جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه حمارويه، وأنشدا في الناس، وأنه قرأهما عليه، وحَدَّثَ بهما عنه مع غيرهما من مصنفاته، وأنه عمل ما فاتته من سيرتهما^(٦). وهذا يعني: أن ابن زولاق تلميذ أثير لدى أستاذه أحمد بن يوسف، يقرأ عليه مؤلفاته، ويذيل عليها بعد ذلك؛ حتى تكتمل كتب أستاذه التاريخية.

قضية تشيعه:

سَلَّمَ أحد الباحثين^(٧) بتشيع (أحمد بن يوسف المصري)، وإن جعله تَشِيْعاً معتدلاً غير متعصب، واستدل على ذلك بأدلة، منها: صلته باليعقوبي المؤرخ الشيعي^(٨)، وكأنه يرى أن تلك الصلة جعلت التشيع ينتقل إليه. ويرى - كذلك - أن ميول أبيه (يوسف) العلوية^(٩) دليل على تشيع ابنه، كأما انتقل إليه التشيع وراثاً. بالإضافة إلى أنه رسم للعلوي في كتابه (المكافأة) صورة طيبة في الإحسان^(١٠).

- (١) تاريخ الحكماء ٧٨.
- (٢) تاريخ الأدب العربي (ط. دار المعارف) ٨١/٣.
- (٣) راجع ترجمته في: سمر أعلام النبلاء ١٦/١٣٢-١٣٣، ومعجم المؤلفين ٢/٢٢٣، ومقدمة جست لكتاب (الولاية) في ترجمة المصنف ص ٤-٥.
- (٤) المكافأة ص ١.
- (٥) معجم الأدباء ٥/١٦٠.
- (٦) المغرب (قسم مصر) ص ١٤٨.
- (٧) ماجستير سيد محمد قطب ص ٦٩-٧٠.
- (٨) ينسب إلى جده الأعلى (واضح) تشيع مستتر، ظهر في تأمره حتى أفلت إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وقد كان واضح على بره مصر؛ مما غرَّضه لقتل المهدي له وصلبه سنة ١٦٩هـ. وحدير بالذكر أن واضحاً كان والياً على صلاة مصر وخارجها من ٢٣ من حمادى الأولى سنة ١٦٢هـ، وغُزِلَ بعد حوالي ٤ شهور؛ لشدة على الناس. (حول تشيعه ومناصبه في مصر: راجع النجوم ٢/٥١-٥٢، ومقدمة محقق تاريخ يعقوبي ١/٦-٧، وتاريخ الأدب العربي (ط. الهيئة العامة) ق ٢ ص ٦٤٢-٦٤٣.
- (٩) لعله يقصد إحسانه إلى العلويين، الذي أدركه ابن طولون لما هاجم جده دار يوسف بن إبراهيم لحظة وفاته. (المكافأة ٨٨-٨٩).
- (١٠) السابق: ١٢٤-١٢٦.

والحق أنه استدل بأدلة يسهل الرد عليها، كما يلي:

١- لا يوجد في صلة ابن الداية باليعقوبى ما يؤكد تأثير الأخير في مؤرخنا، حتى يتبع مذهبه في التشيع.

٢- إحسان يوسف وكرمه عام مع العلويين وغيرهم، فهو رجل يحب للإحسان، متصف بالبروة مع كل المحتاجين، ولا يعد إحسانه إلى العلويين تشيعاً. وبالنسبة لصورة العلوى التى رسمها فى إحدى روايات كتاب (المكافأة)، فهى منقولة من مصدر موثوق به، وتتفق مع ما عُرف عن العلويين من كريم الأخلاق والصفات.

ونخلص من ذلك - رغم ما تذكره بعض كتب الشيعة^(١) - إلى أن الرجل محب لآل البيت حباً مشروعاً لا إفراط فيه ولا تفريط، وهو بعيد كل البعد فى أفكاره ومؤلفاته عن أفكار الشيعة الضالة، وعقائدهم الباطلة.

سمات شخصيته:

تشكل شخصية الإنسان من واقع نشأته وتربيته، ثم من خلال تراكم خبراته وتجاربه فى الحياة، وما اكتسبه من قيم وأخلاقيات. ويمكن تتبع هذه الملامح والسمات على النحو الآتى:

١- أمانته:

وذلك نلمسه من دفته المتناهية فى رواياته التاريخية، وحرصه على ذكر مصادر معلوماته، وأداء الرواية كما سمعها وتلقاها. ومثال ذلك: ما رواه عن موسى بن طولون (أخى أحمد بن طولسون)، بخصوص رجل، كتب عنه (طيفور) - عين ابن طولون فى الحضرة - أنه لا يتعقد مجلس للكبراء إلا ويقوم رجل من الموالى الحاضرين - ذهب عنه اسمه - بالوقوع فى أحمد بن طولسون^(٢). فهنا لا نشك فى معرفة (طيفور) بهذا الشخص، لكن نسيان اسمه كان من ناقل الرواية (موسى بن طولون)، الذى أدى مؤرخنا عنه روايته كما سمعها.

٢- عقليته المنظمة، وعقلانيته وموضوعيته:

وذلك نلاحظه من خلال المظاهر الآتية:

أ- نظرتة الشاملة للأمور، وحسن تقسيمه وتنظيمه:

وقد ظهر ذلك فى كتاب (المكافأة)، إذ جعل له مقدمة، أوضح فيها هدفه الأصيل من

(١) أعيان الشيعة للعالمى ٢٠٧/٣.

(٢) المغرب (نسم مصر) ص ٩٥.

الكتاب^(١)، ثم عرض القسم الأول منه (المكافأة على الحسن)^(٢)، وجعل في نهايته خاتمة ملائمة، هي - في الوقت نفسه - مدخل مُمهّد للقسم الثاني من الكتاب (المكافأة على القبيح)^(٣). وفي نهايته وضع لهذا القسم خاتمة ملائمة لموضوعه، وممهدة للقسم الثالث والآخر من الكتاب (حسن العُقْبَى)^(٤). وبعد انتهاء القسم الثالث كتب تحت عنوان: (خاتمة)^(٥) ما يعد ختاماً للكتاب ككل. فهذا التخطيط وذاك الترابط الموضوعي بين أقسام الكتاب يشير إلى عقلية منهجية منظمة^(٦).

ب- حياده وعدم تعصبه:

فهو ينقل عن مختلف العلوم والثقافات (عربية، وفارسية، ويونانية). ويتلمذ على مختلف الأساتذة من فقهاء، ومؤرخين، ورياضيين، ورجال فلك وحساب، وعلماء طب، إلى آخر هذه النوعيات المتعددة من العلماء، الذين عرضنا لهم (في مصادر ثقافته). ويعد كتابه الفلسفي (العهد اليوناني) نموذجاً لنقله عن ثقافات الأمم الأخرى ما يصلح لنا، وتطويره ليلائم قيمنا وسلوكنا.

ج- قدرته على الاستدلال المنطقي:

فهو يعرض رأياً ما في قضية من القضايا بهدوء، ويبين خطأ هذا الرأي، ثم يعرض فكرته هو، ويقدم دليل صدق رؤيته^(٧). وبذلك يقنع قارئه بهدوء وأمانة من خلال عرض وجهات النظر المختلفة، مقدراً كل جهد ورأى وفكر بُذل فيها^(٨).

٢- حكمته وخبرته الكبيرة بالحياة:

فهو يعلم أن الدنيا ملؤها التَّصَبُّب والتَّعَب، فيجب الصبر على بلائها وشقاء الإنسان بها. والدنيا تتطلب العمل الدائب، الذي لا يعرف الكلال ولا الملل، مع احتفاظ المرء بأسراره. "واعلم أن الميل إلى الراحة غفلة عن علو لا يغفل، وأن مَنْ ضعف عن سره لم يقو بشئ من أمره"^(٩).

ومن منطلق فهمه السابق كان أحرص ما يكون على استغلال وقته، وعدم التفریط في شئ

(١) المغرب (قسم مصر) ص ١-٣.

(٢) يمتد من ص ٥-١٠٤، وخاتمه ١٠٤-١٠٥.

(٣) يمتد من ص ١٠٦-١٦٠، وخاتمه ١٦٠-١٦١.

(٤) يمتد هذا القسم من ص ١٦٢-٢١٨.

(٥) ص ٢١٩-٢٢٠.

(٦) لمزيد من النماذج راجع: الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية ص ٦٢، ٩٩-١٠٠.

(٧) الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية (مقدمة المحقق ٤٥-٤٦).

(٨) ماجستير سيد محمد قطب ص ٦٧.

(٩) الفلسفة السياسية عند العرب ص ١٢٣.

منه؛ فإذا أضفنا إلى ذلك عمره المديد، الذى قارب المائة، أدركنا سر تحصيله كل هاتيك العلوم والمعارف والثقافات، مع انشغاله بتثمير أمواله، والإشراف على مزارعه، وإدارة ضياعه. وهو يعبر عن إيمانه العميق بقيمة الوقت في قوله: "ومن أحمد الأمور بك أن تقدم الاحتياط في إنفاق ساعات زمانك أكثر من تقديمك الاحتياط في إنفاق مالك؛ لأن الذى يمضى من المال قد يُستخلف، وما يمضى من الزمان لا يرجع"^(١).

وفي سبيل الحفاظ على الوقت وعدم تفلته، يرى ضرورة التحكم في النفس وشهواتها، وحسن امتلاك زمامها؛ حتى تكون أقوى على إدارة شئون غيرها. "واعلم - يا بني - أنه لا يضبط الكثير من الناس من لم يضبط نفسه الواحدة، فارفع نفسك عن كَلْبِ الحرص، وذَلِ الشهوة"^(٢).

ويعلم أحمد بن يوسف أن الأعمال والواجبات أكثر من الأوقات، فلا بد من حسن تنظيم الوقت لأدائها مهما كثرت دون تسويف ولا تأجيل، وبإقدام وحساسة متناهية. ويرى أن يحرص الإنسان على الجمع بين العلم والعمل، فهو يدرك صعوبة العمل وتنفيذ الخطط. وإن تطلب الأمر الاستعانة بمعاونين، فلا يستخدمُ المرء إلا الأكفاء الأمناء. يقول في هذه المعاني كلها: "فلا يشغلنك تفصيله عن جملة، فيضيع منك بأسره. ولا تدفعن عملاً عن وقته، فإن للوقت الذى تدفعه إليه عملاً آخر. وأقل ما يلحقك من ازدحام الأعمال دخول الخلل فيها. واعلم أن تهيب العمل يطيل زمانه"^(٣). ويقول أيضاً: "ولا تتوهم أن كل ما علمته تقدر على عمله، فإن رياضة العمل أصعب من رياضة العلم. ولا تركز في الاستخدام إلا إلى شفاعة الكفاية والأمانة"^(٤).

٣- طبيعته الحذرة القلقة، وأثرها في علاقاته:

تعرض مؤرخنا في حياته كبيراً، وفي حياة والده يوسف صغيراً، لبعض الخن. وعاش مؤرخنا حياة رجال الأعمال المملوءة بالاضطراب والقلق النفسى، والحذر الشديد في زمن شاعت فيه مصادرات الأموال بالحق والباطل. وخالط أحمد بن يوسف - بحكم عمله - طبقات المجتمع على اختلافها، وأدرك طبائع النفوس البشرية، وكثرة ما يعتريها من حسد وطمع وبغض، فتغلغل ستم الحذر والقلق داخله^(٥)، لكنه لا يوصف ببخل ولا شح، لأنه كان يعطى ويحسن

(١) الفلسفة السياسية عند العرب: ص ٧٨.

(٢) و(٣) و(٤) السابق: ص ١٠٦.

(٥) تعرض أحمد بن يوسف لمواقف مفرقة كالموقف الذى تعرض له، وهو في طريق عودته من العمل في ضياعه إلى القساطر، فإذا بمجموعة من الأعراب تهجم عليه ويهجمون عليه ومن معه، لكن حراسه تفاهموا معهم، وانشع حطهم وزال. ونزل أحمد حتى هولا المجبرين له للراحة، لكنه - وكما يصف نفسه - ظل يلتقط أنفاسه، وتسارع ضربات قلبه، وقد تحول الطعام في فيه إلى مرارة العلقم، فلا يقبل عليه؛ لما لحقه من خوف رهيب. (المكافأة ٣٧ - ٣٩).

إلى المحتاجين، لكنه كان ييسط يده بقدر^(١)، وكان يرد الإحسان والمعروف بأحسن منه^(٢)، كل ذلك وهو حذر متخوف من غدرات الزمان، وتقلبات الأيام. وقد أثرت هذه الطبيعة في تصرفاته وعلاقاته وأفكاره على النحو الآتي:

أ- يُحذّر من إدخال المال الحرام إلى ما يملك الإنسان ولو كان الحرام قليلاً، فذلك يحقق بركة الكثير من المال^(٣).

ب- أهمية المال بالنسبة لرجال الأعمال بالذات: فهو عصب حياتهم. ومن هنا قال: "واعلم أن مالك أكبر ما أحرز لك المكانة في أهل طبقتك، فاقمّه مقام الشريك الذي تنق بسرعة إجابته، وتحمّد حسن صحبته، وترى زيادة جاهك ونقصانه بزيادته ونقصانه"^(٤).

ج- وهو شديد الحرص على الستر، وعدم الصدام بالسلطان، فيرى أن اعتقاد المستغلات (امتلاك المحاصيل)، التي لا ضرية فيها لسلطان، ولا شركة لإنسان من تمام مروءتك وسترك^(٥).

د- ويرى عدم إظهار الجاه والثراء والغنى؛ كي لا يطمع طامع، أو يحسد حاسد، فيقول: "ولتكن هيتك دون منزلتك في الجّدّ ومن قلوب الناس، فإنك تبتاع بذلك حسن النيات، وتردع به حسد الحاسد، وطعن الطاعن"^(٦).

هـ- ومن مظاهر حذره الشديد وآثاره أنه لا يخرج من ماله صدقات لكل من يصادفه، بل يخرج مما زاد على حاجته لمن كان مريضاً مرضاً مزمناً، أو كان شيخاً قانياً، أو من افتقر فقراً مُدَقِّعاً.

وإخلاف ذلك يُوجد له عملاً، ويوسع له في الأجرة. "ولا تبذل العفو من مالك إلا لمن ضعف عن الاكتساب بزمانة لحقته، أو سن عُلّت به، أو عِيْلَة زاد ناهما على مقدار اكتسابه. وما تحطّى ذلك فحرّكه إلى التشاغل، وأوسع عليه في الأجرة بمقدار ما تصله من الصلة"^(٧).

٥- وأخيراً، قيم أخلاقية اكتسبها، وظهرت في مؤلفاته القيمة:

عرضنا - من قبل - لمظاهر ثقافته المتنوعة، وقد انعكست هذه العلوم والمعارف الواسعة، التي أَلَمَ بها، على سلوكه وأخلاقه، فكان مثلاً طيباً للعالم المسلم، والمؤرخ الملتزم. ومن مظاهر أخلاقياته:

أ- قناعته: رغم غنى مؤرخنا وراثته، فإنه لم يزد إلا رصاً وقناعة، عكس كثير من ذوي الجاه والأموال ممن تزيدهم الثروات شراً وطمعاً وتطلعاً إلى المزيد. أما مؤرخنا، فلم يفرق في

(١) المكافأة ٤١. (٢) السابق: ٥٠ - ٥٢.

(٣) الفلسفة السياسية عند العرب ١١٧. (٤) السابق: ١١٦ - ١١٧.

(٥) السابق: ١٢٥.

(٦) السابق: وورد في الأصل: الجّدّه، وأعتقد أن الصواب ما أثبتّه. الجّدّا: العطاء.

(٧) الفلسفة السياسية عند العرب: ١٢٥.

ماديات الحياة، بل واءم بينها وبين حياته الاجتماعية، وإشباع رغباته الثقافية. وقد أورد عبارة تلخص القناعة وتدعو إليها، وتحذر من مغبة الإعراض عنها، وتبين أن على الإنسان ألا يتطلع إلى ما فوقه في المكانة المادية؛ لئلا يزدري نعمة الله عليه، وألا يتناسى نعمه؛ حتى لا يكون ساخطاً على ربه ناقماً عليه^(١).

ب- **حبه الرفق والعدل**: حاول مؤرخنا الدفاع بقلمه عن المظلومين، ودعا إلى الرفق في استخراج الخراج، ومراعاة ظروف الناس، فلا يُكَلَّفون مالا يُطيقون؛ لأن ذلك يرهق الناس، ويأتي على العمران، ويعطل مصالح العباد^(٢). وفي الوقت نفسه يقف موقفاً متوازناً، فهناك من المزارعين من يتهمرون - وهم يملكون - من دفع الخراج، فيطالب ابن الداية مؤرخنا عدم إبلاغ صاحب الخراج حتى يفشل المطالبون في استخراج الأموال بعد الاستعانة بأهل طبقتهم في ذلك، فإذا فشلت تلك الجهود، اتخذت ضد هؤلاء المماطلين الإجراءات الكفيلة بدفع ما عليهم من حقوق^(٣).

ج- صفاء قلبه، وسعة صدره:

فلكسم قاسى أحمد بن يوسف في طفولته مشاعر الخوف والهلع من جند ابن طولون في المرات العديدة، التي افتقد فيها أباه، عندما غُيِّب في سجون ابن طولون ظملاً وعدواناً، دونما جريمة اقترفتها يده. وتعرض أحمد نفسه للقبض عليه لحظة وفاة والده، كما ذكرنا قبلاً. رغم كسل ذلك إذا به يختار المستحسن من أخبار ابن طولون هذا، فيكتبه ويخلده على صفحات التاريخ. إنها نفس صافية لا تعرف روح الحقد والتشفى والانتقام، وفي الوقت نفسه أشار بهذا العنوان إشارة أمينة لا تغوت المؤرخ إلى وجود ما يشين من صفاته، فرمما لطيب قلبه، ولخدمته هارون من خمارويه في الديوان من جهة أخرى، ولرغبته في تقديم جانب مضي للناس، يقتلون به في ظلمات ما بين العصرين (وهو ما نرجح ظهور الكتاب خلاله)، لم يذكر شيئاً من ذلك. وعلى كل، فقد عرض عصر ابن طولون بما فيه من ازدهار، وأورد بعض روايات، يفهم منها السبب أن المصريين دفعوا الثمن خوفاً قاتلاً، وقضاء ليالٍ طويلات باردات في محابس منسية مظلمة تحت الأرض^(٤).

د- تواضعه، وحسن معاملته الناس، وحرصه على مودتهم واسترضائهم:

رغم منزلته الرفيعة مادياً واجتماعياً كان لا يستكف أن يخالط البسطاء، ويساكن العوام، ويحسن إلى فقرائهم ومعوزيهم^(٥). وكان يدعو إلى تسجيل المرء مكارم وإحسان إخوانه إليه،

(١) الفلسفة السياسية عند العرب: ص ١٢٦. (٢) السابق: ص ٩٠-٩١. (٣) السابق: ص ١١٨-١١٩.

(٤) ماحستر سيد محمد قطب ص ٣٩. (٥) المكافأة ص ٤١.

كما يثبت ديون معامليه؛ كى يكافئهم عليها، ويهب للفقير منهم ما يُقرضه إياه^(١). وكان يدعو إلى الصبر الشديد على إصلاح مَنْ هو دونه أكثر من الحرص على استرضاء من هو فوقه^(٢). وكان يدعو إلى عدم المعاملة مع الصديق، فالصدقة لا تسلم عندئذ؛ لأنك لو بعث له شيئاً تطلعت إلى الربح، وتطلع هو إلى مزيد من الجردة في السلعة، والصدقة لا تتحمل هذين^(٣). وهكذا، عرضنا ترجمة وافية للمؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية)، لعلها تعيننا على تحليل مؤلفه عن (سيرة ابن طولون).

* * *

(البُلُوَى المؤرخ المصرى)

تقديم:

بعد أن تناولنا - بالتفصيل - التعريف بالمؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية)، وبأسرته (خاصة والده ذا التأثير الكبير فيه)، وألقينا الأضواء على ما عُرف من مؤلفاته، عاقدين الصلات بين هذه المؤلفات ومؤلفه التاريخى عن (سيرة أحمد بن طولون)، آن لنا أن نتوجه إلى صِنُوهِ وقِرْنِهِ، الذى لا يُذكر إلا ويُقرن به، ألا وهو مؤرخ العصر الطولونى (البُلُوَى).

ما قبل الترجمة:

يُلَفَّ المؤرخ المصرى البُلُوَى غموضٌ كبير، وتكتنف شخصيته علامات استفهام كثيرة. أقرَّ بذلك الباحثون، ولم ينجحوا في إمطة اللثام عن تلك الشخصية البارزة بين مؤرخى مصر في القرن الرابع الهجرى؛ إذ اكتفوا بتناقل النادر من المعلومات، مما أوردته بعض المصادر^(٤). هذه المعلومات لا تشفى غِلَّةَ الباحث، خاصة أن الرجل له سِفَرٌ جليل في تاريخ مؤسس الدولة الطولونية، خطأ به على طريق علم التاريخ خطوات عظيمة سواء في المادة العلمية المعروضة، أم في المنهج العلمى المعالجة به؛ مما كان يتطلب بذل مزيد من الجهد؛ لكشف معالم هذه الشخصية المهمة، التى تقف دون كشفها حجب كثيفة مظلمة. وهانذا أحاول القيام بذلك.

(١) و(٢)، (٣) الفلسفة السياسية ١١٩.

(٤) راجع ترجمة البُلُوَى لدى كل من: محمد كرد على في (مدخله لسيرة البُلُوَى) ص ٣، ود. الشيال في (تاريخ مصر الإسلامية) ١/ ١٢٩، ود. فؤاد سزكين في (تاريخ التراث العربى) - ط. الهيئة العامة - ج ١ ص ٥٧٨.

ترجمة البلوى: أولاً- نسبه:

هو أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عُمر بن محفوظ المَدِينِيّ البَلَوِيّ^(١). ويلاحظ على هذا النسب ما يلي:

أ- أنه يفيد أن لهذا المؤرخ أباً، يدعى محمداً، وبه يكتفى. ولم أعثَر على أية معلومات تلقى بعض الضوء - ولو خافتاً - على شخصية هذا الابن. كما أننا لا ندرى شيئاً عن والد (البلوى): مهنته، وثقافته، ودوره في تنشئة ابنه. وهذا يجعل مهمتنا في التعريف بأسرة البلوى مستحيلة.

ب- يفيد نسب المَدِينِيّ أنه حجازي الأصل، ويفيد نسب (البلوى) أن أصله يرجع إلى قبيلة (بَلِيّ) الحجازية، التي ينتهي نسبها إلى قَحْطَانَ^(٢). وقد تفرقت (بلي) في أرض مصر، واعتبر أهلها من أهل مصر^(٣). وقد جزم بذلك ابن النديم، فقال عنه: "من أهل مصر"^(٤). وقد رجح ذلك أحد الباحثين^(٥)، كما أن موضوع كتابه - عن ابن طولون - يؤكد لنا مصريته، فيمكن أن نضيف له لقباً آخر (المصري).

ثانياً - حول مولده، ووفاته:

لا نعرف شيئاً عن نشأة وتكوين المؤرخ المصري البلوى، بل لا ندرى شيئاً عن مناصبه، أو دوره الذي لعبه في المجتمع المصري إن كان له دور. ووصل بنا الأمر إلى حد جهلنا بتاريخ ميلاده (ولو على سبيل التقريب)؛ لأن المصادر سكنت عن ذلك سكوتاً كاملاً، ولم تذكر مجرد إشارات، يمكن أن نستنتج منها شيئاً قريباً من الصواب. كل ما نعرفه أن البلوى من مؤرخي مصر، الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري، ونُسبوا إليه^(٦)، مع اعتقادنا أنه عاش فترة من حياته في القرن الثالث الهجري.

(١) ورد هذا النسب الكامل في: مدخل سيرة البلوى، لكرد على ص-٣، ومعجم المؤلفين ٢٨٨/٢، وتفتح المقال للمامقان ٢٠٧/٢. واكتفى ابن النديم في (الفهرست ط. طهران) ص-٢٤٣ باسم (عبد الله بن محمد البلوى).

(٢) يذكر أهل الأساطير أن قبيلة بلي فرع من قضاة، وها بطون كثيرة، وينتهي نسبها إلى قحطان. وكانت مساكنها على حدود الشام بين أراضي حبيشة وخضاع، وقبل ذلك كانوا جنوبي جزيرة العرب، وانتشروا بعد الفتح بالشام. ومهم لغاء، وفصحاء، وناجون. وأحسوا كثرهم في خلاف بني الشام، فمادى أحدهم: يا آل قضاة. وكادت تحدث فتنة. لذلك أمر عمر بن الخطاب عامله بالشام أن يسير ثلث قضاة إلى مصر. وشهدوا فتح مصر، واحتضروا وتفرقوا. فالبلوى مصري الموطن والمستقر. (راجع: فوج مصر، ط. توري لأين عبد الحكيم: ص-١١٦، والأنساب ج-١ ص-٣٩٥-٣٩٦، والبيان والإعراب للمقري ٢٩-٣٠، والفتاوى العربية في مصر، لتذكور البري ص-٢٢٧، ٢٣٠).

(٣) الفهرست للموسى ١٣٣، وتفتح المقال ٢٠٧/٢.

(٤) الفهرست (ط. طهران) لأن النديم ص-٢٤٣.

(٥) محمد كرد عن: كنوز الأعداد ١٦٢، ومدخله إلى سيرة البلوى ص-٤.

(٦) مقالة (سيرة أحمد بن طولون للبلوى). لعبد اخيمد العادى (مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول) محمد ١٩٤٣/١، ص-١.

لم يرد تاريخ وفاة البلوى على سبيل التحديد^(١)، وإن ذكرت بعض المراجع أنه كان حياً في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري^(٢). وهذا القول يفيد أنه لم يمضِ قبل حوالي سنة ٣٣٣ هـ، وإنما مات بعدها. وإذا كان البلوى معاصراً لابن الداية، ومتأخراً عنه في تأليف كتابه عن (سيرة أحمد بن طولون)، وإذا كان ابن الداية توفي سنة ٣٤٠ هـ؛ فإننا نرجح وفاة البلوى بعده (حوالي منتصف القرن الرابع الهجري).

ثالثاً - حول معارفه وثقافته:

لا أظن أن علوم البلوى ومعارفه خرجت عن المؤلف المعتاد في تلك القرون الإسلامية الأولى، التي كان يعنى فيها الآباء والأمهات بتنشئة أولادهم على تلاوة وحفظ القرآن الكريم، ودراسة حديث رسول الله ﷺ، وقراءة وحفظ ما تيسر من أبواب اللغة، ودواوين الأشعار^(٣).

وكذلك دراسة ما يتهدى من التفسير والفقه. هذه علوم أساسية أعتقد أن البلوى حصلها وأجادها. وقد وصفه ابن النديم أوصافاً، تؤكد ذلك، فقال: إنه واعظ، وفقه عالم^(٤). ومعنى ذلك أن البلوى كان يعمل في الوعظ والإرشاد، ولعل له حكماً ومواعظ في خطب شفوية، أو في رسائل مكتوبة، ضمنتها تجربته وخبرته بالحياة. وربما برع الرجل في الفقه ودقائقه، فكان ممن يفتون الناس في مصر، ويعلمونهم أمور دينهم ودنياهم.

رابعاً - مؤلفاته:

ذكر ابن النديم أن لعبد الله بن محمد البلوى من الكتب: (الأبواب، والمعرفة، والدين وفرائضه)^(٥). ويغلب على ظني - من عناوينها - أنها كتب في الحديث والفقه. والمؤكد أن ابن النديم لم يذكر له إلا ما تيسر له رؤيته وطالعه بالفعل، وهو ما يعنى وجود مؤلفات أخرى له لم يحظ ابن النديم بالوصول إليها، ومنها: (سيرة أحمد بن طولون)^(٦) المطبوعة المنشورة كأثر تاريخي فريد وحيد باق إلى اليوم من تراث الرجل، ومنجزاته العلمية.

(١) وبالتالي لم يبعد د. علي إبراهيم حسن في (استخدام المصادر وطرق البحث) ص ١٣٦ لما قال: لم تُعرف سنة وفاته (أى: بالتحديد).

(٢) كنوز الأجداد ١٦٢، ومعجم المؤلفين ٢/٢٨٨، وتاريخ التراث العربي (ط. الهيئة) ١/٥٧٨.

(٣) ولعل الناظر في أسلوب البلوى وتعبيراته في كتابه الأوحى المتقى (سيرة أحمد بن طولون) يدرك تماماً أنه أحد من العربية يحظ وافر، وله القدح الملى في البلاغة، وصاحبه رؤى من معين الآداب، ومثلها مثلاً ظاهراً. (كنوز الأجداد ١٦٤، ومدخل إلى سيرة البلوى ص ١٠).

(٤) الفهرست (ط. طهران) ص ٢٤٣.

(٥) الفهرست (ط. طهران) ص ٢٤٣. وعنه نقل الطوسي في (الفهرست) ١٣٣، ونقل عن الأخير مؤلفات البلوى المسماة في (فتح المقال) ٢/٢٠٧. أما د. الشال، فنقل نص ابن النديم، وزاد من عنده: ألف كتباً كثيرة كلها مفقودة. (تاريخ مصر الإسلامية ١/١٢٩).

(٦) ذكره كحالة في (معجم المؤلفين) ٢/٢٨٨، وسرّكين في (تاريخ التراث العربي) - ط. الهيئة العامة - ١/٥٧٨.

ومما يلفت النظر - حقاً - ألا يطالع ابن النديم (ت ٣٧٧هـ) - وهو معاصر للبلى - سوى الكتب المذكورة السابقة وهي مفقودة كلها الآن، بينما يذكر المسعودى (ت ٣٤٦هـ) - في مقدمة كتابه (مروج الذهب) - عبد الله بن محمد بن محفوظ البلى الأنصارى، ويشير إلى أنه صاحب أبي زيد عمارة بن زيد المدينى، ويجعله من المؤلفين فى التاريخ قبله، ومن طالع كتبهم وأفاد منهم. وعَدَّ المسعودى البلى واحداً ممن اجتهد بغاية إمكانه، وأظهر مكنون فطنته^(١). وأحب أن أنبه إلى أن المسعودى لم يحدد - بالضبط - اسم المؤلف التاريخى الذى طالعه للمؤرخ البلى، وهل هو مؤلف واحد أو أكثر من مؤلف، كما أنه لم يفرد بمدهج ولا ذم^(٢)، وإنما أصدر حكماً عاماً على مصادر كتابه بأن بعض مؤلفيها أصاب، والبعض الآخر قد أخطأ.

والحق أن عدم اشتهاؤ مؤلف البلى التاريخى، وعدم اشتهاؤه هو شخصياً - مما أدى إلى ندرة معلوماتنا عنه - ربما يرجع إلى ضعف اهتمام ابن النديم وغيره من مؤرخى العلوم بمصر، على اعتبار أنها مجرد ولاية تابعة للخلافة العباسية، سواء كانت تبعيتها حقيقية أم اسمية. ومن ثم، فالاهتمام بها لا يرقى - مثلاً - إلى الاهتمام ببغداد ورجالاتها ومؤلفاتهم. ولعل فترة ما بين العصرين الطولونى والإخشيدى، التى ترجع ظهور كتاب البلى فيها، وما اتسمت به من صراعات ونزاعات وحروب، أثرت فى القدرة على الاحتفاظ بمؤلفات البلى. وربما انتقلت نسخ (سيرة ابن طولون) للبلى إلى الشام قديماً، حتى عثر على إحداها مع بداية هذا القرن على يد المحقق كرد على. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنه لم يكن لكتاب يُذيع وينشر محاسن ابن طولون لينتشر ويشتهر، ويعرف به المؤرخون وأصحاب كتب التراجم، بينما الخلافة كانت تعد دولة بنى طولون شوكة فى جنبها، وغصّة فى حلقها، استراحت باقتلاعها، وأجهزت على حُشاشاتها، فاستحالت أترأ بعد عين، وجسداً بلا روح.

ولا يعنى انتقال مخطوط (سيرة أحمد بن طولون) للبلى إلى الشام قديماً أنه غدا مؤرخاً دمشقياً بحال من الأحوال^(٣)، فهو مؤرخ مصرى، تعرضت شخصيته للانطماس، وكتابه

(١) مروج الذهب ١١/١-١٢.

(٢) بخلاف بعض المؤرخين، الذين أثارت مؤلفاتهم إعجاب المسعودى فأثنى عليها؛ لإفادته الكبيرة منها فى كتابه، مثل: عُبيد الله بن خُرَدَازْبَه، والبلاذرى الذى قال عن كتابه فى الفتح: ولا نعلم فى فروع البلدان أحسن منه (السابق ١٢/١).

(٣) ذكر د. أحمد شلى فى (موسوعة التاريخ الإسلامى) ٥/٥ فى بداية حديثه عن انتشار اللغة العربية فى سوريا (الشام) بعد الفتح الإسلامى، ووجود مؤلفات لها فى فترة مبكرة ما نصه: " وكتب عبد الله بن محمد البلى - من مؤرخى دمشق - سيرة أحمد بن طولون فى الثلث الثانى من القرن الرابع ". ولى تعليق على هذا النص: ليس صحيحاً أن البلى مؤرخ دمشقى، بل هو مصرى. التاريخ المذكور على أنه تاريخ ظهور مؤلف البلى، إنما هو التاريخ الذى يدور حوله احتمال وفاة البلى. نتيجة لما تقدم لم يعد كتاب هذا المؤرخ يصلح مثلاً للاستشهاد به على ظهور كتب بالعربية مبكراً بالشام، بعد أن ذكرنا أن البلى مصرى.

للاستزواء، ومكانسته مؤرخاً للهضم الشديد، حتى شاء الله أن يظهر سفره الجليل على يد عالم شامي، رد الحق إلى نصابه، وأظهر ما للرجل من مكانة تاريخية تليق به. ثم قُدِّرَ لنا أن نكمل رد الجميل، فنحلل سفره، ونبرزه مؤرخاً من طراز فريد.

حول نسبة كتاب (رحلة الشافعي) إلى البلوى:

١- ذكر ابن كثير أن عبد الله بن محمد البلوى كذاب. هكذا اتهمه اقماماً صريحاً مباشراً لا مرة فيه، وذلك في عبارة هذا نصها: "ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف - كما يقوله عبد الله بن محمد البلوى الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي - فقد أخطأ في ذلك، إنما ورد الشافعي ببغداد في أول قَدَمَةٍ، قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع الشافعي بـ (محمد ابن الحسن الشيباني)، فأحسن إليه، وأقبل عليه، ولم يكن بينهما شأن، كما يذكره بعض مَنْ لا خبرة له في هذا الشأن" ^(١). وهذا يعني أن هذا الملقب بالبلوى له مؤلف عن رحلة الشافعي إلى بغداد، والتقاءه بكبار علمائها. وابن كثير يَصْمُهُ بالكذب عامة، وفي رحلة الشافعي خاصة. ويدلل على كذبه في هذا الكتاب بأنه زعم التقاء الشافعي بأبي يوسف، رغم أن الأخير توفي سنة ١٨٢هـ، وأول قدمة للشافعي إلى بغداد كانت بعد وفاة أبي يوسف بعامين. كما نفى ابن كثير ما يتردد من التماسد والتباغض بين الشافعي ومحمد بن الحسن.

٢- نسب ابن حجر هذه الرحلة - أيضاً - إلى البلوى، وذكر أنه طَوَّلَهَا ونَمَّقَهَا، وذكر أن غالب ما أورده فيها مختلف ^(٢). والسؤال - الآن - هو: هل هذا الكتاب المشار إليه سلفاً، ومؤلفه المذكور آنفاً هو نفس مؤلف (سيرة أحمد بن طولون)؟ والجواب: لا؛ لأن هذا البلوى المذكور في رحلة الشافعي، وردت له روايات عديدة في كتاب (مناقب الشافعي) ^(٣)، وثبت منها أنه كان ممن عاصر الشافعي وجالسه، وسواء صحت هذه المجالسة أم لم تصح، فمن الواضح أنه شخصية أخرى غير شخصية المؤرخ البلوى؛ لأنه لا يُعْقَلُ لرجل زعم أنه جالس الشافعي (ت ٢٠٤هـ. بمصر) أن يعيش حتى قرابة منتصف القرن الرابع الهجري!

خامساً - قضية تضييف البلوى، واتهامه بالتشيع:

أ- نقل كل من: الذهبي ^(٤)، وابن حجر ^(٥) عن الدارقطني ^(٦) قوله: كان البلوى يضع

(١) البداية والنهاية ١٠/١٨٨.

(٢) لسان الميزان لابن حجر ٣/٣٣٨.

(٣) البيهقي: ج ١ ص ١٣٠-١٣١، ١٣٦-١٣٧، ١٤١-١٤٢، ١٧٦-١٧٧، ٢٠٢، ٣٣١.

(٤) ميزان الاعتدال، للذهبي ٤٩١/٢.

(٥) لسان الميزان ٣/٣٣٨.

(٦) لم أحد النص فيما طُعن من كتاب (العلل) للدارقطني (٤ أجزاء)، فلمع في المفقود منه.

الحديث. وعضد هذا الرأي الذهبي وابن حجر في المصدرين السابقين، فذكرا عبارة واحدة هي أن عبد الله بن محمد البلوى روى عنه أبو عوثة^(١) في (صحيحه) في (الاستسقاء) خبراً موضوعاً^(٢).

ب- كان البلوى المذكور ملازماً خاله عمارة بن زيد^(٣)، راوياً عنه أحاديثه ورواياته، وهو متصف بالضعف في الحديث^(٤).

ج- يرى كرد على أن البلوى المؤرخ كان شيعياً إسماعيلياً، وقد اتجه لكتابة سيرة أمير سني (ابن طولون)؛ لأن الأخير كان يعطف على الشيعة الإسماعيلية، ويكتم عطفه عليهم تقية، ويحاول الاستفادة منهم والانتفاع بهم، وأنهم كانوا منتشرين سراً في مصر؛ تمهيداً لإنشاء دولة العبيدين بها^(٥).

خلاصة الرأي عندي:

- ١- البلوى الذي ضعفته مصادر السنة والشيعة ليس هو البلوى المؤرخ المصري. وقد حدث خلط بين (عبد الله بن محمد البلوى) الوضاع الكذاب صاحب (عمارة بن زيد) في رواية الحديث، وبين مؤرخنا البلوى المصري، فما ذكره المسعودي عن مؤرخنا الذي اعتمد على مؤلفه التاريخي صحيح، لكنه أخطأ لما ربط بينه وبين عمارة بن زيد، الذي كان أستاذاً لعبد الله بن محمد البلوى الكذاب.
- ٢- بناء على ما تقدم لم يعد هناك محل للقول بأن البلوى، الذي لم يتورع عن الكذب على رسول الله ﷺ، لا تنتظر منه أن يصدق في التأريخ لابن طولون^(٦)؛ لأننا أثبتنا أن مؤرخنا ليس هو ذلك الكذاب.

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابوري الإسفراييني الحافظ، صاحب المسند الصحيح المخرّج على كتاب الإمام مسلم بن الحجاج. وهو أحد الحفاظ الجوالين، والمحدثين المكثرين. طاف الشام ومصر، والبصرة والكوفة، والحجاز، وغيرها. توفى سنة ٣١٦هـ. (وفيات الأعيان ٦/٣٩٣-٣٩٤ رقم ٨٢٦)، والكنى والألقاب للفقي ١/١٢٨).

(٢) لم أجد في الجزأين المطبوعين من مسترحه باب (الاستسقاء). وبالرجوع إلى جـ ٢ من مخطوطة: (مختصر أبي عوثة الإسفراييني) في كتاب (الاستسقاء) تحت عنوان: (زهادات الاستسقاء مما لم يُخرّجه مسلم في كتابه): ثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصاري المدني، بسنده إلى عائشة إلى رسول الله ﷺ أن القَطْرَ مُسْعٍ مِنَ السَّمَاءِ، وموقف النافقين المشكك في صحة رسالة الرسول، ثم دعاء الرسول حتى اغمر المطر، وشرب الناس وارتووا. هذا الاسم المذكور في السند هو أقرب الأسماء الموجودة إلى اسم مؤلفنا. ولم أجد اسماً يشبهه في أي حديث آخر بهذا الباب. ومن ثم، لم أهتم إلى الحديث الذي اقم بوضعه، ولعله ساقط من السامع.

(٣) مناقب الشافعي، للبيهقي ١/١٣٠، وميزان الاعتدال ٢/٤٩١ (وسمّاه عمارة بن يزيد)، ولسان الميزان ٣/٣٣٨ (سمّاه عمارة بن زيد). ولعل الأخير أرجح.

(٤) تنقيح المقال، للماقاني جـ ٢ صـ ٢٠٧.

(٥) مدخل سيرة أحمد بن طولون للبلوى، لكرد على صـ ٦.

(٦) مقال (سيرة أحمد بن طولون: عودة إليه، وتصحيح فيه)، لعبد القادر المغربي، مجلة المجمع العلمي بدمشق، مجلد ١٨ (١٩٤٣م، صـ ٢٨).

٣- لا دليل يثبت تشيع البلوى المؤرخ، وما سبق من أقواله مرسل؛ لتعليل تأريخ مؤرخ شيعي لأمر سني غير صحيح ومخالف لوقائع التاريخ، فابن طولون لم يكن للشيعية أى نشاط دعوى في عصره، ولم يكن لهم بمجمل، بل واجه ثورتهم بقوة وحسم^(١).

٤- أن الملاحظات التي لاحظها كرد على (سيرة ابن طولون) للبلوى، وعدّها أدلة تشيع^(٢)، لا تعد - في نظرنا - قدحاً في سنته. وفي النهاية، نحن أمام مؤرخ سني يعمل بعواطفه نحو آل البيت، وبأسى لما جرى لهم. ومعظم مؤرخينا الكبار طالبون بهذا المعنى كالمقريزي وغيره^(٣). أما التشيع الذي يميل فيه المرء مع هواه، ويترك السُنّة لأجله، فلم يعرفه مؤرخنا، الذي أحب آل البيت كالمسلمين عامة، وأهل مصر خاصة^(٤).

سادساً وأخيراً - سمات البلوى الشخصية:

١- السمات الخلقية:

أ- الصدق والأمانة:

نلاحظ ذلك في مقدمة كتابه^(٥)، فلم ينسب معالم منهجه في المعالجة إلى نفسه، رغم أن له في ذلك نصيباً كبيراً، وهو المنفذ لما تم تخطيطه من أهداف، ومادة كتابه هي حصيلة اطلاع ممتاز على ما سبقه من مؤلفات في موضوع كتابه. لقد نسب الفضل لذويه، فأشار إلى كتاب ابن الداية الذي له فضل السبق في هذا المجال، وبين أنه سيحقق في كتابه ما لم يحققه سلفه، وفقاً لتعليمات وتوجيهات سيده - المجهول الذي لا نعرفه تحديداً - الذي أشار عليه بهذا الكتاب، وشرح له طريقته، وحدّ له حدوده، ومعالجه الرئيسة.

ب- التواضع الجَمّ:

بعد أن ذكر منهجه، وحدد عناصره بدقة يُحسد عليها، اعترف البلوى في تواضع شديد أن ابن آدم - ويصدق عليه ذلك ولا شك - لا يخلو من تقصير ونقص، وأنه لم يَسَلِّمْ من ذلك الفقهاء، والأصوليون، والمحدثون، وهم الواضعون لشرائط الدين، والمبلغون سنن المرسلين^(٦).

(١) سيرة ابن طولون، للنووي ص ٦٢، وبعدها.

(٢) لاحظ مدخل سيرة ابن طولون للنووي، لكرد على ص ٥٥، وسيرة ابن طولون ص ٦٢ (صلوات الله عليهم أجمعين، وترضى عن آل البيت أجمعين)، واكتفى بالترحم على عمر (ص ١٤٦).

(٣) د. حسين مؤنس في مقدمة تحقيق الحجة السنيّة ٤٨/١.

(٤) راجع حث القرآن على مودة آل البيت: ﴿قُلْ: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا الْمُدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾. سورة النوري المنكية: من الآية ٢٣.

(٥) سيرة البلوى: ٣١-٣٢. (٦) سيرة أحمد بن طولون، للبلوى ص ٣٢.

ويؤخذ على البلوى أنه بالغ في التواضع حتى ذلّ، وذلك لما قال عقب ذلك: "وكيف ما إن قصر عنه مقصّر لم يُوزّر، وإن بالغ فيه مجتهد لم يُؤجّر"^(١). ومعنى ذلك أنه يرى التاريخ أقل شأنًا من الفقه، والعقيدة، والأصول، والحديث. ومن ثم، فالبلوى يعد نفسه أقل من رجالات هذه العلوم، فعلمه بالتاريخ إن قصر المقصر فيه لا وزر عليه، وإن بالغ في الاجتهاد فيه، فليس له أجر. واعتقد أن هذا مفهوم مرفوض تمامًا لما يلي:

أ- أن العلوم الإسلامية تتساوى في الأهمية، وكلها يكمل الآخر، دون تفاضل بينها. والتاريخ بالذات له من الأهمية والحيوية ما يجعله متصلًا بكافة العلوم الإسلامية والعربية الأخرى^(٢).

ب- أن التخصيص في التاريخ يؤخذ عليه المرء، وأن الاجتهاد مأجور عليه^(٣)، شأنه شأن كافة سلوكيات الإنسان.

وأخيرًا، فقد كان جديرًا به أن يكتفى ببيان أن عمل الإنسان مهما كمل، فلا بد أن يلحقه نقص، فالنقص من سمات البشر، وحسبه أنه بذل كل ما يملك^(٤).

ج- حسه الوطني الصادق تجاه بلده مصر:

لقد حرص البلوى على بيان أهمية ولاية مصر بالنسبة للخلافة العباسية، وأوضح أن الخلافة تدقق في اختيار من ينوب عنها، فيُختبَرُ^(٥) بها من صَحَّت فيه الصفات، والكفاءات المطلوبة، والثقة والمثالة العظيمة لدى الخلافة، فيكون بجوار بلاط الخلافة، ويستخلف عليها ثقة يحكمها باسمه نيابة عنه، وإليه تُحمل أموالها، ويُذغى له على منابرها^(٦). فحبه لبلده مصر لم يخرج عن الموضوعية، التي تتجلى في أنها إحدى ولايات الخلافة، وإن كانت أهم تلك الولايات قاطبة.

د- إيمانه العميق بالقضاء والقدر:

كان لروح الإيمان دور أساسي في معالجة تطورات حياة (أحمد بن طولون) وكان يُنفذ

(١) المصدر السابق: ٣٢.

(٢) تراجع أهمية علم التاريخ من خلال عوامل تدوينة المذكورة في كتاب: (الحياة الثقافية في العالم العربي في القرنين: الأول، والثاني) لصحيفتين ١ ص ٣١٢-٣١٤.

(٣) قال الله (تعالى): ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. (سورة البقرة: من الآية ٢٨٦). وقال أيضاً: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى. وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾. (سورة الحم: ٣٩-٤١). وقال أيضاً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. (سورة الزلزلة: الأيتان ٧-٨).

(٤) والبلوى نفسه يدرك أن الإنسان مهما أبدع وامتلك الموهب، فإنه ينحصر نقص في مجال ما. وقد طُبّق ذلك عندما تناول العباس بن أحمد بن طولون، فعند أن ذكر أوجهه وشعره سرعان ما استدرك قائلاً: 'إلا أن الكمال لله عز وجل' (سورة البلوى ٢٤٦).

(٥) وهكذا، ينتهي البلوى للفظعة المعروفة، فكان مصر هدية تُهدى لها الخلافة إلى من تكفه بولانيته.

(٦) سيرة البلوى ٣٣.

من خلاله إلى عمق الأحداث والوقائع، يَسْبُرُ أغوارها، ويدرك بحكمة نافذة، وشفافية كبيرة ما وراء الأعماق. ويمكن الاستشهاد بموقفين يعبران عن ذلك:

الأول - يتعلق بموت أعداء أحمد بن طولون واحداً بعد الآخر^(١)، حتى خلا له الجو، وأحكم سيطرته على مصر والشام. لكن سرعان ما أدارت الأيام له ظهرها، وإذا بالقدر يجئ له ضربات قاصمة ظهره، محطمة آماله، محبطة خُطَطَه التي كان يتغياها^(٢). يرى البلوى أن ذلك كله حدث؛ لتتم مشيئة الله ﷻ في ابن طولون بانقضاء عمره، وزوال ملكه. وهكذا، يجري حكم الله على سائر خلقه عند انقضاء آجالهم، يكدرهم بالحن، وينقص عليهم عيشهم، وإذا أراد الله أمراً أتى بعضه يتلو بعضاً؛ ليؤدب بذلك المؤمنين وينبّه به المعتبرين، ويخفف به عن قلوب المتقلبين (المضيّق عليهم)^(٣).

الثاني - استخدم البلوى الروح الإيماني نفسه في تحليل سوء تصرفات ابن طولون، وتخطئه في نهاية حياته، وتناوله ما يضره في صحته؛ مما عجل بوفاته. فبعد أن كان في الماضي (لما كانت له بقية من عمر) مثلاً للحكمة والفراصة، والحُسن الصادق، انقلب ذلك كله دفعة واحدة، فصار عدو نفسه، يطعمها سراً من طبيبه السمك الذي يؤذيها، والأطعمة المتخمخة المؤذية في حال الصحة، فكيف مع العلة ١؟. ثم يخادع نفسه ويسخر منها، ويكتم طبيبه وغيره حاله، حتى كأن في معدته - بسوء فعله - عدواً قاتلاً. ثم إذا به يُفَضَّلُ المدعو هاشماً الجاهل على عابرة أطبائه (مثل: سعيد بن توفيل، وغيره)، إلا أنه إذا أراد الله ﷻ أمراً، سلب كل ذي لبّ لُبّه؛ حتى تتم مشيئته^(٤). هكذا، بيان رائع، وحسن قراءة للأحداث، وإيمان عميق ينظر المؤرخ البلوى إلى حقائق الأمور ويفسرها.

٢- السمات العقلية:

أ- ذكاؤه وفطنته: من خلال القراءة التأملية الواعية لأثره الوحيد الباقي: (سيرة أحمد بن طولون)، وهاكم مثلاً حياً على ذلك: سرد البلوى على مسامعنا، وسَطَّرَ بقلمه البالغ، وصوّر أمام عيوننا مراحل مرض الأمير ابن طولون، وبين أنه لما أسرف على نفسه في شرب لبن الجواميس بالشام، أصيب بإسهال وقئ شديد، استدعى على أثرها طبيبه الخاص (سعيد بن توفيل)، ففوجئ بعدم تواجده إلى قريب منه في هذه العلة الشديدة، وعلم أنه خرج إلى بعض الديارات

(١) لما عدا عليهم الموت، وهم الوزير عُبيد الله بن خافان، وماجور التركي، وموسى بن بغا. (سيرة البلوى ٩١).

(٢) كان ابن طولون يهدف بعد توحيد مصر والشام تحت رايته، إلى جهاد الروم، لكنه فوجئ بخروج ابنه العباس عليه، فقام بواد كل من فكر وأعدّ له. ثم تلقى صدمة أخرى بخروج غلامه لؤلؤ بالأموال والجيش والسلاح عليه، وانضمامه إلى عدوه الألد الخصم (الموفق)، وكان لؤلؤ عمدة ابن طولون، وعليه كان معوّله.

(٣) سيرة البلوى ٢٧٢.

(٤) سيرة البلوى ٣٢٧.

هناك. فماذا كانت النتيجة؟ إن البلوى يرصدها جزئية جزئية؛ لفهمه ووعيه بأنثراها في نهاية ابن طولون المحتومة، فذكر أن ألم الأمير من جهة، وطبعه التركي ومزاجه الحاد من جهة ثانية، وحرصه الشديد على استعادة صحته وعافيته ثالثاً، كل ذلك جعل الكمد والغيظ يملأ قلبه، فزاده الغيظ وضيق الصدر ألماً ومرضاً (إسهالاً، وقتناً). ويضاف إلى ذلك أنه أغلظ القول لسعيد طبيبه لما عاد، ثم منعتة عزه نفسه وكبرياؤه أن يشكو له ما حلَّ به، فازدادت العلة قليلاً قليلاً، واستحكمت منه^(١). وهكذا، أدرك البلوى بذكائه النادر ما للحالة النفسية من أثر بالغ في الحالة الجسدية للإنسان؛ مما أدى إلى تفاقم حال الأمير.

ب- ثقافته العربية الأصيلة، وإلمامه بمعارف العصر:

١- لغته، وتدفق معانيه وغزارتها:

الناظر في (سيرة ابن طولون) للبلوى يلمس تأثقه في ألفاظه ومفرداته، وجمال تعبيراته، وتدفق معانيه في عبارات مطوّلة أحياناً، يشحذها ذهنه، وتدفع بها قريحته، فتغضض على غير التأمل المتأن. وترى في لغته جملاً مسجوعة لا تكلف فيها^(٢). ومن الأمثلة على ذلك:

قوله عما أدخله ابن المدبر من ضرائب جديدة على أهل مصر، اتبعها أصحاب الخراج المتشددون من بعده: "ابتدع بمصر بدءاً صارت سنناً إلى اليوم". وقوله في تعبير دقيق بارع، يصور ما حلَّ بابن شيخ من هزيمة نفسية بعد هزيمته الحربية أمام الخلافة العباسية، ومقتل ولده في المعركة: "ودخل ماجور دمشق عزيزاً مظفراً. فلما اتصل الخبر بابن شيخ، وقُتل ولده وخليفته، وصناديد عسكره انخزل، وفَتَّ ذلك في عَصْده، وانكسرت نفسه، وضافت به الشامات". والنتيجة: "فرحل عنها على طريق الساحل، يريد أرمينية"^(٣).

ويلاحظ - أخيراً - أن القاموس اللغوي للبلوى مشترك مع ابن الداية في بعض الألفاظ، والمصطلحات^(٤)، وقد ينفرد ببعض المفردات والتراكيب^(٥)، مما يحتاج إلى دراسة اللغويين المختصين في هذا المجال.

(١) مقدمة البلوى لسيرة ابن طولون ص ٣١. (٢) السابق: ص ٤٣. (٣) السابق: ص ٥٢.

(٤) استخدم البلوى بعض المصطلحات التي سبق إليها ابن الداية، مثل: الحضرة (للتعبير عن عاصمة الخلافة العباسية ص ٤٥،

٥٦، والمطّيق (سجن اس طولون تحت الأرض ص ٥٠)، ومصطلح الجواز (للتعبير عن ترخيص الانتقال من مكان إلى

آخر في مصر، أو إلى خارجها أيام ابن طولون ص ٤٩)، والأولياء (كبار رجال البلاط العباسي) ص ٣٩-٤٠.

(٥) ومن مفردات البلوى الجديدة: (الأدبة) تعبيراً عن الأذى (ص ٤٧) وشيخ بدل (أشاع)، ولقظة "الأحلام" في

قوله: من شياطين الكتاب والعمال (الأحلام) أي: الأشداء. (ص ٤٣). وأزوجه بدل (زوجه) ص ٤٥-٤٦.

وله تركيب بدا ركيكاً، ربما أسقط الناسخ منه ما أدى إلى اتصافه بذلك، وذلك قوله: (وزاد جميع الأعمال

الخارجة كانت عن مصر) ص ٤٦.

٢- ثقافته الدينية والأدبية:

من الواضح تأثر المؤرخ البلوى بأسلوب القرآن في عرضه التاريخي في (سيرة أحمد بن طولون)، فكان يضمّن بعض الآيات خلال بعض تعبيراته وأساليبه، مثل قوله عن موقف ابن طولون من وشاية ابن المدير به لدى الخلافة: "وعنى الخير إلى أحمد بن طولون، فأسرّه في نفسه ولم يُسبّه"^(١). وكذلك قوله عن قرب نهاية ابن طولون: "حتى إذا بلغ الكتاب أجله، انقلبت العين"^(٢)، وتابعت المحرّ"^(٣). وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد استشهد ببعض آية قرآنية في مقدمة عن طريق انسجام سمواته مع نجل كتابه، استبدل بها على كمال صنع الله وخلقه ووحدانيته أرضه، وعدم فسادهما، حيث قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٤). وبالنسبة لثقافته الأدبية، فهي شائعة في أرجاء كتابه، من خلال الاستشهادات الشعرية المطولة، التي كان يحسن اختيارها، وإدراجها في المكان المناسب لها، بما يزيد الحدث التاريخي وضوحاً وعمقاً. وهي تدل على كثرة محفوظاته من الشعر العربي، وحسن تفهمه معانيه ومدلولاته^(٥).

٣- ثقافته التاريخية:

يتضح من خلال قراءة كتاب (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى أن الرجل لم يكن على علم بتاريخ مصر المحلي في فترة العصر الطولوني فحسب، وإنما ظهر لنا جلياً أن الرجل كان على علم بالتاريخ وأحداثه في فترات تاريخية متعددة خارج نطاق بلده مصر. وقد كان البلوى ينتهز الفرصة، ويستطرد لأدنى ملابسة، لإظهار هذه المعلومات التاريخية.

ومن مظاهر ذلك: ما نقله عن عمر بن الخطاب وموقف عبد الله بن الزبير منه صغيراً، وشجاعته أمام أمير المؤمنين^(٦). وكذلك ما أورده عن ضعف سلطة الخليفة المستعين العباسي، وتحكم قادة الأتراك (وصيف، وبغا) فيه؛ لأنه كان يؤثرهما ويقدمهما، ويقول برأيهما، وما قيل من شعر؛ تعبيراً عن ذلك الموقف^(٧).

(١) سيرة النبوي ص ٤٥. وهو بذلت بتبني إلى قوله (تعالى) حكاية عن يوسف، وقد استمع إلى اتهام إخوانه له بالسرقه قبلًا ظلمًا وغيظًا وهم لا يعرفونه، فكظم غيظه، ولم يراجع إليهم قولاً. يقول الله تعالى: "قَالُوا: إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَخَا يُوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُنْذِرْهُمَا لَنْهُمْ قَالَ: أَتَنْتُمْ شَرًّا مَكَانًا وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ". (يوسف: ٧٧).

(٢) العين: شاهد كل شيء وحاصره (اللسان: مادة: ع. ي. ن) ح ٤ ص ٣٢٠.

(٣) سيرة النبوي ٢٧٩. لعله من قوله (تعالى): "لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ". (آخر آية ٣٨ من سورة الرعد).

(٤) سيرة النبوي ٣١. ونظام الآية: ﴿فَقَسْبِحْ بِحَمْدِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(٥) راجع سيرة النبوي، وما ورد بها من شعر ص ٤٠، ٩٤-٩٥.

(٦) المصدر السابق: ١٤٦-١٤٧.

(٧) سيرة النبوي: ٩٣.

٤- ثقافته الفلسفية:

لم تظهر هذه الثقافة بصورة كبيرة كتلك التي كان يتمتع بها المؤرخ المصري (أحمد بن يوسف)، ربما لتعدد مؤلفات ابن الداية، التي بين أيدينا. أما البلوى، فليس له - فيما نعرف - إلا (سيرة أحمد بن طولون). وقد وردت إشارات يسيرة في ثلاثة مواضع، تشير إلى اطلاعه على أقوال الحكماء:

أ- نقله ما رواه يوسف بن إبراهيم عن أنوشروان من عدم إقدام الملك الائق بنفسه على الرضا والغضب السريع، فذلك من أخلاق النساء^(١).

ب- نقله قول الحكماء: "ترك العادات ذنب محسوب"^(٢).

ج- ما علق به بعض العلماء حين سمع شدة تحذير ابن طولون طبيبه سعيد بن توفيل أن يفرط في خدمته إياه، فقال: "ما سمعتُ حثاً لمتطبيب على مبالغة في نصيح أشد من هذا"^(٣).

خلاصة مقارنة بين تراثي: (ابن الداية، والبلوى)

أ- معرفتنا بأسرة ابن الداية (خاصة والده)، وتنوع وغزارة مصادر ثقافته وعلاقاته؛ مما انعكس في تنوع وكثرة مؤلفاته. أما البلوى، فنجهل أسرته، ولا نعرف - بالتفصيل - ثقافته، ولم يبق من مؤلفاته إلا سيرة ابن طولون، عرضها مفصلة، تفوق فيها على ابن الداية معاصره، وتمكن من إزالة جفاف المادة العلمية التاريخية عن طريق بلاغته الأسلوبية، وثقافته الشعرية والدينية.

ب- تنوع وغزارة أساتيد ابن الداية، ووجود تلاميذ له، عرفنا منهم اثنين، لهما شأن كبير في مجال التاريخ في مصر الإسلامية بعد ذلك. أما البلوى، فسنعرف أساتيده في مجال التاريخ فقط عند تحليل موارد كتابه الأواحد الباقي. وفي ذات الوقت لا نعرف أحداً من تلاميذه.

ج- تشابه ساهما الشخصية، وإن اتضحت أكثر على مستوى ابن الداية؛ لتنوع وغزارة مؤلفاته، فأمكن استنباط الكثير منها. وتعرض كليهما للتهمة بالشيع، وإن طال اتهام البلوى به أكثر، إضافة إلى اتهامه بالكذب والوضع على رسول الله ﷺ، مما دللنا على عدم صحته، والتصافه برجل آخر يشبهه اسماً.

(١) المصدر السابق: ١٦٧.

(٢) السابق ٢٧١. وذلك تعليقاً على عبارة (الخس بن مہاجر الکاتب) على ابن طولون أواخر حياته، إذ حسن له جمع الأموال، ومعه عاداته الجميلة في الإحسان إلى الناس، فتغيت القلوب على ابن طولون، وانعرت عنه النفوس.

(٣) السابق: ٣٢٩.

مدخل نحو (دراسة سيرة أحمد بن طولون)

منهج في الدراسة:

لما كان موضوع كتابي ابن الداية، والبلوى واحداً، ومواردهما تكاد تكون متطابقة، ومحتوياتهما متقاربة، اللهم إلا ما يتصل بإيجاز ابن الداية، وتفصيل البلوى في عدد من الروايات، ومنهجهما مشتركاً؛ رأيت أن دراسة كل كتاب على حدة نوع من التكرار غير المفيد، فاهتديت إلى دراستهما معاً تحت العناصر والأفكار التي تشملهما معاً، محدداً نماذج مختارة بعناية من كل، محيلاً على بقية النماذج في الحاشية، مبرزاً أوجه الالتقاء والافتراق بينهما - إن وجدت - في كل جزئية من جزئيات تلك الدراسة التحليلية المنهجية المقارنة.

قبل أن أدخل في خضم تلك الدراسة المنهجية، هناك مجموعة من القضايا، التي يجب أن تكون واضحة، فهي ذات صلة جد وثيقة بموضوع الدراسة، وهي على النحو الآتي:

١- توقيت تأليف الكتابين:

الحق أن هذه القضية لم يرد بخصوصها نص واحد صريح في أي من المصادر التي طالعناها. ومن هنا سوف نعتمد على الترجيح الغالب، والاستنتاج غير المباشر من بعض الأحداث الواردة. وقد سبقني لبحث هذا الموضوع بعض الباحثين، فمنهم من يرى أن ابن الداية وضع كتابه وابن طولون حتى^(١) (أي: في تاريخ أقصاه سنة ٢٧٠هـ). ومنهم من يرى أنه ألف سنة ٣٣٩هـ^(٢). ويرى ثالث أن كتب ابن الداية في بني طولون كتبت قبل انقراضهم دولتهم (٢٩٢هـ)؛ لأنه توفي بعد ذلك بما يزيد على أربعة عقود^(٣).

ويمكن الرد على الرأي الأول بأنه لا دليل عليه، وبمنظرة فاحصة لأحداث سيرة ابن الداية نجد فيها أخباراً، وقعت بعد وفاة ابن طولون^(٤)؛ مما يدل على أنها كتبت بعد وفاته.

أما الرأي الثاني، فقد اختلط على صاحبه الأمر ما بين تاريخ وفاة المؤلف من وجهة نظره -

(١) د. شحمان مرسى في (بحوث في الأدب العباسي) ص ١٠.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور شلي ٥٥/٥.

(٣) كوز الأحقاد ١٢٨-١٢٩.

(٤) مثل: خبر وفاة ابن طولون، وحنارته (سيرة ابن الداية ١٣١). وما حدث به ابن الداية عن تركه ابن طولون، وأولاده الذين تركهم بعد موته (السابق ١٣٢-١٣٣). وحدثه هذا (عليه من مباحث) أيام إمارة ابنه أبي الخيش حمارويه. وكذلك ورد ما خبر عن قتل الخس من مباحث الكاتب في عهد حمارويه (السابق ١٠٧). وكذلك روايات عديدة ذكر ابن الداية في صدرها أن محدثه رواها له بعد وفاة ابن طولون. (السابق ١٢٦، ١٣٢). وأخيراً، أحداث رفض العباس مبايعة أخيه حمارويه بعد وفاة ابن طولون، والأمر نفسه حتى الموت (سيرة ابن الداية ١٣١).

وهو المذكور في عبارته - وبين تاريخ تأليف الكتاب وهو موضع البحث والدرس. وأما الرأي الثالث، فهو أقرب الآراء المذكورة إلى الصواب، وإن لم يحدد التوقيت الذي نراه صحيحاً.

والذي أعتقد أنه ابن الداية - بحس المؤرخ الموهوب - كان يراقب الأحداث في عهد ابن طولون، ولعله كان يسجل مسودات كتابه عنه. ولا أظن أن مادة كتابه اكتملت وثائقها إلا في عهد (هارون بن حمارويه) لما التحق بالعمل في الديوان. وأتوقع أن الاضطرابات الشائعة في ذلك العصر لم تكن تسمح لابن الداية بإخراج الكتاب في صورته النهائية. وأضيف إلى ما تقدم أن الفترة التي أعقبت سقوط الطولونيين - أيضاً - لم تكن مناسبة إطلاقاً لإصدار كتابه، وذلك في ظل عداء العباسيين الوحشي، وتخريبهم وتدميرهم لكل ما يمت للطولونيين بصلة؛ حتى يحسوا كل أثر لهم من عقول وقلوب الناس. وأرجح - بناء على ما تقدم كله - أن يكون الكتاب قد خرج إلى النور بعد نظر وفحص وتدقيق، وبعد استقرار الأحوال في عهد الوالي تكين (حوالي سنة ٣١١هـ) في ولايته الثالثة، التي استمرت حتى سنة ٣٢١هـ. وأكد أجزم بأن هذه الكتب عن ابن طولون وبنه من بعده، والتي نجت وغيرها من كتب ابن الداية - مما لم يُعثر عليه إلى الآن - لم تُؤلف قبل نكبة الطولونيين، ولم تظهر إلى الوجود، وإلا لدمرت تماماً، ولم نعتز لها على أثر بعد الخراب الشامل، الذي حلّ بمصر في (القطائع)، ثم الفسطاط على يد (محمد بن سليمان). وبالتالي لا صحة لما يقوله كرد علي^(١) بأن ضياع كتب ابن الداية له صلة بسقوط دولة بني طولون، وأنها وضعت قبل انقراض دولتهم. وأعتقد أن كتبه ظهرت وانتشرت بدءاً من التاريخ المذكور سلفاً، بعد أن لم يعد هناك خوف على العباسيين منها. وقد ظل كتاب سيرة ابن الداية موجوداً حتى طالعه ابن سعيد في مصر في القرن (السابع الهجري)، ونقله لنا في كتابه (المُغرب) حتى ضاع الأصل، وبقي لنا في كتاب ابن سعيد، الذي حفظه من العدم. وفي اعتقادي أن (سيرة حمارويه) لابن الداية بقيت، حتى ذُيِّل عليها ابن زولاقي. هذا وقد طالعها ابن العديم (في القرن السابع الهجري) عندما نقل لنا عن نسخة عتيقة منها نصاً في (بغية الطلب)، كما سرود بعد ذلك عند تناولنا للسيرة المفقودة.

أما بخصوص مؤرخنا البلوي، فهو رغم تفوقه على ابن الداية في منهجه، ورغم أن لكتابه مقدمة واضحة، بين فيها ظروف تأليفه كتابه، إلا أنه لم يذكر فيها زمن وضع هذا الكتاب، ولم يحدد لنا الشخصية التي كلفته بتأليفه^(٢). لكن الشيء المؤكد - رغم معاصرت ابن الداية - أنه

(١) كنوز الأجداد: ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ولو فُتّر توضيح هذه الشخصية - ولا بد أنها شخصية سياسية مهمة مثقفة - لاقترنا أكثر من توقيت تأليف الكتاب، أو بداية التكليف به على الأقل. وسوف أورد محاولة لتحديد ما بعد قليل.

وضع مؤلفه بعد صدور مؤلف ابن الداية؛ بدليل أنه طالعه، وذكر وجوه التقصير والنقص فيه، وحاول تحجُّبها في كتابه الجديد. ويذكر كرد على^(١) أنه لم تعرف - بالتحديد - سنة تأليف البلوى كتابه، لكن هناك أحياناً وردت في سيرته، تعطى مؤشرات تقريبية عن توقيت تأليف الكتاب، ويرى أنه ألفه بعد سنة ٣١٢هـ، التي وافى فيها مصر الوزير على بن عيسى بن الجراح، وقد ذُكر في كتاب البلوى. كما ورد ذكر الخليفة المقتدر (قُتل سنة ٣٢٠هـ)^(٢). واستنتج الباحث من رواية البلوى عن أناس رووا عن ابن الداية^(٣) أن البلوى أُلِّف كتابه في الثلث من القرن الرابع الهجري في أرجح الظن بعد وفاة ابن الداية، وبعد أكثر من ستين سنة مضت على وفاة ابن طولون^(٤).

خلاصة الرأى عندي:

١- أن النص الذي ورد فيه ذكر الوزير على بن عيسى في كتاب البلوى لم يحدد تاريخ تواجده في مصر، لكنني سبق أن ذكرت أنه قدم إلى مصر مرتين (سنة ٣١٢هـ، وسنة ٣١٨هـ)، وأرجح أن كتاب البلوى أُلِّف بعد سنة ٣١٨هـ (أواخر العقد الثاني من القرن الرابع الهجري)، ولعله أهدى إلى ذلك الوزير، ولعل له فضل توجيه البلوى إلى تأليفه، فأهداه إليه بعد أن أهدى إليه ابن الداية من قبل كتابه في (المنطق) في زيارته الأولى لمصر. ومن ثم، فالتاريخ الذي حدده كرد على متأخر عن التاريخ الذي حددته ورجحته، وتاريخه هذا أقرب إلى ميقات وفاة البلوى من أن يكون تاريخ تأليف كتابه.

٢- وبعد مناقشة تلك القضية أخلص إلى أن كلا الكتابين وُضعا في القرن الرابع الهجري، ولذا جاز أن يُدرَّسا ضمن الكتابات التاريخية في هذا القرن. وما دام ابن الداية سبق البلوى في التأليف، فلا بد أن يكون الأخير قد تأثر به، ونقل عنه، خاصة أنه طالع كتابه، وحاول إصلاح ما فيه من خلل وقصور. فما حقيقة العلاقة بين الكتابين ؟ ذلك موضوع النقطة التالية.

(١) مدخله لسيرة البلوى ص-٧.

(٢) معلوم أن المقتدر قُتل في شوال ٣٢٠هـ (ولاية مصر - ط. حسين نصار ص-٢٩٨). لكن النص الذي ورد فيه ذكر المقتدر في سيرة البلوى لا يستفاد منه ذلك؛ لأنه يمر عن بدايات عهد المقتدر، فهو متصل بأحداث صدام تكين وحيشه مع القائم العبيدي في حملته الثانية على مصر (٣٠٧-٣٠٩هـ). (راجع ما ذكره البلوى عنها في سيرته ص-١٠٢-١٠٣).

(٣) من دراستنا لتلاميذ ابن الداية، وجدنا أهم اثنين: الفرغان، وابن زولا. ولم نجد ذكراً لأى منهما في سيرة البلوى، ومن ثم لم ينقل البلوى عنهما شيئاً. ولعل تصحيح عبارة كرد على هو (عن أناس روى عنهم ابن الداية)، وهذا كثير متحقق، كما سرى في دراسة موارد الكتابين. وهذا حائز؛ لأن كليهما متعاصران.

(٤) من العرب أن يهتم البلوى بسيرة ابن طولون بعد كل هذه الفترة من تاريخ وفاته (٢٧٠هـ)، وبعد اغتيال دولته (٢٩٢هـ). فلعل ما كُلف به، وورغته في سد الخلل الحاصل؛ نتيجة اختصار ابن الداية سيرته، دفعه إلى إعادة كتابة سيرته. ويلاحظ أنه لم تعرف له كتب عن عصر الإخشيد - مثلاً - رغم أنه عاصره، فعَلَّها فُقدت.

٢- العلاقة بين سیرتی: (ابن الدایة، والبلوی):

الرأى الأول:

أ- يرى كرد على أن البلوی أورد في كتابه تسعين رواية، منها: خمسون نقلها عن ابن الدایة من كتابه: (سيرة أحمد بن طولون)، و(المكافأة). أما الأربعون الأخرى، فجاء بها من عنده على ما يظهر^(١). ويقول في موضع آخر: لكننا لا ندري: هل هذه الروايات الأخيرة نُقلت - كذلك - في المطبوع^(٢) من كتاب ابن الدایة، أو تُلقتها من أماكن أخرى؟ وإن كانت يرجع من نسقها، وعبارتها الطليّة، أمّا من بضاعة ابن الدایة^(٣).

ب- يُعذر البلوی على سلخه أخبار ابن الدایة، بمعناه ومبناها (مع زيادات عليها جعلتها ممتعة في القراءة؛ نتيجة مهارة البلوی في تأليفها)^(٤). ولا يعذر البلوی في نقله عن ابن الدایة دون تصريح، وهو العالم الفقيه الواعظ. ولو نسب ما أخذ لابن الدایة، ل زاد كتابه توثيقاً، ولصار له وقع في نفوس قارئيه، إذ ينسب الفضل لذويه، ويعزوه لقائله. ويرى أن الطليعة^(٥) جازت البلوی، فسطا المقریزی على كتاب البلوی، وسلخ من كلامه صفحات طويلة في (الخطوط).

خلاصة رأی كرد على:

أن لابن الدایة فضل السبق، وللبلوی الزيادة والإضافة. ويعتقد أن كتاب ابن الدایة لو ظفر الباحثون بالأصل السليم^(٦) منه، لكان أمتع؛ لأنه كتبه عن عيان ومشاهدة، ونقل عن ثقات وعارفين. أما البلوی، فيمتاز بخلوه من المؤثرات السياسية في الجملة، فكذب وهو لا يُخشى عليه مصانعة من معاصريهم، كما أنه تاريخ مطول يجعلنا أدنى إلى الإحاطة بحال ابن طولون، ودولته في عصره^(٧).

(١) درس هذا الموضوع كرد على في: كنوز الأجداد ١٦٣، ومدخله لسيرة البلوی ص ٨٠، ١٠-١٢.

(٢) وهذا مرتبط بفهمه أن ما بين أيدينا من سيرة ابن الدایة إن هو إلا مختصرها، وسنناقش ذلك فيما بعد.

(٣) مدخل إلى سيرة البلوی ١٠-١١.

(٤) راجع - مثلاً - تفاصيل حيل وألاعيب (طيفور نائب ابن طولون بالحضرة)؛ لأجل منع القواد أن يستحيوا للموفق في القول بولادة مصر بدل ابن طولون (سيرة البلوی ٦٠-٦٢)، وقارنها بابن الدایة (ص ٩٥). وكذلك قارن تفاصيل قبض ابن طولون على شيخ يعمل جاسوساً للموفق، ثم إطلاقه (سيرة البلوی ١٢٢-١٢٤)، بما ورد في (سيرة ابن الدایة ص ١٠٠)، وغير ذلك كثير.

(٥) هذا تعبير لا يجوز عقدياً، فكأن الكاتب من الدهريين أو الطبيعيين، الذين ينسبون الأفعال إلى الطبيعة لا إلى خالق الطبيعة، وقد أورد تعبيره هذا مرتين، رغم أن الطبيعة لا تُجازى، ولا تقتض.

(٦) وهو يتشبه - أيضاً - مع رأيه أن ما نُشر من سيرة ابن الدایة مختصر عن الأصل.

(٧) مدخل إلى سيرة البلوی ص ٨٠.

الرأى الثانى:

يسرى العبادى^(١) أن لا عجب كل العجب فى سطو المقرئى (فى القرن التاسع الهجرى) على مؤلف البلوى (فى القرن الرابع الهجرى)، إنما العجيب حقاً أن سطو البلوى على مؤلف معاصر له (ابن الداية)، ولعلهما التقيا، وعرف كلاهما الآخر. وله رأى جديد فى تعليل التشابه بين مادة كتابهما، هو أن كليهما استمد من المصدر نفسه، الذى استمد منه الآخر (ديوان الإنشاء المصرى)، وله على ذلك عدة أدلة، يسوقها من كتاب البلوى نفسه^(٢).

خلاصة الرأى عندى:

لا أقبل الاتهام الذى وُجِّهَ إلى البلوى بالسطو على كتاب ابن الداية المعاصر له، والنقل عنه دون أن ينسب النصوص والروايات له. فالبلوى يذكر موارد رواياته، وما كان يضره أن يشير إلى ابن الداية لو أنه نقل عنه مباشرة، وما كان ذلك ليعيبه فى شئ. وأقول: لعله استفاد من تخطيط ابن الداية كتابه وأفكاره، ولكنه عاد - فى الغالب - إلى المصادر الأصلية، التى رجع إليها ابن الداية، واستعان بالديوان، فأخذ من وثائقه ما لم يأخذ ابن الداية. فأتى كتابه على نهج جديد، ومنوال بديع، وأورد به تفاصيل كثيرة^(٣)، وعالج بمنهج رائع، دُلِّلَ على عظمة البلوى مؤرخاً بصورة لم تظهر فى سيرة ابن الداية، التى عمد صاحبها إلى عرضها مختصرة، مكتفياً بذكر ما يُستحسن من أخبار ابن طولون. وإذا كان الأسلوب متشابهاً فى عدد من الروايات، فلا يعنى ذلك أن البلوى يؤلف من كلام ابن الداية، ويصوغ بدقة ما يتخذ به قارئه، ويوهمه أنه أسلوبه الخاص به؛ لأن ثقافة العصر واحدة، وعبرة البلوى إذا قيست بابن الداية لا تقل عنها فصاحة وجزالة^(٤). وإذا كان البلوى نقل فى سيرته بعض روايات فى كتاب (المكافأة)؛ فلأنها روايات

(١) يراجع رأى عبد الحميد العبادى فى (مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة) مجلد ١/ ١٩٤٣م، ص ٤-٦.

(٢) من ذلك: ما ورد فى (سيرة البلوى ص ١١١-١١٢): أن ابن طولون جعل للرسائل ديواناً، تختم فيه الكتب بعد تحرير الكتاب لها، وعرضها عليه. والغالب أن ديوان الإنشاء كانت تحتفظ فيه - خلافاً للرسائل الرسمية - محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه، فكان له كتاب يسجلون كل صغيرة وكبيرة فى مجالسه. وربما كانت تُحفظ فى (ديوان الإنشاء) رقاع التفارير، التى تُرفع للأمير من غلمانته وأصحاب أخباره (المصدر السابق ٢٢٤، ٢٢٨-٢٢٩). وأحياناً هناك دليل عقلى: تشابه اللفظ والمعنى والأسلوب فى نصوص مراسلات رسمية بين ابن طولون والموفق، والباقى بن أحمد بن طولون فى كل من: (سيرة ابن الداية، والبلوى) معاً؛ مما يدل على وحدة مصدرها.

(٣) الحق أنه وردت فى (سيرة البلوى) روايات كثيرة لا وجود لها أصلاً فى (سيرة ابن الداية)؛ مما بنى نقله وسطوه على كتاب ابن الداية ككل. (راجع هذه النماذج فى سيرة البلوى ص ٦٢-٧٠، ١١٢-١١٧، ١٣٠-١٣٣، ١٤٧-١٤٨، ١٥٣-١٥٤، ١٥٦-١٥٩، وغيرها. وفى المقابل توجد بعض روايات قليلة فى (سيرة ابن الداية) لا وجود لها عند البلوى (راجع: ص ١٠٣، ١٠٧، ١٢٥، ١٣٣).

(٤) ركوز الأحاد ١٦٣.

تاريخية، نقلها من موردها الأصلي^(١). وهكذا، لا نزع لابن الداية ما ليس فيه، ولا نبالغ في اتهام البلوى بما ليس فيه، وإنما نعطي كل ذي حق حقه بالدليل والبرهان.

٣- أصل الكتابين، وما يتعلق بطبعهما ونشرهما:

عند دراسة (سيرة ابن الداية) يثور سؤال مفاده: هل هذه السيرة التي كتبها ابن الداية وصلت إلينا كاملة، أو أنها ملخصة عن الأصل المفقود؟ والحق أن الرأي السائد بين الباحثين^(٢) هو أن الأصل فُقد، وأن ابن سعيد المغربي عرض لها ملخصة ضمن كتابه: (المُغْرِب في حُلَى المُغْرِب)؛ ومن هنا وردت موجزة بالقياس إلى (سيرة البلوى) المفصلة.

ولي رأي يناقض ذلك الرأي، مفاده أن (سيرة ابن الداية) المشار إليها سابقاً، عرضها ابن سعيد بكل دقة وأمانة، وعرضها كاملة كما وقعت له، ذاكراً أساسيات الروايات على النحو الذي وجدها عليه.

وأدلة ذلك ما يلي:

أ- ذكر ابن سعيد أنه يفرد لبني طولون، الذين توارثوا سلطنة مصر كتاباً، كما أفرد لبني عبَّاد ملوك إشبيلية كتاباً، فهم ممن تحلَّى بهم زمانهم، ودلَّ عليهم عنوانهم^(٣). فالرجل معجب بهم، فلا أقل من أن ينقل أول كتاب مُعَبَّر عن عصرهم الذهبي (ابن طولون) كاملاً، وقد سُمِّاه (كتاب الدرّ المكنون في حلى دولة بني طولون)، وضمَّته سيرة ابن طولون، ثم من بعده حتى زوال أمرهم.

ب- أنه ذكر أن كتاب ابن الداية عن (ابن طولون) عنوانه: (المستحسن من أخبار أحمد بن طولسون)، وذكر نسب مؤلفه كاملاً، وأوضح أنه يقتصر على هذا الكتاب في إيراد حياة ابن طولون، وأنه بعد الفراغ من ذلك الكتاب يأتي بما يقتطفه من غيره ما يتعلق بأخبار خلفاء أحمد ابن طولون من بعده^(٤). وهذا يعني أن ابن سعيد أورد كتاب ابن الداية كاملاً، ووردَ على من يزعم أن الكتاب ناقص؛ لأنه مختصر، بأن الاختصار والاقتصار على محاسن أخبار ابن طولون

(١) قارن ما ورد في (المكافأة) لابن الداية ص ١١-١٥، بما يقابله في: سيرة البلوى (ص ٢٣٠-٢٣٤). وكذلك ما ورد في (المكافأة) ص ١٥-١٩، بالبلوى ص ٢٣٤-٢٣٧. وكذلك ما جاء في (المكافأة) ص ٤٨-٥٠، بما يقابله في البلوى ص ٢٣٧-٢٣٩، وغير ذلك.

(٢) كرد على: مدخل إلى سيرة البلوى ص ٨، ١١، وعبد الحميد العبادي: مقاله في (مجلة كلية الآداب) ص ٢. ود. شمان مرسى: بحث في الأدب العباسي ص ٣٦، ومحقق كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد (المقدمة م ٤٣)، ود. سيدة كاشف: أحمد بن طولون ص ٩.

(٣) المغرب (قسم مصر) ص ٧١.

(٤) المصدر السابق: (قسم مصر) ص ٧٣.

كان هدفاً لابن الداية في حد ذاته، كما هو واضح من عنوان الكتاب، الذي تفرّد بالإتيان به ابن سعيد، فأنازل لنا هذا الدليل^(١).

ج- أن سيرة ابن الداية تسير في أحداثها بطريقة منطقية بدرجة لا بأس بها، مع تطورات حياة ابن طولون من النشأة حتى الوفاة، وإن احتل الترتيب واضطرب وغمض أحياناً، بدافع الاختصار الذي أدى إلى شيء من الاختلال، كما سنرى بعد، مما تجنّبه البلوى فعليه يُشكر، ومن الله يُؤخّر.

د- بعد إيراد ابن سعيد سيرة ابن الداية - وهو الثقة الثبت الدقيق الأمين - قال: "كمل كتاب سيرة ابن الداية في سيرة أحمد بن طولون"^(٢). وحسبك بهذا القول الفصل دليلاً على اكتمال سيرة ابن الداية.

وهذا، وقد نشر فولرز Vollerz الألماني كتاب ابن الداية مستقلاً سالخاً إياه من (المغرب)، في برلين سنة ١٨٩٤م^(٣) في (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) بتحقيق الدكتور زكي محمد حسن، وآخرين في طبعة جديدة جيدة، نعتمد عليها في دراستنا للكتاب.

أما البلوى، فيذكر محقق سيرته^(٤) أنها وجدت مخطوطة في (دار الكتب الظاهرية بدمشق)، وإن عنوانها في أولى صفحاتها كان على النحو الآتي: (كتاب سيرة آل طولون)، لكن الكتاب جاء (سيرة أحمد بن طولون) فقط. وكُتب في آخره خط يخالف خط ناسخه: (تمت سيرة أحمد ابن طولون). ويرى المحقق أن الغالب ضياع كراريس من آخره، أو أن المؤلف لم يَف. بما وعد به في مقدمته^(٥)، ولم يذكر من أخبار أولاده إلا ما جاء عرضاً، ولأمور تتعلق بأبيهم لا بهم^(٦). هذا، وقد استفسر محققه عن مدى وجود نسخ أخرى مخطوطة تكمل النقص في آخره، فأفاده صديقه كرنكو Krenkow بأنه لا يُعرف له نسخ خطية أخرى، ولا شيء من أخباره سوى ما في الكتب المعروفة^(٧).

(١) وهذا العنوان هو ما ربحه سيد محمد قطب في ماحسينه ص ٩٩؛ لاتفاق مع طبعة فكر ابن الداية، ورؤيته نشر فضائل الأعلام؛ للاقتداء بهم بعد ذلك.

(٢) سيرة ابن الداية (في كتاب المغرب) ص ١٣٣.

(٣) كان ناشرها مديراً لدار الكتب المصرية آنذاك. وفي بعض السيرة التي نشرها تحريفات كثيرة، أشار إليها محققو (المغرب - قسم مصر): راجع - مثلاً - هامش ١ ص ٧٤، وهامش ٢ ص ٧٦، وهامش ٣ ص ٧٩، وهامش ١٠ ص ٨٠، وهامش ٤ ص ٧، ٨٣.

(٤) مدخل كرد على لسيرة البلوى ص ١٣.

(٥) راجع البلوى في مقدمة (سيرة ابن طولون) ص ٣٢.

(٦) مثل: ذكر العباس عند شرح خروجه على والده، وعصيانه إياه (سيرة الطوى ص ٢٤٤)، وما بعدها، ووصية ابن طولون لاسه حمارويه قبل وفاته (السابق ص ٣٣٩).

(٧) مدخل إلى سيرة ابن طولون للبلوى: ص ١٥-١٦.

الخلاصة

أن سيرة ابن الداية كاملة، وسيرة البلوى كاملة (فيما يخص ابن طولون)، وناقصة (فيما وراء ذلك)، وأن كليهما لقيتا عناية، فتم نشرهما بتحقيق علمي جيد، وإن وردت الأولى متضمنة في كتاب آخر، بينما نُشرت الأخرى مفردة قائمة بذاتها. ومن هنا جازت دراسة منهجيهما، مع المقارنة بينهما، وهو موضوع الصفحات القادمة.

الفصل الثاني

سيرة أحمد بن طولون: نقد، وتحليل

(دراسة سيرة أحمد بن طولون) لابن الداية، والبلوى:*

أولاً - المحتوى والمضمون:**

- ١- أصل والد أحمد بن طولون، ومولد أحمد سنة ٢٢٠هـ، ووفاته سنة ٢٤٠هـ، وعناية الصلحاء من رفقاء والده به.
- ٢- سأم أحمد أخلاق الأتراك المتردية، وتفضيله المرافقة بثمر طرسوس؛ للجهاد في سبيل الله ضد الروم. ثم عودته إلى سامراء، وظروف ذلك، وأسبابه، وصلته بتوطيد أواصره بالخليفة المستعين.
- ٣- وكل الأتراك إلى أحمد أمر المستعين لَمَّا نَفَوْهُ إلى (واسط) بعد عزله وتولية المعتز. وقد عامله أحمد معاملة طيبة، ورفض أن يقتله رغم كل الإغراءات، فزادت مكانته في القلوب؛ مما هيأ له الفرصة لحكم مصر نيابة عن بابكباك التركي.
- ٤- دخول أحمد مصر سنة ٢٥٤هـ بصحبة الواسطي، ويعقوب بن إسحاق الكاتب، وصدامه مع صاحب الخراج (ابن المدبر)، وصاحب البريد (شَقِيرُ الخادم). وقد نجح ابن طولون عن طريق عيونه بعاصمة الخلافة في إحباط دسائس (ابن المدبر)، وشقير ضده، وتمكن من التخلص منهما. وبعدها بسط سلطانه على مصر كلها.
- ٥- أخبار عدد من النائرين بمصر في عهد ابن طولون، وتمكن جيوشه المتتابعة من القضاء على تلك الثورات.
- ٦- اصطدام ابن طولون بالموقف أخى الخليفة (المعتمد)؛ لمطالبة الأخير له بالأموال اللازمة لتمويل حربه أمام (الزنج)، وردّ ابن طولون الحاسم عليه. هنا تنبه الموقف لخطر وجود والٍ قوى

* اعتمدت في دراسة (سيرة ابن الداية) على نشرهما المتضمنة في كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد المغربي ص ٧٣-١٣٣، واستخدمت في دراسة (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى طبعة بتحقيق: محمد كرد علي (نشر: مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة).

** أحرص على ذكر محتوى عام للمسيرتين معاً من بداية حياة ابن طولون حتى نهايتها، مع تغليب محتوى سيرة البلوى؛ لأنها أشمل وأكثر، مع تجنب ذكر التفاصيل، أو الأفكار المتقدمة أصلاً في سيرة ابن الداية. وعد وجود أحداث المذكورة بتواريخها، حاولت سردها وفق ترتيبها الصحيح بغض النظر عن احتلال ترتيبها في أي من السيرتين.

كابن طولون في مصر، فحاول عزله عنها، لكنّ القدر خدّم ابن طولون بموت أشد منافسيه عداء له (موسى بن بغا، وعُبيد الله بن خاقان الوزير) سنة ٢٦٤هـ.

٧- أبعد الموفقُ أحمدَ بن طولون عن الثغور الشامية، لكنّ الخلافة اضطرت أمام اضطراب الأمور هناك، إلى الاستعانة بابن طولون؛ لتدبير أمور الثغور وضبط شئونها. وانتَهز أحمد الفرصة فضم الثغور إلى مصر، ثم سيطر على الشام بعد موت ماجور التركي عامل الشام سنة ٢٦٤هـ، ومقتل سيما الطويل عامل أنطاكية في حروبه أمام ابن طولون في المحرم سنة ٢٦٥هـ.

٨- انتقل الحديث بعد ذلك إلى رصد صفات أحمد بن طولون مع ضرب الأمثلة والنماذج الكثيرة عليها الدالة على حزمه، ودهائه، وفطنته، وفراسته، وصحة قياسه وظنه، تلك السمات التي ساعدته كثيراً على اكتشاف جوايس الموفق، والقبض عليهم وإحباط مؤامراته ضد ابن طولون في مصر. وكذلك تُعرّضُ لإنصافه، وحسن تأتبه، وبطلان كثير مما يشع به أعداؤه عليه، مع التماس العذر له فيما أوقع من عقوبات على بعض الناس، وضرب الأمثلة العديدة على تلك العقوبات.

٩- الاهتمام بإبراز حب ابن طولون للخير، وصدقاته الكثيرة، ومشروعاته الطيبة كبناء الجامع، وإنشاء البيمارستان، وإحسانه إلى أهل طَرَسُوس المرابطين، وبناء حصن يافا، وصدقاته لأهل الحرمين، وأهل السّتر والحاجة في مصر، وأداء ما على المحبوسين من أموال حُبِسوا لأجلها، واهتمامه بشئون حَفَظَة كتاب الله، واهتمامه الكبير بالعملة ونقائها (الدينار الأحمدي)، وإشرافه بنفسه على إطعام الفقراء والمساكين، واهتمامه بشئون الجيش والأسطول، وتوجيهاته إلى رجال الشرطة بمراعاة رعيته، والشدة على أهل الفسق، والفجور، والجرائم.

١٠- خروج العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، ومعه بعض القواد الذين أغروه بذلك؛ منتهزين فرصة انشغال ابن طولون بالشام. وتصرفات العباس المنهورة، وتبيده الأموال والرجال، وفشل أحمد في إعادته إلى الطاعة همدوء، فأرسل إليه الجيوش بجماسته، وأعيد أسيراً إلى والده سنة ٢٦٧هـ، وقيام ابن طولون بمعاقبة الخونة بالقتل والحبس. أما العباس، فعاقبه والده بالضرب والحبس؛ جزاء فعلته النكراء.

١١- خروج لؤلؤ غلام ابن طولون بالأموال والعتاد إلى الشام، وانضمامه بعد ذلك إلى الموفق، وفشل ابن طولون في إعادة غلامه، فخرج متظاهراً بمساندة المتمدّد ضد أخيه الموفق، وهو - في الحقيقة - يريد الإيقاع بغلامه، الذي تنكر لجميل سيده عليه.

١٢- لما فشل ابن طولون في استقدام المتمدّد إلى مصر، وفشل في تحقيق أهدافه، اصطدم بالموفق مباشرة، وأعلن خلعته من ولاية العهد، ولعنه على المنابر بالشام ومصر. وفي المقابل رد عليه الموفق بلعنه، وخلعه من ولايته (مصر، والشام).

١٣- وأخيراً، واجه ابن طولون - أواخر أيامه - سلسلة من الفشل والإخفاق المتوالى في فتح الشام، وعجز عن دخول طرسوس أمام القائد يا زمان الخادم، ثم أصيب بعلته الشديدة، التي أتت عليه بعد أن تقدم بوصاياه إلى ابنه: العباس، وحمارويه، وقواده، وغلمانه. وبذلك انتهت فترة حكمه لبلاد مصر، والشام بعد ستة عشر عاماً (توفي ٢٧٠هـ)، قضاها في مصر، مخلفاً وراءه مظاهر عظيمة من الثراء والرخاء.

ثانياً - وضع محتوى السيرتين في ميزان النقد التاريخي:

بعد عرض الخطوط العريضة لسيرة ابن طولون، التي كتبها كل من: ابن الداية، والبلوى، ننقل إلى دراستهما دراسة نقدية تاريخية. والنقد - في نظري - نوعان: خارجي (له علاقة بالموارد التي نقل عنها المؤرخان مادتهما). وداخلي (يتمثل في وضع بعض الأحداث التاريخية في ميزان الصواب والخطأ التاريخي).

١- النقد الخارجي:

تنوعت موارد ابن الداية في (سيرة ابن طولون) على النحو الآتي:

أ- موارد صريحة محددة:

يذكر فيها ابن الداية اسم مورده، الذي نقل عنه الرواية بطريقة محددة واضحة. وقد بلغت اثنين وثلاثين (٣٢) مورداً، نقل عنها ابن الداية - في مجموعها - سبعة وستين (٦٧) رواية، موزعة كما يلي:

١- نسيم الخادم^(١): (١٣ رواية).

٢- شعيب بن صالح^(٢): (٧ روايات).

٣- إسحاق بن إبراهيم (عم المؤلف)^(٣): أربع روايات.

٤- أبو العباس الطرسوسي^(٤)، وأبو جعفر بن عبد كان الكاتب^(٥)، وأحمد بن خاقان^(٦)،

(١) مرويته في سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد ص ٧٦، ٩٤، ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤، ١٢٣، ١٢٦-١٢٧، ١٢٩-١٣١.

(٢) مرويته في سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد ص ٨٥، ٩٢-٩٣، ٩٥، ١٠١-١٠٣، ١٠٦-١٠٧.

(٣) السابق: ١٠٥-١٠٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٢٩ (وسوف أوضح الرأي في تلك الرواية الأخيرة فيما بعد).

(٤) السابق: ٩٩-١٠٠، ١١٧-١١٨.

(٥) السابق: ٩٨، ١٠٠-١٠١، ١٠٥.

(٦) السابق: ٧٥، ٨٣، ١٠٧-١٠٨.

وأحمد بن محمد الواسطي الكاتب^(١)، ونعت أم ولد أحمد بن طولون^(٢). (لكل ثلاث روايات).
 ٥- أبو جعفر المروزي^(٣)، وسعد الفرغاني^(٤)، وعلي بن مهاجر^(٥)، وأحمد بن عبد العزيز الحريزي^(٦): (ولكل روايتان).

٦- إبراهيم بن كامل المصري^(٧)، والحسن بن مهاجر^(٨) وطاهر الكبير الخادم^(٩)، وإبراهيم بن قراطغان^(١٠)، وأبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(١١)، وموسى بن طولون^(١٢)، وتركان^(١٣)، وأحمد بن القاسم^(١٤)، وهارون بن ملول^(١٥)، والحسن بن رافع الكاتب^(١٦)، ومحمد ابن موسى^(١٧)، ومحمد بن عبيد الله الخراساني الدهان^(١٨)، وأبو جعفر محمد بن موسى بن طولون^(١٩)، وأحمد بن أيمن^(٢٠)، الفارسي^(٢١)، وبراقة الحاسب^(٢٢)، يعقوب بن صالح صاحب العجقي^(٢٣)، وأحمد ابن أبي يعقوب^(٢٤)، وأحمد بن دُعيم^(٢٥)، وأحمد بن أبي أوفى^(٢٦) (لكل رواية واحدة).

ب- موارد غير صريحة (غير محددة بوضوح):

وهذه بلغ عددها ثلاثة موارد^(٢٧)، بالإضافة إلى مورد رابع، ورد في رواية جمعت بين مورد صريح وآخر غير صريح^(٢٨).

- (١) السابق: ص ٧٥-٧٦، ١٢٥-١٢٨.
- (٢) السابق: ٩٣-٩٤، ١٠٣ (كتبت بما محرفة هكذا: نعمت بدلاً من: نعت)، ١٠٥.
- (٣) مرويته في (المصدر السابق) ص ٩٦-٩٧، ٩٨-٩٩.
- (٤) السابق ٩٧، ١٠٧ (وورد باسم سعيد تحريفاً).
- (٥) السابق ١٣٢-١٣٣.
- (٦) السابق ص ١٣٣ (وبما روايتان عنه).
- (٧) السابق ١٠٢-١٠٣.
- (٨) السابق ١٠٣-١٠٤.
- (٩) السابق ٩٧-٩٨.
- (١٠) مرويته في سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) ص ١٠٥.
- (١١) السابق: ٩٤-٩٥ (ورد اسم كامل محرفاً إلى: كامن).
- (١٢) السابق: ١٠١.
- (١٣) السابق: ١٠٨-١٠٩.
- (١٤) السابق: ٧٦-٧٧.
- (١٥) السابق: ١١١.
- (١٦) السابق: ١١١-١١٢.
- (١٧) السابق: ٨١-٨٢.
- (١٨) السابق: ١١٢-١١٣.
- (١٩) السابق: ١١٤-١١٥.
- (٢٠) السابق: ١٣٢.
- (٢١) السابق: ١٣٠-١٣١.
- (٢٢) السابق: ١٠٢-١٠٣.
- (٢٣) السابق: ١٠٣-١٠٤.
- (٢٤) السابق: ١٠٣-١٠٤.
- (٢٥) السابق: ١٠٣-١٠٤.
- (٢٦) السابق: ١٠٣-١٠٤.
- (٢٧) هي: خادم برجوازي خليفة ابن طولون (سيرة ابن الداية ص ٩٥)، وقيل لى (السابق ص ١٠٧)، وجماعة من رهبان دير القنصير (السابق ١٣٠-١٣١).
- (٢٨) نص إستاندا بقول: "وحدثني إبراهيم بن كامل المصري، وجماعة من المصريين" السابق ص ١٠٢-١٠٣.

ج- وثائق رسمية مستقاة من الديوان (حيث السجلات الرسمية للدولة): وهذه عددها تسع وثائق^(١).

ملاحظة:

أورد ابن الداية حوالى أربع وثلاثين رواية دون أن يذكر الموارد، التي استقى منها هذه الروايات^(٢).

أما البلوى، فقد تنوعت موارده على النحو الآتى:

أ- موارد صريحة محددة:

وقد بلغ عددها في كتاب البلوى تسعة وثلاثين (٣٩) مورداً، نقل عنها سبعةً وثمانين رواية موزعة كما يلي:

١- نسيم الخادم^(٣): نقل عنه إحدى وعشرين (٢١) رواية.

٢- شعيب بن صالح^(٤)، وأحمد بن محمد الواسطي الكاتب^(٥): ونقل عن كل منهما ست (٦) روايات.

٣- أبو جعفر بن عبد كان^(٦): وروى عنه أربع (٤) روايات.

٤- إبراهيم بن قراطغان^(٧)، وعبد الله بن الفتح^(٨)، ونعت أم ولد ابن طولون^(٩): ونقل عن كل ثلاث (٣) روايات.

٥- أحمد بن أيمن^(١٠)، وتركبان بن عبد الله بن الإمام^(١١)، وسعد القرغاني^(١٢)،

(١) السابق ٧٥، ٨٧، ٨٩-٩١، ٩٥، ٩٨، ١٢٦-١٢٧، ١٣١-١٣٣.

(٢) السابق ٧٣-٧٤، ٧٦-٨١، ٨٣-٨٤، ٨٦-٨٨، ٩١، ١٠٨، ١١٥-١٢٦، ١٢٨-١٣١. (روى ص ١٣٠: ثم قال أحمد بن طولون لسعيد بن نوفل. والصواب: ابن توفيل).

(٣) مروياته في (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى ص ١١١، ١٦٨-١٧٣، ١٩٣-١٩٦، ٢٠١-٢٠٦، ٢١٠-٢١١، ٢٢٢-٢٢٤، ٢٣٤-٢٣٩، ٢٤٢-٢٤٣، ٢٨٠-٢٨١، ٣١٤-٣١٩، ٣٢٩-٣٣٣، ٣٣٨-٣٣٧، ٣٤١-٣٤٢.

(٤) مروياته في (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى ص ١٢٩-١٣٠، ١٣٣-١٤٢، ١٤٥-١٤٦، ٣٣٣-٣٣٤.

(٥) السابق: ٤١-٤٢، ٤٨، ١١٤-١١٥، ٢٢٦-٢٣٠، ٢٧١-٢٧٢، ٢٨١-٢٨٦.

(٦) السابق: ١٠٩-١١٠، ١١٢، ١٤٨، ٣٣٨.

(٧) السابق: ١٨١-١٨٣، ١٩٨-١٩٩، ٢٠٦-٢٠٨.

(٨) السابق: ٣٠٢-٣٠٦، ٣٥٥-٣٥٨. (٩) السابق: ١١٠-١١١، ٢١٢، ٣٤٣.

(١٠) السابق: ص ١١٥-١١٧، ٢١٧-٢١٨. (١١) السابق: ١٢٦-١٢٨.

(١٢) السابق: ١٨٩-١٩٢، ٢٢٤-٢٢٥.

وأبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب^(١)، وأبو جعفر المروزي^(٢)، وأبو العباس الطرسوسي^(٣)، وموسى بن طونيق^(٤) ويحيى بن بركة الحاسب^(٥)، وأحمد بن دُعَيْم^(٦): (لكل روايتان).

٦- أبو العباس أحمد بن محمد الكوفي^(٧)، وصالح بن علي^(٨)، والعجيفي^(٩)، وأسامة بن حبيب^(١٠)، والفارسي^(١١)، ومحمد بن عبد الله الخراساني الدهان^(١٢)، وطاهر الكبير الخادم^(١٣)، وأحمد بن القاسم^(١٤)، ويعقوب غلام العجيفي^(١٥)، وحماد بن علي الأزدي^(١٦)، والحسن بن القاسم الأنباري^(١٧)، وسوار الخادم^(١٨)، وهارون بن ملول^(١٩)، وإسحاق بن إبراهيم^(٢٠)، وجريج ابن الطباخ المتطبب^(٢١)، ومحمد بن الحسن اليماني^(٢٢)، والحسن بن علي العبّاداني^(٢٣)، ومحبوب بن رجاء^(٢٤)، وكامل بن سعيد متطبب سعيد الصغير^(٢٥)، وأحمد بن عبد العزيز الحريري^(٢٦)، وعلي ابن يحيى بن أبي منصور^(٢٧)، ومروان بن الحكم الأردني^(٢٨): (ولكل رواية واحدة).

ملاحظة:

ويلحق بهذا النوع من الموارد - وإن لم يكن واحداً منها - مورد (المشاهدة)،

(١) السابق: ٢٠٨-٢١٠ (ورد بلقب الخاحب تحريفاً).

(٢) السابق: ١٨٩-١٨٤.

(٣) السابق: ٩٨-١٠١، ١٢٢-١٢٤.

(٤) السابق: ١٢٤-١٢٦ (وسوف نوضح ما في صـ ١٢٤ عند تناول شخصية البلوي في كتابه).

(٥) السابق: ١٦٤-١٦٨.

(٦) السابق: ٢٣٠-٢٣٤، ٣٥٦.

(١٦) السابق: صـ ١٣٠-١٣٣.

(٧) سيرة أحمد بن طولون للبنوي صـ ٣٣-٣٤.

(١٧) السابق: ١٨٥-١٨٦.

(٨) السابق: صـ ١٤٥-١٤٦.

(١٨) السابق: ١٩٩-٢٠٠.

(٩) السابق: ٢١٨-٢٢٠.

(١٩) السابق: ٢١٤-٢١٦.

(١٠) السابق: صـ ٢٧٣-٢٧٦.

(٢٠) السابق: ٣١٩-٣٢٠.

(١١) السابق: ١١٨-١٢٢.

(٢١) السابق: ٢٢٥-٢٢٧.

(١٢) السابق: ١٥٤-١٥٦.

(٢٢) السابق: ٣٥٢-٣٥٣.

(١٣) السابق: ١٩٤.

(٢٣) السابق: ٣٥٣.

(١٤) السابق: ٢١٢-٢١٤.

(٢٤) السابق: ٣٥٣-٣٥٤.

(١٥) السابق: ٢٢٠-٢٢١.

(٢٥) سيرة أحمد بن طولون للبنوي صـ ٣٥٤-٣٥٥.

(٢٦) السابق: ٣٥٦ (وقد ورد للقب بالرائي في سيرة ابن الداية صـ ١٣٣. ولا أدري أيهما أصوب، وإن كما قد

اعتدنا على وجود أحطاء مطبعة في (سيرة ابن الداية داخل كتاب المغرب)، فلعن الصواب ما أنه السوي

(الحريري)، خاصة أن هذا الرجل البغدادي كان على خزائن ابن طولون، ولعلها كانت خزائن ملائمه، كما

يرجح لقيه، ومصمون روايته).

(٢٧) البنوي في سيرته صـ ٣٥٨-٣٦٣.

(٢٨) السابق: ٣٠٦-٣٠٧.

أى: ما شاهده المؤلف بنفسه. وقد ورد ذلك في موضع واحد صراحة^(١).

ب- موارد غير صريحة (لم يذكرها البلوى محددة): وعددها ثلاثة موارد^(٢).

ج- وثائق رسمية مستقاة من دواوين الدولة، وسجلاتها الرسمية: عددها سبع عشرة (١٧) وثيقة^(٣).

ملاحظة:

ذكر البلوى حوالى ثلاث وسبعين (٧٣) رواية^(٤)، دون أن يذكر الموارد، التي استقى منها هذه الروايات.

ملاحظات عامة على الإحصاءات العامة السابقة:

١- يتفق كل من: ابن الداية، والبلوى في أنواع الموارد، التي استقى منها مادتهما التاريخية (موارد صريحة، وغير صريحة، ووثائق). بل يشترك كلاهما في إيراد قطاع عريض من الروايات بجهولة المورد.

٢- على الرغم من أن كتاب ابن الداية يمثل خمس حجم كتاب البلوى تقريباً، إلا أن عدد الموارد الصريحة في كليهما متقارب. ولعل مرد ذلك يرجع إلى حرص ابن الداية الشديد على ذكر موارد رواياته المتتابعة القصيرة غالباً، إلى جانب التشابه العام بين موضوعات الكتابين، وإيراد البلوى كثيراً من التفاصيل، التي خلا منها كتاب ابن الداية، دون ذكر المورد.

٣- يأتي كل من: (نسيم الخادم)، و(شعيب بن صالح) على رأس قائمة الموارد الصريحة لدى كليهما. وتعد (نعت أم ولد ابن طولون) المرأة الوحيدة، التي نقل كلا المؤرخين عنها في كتابهما، بل يتفقان في عدد الروايات المنقولة عنها (ثلاث روايات).

(١) السابق: ٣٠٩ (وفيها شاهد المؤلف لولواً يدخل مصر في حال وضعية بعد طرد الموفق له بفترة، فقد دخلها آخر أيام هارون بن حمادويه).

(٢) هـ: فحدثني شيخ من شيوخنا (السابق ٤٢)، وجماعة من رهبان دير القصر (السابق ١١٨)، وحدثنا شيخ من صالحى أهل العاقر (السابق ٣٤٣).

(٣) السابق ٤٠، ٤٦، ٥٦-٥٧، ٦٠، ٨٢-٨٥، ٢٥٠-٢٥٣، ٢٥٦-٢٦٦، ٢٧٧-٢٧٩، ٢٨١، ٢٩٠-٢٩٥، ٣١٢-٣١١.

(٤) سورة أحمد بن طولون للبلوى ٣٢-٤١، ٤٣-٤٧، ٤٨-٨٢، ٨٥-٩٨، ١٠١-١٠٦، ١١٢-١١٤، ١٢٤-١٢٥، ١٤٠-١٤٢، ١٤٦-١٥٤، ١٥٦-١٦٤، ١٧٣-١٨١، ١٨٣-١٨٤، ١٩٧-١٩٩، ٢٢٢-٢٢١، ٢٤٠-٢٤٢، ٢٤٤-٢٧٣، ٢٧٦-٢٧٩، ٢٨٦-٣٠٢، ٣٠٦-٣٠٨، ٣١٠-٣١٤، ٣١٧-٣١٩، ٣٢٨-٣٦٤-٣٦٣، ٣٥٧، ٣٥٢-٣٣٩، ٣٣٧-٣٣٦، ٣٣٤، ٣٣١.

٤- هناك موارد اتفق كل منهما على النقل عنها، وموارد انفرد ابن الداية بالنقل عنها، وموارد أخرى تفرد البلوى بالنقل عنها، كما انفرد البلوى في رواية واحدة بالتصريح بأنه اعتمد على المشاهدة في نقلها.

٥- الوثائق التي اعتمد عليها البلوى أكثر عدداً، وأغزر تفصيلاً من ابن الداية، الذي كان هدفه الإيجاز.

٦- تفرد ابن الداية بإيراد موردين من نوعين مختلفين لرواية واحدة مشتركة؛ أحدهما مورد صريح، والآخر مجهول (غير صريح)، وبه زاد عدد الموارد غير الصريحة لدى ابن الداية عنه عند البلوى.

منهج ابن الداية، والبلوى في ذكر الموارد الصريحة: أولاً - ابن الداية:

١- أول ما يلفت نظر الباحث أن موارد ابن الداية وثيقة الصلة بالحدث التاريخي الذي تنقله^(١)، فهي إما أن تكون مشاركة في الحدث المروي^(٢)، أو تكون الرواية متحدثة عن هذا المورد مُعرِّفة به، فهي بمنزلة ترجمة له^(٣)، وإما أن تكون شاهدة الحدث حاضرة إياه^(٤). وإذا لم يندرج المورد تحت أى من هذه الأقسام الثلاثة المذكورة آنفاً، فإنه تكون له علاقة غير مباشرة بالحدث، وذلك من خلال معرفتها بطبيعة عمله ومقامه من ابن طولون، بما يقوى ثقتنا بصحة

(١) يتحرى ابن الداية مصادر معلوماته، ويوائم بين المورد وموضوع الخبر المروي. فإذا نقل ما يتصل بأخبار ابن طولون الخاصة، اعتمد على نسيم الخادم مولاة، الذي يصاحبه في حله وترحاله، ويستأنه ابن طولون على خزان جواهره (سيرة ابن الداية ص ٧٦). وإذا أراد التحدث عن جوارى ابن طولون، وعلاقته بنسائه، استقى ذلك من أم ولده (نعت)، فهي أقرب نسائه إليه، وأدرى بأحواله معهن. وإن أراد معرفة شئون السياسة العليا لابن طولون، روى عن صديق عمه والوالد من قبل (وهو الوزير أحمد بن محمد الواسطي). وإذا اتبني الحديث عن أوضاع الأمن والشرطة في عهد ابن طولون، حدثنا عن المُجَنِّفِي صاحب الشرطة مثلاً، وهكذا.

(٢) كما في روايته عن الواسطي خير المستعين عند نفيه إلى واسط، وقد كان الواسطي نفسه مصاحباً للمستعين في منفاه. وشهد لحظاته الأخيرة (المصدر السابق ٧٥). وكذلك روايته عن (نعت) عدم اكتراث ابن طولون بالجوارى، وانشغاله بشئون دولته من خلال موقف شهدته بنفسها (السابق ٩٣-٩٤).

(٣) كما هو الحال مع (أبي كامل شجاع بن أسلم)، الذي روى عنه ابن الداية رواية، بعد مضمونها ترجمة له، إذ يحدثنا عن استدعاء ابن طولون له، وإطلاقه من الحبس، وتوليته مسئولية منصب دار صناعة السفن، وتوجيهاته إليه بشأن العناية بالأسطول (سيرة ابن الداية ٩٤-٩٥).

(٤) بمعنى أن المورد لم يشارك بالحديث، لكنه حضر الموقف. ومثال ذلك: (الحسن بن رافع الكاتب)، الذي شهد دخول ابن طولون مصر، وسمع نبوة مدة حكم دولته، وعاش حتى تحققت النبوة، فصلفها. (السابق ٧٦-٧٧).

ما يروى من وقائع^(١). وأحياناً يسأل مؤرخنا ابن الداية مورده، ويستفسر منه؛ ليتأكد من صحة ما نقل إليه من أخبار ووقائع^(٢).

٢- يلاحظ أن مؤرخنا ابن الداية نقل مولده مباشرة دون واسطة، واستخدم في التعبير عن ذلك ألفاظاً دقيقة، هي: (حدثني^(٣))، فحدثني^(٤))، وحدثني^(٥))، وقال^(٦))، وقال لي^(٧))، وقال عني^(٨))، فسمعت... يُحدث^(٩))، وحدثني^(١٠))، وقال^(١١))، وسمعت^(١٢))، وقلت^(١٣)). ولكل لفظة منها معنى

(١) وينطبق ذلك على (نسب الخادم)، وروايته أحداث ثورة العمري. ورغم عدم مشاركته في ذلك، إلا أننا ندرک معرفته بكل ما يجري بحكم ملازمته ابن طولون. (السابق ٩٤). وكذلك ابن عبد كان الكاتب وروايته عن فِراسة ابن طولون (السابق ١٠٠-١٠١).

(٢) مثل: سؤاله أبا العباس الطرسوسي عن كيفية حفظه كلام الصول الذي نصح ابن طولون، فأخبره أنه تدبره عن طريق كاتب السر المصاحب لابن طولون، الذي كتب كل ما قيل. (السابق ١١٧-١١٨).

(٣) وردت هذه الصيغة في (السابق ص ١١٧)، ولعلها خلت من (الواو)؛ لأنها أول رواية ذكرها ابن الداية عن أحداث طرسوس.

(٤) ذكرت هذه الصيغة حوالي ٤ مرات (السابق ص ٧٦، ١٢٦، ١٢٩). وقد لحقتها الفاء؛ لورود المصطلح (الصيغة) في صدر روايات يُتَقَبَّ فيها ابن الداية على حدث سابق، ويتم بها معنى مضى.

(٥) وهي صيغة شائعة الاستخدام في العديد من روايات ابن الداية، وغالباً ما تستخدم عند إيراد الروايات المتتابعة (سيرة ابن الداية: ص ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤). ووردت الواو في غير موضعها (السابق ص ٩٥).

(٦) وردت هذه الصيغة في (المصدر السابق ٩٥، ٩٨). ولعل المقصود بها أنه طالع هاتين الروايتين في مصدر مكتوب في ديوان الرسائل مثلاً. وألغقت الواو؛ لأنها وردتا في معرض تعداد صفات ابن طولون.

(٧) وهي تدل - فيما أرى - على أنها رواية مكتوبة مثبتة في الديوان، وقد وردت في سياق تتابع حكايات عن ابن طولون، خص المؤرد ابن الداية بها، فرواها له (السابق ١٠٢).

(٨) يقصد (إسحاق بن إبراهيم). وواضح اعتزازه به، وإشارته إلى قربه من الأحداث، وصلته بطبيب ابن طولون الخاص، ومعرفته بمزاج ابن طولون، وطبعه الخاد (السابق ١٢٥).

(٩) وردت في المصدر نفسه ص ٧٥ (فسمعتُ أحمد بن محمد الواسطي يحدث ويقول: في وصف مصاحبة المستعين بواسط). وهي عبارة تدل على سماع ابن الداية المباشر من الواسطي، وهو يحدث غيره. وفي ص ١٢٥-١٢٦: (فسمعت أحمد بن محمد الواسطي يحدث أحمد بن إبراهيم الأطروش). وتقيد ما أفادته العبارة السابقة، مع زيادة هي حضور ابن الداية مجلساً، ضم الواسطي وابن الأطروش، كان الحديث موجهاً للأخير، وسمعه ابن الداية بحكم حضوره.

(١٠) وهي تفيد صلاته الوثيقة بـ (نعت أم ولد ابن طولون)، ونقله عنها أمور نساء ابن طولون وجواربه، وموقفه منهن (السابق ص ٩٣، ١٠٣، ١٠٥).

(١١) تفيد لفظة (قال) مطالعة ابن الداية تلك الأخبار في الديوان. ولم يأت بالواو؛ لأنها لم تذكر في معرض تعداد أمر، أو الإتيان بنماذج متتالية تدل على صفات ابن طولون. (السابق ٧٥، ٩٤).

(١٢) وهي لفظة جديدة تفيد سماعه مع غيره هذه الرواية في مجلس أحمد بن أيمن (السابق ١١١).

(١٣) وردت في (سيرة ابن الداية) ص ١٣٣، وهي تفيد أن ابن الداية كان يبحث عن إجابة سؤال بهمه في المقارنة بين طبيعة نفقات ابن طولون، وابنه حماروه، فأجابه عنه (علي بن مهاجر) العليم بنفقاتهما. وكذلك ما ورد ص ٨١ في سؤاله محمد بن موسى ابن طولون عن سر خلاف والده مع عمه أحمد بن طولون.

يقصده ويستعمله بدقة متناهية^(١)، وذلك - ولا شك - نابع من ثقافته اللغوية والأدبية والمنطقية، التي تعرضنا لها من قبل؛ ليصل - في النهاية - إلى توثيق مروياته، وإقناعنا بصحتها.

٣- يكتفى ابن الداية بذكر المورد، الذي نقل عنه مادته، ولا يأتي بسلسلة الإسناد المطولة الكاملة، التي كان يحرص على استكمالها مؤرخو القرون الأولى. وخرج على قاعدته تلك مرتين تقريباً^(٢).

٤- وبالنسبة لمكان ذكر المورد، فهو يبدأ به الرواية التاريخية في الغالب الأعم^(٣)، ونادراً ما يخالف ذلك، فيصدر الرواية وموردها معاً بلفظة: (قال أحمد بن يوسف)^(٤)، أو (قال)^(٥).

٥- حرص مؤرخنا ابن الداية على مزيد من التوثيق لموارده بطريقة مبتدعة مبتكرة - لم يسبقه إليها سوى والده فيما نعرف - فكان يترجم أحياناً غير قليلة، ويعرف بمورده الذي نقل عنه؛ ليرينا مدى صلته بالحدث، وقربه منه، واشترائه فيه وأهميته، فذلك أخرى بالقبول. وهذا التعريف - على وحازته غالباً - يمثل جملة اعتراضية قصيرة^(٦)، وأحياناً طويلة طويلاً، يستدعي النظر فيما قبلها وبعدها؛ للربط بين المورد ومادته المنقولة عنه^(٧).

(١) ومن مظاهر دقة الثالثة في هذا الصدد أنه كان إذا طالت الرواية، استخدم لفظة (قال)، وبعدها اسم المورد المذكور في بداية الرواية؛ ليعلمنا أن رواية هذا المورد لا تزال متصلة لم تنته بعد (راجع المصدر السابق: ص ١٢٥-١٢٨ في رواية الواسطي، ورواية سعد الفرغان ص ٩٦-٩٧، ورواية محمد بن موسى ص ١١٠-١١١). وكذلك يستخدم (قال لي)؛ للربط بين أجزاء الرواية المطولة (رواية أحمد بن أبي يعقوب ص ١٢٢).

(٢) أولاهما حدثني تركان عن أبيه (السابق ١٠١). وهذه دقة من ابن الداية وأمانة، فالذي روى له الرواية هو ابن من شهد الواقعة، لا من شهدا فعلاً. ثانيتهما - قوله: وحدثني إسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن محمد الواسطي (في رواية استشارة ابن طولون من حوله بخصوص إقدامه على إحضار الخليفة المعتمد إلى مصر). (السابق ص ١٢٧). وأعتقد أن هناك خطأ من الناسخ، لم ينته إليه المحقق في هذه الرواية، وهو أن صواب الإسناد كالآتي: وحدثني إسحاق بن إبراهيم، عن أحمد بن محمد الواسطي (فيصح بذلك الاستشهاد بهذا السند في هذه الحالة). والدليل على صحة هذا التصويب ما ورد بعد ذلك في الرواية من أن ابن طولون قال له (ولم يقل: قال لهما). ولما طالت الرواية واقترمت من آخرها ص ١٢٨، قال للربط بين أجزائها: فقال أحمد بن محمد الواسطي، دون أن يذكر (إسحاق بن إبراهيم). فهو هنا ذكر المورد الأساسي الذي نقل الرواية عن ابن طولون. ومعلوم وجود صلة بين عم ابن الداية، والوزير الواسطي، فلا يستغرب روايته عنه.

(٣) وهو ينطبق على معظم الأمثلة المذكورة سلفاً.

(٤) قال أحمد بن يوسف: حدثني أبو العباس الطرسوسي (فيما يتصل بصائح زاهد طرسوسي لابن طولون). (سيرة ابن الداية ص ١١٧).

(٥) قال (يعني: نفسه): وحدثني أحمد بن حقاان. (السابق ٨٣). وكذلك قال (يعني نفسه): وحدثني بركة الحاسب. (السابق ص ٨٢).

(٦) كما في قوله: وحدثني نعت أم ولد أحمد بن طولون (المصدر السابق ص ٩٣)، وحدثني ابن قراطقان، وكان موثقاً عنده (السابق ١٠٥)، وحدثني أحمد بن حقاان، وكان صديقاً لأحمد بن طولون (السابق ٨٣)، فحدثني نسيم، وكان أخص الناس به (أي: بأحمد بن طولون). (السابق ٧٦).

(٧) مثل: وحدثني أحمد بن أبي يعقوب، وكان يتولى خراج بركة من قبل أحمد بن طولون في الوقت الذي خرج فيه العباس، فأقره عليه، قال: (السابق ١٢٢).

وحسناً فعل ابن الداية تأثراً بمنهج والده من قبل. والحق أن هذا الأسلوب الجديد مهم بالنسبة لنا؛ لأن الموارد التي نقلوا عنها - في الغالب - لم تهم كتب التراجم بالتعريف بها. ولو لم يبق هو ووالده من قبل هذا الجهد، لعمّ وطَمَّ جهلنا بتلك الموارد. لكن ابن الداية مؤرخنا فاته التعريف ببعض موارده المهمة (مثل: شعيب بن صالح^(١)، وابن عبد كان^(٢)، وغيرهما^(٣)). ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن بعض الأحداث التي يرويها هؤلاء تشرح مناصبهم، وأهمية مواقعهم، وكذلك ألقابهم الملحقه بأسمائهم توضح مدى قربهم من الحدث المروى. لكن في الوقت نفسه هناك بعض روايات لا تظهر صلة المورد بأحداثها؛ مما يجعلنا في حيرة من مدى صدق هذه الروايات^(٤). وينضاف إلى ذلك وجود تداخل وتقارب في بعض أسماء موارده، ولو عَرَفْنَا بها، لفصل لنا بين ذلك كله^(٥).

وأعتقد أن المنهج الصحيح يقتضي عند تكرار وتعدد مرويات المورد الواحد، أن يكتفى بالترجمة له والتعريف به أول مرة يُذكر فيها المورد وكفى، لكن مؤرخنا ابن الداية، وإن التزم ذلك النهج أحياناً^(٦)، فإنه قد خالفه أحياناً أخرى^(٧). وأخيراً، فإن مؤرخنا كان يجمع - إلى جانب ذكر المورد الصريح، والتعريف به - ذكر التوقيت الذي رويت فيه الرواية؛ مما يعطى القارئ بعداً جديداً لها عند نقدها^(٨).

(١) ويبدو أنه من كبار مساعدي ابن طولون، وقد نقل عنه ابن الداية عدة روايات، وكان أولي بالتعريف من غيره.

(٢) ولعله اعتمد على أنه كاتب مشهور، فلم يُعرف به.

(٣) مثل: أبي جعفر المروزي، وسعد الفرغان، وهارون بن ملول (وبلاحظ أن هارون نقل ابن الداية عنه رواية تعد ترجمة له، لكنها في (المكافأة ص ٣٤-٣٦).

(٤) كما هو الحال في مرويات عن شعيب بن صالح ص ١٠٣، ١٠٦، وسعد الفرغان ص ١٠٧، وإبراهيم بن كامل المصري ص ١٠٢.

(٥) مثل: التشابه القائم في أسماء بعض الموارد (موسى بن طولون، وأبي جعفر محمد بن موسى بن طولون، ومحمد بن موسى). وهنا كان لابد من الاجتهاد للفرق بينهم بعد أن افتقدنا الترجمة لأي منهم. ومن خلال قرائن أحداث الروايات التي رووها، تبين لنا أن الأول هو أخو الأمير أحمد بن طولون (بديل روايته ص ٩٥، التي تبين صلته بأخيه ودويانه). والثاني هو ابن الأول، وهو الذي سأنه ابن الداية عن خلاف والده مع ابن طولون عمه من قبل. أما الثالث، فيروى أحداثاً وقعت بعد احتدام الخلاف بين الموفق وابن طولون، ويقص علينا قصة صديق ابن طولون القديم، الذي أتى إلى مصر جاسوساً للموفق عليه. ولا نستطيع القول بأنه هو ابن أخي ابن طولون؛ لأنه كان في تلك الأثناء مقبلاً مع والده موسى في طرسوس بعيداً عن مصر والعراق. وعلى ذلك فهذا المورد المذكور شخص مجهول لا نعرف عنه شيئاً.

(٦) كما في ص ٧٦ عندما ترجم لنسيم الخادم، ثم لم يُعرف به في مرويات أخرى عنه ص ٩٨، ٩٩، ١٠٣-١٠٤، وغيرها. وكذا عُرِفَ به (نعت) ص ٩٣، ثم لم يعرف بها ص ١٠٣، ١٠٥.

(٧) لم يترجم لأبي العباس الطرسوسي في مرويات عنه ص ٩٩-١٠٠، ثم عاد وترجم له ص ١١٧.

(٨) مثل: فحذثن نسيم بعد وفاة أحمد بن طولون (ص ٧٦)، وحذثن علي بن مهاجر في أيام أبي الجيش (ص ١٣٢)، وقلت لأبي جعفر محمد بن موسى بن طولون، وقد رحل إلى مصر بعد مقتل أبي الجيش (ص ٨١).

ثانياً - البلوى:

سبق أن أوضحنا أن البلوى اشترك مع ابن الداية في النقل عن بعض الموارد، ونفينا أن يكون قد نقل كتاب ابن الداية دون الإشارة إليه^(١). والأقرب إلى الصواب أن البلوى نقل عن مصادر ابن الداية نفسها التي عاصرها البلوى، وأكمل كتابه بالاطلاع على ما في الديوان من وثائق وسجلات، خاصة أننا علمنا أن ابن طولون كان يأمر كتّابه بتسجيل كل صغيرة وكبيرة في مجالسه، وتُحفظ هذه المحاضر بالديوان. ولعل في التفاصيل الكثيرة التي تفرد بها كتاب البلوى ما يؤكد أمانته.

وهاك منهجه:

١- دقة البلوى في التعبير عن مصادر رواياته باستخدام ألفاظ معبرة دقيقة، تفرق بين ما نقله عن مورده بطريقة مباشرة، وما نقل عنه بطريقة غير مباشرة. ومن هذه الألفاظ: (حَدَّثْتُ^(٢))، وقال^(٣))، وروى^(٤))، وحدثت^(٥))، وسألت^(٦))، وتحدّثت^(٧)). ولم يقف البلوى عند

(١) هذا النفي منصب على إقامه باستلال كتاب ابن الداية كله، ونسبه إلى نفسه، مع بعض تعديلات في الألفاظ يجيها البلوى، وبذلك تمكن من خلّاع اقراء. لكن هذا لا يمنع أن نقلت منه رواية هنا أو هناك، يأخذها عن ابن الداية، ثم ينسبها لغيره على سبيل الخطأ. وحير مثال عن ذلك ما ورد في سورة البلوى ص ٩٩-١٠٠ (وهي تُروى عن أبي العباس الطرسوسي، وتعلق بصانح الزاهد الطرسوسي لابن طولون). لقد ثبت لي أن البلوى أخذها من كتاب ابن الداية، ثم لم يصرح بنسبتها إليه، لكنه حتى لا يتهم بالكذب نسبها إلى العباس الطرسوسي بلفظة (حدّث) بدل (حدثنا). وهذا يدل على فرط ثقة البلوى بوثاقة موارد ابن الداية. وقد أُرِز لنا لتمام البلوى في هذه الرواية أنه أورد سؤالاً وجهه ابن الداية إلى مورده بالعلوم، فقام البلوى بتحويله إلى المجهول (فقيل لأبي العباس)، متجاهلاً بذلك موجّه السؤال، وصاحب الرواية الأصلي ابن الداية. وبما يؤكد ذلك أن ابن الداية علق كلام الطرسوسي الذي أحاج به عن سؤال ابن الداية، ذكر ما يلي: وقال (وهو الطرسوسي فيما أُرِجح): إن ابن طولون إذا أراد إنفاذ أحد أصحابه في رسالة، أمر كاتب السر بتحريرها وحفظها، فإذا حضر الرسول ليوذعه، سأله ابن طولون: ماذا ستقول لمن وجهت إليك؟ فإذا أداها، وإلا حبسه واستبدل به (سيرة ابن الداية ١١٨). فإذا قارنا ذلك بما في البلوى ص ١٠١، عقيب جواب أبي العباس الطرسوسي على سؤال السائل المجهول لدى البلوى، الذي هو في الحقيقة ابن الداية، ألفينا البلوى يقول: قال مؤلف هذا الكتاب، ثم ينقل كلام الطرسوسي السابق بألفاظ مقاربة، ومضمون واحد. فهنا نظاهر البلوى بأن الكلام كلامه، لكنه - في الحقيقة - كلام الطرسوسي نقلاً عن ابن الداية، وانتقل ابن الداية بعد هذه الرواية إلى موضوع آخر (ظروف خروج العباس على أبيه)، فإذا بالبلوى ينتقل إلى نفس الموضوع والنصيرات، مصتراً إياها بلفظة: قال (التي قد ينسب لها إلى نفسه)، وإن كنت أعتقد أنه منقول - أيضاً - عن ابن الداية.

(٢) مثل: حدث إسحاق بن إبراهيم (سيرة البلوى ٣١٩)، وحدث أبو جعفر المرزوي (السابق ١٨٤، ١٨٦). وعند ضرب الأمثلة على صفات ابن طولون يقول: ومن ذلك (أي: أبواب الخير لابن طولون) ما حدث به سعد الفرغان (السابق ١٨٩). ومن ذلك (أي: من دهانه وعقله وحزمه) ما حدث به أحمد بن إمين (السابق ١١٥).

(٣) قال نسيم الحادام (السابق ص ٣١٤)، قال أبو جعفر محمد بن عبد كان (السابق ص ٣٣٨).

(٤) وأما فراسه وصحة إزكانه (تخمينه) فما رواه أبو العباس المعروف بالطرسوسي صاحب خبره قال (السابق ص ١٢٢).

(٥) ومن ذلك (دهانه وعقله) ما حدثت به نعت أم ولده (السابق ١٠٠).

(٦) وسألت أنا العباس أحمد بن محمد الكوكي (عن أصل ابن طولون، وحقيقة والده). (السابق ٣٣).

(٧) قال: ومن الدليل على أنه خُفّ عنه كما ذكر، ما تحدث به كامل بن سعيد (ورؤيا عن حسن مستقر ابن طولون بعد وفاته). (السابق ٣٥٤).

عند هذا الحد من الدقة والأمانة، بل كان في روايات تُقَرَّد بذكرها، يستخدم - أحياناً - لفظة: (حدثت) ^(١) بدل (حدثنا) ^(٢). وذلك يدل على أنه لم يسمع تلك الروايات، وإنما وصلت إليه عن طريق كتاب، أو ديوان.

٢- يتفق البلوى مع ابن الداية في عدم الإتيان بسلسلة الإسناد كاملة، وكان يكتفى بذكر المورد الرئيسي فقط، اللهم إلا في روايتين اثنتين، ذكر فيهما أستاذ راوى الرواية ^(٣).

٣- يترجم البلوى - أحياناً - لمورده كما يفعل ابن الداية؛ لبيان وثاقته، وصلته العميقة بموضوع الرواية.

٤- يتفق البلوى مع ابن الداية في التعريف المختصر الوجيز ببعض موارده، ويتميز على سلفه بأمرين:

- أ- زاد ترجمة بعض الموارد وضوحاً عما هو عليه عند ابن الداية ^(٤).
- ب- نقل عن موارد جديدة، عرّف ببعضها تعريفاً طيباً ^(٥)، يدل على معرفته الجيدة بموارده التي نقل عنها مادته.

ويؤخذ على البلوى ما سبق أخذه على سلفه ابن الداية، من عدم العناية بترجمته بعض الموارد المهمة ^(٦)، بل ترك الترجمة لمورد مهم ترجم له ابن الداية ^(٧). وإلى جانب ذلك لم ينتهج النهج السليم في التعريف بالمورد، الذي تعددت مروياته، على نحو ما وقع فيه ابن الداية أيضاً ^(٨).

٥- يتشابه البلوى مع ابن الداية في التعبير عن نفسه في بداية بعض الروايات، وقبل أن يذكر مورد الرواية، وإن كان ذلك بصيغة خاصة بالبلوى هي: (قال مؤلف هذا الكتاب) ^(٩).

(١) مثل: وحدث عبد الله بن الفتح (السابق ٣٥٥)، وحدث يحيى بن براقه الحاسب (السابق ١٦٤).

(٢) من الروايات التي قال فيها: حدثنا، رواه ابن الداية قال فيهما: حدثنا عبد الله بن الفتح (السابق ٣٠٢، ٣٥٧).

(٣) مثل: وحدث تركان بن الإمام، عن أبيه (السابق ١٢٨)، وحدثنا عبد الله بن الفتح، عن ابن الداية (السابق ص ٣٠٢).

(٤) مثل: وحدث أحمد بن محمد الكاتب، وكان من عقلاء الناس وفهمائهم، وكان فيه دين وحر كثير (سيرة البلوى ٢٢٦)، وحدث أبو العباس الطرسوسي القنولي - كان - لغسل أحمد بن طولون عد موته، وكان رجلاً خيراً فاضلاً زاهداً، يتقوت من المباح. (السابق ٩٨).

(٥) مثل: وسألت أبا العباس أحمد بن محمد الكوفي، وكان خبيراً بأمر الأتراك، عارفاً بأحوالهم (عن أصل ابن طولون). (السابق ٣٣-٣٤)

(٦) مثل: أحمد بن أيمن، وابن عبد كان، وشعيب بن صالح.

(٧) وهو نسيم الخادم رغم كثرة مروياته لدى البلوى.

(٨) مثل: الواسطي، الذي أورد له البلوى عدة روايات دون تعريف به (سيرة ابن طولون). (ص ٤٣، ٤٨، ١١٤)، ثم ترجم له في رواية (السابق ص ٢٢٦).

(٩) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ص ١٦٨، ٣٥٣.

٦- وأخيراً، فإن البلوى يستخدم بعض الألفاظ داخل الروايات المطوّلة؛ للدلالة على اتصالها، وعدم انتهائها بعد^(١).

منهج ابن الداية، والبلوى في عرض الوثائق:

حرص ابن الداية على إيراد عدد من الوثائق (الكتب، والرسائل الرسمية)، التي طالعها بالديوان خلال عمله كاتباً لدى بني طولون. ولا شك أن هذه الوثائق دوراً مهماً في دعم الحقائق والأحداث التاريخية.

ويمكن تحديد أهم معالم منهجه في إيراد هذه الوثائق على النحو الآتي:

١- العرض الموجز البليغ:

وذلك يتناسب مع بلاغة ابن الداية من جهة، والاختصار الذي هو هدف أصيل لكتابه من جهة أخرى. فأحياناً كان يورد الوثيقة بنصها كما في ردّ ابن طولون على من طالبوه بقتل الخليفة المستعين: "والله، لا أرى الله، وأنا قد قتلْتُ خليفة بايعتهُ أبداً"^(٢). فهي توضح المبدأ الأخلاقي الذي يلتزم به ابن طولون في نظره إلى الخليفة.

وأحياناً كان يورد ما يتفق في وجازته وسريته، وغرضه العاجل مع طبعة كتاب ابن الداية المختصرة، ومثال ذلك: الكتاب السري الذي أرسله الخليفة المعتمد إلى أحمد بن طولون، يحذره فيه من تحرير مبعوث الموفق، فإن معه كتاباً يُحرّض فيها قاداته عليه. تقول الوثيقة المعبرة عن متانة صلة المعتمد بابن طولون: "إن الذي حرّك إخراج نخريز إليك أبو أحمد، وقد أنفذ نخريزاً عيناً عليك، ومعه كتب إلى سائر قوادك بالتضريب عليك"^(٣).

وقد يورد ابن الداية الوثيقة بمعناها صراحة دون نصّها مع الحفاظ على مضمونها، وهي - أيضاً- وثيقة سرية خطيرة، يضرب فيها ابن طولون على الوتر العاطفي، وفيها يبين للمعتمد شديد قلقه عليه، ويدعوه للرحيل إليه في مصر، ويعدّه بها تمام العز والتمكين^(٤).

٢- العرض التفصيلي المطول:

على غير المعتاد أفرد ابن الداية مساحة كبيرة من كتابه المختصر؛ ليورد نصّاً كاملاً بمخالفته

(١) مثل قوله: فحدث نسيم الخادم قال... ثم لما طالت الرواية، ربط أجزاء الرواية بقوله: قال نسيم. (السابق ص ٣٣٧-٣٣٨). وكذلك راجع رواية أخرى للواسطي (ص ٢٨١).

(٢) سيرة ابن الداية: ٧٥. (٣) السابق: ٨٧.

(٤) السابق ١٢٦-١٢٧. ووضع المحقق الص بين علامتي تنصيص، رغم أن ابن الداية صرح بأن الوثيقة بسوقها، معاً لا بنصها وحروفها.

لكتاب ابن طولون، رداً على كتاب الموفق إليه، الذي عَنَّفَه فيه وهَدَّه^(١)؛ لقله ما أرسل إليه من خراج مصر عما كان يتوقع وينتظر. والحق أن ابن الداية حرص على إيراد هذه الوثيقة كاملة - على طولها - لإعجابه بما أورد ابن طولون فيها من مقومات سياسته، وشجاعته في مواجهة الحاكم الحقيقي للخلافة العباسية (الموفق)، وردوده القوية المنذرة^(٢). فالوثيقة كلها إبراز لمحاسن ابن طولون، وهو ما يتوافق مع عنوان كتاب ابن الداية، وغرضه الأصيل.

٣- حسن الانتقاء والتدقيق في عرض عناصر الوثيقة:

وخير مثال على ذلك تلك الوثيقة الاقتصادية التي أوردتها ابن الداية، وهاك نصها: " وأراق قهوة كاتب ابن مهاجر بُتَّ ما حملة إلى الحضرة للمعتمد، ورفق في جماعة من حاشيته لأربع سنين: أولها سنة ٢٦٢هـ: وما تقدمت به سَفَاتُجُهُ ولم يظهر تفريقه، فكان مبلغه ألفى ألف دينار، ومائتي ألف دينار^(٣). ووضح هنا عناصر منهجه في تلك الوثيقة الموجزة بالغة الأهمية: الدقة في بيان كيفية اطلاعه عليها (الرواية والمشاهدة والمعاينة في سجل من سجلات ديوان الخراج لدى ابن طولون) على يد مصدر مهم هو كاتب الحسن بن مهاجر. وهذه الوثيقة مؤرخة بسنوات محددة: ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥هـ. وموضوعها محدد: مقدار ما أرسله ابن طولون إلى سامرا للخليفة المعتمد، ومقدار ما وزعه كهدايا (رشاوى) في عدد من أفراد حاشية الخليفة المهمين. ويلاحظ أن ابن الداية اكتفى بإيراد ما أرسل - فقط - للمعتمد، وأخفى ما فُرق في حاشيته (دفاعاً عنه وسترأ عليه، وإخفاء لعمل لا يعد من محاسن ابن طولون، بل هو إنفاق لأموال الدولة؛ كي يظل على عرش مصر). وذكر لنا ابن الداية وسيلة إرسال هذا المال (وَضَعُهُ في سَفَاتِجٍ). وحدد السنوات التي أرسل فيها، وذكر مجموع الأموال التي أرسلت خلالها (بما يعادل ٥٥٠ ألف دينار سنوياً). وتبقى بعد ذلك تساؤلات عديدة كان الباحثون يتمنون أن لو أجابت عنها الوثيقة، وغيرها من الوثائق الأخرى^(٤).

أما البلوى، فيكاد يتفق منهجه في عرض الوثائق مع ابن الداية في السمات العامة، إلا أنه

(١) لاحظ أن ابن الداية لم يورد كتاب الموفق؛ لأن فيه انتقاصاً من شأن ابن طولون - فيما أرحح - وهو ما لا يتماشى مع هدف ابن الداية من كتابه، وهو إظهار محاسن ابن طولون.

(٢) السابق: ٨٩-٩١.

(٣) سيرة ابن الداية ١٣٣.

(٤) من هذه التساؤلات: متى رأى ابن الداية - بالتحديد - هذه الوثيقة؟ ومن هو قهوة هذا؟ هل كان من الكتاب المساعدين للكتاب الكبير الحسن بن مهاجر؟ ومن هي الحاشية التي كان يفرق فيها ابن طولون أمواله؟ وما مجموع ما أرسله ابن طولون من أموال إلى دار الخلافة خلال سني حكمه (٢٥٤-٢٧٠هـ)؟ هذه أمور مهمة نغيبها أن لو أجابت عنها تلك الوثيقة. نرجح أن تلك المعلومات كانت متاحة لابن الداية، لكنه أخفى ما بسئ إلى ابن طولون، ويتناقص مع محاسنه.

تفوق عليه في كثرة إيراد ما لم يورد ابن الداية من وثائق مطولة. فهناك الوثائق المختصرة، مثل: كتاب أماجور عامل الشام يحذر المعتمد من تنامي قوة ابن طولون، وخطورة ذلك عليه أكثر من خطورة ابن شيخ بفسطين^(١)، ثم أورد البلوى وثيقة موجزة أخرى، فيها كتب المعتمد إلى ابن طولون أن يتوجه إلى الحصرة؛ ليدبر دار الخلافة، ويستخلف على مصر^(٢). (وهو يعنى عزله عن ولاية مصر مهدوء). ثم أورد وثيقة موجزة أخرى وردت على لسان الوزير الحسن بن مخلد لما أرسل ابن طولون بهداياه إليه وإلى رجال البلاط والحاشية، حيث وعد بأن ألا يُعزل ابن طولون عن مصر، ولا يُقبل فيه سعى ساع^(٣).

ويمتاز البلوى بالتحديد والوضوح فيما أورد من وثائق، كما هو الحال في كتاب (قبيحة أم المعتز) إلى اسن طولون: "إذا قرأت كتابي، فحسني برأس المستعين، وقد قلدتك واسط". فرد عليها قائلاً: "والله، لا يراني الله ~~يُحْيِي~~ أقتل خفيفة، له في رقبتي بيعة، وأيمان مغلظة أبداً"^(٤). وأعتقد أن هذه الرواية أوضح وأصح من رواية ابن الداية السابقة، فأم المعتز هي الشخصية الأولى المحركة للأحداث، ويهمها بالدرجة الأولى الاطمئنان على ولدها.

وينفرد البلوى بإيراد معظم كتاب ابن طولون المكتوب، الذي حمله زياد المعدل في وفد ابن طولون للعباس ابنه؛ لإقناعه بالعودة بالجيش في هدوء^(٥). أما ابن الداية، فلم يشير إلى شيء من محتوى كتاب ابن طولون هذا^(٦).

واهتم البلوى بإيراد العديد من الوثائق المطولة، مما لم يحظ باهتمام ابن الداية، فأورد أجزاء مطولة من كتاب العباس إلى أبيه (أحمد بن طولون)^(٧)، وكذلك رد الأب على ابنه^(٨). وكذلك الكتاب المفصل الذي خلع فيه ابن طولون الموفق من ولاية العهد، وشهادات القضاة بخطوط أيديهم؛ تصديقاً على ذلك^(٩)، ورد الموفق عليه^(١٠).

وأخيراً، فهناك وثيقة أوردتها البلوى متفرداً بها، تعد نموذجاً طيباً لعناصر منهجية جديدة في

(١) سيرة أحمد بن طولون لبلوى ص ٥٦.

(٢) السابق: ٥٦-٥٧.

(٣) السابق: ٥٧.

(٤) السابق: ٤٠.

(٥) سيرة أحمد بن طولون للملوى ص ٢٥١.

(٦) سيرة ابن الداية ص ١٢٠.

(٧) سيرة البلوى ٢٥٦-٢٦٠.

(٨) السابق: ٢٦٠-٢٦٤.

(٩) السابق: ٢٩٥-٢٩٨.

(١٠) السابق: ٢٩٩.

عرض الوثائق التاريخية. يتمثل ذلك في كتاب (طبارجي) أحد قادة ابن طولون، الذين أرسلهم لمحاربة ابنه العباس. فلما تحقق النصر، كتب هذا القائد إلى ابن طولون كتاب الفتح على حد تعبير البلوى. وقد أورد البسمله^(١) في بدايتها؛ تركاً بما إزاء إعلان النصر المنشود، وزوال القُمة والكُرب الذي نشأ عن خروج العباس على أبيه. ثم حرص البلوى على ذكر تاريخ كتابة هذا الكتاب، بل تحديد الساعة التي يُكتب فيها بالضغط، بما يتناسب مع دقة المعارك، وضرورة إحاطة القائد (ابن طولون) بكل التفاصيل، أولاً بأول، مبيناً نتائج المعركة "قائلاً: كتابي هذا وقت غروب الشمس من يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة، وقد وضعت الحروب أوزارها، وأظفر الله - جلَّ اسمه - عبدَ الأمر^(٢)". ثم هو في نهاية الكتاب يعدُّ بكتاب آخر، يصف فيه تفاصيل نتائج المعركة، فيقول: "وفي غد، نكتب إلى الأمر - أيده الله - بشرح القصة. وبإدْرُتُ بكتابي هذه الجملة؛ ليتعجل الله ﷻ إليه السرور بما منَّ الله (جلَّ اسمه)، ويحمده على أوَّلَى من إنعامه"^(٣).

خلاصة:

نجمع المؤرخ ابن الداية - وهو شاهد عيان على أحداث عصره، وكذلك البلوى - في اختيار موارد معلوماً، ووظف كل منهما ذلك لتحقيق أغراض كتابه، الذي وُضِعَ - في الأساس - لتحقيقها (ابن الداية في الاختصار، والبلوى في استكمال المعلومات، وحسن تنظيمهما)^(٤). وتنوعت مناهجهما وتشابهت في استخدام الموارد الصريحة، وغير الصريحة^(٥)، والوثائق.

(١) بخلاف الكتائب المفيظين الحائزين بين العباس وأبيه، فقد خَلَوْا من البسمله في البداية، بما يتناسب مع ما فيهما من فسوة وشدة، وتهديد ووعيد.

(٢) السابق: ٢٦٦.

(٣) سيرة البلوى ٢٦٥.

(٤) وهذه من مواصفات المؤلف المؤرخ الجيد كما براها د. فيديريكو. د. مانويل في: (التعليق على النصوص التاريخية: المنهج، وجمع النصوص - منهج في البحث التاريخي). ترجمه عن الإسبانية: د. عبد الله جمال الدين، ونُشر في مجلة (حوليات دار العلوم)، العدد ١٤/ ١٩٩٠-١٩٩١ م، ص ٢٧٢، ٢٨٠-٢٨١.

(٥) يدرك ابن الداية والبلوى أن الرواية التاريخية غير المشهورة إذا لم تُصَدَّر بموردها الذي نُقلت عنه، فذلك يضعف الثقة بها، خاصة إذا كان موضوعها لا يُعْتَلَّ عقلًا ومنطقًا. ومن هنا ندرت جداً هذه الروايات لديهما. فابن الداية لديه رواية واحدة (ص ١٠٧)، وفيها سأل ابن الداية عن مصدر المائة ألف دينار، التي أوصى بها ابن طولون للحسن ابن ماهر الكاتب، فقيل له: هي التي صُودرت من ابن مفضل الكاتب. وهذا معقول جداً؛ لأن حرص ابن طولون على الأموال، وضبطه إياها لا يُنْكَر. وبخصوص البلوى، فقد أورد روايتين من هذه النوعية: الأولى (ص ٤٢)، وهي عن النبيل بمدة حكم الطولونيين. (وهي تبدو أسطورية). والثانية (ص ٣٤٣-٣٤٤): وتصور - في مبالغة - شدة الحزن على ابن طولون عند تشييع جنازته.

وتشابه كلاهما في إبراد أحداث مُعَرَّاة من ذكر مواردها تماماً^(١). وعلى كل، فقد وثق كلاهما أحداث كتابه، عن طريق حسن التدقيق، والانتقاء لمصادر معلوماته من رجال دولة أحمد ابن طولون، ومن لهم معرفة بخبايا الأمور.

٢- النقد الداخلي:

وهذا هو النوع الثاني والأخير من النقد، الذي نتناول به كتابي: ابن الداية، والبلوى عن (سيرة أحمد بن طولون). ونركز - هنا - على نقد المادة التاريخية، بمعنى أننا نضع بعض الأحداث التاريخية الواردة في ميزان الصواب والخطأ التاريخي بمقارنتها بالمنطق العقلي، والتاريخي (من خلال النظر فيما أوردته المصادر والمراجع الأخرى). وهاك بعض هذه القضايا:

١- روايات تدخل في باب (الأساطير والخرافات):*

من حسن الطالع أن هذه الروايات قليلة سواء في كتاب (ابن الداية)، أم في كتاب (البلوى)؛ مما يدل على اتباعهما المنطق العقلي التاريخي في اختيار ما يكتبان. إلا أنه - وربما من باب غلبة الفكر السائد في ذلك العصر - أورد كلاهما بعض الأحداث، التي ينظر إليها الفكر التاريخي المعاصر نظرة الشك والريبة. من ذلك^(٢): الرواية التي يرويها مجهول^(٣) - وهذا أحد وجوه رفضها - أنه كان جالساً مع الجالسين في انتظار دخول ابن طولون مصر أميراً، وكان معه رجل مكفوف يُعرف بـ (أبي قبيل صاحب الملاحم)^(٤). فلما سأل أحد الحاضرين أبا قبيل عما يجده في كتبهم بخصوص أحمد بن طولون الأمير الجديد، ردّ عليه واصفاً إياه، ذاكرةً أنه سيتقلد مصر وبنوه من بعده قريباً من أربعين سنة. فما إن أتم حديثه، حتى دخل ابن طولون وقد انطبقت عليه الصفات التي تنبأ بها أبو قبيل تماماً. وبالفعل ظلت دولة الطولونيين ثمانية وثلاثين عاماً^(٥).

(١) وهي تتصل بالأحداث المشهورة المعروفة، التي لا تحتاج إلى ذكر مصادرها (مثل: تاريخ دخول ابن طولون مصر، وصدام ابن شبح مع الخلافة، وتقسيم دولة الخلافة بين المفوض، والموفق). وهي في كلا الكتابين، وإن كثرت في كتاب البلوى؛ لتتابع تفصيلاته وطولها.

(٢) وهي من الأمور العديدة عن الصحة، وستهجنها العقول، ولا معنى لها، ولا فائدة فيها. (المنظم لابن الجوزي - ط. دار الكتب العلمية) ج ١ ص ١١٦.

(٣) سيرة ابن الداية ص ٧٦-٧٧، وسيرة البلوى ص ٤٢.

(٤) هذا بالسيرة لرواية البلوى. أما ابن الداية، فحدد مصدرها بقوله: "فحدثني الحسن بن رافع الكاتب" ص ٧٦.

(٥) هكذا في سيرة البلوى ص ٤٢. وهي بعيدة عن الصواب؛ لأن أبا قبيل هذا المعروف بالملاحم (ت ١٢٨هـ). أما ابن الداية، فكان أدق لما نسبها إلى شاب يُنسب إلى أبي قبيل، فقلعه من أخفاده.

(٥) رواية ابن الداية هنا أكثر تفصيلاً وأدق من رواية البلوى، ففيها أن هذا الشاب أحاب بأن دولتهم تستمر أربعين سنة (ص ٧٦). ثم ذكر أن والده (يوسف بن إبراهيم) أمر غلاماً له في الإسطلاب أن يرصد طالع أحمد بن طولون عند دخوله مساكن مضايط مصر، وكان تأويل يزيد بن عبد الله الموحود أنذاك طالع ابن طولون - لما =

ولى على هذه الرواية تعليق:

أ- ما كان ينبغي لكلا المؤرخين، وقد استوى علم التاريخ على سوقه في القرن الرابع الهجري، أن يأتيا بهذه الرواية، خاصة أن ابن الداية لم يُعرفنا بترجمة مورده فيها، والبلوى استبعد ذكره كأنه مجهول له.

ب- أن جَوَّ الهالة والأسطورة يُخَيِّم على أحداث الرواية من بدايتها إلى نهايتها، وهي تنحو منحى التنسب بالغيب^(١)، وهو مظهر من مظاهر انحراف المنحمن والمشتغلين بالفلك في ذلك العصر؛ إذ ينجهون إلى إخبار الناس بما سيقع في المستقبل، فإذا صادف تدبير القدر صدَّقهم الناس فيما خَمَّنوا. وكذب المنحمن ولو صدقوا. وعلى كل، فتبدو هذه الرواية متنافرة غير منسجمة مع عقلية ومنهج هذين المؤرخين، وإن عبَّرت عن تأثر التاريخ بحكايات المنحمن وأساطيرهم.

٢- روايات تدخل في إطار المبالغة:

وأعتقد أن مرَدَّ هذه الروايات^(٢) يرجع إلى نَعْمَة الإعجاب والاندهاش، التي تصاحب العديد من أخبار أحمد بن طولون في كلا الكتابين (خاصة كتاب ابن الداية). ومن نماذج ذلك: ما ذكره كل من: ابن الداية^(٣)، والبلوى^(٤) عن شجاعة أحمد بن طولون وبطولته النادرة، بحيث استطاع أن يتقدم صفوف خمسمائة من الرجال، الذين يحرسون قافلة للخليفة المستعين عائدة من بلاد الروم، وبها تحف وهدايا ثمينة مشتراة للخليفة. وتقدم أحمد يقاتل جماعة كبيرة من البدو قطاع الطريق، بعد أن خاف جميع من معه على أنفسهم، وعزموا على دخول الحصن؛ نجاة بأنفسهم، لكن أحمد رفض ذلك، فكان أول من لحق بالأعراب، ووضع فيهم السيف، ورمى بنفسه عليهم، وكان لا يخطئ من الرمي شيئاً، حتى اطمأن الآخرون فشاركوه القتال، وترك

- علم به - مقارناً لقول الشاب المكفوف. هذا، وقد نقل رواية ابن الداية تلك، دون أن يُصرح بذلك القِطْعُ في (تاريخ الحكماء ٣٣٣-٣٣٤).

(١) والله - تعالى - يختص بعلم الغيب إذ يقول: ﴿قُلْ: لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي لَفْعاً وَلَا ضِراً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (الأعراف: ١٨٨).

(٢) لم أشأ الإتيان بأكثر من نموذج دال على المبالغة؛ خشية الإطالة. ومن أراد المزيد من التفاصيل، فراجع: المبالغة في بيان صدق خُش بن طولون، وذكاء عقله، وإطلاع الله له في مامه على رجل حاسوس، يُتَغَدَّى إلى مجلسه للسلام عليه اليوم السابق، فلما أصبح، وحده أمامه بعينه كما رآه في منامه، فأمر بالقبض عليه. (سيرة ابن الداية ص ١٠٠، وسيرة البلوى ص ١٢٥-١٢٦). ولغة نموذج آخر عبارة عن روايات عديدة متتابعة لمجموعة من الرؤى والنامات، رآها أكثر من شخص، كلها دفاع عما ارتكبه من قتل في حق بعض الناس، وبيان أن صدقاته ومظاهر إحسانه أنقذته من النار، إلى آخر هذه الأمور التي لا يُعَوَّل عليها مطلقاً في إدراك حاملة ابن طولون، ومُسْتَقَرَّة في عالم الآخرة. (راجع التفاصيل في المصدر السابق ص ٣٥٢-٣٥٦، وسيرة ابن الداية ص ١٣٢).

(٣) في سيرته ص ٧٤-٧٥.

(٤) سيرة أحمد بن طولون ص ٣٧-٣٩.

الأعراب كل ما غبوه، ولاذوا بالفرار على خيولهم. ولم تكن الرواية بكل هذه المبالغات^(١)، بل بالغت - كذلك - في بيان أثر تلك المعركة في علاقة ابن طولون بالخليفة المستعين، حتى قالت رواية البلوى: "وعظم أحمد بن طولون في عينه وقلبه، وصار له كالعبد"^(٢).

٣- قضايا للمناقشة:

هناك بعض جزئيات وردت في سيرتي: (ابن الداية)، و(البلوى)، أو في إحداها، نقف أمامها بشئ من التأمل، مثل:

أ- موضوع نسب (أحمد بن طولون):

لم يتعرض ابن الداية^(٣) لهذا الموضوع، ولم يُثر قضية الطعن في نسب ابن طولون، واكتفى ببيان أصل والده (طولون) التركي، وكيفية اتصاله بالخليفة المأمون، وبين أن أحمد وُلد سنة ٢٢٠هـ من جارية، كانت لأبيه طولون، اسمها (قاسم)، وأنه بعد وفاة الوالد سنة ٢٤٠هـ، عاش في كنف ورعاية رُفقاء أبيه، فأحسنوا تنشئته وتربيته^(٤). ولعل ابن الداية لم يتعرض لهذا الموضوع؛ لعدم صحته من جهة، وتوخياً لمنهج الاختصار، الذي حرص على اتباعه في مؤلفه.

أما البلوى - وفقاً لعرضه المفصل - فقد تَوَجَّه بالسؤال - عن الأمر - إلى أحد الخراء العالمين بشؤون الأتراك، العارفين بأحوالهم قائلاً له: "إن الناس في أمره (أى: أمر نسب ابن طولون) فربقان: أحدهما يقول: إنه أحمد بن طولون، وإن يُلَيِّح^(٥) كان زوج أمه قاسم، والآخر يقول: إنه أحمد بن طولون، وإن يلبخ بن قاسم جارية طولون"^(٦). والعبارة السابقة غامضة

(١) سيفشاً إلى التشكيك في صحة هذه المبالغات المذكورة سيدة كاشف في كتاب: (أحمد بن طولون) ص ٢٢.

(٢) سيرة البلوى: ص ٣٨.

(٣) وذلك في سيرته التي احتفظ لنا بها ابن سعيد في (المغرب - قسم مصر) ص ٧٣-١٣٣. لكن ابن تيمى يردى في (البحر الزاهرة) ج ٣ ص ٤-٥ أورد نصاً ذكر أن قاتله (أحمد بن يوسف) فيه يقول: قلت لأبي العباس بن خاقان، ثم أورد الرأي المتصلين بحقيقة والد أحمد بن طولون. وذكر كرد على محقق (سيرة أحمد بن طولون) ليلوى في (هامش ٢) ص ٣٣: أن لأن الداية رواية، تشبهها رواية البلوى، وسؤال البلوى لنبكوف نفس سؤال ابن الداية لأن خاقان، والجواب مثله، والعبارة تكاد تكون واحدة. وهذا يعني أن ابن الداية تعرض للموضوع نفسه قبل البلوى. والحق أن لا أطمئن إلى نقل ابن تيمى يردى؛ لأن سيرة ابن الداية كاملة - فيما أعتقد - بين أيدينا، ولا يوجد لها هذا النص، كما أن الجواب الوارد في (البحر)، ويشير إليه كرد على - فيما أظن وإن لم يذكر مصدر كلامه - مبتور، وليس في اكتمال ولا وضوح رواية البلوى. ولذلك أعتقد احتياط الأمر على ابن تيمى يردى في سيرة النص إلى قاتله.

(٤) سيرة ابن الداية ص ٧٣-٧٤.

(٥) وردت في النص مصروفة، وأعتقد عدم صحتها؛ لأنها لفظة أعجمية مزيدة على ثلاثة أحرف.

(٦) سيرة البلوى ص ٣٣-٣٤.

وغير مفهومة، وأعتقد أن فيها خلطاً بين بعض الكلمات في السطور المتعاقبة؛ نتيجة خطأ في النظر وقع فيه ناسخ المخطوطة، ولم يتبينه محقق الكتاب وناشره. وقد استعنت على فك هذا الغموض بما سيرد في رواية البلوى السابقة نفسها من حوار مكمل لها، وبما ورد في كتاب (النجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى^(١). ولعل تصحيح العبارة يتركز على شقها الأخير، فيكون كما يلي: (والآخر يقول: إنه أحمد بن يلبخ، وليس ابن قاسم جارية طولون).

ويمكن توضيح القضية، والرأى فيها فيما يلي:

أولاً - يذهب فريق من الناس إلى أن طولون التركي هو والد أحمد، وإليه يُنسب، وأن أم أحمد هي (قاسم) جارية طولون. ويرى فريق آخر: أن أحمد هو ابن (يلبخ) التركي صديق طولون، وأنه لما مات والده (يلبخ) تَبَّاه (طولون)، فإليه يُنسب، وبه يُعرف على سبيل التجوز. ثانياً - يذكر الصفدى^(٢) رأى المشككين في نسب أحمد بن طولون مصدراً إياه بلفظة دالة على التشكيك في صحة ما يذهبون إليه، فيقول: يُقال: طولون تَبَّاه، ولم يكن ابنه. ويقال: اسم أم أحمد هاشم^(٣).

ثالثاً - يذكر المقرئى^(٤)، وابن تغرى بردى^(٥) (فيما ينقله عن الحميدى): أن طولون تَبَّاه أحمد؛ لَمَّا رأى فيه من مخايل النجابة. ويدللان على هذا الرأى برواية ينفردان بإيرادها، مفادها أن أحمد كان يدخل على سيده الأمير (طولون) وهو صغير، ويسأله أن يكتب بعهاء للفقراء المُعَوَّزين. وفي إحدى المرات أمره بإحضار الدواة. فلما توجه لإحضارها، فوجئ بوجود إحدى حظايا طولون وقد خلاها خادم، فخرج أحمد ولم يتكلم. لكن الجارية خشيت إبلاغ سيدها، فسبقت إلى اتمام أحمد عنده بأنه راودها عن نفسها، فصدَّقها طولون، وأرسل بأحمد إلى أحد خدمه بكتاب يأمره فيه بقتل حامله في الحال. ولما هَمَّ أحمد بالتوجه لتنفيذ المهمة، قابلته الجارية، وأخذت منه الكتاب، ودفعت به إلى الخادم الذى كان معها، وكانت تريد بذلك أن يزداد حق طولون على أحمد. وبعد قليل وصلت رأس الخادم، الذى أوصل الكتاب؛ مما أدهش طولون، وحير الجارية. وبسؤال طولون أحمد، وتهديده بقتله، شرح ما رأى من أمر الخادم والجارية،

(١) ج ٣ ص ٤٠٥.

(٢) الواف بالوفيات ج ٦ ص ٤٣١.

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣، وبدائع الزهور ١/١٦١.

(٤) المغنى ٤١٧/١-٤١٨.

(٥) النجوم الزاهرة ٤/٣.

وأحضرت الجارية فأقرتْ بذنبها، فقتلها طولون، وحطَى أحمد بمكانة طيبة عنده. ويضيف المقرئ^(١) بأنه ولَّاه الأمر من بعده.

رابعاً - عرض البلوى في سيرته تنفيد عدته (أحمد بن محمد الكوفي) ذلك الاقام بأدلة دامغة^(٢) هي:

أ- أن يلبخ هذا تركي أسير مع طولون، وكان مغنياً يغني بالتركية، خفيف الروح. ولما مات طولون، رأى يلبخ أن من الوفاء أن يرعى ابنه أحمد من بعده، فقام على شئونه أحسن قيام، ولعله تزوج أمه، فصار زوجاً لأمه، وأوصله - لحدائثه سنه - إلى الأماكن، التي كان لا يستطيع الوصول إليها، فإذا رأى الناس أحمد معه، سألوه: هل هذا ابنك؟ فيقول: نعم هو ابني، وابن سيدي (رحمه الله).

ب- أنه لا يجوز أن يكون ابناً لـ (يلبخ)؛ لأن طولون أسبق وفاة من يلبخ؛ إذ مات قبله بعشر سنين^(٣). ولم يثبت أن لـ (يلبخ) أولاداً ذكوراً، وإنما ترك طفلة وحيدة صغيرة، كان أحمد يرعاها هي وأما حتى وفاهما.

ج- لو كان أحمد ابناً لـ (يلبخ) ما زوجه (بارجوخ) ابنته^(٤)؛ لأن يلبخ كان مغنياً، وهو دون المتزلة، بينما كان طولون معروفاً بالستر والصيانة.

د- ومما يدل على أنه ابن طولون فعلاً، أن الموقف لما اشتد خلافه مع أحمد وقام بلعنه، أسنده إلى (طولون)، ولم يسنده إلى (يلبخ).

خامساً وأخيراً - من خلال استعراض ما مضى من روايات يترجح لدى - كما

(١) المقتنى ٤١٨/١.

(٢) سيرة أحمد بن طولون، للبلوى ص ٣٤. وعلى هذا فالورث البلوى ليس هو الذي نُصِب من نفسه مدافعاً عن أحمد بن طولون، داحضاً كل ما افترى به عليه، مفسراً ما ذاع من شك في نسيه نفساً مقولاً، حلص منه إلى إثبات انتسابه إلى طولون، كما يرى د. حسن أحمد محمود في كتابه: (حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولي) ص ٢٣. إنما الصحيح الدقيق أن مورده (أحمد بن محمد الكوفي) هو الذي قام بذلك كله، والبلوى مجرد ناقل لهذا التفسير والتعليل. وكما نرى أن يكون هو صاحب هذه التعليلات الطيبة، إذاً لذكرناها في منهجه، ولاعتزناها دليلاً على حضور شخصيته.

(٣) من المعلوم أن طولون حُلب من بلاد الترك عنى بد نوح بن أسد عامل بُخارى إلى المأمون، فيما كان عليه من مال ورفيق، وغير ذلك من أشياء تؤدي كل عام. وتم إحضار طولون سنة ٢٠٠هـ، ووُلِدَ ابنه أحمد سنة ٢٢٠هـ، وتوفي سنة ٢٤٠هـ (سيرة ابن الدابة ص ٧٣-٧٤). وعلى هذا، فيكون (يلبخ)، توفي سنة ٢٥٠هـ.

(٤) لما عظم قدر أحمد بين الأتراك؛ لدننه وورعه، خطب إلى بارجوخ ابنته فزوجه، وكانت أم ابنه العباس، وابنته فاطمة. (سيرة البلوى ٣٥).

تَرجَّع لدى بعض الباحثين من قبل^(١) - صحة ما ورد في سيرة البلوى؛ لأنه أقدم مصدر تاريخي - من وجهة نظري - تعرض لهذا الأمر، فهو أقرب إلى الصواب من غيره، ولأنه اعتمد في عرض القضية على مصدر موثوق به، عليم بخبايا الأتراك وأحوالهم، كما أنه دعم رأيه بأدلة صحيحة واقعية من الوجهة التاريخية والمنطقية، خاصة إذا صح ما ورد عن زواج (قاسم) من (يلبخ) بعد وفاة زوجها (طولون)، فلعله - بعد هذا الارتباط - غدا أشد ملازمة له ورعاية لشأنه، وعامله كأنه ابنه بعد أن أضحي زوج أمه. وقد ردَّ أحمد له الجميل بالإحسان إلى زوجته الأخرى وابنتها حتى وفاتها، كما ذكرتُ من قبل. وأخيراً، فإن أحمد بن طولون لو كان مدخول النسب، لاهتبل هذه الفرصة شائتوه في السداخل والخسارج (الشاعر محمد بن داود، والموفق)، ولأوسعوه تشنيعاً وتجريحاً، ولأضعف ذلك من مركزه، ومقامه بين الناس في زمن، كان الناس يهتمون فيه بالأحساب والأنساب اهتماماً بالغاً.

أما القائلان بالرأى الآخر المرحوح، فهما متأخران (يرجعان إلى القرن التاسع الهجري)، ولم يذكر أحدهما مصدره (المقريزي)، واعتمد الآخر على (الحميدي)^(٢)، وهو - وإن كان من رجال القرن الخامس الهجري - إلا أنه لا يعد مصدراً معتبراً من مصادر التاريخ المصري؛ لأنه مؤرخ أندلسي بالدرجة الأولى، ومصدره الذي نقل عنه الرواية مجهول (قال بعض المصريين)^(٣). ثم إن الرواية التي سقت عنه غير مقبولة، فهي - وإن كانت لا تدل على أن أحمد ابنه الصلي - إلا أنها - أيضاً - لا تدل على أنه مُتَّبَعِي له، بل هو أقرب إلى خدام يعمل عند أمير، لا يشعر تجاهه بأدنى مشاعر الفِئرة، عندما يجد حَفَظَتَه مع غير سيدها فلا يُبلغ عنهما. وأحداث الرواية مفتعلة وغير منطقية، فلو أراد الأمير قتل أحمد، لقتله في الحال دون حاجة إلى إرساله بكتاب إلى خدام يأمره بقتل حامله. وأخيراً، فإني أتساءل: أيُّ أمر كان يتولاها (طولون)، وأية إمارة كان يتأمرها حتى يليها (أحمد) من بعده؟! إن أقصى ما يمكن أن يصل إليه (طولون) أن يصير من

(١) حضارة مصر الإسلامية د. حسن أحمد محمود ص ٢٢-٢٣، ودكتوراه (حضارة مصر في العهد الطولوني): لطاوة ص ٨-٩.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فروح بن عبد الله الأردى الحميدى الحافظ المشهور، قرطبي الأصل. روى عن ابن حزم الظاهري، واختص به، وعن ابن عبد البر صاحب كتاب (الاستيعاب). رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨هـ، وهو ابن ٢٨ سنة، ففتح. سجع بإفريقية، ومكة، والأندلس، ومصر، والشام، والعراق، واستوطن بغداد. كان موصوفاً بالنباهة والمعرفة، والدين والورع. له كتاب (الجمع بين صحيحى البخارى، ومسلم)، و(حذوة المقتبس)، وهو عن تاريخ علماء الأندلس. توفي ببغداد سنة ٤٨٨هـ. (وفيات الأعيان ٤/٢٨٢-٢٨٣).

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٣.

كبار الجند^(١)، وإن حياة ابنه بعده لا تدل على أنه ورث عن أبيه منصباً ذا شأن، اللهم إلا أن يكون أخذ عنه النشأة المتدنية الطبية، التي واصل غرسها داخله أصدقاء أبيه المقربون (لا يبلغ وحده)، ثم توجه إلى الغزو والجهاد، فشاغ ذكره، واشتهرت شجاعته وأخلاقه، فُعرف في أوساط الكبراء، حتى هباً له القدر أن يلي ما تولاها.

ب- عيسى بن شيخ وعلاقته بالخلافة، وبابن طولون:

١- ورد في (سيرة ابن الداية): أن (عيسى بن شيخ) كان متقلداً لفلسطين والأردن، ومتغلباً على دمشق (أى: دون تقليد الخلافة له)، وأنه انتهز فرصة اضطراب الأتراك في العاصمة، فأراد التغلب على مصر. وأرسل ابن المدبر صاحب خراج مصر مبلغ (٧٥٠ ألف دينار) إلى الخلافة، فاستولى عليها عيسى^(٢).

أما البلوى، فذكر أن (أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني) كان يتقلد (فلسطين، والأردن). فلما مات، توثب ابن شيخ عليهما، فقال: هي من عملي. وذكر استيلاء ابن شيخ على أموال مصر المرسلة من ابن المدبر إلى الخلافة، وتفرقها في جنده. وبلغه اضطراب الأمور في عاصمة الخلافة، فجمع الجموع وطمع في السيطرة على بلاد الشام كلها، وخرجت شائعات - روج لها الناس - بعزمه على الاستيلاء على مصر أيضاً^(٣).

وواضح أن البلوى لم يكن موفقاً في ذكر اسم الشخصية موضع النزاع، وروايته يكتنفها في بدايتها الغموض، وإن كانت بما تفصيلات غير واردة في رواية ابن الداية.

٢- قال ابن الداية في (سيرته): كتب السلطان (لعله الخليفة المهدي) إلى ابن طولون أن يتأهب لملاقاة عيسى بن شيخ، وذلك بتجهيز جيش من أكفاء الجند، وأمر صاحب الخراج أن يمدّه بما يحتاج إليه من نفقات. وانتهاز ابن طولون الفرصة، وكون جيشاً كثيفاً به كثير من السودان وغيرهم. هذا، وقد أنفذ الخليفة إلى (عيسى بن شيخ) بوفد يتفاوض معه، فيه واحد من

(١) يذكر ابن تغري بردي عن طولون: أنه رآه المأمون حتى صار من جملة الأمراء (السابق ٣/٣). واعتقد أن لقب الإمارة هذا لقب شرف، منحه إياه لبياعته في عالم الجندية. ويعود ابن تغري بردي ص ٦ إلى القول بأن طولون لما مات، فوض الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) إلى أحمد ما كان لأبيه. ونحن لا ندري ماذا كان لأبيه، حتى يتولاها أحمد. ثم إذا لم نجد ذكراً لطولون، ولا لابنه أحمد في عهد المتوكل على كثرة أخباره، مما يجعلنا نشك في صحة هذا الكلام، خاصة أن قائله أردف قائلاً: ثم تنقلت الأحوال بابن طولون حتى ولى إمرة الثغور ودمشق، ثم ديار مصر. والصواب: ولى مصر، ثم الثغور الشامية، ثم سيطر على الشام.

(٢) السابق: ص ٨٠.

(٣) سيرة أحمد بن طولون ص ٥٠.

كبار خدمه وفتيانهم، يطالبونه بأموال مصر، وبما عليه من أموال عما يتقلده من أعمال. وأرسل معهم عهده بتوليته أرمينية^(١).

فماذا كان رد فعل عيسى ؟ أما عن الأموال المصرية، فزعم أن نفقات الرجال استهلكتها. وأما عن الأموال المتأخرة عليه، فلا شك أنه ماطل ولم يؤد درهماً مما عليه. ولما بويج المعتمد، لم يدع له عيسى على المنابر، ولم يأخذ له بيعة من أصحابه، ولم يرتد السواد شعار العباسيين. ومع ذلك دفع إليه الحسين الخادم بولاية أرمينية. ثم أرسل المعتمد (أماجور التركي) إلى دمشق والياً عليها على رأس جيش، فأرسل عيسى ابنه منصوراً، وخليفته (أبا الصهباء)؛ لمنع (أماجور) من دخول دمشق. هُزم جيش عيسى، وقتل ابنه وخليفته وكبار جنده، فاضطر عيسى للخروج إلى نواحي أرمينية على طريق الساحل، وتسلم أماجور أعمال الشام سنة ٢٥٧ هـ^(٢).

أما البلوى، فروايتها في هذا الشأن - كالمعتاد - أكثر تفصيلاً ووضوحاً. والمهم أنما أكثر بياناً لهدف ابن طولون من الإسراع بالاستجابة لمطلب الخلافة، ونجح في الإفصاح عن سياسة ابن طولون في صراع الخلافة مع (ابن شيخ). ذكر البلوى أن المهتدي بالله أرسل إلى ابن شيخ وفداً، اشترط عليه أن يُسلم له عهد الخليفة إليه بولاية إرمينية بشرط أن يرد الأموال التي في رقبته كلها، وأن ينصرف عن الشام، فإن لم يفعل كتبوا إلى الخليفة بذلك؛ ليتدبر الأمر.

لم يستجب ابن شيخ لمطالب الخلافة، فاستخدم معه حسين الخادم الحيلة بأن دفع إليه عهد توليته إرمينية، حتى أقام الدعوة للمعتمد، وأخذ له البيعة. وانصرف الوفد غميراً المعتمد بما حدث، فأمر المعتمد ابن طولون بالتأهب للقاء ابن شيخ، فانتهاز أحمد الفرصة، واستكثر من الجند، وجدد آلات الحرب، ثم تلمكاً عن الخروج؛ لأنه لا يريد الصدام مباشرة، فأرسل إليه وفداً، يدعوه إلى طاعة الخليفة ورد الأموال، لكنه رد رداً قبيحاً. ثم رأت الخلافة الاستعاضة عن ابن طولون بـ (ماجور) التركي، الذي هزم جيش ابن شيخ، على النحو الذي ورد في رواية ابن الداية السابقة^(٣).

بعد أن عرضنا تصور كل من ابن الداية، والبلوى لطبيعة العلاقة بين (عيسى بن شيخ)، والخلافة العباسية في (عهدي: المهتدي، والمعتمد)، وموقف ابن طولون من الصراع الدائر، نلم

(١) بُكسر أوله ويُفتح، وهو اسم لصق عظيم واسع في جهة الشمال، والنسبة إليه أرميني على غير قياس. وكذلك (أرميني). وهي من بلاد الروم، ويُضرب بمسحتها، وطيب هوائها، وكثرة ماؤها وشجرها مثل. (الأنساب ١١٧/١)، ومعجم البلدان ١٩١/١ وما بعدها.

(٢) السابق: ص ٨٠-٨١.

(٣) سورة أحمد بن طولون ٥٠-٥٢.

إلمامة سريعة بصورة الموقف كما عرضته المصادر الأخرى؛ كى تنبين القضية بوضوح أكثر، وتنف على وجوه الاتفاق، والاختلاف، والإضافات.

١- الشخصية المحورية التى تدور حولها الأحداث هى شخصية (عيسى ابن الشيخ^(١)) بن السليل ابن ضبيس): من بنى جساس بن مرة بن ذهل بن شيان بن ثعلبة، أبو موسى الشيباني الذهلي^(٢).

٢- تختلف المصادر حول تاريخ وظروف تولية عيسى (فلسطين، والأردن): فيذكر ابن منظور أن بغا الكبير ولّى عيسى بن شيخ فلسطين والأردن سنة ٢٥٢ هـ^(٣)، بينما يذكر المسعودى أن المعتز ولّاه فلسطين سنة ٢٥٣ هـ^(٤). ويرى الطبرى أن عيسى بن الشيخ عُقد له على الرملة أول ذى الحجة سنة ٢٥٢ هـ، فأنفذ عيسى خليفته (أبا المراء) إليها، فقبل: إنه أعطى (بغا) أربعين ألف دينار على ذلك، أو ضَمَنَها له^(٥).

وأتصور أن التوفيق بين هذه التواريخ سهل ميسور، فمكانة (بغا) من الخليفة العباسي تسمح له بتولية عيسى (فلسطين، والأردن)، ثم إن إقدام عيسى على ترسيخ علاقته مع (بغا) هيأ له ولاية (الرملة) مقابل تعهده بمبلغ كبير من المال سنوياً. ويبدو أن زيارة عيسى لسامرا قادمًا من مصر بصحبة بعض ولد أبي طالب، الذين أقاموا بمصر مدة؛ هرباً من قحط حلّ بالحجاز، ولقاءه بالمعتز، جَدَّد له عقده على (فلسطين)، وذلك سنة ٢٥٣ هـ^(٦).

ويلو أن (عيسى بن الشيخ) أظهر الخلاف مع الخلافة العباسية في عهد المهتدي (٢٥٥ هـ)،

(١) ومن ها، فقد أخطأ المؤرخ البلوى لما سَمَّاه (أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني). (سيرة أحمد بن طولون ص ٥٠)؛ إذ إن (أحمد) هذا لا علاقة له بهذه الأحداث، فهو الابن الذى ولّى حكم إرمينية وديار بكر بعد وفاة أبيه ٢٦٩ هـ، وضم إليهما قلعة ماردٍين قلعة حصينة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دَنْتَسِر، ودار، ونَصيبين. (معجم البلدان ٤٦/٥)، سنة ٢٧٩ هـ (تاريخ الإسلام ٣٩٩/٢٠، والبداءة والنهاية ٧٠/١١). وظل أحمد هذا في موقعه حتى توفى في ذى الحجة ٢٨٥ هـ (تاريخ الطبرى ٦٨/١٠، ومروج الذهب مجلد ٢ ص ٦٠٤، والبداءة والنهاية ٨٣/١١). وبعد ذلك ولّى ابنه (محمد) ما كان يلبه أبوه على سبيل التغلب؛ مما دفع المعتضد إلى محاصرته، حتى اضطر إلى التسليم، فأثمه الخليفة، وحلج عليه سنة ٢٨٦ هـ (تاريخ الطبرى ٧٠/١٠، ومروج الذهب ٦٠٤/٢ - ٦٠٧ (وسمى الشيخ عبد الرزاق)، والكامل ٣٩٥/٦، وتاريخ الإسلام ٢٤/٢١، والنجوم ١٣٣/٣). وقد نقل المقرئى - دون أن يذكر - عن البلوى في كتاب (المخطوط) ٣١٥/١ دون تحقيق، فجعل أحمد بن عيسى بن شيخ الشيباني متقلد جُذُئى فلسطين والأردن. فلما مات، وثب ابنه على الأعمال، واستبد بها. . . إلخ. واعتمدت د. سيدة كاشف على نص البلوى غير الدقيق، فنقلت عنه أيضاً ما قاله دون تحقيق (أحمد بن طولون: ص ٦٤ - ٦٥).

(٢) (مختصر تاريخ دمشق لأبى عساكر)، لابن منظور ٧٣/٢٠.

(٣) السابق: ٧٤/٢٠.

(٤) مروج الذهب: مجلد ٢ ص ٥٥٢.

(٥) تاريخ الطبرى ٣٧٢/٩.

(٦) مروج الذهب: مجلد ٢ ص ٥٥٢.

بالاستيلاء على دمشق^(١)، ومنع الأموال، وغير ذلك من الإجراءات التي امتدت إلى بدايات عهد (المعتمد) سنة ٢٥٦هـ، وما أعقبها من تطورات ومفاوضات^(٢)، أفضت إلى تكليف ابن طولون بمحاربة ابن الشيخ، ثم تراجعت الخلافة عن ذلك وأمرته بالتوقف^(٣)، وكلفت أماجور التركي بتلك

(١) لم يكن ابن خلدون دقيقاً، عندما ذكر أن المعتمد ولي عيسى دمشق، لكنه منع الخراج (تاريخه ٤٢٣/٣)؛ لأن عيسى تغلب عليها قبل المعتمد، وعلاقته بالمعتمد كانت سيئة، ولم يبايع له حتى أُوهِمَ أن المعتمد يمنحه إرمينية إلى جانب الشام.

(٢) أهم ما في هذه المفاوضات أن حسيباً الخادم خدع عيسى بن شيخ، حتى ظن أن الخلافة بدت من الضعف، حتى إذا تمنحه إرمينية إلى جانب الشام؛ لقاء مبايعته للمعتمد، وخطبته له، وارتدائه السواد. (مخطوط مرآة الزمان، لسيوط ابن الجوزي (مصورة عن نسخة أحمد الثالث) جـ ١٠ ورقة ٤٩ - ٥٠).

(٣) الراجح أن الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) هو الذي أمر ابن طولون بذلك، وبالتالي هو الذي أمره بالرجوع عنه (سواء كان ذلك التراجع بقرار من المعتمد نفسه، أم بإيعاز وتخريض من أعداء ابن طولون بالدخل: ابن الدبّار صاحب الخراج، وشقّير عامل البريد). وهذا الرأي الذي رجّحناه على خلاف ما انتهى إليه عدد من الباحثين: فقد رأى د. حسين نصار محقق (ولاة مصر) للكندی أن الذي أمر ابن طولون بالخروج هو الخليفة (المهتدي). (راجع: ولاء مصر ص ٢٤١ بالثن، وما يتصل بها في هامش ٤ وما يتعلق بها في جدول التصويبات آخر الكتاب ص ٣٦٢). وتلفّف ذلك عنه حسن عبد الحميد جبر في رسالته للدكتوراه (هامش ٣ ص ١٤١). أما في دكتوراه (الحياة السياسية، ومظاهر الحضارة في عهد المعتمد)، لمحمد حسب الله، فقد ذكر ص ١٥٠: أن ابن الدابة والكندی رأيا أن المهتدي هو الأمر بالخروج، والمعتمد أمير بالرجوع. أما البلوي، وابن خلدون، والمقرئزي، فأروا أن المعتمد هو الأمر في الحالين. ورجع الرأي الأول، معتمداً على أن ابن طولون خرج في جمادى الآخرة ٢٥٦هـ، والمعتمد تولى في رجب من العام نفسه. ونقل عنه الرأي نفسه صاحب دكتوراه (حضارة مصر في العصر الطولوني) ص ٢٥. وبالعودة إلى هذه المصادر للتريق، وجدت أن ابن الدابة (ص ٨٠) لم يحدد شخصية الأمر بالخروج، واكتفى بقوله: (وكتب السلطان إلى أحمد بن طولون). أما البلوي، فقال: (وكتب إلى أحمد بن طولون بأمره) ص ٥١، ولم يصرح، لكن السياق قبله يشير إلى أنه (المعتمد)، الذي أخذت له البيعة من ابن الشيخ. أما الكندی، ففي (الولاة، ط. جست) ص ٢١٤، لم يصرح قائلاً: "وكتب إلى أحمد ابن طولون بالخروج". أما ابن خلدون، والمقرئزي فقد صرحا أن المعتمد هو الأمر بالخروج (تاريخه ٣٨٧/٤، والمخطوط ٣١٥/١). ونخرج من ذلك بتحقيقتين: الأولى - أنه لا خلاف حول شخصية من أمر ابن طولون بالرجوع (المعتمد). الثانية - أنه لا يوجد مصدر واحد من المصادر السابقة صرّح - بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة - أن الأمر بالخروج هو الخليفة (المهتدي). بقي - بعد ذلك - أن نُقَدِّد الدليل، الذي اعتمد عليه البعض في القول بأن المهتدي هو الأمر بالخروج، والمقاتل: إن ابن طولون خرج للفاة (عيسى بن شيخ) في جمادى الآخرة سنة ٢٥٦هـ، وأن المعتمد بويع في رجب من العام نفسه. والحق أن مصدر هذه التواريخ هو الكندی في (كتاب الولاة ص ٢١٥ - ط. جست). وبالتحقق من صحة تلك التواريخ، وبالنظر إلى ملاسبات هذا الخروج ظهر ل عدم دقتها؛ لما يلي:

أ- لم تشر المصادر المعتمدة في (سيرة ابن طولون) لأن الدابة، والبلوي إلى شيء من هذه التواريخ، وهي أدق وأكثر تفصيلاً - من وجهة نظري - وأقرب إلى الأحداث من كتاب الكندی الذي لم يعالج تاريخ الطولونيين على النحو المرضي.

ب- أن قرار المعتمد بخروج ابن طولون لم يحدث إلا بعد أن أصر عيسى بن شيخ على رفض مطالب الخليفة المهتدي، وقد وصلت أنباء وفاته إلى الوفد المفاوض، وكذلك وصل نبأ بيعة المعتمد إليهم، وجامعهم أوامر الخليفة الجديد بالمطالبة ببيعة ابن الشيخ له، فاحتل عليه حتى بايع، ثم عسّاد الوفد إلى المعتمد، ففرّقه حقيقة تطلعات -

المهمة، التي انتهت بتحول عيسى إلى إرمينية بعد الهزيمة. ويدعو أن صلاته الطبية بالوزير (عُبَيْد الله بن يحيى بن خاقان)^(١) ساعدته على تثبيت أقدامه في إرمينية، ويبدو - أيضاً - أنه ضُمَّتْ إليه ديار بكر^(٢)، وآمِدَ^(٣). وظل في منصبه، حتى وفاته - على الأرجح - سنة ٢٦٩ هـ^(٤).

تقوم دولة ابن طولون، والحكم عليه:

انتقالاً من القضايا الجزئية السابقة إلى النظرة الكلية الشاملة، نحاول أن نطل إطلالة مركزة على (شخصية أحمد بن طولون) ودولته من زوايا عديدة باعتبار موضوع كتابي: ابن الداية، والبلوى. فنقوم - في البداية - بإرساء أساس الحكم عليه، ثم بيان إيجابياته، وأخيراً سلبياته، وخلاصة الرأي فيه.

- ابن شيخ، وأنه ما بايع إلا وهو يفهم أن ذلك مقابل بقائه في الشام، واستخلافه على أرمينية. هنا كان لابد مما ليس منه بُد، فكبح المعتد إلى ابن طولون بالخروج إليه. (البلوى ص ٥٠-٥١). هنا هو منطق الأحداث يفرض علينا نفسه. ج- بالنظر إلى التواريخ المذكورة في كتاب الكندي المشار إليه (ص ٢١٤-٢١٥) نجد أنه قال: أظهر أحمد الخروج إلى ابن شيخ في صفر سنة ٢٥٦ هـ. وخرج إليه بعد رفض إجابة مطالبه يوم الخميس ٦ من جمادى الآخرة ٢٥٦ هـ، ودخل القسطنطين راجعاً بعد قرار منعه لأيام خلت من شعبان من العام نفسه. وتوفي المهتدي في شعبان سنة ٢٥٦ هـ وبويع المعتد. والحق أنما تواريخ غير دقيقة؛ لأن الطبري - وهو أخير بتاريخ الخلفاء - ذكر أن المهتدي شُلع يوم ١٤ من رجب ٢٥٦ هـ، وقتل يوم الخميس ١٨ من رجب (تاريخ الطبري ٤٥٧/٩). وبويع المعتد بيعة خاصة يوم الثلاثاء، أو الأربعاء ١٦ أو ١٧ من رجب (السابق ٤٦٢/٩). وبويع البيعة العامة في دار العامة يوم الاثنين ٢٢ رجب سنة ٢٥٦ هـ (السابق ٤٦٨/٩). وبناء على ذلك، فأننا نرى أن الأوامر صدرت إلى ابن طولون بعد فترة مناسبة من استقرار الأمر للمعتد، ورجوع وفد التفاوض إليه يقفه على حلية الأمر. ففعل ذلك كان أواخر شعبان، ثم جرت مفاوضات بين وفد ابن طولون وابن شيخ، ولعلها استمرت شهراً آخر، ثم بدأ يتحرك ابن طولون في شهر شوال مثلاً، فأثابه الأمر بالرجوع. وتم تكليف القائد التركي ماجور بتنفيذ المهمة، فأعد جيشه وسار به، وحاصر ابن شيخ في دمشق (تاريخ يعقوب ٤٧٤/٢)، ودارت المعارك بين الفريقين، حتى هُزم ابن شيخ ورحل تاركاً الشام كلها لماجور، الذي تقلدها في بداية سنة ٢٥٧ هـ فيما أُرُحِح وهو ما يلتقي مع رواية البلوى (ص ٢٥٢).

- (١) مختصر تاريخ دمشق ج ١٦ ص ١٣. ويلاحظ أن الطبري أخطأ لما جعل وفاة هذا الوزير سنة ٢٥٢ هـ. (تاريخه ٣٥٤/٩). فالصواب أنه كان وزيراً للتوكل، ثم استوزره المعتد لأول ولايته سنة ٢٥٦ هـ، وتوفي - على الأرجح - سنة ٢٦٣ هـ (مختصر تاريخ دمشق ١١/١٦-١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٢٣/٣).
- (٢) هي بلاد كبيرة واسعة، تسب إلى بكر بن وائل، وحَدَّها من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين (معجم البلدان ٥٦١/٢-٥٦٢).
- (٣) هي جزء من ديار بكر السابقة، وهي أعظم مدنها، وأجلها قدراً، وأشهرها ذكراً. وهي بلد حصين في وسطه عبور وآبار. (السابق ٧٦/١).
- (٤) الكامل، لابن الأثير ج ٦-٣٣٠، ومخطوطة (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي (ج ١٠ ورقة ٥٠). وهو أرجح من تاريخ ٢٦٨ هـ، الذي ذكره ابن خلدون في (تاريخه ٤٢٩/٣).

أولاً - أساس الحكم التاريخي:

يُقصد بالحكم التاريخي ما يطلقه المؤرخ من نقد وحكم على حاكم من الحكام، أو قائد من القواد، أو موقف من المواقف، أو عصر من العصور. وهذا الحكم يجب أن ينأى به المؤرخ الحق عن التعصب والهوى، وأن يؤسسه بعد حسن تصور الأمر الذي يصدر حكمه عليه، وبعد دقة في النقل، وتحرُّ في الوقائع، وتثبت وأناة وطول تحقيق ومحيص، وأن يؤدي ذلك الحكم بلغة مهذبة، ولسان عَفّ. ويحتكم المؤرخ المسلم إلى ميزان الشرع الحكيم ويزن به أعمال كل من يدرس سيرته، فيُمدِّح الشخص إذا أحسن وعدل وخدم أُمته، ويُذمّ إذا كان غير ذلك، دون جنوح إلى تبرير الأخطاء، وإحسان الظن في غير موضعه؛ حفاظاً على المنهج الإسلامي^(١).

ثانياً - من إيجابيات دولة ابن طولون:

١- الاستقرار الداخلي:

وهذه سمة بارزة من سمات عهد أحمد بن طولون، لها عدة مظاهر، منها:

أ- حفظ الأمن والنظام:

وذلك واضح من خلال اهتمامه بتعيين قائد من قواده النقات على الشرطة السُّفَلَانِيَّة (الفسطاط)، وقد أوصاه أن يرقى بالرعية، وينشر العدل بينهم، ويقضى حوائجهم، ويتفقد مصالحهم، ويظهر إكرامهم وصيانتهم. ففي هذه المنطقة يسكن عوام الناس وصالحوهم، وابن طولون يرجو دعاءهم، فقيهم القراء، والمتهجدون، والذاكرون. وكان يأمر صاحب الشرطة الفُوقَانِيَّة (العُسْكَر) أن يشدد على رعيته ويرهبهم، ويغلظ عليهم؛ لكثرة ما يرتكبون من مظاهر اللهو والعريضة والفسوق (من غناء، وسُكْر، ونحوها)^(٢).

ب- قمع ثورات الثائرين، والقضاء على المفسدين:

وذلك واضح من خلال قضاؤه على حركة (ابن الصوفي)، الذي وردت الأدباء سنة

(١) مسيح كتابة التاريخ الإسلامي، محمد بن صابيل العليان هاشم ص ٢٣١-٢٣٢، ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) سيرة أحمد بن طولون للبكري ص ٢٠٥-٢٠٦. وقال أحمد عبد السلام ناصف في كتابه: (الشرطة في مصر الإسلامية) ص ١٥٦-١٥٧: الشرطة في الفسطاط أعظم وأجل من الشرطة في العُسْكَر، رغم إطلاق اسم الشرطة السفلى على (شرطة الفسطاط)؛ لأن الفسطاط القسم الرئيسي الأصل. فتقسيم الشرطة إلى (سفلى)، و(عليا) لا يرجع إلا إلى الموقع الجغرافي، ولا علاقة له بالتقسيم الطبقي؛ لأن مدينة العسكر أعلى من الفسطاط جغرافياً.

٢٥٦هـ — بدخوله (إسنا) بالصعيد، وقيامه بنهبها والإفساد في نواحيها^(١). وكذلك أرسل الجيوش المتتالية، التي نجحت في القضاء على رجل نائر بالصعيد من بقايا أصحاب ابن الصوفي، يكتسى (أباروخ) كان قد قطع الطريق، وأخاف السبيل^(٢). وتعرض ابن طولون لانتقاص سيادة دولته، عندما ثار أهل بركة، ووثبوا بأميرهم (محمد بن فروخ الفرغاني)، وأخرجوه منها، فأرسل إليهم الجيوش ثُثرى، وعلى رأسها غلامه لؤلؤ، حتى أعادوا الهدوء هناك، واستعاد ابن طولون سيطرته عليها، وعادت جيوشه مظفرة، تسوق الأسرى، وتطوف بهم في شوارع مصر؛ مما كان له أكبر الأثر في تغلغل هبة ابن طولون في صدور الناس كباراً وصغاراً^(٣).

ج- القضاء على نفوذ ابن المدبر^(٤) صاحب الخراج، وشقيق صاحب البريد:

على المصريون من ظلم ابن المدبر وتعسف^(٥)، ونجّره في تحصيل الخراج، وفي فرض ضرائب جديدة اقترنت به، أثقلت كاهل الناس^(٦). وقد كان من الممكن إذا استمر هذا الرجل في منصبه أن تتفجر ثورات الناس؛ حقاً عليه. فرأى ابن طولون بشاقب فكره أن إزاحته عن ذلك المنصب تحقق له وللناس فوائد جمة، منها: أنه يهدئ نفوس الناس ونائرتهم، ويتقرب إليهم ويكتسب جبههم وودهم (خاصة أنه خفف عنهم الضرائب، ورفق بمحالمهم)^(٧). ومن جهة أخرى يتخلص من

(١) سيرة البلوى ص ٦٢-٦٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٧-٦٨.

(٣) السابق: ٧٠-٧٢، وماجستير (برقة وطرانس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر) ص ٩٥-٩٦.

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبيد الله، أبو الحسن بن المدبر الكاتب. أصله من سامراء. تولى المساحة بدمشق وغيرها أيام التوكل سنة ٢٤١هـ. ولما التوكل خراج دمشق والأردن. كان أديباً كاتباً شاعراً. وهو أسن من أخيه إبراهيم. كان بلى خراج مصر، حتى دخل إليها أحمد بن طولون والياً، فاختلف معه، حتى اضطره إلى ترك مصر، ثم احتال عليه لتحريره الخلافة ضده، فأحضره إلى مصر ثانية، وسجنه وعذبه سنة ٢٦٥هـ، وظل في محبسه حتى مات في حياة ابن طولون (في صفر سنة ٢٧٠هـ). (تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣٧/٧-٣٤٠، ووفيات الأعيان ٥٥٠/٧-٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٢٦/١٣، وفوات الوفيات للنكبي ١٣٢/١-١٣٤).

(٥) المكافاة ١٣٩-١٤٠، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٦٧/٢ (سجن ابن المدبر الفقيه الشافعي أحمد بن يحيى بن الوزير النحيسى فيما انكسر عليه من بعض الخراج، حتى مات في سجنه سنة ٢٥٠ أو ٢٥١هـ).

(٦) حول ما استحدثه ابن المدبر من ضرائب في مصر لم تكن معروفة قبله، استحدثها منذ توليه الخراج بعد سنة ٢٥٠هـ (روى) - بخلاف الخراج الذي يؤدى سنوياً - ضرائب هلالية تؤدى شهرياً على المراعى والمصايد والنظرون) راجع: سيرة البلوى ص ٤٣، ونهاية الأرب ٢٦٢/٨-٢٦٤، والمخطوط ١٠٣/١-١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، والفضائل الباهرة ص ١٢٦، ود. سيدة كاشف في كتاب (أحمد بن طولون) ص ٤٧-٤٩، وذكره حسن جبر ص ٩٩-١٠٠.

(٧) ذكر المقرئى أنه لما أضاف للمعتد لأحمد الخراج والثغور الشامية إلى جانب ولاية مصر، توه عن أدنلس المعاود والمرافق (الاسم الذى أطلقه ابن المدبر على ضرائبه الإضافية)، وكب بإسقاطها في جميع أعماله، وكانت تبلغ مصر خاصة مائة ألف دينار سنوياً. (المقرئى: المخطوط ١٠٣/١-١٠٤). وقد رجح حسن جبر في رسالته للدكتوراه (ص ١٥٢ هامش ٢) أن يكون ذلك تم سنة ٢٦٢هـ.

منافس خطير يقاسمه حكم مصر، بل يتفوق عليه، وله نفوذ كبير. ولذلك حرص ابن طولون على تجريده من مظاهر هيئته وسلطانه^(١)، حتى اضطره إلى ترك مصر^(٢). ولما علم ابن طولون بتدابيره ومكائباته هو وشقيق إلى الخلافة يخرضاها عليه، ويحذراها سعيه إلى الاستقلال عنها^(٣)؛ احتال على ابن المدر، إلى أن حبسه في مصر حتى الموت^(٤)، وعرض شقيقاً للعقاب البدني والنفسي الرهيب، حتى تم الإجهار عليه^(٥). وبذلك أراح نفسه من شرهما وخطرها قبل أن يريح الناس منهما (ضرائب، وتجنس). وهكذا، التفت رغبة المصريين ومصلحتهم مع رغبة ابن طولون ومصلحته الشخصية في الاستئثار بحكم مصر، وتولى حراجها، والانفراد بامتلاك مقاليد الأمور بها.

٢- صفاته الطيبة وأثرها في مصر:

لاشك أن نشأة أحمد بن طولون الدينية، وإقامته في مناطق الثغور (خاصة طرسوس)، مرابطاً في بداية حياته العسكرية^(١)، كل ذلك جعله يتمتع بمجموعة من الخلال الطيبة والصفات الحميدة، التي كان لها أثرها في نفوس المصريين تجاهه. ومن هذه السمات: شجاعته وشهامته^(٢)، وحفظه القرآن، ورعايته حَقْطَةَ كتاب الله^(٣)، ورحمته ورفقه برعيته^(٤)، وعدالته^(٥)، وزهده^(٦)، وتقشفه

(١) سيرة ابن الداية ص ٧٨، وسيرة البلوي ص ٤٥.

(٢) سيرة ابن الداية ص ٨٤، وسيرة البلوي ص ٥٩ - ٦٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٥٨، والخطط ٣١٦/١.

(٤) سيرة البلوي ص ١٧٥ - ١٧٨.

(٥) المصدر السابق: ص ٥٨ - ٥٩.

(٦) سيرة ابن الداية ص ٧٤، وسيرة البلوي ص ٣٦.

(٧) من أبرز أمثلة ذلك: صيانه الخليفة المستعين، وحسن قيامه بشأنه لما نفاه (المعز) - بعد خلعه - إلى (واسط)، ثم رفضه أن يفد الأوامر بقتله مقابل أن يؤلى على واسط. (حول موقف ابن طولون الشجاع، وما آل إليه مصر المستعين من القتل على يد (سعيد الخاحب)، وثناء الناس على ابن طولون؛ لعدم نكته بعة المستعين، وعدم اشتراكه في إراقة دمه (وإن لم يستطع أن يجمع قتله)، يراجع: (تاريخ الطبري ٣٦٢/٩ - ٣٦٣، وسيرة ابن الداية ٧٥ - ٧٦، وسيرة البلوي ٤١، وتاريخ ابن الوردي ٣١٧/١، وتاريخ ابن خلدون ٣٦٤/٣، وأحمد بن طولون، للدكتور سيدة كاشف ص ٢٣، وحضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، للدكتور حس محمد ص ٢٩ - ٣١). وعلى كل حال، فقد كان ابن طولون سبباً لما سئم المستعين للقتل بيده وهو يعلم، ثم عاد بعد مقتله للصلاة عليه، ومواراته التراب. ولعله رأى أنه مهما حاول تجنبه الموت، فلن يستطيع الوقوف أمام قوة الأثر والخليفة الجديد (المعز) وأمه، فأثر الاكتفاء بعدم تنويع يده بقتله.

(٨) سيرة البلوي ١٨٦ - ١٨٩. (٩) السابق ١٩٩ - ٢٠١.

(١٠) من أمثلة عدله: معاقبته أحد قواده لاعتدائه على راهب قطي (السابق ٢٠٦ - ٢٠٨). وكان يحرص على الخلوس للمطامير يومين في الأسبوع (الخطط ٢٠٧/٢).

(١١) كانت تُهدى إليه احواري الحميلات، فيقوم بإهدائها إلى غلمانها؛ زاهداً في النعم والملاذ، فندته بخراصة دولة، وشغله بمصالح ومتطلبات حننه (سيرة ابن الداية ٩٣ - ٩٤).

واقصاده في النفقات^(١)، وكثرة إحسانه وصدقاته^(٢)، وجدته ويقظته وسهره على مصالح الرعية^(٣)، ورعايته وتوقيره العلماء^(٤).

٣- استقلاله بمصر ورعاية مصالحها ضد أطماع الموفق:

لا يعني ذلك أننا نشجع انسلاخ وانفصال ولايات الخلافة الإسلامية عنها، ونعده من إيجابيات (أحمد بن طولون) وحسناته، إنما نقصد مفهوم الاستقلال كما عرفه ابن طولون، وهو أن يحكم ولايته حكماً شبه مستقل، يرعى مصالحها، ويوفر حياة طيبة لأهلها، ويقوم بمشروعات تهدف إلى خير مواطنيه، ثم هو - في الوقت نفسه - يعترف ببيعة الخلافة، وسلطة الخليفة الروحية، ويؤدى ما عليه من خراج سنوياً لعاصمة الخلافة بما لا يضر مصالح شعبه واحتياجاته (من مأكّل، ومشرب، وملبس، وجيش قوى يدافع عنه)^(٥). وقد حقّق ابن طولون هذا المفهوم الصحيح، لكن أعداءه - حسداً من عند أنفسهم - سخطوا عليه، ودبروا له المكائد في عاصمة الخلافة، وحرّضوا عليه الخليفة (المعتمد)، حتى كتب إليه مرة بالاستخلاف على مصر، والقُدوم إلى عاصمة الخلافة؛ لتدبير شئونها^(٦). وقد كان (الموفق) أخو الخليفة (المعتمد) ألدّ أعداء ابن طولون، ولطالما وقف في طريق قوة ابن طولون ودولته النامية، وسلك في سبيل ذلك طرقاً ووسائل متعددة، منها: مكاتبته أن يرسل إليه خراج مصر أضعافاً مضاعفة^(٧)، وإصداره أوامره - وقد كان يعد الخليفة الحقيقي؛ لانشغال أخيه باللهو والمتع^(٨) - إلى موسى بن بغا بتسيير الجيوش نحو مصر، وعزل ابن طولون عنها^(٩)، وتدبير المؤامرات عن طريق مكاتبته مع جواسيسه إلى قادة جند ابن طولون يستميلهم نحوه، ويغريهم بولاية مصر بدلاً من ابن طولون، واحتضانه لولؤ غلام ابن طولون الخارج عليه^(١٠)، وإفشاله محاولة ابن طولون نقل الخلافة العباسية إلى مصر عن طريق إحضار (المعتمد)

(١) المصدر السابق: ١٣٣.

(٢) سيرة البلوى ص ٩٨، ١٩٨-١٩٩، وغورها.

(٣) السابق: ١٩٩-٢٠٠.

(٤) مثل: الربيع بن سليمان المرادى صاحب الشافعي (المخطوط ٢٦٥/٢-٢٦٦، وماجستير الربيع المرادى وأثره في الفقه الشافعي، لمجد العزيز شرف الدين ص ٥٧)، وبكار بن قتيبة القاضي الحنفي (سير أعلام النبلاء ١٢/٦٠٠-٦٠١).

(٥) حول طبيعة الاستقلال السياسي لدى ابن طولون راجع: (مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين)، للدكتور حسن محمود، ود. سيدة كاشف ص ٣٤، ودكتوراه (حضارة مصر في العهد الطولوني) لحجازي طرولة ص ١٧، وماجستير (الطولونيين في مصر ومفهوم الاستقلال السياسي)، لأحمد السيد شحاته ص ٣٤، وبعدها.

(٦) سيرة ابن الداية: ٨٣، وسيرة البلوى ص ٥٦-٥٧.

(٧) سيرة ابن الداية: ص ٨٩، وسيرة البلوى ٨١-٨٢.

(٨) التنبيه والإشراف: ص ٣١٨-٣١٩.

(٩) سيرة ابن الداية: ٨٨، وسيرة البلوى ٨٥-٨٦.

(١٠) سيرة ابن الداية ١٢٦، وسيرة البلوى ٢٧٦.

إليها^(١)، وإجباره أخاه (المعتمد) على لعن ابن طولون واعتباره خارجاً على الخلافة^(٢). وعلى كل، فقد استطاع ابن طولون الحفاظ على دولته أمام هذه المحاولات المستميتة للنيل منه، فلم يرسل ما أراد الموفق من أموال^(٣)، وخدمه القدر ب وفاة موسى بن بغا وغيره ممن طمعوا في ولاية مصر، ونجح في الإيقاع بكافة الجواسيس الذين عملوا لحساب الموفق^(٤)، ونجح في التظاهر بمناصرة المعتمد أمام طغيان أخيه وحجره عليه، وقهره إياه، وقام بلعن الموفق على المنابر، وقطع اسمه من الخطبة، وجند من العلماء والقضاة والشعراء من دافعوا عن سياسته، وأيدوا فعلته^(٥). ولم يستطع الموفق النيل من دولته حتى وفاته.

٤- مشروعاته الحضارية في مصر:

وهذه هي الثمرة الحقيقية التي جناها شعب مصر، ومثلت في بعض نواحيها الأثر الباقي لدولة ابن طولون حتى بعد انهيارها وتحويلها إلى أثر بعد عين. لقد كان الموفق حريصاً على استنزاف ثروات مصر؛ لتمتلي خزائن الخلافة، ولا يهمه بعد ذلك أن يجوع أو يظمأ أو يعرَى شعب مصر. لكن ابن طولون جعل خير مصر لأهلها. وقد نجح الرجل بدهائه وخبرته ومهارته في القيام بعدد من الإنجازات، التي ظلت مرتبطة باسمه على مر الزمان. لقد انتهاز فرصة أمر المعتمد له بالاستعداد لمجاهمة (عيسى بن الشيخ) في بلاد الشام، وأوامره إلى ابن المدبر بإطلاق النفقات له، حتى كَوْن جيشاً ضخماً، وجدد آلات حربه، حتى بلغ مائة ألف جندي، معهم أفضل الأسلحة في ذلك العصر^(٦). واهتم بالأسطول فعهد به إلى خبراء صناعة الأساطيل، ووفر لهم كافة الإمكانيات اللازمة لإنشاء أسطول مصري يدافع به عن سواحل مصر، ويغزو به الروم عن طريق بلاد الشام^(٧). واهتم ابن طولون بتحسين جزيرة الروضة^(٨) سنة ٢٦٣هـ؛ تحسباً لأي هجوم يُجابه به من قِبَل النيل. واهتم بإقامة المشروعات العمرانية الزاهرة، كإنشاء مدينة القطائع^(٩)، وجعلها

(١) المصدر السابق ص ٢٨٩ - ٢٩٤.

(٢) السابق: ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) سورة ابن الداية، ٨٠، ٨٣، وسيرة البلوي ٥١.

(٤) استطاع ابن طولون بذلك وفطنته، وشدة حذره وتوجسه، أن يوقع بكثير من جواسيس الموفق رغم تنكرهم (راجع سيرة البلوي ص ١٢٢ - ١٢٨).

(٥) السابق: ٢٩٤ - ٣٠١.

(٦) الخطط ٣١٣/١، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ٦٠/١، وبعدها.

(٧) سيرة ابن الداية ٩٤ - ٩٥، وسيرة البلوي ٨٧، ٢٠٨.

(٨) سيرة ابن الداية ٨٨، وسيرة البلوي ٨٦ - ٨٧، والخطط ٣١٩/١، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١/١.

٧٧.

(٩) الخطط ٣١٣/١، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ٦٠/١، وبعدها.

عاصمة لدولته، وإنشاء البيمارستان^(١)؛ لعلاج المرضى، وإنشاء مسجده الذى لا يزال شاهداً على تقدم العمارة وفن البناء فى زمانه^(٢).

ثالثاً - سليات ابن طولون:

أ- طبيعته الانفعالية الحادة، وظلمه وبطشه واستبداده:

لعل أصل ابن طولون التركى كان له دخل فى مزاجه الحاد وطبيعته المتهورة. لكن التدين والصلاح الذى وصف به كان من المفروض أن يهذب طبيعته. وبعد أن صار حاكماً لمصر من المفترض أن يكون حليماً رحب الصدر، لا يعرف قلبه ضعفاً ولا حسداً. لكن الواقع يشهد بتسارعه فى إصدار العقاب الشديد بأنفة الأسباب^(٣). وكان جزء ابن عمار على تمحيصه النصح لابن طولون أن رده إلى السجن ثانية؛ لأنه لا يجوز لمن فى مثل عقلية - رغم حالته المزرية فى السجن - أن يبقى طليقاً حراً^(٤)، فهو خطر على ابن طولون، فينبغي - فى رأيه - أن يند كل ذى موهبة ومكانة؛ حتى لا يتافسه أحد ! ومن المشهور التواتر وجود مطبق (سجن تحت الأرض) يقاسى ويلاته المحبوسون، الذين مات منهم فى حبس ابن طولون حوالى ١٨ ألفاً^(٥). ولا شك أنهم ماتوا من التعذيب، والحر القاتظ صيفاً، والبرد القارس شتاء، ولا شك أن منهم المظلومين، والمصادرين^(٦).

- (١) كلمة فارسية مُترمة بمعنى (المستشفى). (المعجم الوسيط ج١ - ص ٨٢). أما (المارستان)، فبمعنى المستشفى، أو المصحّة. (المرجع السابق ٢/ ٨٩٨). وكان ابن طولون مهتماً بتوفير الأدوية والعقاقير الرئيسة فى مستشفاه، الذى أنشأه سنة ٢٥٩هـ، وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار (سيرة البلوى - ص ١٨٠، وصبح الأعشى ٣/ ٣٤٣، والخطط ٢/ ٢٦٥). ويمكن مراجعة المزيد من إجراءات استقبال المرضى، ونوعيات المعالجات فى المارستان، ووسائل العلاج، ودرجة الاهتمام بالمرضى خاصة الممانين منهم، وتفقد ابن طولون أحوالهم بنفسه فى: (الخطط ٢/ ٤٠٥ - ٤٠٦).
- (٢) يراجع ما يتصل ببناء جامع ابن طولون وفنه المعماري، ونفقاته (٢٠ ألف دينار)، وما فى آخره من أدوية وعقاقير، وطبيب يعالج ما قد يطرأ على المصلين فى الصلاة، وأحداث بنائه (الذى امتد من ٢٦٣ - ٢٦٥هـ) فى (سيرة البلوى ٣٥٠، ورحلة ابن خبیر - ص ٢٦٥/٢ - ٢٦٦).
- (٣) وذلك عندما هم بإيقاع محسنة جلدة السياط على خطيب الجمعة؛ لأنه نسى الدعاء له آخر الخطبة، لولا أن تداركه رحمة من ربه، فعاد إلى المنبر، واعتذر عن النسيان، وبالحق فى الدعاء، فأبدلت له العقوبة دناتير، وهناه الناس على السلامة. (سيرة البلوى - ص ١٥٩).
- (٤) سيرة ابن الداية ١٢٧ - ١٢٨، وسيرة البلوى - ص ٢٨١ - ٢٨٦.
- (٥) مخطوطة تاريخ القضاء: ورقة ٦٤، والوقا بالوفيات ٦/ ٤٣١. ويمكن مراجعة حال السجن، والتعذيب المفضى إلى الموت البطئ فى عهد ابن طولون وغيره بأساليب لا إنسانية؛ تأثراً بالنشأة العسكرية للأتراك، وبهدف إرهاب شعب مصر فى (رسالة دكتوراه المجتمع المصرى فى العصر الطولونى)، لمحمود رزق محمود - ص ٣٩٤ - ٤٠٠.
- (٦) كان ابن طولون - أحياناً قليلة - يظفر فى أمر التجار المسجونين، فيكشف براعهم، فيأمرهم بإطلاقهم. (المكافأة - ص ٨٩ - ٩١).

لقد حكم ابن طولون دولته حكماً بوليسياً بغيضاً قائماً على التحسّس في كلّ شيء^(١)، وإحصاء أنفاس النّاس^(٢)، وإلقاء الرّوع في قلوبهم، حتّى كان النّاس يخيفون به الصّبيان على حدّ تعبير البلوى^(٣). ولا أَسْتَعِد أن يكون ذلك الجفاء والقسوة والغلظة وسوء الظنّ، حتّى تجاه كبار غلمانهم وقواده وربما أولاده، كان له دُخُل في خروج ابنه (العبّاس) عليه، تؤيّد جماعته من كبار كتّاب وقواد ابن طولون^(٤). ولا أَسْتَعِد أن يكون خروج لؤلؤ غلامه بالأموال والجيش، وانضمامه إلى (الموفق)^(٥) علامة على ما كان يعتور هؤلاء المقرّبين من فزع رهيب، أن ينالهم منه أذى شديد، فكانوا يهربون عند أول بارقة أمل تلوح لهم.

وإذا كنّا ذكرنا من قبل رعايته للعلماء واحترامه إياهم، فإنّه - في الوقت نفسه - كان لا يتحمّل نقداً من أحد، ولو كان من بعض الصّوفية^(٦)، وكان يستمع إلى وشايات البعض العلماء ولا يتورّع عن حبسهم^(٧)، ولا يرضى منهم إلا المداراة والتأييد^(٨)، فإذا جاهاه أحدهم

(١) يمكن مراجعة نماذج كثيرة من تحسّسه حتّى على أقرب معاونيه، وأخلص غلمانهم في (سيرة البلوى ص ١١٥-١١٨، ١١٩-١٢٢، ٢١٠).

(٢) وظلّ ذلك قائماً حتّى وهو في مرض وفاته، يقوم بتنفيذ سياسته كتّابه ومعاونوه (السابق ص ٣٣٤-٣٣٦).

(٣) السابق: ٧٢.

(٤) يمكن مطالعة تفاصيل خروج العبّاس، ودور القادة والكتّاب المحرضين له على هذا الخروج، وسر التماهى في العصيان إلى آخر الشّروط في: (المصدر السابق ص ٢٤٤ وما بعدها، وماجستير (برقة وطرابلس من الفتح العربي حتّى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر)، لصالح مصطفى مفتاح ص ٩٧-١٠١).

(٥) حول الأسباب السياسيّة والاقتصاديّة لخروج لؤلؤ على سيده، الذي عامله باستبداد، وظروف وأحداث ذلك الخروج، راجع: (سيرة ابن الدّاية ١٢٦، وسيرة البلسوى ٢٧٦، وأحمد بن طولون للدكتورّة سيده كاشف ص ١٠٣ وبعدها، وذكرناه (حضارة مصر في العصر الطولوني) لطراوة ص ٣٧-٣٨).

(٦) بل يُحوّل صراحته في الحقّ والنقد إلى اتهامات تنقلب عليه، ويجمع من النّاس من يشهد عليه، وتكون العاقبة جلده بالسّياط، والطواف به، وحبسه في المطبق. (سيرة ابن الدّاية ص ١٠٩-١١٠، وسيرة البلوى ص ٢١٤-٢١٦).

(٧) وحبس ابن بنان الصّوفي؛ لأنّه أنكر عليه بعض الأشياء (المقفى ٤٩٦/٢-٥٠٠، وحسن المحاضرة ٥١٢/١-٥١٣). وحدث ذلك مع الفقيه الشافعي كَنَز الحادِم لما وشى به المالكيون، فحبسه في مكان قدر مدّة سبع سنين، ولم يُطلق سراحه إلا بعد وفاة ابن طولون، فأقام الرجل سبع سنين أخرى بالإسكندرية، وأعاد صلواته خلال فترة حبسه، ثمّ رحل إلى بغداد. (مختصر تاريخ دمشق ٢١/٢٢٣-٢٢٤، وطبقات الشافعية للسبكي ٣٤٥/٢-٣٤٦، وطبقات الإسنى ٢/٣٤٤).

(٨) مثل: الفقيه رئيس المالكية في مصر ((محمد بن إبراهيم بن زهبا الإسكندري)) المعروف بـ (ابن المواز)، الذي ولد سنة ١٨٠هـ، وتوفّي ٢٦٩هـ. وخرج مع ابن طولون إلى دمشق، لما قدّمها؛ لخلع الموفق (سير النبلاء ٦/١٣، والمقفى ٨٧/٥). ويبدو أن ذلك كان قبل وفاته بيسير. وقد ذكر البلوى (سيرته ص ٢٩٤): أن جميع الفقهاء وقضاة أعمال ابن طولون، لما استفتاهم في خلع الموفق، أفتره إلا بكار بن قتيبة. وهذا يعني أن ابن المواز ممن وافق (على سبيل المداراة فيما أُرِجِح)، فهو كان قد قارب التسعين، ولا يبقو على حبس ابن طولون إياه. والظاهر أنّه ندم على الموافقة، فاعتزل النّاس ببعض حصون الشام أواخر عمره، حتّى مات بدمشق (رحمه الله). (سير أعلام النبلاء ٦/١٣). ومن ثمّ، فلا يصحّ ما ورد في بعض الروايات من أنّه كان في مصر، وأنّ ابن طولون أرسل -

محفوظ معارض، قلب له ظهر المحن، وأمر بتقييد حريته (كما فعل مع القاضي بكار^(١)).

هذه الشخصية المستبدة المتعجرفة كان يكفيها في بعض المواقف أن يستسلم لها عدوها، وأن يقر لها بخطئته، ويمرغ الوجه ويعفره في التراب، عاضاً أصابع الندم على ما بدر منه من عداوة سافرة؛ حتى يصفح عنه ابن طولون، ويعفو عنه، ويُقيل عثرته^(٢). المهم أنه لا يُطبق أن يقف أمامه أحد، أو يخاشنه. أما من استسلم له ولآيته، وأظهر الذلة والمسكنة والخضوع له، قبله ورضى عنه.

ب- طرقه المتوترة للحفاظ على منصبه:

الأصل في صاحب المنصب أن يكون جده واجتهاده وإخلاصه العامل الأساسي لاحتفاظه بمنصبه. وفي زمن ابن طولون، وفي عهد الخليفة المعتمد الضعيف اللاهي كانت هناك مراكز قوى عديدة، تتدخل لدى الخليفة لحمله على تولية فلان، أو عزل آخر. ومن هنا كان لا بد لابن طولون أن يكون على صلة حسنة قوية بهذه القوى الفاعلة المؤثرة في قرار الخليفة، ولما كانت التقارير تُرفع من داخل مصر (ابن المدبر، وشقير الخادم)، ومن خارجها (ماجور التركي)^(٣)، تحذر الخلافة من نية ابن طولون للاستقلال بمصر؛ فإن ابن طولون - وهو أشد الناس حرصاً على منصبه - كان يتخذ من الأساليب الشرعية وغير الشرعية ما من سبيله صد القادة عن قبول ولاية مصر بدلاً منه^(٤)، بالإضافة إلى تقديم الرشاوى الطائلة إلى بلاط الخليفة^(٥)، إلى جانب ما يُرسل سراً للمعتمد؛ لأجل تثبيتته في حكم مصر. واعتقد أن ابن طولون لو حَسَّنَ علاقته

- إلى ابنه حمارويه أن يبعث إليه بعدد من فقهاء مصر إلى دمشق، ومنهم: بكار، وابن المواز، وأنه من بين أحد عشر فقيهاً أُرسلوا إليه، لم يجبه ثلاثة منهم (بكار، وابن المواز، وفهد بن موسى). (المقفي ٨٨/٥). فالرأى الأول أدق وأصح، ونُقل عن ثقات، خاصة إذا علمنا أن الأخير - وإن كان يُنسب لآخر تلامذته - إلا أنه - في الغالب - لم يصبحه أواخر حياته؛ لأنه لا يعرف - كما روى عنه، على سبيل القطع - مكان، وزمان وفاة أستاذه (فمرة يقول بوفاته سنة ٢٦٩هـ بدمشق كما رجحنا، ومرة يقول: قيل: توفي بالإسكندرية ٢٧١هـ). وبذلك نضع روايته، وروايات الآخرين القائلين بوفاته ٢٨١هـ (العمر، للذهبي ٤٠٤/١)، وذلك قبل أن ينقح ذلك الرأي، وبصوته في آخر كتبه: سير أعلام النبلاء، و(مرآة الجنان ١٩٤/٢).

(١) انقلب على بكار بن قتيبة الفقيه القاضي الحنفى؛ لرفضه مجارته في لعن الموفق، وخَلَعَه من ولاية العهد. (تاريخ دمشق ٢٤٢/١ - ٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ٦٠٢/١٢ - ٦٠٣).

(٢) كما هو الحال الذي كان يتبنى ابن طولون حدوثه من جانب (سيما الطويل) خلال مجارته ابن طولون بالشام (سيرة البلوى ص ٩٤ - ٩٥)، ومع ابنه العباس (المصدر السابق) ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) سيرة ابن الداية ص ٨٣، وسيرة البلوى ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٦٠ - ٦٢.

(٥) نعت بذلك ما دفعه من رشاوى إلى (بارجوخ)، و (الحسن بن مَخلَد)، ليتوسطا له عند الخليفة ببقائه والياً على مصر (السابق ٥٧).

بالموفق، ونجح في إقناعه بولائه الصادق للخلافة، وقدم له معونات قيّمة في حربه مع الزنج، لأيدته الموفق، ولضمن له منصبه، ولم يحتج لسلوك السبل غير المشروعة.

ج- مجالس لهوه ومناذمته:

وهذا جانب من جوانب الضعف البشري، الذي يتتاب بعض الحكام، ومنهم: (أحمد بن طولون). وقد وردت أكثر من رواية تاريخية^(١)، تفيد حضور ابن طولون بعض مجالس الفناء والشراب (شراب النبيذ) مع ما يقع في هذه الجلسات من تيسُّط واستخفاف وسُكْر وعريضة، واندفاع إلى الرقص والتصفيق؛ نتيجة شدة الطرب، وتمايل وانتشاء مع إيقاع الألحان.

وفي تقديري أن هذه سلبية من سلبيات ابن طولون تؤخذ عليه، وتتناقض مع الجندية والوفار والالتزام والانضباط، الذي يجب أن يتسم به الحاكم، فضلاً عن أن يكون حرباً على كل مظاهر المجون والخلاعة في دولته.

د- فشله في ميدان جهاد الروم:

لا شك أن أحمد بن طولون لم تكن أطماعه تقف عند حد السيطرة الكاملة على شئون الحكم في مصر، وإنما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى بلاد الشام أيضاً؛ بحجة جهاد الروم المعتدين على سواحل الشام، وحماية الثغور الإسلامية هناك من غاراتهم^(٢). وقد تقياً لأحمد بن طولون الخروج بجيوشه إلى الشام أكثر من مرة^(٣)، لكننا لم نقف على ما يفيد جهاده البيزنطيين. وكل ما ورد أنه وافق على عقد هدنة مع ملك الروم، وأصدر توجيهاته إلى عامله على الثغور باستغلال فترة الهدنة في ترميم الحصون، وتحصين الثغور؛ تحسباً لأي هجوم مفاجئ؛ فالروم لم تعقد الهدنة إلا مضطرين (كوجود خلافات داخلية عندهم مثلاً)، فينبغي الاستفادة من تلك الهدنة الموقته بما فيه مصلحة المسلمين^(٤). ووردت أخبار - كذلك - تفيد

(١) سيرة ابن الداية ص ١١٢، ١٢٣، وسيرة البلوي ٢١٧-٢١٨.

(٢) خاصة أن له حصة في شئون المراقبة بالشام (في طرسوس تحديداً) في بدايات حياته العسكرية.

(٣) خروج ابن طولون إلى الشام بعد موت ماجور سنة ٢٦٤هـ، وبالتحديد خرج في شهر شوال، واستخلف ابنه العباس ومعه الواسطي على مصر، وأخضع بلاد الشام واحدة بعد الأخرى (وقتل سيما الطويل المتغلب على أنطاكية)، وانتهى إلى طرسوس، وفكر في غزو الروم، لكن خبر خروج ابنه العباس اضطره إلى العودة سريعاً إلى مصر. (سيرة البلوي ٩١-١٠١). والمرّة الثانية التي خرج فيها إلى الشام كانت ٢٦٩هـ للقاء المعتد، وتبعها فشله في استخدامه إلى مصر، وأحداث لمن الموفق بالشام، ثم الصدام مع بازمان الخادم المتغلب على طرسوس، وقتل أحمد في مواجهته، ومرضه، ثم عودته إلى مصر (السابق ٢٨٩-٣١٢).

(٤) سيرة ابن الداية ٩٨، وسيرة البلوي ١٠٩.

اتفاقه مع الروم على تبادل الأسرى^(١). ومعلوم أن ابن طولون فشل سنة ٢٦٩هـ في آخر رحلاته إلى الشام، في القضاء على نفوذ يازمان الخادم، بل فشل في دخول نهر طرسوس، ولم يحسن تقدير الموقف، فهبط عليه وعلى جنده صقيع الشتاء الفارس؛ مما أتى على كثير من جنده ودوابه، واضطر للرحيل إلى مصر عليلاً علة الموت^(٢). وهكذا، فشل الرجل فشلاً ذريعاً في تثبيت أقدامه في بلاد الشام، فضلاً عن الوحدة معها ضد الروم.

هـ- عدم تخطيط ابن طولون لمستقبل دولته:

من خلال متابعة سيرة هذا الأمير، ألفيناه معتداً بنفسه، مستبداً في تصرفاته وسياسته، لا يمرؤ أحد من أعوانه (ولا الواسطي وزيره)^(٣) على الظهور بجانبه، ولا يُبقى هو على ذى كفاءة يلعب دوراً إلى جانبه. ومن هنا كان المعتمد الأساسى عليه في كل صغيرة وكبيرة في البلاد. وكان من المنتظر - على الأقل - أن يحسن إعداد ولده الأكبر العباس؛ ليتولى المسؤولية من بعده، ويبدو أن ابن طولون بذل بعض الجهد في هذا السبيل^(٤)، لكنه لم يكن كافياً من جهة، وكان يشوبه التأنيب والتهديد والقسوة من جهة أخرى، فكان من أمر العباس ما كان؛ مما خَفَضَ أسهمه عند والده، وصرف نظره عن توليته الأمر من بعده، واتجه إلى أخيه الأصغر الذى لم تكن النية منعقدة - أساساً - على توليته. صحيح أن ابن طولون اختصه بالنصح والتوجيه أواخر عهده بالدينيا^(٥)، لكن ذلك ما كان ليكسبه الخبرة اللازمة لحكم بلد مهم كمصر، واسترداد السيطرة على بلاد الشام. ولذلك حملت سياسة ابن طولون في طياتها عوامل أغيارها، فكان سفه حمارويه، وضعف حكام بنى طولون من بعده، فاهارت الدولة سريعاً سنة ٢٩٢هـ.

خلاصة الراى عندى:

١- أن الأمير أحمد بن طولون له حسناته كما أن عليه سيئاته، ولستُ ممن يهاجمونه على

(١) وهذا يعنى وجود حملات بحرية إسلامية من عمال الثغور التابعين لأحمد بن طولون ضد الروم. ومن ذلك: ما وقع سنة ٢٦٤هـ من هجوم أمير الثغور عبد الله بن رشيد بن كاوس على الروم وانتصاره، لكنه وقع في كمين فأُسِر. وفي سنة ٢٦٥هـ رَدَّه ملك الروم مع بعض الأسرى، وهدية لابن طولون. (تاريخ الطبرى ج٩ ص٥٣٣-٥٣٤، ومخطوطة مرآة الزمان - مصورة عن نسخة أحمد الثالث) ج١٠ ورقة ٣٥، وتاريخ الإسلام ١٣/٢٠-١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٢٢/٣).

(٢) سيرة البلوى ٣١٠-٣١٦.

(٣) كان الواسطي -على قربه من ابن طولون - شديد الخوف، والحذر منه (السابق ٢٨٥).

(٤) مثل: التوجيه العملى الذى حاول فيه تأديب ابنه العباس، وتخليصه من عاداته السيئة (التسرع والطيش، وطلب الأموال من الناس؛ لقضاء حوائجهم). (سيرة ابن الداية ص١٠٨-١٠٩، وسيرة البلوى ٢١٢-٢١٤).

(٥) المصدر السابق: ٣٣٩-٣٤٠.

طول الخط، فينسبون إليه كل نقیصة، ويسلبونه كل ميزة^(١)، وكذلك لستُ مع أولئك الذين يرونه دون مستوى القيادة^(٢)، بل أرى أنه يتمتع بصفات الحاكم الكفء، لكنه انحرف بكفاءةه ومواهبه، فأساء استخدامها؛ مما كان له أسوأ الأثر في دولته من بعده، وفي شعبه.

٢- أن أحوال مصر الاقتصادية والأمنية في عهد ابن طولون أفضل بكثير من عصور التبعية للخلافة العباسية. ولذلك فإن لا أعول كثيراً على آراء الذين يتعنون عليه معاملته الموفق معاملة النذ للند، وتصرفه في مصر تصرف المستقل، الذي لا يتبع خلافة تستطيع عزله^(٣)؛ لأن الخلافة التي يدافعون عن متوليها (المعتمد) كانت في أضعف حالاتها. وماذا ينتظر من خليفة لاه، لا يفیق من متعه وملذاته؟ وماذا ينتظر من أخيه المشغول معظم وقته بحرب الزنج (٢٥٥ - ٢٧٠هـ) ١٩

٣- في نظري سيئات ابن طولون ترجح حسناته. ويكفي ما ألحقه بالناس من هلع وخوف وجبن، وما حاق بالآلاف من سجن، وتشريد، وقتل^(٤). إن الناس لم يحبوه، وإنما خافوه. ولا يصح أن تُخدع بمظاهر كاذبة^(٥)، أو نسئ تفسيرها^(٦).

٤- هناك تناقض واضح بين عدد من صفات ابن طولون وسلوكياته (يجلس للمظالم ويرتكب المظالم في آن، ويبدو في صورة مارد جبار، ومرة أخرى يلبس إهاب الإنسان الوداع

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس ص ٧٢.

(٢) السابق: ص ٧١.

(٣) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس: ٧٣.

(٤) راجع أحد نماذج القتل والنسف الشبعة التي ارتكبتها ابن طولون، وأجر وزيره الواسطي على التحمس على أصحابه، فكان سباً في حنفهم. (البلى: سيرة ابن طولون ص ٢٢٦ - ٢٣٠). وقد يتعلل البعض قائلاً: هذه هي السياسة! والحق أن قتل برئ واحد ظلماً يهدم تاريخ أى حاكم، ويلطخ تاريخ أية أمة رأى أفرادها الظلم وسكتوا عنه، مهما خلف ذلك الحاكم من آثار التمدن والحضارة المادية. وقد ردّ ابن الجوزي ردّاً رائعاً على - من يحملون جرائمهم على شناعة السياسة قائلاً: "ومن أعظم خطا السلاطين والأمراء نظرهم في سياسات متقدميهم، وعملهم بمقتضاها من غير نظر فيما ورد به الشرع. ومن خطيئهم تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة؛ بأن الشرع هو السياسة لا عمل السلطان برأيه وهواه. ووجه خطيئهم في ذلك أن مضمون قولهم يقتضى أن الشرع لم يرد بما يكفى في السياسة، فاحتجنا إلى تنمية رأينا. فهم يقتلون من لا يجوز قتله، ويقمعون ما لا يحل فعله، ويُسْمُون ذلك سياسة" (المنتظم ١١٧/١).

(٥) كحروج الرعية على مختلف طبقاتها ونحلها (مسلمين، نصارى، ويهود) يضرعون إلى الله، ويحملون كتبهم المقدسة، ويضعون إلى الله بالدعاء لابن طولون بالشفاء، وذلك في مرض وفاته (سيرة البلى ص ٣٣٠ - ٣٣١)، وكذلك مواكب جنازته الحارة المثالة (السابق ص ٣٤٤ - ٣٤٥).

(٦) أما عن الدعاء له، فهو بأمر مباشر منه إلى قاداته، فنقلوا الأمر بدورهم إلى الرعية، فهل لها إلا أن تسمع وتطيع. ثم إن عامة الشعب المصرى ساذج، وسرعاناً ما ينسى الإساءة. وأما مواكب الجنازة، فهي تشبه الجنازة الرسمية والعسكرية اليوم، والحديث فيها كان عن غلمان ابن طولون ورجاله وقادته ونسائهم. وذكر فيها العامة على استحياء، ولعلمهم خرجوا أداء لواجب العزاء، وما في القلب بعلمه الله.

اللطيف^(١)، شأنه في ذلك شأن كثير من الحكام المستبدين. ويمكن تفسير هذا التضارب الموجود الذي لا يُنكر، ويحتاج إلى تفسير، من وجهين اثنين كلاهما يكمل الآخر:

الأول - أن تقواه التي اشتهر بها ظاهراً، لا يُعبّر عنها سلوكه ولا تاريخ حياته؛ مما يحملنا على القول بعدم صدقه فيها. وإنما احتفى بها ظاهراً؛ ليجلب تعاطف شعبه الساذج معه، ولحماية عرشه^(٢).

الثاني - أنه من أولئك الحكام الذين يتصفون بالعاطفة الدينية، ويهتمون بشئون العبادة، ما دامت خارج شئون الحكم والسلطان. أما في سبيل الحفاظ على مناصبهم، فإنهم لا يتورعون عن الجرائم وارتكابها. فابن طولون يجمع بين الإحرام والتقوى، وبين الشر الخالص والخير الخالص، دون تعارض، ودون أن يُحسّ هو بما يرتكب من جرائم^(٣).

(منهج ابن الداية والبلوى في سيرة أحمد بن طولون)

أولاً - من حيث قدرة كليهما على بيان منهجه في كتابه:

لا ريب أن أي مؤلف معتبر يضع لنفسه هدفاً يسعى إلى تحقيقه من وراء كتابه، وقد يذكر بعضهم غرضه من التأليف صراحة في مقدمة الكتاب قبل الولوج إلى موضوعاته، وآخرون لا يصرحون بذلك، تاركين إياه لذكاء القارئ. وقد سلك ابن الداية الطريقة الأخيرة في مؤلفه عن (ابن طولون)، فلم يذكر مقدمة لكتابه^(٤)، تاركاً إيانا نحن - الباحثين - نستنبط أهداف ومقاصد كتابه^(٥) من خلال طريقته التي عرض بها مادته التاريخية.

(١) مقال: (سيرة أحمد بن طولون للبلوى)، لعبد الحميد العبادي - مجلة (كلية الآداب - جامعة فواد الأول) - المجلد الأول/١٩٤٣م ص ٨.

(٢) د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون ص ٢٥٩، وبعدها.

(٣) د. حسين مونس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥١.

(٤) لعل ابن الداية وضع مقدمة موجزة، تتفق مع طبيعة كتابه المختصرة لكن ابن سعيد صاحب (كتاب المغرب)، الذي احتفظ لنا بسيرة ابن الداية كاملة من حيث المتن، ارتأى أن يكتفى بمقدمته هو عن دولة بني طولون دون أن يعرض مقدمة ابن الداية، إن وجدت.

(٥) أعتقد أن أغراض كتابي ابن الداية والبلوى متقاربة (وقد ظهر في القرن الرابع الهجري)، فلعلهما أرادا رسم صورة نموذج طيب لحاكم قدير، حظيت مصر في أيامه بالاستقرار والرخاء؛ كي يسعى الناس إلى من يعيد لمصر استقرارها، الذي فقدته خلال فترة ما بين المصريين (الطولوقي، والإخشيدى). وبالإضافة إلى ذلك فلعلهما في تتبعهما حياة هذا القائد من البداية حتى النهاية - بإيجاباتها وسلباتها - يقدمان للناس العبرة والعظة، فلهذا يرجد من بين أبناء مصر من يظطلع بقيادة وطنه، مستفيداً مما مر به ابن طولون من تجارب، فيفيد من حسناته، ويتجنب زلاته.

أما البلوى، فقد وضع لنفسه مقدمة يبين فيها ما يلي^(١):

أ- أنه كتب كتابه هذا؛ تلبية لرغبة رجل عظيم عزيز لديه^(٢)، طالع سيرة ابن الداية، فلم تقع منه الموقع الذي كان يتمنى، ولم تحقق المعنى الذي إليه قصد، فهي سيرة موجزة، وهو يريد كتاباً أكبر منه شرحاً، وأكمل وصفاً، ثم إن ابن الداية لم يأت بجميع أخبار (أحمد بن طولون)، ولا أخبار ابنه (حمارويه)، رغم ما كان من جميل أفعاله، وحسن آثاره. ولم يأت بأخبار سائر إخوته بعد. فهو - إذا - يريد كتاباً عن سيرة (آل طولون)، لا (ابن طولون) وحده.

ب- أن هذا العظيم أخذ على ابن الداية في سيرته أنه لم يراع ترتيب الأحداث وتسلسلها ومنطقيتها على النحو الصحيح، ففي كتابه خلط في الأخبار، فهو يشرح قصة، ثم يرجع إلى ما قبلها قبل إكمالها، وكذلك يأتي برواية تدل على ذكاء عقل ابن طولون وفطنته، ولطيف حسه، ثم يأتي بضدها. وبذلك خالف طريقة العلماء في تدوين الأخبار والتأريخ للأحداث.

ج- بناء على ما وجه من نقد إلى كتاب ابن الداية، بذل البلوى جهده لتلافى سلبات سلفه، فذكر أنه لم يدع من أخبار جماعتهم (أى: آل طولون) شيئاً يدخل في التاريخ، ويتأدب به، ويستحسن ذكره إلا ذكره، وأنه جعل ذلك مرتباً على أبواب، وجعل محتوى ومضمون كل باب متفقاً مع العنوان الذي ذكره له، وعنون له به، فلم يخلط بالباب ما ليس داخل تحت.

وهكذا، كان ابن الداية أستاذاً ورائداً لكتابة السير التاريخية، وأنه وقعت منه هتات، وأن البلوى أتى لاحقاً له، فحاول سد الثغرات، وعلاج السلبات. فهل وفق البلوى بما وعد به من قواعد منهجه ؟ ذلك ما يتضح في الصفحات التالية.

ثانياً - من حيث الإيجاز والتفصيل، وما يترتب عليهما من غموض، أو وضوح في العرض التاريخي:

هذه القضية المنهجية نعرض لها؛ لأنها تقفنا على أمرين:

- أ- التحقق من مدى صدق منهج البلوى، الذى صاغه في مقدمته، وهل نجح - فعلاً - في الإتيان بما تفاضى عنه ابن الداية، وفصل ما أجمله ؟
- ب- الوقوف على العلل الكامنة وراء طريقة هذا أو ذاك، وربطها بموضوع الرواية من جهة ومنهج كل منهما من جهة أخرى.

(١) سيرة البلوى ص ٣١-٣٢.

(٢) سبق أن رجحت أن تلك الشخصية المهمة هي شخصية (الوزير على بن عيسى بن الجراح).

بعد البحث والتحقيق في روايات كليهما تبين لي أنها من حيث الإنجاز والتفصيل، والإتيان والإهمال كما يلي:

١- روايات ذكرها كلاهما، لكن ابن الداية أجملها فغمضت، والبلوى فصلها فوضحت:

مثال ذلك: الرواية الذي ذكر فيها ابن الداية أن ابن طولون خرج متزهاً يوماً، فرمى بقوسه حماماً فصرعه، فإذا به يجد في أصل جناحه رقعة فيها ما نصه: "قد استراح مولاي. خذوا حذرکم، واستروا، وكل مالکم معکم، فقد عصى الأمير لؤلؤ، وقيل الخلع". فأمر ابن طولون في تلك الساعة بإحضار خادماً لشقرون جارية لؤلؤ، كان يتحرك، فقال: "من كان منكم عليلاً في عسكر لؤلؤ؟ ولمن تسرح حمام؟ قال: ليس في دارنا طائر يسرح به. فوكل بعبيد الله بن سليمان^(١)".

هذه الرواية تفيد خروج لؤلؤ على مولاه، وهربه بالأموال، وما وجد في جناح الطائر هو رسالة تفيد وجود مريض ما عوى. ولا نفهم سر القبض على عبيد الله هذا. وهكذا أدى الاختصار الشديد إلى الغموض.

أما البلوى، فقد عرض لمضمون القصة ذاته، لكنه أورد من الإضافات ما جلي به الغموض، فتذكر روايته أن ابن طولون لمّا وقف على نص الرسالة، الذي يحدد المولى المستريح (مولاي محمداً)، ولعله (محمد بن سليمان كاتب لؤلؤ، وعرضه على عصيان ابن طولون)، وكذا يفيد القدر بآبن طولون في قول: "وارفعوا كل شيء، فقد عصى الأمير لؤلؤ؛ أمر ابن طولون من وقته بإحضار خادماً، كان على مخلصي لؤلؤ (أى: ممتلكاته التي تركها في مصر)، وسأله ابن طولون: من منكم له حمام هدى؟ وهذا التساؤل أوضح من تساؤل رواية ابن الداية: ومن لكم عليل في عسكر لؤلؤ؟ وهو أدق وأوضح من رواية ابن الداية (فهو يبعد التهمة عن المسئول هنا). وكان الجواب: ليس في دارنا - يا مولاي - حمام هدى، ولكن لعبيد الله بن سليمان أحنى كاتبنا محمد طور تسرح، وقد كان مغموماً بعلّة أخيه (محمد بن سليمان). فأمر مولاي (ابن طولون) بالقبض على عبيد الله بن سليمان من ساعته^(٢)".

هكذا، اتضح لمن هذا الحمام؟ ومنّ ذا أرسل الرسالة؟ ومن محمد العليل؟ ولم كان القبض على عبيد الله هذا؟

(١) سيرة ابن الداية، ١٢٦.

(٢) سيرة البلوى ٢٨٠.

٢- ما أجمله البلوى، وفصله ووضحه ابن الداية:

وهذا على غير ما اعتاد البلوى. ومثاله^(١): أنه في الوقت الذي فصل فيه البلوى في أوصاف الغلمان، الذين يتقوى بهم ابن المدبر، ويكتسب عن طريقهم الهبة، أكثر مما أورده ابن الداية بهذا الشأن، إذا بنا نجد البلوى يكفى في ذكر هدية ابن المدبر لابن طولون لما دخل مصر، برصد قيمتها (١٠ آلاف دينار) دون تفصيل أوصافها وأنواعها كما فعل ابن الداية^(٢). والحق أن البلوى فصل حيث يجب التفصيل، فمناط اهتمام ابن طولون هو هؤلاء الغلمان؛ ولذلك فصل البلوى في ذكر أوصافهم، فهم الذين طلبهم ابن طولون بعد ذلك، فاعتز بهم، وسلب ابن المدبر هيته. أما ما أهداه إليه ابن المدبر فليس محل اهتمامه وقام برده، فلا يستأهل التفصيل والذكر مع رجل يستهدى أشياء معينة، فقطن إلى ذلك ابن المدبر، وأحس بخطره عليه ابتداء من هذا الموقف.

٣- روايات تفرد بذكرها البلوى:

توجد نماذج عديدة دالة على اهتمام البلوى بإيراد روايات مفصلة جديدة ذات أبعاد مهمة، مثل: الرواية التي تذكر مدى قرب الواسطي من ابن طولون، حتى إنه كان إذا عاتبه ضربه بيده، مما يعد تشريفاً للواسطي؛ إذ يعامله ابن طولون كبعض ولده^(٣). وفي الوقت نفسه يورد روايات عن النظام الجاسوسي، الذي ابتدعه ابن طولون في مصر؛ ليضمن لنفسه الأمان، حتى جعل أقرب غلمان الواسطي جاسوساً على الواسطي نفسه لصالح سيده ابن طولون؛ مما جعل الواسطي يزداد هلعاً وحذراً لما اكتشف ذلك^(٤). وكذلك الروايات الدالة على ابتداعه نظام التجسس على المسجونين في حبسهم، ورصد ما يقولون عليه عن طريق عيون داخل السجن^(٥).

٤- روايات تفرد بها ابن الداية:

معلوم أن ابن الداية تَوَخَّى الإيجاز في كتابه، لكن مبوله الأدبية شَدَّتْه لذكر رواية عن العجوز أم عقيل، التي أتت تنظلم إلى ابن طولون، فأعجب بفصاحتها وظرفها^(٦). فلعل البلوى رأى أن إيراد غير هذه الرواية أولى، فكتابه مملوء بأخبار دالة على عدل ابن طولون وسماع المظلومين. وأورد ابن الداية رواية أخرى لم يذكرها البلوى، فيها يعاقب ابن طولون أبا أيوب صاحب

(١) وهناك مثال آخر عن هذه الحالة، يتعلق بحال الواسطي، والمستعين، وابن طولون لما قدم سعيد الخاجب لقتل المستعين، وما قصته ابن الداية من نتائج رفض ابن طولون قتل المستعين. (سيرة ابن الداية ٧٥، والبلوى ٤١-٤٢).

(٢) سيرة ابن الداية ٧٧، ٧٨، وسيرة البلوى ٤٣-٤٤.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٣-١١٤. (٤) المصدر السابق: ص ١١٤-١١٥.

(٥) المصدر السابق: ص ١١٥-١١٧. (٦) سيرة ابن الداية: ص ١٠٣.

الخارج؛ لاستجابته لابنه العباس لما شق عصا الطاعة، وأخذ أموالاً من التجار لحساب العباس^(١).
والحق أن هذه الرواية تلقى ضوءاً جديداً على تداعيات خروج العباس على أبيه، والعقوبات
التي أنزلها ابن طولون بالمشاركين - ولو بالسلبية - في حادث خروج ابنه العباس عليه.
وهكذا، يمكن القول بأن الغالب تفصيل البلوى في رواياته، وإيجاز ابن الداية. وكلاهما له غرض
وفلسفة، تحكم طريقته في العرض التاريخي حسب موضوع الرواية، ومنهجه العام الذي يتوخاه.

ثالثاً - من حيث القدرة على توظيف اللغة والأدب تاريخياً:

تمتع كل من: (ابن الداية، والبلوى) بمقدرة لغوية وأدبية عالية، استطاعا حسن توظيفها في
العرض التاريخي للأحداث. فابن الداية كان يستخدم لفظة (السلطان)^(٢)، ويعبر بها عن الخليفة
العباسي؛ إشارة إلى ضعف الخلفاء في عصره، وازدياد نفوذ الأتراك (خاصة عهدي المستعين، والمعتز).

وكان يستخدم لفظة (الحَضْرَة)^(٣) تعبيراً عن عاصمة الخلافة (سواء بغداد، أم سراً من
رأى). وهو يشير بذلك إلى أهميتها في تواجد رجال البلاط بها من أترك وغيرهم حول الخليفة
العباسي، وتأثير قراراتها في مصر، ومكانة ابن طولون فيها. ولفظة (تَعَالَم)^(٤) التي أفادت أن
الأتراك أعلم كل منهم الآخر، وتبادلوا الحديث عن مَكْرُمات ومآثر ابن طولون، وشهامته،
ورفضه قتل الخليفة المستعين بنفسه. فهي تعني أنه صار مَحَطَّ الأنظار، ومثار الإعجاب
والإكبار، حتى صار يُؤْتَمَن على (الأسرار، والأموال، والفروج)^(٥).

أما البلوى، فقد كان بارعاً في استعراض ثقافته الشعرية المرتبطة بالحدث التاريخي الذي
يشرحه. وفي كتابه أمثلة كثيرة على ذلك، منها:

أ- أن ابن طولون لما تَوَجَّه إلى الشام بعد وفاة ماجور التركي، لقي بها (أحمد بن
وصيف) بدمشق، حيث كان المهتدي نفاه إليها، وقد انضم إلى ابن طولون هو وجماعة قواد
ماجور. وقد عَرَفَ به البلوى، فذكر أنه (وصيف الكبير التركي)^(٦). الذي يقول فيه الشاعر،

(١) المصدر السابق: ١٢٥.

(٢) السابق: ٧٧، ٨٠.

(٣) سيرة ابن الداية: ٧٨، ٨٣. (٤) السابق: ٧٤.

(٥) السابق. ويلاحظ في هذا التعبير دقة في الأداء اللغوي، فالراء تخط السر القولي، ثم يترقى عند الناس فيأتمونه على
أموالهم، وأحراً يصل إلى قمة الثقة - (حفظه وصيانته الأعراس). وهذا يدل على أن ابن طولون بلغ الغاية والمثالة
السامية عند الأتراك.

(٦) الصواب: أن يقول: هو ابن وصيف الكبير التركي.

وفي بُعَا أَبِي موسى^(١):

خليفة في قفص بين وصيف وبُعَا
يقول ما قال له كما تقول البُعَا

ثم قال البلوى: " والخليفة الذي قيل هذا فيه هو المستعين بالله؛ لأنه كان يؤثرهما جداً، ويقدمهما، ويفضلهما، ويقول برأيهما^(٢)."

أ- واستشهد بشعر كثير؛ كى يُعمق حقيقة نفسية تاريخية، عرفها عن أحمد بن طولون من واقع تجارب وبحريات حياة هذا الأمر. لقد رفض سيما الطويل الاستسلام لابن طولون والاعتذار إليه، حتى عرّض نفسه للقتل. قال البلوى معلقاً: وأحمد من طبعه أن من لا يئنه واستسلم إليه، رأى منه كل ما يحبه، وبلغ منه كل ما يريد. ومن خاشته أو قاومه، لم يطقه، وكافاه بما يستحقه، كما قال الشاعر:

وكالسيف - إن لا يئنه - لأن مثته وحذاه - إن خاشته - خشيان^(٣)

رابعاً - من حيث القدرة على ترتيب الأحداث وتسلسلها المنطقي، وتنظيم المادة العلمية:

هذا العنصر المنهجي المركب على درجة كبيرة من الأهمية؛ لأنه ذو صلة جد وثيقة بفهم النص التاريخي. إننا نبحث عند التأريخ لحادثة ما عن عناصرها، ونجمع خيوطها منسقة مرتبة، وننظر في تطورها التاريخي؛ حتى نصل إلى فهم منطقي لها. وبالنظر إلى سرتي ابن الداية والبلوى، فإن بحث هذه القضية المنهجية ينقسم إلى شقين:

الأول - مدى قدرة كليهما على عرض (سيرة أحمد بن طولون) بطريقة منظمة، تسلم كل فكرة فيها إلى الفكرة التي تليها، وترتبط بها برباط منطقي دقيق، حتى نهاية الكتاب. ويراعى في ذلك التسلسل الجانبي الزمني، وأعني به اهتمام كل منهما بتوقيت الأحداث التاريخية، التي

(١) ومن الخطأ أن يعد (بُعَا)، الذي ورد في بيتي الشعر المذكورين، هو الكبير أبا موسى؛ لأن الذي صحب (وصيفاً)، وكانت له معه السيطرة على المستعين (٢٤٨-٢٥١هـ) هو (بُعَا الصغير الشراي). ودليل على صحة ذلك أن (بُعَا الكبير) توفي بعد مبايعة المستعين بوقت قصير، لا يسمح بما وُصف من سيطرة كبيرة على المستعين (بويق المستعين في السادس من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ، وتوفي بعا الكبير - بعد مرض قصير - في منتصف جمادى الآخرة من العام نفسه). (تاريخ الطبري ٢٥٦/٩، ٢٥٨، وتاريخ الإسلام ١٨/١٨٦). وبناء على ما تقدم، يكون وصيف وبعَا الشراي الصغير هما المقصودان في هذا الشعر. (قتل أولهما سنة ٢٥٣هـ، وثانيهما سنة ٢٥٤هـ). (تاريخ الطبري ٣٧٤/٩، ٣٨٠، وتاريخ الإسلام ٩٣/٩٤-٩٤).

(٢) سيرة البلوى ص ٩٣.

(٣) السابق: ص ٩٤-٩٥.

يعرضانها، فذلك أمر غاية في الأهمية لإدراك الترابط الموضوعي والمنطقي بين جزئيات الكتاب.

والحق أن لدى ملاحظات على هذا الجانب، أركزها فيما يلي:

١- أن الترابط والتسلسل الموضوعي في كلا الكتائين متحقق في مواضع كثيرة منذ بداية أحمد بن طولون والحديث عن أصل والده، ومولد أحمد، و وفاة والده طولون، ورعاية أصدقاء والده له، وانخراطه في سلك الجندية، ومرابطته في طرسوس، وما قيل عن شجاعته في الدفاع عن قافلة بها مقتنيات للخليفة (المستعين). وكان ذلك سبباً في ارتفاع مكانته لدى الخلافة، واشتهاره بين الأتراك وعلو منزلته، مما سهّل له - عند بايكباك - أمر نيابته عنه في ولاية مصر. ويستمر الكتابان في الحديث عن دخوله مصر وتاريخ ذلك، وما جوبه به من حسد وحقد ابن المدير وشقيق، وصراعه معهم، حتى تخلص من شرهما. وتمضى الأحداث لتوضح أن موت بايكباك وتولى يارجوخ مصر كان خيراً على ابن طولون، الذي ازداد نفوذه في مصر نيابة عن ذلك الرجل، الذي ما إن توفي حتى دانت مصر كلها له. ويواصل المؤرخان متابعة بقية أحداث فترة حكم ابن طولون في مصر وأعماله، وعلاقته بالخلافة وبالموفق، وبلاد الشام، وصفاته من خلال ذلك كله، وما قام به العباس بن أحمد بن طولون، ولؤلؤ من خروج عليه وعصيانه. وهكذا، نشعر بالتناسق العام بين جزئيات السيرة حتى وفاة ابن طولون.

٢- لا يعني ما تقدم عدم وجود اختلال - أحياناً - في تسلسل الأحداث، فإننا نجد بعض المواضع القلقة، التي يضطرب فيها السياق التاريخي، منها:

أ- ما وقع فيه البلوى من اضطراب عندما وصل بالأحداث إلى سنة ٢٥٨هـ، التي جعلها تاريخاً لخروج ابن المدير من مصر - بواسطة أخيه إبراهيم - إلى الشام؛ ليلي خراج فلسطين والأردن ودمشق لما ضاق به المقام في مصر مع ابن طولون^(١). ثم إذا بنا بعد ذلك بقليل نفاجأ به، يحدثنا حديثاً مطولاً عن ثورات وحركات تحاول الانتقاص من استقرار مصر، وتشيع النهب والسلب والتخريب في صعيد مصر، بدءاً من سنتي ٢٥٥هـ، ٢٥٦هـ^(٢). وكان الأجدد والأولى به أن يقدم هذه الأحداث أولاً، ثم يذكر خبر خروج ابن المدير من مصر. أما ابن الداية، فلم يتناول هذه الحركات أصلاً. وقد يردّ على ذلك بأن البلوى أراد تجميع تطورات علاقة ابن المدير بابن طولون في إطار واحد، فواصل الكلام عليه حتى نهاية مرحلة من مراحل الصراع بينهما (٢٥٨هـ). والحق أن الصراع مع ابن المدير استمر ولم يتوقف حتى نجح ابن طولون - كما عرفنا من قبل - في إحضاره إلى مصر وحبسه بها حتى وفاته (قبل وفاة ابن طولون بقليل).

(١) سيرة البلوى: ص ٦٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٢-٧٠.

وكان الأصح أن يأتي بتاريخ هذه الحركات في مكانها وميقاتها الصحيح، وبين من خلالها كيف واجه ابن طولون دسائس ابن المدر بالعاصمة، وحركات الخارجين بالصعيد معاً، مما كان سيعطي بعداً جديداً لسياسته.

ب- وقع ابن الداية في شئ من الاضطراب في سوق الأحداث التاريخية، وذلك عندما أورد - أولاً - أوامر الموفق إلى (موسى بن بغا) بالتحرك بجيوشه إلى مصر؛ لإخراج ابن طولون منها، وأصدر تقليداً إلى ماجور بولاية مصر بدلاً منه^(١). ثم بعد ذلك ذكر كتاب ابن طولون المطول إلى الموفق رداً على كتاب سابق أرسله الموفق إليه^(٢). والحق أن البلوى تدارك هذا الأمر، فعكس الترتيب، وهو الأمر المنطقي المقبول^(٣). فالذي حدث - أولاً - هو رد ابن طولون الشديد للهجة على الموفق، وتهديده إياه بجيوشه الجائرة، لما استقل الموفق ما أرسل إليه من خراج مصر^(٤)، فكانت النتيجة أن غضب الموفق غضباً شديداً، وأحس بخطورة ابن طولون على الخلافة، وإمكان استغلاله بمصر؛ مما حركه سريعاً لمطالبة موسى بن بغا بطرد ابن طولون من مصر بالقوة، وتولية ماجور بدلاً منه^(٥).

ج- وقع ابن الداية في خلط آخر، عندما ذكر قصة مطولة بإطلاق ابن طولون يوسف بن إبراهيم من محبسه سنة ٢٦٤هـ، تبعها بأخبار خروج ابن طولون إلى الشام أواخر العام المذكور^(٦). وبعد ذلك ذكر موضوع خروج العباس على أبيه، وحدد تاريخ إعادته إلى مصر أسيراً بسنة ٢٦٧ هـ^(٧). إلى هنا والتسلسل في الأحداث قائم متحقق، لكنه بعد ذلك مباشرة يورد خيراً لا مناسبة لذكره في هذا الموضوع، إذ يذكر إرسال أبي الفتوح محمد بن الفتح بن خاقان أخته خديجة زوجة لابن طولون، الذي كان عقد عليها بوساطة المعتمد سنة ٢٦٠هـ، وأن أحمد كافاً أخاها بعد هذا العقد، فولاه ديار مضر. ويواصل ابن الداية روايته غير المتسقة مع الأحداث السابقة عليها، فيشرح لنا مكاتبات محمد بن الفتح إلى ابن طولون يخبره فيها بالخاح الوزير الحسن ابن مَخلَد المُنْفَى بالرفقة عليه برغبته في القدوم إلى مصر؛ ليقيم إلى جوار ابن طولون، ثم يورد تبسط الحسن - بعد مجيئه إلى مصر - مع ابن طولون، وعدم توقيره إياه، وخروجه عن اللياقة في مجلس

(١) سيرة ابن الداية: ص ٨٨.

(٢) السابق: ص ٨٩ - ٩١.

(٣) سيرة البلوى: ص ٨٥ - ٨٧، وذكوراد حسن حجر ص ١٤٦.

(٤) سيرة البلوى: ٨١.

(٥) السابق: ٨٥.

(٦) سيرة ابن الداية: ١١٥.

(٧) سيرة ابن الداية: ص ١٢٢.

شراب حضره ابن طولون؛ مما أغضب عليه، فأمر بحبسه، حتى خرج إلى الشام فمات هناك^(١). ولما كان معلوماً أن هذا الوزير توفي حوالى سنة ٢٦٩هـ، فذلك يعنى أن ابن الداية ارتد بالحديث من سنة ٢٦٧هـ إلى حدث وقع سنة ٢٦٠هـ، أعقبه بآخر انتهى سنة ٢٦٩هـ؛ مما يدل على اضطراب شديد في روايته التاريخية، وعدم اتساقها مع ما قبلها.

ولم يكن البلوى أحسن حالاً من ابن الداية في معالجة وعرض هذه الجزئيات؛ إذ إنه عرض لأحداث خروج ابن طولون إلى الشام واضطراره للعودة؛ لعلمه بخروج ابنه العباس عليه^(٢). ثم عرض لصفة من صفات (ابن طولون)، وهى (دهاؤه وجودة رأيه وحزمه)، وأخذ يسوق من الشواهد التاريخية ما يبرهن به على تحققها فيه، حتى انتهى منها^(٣)، وانتقل إلى صفة أخرى، وهكذا^(٤) حتى وصل إلى ما يسميه بـ(عجيب أخبار ابن طولون)، أورد خلالها خبر إطلاق سراح (يوسف بن إبراهيم)^(٥) من محبسه، وأتى بقصة غريبة لا تُصدّق^(٦). وأخيراً، عرض لخبر زواج ابن طولون من أخت (محمد بن الفتح)، وما حدث بينه وبين

(١) السابق: ١٢٣. وحديث بالذكر أن (الحسن بن مخلد) ولى ديوان الضياع للمتوكل سنة ٢٤٣هـ (تاريخ الطبرى ٢٠٩/٩). وكانت له مشاركة ونفوذ في الأحداث ببغداد (السابق: ٢١٤/٩ - ٢١٧، ٢٥٩، ٣٢٤ - ٣٤٢، وغيرها). ثم ولاة المعتمد الوزارة للمرة الأولى في ذى القعدة سنة ٢٦٣هـ، فوليها أياماً، ثم هرب لما قدم موسى ابن بُغا سائراً، فولى موسى (سليمان بن وهب) مكانه (السابق ٥٣٢/٩). ومعنى هذا أن ابن الداية، والبلوى لم يكونا دقيقين لما ذكرنا أن ابن طولون كاتب (بارجوخ) المتوفى يوم الجمعة ٨ رمضان ٢٥٨هـ (تاريخ الطبرى ٥٠١/٩، وسيرة البلوى ١٥٣)، وكذلك الوزير الحسن بن مخلد، وأعطاهما أموالاً كثيرة؛ لكى يستخدما نفوذهما في عاصمة الخلافة؛ لتثبيت ابن طولون في حكم مصر. (سيرة ابن الداية ٨٤، والبلوى ٥٧ - ٥٨)؛ لأن ابن مخلد - آنذاك - لم يكن وزيراً بعد، وما ولى الوزارة إلا بعد وفاة بارجوخ، ولعله أيامها كان صاحب نفوذ في بلاط العباسيين (ماجستير: الطولونيون في مصر ومفهوم الاستقلال السياسى)، لأحمد السيد شحاتة ص ٦٧ (هامش ٥). وفى سنة ٢٦٤هـ، وبالتحديد يوم ٢٧ من ذى القعدة، استوزر المعتمد الحسن ثانية بعد غضبه على (سليمان بن وهب). (تاريخ الطبرى ٥٤٠/٩)، لكن سرعان ما هرب من الموقف، الذى قبض أمواله، وأموال عماله (السابق ٩/٥٤١). ويذكر النهى أن الحسن ولى الوزارة ثالثة سنة ٢٦٥هـ، ثم سُخط عليه في شعبان منها من قبل المعتمد، فانسحب إلى مصر حيث ابن طولون. ثم وُشي به عنده، وأُتهم بأنه عين للموفق عليه، فسُجن وعُذّب حتى هلك ٢٦٩هـ. (تاريخ الإسلام ٨١/٢٠). والصواب - عندي - ما ورد عن ابن الداية، والبلوى: أنه كان منفيًا بالشام، فكتب محمد بن الفتح بن خاقان صهر ابن طولون بشأن رغبته في الجنح إلى مصر، فاستقبله ابن طولون - فيما أرى - بدايات ٢٦٦هـ، حتى غضب عليه، وحسبه؛ لتجاوزه حدود الأدب معه. ثم أخرجه معه إلى الشام ٢٦٩هـ، فمات في الطريق. (سيرة ابن الداية ١٢٣، و سيرة البلوى ١٧٣ - ١٧٥).

(٢) المصدر السابق: ٩١ - ١٠١.

(٣) هى صفة (دهاء ابن طولون، وجودة رأيه، وحزمه). (السابق: ص ١٠١ - ١٢٢).

(٤) ثم عرض لفراصة ابن طولون (السابق: ١٢٢ - ١٤٠)، ثم حُسن ثأبه، وبطلان كثير مما يُشنع به عليه (السابق ١٤٠ - ١٥٣).

(٥) السابق: ١٦٤ - ١٦٨.

(٦) سيرة البلوى: ١٦٨ - ١٧٣.

(الحسن بن مخلد)^(١).

وهكذا، لا نرى انسجاماً بين الروايات المتتابعة وإن كان عذر البلوى يتمثل في تعرضه لصفات ابن طولون بالموضوع، وتدليله على كل صفة بعدد من الأحداث والوقائع غير المتعاقبة من الناحية الزمنية؛ لاهتمامه بالموضوع على حساب الترتيب الزمني، لكنه لا يُغفر له عدم انطباق العنوان على بعض أمثله الواردة تحته أحياناً^(٧)، وفصله بين صفة وأخرى من صفات ابن طولون بروايات لا علاقة لها بما قبلها^(٨)، ولا رابط بينها وبين ما بعدها^(٩).

٣- من أهم واجبات المؤرخ الأساسية ذكر توقيت الأحداث بدقة، وقد عُنَى ابن الداية بذكر تواريخ عدد من الأحداث المهمة، مثل: تاريخ ميلاد ابن طولون (٢٢٠هـ)^(٩)، وتاريخ وفاة والده (٢٤٠هـ)^(١٠)، وتوقيت ميلاد أبي الجيش ابنه^(١١). وحدد بدقة - باليوم، والشهر، والعام - تاريخ دخول (أحمد بن طولون) مصر والياً عليها نائباً عن بايكباك^(١٢)، وتوقيت سيطرة ماجور التركي على الشام بعد فرار عيسى بن الشيخ منه^(١٣)، وتاريخ إيقاع ابن طولون بأخيه موسى ونفيه إلى الثغر^(١٤)، وتاريخ ولاية أحمد بن محمد بن أحت الوزير على خراج مصر^(١٥)، ووفاة ماجور عامل الشام^(١٦)، وتاريخ قتل سيما الطويل ودخول ابن طولون طرسوس^(١٧)، وسنّ ابن طولون لما دخل إلى مصر، وعمره^(١٨).

- (١) السابق: ١٧٣-١٧٥. ويلاحظ أن البلوى ذكر - هنا - وصول (حديجة بنت خفاف) أخت (عمر بن الفتح بن خفاف) إلى مصر؛ لبنيها ابن طولون، وذلك بتاريخ آخر سنة ٢٦٥هـ بعد أن كان المعتمد عقد بين ابن طولون وحديجة هذه نكاحاً، لم يحدد البلوى تاريخه. أما ابن الداية، فاكتمى بتحديد تاريخ العقد فقط (٢٦٠هـ). (سيرة ابن الداية: ١٢٣). وبذا يكمل كل منهما الآخر في هذه المعلومة.
- (٢) كما حدث في استطراده بروايات متعاقبة عن موقفه من الكتابة والكتاب في مصر بعد إيقاعه بالكتاب (ابن مفضل)، بما لا يتفق مع صفة ابن طولون المبرهن عليها (إنصافه، وحسن تأثبه). (سيرة البلوى ١٤٢-١٤٨).
- (٣) وذلك عندما أتى برواية، تتعلق بموت (بارجوخ)، وتحدث عن أولاده من بعده، وموقف ابن طولون منهم، وإحسانه إليهم؛ وفاء لوالدهم. (سيرة البلوى ١٥٣-١٥٤). وهي لا علاقة لها بحسن تأثي ابن طولون، وطفلان كثير مما يُنسب به عليه.
- (٤) وكذلك لا رابط بينها وبين حكاية الخراساني، الذي لقي جزاء خيانه جازاً؛ لأنه اعتدى على عرضه (السابق: ١٥٤-١٥٦).
- (٥) سيرة ابن الداية: ٧٤.
- (٦) المصدر السابق: ٧٤.
- (٧) ولد منتصف المحرم سنة ٢٥٠هـ من جاريته (ميس). (السابق: ٧٥).
- (٨) السابق: ص ٧٦: (يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رمضان سنة ٢٥٤هـ).
- (٩) المصدر السابق: ٨١ (سنة ٢٥٧هـ).
- (١٠) السابق: (٢٥٨هـ). (١١) السابق: ٨٤ (٢٥٨هـ).
- (١٢) السابق: ١١٥ (٢٦٤هـ). (١٣) السابق: ١١٧ (المحرم سنة ٢٦٥هـ).
- (١٤) السابق: ١٣١. (كان سنه ٣٤ سنة، و يوماً واحداً، وعاش ٥٠ سنة).

وَعِنَى الْبُلُوِي بِذِكْرِ بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْمَهْمَةِ أَيْضًا، مِثْلُ: تَارِيخِ وَفَاةِ مُوسَى بْنِ بَغَا^(١)، وَتَارِيخِ مَسِيرِ ابْنِ طُولُونِ نَحْوَ الشَّامِ بَعْدَ وَفَاةِ ابْنِ بَغَا^(٢)، وَحَدَّدَ بِدَقَّةٍ تَارِيخَ وَفَاةِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونِ^(٣).

ملاحظة:

لَا يَعْنِي مَا تَقْدَمُ مِنْ أَمْثَلَةٍ دَلَّلْنَا بِهَا عَلَى اهْتِمَامِ ابْنِ الدَّيَاةِ وَالْبُلُوِي بِتَوْقِيتِ الْأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ، أَهْمًا سَدًّا كَافَةً الثَّغَرَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ. إِنْ هُنَاكَ أَحْدَاثًا عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ فِي حَيَاةِ ابْنِ طُولُونِ لَمْ يَذْكُرْهَا تَوَارِيخُ وَقُوعِهَا، مِثْلُ: تَارِيخِ حَرَكَةِ أَبِي رَوْحٍ^(٤)، وَثَوْرَةِ أَهْلِ بَرْقَةِ بِعَامِلِهِمْ^(٥) (لَدَى الْبُلُوِي). وَلَمْ يَهْتَمَّ كِلَاهُمَا بِذِكْرِ تَارِيخِ وَفَاةِ الْوَزِيرِ الْحَسَنِ بْنِ مَخْلَدٍ^(٦)، وَكَذَلِكَ لَمْ يُذَكِّرْ تَارِيخَ (تَقْلِيدِ الْمُعْتَمَدِ ابْنِ طُولُونِ الشَّامَ كُلَّهُ مَضَافًا إِلَى الثَّغُورِ الشَّامِيَّةِ)^(٧)، وَتَارِيخَ عَوْدَةِ ابْنِ طُولُونِ إِلَى مِصْرَ بَعْدَ عِلْمِهِ بِخُرُوجِ ابْنِهِ الْعَبَّاسِ عَلَيْهِ^(٨)، وَكَذَلِكَ تَارِيخَ الْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ مَنْ شَقِيَ الْخَادِمَ^(٩)، وَابْنِ الْمَدِيرِ^(١٠)، وَتَوْقِيتِ وَرُودِ الْكُتُبِ بِتَقْلِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ هِلَالٍ خِرَاجِ مِصْرَ بَعْدَ عِزْلِ ابْنِ الْمَدِيرِ^(١١)، وَتَارِيخِ عَوْدِ ابْنِ الْمَدِيرِ لِمَنْصِبِهِ ثَانِيَةً^(١٢)، وَتَارِيخِ خُرُوجِ لَوْلُو غَلَامِ ابْنِ طُولُونِ عَلَيْهِ^(١٣)، وَكَذَلِكَ تَوَارِيخَ مَنْشَأَتِ ابْنِ طُولُونِ، مِثْلُ: تَحْصِينَ جَزِيرَةِ الرُّوسَةِ^(١٤)، وَتَارِيخِ، بِنَاءِ جَامِعِهِ^(١٥)، وَإِنْشَاءِ بِيْمَارِسْتَانِهِ^(١٦)، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَشْرُوعَاتِ الْمُفِيدَةِ.

(١) سيرة البلوي: ٨٧ (صفر سنة ٢٦٤هـ).

(٢) السابق: ٩١ (شوال ٢٦٤هـ).

(٣) السابق: ٣٤٣ (بعد ذهاب طائفة من ليلة الأحد، لعشر ليال خلون من ذي القعدة سنة ٢٧٠هـ).

(٤) سيرة البلوي: ٦٧.

(٥) السابق: ٧٠.

(٦) راجع: تحقيقى وترجيحي بشأنه من قبل في هذا الفصل.

(٧) سيرة البلوي: ٩٢.

(٨) سيرة ابن الداية: ١١٨، و سيرة البلوي: ١٠١، ٢٤٤.

(٩) لم يحدد ابن الداية تاريخ ذلك صراحة، وإن أشار إليه إشارة خفيفة، لما ذكر أن ذلك كان في الجمعة التي وصل فيها إلى مصر نيا حادث المعتز (وفاته). (سيرة ابن الداية ٧٩). فلهذا كان سنة ٢٥٥هـ. أما البلوي، فلم يشر مطلقاً في روايته إلى تاريخ ذلك (سيرته ص ٥٨ - ٥٩).

(١٠) ظل في محبس ابن طولون، حتى عَمِيَ ومات (دون ذكر وفاته). (سيرة ابن الداية ١٢٥، و سيرة البلوي ١٧٨).

(١١) و(١٢) سيرة ابن الداية ٧٩؛ و سيرة البلوي ٥٩.

(١٣) سيرة ابن الداية: ١٢٦. وذكر البلوي (ص ٢٨٧): أن ابن طولون خرج للحاق بلولو. فلما بلغ الرملة، صَحَّ عنده دخول لولو العراق (آخر سنة ٢٦٨هـ)، ولم يحدد بالضبط متى أعلن العصيان. بينما ذكر الطبري أنه أظهر

اختلاف سنة ٢٦٨هـ (تاريخه ٦١١/٩).

(١٤) سيرة ابن الداية: ٨٨، وسيرة البلوي ٨٦ - ٨٧.

(١٥) المصدر السابق: ص ٥٦.

(١٦) المصدر السابق: ص ١٨٠ - ١٨٣.

وربما يُعْتَذَرُ عنهما بأنهما ركزا اهتمامهما بذكر موافقت الأحداث الرئيسية، وما دونها في الأهمية يشار إليها إشارات غير مباشرة، يُترك للقارئ تعديدها تقريباً. فكلاهما لا يكتب تاريخاً حولياً يسردان لنا فيه ما وقع - بالضبط - كل عام من أحداث، وإنما يحاولان إبراز الجوانب المهمة في حياة الشخصية التي يكتبان سيرتها، وقد تفوقهم في ثنايا ذلك بعض التواريخ.

الشق الثاني - تنظيم المادة العلمية، وحسن توزيعها:

وهذه جزئية مكملية للكلام السابق، ونبحثها على مستوى **البلوى فقط**، فهو صاحب المادة التاريخية الغزيرة المتنوعة المتشعبة، التي تحتاج إلى حسن تنظيم وتوزيع، بحيث يعرف صاحبها متى يفصل، ومتى يوجز إلى حين يأتي مكان التفصيل. أما ابن الداية فكتابه المختصر، ومادته الموجزة لم تلحظه كثيراً إلى ما لجأ إليه البلوى.

ويمكن تناول هذه الجزئية فيما يلي:

أ- تناول البلوى حياة ابن طولون في قسط كبير من كتابه على هيئة استعراض لصفاته وأحدة تلو الأخرى، فكان يأتي بالسمة كعنوان جانبي، ثم يسوق عليها ما تيسر له من الأدلة والشواهد التاريخية من حياة ابن طولون مما يصلح أن يندرج تحتها ويدعمها^(١).

ب- كان يكفي في بعض المواضع بذكر قدر من المادة العلمية يناسب ذلك الموضع، ثم يُعَدُّ بذكر البقية في مكان يأتي بعداً أشد مناسبة له. ومن أمثلة ذلك: حديثه عن حركة البناء والعمران التي شاهدها ابن طولون، فتناول: بناء العين والجامع، وكلاهما بناهما رجل نصراني حاذق بالهندسة. ثم أمسك عن تفصيل ما يتعلق بدور هذا المهندس، وقال: "ونحن نأتي بخبره، إن شاء الله"^(٢). وبالفعل وقى البلوى بوعده عندما كان يتحدثنا عن رغبة ابن طولون العارمة في أعمال البر والخير، فتناول بناء العين والمسجد الطولوني، وذكر - تفصيلاً - ما قام به المهندس النصراني في هذا الشأن، وموقف ابن طولون منه^(٣). وتوجد عدة نماذج تؤكد لنا براعته في امتلاك زمام مادته العلمية، وحسن توزيعها (فيما يتصل بالعباس بن أحمد بن طولون^(٤)).

(١) كان يذكر صفات ابن طولون واحدة واحدة، ويمثل لكل منها ما تيسر له من الوقائع التاريخية (سيرة البلوى: ص ١٠١ وما بعدها، ١٢٢ وما بعدها، ١٤٠ وما بعدها). وكان يحسن الربط إذا استطرد - داخل الصفة الواحدة - لموضوعات وروايات ليست من صلب موضوعها. وبعد الانتهاء من الاستطراد يعود إلى موضوعه، ويقول مثلاً: "قال: وعدنا إلى أخباره المشهورة في دهاته، وعقله، وحزمه" (السابق: ١٠٦). وكذلك قوله ص ١٤٨: (وعندنا إلى أخباره الموحدة له العذر فيما يأتيه من العقوبة).

(٢) السابق: ٥٦.

(٣) السابق: ١٨١ - ١٨٣.

(٤) السابق: ١٠٦، ٢٤٤، وما بعدها.

وبموقف الموفق من نبأ وفاة ابن طولون^(١). إلا أن البلوى خانة التوفيق مرة، فوق بما وعد بالحديث عنه، لكن الرواية المكملّة أتت متناقضة مع الأولى وغير مفهومة^(٢).

ج- وأحياناً، كان البلوى يذكر حادثة مترتبة على شيء سبق أن أشار إليه من قبل، فيذكر القارئ بأنه قدّم ذكر ذلك الشيء من قبل^(٣)، أو أنه ذكره في أول أخباره^(٤)؛ كي يستعيد القارئ معلوماته السابقة، ويربط بينها وبين ما يقرأ، فتكون الفكرة واضحة حاضرة لا غموض ولا انغلاق فيها.

خامساً - الاستطراد:

فيه يلتبس المؤرخ أدنى ملابسة، وأقرب فرصة؛ ليضيف جديداً من عنده (ثقافته، وإطلاعه)، أو يأتي برواية تالية تكون بمنزلة التعليق، أو الإضافة والتكملة للرواية السابقة. ويكون الاستطراد مقبولاً إذا أضاف جديداً، يعمق به الحدث التاريخي وكان ذا حجم معقول. ويكون معيياً عندما يكون خروجاً عن الموضوع الأصلي، ومعرقلاً لاتصال الحدث، ومعوقاً لفهمه، ولا يضيف جديداً. والآن نلتبس هذا العنصر النهجي الجديد عند مؤرخينا.

١- عند ابن الداية:

لا يميل ابن الداية إلى أسلوب الاستطراد في العرض التاريخي؛ لأن هذا لا يتوافق مع الاختصار الذي توخّاه في كتابه، لكنني - بعد النظر والتتبع - تبينت ثلاثة مواضع فقط يمكن أن نعتبرها من قبيل الاستطراد، منها موضعان مقبولان:

أ- لما أرسل ابن طولون الواسطي كاتبه إلى دار الخلافة؛ ليتصدى لمحاولة ماجور عزله عن ولاية مصر؛ عيّن كاتباً آخر مصرية هو (جعفر بن عبد الغفار). وكان من الممكن انتهاء الحدث عند ذلك، لكن ابن الداية أورد رواية مطولة، فيها حوار بين الأمير وأحمد بن خاقان، تدور حول سر اختياره كاتباً مصرية، رغم تفوق الكتاب العراقيين. ومن

(١) السابق: ١٤٠، ٣٥٨، وما بعدها.

(٢) وهي تعلق في موضوعها بشكوى كيدية، تقدم بها (ثابت بن سليمان) إلى نسيم الخادم يذكر فيها أن أباه (سليمان) - وكان يكتب لشقيق الخادم، ثم خدم ابن طولون - استودعه شقيق ٤٠٠ ألف دينار، وأنه أتى لإبلاغ الأمير؛ خشية امتداد يد أبيه إليها. فأمره ابن طولون بكمّان هذا الأمر، وعدم إبلاغ أبيه بشيء من ذلك. ثم انتظر سنة حتى تولى الأب، وبعدها طالبه ابن طولون بأموال أبيه التي ذكرها من قبل، فلم يحضر جواباً، فعُضِرَ ٥٠٠ سوط حتى مات، وصودرت أملاكه، وما خلقه له أبوه؛ حزاء سعايته بأبيه كذباً واقتراء. (سيرة البهنوي ص ١٧٩، ٢٤٢-٢٤٣).

(٣) مثال ذلك قوله: فلما أهدى إلى أحمد بن طولون الهدية - التي قدّمنا ذكرها - ردها، ولم يقبلها. وبعدها بأيام كتب ابن طولون لابن المدبر يذكره بالهدية التي ردها، ويطلبه بفيلمانه. (السابق: ٤٣، ٤٤-٤٥).

(٤) ذكر ص ١٠٦: أنه وجّه بالواسطي إلى العراق - كما ذكرنا في أول أخباره (ص ٥٧)، واستكتب ابن طولون جعفر ابن عبد الغفار. فهو يشير إلى إرسال الواسطي إلى بغداد؛ لتفهم الرشاشي؛ كي يتم تثبيت ابن طولون في مصر.

خلال الحوار ظهرت نجابة وفطنة الأمير في سر اختيار الكاتب المصري^(١). فالاستطراء - هنا - حسن؛ لأنه استخدم لتطوير الحدث التاريخي، وإبراز ملمح مهم من ملامح شخصية (ابن طولون) موضوع الكتاب الأساسي.

ب- أورد ابن الداية رواية عن المائة ألف دينار، التي أخذت من مجموع متاع وأموال ابن مُفَضَّل الكاتب، والتي وصَّى بها ابن طولون للحسن بن مهاجر، ثم طَوَّر ذلك برواية تالية تتجاوز فيها عصر ابن طولون، الذي يسجل ابنُ الداية (المستحسن من سيرته) إلى عصر ابنه (خمارويه)؛ لكي يستوفي ترجمته للحسن بن مهاجر حتى لهايتها، وفيها ذكر أن ابن مهاجر قُتل على يد خمارويه، ووجدوا له ثمانين ألف دينار، هي ما تبقى من وصية ابن طولون، وكان قد فرَّق عشرين ألفاً في أهله، وكان يسعى على رزقه^(٢).

أما الموضوع الثالث والأخير، فهو استطراء لا داعي له، ويتناول ما دار في مجلس الكاتب (محمد بن عبد كان) عن الكاتبين: محبوب بن رجاء، والحسن بن مهاجر^(٣)، ومقارنة بينهما لا حاجة إليها بعد أن وصل في ترجمته إلى منتهاها في رواية سابقة.

٢- عند البلوى:

على العكس مما سبق تكثرت الاستطرادات المطولة (أحياناً)؛ نتيجة التفاصيل التي يزرعها كتابه من جهة، ورغبته في عرض جانب من ثقافته الأدبية والتاريخية المتنوعة، وتميزه بالقدرة على قياس الأحداث التاريخية بعضها على بعض، رابطاً بين المواقف التاريخية المتشابهة.

وأجتزئ من مواضعه العديدة بالأمثلة الآتية:

أ- بعد أن ساق رفض ابن طولون القيام بقتل المستعين على نحو ما كتبت به إليه (قبيحة) أم المعتز، استطرد قائلاً بأن أحمد بن طولون أحسن وأجمل في ذلك، ووقف موقف الرجل التابعي، الذي رفض الاستجابة للحجاج، لما أمره بقتل رجل، أثمهم بما أراد قتلَه بسببه، واستشهد بشعر قاله ذلك التابعي، وشرح لفظة مشكلة فيه^(٤).

(١) سيرة ابن الداية: ص ٨٣. (٢) سيرة ابن الداية: ١٠٧. (٣) السابق: ١٠٨.

(٤) سيرة البلوى: ص ٤٠. قال في هذا الشعر:

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يصلي	على سلطان آخرَ من قریش
له سلطانُه وعلىَّ إلهي	معاذَ الله من جهل وطَيْش
إذا طاوَّعُه وعصيتُ ربي	فما فضلي هناك على قُمَيْش

وشرح لفظة (قميش)، فقال: اسم رجل خليع ماحن مارد.

وأرى أن القياس هنا مع الفارق، فالأمر هنا قبيحة والأثرak وراءها، وهناك الحجاج بسطوته. والمأمور هنا ابن طولون، وهناك تابعي صالح. والمنتهم هنا خليفة المسلمين دون ذنب جهن، والمنتهم هناك رجل مسلم عادى أقمه الحجاج بتهمة توجب قتله. والذي يهيم البلوى - في النهاية - هو امتناع كلا الرجلين عن جريمة قتل، يريان المحكوم عليه فيها لا يجوز قتله.

ب- في سياق رواية عن سهر ابن طولون واهتمامه بتجريب المنحنيقات^(١) بنفسه، وإشفاقه على الناس أن يصيبهم أذى، ورد ذكر خليج أمير المؤمنين، فانتهاز البلوى الفرصة؛ ليعرض لنا معلوماته التاريخية، واستطرد مُعرِّفاً إيانا هذا الخليج قائلاً: إنما سُمِّيَ بأمر المؤمنين؛ لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام بخفر خليج، يصل من النيل إلى القلزم، وتُحمل فيه الميرة (الطعام) إلى الحرمين، وسمي بذلك؛ لأن عمر أول من سمى - (أمير المؤمنين). ثم واصل وصفه تجربة المنحنيقات، التي يشرف عليها ابن طولون بنفسه^(٢).

من نماذج استطراداته المعيبة:

أ- تقديمه المطول المفصل الذي قدّم به للصدام بين ابن طولون والموفق؛ نتيجة مطالبة الأخير بأضعاف أضعاف خراج مصر. فلما لم يجبه ابن طولون، كلّف موسى بن بغا بمهاجمة ابن طولون في مصر. قام البلوى بالتقدم لهذا الحدث باستعراض تفاصيل إسناد محاربة الزنج إلى الموفق في عهد المعتمد، ثم قيام الخليفة بتقسيم مملكته بين ابنه المفوض، وأخيه الموفق، كما فعل الرشيد مع ابنه (الأمين، والمأمون). واستطرد لبيان فضل المأمون على الأمين، وبيان شروط تقسيم المملكة الذي وضعه المعتمد^(٣). وقد كان يكفيه تعريف مقتضب بمكانة الموفق قبل أن يعرض لخلافه مع ابن طولون.

ب- بعد أن ساق لجوء لؤلؤ إلى الموفق عاصياً مولاه، وبيّن أن محمد بن سليمان كاتب لؤلؤ كان شديد الفرع من ابن طولون؛ لأنه كان يؤدّب الكاتب كثيراً على ذنب صاحب، بعد ذلك قال البلوى: إنما أراد ابن طولون أن يجعل في أمر محمد بن سليمان، كما صنع في أمر صنم كان في عين شمس (أى: أراد القضاء على ابن سليمان، كما حطّم صنم عين شمس، وأزاله من الوجود)، ثم استطرد يخكي قصة ذلك الصنم، وإزالة ابن طولون تلك الأسطورة سنة ٢٥٨هـ. ثم عاد يكمل كلامه عن لؤلؤ ومحمد بن سليمان، وسر تحريض الأخير لؤلؤاً

(١) مفردتها: مُحَنَّق (بكسر الميم، وفتحها). وهي لفظة دحيئة أعجمية معربة. بقصد لها: آلة من آلات الحصار القديمة، كانت تُرْمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار، فتهدمها. وهي لفظة مؤنثة. الفعل منها: مُحَنَّقَ القوم أى: رموا بأحجار المحنق. وأصلها بالفارسية: مَنْ جى نيك، أى: ما أخوذ. (نسان العرب، مادة: محنق، ج٦ ص٤١٤٢)، والمعجم الوسيط ١٨٨٩/٢.

(٢) سيرة البلوى: ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) سيرة البدوي: ٧٧ - ٧٩.

على عصيان مولاه^(١). وأعتقد أن هذا استطراد متكلف لا داعي له، والقياس بينهما مع الفارق، فالنصم خرافة معروفة لا تحتاج إلى تدليل، لكن محمد بن سليمان حقيقة معروفة، وسوسته إلى لؤلؤ، وإيقاعه بين ابن طولون ولؤلؤ مشهورة؛ لأجل مصلحته.

سادساً - الاستقصاء:

ونعني به مدى قدرة مؤرخينا على العرض المتكامل لسيرة أحمد بن طولون من مختلف جوانبها وزواياها، بالإضافة إلى التعمق في نفسيات الشخصيات والأحداث المهمة ذات العلاقة بابن طولون من خلال ما يُسرد من روايات عنها. أما بالنسبة للعرض المتكامل، فأعتقد أن ما ذكرته في محتويات السريتين يمكن أن يسد هذا الجانب. وبهمني - الآن - التعرض لعدد من النماذج، يمكن من خلال روايتها أن ندرسها من الداخل، وأن نسير أغوارها، التي هي قصد المؤرخ من إيرادها.

١- لؤم أحمد بن طولون، وشدة خُبثه في التخلص من (شَقِير الخادم) صاحب البريد^(٢):

أ- في البداية أمر بإحضاره راجلاً من داره إلى قصر ابن طولون.

ب- أمر أن يُحرك حركة عنيفة، ويُكَدَّ في عَدُوّه من داره بمصر إلى الميدان بالقطائع (ويعرف ابن طولون أنها مسافة بعيدة، وأن شَقِيرًا مُبَدَّنَ مَرْقَهَ يمكن أن يقتله التعب)، فوصل وقد كاد التعب والإرهاق الشديد يقتله.

ج- لما أوقف بين يدي ابن طولون أمر أن تُحضر السياط والعُقَابان^(٣)، فأُحضِرَا، وأمر بشده في العقابين. (وهذا تمهيد لإنزال العقوبة به، وإهانة مذهلة لم يكن يتخيلها، حتى وهو قريب من الموت).

د- ثم أتى دور الحرب النفسية: غفلوا عنه وهو مُقَيَّد، ينتظر العقاب أو الموت بين لحظة وأخرى (بموت عدة مرات خلال ساعة، وظل يستغيث فيها من شدة القيد، وشدة القلق، والخوف والغزع). وأخيراً انهارت قوته، وسقط.

هـ- ويبدو أن أحمد بن طولون أحضر مَنْ فحَصه، فتبين فيه الموت. هنا أكمل ابن طولون دوره، فأمر بفك قيوده دون ضربه، ثم من قَرَطَ خُبثه أمر أن يُرَدَّ إلى بيته راكباً؛ كي لا يقال: مات من شدة الضرب، أو إرهاب المشى. فلما ذهبوا به إلى داره، مات من ليلته.

(١) السابق: ٢٨٨-٢٨٩.

(٢) سورة ابن الداية ٧٩، و سورة البلوى ٥٨-٥٩.

(٣) مفردوها: عُقَاب. هما الخشيتان اللتان تُمدَّ قدام الرجل بينهما بطريقة مولة تصيب الجِلْدَ؛ تمهيداً لضربه، وحلده بالسياط. (لسان العرب، مادة (ع.ق.ب) ج١-ص ٣٠٢٩).

و- وأخيراً، لما بلغ ابن طولون موته، أنفذ الشهود والعدول، حتى شاهدوا شقيراً عريان، وتأكدوا أنه مات من غير ضرب ولا سبب، غير فناء أجله^(١).

٢- طبيعة نفسية كل من: ابن المدبر، وابن طولون في علاقتهما معاً:

نجح ابن طولون في سحب غلمان ابن المدبر، فأفقدته هيئته ومكانته، ثم تمكّن من عزله، وولّى مكانه محمد بن هلال. وقد ضَيّق عليه ابن طولون الخناق، حتى خاف على نفسه، فتقرب من أحمد وتلطّف معه، فقد كان فيه (دهاء عظيم، ورياء كبير). لقد وجد أنه لا مفر له من ذلك رغم عدائه وكرهه الشديد له، حتى إنه لما طلب إلى أخيه إبراهيم التوسط له للخروج إلى الشام، اضطر أن يَهَبَ لابن طولون ضياعاً له في مصر، وأن يزوج ابنته من حمارويه بن أحمد بن طولون^(٢)؛ حتى يخرج من مصر، ويأمن على نفسه في الشام. والحق أن ابن طولون فعل ما فعل؛ ليخلو له دَسْت الحكم في مصر دون منافس، وابن مدبر كاتب الخلافة ضد ابن طولون، ليس حرصاً عليها، وإنما محاولة منه؛ للتخلص من حاكم قوى كابن طولون. فكلاهما يعمل لنفسه فقط.

سابعاً - مدى حضور شخصيتهما وتفاعلهما مع الأحداث:

هذه قضية منهجية كبيرة الأهمية؛ لأنها تكشف عن أمور عدة: مدى تفاعل المؤرخ مع الأحداث التاريخية التي يسجلها، وهي مَحَكَّ أساسي دال على عقليته وثقافته، ووجهة نظره في الحياة والأشخاص، وهي تكشف من بين ثنايا السطور مدى إدراكه ومعرفته بالهدف من كتابة التاريخ، وتبين من خلال تعليقاته للأحداث، وتعليقاته على نتائجها مدى حياده وتنزّحه عن الهوى، أو تحيزه وتعصبه لشخصيات معينة. ومن هنا، فإنه يمكن دراستها في النقاط الآتية:

أولاً - التعليق:

لم يكتفِ ابن الداية والبلوى بسرد الأحداث التاريخية، ونقلها عن مواردها، وإنما كانا يحاولان تعليق بعض الأحداث.

(١) ولا شك أنه متأثر في ذلك بطريقة الأتراك في عاصمة الخلافة، إذ كانوا يقضّون على حوصمهم من الخلفاء أو الورياء والغواد حتى يهنّكروهم. بحيث لا يُرى أثر ظاهر لعملية الاغتيال تلك، ثم يحضرون الشهود والقاضي؛ ليقرّوا أن الوفاة ضبيعة. وهذا يشبه ما يقع في العصر الحديث من وسائل تعذيب شعبة للحصوم والسجون، حيث لا تترك أثراً يذكر على جسد الضحية، رغم أنها تسب له شديد الإيلام، وقد تأتى على نفسه. فإذا وَقَعَ الكشف الطبي، لا تُرى آثار شبيهة جناية، فيُعتدّ بالدليل المرئي أن الضحية مات خنقاً أنه! والثنى العرب المرفوض - مهما كانت حناية شقير - أن يُبنى البلوى على طريقة ابن طولون في الإجهاز عليه قائلاً: "فكان علم أحمد بن طولون بأن ما عمله يبلغ به ما يجب من أمره من غير مكروه، ولا ضَرْبٍ وغيره حسناً". (سيرة البلوى: ٥٩).

(٢) المصدر السابق: ٦٠.

١- ابن الداية:

تراوحت تعليقاته وتنوعت وتعددت صورها: فهناك التعليل السريع الخاطف، مثل: تعليله معاقبة ابن طولون للحسن بن شعرة (مضحك المتوكل)، الذي كان أحد مسامري ابن المدير في مصر، بالجلد خمسمائة سوط حتى الموت، بأنه لم يكن لسقوط المُرْكَن^(١) من أعلى داره على كِفْل^(٢) دابة ابن طولون في موكبهِ، وإنما كان لما في قلب ابن طولون عليه^(٣). ويعني: غيظ وغضب وكراهية ابن طولون له؛ لأنه بلغه عنه سخريته واستهزاؤه بابن طولون في بعض المجالس الخاصة لابن المدير، وقد حذره ابن طولون، فلم يستجب لتحذيره، ولم يكف عن فعلته تلك^(٤).

وكذلك علّل عدم قدرة ابن المدير أن يكافئ ابن هلال على سوء بلائه عنده، رغم إرادته ذلك، بأنه لم يمكنه مع انحراف ابن طولون عنه^(٥). أى: لم يستطع ابن المدير رد إساءة محمد بن هلال، الذي كان ابن طولون ولّاه الخراج بعد عزل ابن المدير عنه، وذلك بعد أن أعاد المعتمدُ ابن المدير إلى منصبه ثانية؛ لحماية ابن طولون له؛ إذ كان يكره ابن المدير.

وهناك تعليقات متوسطة في طولها. من نماذجها:

ما ذكره ابن الداية من أسباب نجاح أحمد بن طولون في دخول أنطاكية، وإلحاق الهزيمة بـ (سيما الطويل)، الذي تحصن بها رغم حصانتها، وأنها لم تُفتح - قط - عتوة. هذه الأسباب هي:

أ- كراهية الأهالي له؛ لإساءته إلى الرعية، ومصادرة أموالهم.

ب- حصار ابن طولون الطويل مع ضربها بالنفط والمنجنيق أجهد أهلها؛ مما دفع الناس إلى إرشاد ابن طولون إلى المكان، الذي يمكنه عن طريقه الدخول من سور المدينة.

ج- انتهاز جند ابن طولون الثغرة المشار إليها، فأسرعوا بدخول المدينة، ومهاجمة حصنها، ونصب رايات ابن طولون فوق الحصن؛ مما أضعف الروح المعنوية لجند سيما، إضافة إلى هجوم الناس عليه من ورائه فانهزم، وسيطر ابن طولون على المدينة، وقُتل سيما الطويل بعد ذلك^(٦).

(١) عنى وز (مبشر). والجمع: مَرَائِن. وهو إثناء غسل الثياب وغوها (اللسان، مادة: رك.ن) ح- ١٧٢٢/٣، والمعجم الوسيط ٣٨٤/١.

(٢) هو كساء الدابة. (مادة: ك.ف.ل) في (لسان العرب) ح- ٣٩٠٦.

(٣) سيرة ابن الداية: ٧٨.

(٤) المصدر السابق: ٧٨.

(٥) السابق: ٧٩.

(٦) سيرة ابن النوى: ١١٦ - ١١٧.

وأخيراً، نعرض نموذجاً لتعليل مطول أورده ابن الداية، يتعلق بخروج العباس بن أحمد بن طولون على أبيه^(١). قال ابن الداية: وكان السبب في خلاف العباس على أبيه:

أ- بعض قواد أبيه، الذين كانوا يرهبون ابن طولون ولا يحترمونه، و ينتظرون الفرصة للخلاص منه؛ لاستبداده وبطشه، فزينوا للعباس عصيان والده، وحَسَّنُوا له التغلب على مصر، والفتك بالواسطي، الذي كان ابن طولون تركه معه؛ ليكون مشيراً عليه بما يصلح، أثناء خروج ابن طولون إلى الشام.

ب- اشتعال الخلاف بين الواسطي والعباس: فقد حرَّض قادة السوء العباس على الواسطي، وأغروه بالإساءة إليه، ومنعه من القيام بمهامه في الدولة في غياب ابن طولون. وينضاف إلى ما تقدم تدخل هؤلاء القادة المقيمين إلى العباس فيما لا يعينهم، وتقريب العباس بطانته ممن كانوا على علم بالنحو، والشعر، وما جرى مجراه (مثل: جعفر بن حدار^(٢)). وأحمد ابن المؤمل)، وهم لا علم لهم بالسياسة والحرب ولا بتدبير الأمور. فلما منعه الواسطي من جعلهم في غير مكائهم، وقع الصدام بينهما. وعندئذ كتب الواسطي كتاباً إلى ابن طولون يعلمه جلية الأمر، ورد عليه ابن طولون حانقاً على ولده، أمراً الواسطي بمماراته حتى يرجع إلى مصر. وكان الكاتب محبوب بن رجاء معادياً للواسطي، فكان يرسل إلى العباس الكتب المتبادلة بين الواسطي وأبيه.

هنا ازدادت حدة وغضب وإهانات العباس للواسطي، فاعتزل في بيته، فهاجم العباس منزله، واستولى على أحوبة كتب أبيه، فحشى غيظه وحنقه الشديد، فخرج ومن معه، وأخذ الواسطي أسيراً إلى برقة.

ويواصل ابن الداية تعليلاته لجوانب هذا الحدث التاريخي الجلل، فيذكر أن العباس رفض الاستجابة لوفد أبيه، ولم يقبل العودة لأمرين:

أ- أن أصحابه - خاصة جعفر بن حدار^(٣) - حذَّروه غدر أبيه، وأكدوا له أنه لن يرحمه، ولن يرحمهم إذا وقفوا بين يديه.

(١) السابق: ١١٨ - ١٢٠.

(٢) هو الكاتب الشاعر المصري أبو القاسم، جعفر بن محمد بن أحمد بن حدار. كثير الشعر، حسن البلاغة، له ديوان شعر، ومكاتبات كثيرة حسنة. كان ممن خرج مع العباس على أبيه، وحرَّضه على التمادى في العصيان. فُبِضَ عليه واقتيد إلى مصر أسيراً، فضُرب ٣٠٠ سوط، ثم قطع العباس يديه ورجليه من خلاف بأمر أبيه. توفي في ذي القعدة ٢٦٨هـ. (سيرة ابن الداية ١١٨ - ١٢٠ (واسم جدّه: حدار)، وسيرة البلوي ٢٦٩، (حدار)، والولادة - ط. جست - ص ٢٢١ (حدار)، ومعجم الأدباء ١٨٢/٧ - ١٨٦ (حدار)، والمغرب (قسم مصر) - ٢٥١ (حدار)، والمقفي ٥٩/٣ - ٦٠ (حدار).

(٣) ورد باسم (أحمد بن حدار) في (سيرة ابن الداية) ص ١٢٠، وهو غير صحيح.

ب- أن العباس سأل القاضي بَكَار بن قتيبة - وكان ضمن وفد أبيه إليه -: بالله، هل يأمن عليه ؟ فقال بكار بكل صدق: حلف لي أبوك ألا يسوءك. فأما أن يفنى لك بما حلف أو لا يفنى، فذلك ما ليس في علمي، إنما علمه الله. وهكذا، كان الشك يحيط بموقف ابن طولون تجاه ابنه نفسه، فما بالنا بالذين حرصوه عليه! وكانت النتيجة زيادة وجل وقشعريرة العباس، ومما ديه في غيّه.

٢- البلوى:

تنضج شخصية البلوى في تعليقاته أكثر من ابن الداية. وقد سلك مناهج شتى في إيراد تعليقاته كما يلي:

أ- تعليل خاطف سريع:

قال في سبب معاداة الموفق لابن طولون، وإرساله الكتب إلى قواده يغريهم به، ويستميل قلوبهم إليه: "لما كان في نفسه عليه من قوة موالاته للمعتمد، وصحة طاعته له"^(١).

قال في سبب امتناع أكثر من واحد من أتباع ابن طولون من تولي الثغور بالشام: أبى موسى ابن طولون ولاية الثغور لأخيه (وكان مقيماً بطرسوس)؛ لأنه كان في نفسه غضب وغيظ على ابن طولون، وكانت بينهما جفوة موحشة؛ لرفض ابن طولون توليته الإسكندرية كما كان يرجو، ولضربه إياه لما بسط لسانه فيه؛ مما جعله يخرج إلى طرسوس مغضباً^(٢). وامتنع إبراهيم بن عبد الوهاب عن ذلك المنصب تصاوفاً^(٣) (أى: ورعاً، وصيانة لنفسه عن تولي المناصب).

ب- التعليل القدرى:

كان البلوى - أحياناً - يخلط العلل المادية المنطقية بالتعليل القدرى، كما فعل في تعليله امتناع (سيما الطويل) من الاستجابة لنداءات ابن طولون المتكررة له بالدعاء للخليفة ثم لابن طولون؛ حتى يرفع عنه الحصار، ويرحل في مقابل ذلك عنه. علل ذلك باطمئنان سيما إلى حصانة أنطاكية، وعدم الثقة بكلام وعود ابن طولون. هذا هو الجانب المنطقي المادى من التعليل. ثم التفت البلوى إلى علة قدرية، قد لا يلتفت البعض إليها رغم بدايتها، فقال: " فامتنع سيما من ذلك، ولَجَّ فيه؛ لأسباب المنيّة"^(٤). أى: لأن منيته تتناوب، فقد اقتربت ساعته، وحن أجله في ذلك الحصار، فكان لا بد أن يرفض كل عروض ابن طولون؛ ليتم فيه قضاء الله.

(١) سيرة البلوى ٨١.

(٢) السابق: ٩١.

(٣) معلوم أنه أنفذ - بعد ذلك - طحشى بن بلبرده، ووصاه بحسن العشرة لأهل الثغور، وجميل السيرة فيهم، واحتمل هوافقم، فحسنت سيرته بطرسوس حتى مات هناك، فحزن عليه سكان سائر الثغور. (المصدر السابق: ٩١).

(٤) سيرة البلوى: ٩٤.

وأحياناً لا يذكر البلوى إلا التعليل القدرى للحدث، يسوقه على ألسن الناس، ويقوم هو بالتصديق عليه، مدفوعاً إليه بشدة إعجابه بشخصية ابن طولون. مثاله: ما قام به ابن طولون من إرسال الجيوش؛ لضبط أطراف بلاد الشام قبل منصرفه من الثغور إلى مصر بعد بسط النفوذ عليها. من هذه الجيوش جيش أرسله بقيادة (أحمد بن جيفويه) إلى (حرّان)، فطرد منها (محمد ابن أتامش)، وهزمه شر هزيمة، ثم اصطدم بأخيه (موسى)، وكان فارساً مهيباً، خافه ابن جيفويه. ولم ينقذ الموقف إلا حيلة، احتالها أعرابي على موسى، واستدرجه إلى كمين له، حتى وقع في الأسر. هنا يقول البلوى: فتعجب الناس من ذلك، وتحيروا، وقالوا: ليس هذا بتدبير الأعرابي، ولا بشجاعة ابن جيفويه، ولكنه بإقبال ابن طولون (حظه السعيد)، تيسر أخذ موسى هذا. فيصدق البلوى على ذلك ويؤيده؛ بأن إقبال ابن طولون أدى إلى ذلك النصر اليسير لجيوشه؛ إذ لم يُقدّر لواحد من غلمان موسى أن يسلك الطريق الذى سلكه في تلك الليلة المظلمة، وكل ذلك "ليتم القضاء المُقدّر لأحمد بن طولون"^(١).

ج- تعليقات دقيقة جديدة:

١- دُلّ البلوى على عمق نظراته في الحوادث التاريخية، من خلال دقة تعليقاته وبراعتها. ومثال ذلك^(٢): الرواية التي تذكر تجسس ابن طولون على رجل من الأتراك يعيش في مصر، وليست لديه معلومات عنه. فلما تمت مراقبته عن طريق عيون ابن طولون وهو في قعر داره، رفع أصحاب الأخبار إلى الأمير تقريراً بما رأوه منه. فالرجل كان يشرب التَّبِيدَ حتى يَسْكُرَ، ويَهْذَى، ويقول في هذيانه - وهو يُمسك بسيفه - عن ابن طولون: لأقتلن هذا العاصي المتحكّم فينا، ويلعنه، فتجئ جاريته فتنهاه عن ذلك القول، وتأخذ منه السيف وتظل تسقيه حتى ينام. فلما وقف الرجل بين يدي الأمير ووبّخه على ما كان منه في داره، دُهِش الرجل، ورفع رأسه إلى السماء متعجباً من فعل الله لابن طولون (ملكهم رقايم وأرزاقهم والدنيا كلها فلم يبال الناس، حتى صار صاحب خبر عليهم، فرفع إلى ابن طولون ما تخرجه حماقة النبيذ إذا شربه الناس. كل هذا يتقرب من قلبه ا). فأغرق ابن طولون في الضحك على وقاره، ولم يعاقبه. ثم أرسل إليه ٥٠٠ دينار، وأخرجته إلى (طرسوس)، وكتب بأرزاقه هناك، وأرسل إلى الجارية مبلغاً مماثلاً. ثم يأتي - هنا - دور البلوى لتعليل تصرف ابن طولون، فيقول: أخرج الرجل؛ لأنه لا يتحمل وجوده معه في بلد واحد بعدما صدر منه. وعلل عدم معاقبته؛ لجميل فعل جاريته (إسكانها إياه، ورفقها وتلطّفها معه؛ ليصلح من خطابه، ويقطع عن اللعن)، ورميه بظرفه إلى

(١) المصدر السابق: ١٠٣-١٠٦.

(٢) السابق: ١٢٠-١٢٢.

السماء (أى: توحه إلى الله بالشكوى لما واجهه الأمير بما قال في داره).

٢- أتى البلوى بتفسيرات جديدة لم يذكرها غيره، تتعلق بخروج العباس على أبيه، منها: أنه فسّر خروجه هذا بجمعة ونقص عقله؛ مما دفعه إلى العصيان والتمرد^(١). وعلل تقلب أبيه له على سائر إخوته في النيابة عنه بمصر لما خرج إلى الشام، رغم علمه عنه الحق، بأن هذا نتيجة كبر سن العباس على بقية أخوته، ولأنه كان أحظاهم عنده، ولهووى فيه من هووى الأبوة^(٢) (أى: لا تعليل له). وكذلك علّل تحرّز بكّار عن تأكيد وفاء ابن طولون لابنه العباس إن عاد إليه طائعاً، بأنه فعل ذلك؛ لدينه وورعه وزهده^(٣). وكذلك ذكر أسباباً جديدة لخروج العباس إلى إفريقية٤: ثقتة بأن ما معه من أموال وعتاد يوصله إليها، وتحسين أصحابه ذلك له، وإطعامهم إياه في السيطرة على إفريقية؛ عن طريق قهوين وتصغير شأن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) صاحب إفريقية. وهم - في الحقيقة - يعدونه عن أبيه. كما أن العباس بدا له أن قبائل البربر تؤيده وتناصره، إذ إنه كاتب وجوه البربر، فأسّرت إليه جماعة منهم أعظاهم بعض المال. ورغم تخلف أكابر القبائل - لترات بينهم وبين قوم يخشونهم إذا خرجوا إليه - فقد كان مطمئناً إلى كفاية من قدم إليه؛ لكي يتقدّم إلى إفريقية.

وكذلك علّل الكآبة الشديدة والغم الظاهر الذى علا وجه ابن طولون، لما أشيع خبر مقتل ابنه بعد هزيمته البشعة في إفريقية على يد قوات (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب)، وقبيلة نفوسة الإباضية^د (بقيادة إلياس بن منصور الزناتى رئيسهم)، بأن ذلك لو كان وقع، لوضع ابن طولون بين شرّين:

أ- فقد ابنه، وذهاب جميع ما كان معه من مال طائل.

ب- ضرورة أخذه النار. وهو إن تغافل ضاعت هيئته، وإن غض للانتقام، احتاج إلى أموال عظيمة، لم تكن في حسابه، ولم يُدبّر أمرها^(٦).

٣- وأخيراً، انفرد البلوى - فيما أرى - بتعليل ظاهرة شاعت في تلك العصور (ظاهرة

(١) سيرة البلوى: ٢٤٤.

(٢) قال البلوى في ذلك: "ومن الناس من يعنى عن حفظ نفسه وعيب ولده؛ فوادى فيه، وإن كان أبوه حازماً لا يأنس عليه، لكنه كما قال الشاعر: ويسى في الإحسان طأ لا كمن هو نابه وبنمره مفود

(سيرة البلوى: ص ٢٤٤).

(٤) السابق: ٢٥٣.

(٣) السابق: ٢٥٢.

(٥) من فرق الخوارج العنصرى. إمامهم عبد الله بن إباح بإجماع. اعترفت الإباضية فرقاً، بجمعها القول بأن كمار هذ الأمة - يعون بذلك مخالفهم من هذ الأمة - نراء من الشرك والإيمان، فلبسوا مؤمنين ولا مشتركين، لكنهم كمار. وأحاروا شهادتهم، وحرّموا دماجم سرّاً، واستحلّوها علانية. (الفرق بين الفرق للعدادى ص ١٢٠).

(٦) سيرة البلوى: ص ٢٥٥-٢٥٦.

قطع رءوس القتلى وحملها إلى من يهمله الأمر). فقد أمر ابن طولون بالأسرى إلى الحبس (أى: الذين أسرتهم جيوشه ممن كانوا مع ابنه العباس)، وبالرءوس (أى: رءوس القتلى) أن تُنصَّب على القسي^(١)؛ ليراهم من لم يرها، ويُشاهدوها ويُشاهد منها كل معروف، فيتعرف عليهم أهلهم ممن خفى عليهم أمرهم^(٢).

ثانياً - التعليق:

وهذا من عناصر المنهج المهمة، التي تبين موافقة المؤرخ للحدث أو رفضه إياه، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة منه، أم ضمنية، أم ساقه بطريقة غير مباشرة على لسان غيره. كما أنه يطلق على شرح المؤرخ للحدث، وبيان خلفياته ومضامينه، أو الربط بينه وبين غيره. وكلما كثرت التعليقات الصحيحة الصادقة الجديدة، كان ذلك دليلاً على الإبداع والابتكار. ويرتبط هذا عنصر الحياد وعرض الحقائق مجردة، أو الانحياز والتأثر بالهوى.

١- ابن الداية:

اعتمد على انتقاء روايات استحسناها من موارده. وهذا إقرار منه برضاه وموافقة على ما ورد فيها. وتأخذ التعليقات لديه صوراً شتى:

أ- تعليق ورد على لسان غيره:

ومثاله: ما ساقه على لسان مجهول تعليقاً على شدة تخدير ابن طولون طبيبهِ سعيد بن توفيل من الإهمال بشأنه، قال: " فقال بعض الغلمان: ما سمعتُ حثّاً لمتطبب على مبالغة في سعي أحسن من هذا "^(٣). وأحياناً يريد التعليق على لسان راوى الحدث (أبي جعفر بن عبد كان)؛ إعجاباً بصياغة أفكار ابن طولون إلى عامله على الثغور بشأن تكليفات موجهة إليه خلال فترة هدنته مع الروم. قال ابن عبد كان: " فلم يتخضرنى في الكتاب أحسن من معاني ألفاظه، فلم أتجاوزها "^(٤).

ب- تعليق يسير خاطف لابن الداية:

علّق ابن الداية على استخفاف ابن طولون بالمعتقدات الخاطئة الخاصة بصنم عين شمس، الذي كانت الأساطير تزعم أنه ما اقترب منه وال إلا غُزل. فقال الأمير للقائم على شئون الصنم بعد أن أمر باجتنائه: من صرف منا صاحبه ؟ قال: أنت أيها الأمير. فعلق ابن الداية قائلاً: " وعاش أحمد

(١) جمع (قوس). وتُجمع على جمع كثيرة، منها: أفوس، وقُسي. وهى آلة على هيئة هلال تُرمى بها السهام. وهى لفظة معروفة عجمية وعربية، تذكر وتوثق. ويقال: رموا أعدائهم عن قوس واحدة. أى: كانوا متفقين. (السان، مادة: ق. و. س.) حـ ٥ ص ٣٧٧، والمعجم الوسيط ٧٩٦/٢.

(٥) السابق: ٩٨.

(٤) سيرة ابن الداية ٩٤.

(٢) سيرة البلوى ٢٦٨.

ابن طولون بعدها اثنتي عشرة سنة أميراً^(١). أى: إلى سنة ٢٧٠هـ، حين توفى أميراً (ولم يُعزل).

وفي رواية أخرى: بعد أن ساق ابن الداية نص ما وجد في رقعة مكتوب فيها تاريخ دخول ابن طولون مصر، وعمره يوم دخولها، علق قائلاً: "قال أحمد بن يوسف: فَصَحَّ عندي أنه عاش خمسين سنة"^(٢). وهو تعليق صحيح؛ فقد ولد سنة ٢٢٠هـ.

ابن الداية بين الحياد والتحيز:

بادئ بدء نقرر أن ابن الداية حكم على نفسه بالتحيز لأحمد بن طولون بدليلين قررهما كما يلي:

الأول - ما يؤمن به من فكر نظرى سجله في (العهود اليونانية)، إذ يقول في المقدمة ما نصه^(٣): "واعلم أن أفضل المدح ما ساق إلى المدوح فضيلة، ولم يُلْحَقْ بغيره رذيلة. لكنى أرى أن الأولى بمن صَحَّتْ فطرته، وكُرِّمَ طبعه الإمساك عن معائب الأعلام في كل حَوَزة، ونشر فضائلهم؛ ليقضى بها مَنْ أتى بعدهم، واغتفار ما عَثَرَ به من زللهم؛ لصِفَرِهِ في جنب ما تأدَّى إلينا من فضلهم، وأقداناه منهم". وهذه العبارة حَمَّالة بكثير من وجوه النقد، منها:

أ- أنه لم يكن موقفاً، عندما جعل المدح داخلاً في سياق الحديث عن السياسة والسياسيين، وشئون الحكم، وإدارة الدول، وتأريخ المؤرخين لكل ذلك. فالمدح ليس من شيم المؤرخين النصفين (حتى إذا كانت الشخصية المترجم لها ذات مآثر عظيمة؛ فأدائها لواجبها منوط بها، وإمالتها يُعاب عليها). إنما المدح من شأن الشعراء المتزلفين المتملقين؛ لقاء حفنة دراهم أو دنائير^(٤). وإن كنا نوافقه على إعطاء كل ذى حق حقه، وألا نخلط بين الأمور في الحكم على الأشخاص والأحداث، فلا نال من شخص بباطل؛ ليكتسب الآخر مديحاً أو ثناء، أو نقرر له - بالأحرى - مآثره دون وجه حق.

ب- يرى ابن الداية أن الأولى والأفضل عند تناول الأعلام المبرزين في كل اتجاه، أن ننشر فضائلهم، ونركز على إبراز محاسنهم. والهدف الاقتداء بهم ممن يأتي بعدهم، وعلى هذا نَعَصَّ الطَّرْفُ عن ذكر مآخذهم وسلباتهم؛ لأنما قليلة إذا قيست بما أدوه لنا من خدمات جليلة. ثم يحكم ابن الداية على من يقوم بذلك بأنه (صحيح الفطرة، كريم الطبع). ونحن نرى أن الصواب خلاف ما يقول؛ لأن مقتضى كلامه يدخلنا في إطار التحيز البغيض، فنخفي عيوباً، سوف

(١) السابق: ١٠٣.

(٢) سيرة ابن الداية: ١٣١.

(٣) الفلسفة السياسية عند العرب: ٤٥-٤٦.

(٤) دَعَلَ من مبالغت روايات الأدب والأخبار، التي تزعم أن شاعراً ما نال مقابل بيت من شعر - مثلاً - عشرة آلاف درهم. إما - في رأيي - أخبار بواطيل.

تكشف إن عاجلاً أو آجلاً، ونزيف الحقائق، أو على الأقل نعرض صورة مبتورة خيّرة صرفاً، وهو ما يناقض طبيعة البشر، التي يعرفها الناس جيداً. فالشخصيات والأحداث تُعرض - بعد التحقق من صدقها - دون رتوش، ولا تُجمل كاذب.

الثاني - سيطرت الأفكار النظرية الخاطئة السابقة على ذهن ابن الداية، فانطلق من الفكر النظري إلى الواقع التطبيقي، حين طبق ذلك في كتابه (سيرة ابن طولون)، عندما انتقى ما استحسّن من أخباره، وسَمَّاهُ (المستحسن من أخبار أحمد بن طولون). وهذا يعني أنه يدرأ ما يُستفح ويُسْتَهجن منها، فهو - إذن - يعرض للجانب الحسن فقط، وهو ما يتعارض مع التأريخ الملتزم بالحياد النصف.

وإذا انتقلنا إلى كتاب ابن الداية في السيرة، وجدنا نماذج عديدة، تدل على تحيزه لابن طولون، منها: ما ورد عن ابن طولون أنه كان رقيباً على نفسه في أكثر ما يجري على يديه من الأشياء، يتصدق في أثرها، ويتضرع إلى ربه في تمحيص ما ثبت عليه فيها، ويتأوّل فيما يأتيه بما تُريه الحجة في أكثر سطواته^(١). وهذا يعني أن إساءات ابن طولون إلى الناس كثيرة، وأنه يتصدق نحو تلك الإساءات والمظالم، ويُؤوّل تصرفاته، ويبحث فيها عن حجج وبراهين، تطمئنه إلى سلامة منطقته. كان الواجب على ابن الداية أن يعلق ولا يسكت^(٢)؛ فالإساءة تتطلب رفع الظلم عن أساء إليه، وصفح المظلوم عنه. والتصرف الصحيح لا يحتاج إلى تأويل، ولو كان - حقاً - رقيباً على نفسه يتقى الله، ما كانت سطواته تلك.

ومن دلائل تحيزه:

إغفاله ذكر كتاب الموفق، الذي أرسله إلى ابن طولون بخصوص الخراج، واكتفى بذكر عامة ما فيه من تهديد وتعنيف ابن طولون، ومطالبته بالخراج الحقيقي لمصر^(٣). وكان يمكن الإتيان بنص كتاب الموفق وبيان حججه تفصيلاً، فلعله كان صادقاً في طلب العون لمحاربة الزنج، لكنه أخطأ الطريقة والأسلوب. ويغلب على الظن أن كتاب الموفق كان محفوظاً بالدديان، فكان الحياء يقتضي أن يأتي بنص الكتابين معاً، بدل أن يكتفى بنص كتاب ابن طولون فقط^(٤). ولا يُتعلل - هنا - بالاختصار؛ لأننا سنسأل: لم كان الاختصار في حق الموفق فقط دون ابن طولون؟!

(١) سيرة ابن الداية: ص ٨٥.

(٢) ورد في سيرة البلوي ص ٧٤ الموقف التحيز السابق نفسه، ولم يعلن هو الآخر.

(٣) السابق: ٨٩ - ٩١.

(٤) السابق: ٨٩.

وأخيراً، فقد خالف ابن الداية طبيعته العقلانية المعروفة عنه، لما ذكر رواية تنبأ بأوصاف ابن طولون ومدة دولته^(١)، وكذلك ما أورده مما لا يُعَوَّل عليه، بما رآه أحدهم في منامه، عندما شاهد ابن طولون بعد وفاته، وهو في حال حسنة؛ لإنصافه المظلوم^(٢). فكانه يريد أن يشعرنا بحسن خاتمة الرجل، ويحكم له بالخيرية المطلقة، وأن مثواه الجنة. وهذا مما لا يعلمه بشر، ولا يُستدل بالمنامات عليه؛ فقد تكون من قبيل الخيالات والشطحات، أو وانعكاسات لأمنيات مُلحَّة.

٢- البلوى:

اهتم بالتعليق على الأحداث التاريخية اهتماماً كبيراً، وتوسع في ذلك بحكم ميله إلى التفصيل في ذكر المعلومات. وقد اتخذت تعليقاته صوراً متعددة، منها:

أ- تعليق سريع:

ذكره البلوى خلال حديثه عن أهل نغر طرسوس، الذين ضاقوا بجيش ابن طولون في الطرقات، فعلق على طبيعتهم قائلاً: " وفيهم غلظة أهل النغر "^(٣)، ثم خيَّروا ابن طولون بين المقام بينهم في عدَّة سيرة، أو الرحيل بجيوشه الحرارة. وكذلك علق البلوى على إيقاع أحد القبط براهب قبطي؛ لشئ كان يحقده عليه، فأراد التشفى منه، فوشى به عند أحد قواد ابن طولون، فقال: " والقبط لا يحسنون أكثر من سعاية بعضهم ببعض "^(٤).

ب- تعليق مختصر دقيق وجيز:

مثل قوله: " فكان تسرع الغطريف تسرع باسل (شجاع)، لزمه فرض وطمع في الظفر وعَجَل. ولو تثبت وكان في أجله تأخير لم يقتل "^(٥). أى: وصف هذا القائد الطلولي، الذى أرسله الأمير على رأس جيش لردع ثورة أهل برقة، فتسرَّع في قتالهم دون حيلة أو أهبة لازمة، فعرض نفسه للقتل. فشجاعته وإقدامه لما لم يجتمع لها فيها الحذر الواجب، والأجل الممتد، أفضى به ذلك إلى القتل.

ج- تعليقات قدرية مطولة، وأحياناً يمزج بينها وبين التعليقات المنطقية: ومن أمثلة ذلك:

أثبت البلوى تغلفه في صميم الحدث التاريخي، ونفاذه إلى حقيقة اليد الإلهية، التي تقف

(١) سيرة ابن الداية: ص ٧٦-٧٧.

(٢) السابق: ١٣٢.

(٣) سيرة النبوى ٩٧.

(٤) السابق: ٢٠٦.

(٥) السابق: ٧٠-٧١.

وراء الأحداث وتحركها؛ لتصل إلى قدرها المحتوم. لقد علق على محاولات ابن طولون المستميتة لرد غلامه لؤلؤ عن غيِّه قائلاً: " وطن أحمد بن طولون أن المخادعة تمكنه من لؤلؤ، والملاطفة تنبيهه، ولم يعلم أن سبب زوال منكه يكون على يدى محمد بن سليمان؛ لما حققه عليه من أفعاله به، وحققه منه ^(١). وكأنه يريد القول بأن ابن طولون لو كان يعلم مستقبل الأحداث، ما عتني نفسه في محاولاته، فكاتب لؤلؤ (محمد بن سليمان)، الذى طالما نال منه وانتقم؛ بسبب سيده، هو الذى سيكتب نهاية دولة بني طولون بيده.

وقد جمع البلوى بين الجانبين (القدرى، والمنطقى) في تعليقه على إيقاع ابن طولون بطيبة (سعيد بن توفيل)، فقال: " قال مؤلف هذا الكتاب: وكان أحمد بن طولون يُحذّر سعيداً قديماً من قتله له، وكان قد وقع له؛ لتتم المشيئة في سعيد أيضاً، أنه قد أغفل علاجه في بدء العلة، حتى ترايدت عليه وعظم أمرها. لم يكن الأمر كما ظنه أحمد بن طولون به، ولا كان الخطأ إلا منه على نفسه، والذنب له دون غيره ^(٢). هنا جمع بين مشيئة الله فيهما معاً، وبين خطأ الطبيب أولاً، وعدم اتباع ابن طولون نصيحة الطبيب (لما أكل السمك دون علمه)، فكان ما كان (قتل ابن طولون سعيداً، ثم مات ابن طولون من مرضه).

البلوى بين الحياء والتحيز:

أعتقد أن البلوى أقل تحيزاً من ابن الداية، إذ لم يتبعه في منهجه الذى اختطه لنفسه من الاكتفاء بذكر محاسن ابن طولون. ومن هنا ألفينا البلوى منصفاً محايداً في عدد غير قليل من الروايات، رغم أنه كان شديد اللهجة، قاسى العبارات، لكنه كان مُحِقّاً في تعليقه النقدي اللاذع. ومن أمثلة ذلك: هجومه الشديد على العباس ومن معه عندما خرجوا على ابن طولون دون وجه حق، فوصم هؤلاء بضعف السياسة والتدبير، وشَدَّد التَّكْمِر على العباس خاصة، فاقمه بعمى القلب، وعمى قلب من أشار عليه، واستنكر على العباس خروجه قائلاً: أليس البلد في يده، وأمره نافذ فيه، وفيما يريد من مال وغيره، متمكن منه، مبذول له ١٩؟ لكن نعوذ بالله من الخذلان ^(٣). وكذلك وصف لؤلؤاً بأحط الأوصاف لما انقلب عليه الموفق، فوصفه بالأصل الدني، والفعل الردي ^(٤).

لا يمنع ما تقدم وجود بعض أمثلة بدا فيها تحيز البلوى لابن طولون ومبالغاته بشأنه؛ لفرط إعجابه به. ومن ذلك قوله: إن خروج موسى بن بغا بأمر الموفق ضد ابن طولون أهم الأحرار

(١) سيرة البلوى: ٢٧٧.

(٢) السائق: ٣٢٩.

(٣) سيرة البلوى: ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٤) السائق: ٣٠٨-٣٠٩.

وأقلقه، لا لأنه يقصر عن موسى، لكن لتحمله هتك الدولة، وأن يأتي ما يكون سبيله فيه سبيل من قاوم السلطان، وكسر جيشه^(١)، فهو يقصد - في تحيز واضح لابن طولون - أن الأمير لا يريد إحراج جيوش الخلافة، أو إلحاق الهزيمة بها. لقد كان موسى - كما قال البلوى - عِوَل الدولة، وأشد أهلها بأساً وإقداماً^(٢). فجيوشه - إذن - ليست لقمة سائغة لابن طولون، وهو إن كان لم يتقدم لملاقاته، فذلك يرجع؛ لعدم صرف الخلافة الأموال اللازمة لجيوشه^(٣). وعلى كل، فمصر بها ثغرات وعورات يمكن لابن بُغا النفاذ منها. وإذا كان ابن طولون حَصَن جزيرة الروضة، فاعتقد أن ذلك لم يكن خوفاً على الرعية، وإنما كان لحفظ حُرْمه الكثيرات وذخائره، فاتخذ أمام الحصن القائم بين الفسطاط والجزيرة السفن والأساطيل^(٤). ثم إنى أعتقد أنه لم يخش على جيوش الخلافة، وإنما الحقيقة أنه كان حريصاً على التظاهر بأنه في خدمة الخليفة وناصر له، فكيف يحارب جيوشه؟! إنه سيفقد الحجة التي يتكى عليها في معاداة الموفق، وسيفقد شرعيته. ومن هنا كان ابن طولون في موقف حرج.

ومن عجب أن البلوى دافع عن بطش ابن طولون، فبعد أن عَدَد نماذج عقوبات أنزلها ابن طولون بأناس، تناولوا بالسنتهم عليه، فعاقبهم بالحبس والضرب حتى الموت^(٥)، علق البلوى قائلاً: "كل هذه الأحوال التي عدناها، فالعذر فيها كلها يَبِين لأحمد بن طولون، والذنب لمن بسط لسانه في مثله، ويتعدى إلى غير ما هو أهله"^(٦).

ويبلغ البلوى درجة الذروة في التحيز لابن طولون، عندما يعتمد على مرويات غير موثوق بها، تقطع له بأنه في النعيم المقيم. فإذا تساءلت عن قتلهم ابن طولون، انبرى البلوى قائلاً: إن من قتلهم ابن طولون كانوا يستحقون ما حكم به عليهم؛ لأنهم أساءوا فيما بينهم وبين خالقهم، وفي حق أناس مستضعفين آخرين، قتلوهم ظلماً وعدواناً^(٧). والحق أن البلوى - هنا - يقرر ويوصل مبادئ خطيرة، ليست من الإسلام في شيء؛ إذ يرى ابن طولون من جنائات قتل بشعة، ارتكبتها بحجة أن قتلاه كانوا يستحقون ذلك؛ لأخطائهم في حق الله، وظلمهم العباد، بانياً ذلك على منامات، يمكن أن تكون أوهاماً.

(١) سيرة البلوى: ٨٦. (٢) السابق: ٨٥. (٣) تاريخ ابن خلدون: ٤٢٦/٣.

(٤) سيرة البلوى: ٨٦-٨٧. (٥) المصدر السابق: ١٧٨. (٦) السابق: ١٧٩.

(٧) سيرة البلوى: ٣٥٤-٣٥٥. واتخذ أن للبلوى رواية احتز فيها - نوعاً ما - بهذا الشأن، إذ قال: صَحَّت رواية محبوب ابن رجاء: أنه رأى في سامه ابن طولون، الذي قال له: "خُفْتُ على أن أكثر من أسأت إليه، كان مستحق ذلك من رب، فجعلني بقوة له، بعثنا الله يَخْلُق عليه من". (السابق: ٣٥٥). وواضح أن عباراتها احتز بها هي: (خُفْتُ، وأكثر)، لكنها - رغم ذلك - لا يُعَوَّل عليها في نظري.

ثامناً، وأخيراً - حقيقة التاريخ وفهم أغراضه:

بهذه القضية المهمة نختم حديثنا المفصل عن (منهج ابن الداية، والبلوى) في كتابة (سيرة ابن طولون). لقد وردت عدة روايات بما غاذج عديدة، تدعو إلى العظة والاعتبار كهدف أصيل من أهداف التاريخ^(١). ذكر ابن الداية أن نسيماً الخادم (أخص رجال ابن طولون به) قال: إن مولاه عرض عليه - يوماً - جوهرًا وأعلىًا نفيسة، كانت في خزانة له، فحمد الله وأثنى عليه، وتذكر أن الله عوّضه خيرًا، فقد عُرِضَ عليه ولاية واسط مقابل قتل المستعين. فلما ترك ذلك لله يُحْكَمُ، عوّضه الله ولاية مصر والشام^(٢).

أما البلوى، فقد عرض صورة لؤلؤ غلام ابن طولون، وقد عاد إلى مصر ذليلاً فقيراً، احتقره الناس، ولم يحسنوا إليه؛ جزاء غدره وخيانتة، وثمره لعقله السخيف، وفعله القبيح^(٣). وكذلك العبارة التي قالها القاضي بكار بن قتيبة لرسول ابن طولون، عندما أرسل إليه يساومه في خلع الناكث (الموفق)، وذلك قبل وفاة ابن طولون بشهر، قال فيها: "خَفَّ اللهُ في أُمري، فإني شيخ فان، وأنت عليل مُدْتَفِّ (شديد المرض)، ولعل التقاءنا بين يدي الله يُحْكَمُ قريب"^(٤). وكذلك آخر كلمات نطق بها ابن طولون قبل موته بلحظات:

"يا رب، ارحم من جهل مقدار نفسه، فأبْطَرَه حِلْمُكَ عنه"^(٥).

(١) وذلك بخلاف ما يراه الدكتور حسين مؤنس (رحمه الله) في كتابه: (الحضارة) ص ١٣١ - ١٣٢: إذ يفرض أن تكون دراسة التاريخ بهدف العبرة والعظة؛ لأن الناس لا تنعظ بالتحارب الماضية، وكذا الأمم وحكامها، ولا لا تحقت من العالم الحروب والصراعات والأطماع. كما أنه يرى أن الانعاط بأحداث الماضي - لأحد الحسن وترك القبيح - لا يتأتى في الحاضر؛ لأن الانتفاع بتحارب الماضي لا يصح إلا إذا تشابهت الحالات تماماً، وهو أمر غير متحقق أبداً، بالإضافة إلى أن مقياس الحسن والقبح يتغير من عصر إلى عصر. ويخلص (ص ١٣٦ - ١٣٨) إلى أن: التاريخ يُدرّس منه ما يُستفاد به في الحاضر لذاته، باعتباره تجارب ناعمة، تعيننا على حل مشكلاتنا، وتزودنا به أفكارنا حصونة، ونصل إلى الأفضل في حياتنا. والمؤرخ يسجل الأحداث ويدرسها، ويخرج نتائج منها، يعرضها في كتبه دون أن تأخذ شكل الوعظ (فما أُنْفِصَ على القلوب!)، وبدع (الحقائق تنكلم، فهو ضمير أمتة، وعقلها الباطن، الذي يصحح مسارها، وهو فاعل في مكتبته يؤلف، أو بين تلامذته يُحاضر، والحق أن آراء الدكتور مؤنس آراء مستبصرة متفتحة، لكنها تختم النقاش. ونحن لا نخلف معه حول فائدة التاريخ ودور المؤرخ وأهميته. لكننا نحفظ تجاه رصده أن يكون التاريخ للعة والعبرة، بل نضيف هذا الجانب إلى ما ذكر، وليس معنى أن كثيراً من الناس لا ينظرون أن نفي هذا العرض الأسمى الذي يدركه ويستفيد منه الآباء. قال الله (تعالى): ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَؤُلَاءِ رُوحُ الْقَوْمِ يَوْمَئِذٍ﴾ (يوسف: الآية ١١١). وكذلك لا أوافق على تفريق مفايس (الحسن، والقبح، عبر الأزمنة والعصور؛ لأن المبادئ والقيم السامية التي تحكم الجميع ثابتة في كل زمان ومكان.

(٢) سيرة ابن الداية ٧٦. (٣) سيرة البلوى ٣٠٩.

(٤) المصدر السابق: ٣٣٢. (٥) سيرة البلوى ٣٤٣.

وأخيراً، فإن كلاً من: ابن الداية، والبلوى قد فهم التاريخ فهماً شاملاً، وذلك من خلال علاج سيرة ابن طولون علاجاً مستقصياً من مختلف الزوايا والجوانب، خاصة كتاب البلوى المفصل، الذي عرض بتوسع لذلك. فلم يكن التاريخ مجرد سرد للأحداث السياسية التي مر بها ابن طولون، وإنما امتدت واتسعت عقلية هذين المؤرخين لتناول الجوانب العمرانية^(١)، والاقتصادية^(٢)، والاجتماعية^(٣)، والإدارية^(٤)،

(١) اهتم ابن الداية بإبراز النواحي العمرانية في (سيرة ابن طولون)، فوصف دار الإمارة وأبنتها، والميدان، ومدينة القطائع (ص: ٨٣)، والمسجد، والعين، والمارستان (ص: ٨٦)، وتنوع الشوارع اتساعاً وضيقاً ٩٢-٩٣، ووصف سحونا خاصة لبعض الزلاء الكبار كابن المذبر (عبارة عن حجرة واسعة، بها مائدة طعام، وخادمان) ص: ١٢٤. واهتم البلوى بذلك الجانب، فتناول تخطيط الشوارع، وتقسيمها إلى رئيسية تمر فيها مواكب الأمور، وشوارع فرعية داخلية، ومدى الاهتمام بنظافة الأول، لتلائم عليه القوم (ص: ٤٢). وامتاز البلوى بإعطاء القارئ صورة حية ماثلة للعين لدار الإمارة بكافة تفاصيلها (ص: ٥٢-٥٤). ووصف مدينة القطائع، وروعة تخطيطها العمراني، وتوفير كافة مستلزماتها للاكتفاء الذاتي (ص: ٥٢-٥٤). وأطال في الحديث عن قصر ابن طولون، وأبوابه الكثيرة، وعرض كل باب منها، والطائفة المحصنة للدخول من كل باب، وتناول هندسة وتنظيم، وتوقيت استخدام هذه الأبواب (ص: ٥٤-٥٦).

(٢) اهتم ابن الداية بإبراز بعض النواحي الاقتصادية، فذكر مقدار ما يُحمل من الخرافة من أموال وأشياء عينية (ص: ٨٤، ٨٧)، وتحدث عن إصلاحات ابن طولون الاقتصادية، وإسقاطه ضرائب ابن المذبر (ص: ٨٥)، واهتمامه بتقديم العطاء لأئمة المساجد (ص: ٩٦)، واهتمامه بصناعة الأسطول (ص: ٩٥)، ومكافأته للعاملين بدار سك النقود (الدينار الأحمدي) (ص: ٩٩)، ونفقات مطبخ ابن طولون (ص: ١١٢)، وعرض الجانب من مصادر ابن طولون لبعض الكتاب (ص: ١٠٦-١٠٧). وعرض البلوى لبعض مظاهر الاقتصاد، منها: وجود نظام المقايضة في البيع والشراء (ص: ٦٥)، وما يرسل للخلافة سنوياً (ص: ٨٠)، والاهتمام بإنشاء السفن الحربية لدعم صناعة الأسطول (ص: ٨٧)، وعرض لبعض المصادرات (ص: ١٣١)، ونفقات مطبخ ابن طولون (ص: ١٤١)، وارتفاع أسعار الفصح وثورة الناس ومعاقبة ابن طولون للفتاحين والفقاقين (ص: ١٤٩).

(٣) أبرز ابن الداية عدداً من الظواهر الاجتماعية، منها: حرص الشعب المصري على التطلع إلى مواكب ابن طولون، ومراسم تلك المواكب (ص: ٧٦، ٧٨، ٩٧)، وذكر أصناف أطعمة ابن طولون على مواعيد الحفلة (ص: ١٠٠، ١٠٩)، ومراسم جنائز العامة (ص: ١٠٢)، وطبقة المستورين في عهد ابن طولون (ص: ١٠٥)، ويوم السلام على الأمير (ص: ١١٣)، وصورة من حياة بعض المساجين في السجون (ص: ١١٤). أما البلوى، فقد تعرض لبعض هذه الظواهر في كتابه. ومن نماذج ذلك: تكافل المجتمع الإسلامي (ص: ٣٤)، ومواكب الأمراء وعلية القوم (ص: ٤٢)، وأوصاف طبقة الجند المصاحين لابن المذبر، وأزيائهم، وسلاحهم، ومكان جلوسهم (ص: ٤٤)، ومواكب الجيوش بعد انتصارها (ص: ٧٢)، وطبقة الصنّاع وما عليها من ديون مستحقة أسقطت (ص: ٨٨)، ووصف بعض البيوت من الداخل في نظافتها وفرشها (ص: ١١٩-١٢٠)، وأنواع أطعمة ابن طولون (ص: ١٢٦)، وما يتبع في بيوت العامة من شرب النبيذ، واقتناء الحمام، والدحاج على أسطح المنازل (ص: ١٥٧)، ومراسم جنازة ابن طولون (ص: ٣٤٥-٣٤٦).

(٤) من نماذج الترتيبات الإدارية والتنظيمية التي أورد جانباً منها ابن الداية: وجود حوازات للمرور من مكان لآخر في مصر أو إلى خارجها (ص: ٨٢)، واختيار الكتاب الأكفاء بشروط معينة (ص: ١٠٦)، ووجود عدد من المناصب، مثل: (عامل معمورة الناحية ص: ٩٨، وعميد الناحية ص: ٩٩، وعامل السجون ص: ١١٠، ورئيس السعاة (المحيرين) ص: ١١٢. وبالنسبة للبلوى، فقد أبرز الاهتمام بالعاصمة كمركز نقل حضاري واجتماعي (ص: ٤٢)، وحواز السفر للمرور (ص: ١٣٨، ١٥٤)، ووجود إجراءات لشراء البيوت من تسجيل وكالة =

والفكرية^(١) في عهد الأمير (أحمد بن طولون). وباختصار عالج المؤرخان - خاصة البلوى - الجانب الحضاري إلى جانب التاريخي السياسي، فأنت كتابتهما متكاملة شاملة، ذات أثر بعيد في المؤرخين من بعدهم.

خلاصة في أهمية ابن الداية والبلوى في عالم التاريخ والمؤرخين:

- أ- يعد هذان المؤرخان المصدر الأساسي، الذي اعتمد عليه من أتى بعدهما من المؤرخين في كتابة تاريخ (أحمد بن طولون)^(٢).
- ب- مثل هذان المؤرخان ثقافة القرن الرابع الهجري كأحسن ما يكون التمثيل، ويمتاز ابن الداية بالموسوعية الثقافية إلى جانب الإلمام بعلوم جديدة، كانت بمثابة روافد غدت التاريخ، وعمقت أسلوب عرضه، ومنهج تقديمه كالفلسفة، والمنطق، والفلك.
- ج- خطا هذان المؤرخان بعلم التاريخ خطوات كبيرة إلى الأمام عن طريق ريادتهما في كتابة (السيرة التاريخية)، ومنهجهما التاريخي المتكامل المحكم، الذي دلل على فهم التاريخ فهماً شاملاً، وتناول أحداثه بطريقة علمية رائدة، وقدرة على التفاعل مع الأحداث واندماج فيها، وحسن فهم لها، وذلك من خلال الحضور مع الأحداث تعليلاً، وشرحاً، وتعليقاً.

- (ص ١٦٠)، ووجود ديوان الرسائل ص ١١٢، ولتصفح ١١٣، إلى جانب مناصب، مثل: صاحب الخراج، والأميين عليه، وصاحب ديوان الأملاك ص ٧٣، وكتاب السيرة (ص ١٠٠، ١١١)، وصاحب الخبر (ص ١١٨، ١٢٤)، والقائم بصيط النجر من المازين (ص ١٣٠)، وصاحب الشرطة (ص ١٥٥).

(١) من مظاهر ذلك عند ابن الداية: إقامة الأئمة في مساجدهم ص ٩٦، ومفسر الرؤى الغسّال ص ١٠٣، ووجود علماء نحو وإدباء (خرجوا مع العباس) ص ١١٨، وأشعار ابن المدير في استعطاف ابن طولون (ص ١٢٣-١٢٤). وفي كتاب البلوى: تعلم البعض اللغة الثقبطة (ص ١٣١)، وقدرة بعض الكتاب على الارتجال في الخطابة (ص ١٤٧)، ودراسة علوم الفلك (ص ١٦٥)، وشرح يوسف بن إبراهيم في استعطاف ابن طولون (ص ١٦٥-١٦٦).

(٢) وردت نقول عديدة عن (سيرة ابن الداية) في: تاريخ دمشق ٣/٧، ٣٤٠، وبقية الطلب ٣/١١٢-١١٣، ووفيات الأعيان ١/١٧٣، والمغرب لابن سعيد (قسم مصر) ص ١٣٤-١٤٣، ومختصر تاريخ دمشق ٨/٨٨-٨٩، ٣١/٢٠. أما البلوى، فقد نقل عنه المغربي نصوحاً عديدة دون أن يصرح باسمه، واكتفى بتلقيبه بـ (جامع السيرة الطولونية)، وذلك في (المخطوط) ج ١ ص ١٧١، ٢٣٠، ج ٢ ص ١٢٣-١٢٤، ١٧٨-١٨١، ٢٦٥-٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥، ٥٤٦، ٥٤٧، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١، ٥٥٢، ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣، ٥٦٤، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٤، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦٠٧، ٦٠٨، ٦٠٩، ٦١٠، ٦١١، ٦١٢، ٦١٣، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠، ٦٣١، ٦٣٢، ٦٣٣، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧، ٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١، ٦٤٢، ٦٤٣، ٦٤٤، ٦٤٥، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٥٣، ٦٥٤، ٦٥٥، ٦٥٦، ٦٥٧، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٦٨، ٦٦٩، ٦٧٠، ٦٧١، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٧٥، ٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠، ٦٨١، ٦٨٢، ٦٨٣، ٦٨٤، ٦٨٥، ٦٨٦، ٦٨٧، ٦٨٨، ٦٨٩، ٦٩٠، ٦٩١، ٦٩٢، ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥، ٦٩٦، ٦٩٧، ٦٩٨، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٠٣، ٧٠٤، ٧٠٥، ٧٠٦، ٧٠٧، ٧٠٨، ٧٠٩، ٧١٠، ٧١١، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٤، ٧١٥، ٧١٦، ٧١٧، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠، ٧٢١، ٧٢٢، ٧٢٣، ٧٢٤، ٧٢٥، ٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨، ٧٢٩، ٧٣٠، ٧٣١، ٧٣٢، ٧٣٣، ٧٣٤، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٧، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٤٠، ٧٤١، ٧٤٢، ٧٤٣، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٦، ٧٤٧، ٧٤٨، ٧٤٩، ٧٥٠، ٧٥١، ٧٥٢، ٧٥٣، ٧٥٤، ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧، ٧٥٨، ٧٥٩، ٧٦٠، ٧٦١، ٧٦٢، ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٦، ٧٦٧، ٧٦٨، ٧٦٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٢، ٧٧٣، ٧٧٤، ٧٧٥، ٧٧٦، ٧٧٧، ٧٧٨، ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨١، ٧٨٢، ٧٨٣، ٧٨٤، ٧٨٥، ٧٨٦، ٧٨٧، ٧٨٨، ٧٨٩، ٧٩٠، ٧٩١، ٧٩٢، ٧٩٣، ٧٩٤، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٨، ٧٩٩، ٨٠٠، ٨٠١، ٨٠٢، ٨٠٣، ٨٠٤، ٨٠٥، ٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨، ٨٠٩، ٨١٠، ٨١١، ٨١٢، ٨١٣، ٨١٤، ٨١٥، ٨١٦، ٨١٧، ٨١٨، ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢١، ٨٢٢، ٨٢٣، ٨٢٤، ٨٢٥، ٨٢٦، ٨٢٧، ٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠، ٨٣١، ٨٣٢، ٨٣٣، ٨٣٤، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٣٧، ٨٣٨، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤١، ٨٤٢، ٨٤٣، ٨٤٤، ٨٤٥، ٨٤٦، ٨٤٧، ٨٤٨، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٢، ٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥، ٨٥٦، ٨٥٧، ٨٥٨، ٨٥٩، ٨٦٠، ٨٦١، ٨٦٢، ٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٥، ٨٦٦، ٨٦٧، ٨٦٨، ٨٦٩، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ٨٨٠، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٣، ٨٨٤، ٨٨٥، ٨٨٦، ٨٨٧، ٨٨٨، ٨٨٩، ٨٩٠، ٨٩١، ٨٩٢، ٨٩٣، ٨٩٤، ٨٩٥، ٨٩٦، ٨٩٧، ٨٩٨، ٨٩٩، ٩٠٠، ٩٠١، ٩٠٢، ٩٠٣، ٩٠٤، ٩٠٥، ٩٠٦، ٩٠٧، ٩٠٨، ٩٠٩، ٩١٠، ٩١١، ٩١٢، ٩١٣، ٩١٤، ٩١٥، ٩١٦، ٩١٧، ٩١٨، ٩١٩، ٩٢٠، ٩٢١، ٩٢٢، ٩٢٣، ٩٢٤، ٩٢٥، ٩٢٦، ٩٢٧، ٩٢٨، ٩٢٩، ٩٣٠، ٩٣١، ٩٣٢، ٩٣٣، ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٣٦، ٩٣٧، ٩٣٨، ٩٣٩، ٩٤٠، ٩٤١، ٩٤٢، ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٥، ٩٤٦، ٩٤٧، ٩٤٨، ٩٤٩، ٩٥٠، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٥٤، ٩٥٥، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٥٨، ٩٥٩، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢، ٩٦٣، ٩٦٤، ٩٦٥، ٩٦٦، ٩٦٧، ٩٦٨، ٩٦٩، ٩٧٠، ٩٧١، ٩٧٢، ٩٧٣، ٩٧٤، ٩٧٥، ٩٧٦، ٩٧٧، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١١، ١٠١٢، ١٠١٣، ١٠١٤، ١٠١٥، ١٠١٦، ١٠١٧، ١٠١٨، ١٠١٩، ١٠٢٠، ١٠٢١، ١٠٢٢، ١٠٢٣، ١٠٢٤، ١٠٢٥، ١٠٢٦، ١٠٢٧، ١٠٢٨، ١٠٢٩، ١٠٣٠، ١٠٣١، ١٠٣٢، ١٠٣٣، ١٠٣٤، ١٠٣٥، ١٠٣٦، ١٠٣٧، ١٠٣٨، ١٠٣٩، ١٠٤٠، ١٠٤١، ١٠٤٢، ١٠٤٣، ١٠٤٤، ١٠٤٥، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨، ١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥١، ١٠٥٢، ١٠٥٣، ١٠٥٤، ١٠٥٥، ١٠٥٦، ١٠٥٧، ١٠٥٨، ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٠٦١، ١٠٦٢، ١٠٦٣، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٠٦٦، ١٠٦٧، ١٠٦٨، ١٠٦٩، ١٠٧٠، ١٠٧١، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٤، ١٠٧٥، ١٠٧٦، ١٠٧٧، ١٠٧٨، ١٠٧٩، ١٠٨٠، ١٠٨١، ١٠٨٢، ١٠٨٣، ١٠٨٤، ١٠٨٥، ١٠٨٦، ١٠٨٧، ١٠٨٨، ١٠٨٩، ١٠٩٠، ١٠٩١، ١٠٩٢، ١٠٩٣، ١٠٩٤، ١٠٩٥، ١٠٩٦، ١٠٩٧، ١٠٩٨، ١٠٩٩، ١١٠٠، ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٣، ١١٠٤، ١١٠٥، ١١٠٦، ١١٠٧، ١١٠٨، ١١٠٩، ١١١٠، ١١١١، ١١١٢، ١١١٣، ١١١٤، ١١١٥، ١١١٦، ١١١٧، ١١١٨، ١١١٩، ١١٢٠، ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣، ١١٢٤، ١١٢٥، ١١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٩، ١١٣٠، ١١٣١، ١١٣٢، ١١٣٣، ١١٣٤، ١١٣٥، ١١٣٦، ١١٣٧، ١١٣٨، ١١٣٩، ١١٤٠، ١١٤١، ١١٤٢، ١١٤٣، ١١٤٤، ١١٤٥، ١١٤٦، ١١٤٧، ١١٤٨، ١١٤٩، ١١٥٠، ١١٥١، ١١٥٢، ١١٥٣، ١١٥٤، ١١٥٥، ١١٥٦، ١١٥٧، ١١٥٨، ١١٥٩، ١١٦٠، ١١٦١، ١١٦٢، ١١٦٣، ١١٦٤، ١١٦٥، ١١٦٦، ١١٦٧، ١١٦٨، ١١٦٩، ١١٧٠، ١١٧١، ١١٧٢، ١١٧٣، ١١٧٤، ١١٧٥، ١١٧٦، ١١٧٧، ١١٧٨، ١١٧٩، ١١٨٠، ١١٨١، ١١٨٢، ١١٨٣، ١١٨٤، ١١٨٥، ١١٨٦، ١١٨٧، ١١٨٨، ١١٨٩، ١١٩٠، ١١٩١، ١١٩٢، ١١٩٣، ١١٩٤، ١١٩٥، ١١٩٦، ١١٩٧، ١١٩٨، ١١٩٩، ١٢٠٠، ١٢٠١، ١٢٠٢، ١٢٠٣، ١٢٠٤، ١٢٠٥، ١٢٠٦، ١٢٠٧، ١٢٠٨، ١٢٠٩، ١٢١٠، ١٢١١، ١٢١٢، ١٢١٣، ١٢١٤، ١٢١٥، ١٢١٦، ١٢١٧، ١٢١٨، ١٢١٩، ١٢٢٠، ١٢٢١، ١٢٢٢، ١٢٢٣، ١٢٢٤، ١٢٢٥، ١٢٢٦، ١٢٢٧، ١٢٢٨، ١٢٢٩، ١٢٣٠، ١٢٣١، ١٢٣٢، ١٢٣٣، ١٢٣٤، ١٢٣٥، ١٢٣٦، ١٢٣٧، ١٢٣٨، ١٢٣٩، ١٢٤٠، ١٢٤١، ١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٤٥، ١٢٤٦، ١٢٤٧، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٥٠، ١٢٥١، ١٢٥٢، ١٢٥٣، ١٢٥٤، ١٢٥٥، ١٢٥٦، ١٢٥٧، ١٢٥٨، ١٢٥٩، ١٢٦٠، ١٢٦١، ١٢٦٢، ١٢٦٣، ١٢٦٤، ١٢٦٥، ١٢٦٦، ١٢٦٧، ١٢٦٨، ١٢٦٩، ١٢٧٠، ١٢٧١، ١٢٧٢، ١٢٧٣، ١٢٧٤، ١٢٧٥، ١٢٧٦، ١٢٧٧، ١٢٧٨، ١٢٧٩، ١٢٨٠، ١٢٨١، ١٢٨٢، ١٢٨٣، ١٢٨٤، ١٢٨٥، ١٢٨٦، ١٢٨٧، ١٢٨٨، ١٢٨٩، ١٢٩٠، ١٢٩١، ١٢٩٢، ١٢٩٣، ١٢٩٤، ١٢٩٥، ١٢٩٦، ١٢٩٧، ١٢٩٨، ١٢٩٩، ١٣٠٠، ١٣٠١، ١٣٠٢، ١٣٠٣، ١٣٠٤، ١٣٠٥، ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٠٨، ١٣٠٩، ١٣١٠، ١٣١١، ١٣١٢، ١٣١٣، ١٣١٤، ١٣١٥، ١٣١٦، ١٣١٧، ١٣١٨، ١٣١٩، ١٣٢٠، ١٣٢١، ١٣٢٢، ١٣٢٣، ١٣٢٤، ١٣٢٥، ١٣٢٦، ١٣٢٧، ١٣٢٨، ١٣٢٩، ١٣٣٠، ١٣٣١، ١٣٣٢، ١٣٣٣، ١٣٣٤، ١٣٣٥، ١٣٣٦، ١٣٣٧، ١٣٣٨، ١٣٣٩، ١٣٤٠، ١٣٤١، ١٣٤٢، ١٣٤٣، ١٣٤٤، ١٣٤٥، ١٣٤٦، ١٣٤٧، ١٣٤٨، ١٣٤٩، ١٣٥٠، ١٣٥١، ١٣٥٢، ١٣٥٣، ١٣٥٤، ١٣٥٥، ١٣٥٦، ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٦٠، ١٣٦١، ١٣٦٢، ١٣٦٣، ١٣٦٤، ١٣٦٥، ١٣٦٦، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠، ١٣٧١، ١٣٧٢، ١٣٧٣، ١٣٧٤، ١٣٧٥، ١٣٧٦، ١٣٧٧، ١٣٧٨، ١٣٧٩، ١٣٨٠، ١٣٨١، ١٣٨٢، ١٣٨٣، ١٣٨٤، ١٣٨٥، ١٣٨٦، ١٣٨٧، ١٣٨٨، ١٣٨٩، ١٣٩٠، ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤، ١٣٩٥، ١٣٩٦، ١٣٩٧، ١٣٩٨، ١٣٩٩، ١٤٠٠، ١٤٠١، ١٤٠٢، ١٤٠٣، ١٤٠٤، ١٤٠٥، ١٤٠٦، ١٤٠٧، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٣٠، ١٥٣١، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥، ١٥٣٦، ١٥٣٧، ١٥٣٨، ١٥٣٩، ١٥

الفصل الثالث

ابن زولاق مؤرخ سيرة الإخشيد،

وصاحب أخبار سيبويه المصري

(سيرة الإخشيد) لابن زولاق

تقديم:

نتناول - ابتداء من الآن، وحتى نهاية هذا الفصل - جانباً كبيراً من الإنتاج التاريخي للمؤرخ المصري المبرز (ابن زولاق). ونعرض هذا النتاج حسب الترتيب الزمني له، فنبدأ بكتابه الذي أرّخ فيه لعهد الإخشيد من خلال كتابة سيرته. وسوف نمر دراسة هذه السيرة عبر مراحل متعاقبة:

أولاً - ترجمة مركزة للمؤرخ ابن زولاق.

ثانياً - عرض سريع لمحتويات (سيرة الإخشيد).

ثالثاً - موارده في هذه السيرة (النقد الخارجي).

رابعاً - النقد الداخلي لبعض القضايا التاريخية التي تثيرها.

خامساً - منهجه التاريخي في عرض هذه السيرة.

أولاً - ترجمة ابن زولاق (٣٠٦ - ٣٨٧هـ/ ٩١٩ - ٩٩٧م)*

١ - مولده وأسرته:

هو الإمام العلامة المحدث الفقيه المؤرخ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن

(*) وردت له ترجمة في: الأنساب (مادة الزولاني): ١٧٩/٣، والمتظّم لابن الجوزي (ط. دار الكتب العلمية) ج ١٤ ص ٢١٠ - ٢١١ (هامش ٤)، ومعجم الأدباء ٧/ ٢٢٥ - ٢٣٠، والباب في تهاب الأنساب لابن الأثير ج ٢ ص ٨١، ووفيات الأعيان ٢/ ٩١ - ٩٢، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٦٣ - ٤٦٤، وتاريخ الإسلام ٢١/ ١٥٤، ٢٧/ ١٨ (وفيات سنة ٣٨٦هـ)، و ٢٧/ ١٣٦ (وفيات سنة ٣٨٧هـ)، وتاريخ ابن الوردي ١/ ٤٣٧، ومخطوط عيون التواريخ للكني (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦، والبداءة والنهاية ١١/ ٣٤٣، والمقفى للمفریزی ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٦، ولسان الميزان (ط. مؤسسة الأعلمی) لابن حجر ٢/ ١٩١، ومخطوط (عقد الجمان) للعتی ١٠/ ١٢٥، والفضائل الباهرة لابن ظهيرة ١٣١، وحسن المحاضرة ١/ ٥٥٣ - ٥٥٤، وبدائع الزهور لابن إياس ١/ ١٩٨ -

الحسن بن ^(١) علي بن خالد ^(٢) بن راشد بن عبد الله ^(٣) بن سليمان ^(٤) ابن زُولاقي ^(٥) اللبني ^(٦)، مولا هم المصري ^(٧).

ولد مؤرخنا (ابن زولاقي) في شهر شعبان من سنة ٣٠٦ هـ، بعد وفاة الفقيه منصور بن إسماعيل بثلاثة أشهر (في جمادى الأولى) ^(٨). ولسنا نعرف عن والده شيئاً، والقليل الذي تناقلته المصادر إنما يتعلق بجده (الحسين بن الحسن بن علي) ^(٩)، وبوالد جده (الحسن بن علي بن خالد)، الذي كان يكنى بـ (أبي علي)، ويُلقب بـ (المصري الشيعي). وهذا يعني أن أسرة ابن زولاقي متواجدة على أرض مصر منذ قديم، حتى تُسبب والد جده إليها، وأما كانت متعاطفة مع آل البيت، فَعُرِفَ بالتشيع المعتدل غير المذموم كعامة أهل مصر منذ قديم ^(١٠). وقد اشتهر هذا الرجل بالعلم، فكان من مشاهير العلماء وأعيانهم في مصر؛ إذ

- والكنى والألقاب للفني ٢٩٨/١. وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط. افخية العامة) ٨٦/٢-٨٧، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١-٥٣٢، وظهر الإسلام لأحمد أمين ١٦٦/١، وتاريخ التراث العربي ٥٨٢/١، ومحمد عبد الله عان في: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ٤٠-٤١، ومؤرخي مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري ص ٣٤ ومعه، ود. علي إبراهيم حسن في: استخدام المصادر وطرق البحث ص ١٤٠-١٤٢، ود. شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون ٣٧٦/١-٣٦٩، ١٨٧/٢. Guest ; Introduction Of wulah and el . qudah , P. 45- 46. Byrout , 1908

- (١) ورد هذا الجزء من النسب محرفاً في (لسان الميزان ١٩١/٢). هكذا: إبراهيم بن الحسن بن الحسين.
- (٢) ورد بدلاً منه اسم (حنف) في: (معجم الأدياء ٢٢٥/٧، ولسان الميزان ١٩١/٢). والصواب ما ذكرته في المتن.
- (٣) والدليل ترجمة الدهي هذا الجد (الحسن بن علي بن خالد بن زولاقي) في (تاريخ الإسلام) ١٥٤/٢١.
- (٤) ورد مكانه اسم (عبد الله) في (البدابة والنهاية) ٣٤٣/١ تحريفاً.
- (٥) وردت في (المقفى) ٢٨٥/٣ (سليم)، وهو تحريف؛ بدليل ما ورد في (تاريخ ابن الوردي) ٤٣٧/١: أنه من ولد سليمان بن زولاقي.
- (٦) هكذا بضم الواو، كما ذكر ابن حلكان في (وفيات الأعيان ٩٢/٢)، وحللاً للتصحيف الوارد في (مخطوط عيون التواريخ، ورقة ٢٤٦)، حيث وردت بالراء. ويقلب على ظني أن اسم زولاقي مأخوذ من الفعل (زُلِّقَ)، أي: تَزَيَّنَ وتَشَمَّ، حتى يكون اللون لمعان ولبشرته بريق، أو صبغ نفسه بالأدهان ونحوها. (اللسان: مادة (ز.ل.ق) ٣/ ١٨٥٤). وهو يناسب مكانة الأسرة ووجاهتها، كما سرى.
- (٧) سعة إلى لبث من كنانة، وهي قبيلة كبيرة، يُنسب إليها بالولاء. (وفيات الأعيان ٩٢/٢).
- (٨) ورد هذا النسب الصحيح الكامل لدى ابن حلكان (المصدر السابق ٩١/٢).
- (٩) ذكر ذلك تحديداً في (وفيات الأعيان) ص ٩٢. واكتفى بذكر سنة الميلاد: الذي في (سمر أعلام السلاء ٤٦٣/١٦، والمقفى ٢٨٥/٣، وتاريخ التراث العربي ٥٨٢/١، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١). وحدث تحريف في (لسان الميزان) لأن حمر ١٩١/٢، فجعل تاريخ ميلاد ابن زولاقي سنة ٣٣٦ هـ.
- (١٠) تلمذ على أبيه (الحسن بن علي)، وروى عنه. ولد على أرض مصر، وشأ بها. حَدَّثَ عنه: ابن رشيقي المُحَدَّث. (مخطوط تاريخ علماء أهل مصر) لابن الطحان، ورقة ٢٣٣.
- (١١) "قال يزيد بن أبي حبيب فقيه مصر: كان أهل مصر يكتنون بمسألهم (أي: في الفقه) إلى حنفر بن محمد الصادق التلعكبري، ولا يعدلون عن فتيانه". وقد احتفل أهل مصر جداً بمقدم السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد مع زوجها (إسحاق بن حنفر) إلى مصر، ومعه أهلها من دقه إياها بالمدينة لما توفيت، فَبُذِّتْ في مصر، واتخذ المصريون قرها مشهداً، وهو باقٍ معروف حتى زمن ابن زولاقي. (مخطوط مختصر تاريخ مصر، لابن زولاقي) ورقة ١٥-١٦.

كان من عيون المحدثين المسندين^(١)، وكان من الفقهاء ورواة الأخبار^(٢).

وقد روى عن أبي صالح (عبد الله بن صالح المصري كاتب الليث بن سعد المتوفى ٢٢٣هـ)، ويعني بن سليمان الجعفي^(٣). وروى عنه المحدث المشهور (سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني المتوفى ٣٦٠هـ). وتوفي والد جده هذا في شوال سنة ٢٨٣هـ^(٤). وعلى ذلك، فيغلب على الظن أن يكون ابن زولاق نشأ في أسرة محبة لعلوم الدين، لديها شئ من الاهتمام بالحديث، والفقه، والتاريخ.

٢- تكوينه الثقافي:

عاش مؤرخنا ابن زولاق عمراً مديداً، بلغ إحدى وثمانين سنة؛ إذ كانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٣٨٧هـ في مصر، أيام الحاكم بأمر الله، ونظر الحسن بن عمارة الوزير^(٥). وفي اعتقادي أن هذا العمر الطويل المبارك قد شهد جهوداً كبيرة من ابن زولاق؛ لأجل تحصيل العلم المتاح في عصره، خاصة أنه نشأ في تربة علمية خصبة، وعاصر أحداثاً سياسية متلاحقة متباعدة، تدفع طالب العلم إلى الانكباب على التحصيل والدرس، والاستزادة من الزاد الثقافي، الذي يقدمه علماء ذلك العصر. فابن زولاق عاش قرابة عقدين من عمره في فترة ما بين العصرين الطولوني والإخشيدي. مما سادها من اضطرابات وصراعات وعدم استقرار؛ مما كان يدفع طلاب العلم إلى تجنب هذا الواقع الكئيب، والاتجاه بكليتهم للاعتراف من يتابع العلم، لعلهم - بعد ذلك - يسهمون في تغيير هذا الواقع المولم.

(١) المخطوط السابق: ورقة ١٢.

(٢) السابق: ورقة ١٢.

(٣) هو أبو سعيد الكوفي المقرئ. سكن مصر. روى عن: عمه، وعبد الله بن إدريس، وابن وهب، وغيرهم. روى عنه: البخاري، وروى عنه الترمذي بواسطة، وغيرها. وتوفي ابن حبان، وتوفي بمصر سنة ٢٣٧ أو ٢٣٨هـ. (تقديب التهذيب ١١/١٩٩، وتقريب التهذيب ٢/٣٤٩، وقال عنه: صدوق يخطئ). ويلاحظ أن الدهي لقبه بـ (الجعفي) تحريفاً في (تاريخ الإسلام ٢١/١٥٤).

(٤) الأنساب ٣/١٧٩ (مادة الزولاق)، واللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير ٢/٨١، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢١/١٥٤.

(٥) المقفي، المقرئ ٣/٣٨٥. ويلاحظ اختلاف المصادر في تحديد تاريخ وفاة ابن زولاق، فمرجح بالقول بتاريخ ٢٨٦هـ (معجم الأدباء ٧/٢٢٦)، وذكر الكشي في (مخطوطات عيون التواريخ، نسخة الظاهرية)، ورقة ٢٤٦: أنه توفي يوم الأربعاء ٢٥ من ذي القعدة ٣٨٦هـ. أما غالبية المصادر، فعلى تاريخ ٣٨٧هـ، مثل: سير أعلام النبلاء ١٦/٤٦٣، وتاريخ ابن الوردي ١/٤٣٧، والديلمية والنهاية ١١/٣٤٣، ومخطوط (عقد الجمان) للنعيني ١٠/١٢٥. وتنازع الذهبي، فذكره مرة في وفات سنة ٣٨٦هـ في (تاريخ الإسلام) ٢٧/١١٨، وعاد فذكره ثانية في وفات سنة ٣٨٧هـ (المصدر السابق: ج ٢٧ ص ١٣٦)، وهو الراجح فيما يرى: للوثائق القائلين به، خاصة المقرئ في (المقفي)، وعبارته المحددة الواضحة فيه. ولكنه فات ذكره في (تعاظ الخفا). وأخطأ ابن طهمة، وابن إياس في ذكر تاريخ وفاة ابن زولاق، فحملاه عام ٣٨٩هـ أيام الحاكم. (الفضائل الباهرة ١٣١، وبدائع الزهور ١/١٩٨).

وبعد ذلك عاصر الدولة الإخشيدية، وكانت فترة حكمها التي امتدت حوالى خمسة وثلاثين عاماً، تمثل ازدهاراً واستقراراً في مصر، على الأقل في فترة حكم الإخشيد. وفي ظل تشجيع الإخشيد وكافور - من بعده - للعلم وللعلماء كانت النهضة العلمية في ذلك العصر في مختلف المجالات، ويأتى على رأسها علم (التاريخ) بفضل جهود علمائه، الذين يأتى في أوائلهم مؤرخنا ابن زولاق. ثم تستقبل مصر تحولاً جديداً من الحكم السني إلى الشيعي، ومن التبعية للخلافة العباسية في المشرق إلى تبعية جديدة للعباسيين القادمين من المغرب، فينغمس ابن زولاق في الاهتمام بذلك التغيير الكبير الحادث في بلده مصر، ويعايش الحكام الجدد ويخالطهم عن كثب، ويسجل لنا أحداث عصرهم عن قرب، بدءاً من القائد جوهر، ومروراً بالمعز، وانتهاء بالعزير.

ويمكن رصد أهم الملامح العامة لمكونات ابن زولاق الثقافية في النقاط الموجزة الآتية:

أ- طلب ابن زولاق الحديث والفقه على أعلامهما في مصر، من أمثال: الفقيه الحنفى أبي جعفر الطحاوي^(١) (ت ٣٢١هـ)، وأبي بكر بن الخداد الفقيه الشافعي^(٢) (ت ٣٤٥هـ). ولم يفت ابن زولاق التلقى على العلماء الوافدين إلى مصر، فكان يتبادل معهم رواية الحديث، يسمع منهم، ويروى لهم ما عنده. وقد حدث هذا مع المحدث (عبد الله بن وهبان البغدادي)، الذي قدم إلى مصر، وأقام بها حتى وفاته سنة ٣٢٨هـ^(٣). ويبدو أن ابن زولاق كانت له رحلات لطلب الحديث خارج مصر، فقد ورد أنه رحل إلى العراق، وسمع هناك المحدث (سعيد بن عبد الله بن سهيل البغدادي) سنة ٣٢٢هـ^(٤). وورد - أيضاً - أنه زار الشام حوالى سنة ٣٣٠هـ^(٥)، إن

(١) وفيات الأعيان ٩٢/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦، وتاريخ الإسلام ١١٨/٢٧. وترجمته كالآتي: أحمد بن محمد بن سلامة الأردى المصرى الحنفى. ولد ٢٣٩هـ، وسمع بونس بن عبد الأعلى، وبكر بن نصر الخولان، وبكار بن قتيبة، وغيرهم. حدث عنه الطبراني، وأبو بكر بن المقرئ، وغيرهما. له مؤلفات عديدة، منها: أحكام القرآن، ومعان الآثار، واختلاف العلماء. توفى سنة ٣٢١هـ. (سير أعلام النبلاء ٢٧/١٥ - ٣١، وطبقات المفسرين للدوادى ٧٣/١ - ٧٥).

(٢) لسان الميزان ١٩١/٢. وترجمته كما يلى: هو الإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر المصرى. ولد سنة ٢٦٤هـ (يوم مات المرقى). أخذ الفقه عن منصور بن إسماعيل الضير، وجالس أبا إسحاق الروزى لما ورد مصر. له كتاب (الباهر في الفقه). وولى قضاء مصر عام ٣٢٤هـ، وله كتاب (أدب القضاء)، و(جامع الفقه). وتوفى سنة ٣٤٥هـ. (تأذيب الأسماء والنقات للنووى ج ١ من القسم الأول ص ١٩٢ - ١٩٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٧٩/٣ - ٨٣).

(٣) تاريخ بغداد: ١٨٢/١٠، ومعجم الأدباء ٢٢٧/٧.

(٤) تاريخ بغداد ١٠٦/٩ - ١٠٧.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦. وذكر أنه ارتحل فيها إلى دمشق، وأن ابن عساكر فاته أن يذكره في (تاريخ دمشق)، وقال: لم تبلغني سيرته كما في النفس (أى: كما أحب). وقال في (تاريخ الإسلام) ١١٨/٢٧: قدم إلى دمشق بعد سنة ٣٣٠هـ. وكلامه في السير أثبت وأرجح وأكثر تحديداً، وهو آخر ما ألف.

كنا لا نعرف شيئاً عن سبب زيارته تلك، لكن يبدو أنها كانت لطلب العلم أيضاً. وأعتقد أن ابن زولاق جمع قدرًا طيباً من علم الحديث، جعلت إمام المحدثين ابن حجر يثنى عليه، ويصفه بأنه صدوق لا شك فيه^(١).

ب- بالنسبة لعلم الفقه، أعتقد أن ابن زولاق كان على درجة طيبة من رحابة الفكر، واتساع الأفق، فلم يحصر نفسه داخل مذهب فقهي معين. والدليل على ذلك تنقله في الأخذ على فقهاء من مذاهب شتى (أحناف، وشافعية). ويبدو لي أنه طالع شيئاً من الفقه الظاهري؛ بدليل الاهتمام الذي أولاه بابن إمام أهل الظاهر الفقيه الشاعر محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٧ هـ^(٢). وعلى كل، فالظاهر أن ابن زولاق رسخت أقدامه في الفقه بعمامة (وفي الفقه الشافعي خاصة)، حتى تُنسب إليه^(٣)، وإن لم أجد له في ذلك آثاراً باقية.

ج- طلب ابن زولاق علم النحو، وتَلَقَّى الآداب والأشعار، وكان زميلاً لواحد من كبار علماء النحو والكلام في عصره (سيبويه المصري)، الذي كانت تربطه به صلات، وله معه مواقف عديدة^(٤). وأعتقد أن لغة ابن زولاق الدقيقة^(٥)، وعباراته الفصيحة الموجزة المركزة^(٦)، وما يرويه من محفوظات أشعاره^(٧)، وما سجله من نثر (سيبويه المصري) وحكمه البليغة^(٨)، هي شواهد صادقة، ودلائل مضيئة على تمكنه في مجالي: اللغة، والأدب.

(١) لسان الميزان ١٩١/٢. وقد رَدَّ بذلك عما رماه به رجل يدعى (ابن أعين الغزال) من الكذب، وأوضح ابن حجر أن هذا الرجل لا يعرفه (فهو مجهول لدى ابن حجر). ويمكن مراجعة ترجمة هذا الرجل باسم (ابن عین غزال) المتوفى بعد سنة ٣٣٠ هـ في: (الأنساب ٤٩٤/٢)، والمقفي ٧٣٩/٣ - ٧٤٠، وتبصير المنتبه ١٠٤٣/٣.

(٢) راجع (تاريخ بغداد) ٢٥٩/٥، حيث يروي لنا ابن زولاق تنافس وتناظر محمد بن داود مع القاضي أبي العباس بن مَرْجٍ. أما ما رواه في ص ٢٦٠، فيتصل بجانب من هزل هذا الرجل في عبارات ثرية بليغة، تتصل بما عُرف عنه من ميل إلى صديقه (محمد بن جامع الصيداني).

(٣) المقفي ٢٨٥/٣. وأورد له الصفيدي في (الوقا بالوفيات) ١٧٦/٢ عبارة ذكر فيها كتب ومولفات الإمام الشافعي. وذلك يدل على عظيم اهتمامه، وميله إلى ذلك المذهب.

(٤) راجع بعضها في (أخبار سيبويه المصري) ص ٥٠ - ٥١.

(٥) سورة الإحشيد (ضمن كتاب المغرب لابن سعيد): ص ١٩٥ (حيث استخدم لفظه: (تكاف) في معرض توفيق الإحشيد وسيف الدولة عن الحرب بينهما، فهي تدل على رغبة متبادلة في الكف عن غمارة كل منهما الآخر، وجوحيهما إلى السلم والصلح). وكذلك تضمينه بعض عبارات القرآن في كلامه، وهي ذات دلالة على المعنى الذي يريد، مثل: تعبده عن تسفل ابن رائق تحت حنج الظلام من دمشق إلى الرملة، وقتله وصلبه أحد رجال الإحشيد، فقال: (أسرى ليلاً) ص ١٧٨، وهي مأخوذة من قوله: (تعالى) "سَبَّحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا" (الإسراء: من الآية الأولى). يمكن مراجعة مزيد من الأمثلة (ص ١٥٣، ١٥٥، ١٨٠، ١٩٣).

(٦) أخبار سيبويه المصري: ٢٣.

(٧) راجع أشعاراً كثيرة، وردت في (المصدر السابق): ص ٤٧، ٥١، ٥٤ - ٥٧.

(٨) السابق: ٢٢.

د- وأخيراً، علم التاريخ: يبدو أن اهتمام جد أبيه برواية الأخبار قد تبعه اهتمام متوارث في أسرته على مستوى جده، ثم أبيه في حب التاريخ وروايته. وأكاد أقطع بأن محور اهتمامهم كان منصباً على (تاريخ العلويين في مصر)، وتلقاه عنهم ابن زولاق، فنقل لنا جانباً طيباً منه في مخطوطته: (مختصر تاريخ مصر)^(١). وقد أشرب ابن زولاق حب التاريخ، ورواية أحداثه، وكان حريصاً على جمعها وكتبها، وكثيراً ما كان يُنشد: مازلت تكتب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً^(٢).

والحق أن ابن زولاق تلقى علم التاريخ على أعلامه في مصر، وقصر اهتمامه على أحداث بلاده. ويأتى على رأس أساتذته من المؤرخين: المؤرخ المصرى الرائد في مجال السيرة التاريخية (أحمد بن يوسف المصرى المعروف بابن الداية ت ٣٤٠هـ). وقد انتهج ابن زولاق نهج أستاذه، فكسب لنا عدداً من السيرة التاريخية المهمة^(٣)، وطوّر فيها، ووسّع مجالها^(٤)، على ما سنرى بعد قليل. أما أستاذه الآخر في مجال التاريخ، فهو المؤرخ العظيم الكندى (ت ٣٥٠هـ). وقد تأثر به ابن زولاق، ونحاه في اختيار الموضوعات التي يطرّقها ويؤلف فيها، فكتب مثل أستاذه في مجال (المخطّط)، (والقضاء)^(٥). وزاد عليه ما كتبه في (الفرائد)^(٦)، وتاريخه الكبير المرتب على السنين. وهكذا، يمكن القول بأن ابن زولاق كان امتداداً لمن عاصره وسبقه من المؤرخين المصريين^(٧)، وأنه كان حلقة مكتملة لهم في بناء صرح المدرسة التاريخية المصرية في القرن الرابع الهجرى، وأنه لولا جهوده المضنية المتواصلة المقتصرة على مجال التاريخ المصرى، لو وجدت ثغرات عديدة في أحداث عصره، لا تجد من يسد خللها.

- (١) وذلك تحت عنوان: ذكر عيون أشرف مصر، ومن دخلها من آل أبي طالب (ورقة ١٣-١٦). وراجع - كذلك - ما ذكره في (الكواكب السائرة) لابن الزيات ص ٣٠.
- (٢) معجم الأدباء: ٢٢٦/٧. وقد تميل شخصاً آخر شديد النهم في الإقبال على كتابة التاريخ، فحاطبه هذا الخطاب، الذى نَمَ عن شديد شغفه بهذا العلم، حتى إنه توقع أن تظل نفسه ثقة إليه، ممسكة بالتمسك نسطر أحداثه حتى آخر حياتها، حينما تُفاجأ بانتقالها عن هذا الوجود، وأصبحت محلاً لكتابة غيرها عنها في كتب التاريخ.
- (٣) تلمذ ابن زولاق على ابن الداية، وقرأ كُتبه التاريخية عليه، وحُدث بها، ثم عمل ما فاته من (سيرة أحمد بن طولون)، و(سيرة ابن حمارويه). (المغرب - قسم مصر - ص ١٤٨، والإعلان للسخاوى نشر: روزنثال) ص ٥٥١، وتاريخ مصر الإسلامية للشياح ج ١ ص ١٣١). هذا إلى جانب (سيرة الإخشيد، وجوهر، والمغز، والعزير، وغيرها)، مما ستأوله بعد ذلك.
- (٤) فكتب سيرة أحد علماء مصر في النحو والكلام (سيبويه مصر)، وهو ما لم يلتفت إليه أستاذه ابن الداية.
- (٥) لسان الميزان ١٩١/٢، ومقال الأستاذ عنان عن (ابن زولاق) في (ملحق جريدة السياسة اليومية) عدد ٧/٨/١٩٣٢، ص ٤، ومقدمة محققى كتاب المغرب لابن سعيد (قسم مصر، ص ٤٤م، وتاريخ مصر الإسلامية للدكتور الشياح ١٣١/١).
- (٦) ذكر السيويتي في (حسن المحاضرة) ٥٥٣/١: أن الكندى صَنَّف كتاب (فضائل مصر). والصواب أنه لابنه عمر ابن الكندى.
- (٧) أعتقد أن ابن زولاق تأثر في كتابته عن (سخط مصر) - مثلاً - برائد هذا الفن التاريخي في مصر (المؤرخ ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ).

٣- علاقاته الشخصية، وأثرها في إنتاجه التاريخي:

أعتقد أن مؤلفات ابن زولاق، التي دمجتها قريحته، كانت ثمرة يانعة لمجموعة من العوامل، تدخلت في نسج تشكيلها، وإخراجها إلى حيز الوجود. وقد تناولنا بعضها فيما مضى (تأثير أسرته، ومكونات ثقافته داخل، وخارج مصر). وأعتقد - مرة أخرى - أن كسب هذا العالم، وقد اقتصر على مجال (تاريخ مصر)، قد استفادت من كافة روافده الثقافية الأخرى (حديث، وفقه، ولغة، وأدب)؛ لتصب - في النهاية - في مجال اختصاصه الأثير لديه (التاريخ). والدليل على ذلك أن كافة كتبه المعروفة لدينا - سواء كان منها مطبوعاً، أم مفقوداً لا نعرف سوى بعض بقاياها، أو مجرد عناوينه - تدخل في صميم (تاريخ مصر).

يمتاز ابن زولاق على كثير من مؤرخي القرون الماضية في مصر بميزة فريدة هي أنه (يكتب تاريخاً عاصره بنفسه)، وذلك في العصر الإخشيدى، فالقبيدي. والحق أن هذه النوعية من التأريخ تتطلب أمرين مهمين: الاطلاع على خبايا الأمور، والاختلاط برجال الحكم؛ لمعرفة ما يدور وراء الكواليس. والأمر الآخر: شجاعة نادرة، وبعد عن الهوى، ونزاهة بعيدة المدى. وأدع الأمر الثاني - مؤقتاً - لحين تناول سمات شخصية ابن زولاق، وبيان منهجه في كتابه: (سيرة الإخشيد)، وغيره من الكتب الأخرى. وأركز - الآن - على الأمر الأول علاقاته بحكام عصره). وهذه أوجزها فيما يلي:

أ- صلاته برجال العصر الإخشيدى:

من رجال هذا العصر العالم النحوى المتكلم (سيبويه المصرى) المولود سنة ٢٨٤هـ، والمتوفى سنة ٣٥٨هـ^(١). وقد كان يعقل هذا الرجل شئ من الوسوسة والاختلاط. وكان ابن زولاق قد بدأت صلته به في مجلس الفقيه أبى بكر بن الحداد، عشية جمعة بعد صلاة العصر في المسجد الجامع سنة ٣٢١هـ^(٢)، ثم توطدت الصلات بينهما بعد ذلك، حتى بلغت معرفة ابن زولاق به، وتبعه أحبابه وقربه منه، أن كتب سيرته، وأفرد لها كتاباً، سندرسه قريباً، إن شاء الله. وقد كان هذا الرجل مشهوراً للعامة والخاصة، وكان يُظن به الجنون، فسهل عليه الاختلاط بكافة طبقات المجتمع من الباعة في سوق الوراقين^(٣)، إلى الفقهاء والعلماء في مجالسهم^(٤)، إلى الأشراف العلويين في

(١) أخبار سيبويه المصرى: ١٧.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٢.

(٣) المصدر السابق: ص ٤٣.

(٤) السابق: ١٩، ٢٢.

سيوتهم^(١)، إلى ذوى المناصب في طريقهم ومواكبهم من أمراء^(٢) ووزراء^(٣)، وأصحاب خراج^(٤)، وصاحب ديوان الأحباس^(٥)، حتى بلغ به الأمر أن جالس (أونوجور بن الإخشيد) وسامره، ومعه الوزير الحسين بن محمد الماذرائي، وواكلهما وناديهما^(٦). وبدهى أن ذلك الرجل كان يعرف كثيراً من الأسرار والأخبار، وكان لا يتورع - ووسوسته تحميه في كثير من الأحيان - عن توجيه النقد اللاذع المرير بألفاظ خشنة مستهجنة قاسية؛ لما يراه من اختلال^(٧)، أو انحراف^(٨)، أو إسراف^(٩)، أو غش وتدليس^(١٠). ولا شك أن مصاحبة ابن زولاق إياه جعلته يقف على كثير من الأمور، ويدرك العديد من الحقائق، التي ساعدته على كتابة مؤلفاته.

لم تذكر لنا المصادر شيئاً من علاقة (ابن زولاق) بالإخشيد، لكن هناك نصاً يفيد وجود علاقة وطيدة بين مؤرخنا وكافور الإخشيدى، إذ أوفده في أيام تديره دولة (أونوجور بن الإخشيد) برسالة منه إلى سيف الدولة (على بن عبد الله بن حمدان)، وذلك في السابع من ذى القعدة سنة ٣٤٧هـ^(١١). وهذا يعنى أن مؤرخنا كان على صلة ببلاط كافور، باعتباره أحد العلماء المبرزين في عصره، ولعله كان يتمتع بمهارات دبلوماسية رفيعة لا تعرف عنها شيئاً، أهله لحمل رسالة كافور إلى سيف الدولة، ولعلها كانت محاولة لتهدئة الأحوال بينهما^(١٢). وعلى كل، فبلى أرى أن ابن زولاق المؤرخ لم يكن بعيداً عن أحداث عصر الإخشيد، وإنما كان يتابعها بحس المؤرخ اليقظ، وعندما طلب إليه أبو الحسن (على ابن الإخشيد) أن يكتب سيرة أبيه (الإخشيد) سنة ٣٥٠هـ، كتبها له مستعيناً على ذلك بما شاهده بنفسه من أحداث، أو

(١) السابق: ٣١-٣٢.

(٢) السابق: ٣٢.

(٣) لاحظ إرسال الوزير أبي بكر بن مقاتل احتياحاته إليه سرّاً (السابق: ٤١-٤٢).

(٤) مثل: موقفه من أبي بكر الخازن (المصدر السابق: ٤٥).

(٥) هو الحسين بن أيوب الصيرفي (السابق: ص ٥٠-٥١).

(٦) أخبار سيويه المصري: ١٨، ٣٦.

(٧) مثل: احتجازه الشديد، ولحكمه المفرد بمباينة أحمد بن على بن الإخشيد وهو طفل، بعد وفاة كافور، وهو ابن إحدى عشرة سنة. (السابق: ٥٢-٥٣).

(٨) احتج على وصاية كافور، وصغر الضى على من الإخشيد، وتدجّل أم هذا الضى؛ كي يتولى الحكم. وقد صاح بكافور: مدح القط حذى في السعير، لا أعنت الله منك قلامة ضفر. والنفت إلى الناس قاتلاً: جعلنا على حصي (كافور)، وصي (على بن الإخشيد)، وامرأة (أمه). (السابق: ٣٢).

(٩) كحشد المواكب وازدحام الطرقات بالناس؛ لأجل مرور موكب الإخشيد (السابق: ٢٨).

(١٠) كشكبيكه في صحة إسلام الوزير اليهودى الأصل (يعقوب بن كلس في عهد كافور)، وكان ذلك سنة ٣٥٦هـ (السابق: ٤٤).

(١١) المقفى ٢٨٥/٣.

(١٢) فقد كانت للمحمدين أضعافهم في بلاد الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة وفاة الإخشيد، واعتدوا على ممتلكاته بالشام من قبل.

ناقلاً إياها عن كل موثوق به ما أمكنه ذلك، حتى أنماها ولاقت استحسان الأمير، وأجرى عليه هو ووالدته مكافأة سنوية؛ جزاء إتمامه هذا العمل^(١).

ب- علاقته بالعبيدين:

ينفرد كل من: ابن الجوزي^(٢)، ثم المقرئ^(٣) بنجر، مفاده أن مؤرخنا ابن زولاق كان فيمن خرج إلى المعز؛ للقاءه لما قدم إلى مصر، وأنه خطب بين يديه خطبة أصغى إلى جميعها، وما سار حتى فرغ منها. ويتضح من نص هذه الخطبة أن ابن زولاق أصيل في تشيعه؛ مما يدل على أنه كان على صلة بما يقوله دعاة العبيدين المنتشرون في أرجاء مصر (في عهد كافور خاصة)، وأنه كان على علم وقناعة بمبادئهم، وربما كان من العاملين على تهيئة الأمور في مصر لقدمهم. ولعل تأكيدهم من أنهم هم السادة والحكام الجدد كان أكبر دافع لإظهار تشيعه لهم، وإظهار المديح في حقهم. لقد سلم على المعز بامرة المؤمنين، وعذّه الإمام المنتظر، ومهدى الأمة وعالمها، وخليفة رب العالمين، وصاحب السر والإعلان. وأخذ يمدح بيته جاعلاً إياه من آل بيت النبوة. وأخيراً، مدح علمه في كتبه التي وردت إلى مصر، وأقر ابن زولاق أنه كان ممن نشرها في أمصار المسلمين، واعتبرها شرفاً شرفهم الله به على جميع العالمين.

وإذا صحت نسبة هذه الخطبة إلى ابن زولاق، فإننا لا نستبعد أن يكون ابن زولاق قد ولى - أيام المعز مثلاً - النظر في ديوان النظام^(٤)، وإن كما لا نعرف تاريخ ذلك بالتحديد، ونعجب لعدم ذكر المقرئ نفسه هذه الخطبة، وخبر هذا المنصب في كتابه: (اتعاظ الحنفا)، وهو الذي يعد من أكثر المصادر تفصيلاً في تاريخ العبيدين، على ميل المقرئ نفسه إلى تصحيح نسبهم. وعلى كل، فلعل المقرئ تدارك في كتاب (المقفي) ما فاتته في (الاتعاظ). ومعلوم أنه ليس هو الوحيد الذي أورد هذه الخطبة، وإنما سبقه إليها ابن الجوزي. وساء على ذلك، أننا أميل إلى أن تشيع ابن زولاق كان حقيقة، خاصة أن ابن حجر يؤيد ذلك - وهو الذي لا بد قد طالع مؤلفاته التي ضاعت - ويذكر أنه ظاهر من تصانيفه التي صنفها قديماً^(٥). وسوف نلاحظ - من خلال بقايا سيرة المعز لابن زولاق - أنه قريب من الأحداث؛ مما يشير إلى ارتفاع مكانته عندهم، وإلا لتعرض للتكيد والقتل.

(١) سيرة الإخشيد: ص ١٤٩.

(٢) المنتظم (ط. دار الكتب العنسية): ج ١٤ - ص ٢١٠ - ٢١١ (هامش ٤): وأشار إلى أنها موجودة على هامش السخة الحطية المرموز لها بالخروف (ل)، أي: نسخة برلين على ما ذكر الخفوق في مقدمته ٤٧/١، وهي على خلاف النسخة الأم عنده (نسخة أحمد الثالث).

(٣) المقفي ٢٨٦ - ٢٨٧. (٤) المقفي ٢٨٦/٣، ولسان الميزان ١٩١/٢.

(٥) لسان الميزان ١٩١/٢. ولعله يقصد ما كتبه في (سيرة المعز، وحوهر).

ويؤيد هذا الرأي السابق ما أورده ياقوت في كتابه: (سيرة العزيز) لابن زولاق، وفيه يتضح أنه لا يزال يتمتع بمكانة سامية في ظل دولة بني عُبيد في عهد (العزيز)؛ إذ كان يحضر مجلس الوزير (يعقوب بن كلس)، الذي فيه أرسل العزيز إليه بالحلج، وقرأ فيه سجل تشريفه بعد أن ولي الوزارة (٣٦٥هـ). وقد دار في هذا المجلس حوار ونقاش بين ابن زولاق والوزير، ظهر منه أن الوزير كان في نفسه شيء تجاه ابن زولاق، وأنه لم يقبل كلامه المجامل له، وردّه عليه، وأساء تأويله، وعدّه ذمّاً له، في الوقت الذي قاله فيه ابن زولاق على سبيل المدح والثناء؛ مما دفع ابن زولاق إلى الانصراف^(١).

والآن، وبعد إبرازنا العوامل التي يَسَّرَت لابن زولاق تأليف مصنفاته التاريخية - خاصة التي عاصر أحداثها، حتى تُقَبَّ بالمورخ المشهور^(٢)، والتاريخي^(٣)، وصاحب التواريخ والتصانيف -^(٤) نعرض - على عجلة - أسماء هذه المؤلفات التاريخية^(٥)، مرتبة حسب ظهورها على وجه التقريب:

- ١- الذيل على سيرة أحمد بن طولون^(٦).
- ٢- الذيل على سيرة أبي الجيش خمارويه^(٧). (وهما مفقودان).
- ٣- سيرة الإخشيد: وهي مفقودة في الأصل، إلا أن ابن سعيد جمع لنا ما تيسر له منها في كتابه: (المُغْرِب في حُلَى المغرب - القسم الخاص بمصر)^(٨).
- ٤- كتاب سيرة المادرائين^(٩) (وهو مفقود).
- ٥- كتاب سيرة كافور (مفقود)^(١٠).
- ٦- إتمام أخبار أمراء مصر للكندى^(١١): وهو كتاب مفقود ذُيِّل به، وأكمل كتاب

(١) معجم الأدباء ٢٢٧/٧ - ٢٢٨.

(٢) لسان الميزان ١٩١/٢.

(٣) المغنى ٢٨٥/٣.

(٤) تاريخ الإسلام ١١٨/٢٧.

(٥) ذكر جست في مقدمته بالإنجليزية ص ٤٥ - ٤٦ لكتاب (الولاة والقضاة) للكندى الكتب الأتية لابن زولاق: (القضاة، والأمراء، وسيرة الإخشيد، وسير المادرائين، وسيرة المعز، وسيرة القائد جوهر، وسيرة العزيز). وهي المذكورة في: المغنى ج ٣ ص ٢٨٦.

(٦) سيرة الإخشيد في كتاب (المغرب - قسم مصر) ص ١٤٨.

(٧) المصدر السابق: سيرة الإخشيد في كتاب (المغرب - قسم مصر) ص ١٤٨.

(٨) ص ١٤٨ - ١٩٧.

(٩) مخطوط (عيون التواريخ) للكني (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦، والمغنى ٢٨٦/٣.

(١٠) مخطوط (عيون التواريخ) للكني (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦.

(١١) سيرة الإخشيد (في كتاب المغرب - قسم مصر) ص ١٤٩.

(الولاة، أو أمراء مصر) المذكور من وفاة الإخشيد (سنة ٣٣٤هـ) حتى دخول (جوهر) مصر بجيوش العبيديين سنة ٣٥٨هـ، وما تلا ذلك من أحداث دخول المعز مصر. وهذا يعني أنه استكمل به تأريخه للدولة الإخشيدية، وفترة حكم جوهر حتى مجيئ سيده.

٧- أخبار سيبويه المصري^(١) (وهو مطبوع).

٨- مجموعة كتب عن: (خطط مصر)^(٢)، و(التاريخ الكبير على السنين)^(٣)،

و(فضائل مصر وأخبارها وخواصها)، و(مختصر تاريخ مصر)^(٤). الأولان منهما مفقودان، والأخيران مخطوطان.

٩- سيرة جوهر^(٥).

١٠- سيرة المعز^(٦). (كلها مفقودة).

١١- سيرة العزيز^(٧).

١٢- أخبار قضاة مصر^(٨): وفيه أكمل كتاب (القضاة) للكندي، فيعد بمقالة ذيل عليه، إذ يبدأ من حيث انتهى (من فترة ولاية القاضي بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦هـ، ويختم الكتاب بذكر القاضي العبيدي (محمد بن النعمان) متكلاً على أحواله إلى شهر رجب سنة ٣٨٦هـ). (وهو مفقود).

ويلاحظ على أسماء مؤلفاته السابقة ما يلي:

أ- أنني حاولت استقصاء كافة أسماء مؤلفاته، من خلال ما ورد في المصادر والمراجع المختلفة.

ب- أن كل ما يُعرف من هذه المؤلفات يدخل في إطار (تاريخ مصر)، فلعله اختص بذلك.

(١) سوف أدرسه بعد قليل بإذن الله، والغريب أن المصادر لم تذكره، على كثرة ما ذكرت من كتبه الأخرى المفقودة الكثيرة.

(٢) ذكره الذهبي في (تاريخ الإسلام ١٣٦/٢٧)، وابن الوردي في (تاريخه) ج ١ ص ٤٣٧، وابن ظهيرة في (الفضائل الباهرة) ص ١٣١، ومخطوط عقد الجمان ١٠/١٢٥ (وقال عنه: استقصى فيه).

(٣) ذكره الكشي في (مخطوط عيون التواريخ) ورقة ٢٤٦، وكحالة في (معجم المؤلفين) ١/٥٣١.

(٤) ذكر في مقدمته أنه اختصره من (تاريخه الكبير على السنين)، ولم يذكر إسناد الخبر على سبيل الاختصار والتيسير (ورقة ٣).

(٥) ورد ذكرها في: مخطوط عيون التواريخ للكنشي: ورقة ٢٤٦، والمقفي ٣/٢٨٦، ومعجم المؤلفين ١/٥٣١.

(٦) مخطوط عيون التواريخ للكنشي: ورقة ٢٤٦، والمقفي ٣/٢٨٦.

(٧) ورد ذكرها في مخطوط عيون التواريخ: ورقة ٢٤٦، والمقفي ٣/٢٨٦.

(٨) وفیات الأعيان ٢/٩١-٩٢، والبدابة والنهاية ١١/٣٤٣.

ج- أن كل مؤلفاته - للأسف الشديد - تكاد تكون مفقودة، اللهم إلا كتاب (أخبار سيويه المصري)، وبعده (سيرة الإخشيد)، وهذان مطبوعان. أما (فضائل مصر)، و(مختصر تاريخ مصر) فمخطوطان.

د- أنه تخصص في كتابة كتب سير الحكام، بالإضافة إلى سيرة أحد العلماء.

هـ- أنه كان يحاول سد ثغرات تركها مؤرخون سابقون في علاج بعض فترات تاريخ مصر، فعالج ما فات ابن الداية في تاريخ الدولة الطولونية (عهدي ابن طولون، وخمارويه فقط)؛ لأن الدولة أخذت في الانهيار بعد خمارويه. وعالج تاريخ الدولة الإخشيدية كاملاً؛ لوجود كافر من بعد موت الإخشيد. واهتم بالتأريخ لصدر الدولة العبيدية من حكام وقضاة، حتى قبل وفاته بقليل^(١).

وأخيراً، فإنه يمكن تركيز السمات العامة المستخلصة من حياته ومؤلفاته في النقاط الآتية:

أ- إلمامه بثقافات عصره المشهورة (خاصة التاريخ).

ب- تواضعه وحيأؤه، ومسألته^(٢).

ج- مداراته، وتشيعه^(٣).

ثانياً - محتوى سيرة الإخشيد^(*):

١- بدأ المؤرخ المصري ابن زولاق كتابه ببيان جهود سابقه في كتابة سيرة ابن طولون، وابنه خمارويه، وذكر لنا ملاحظاته على من سبقه في كتابة (سيرة الإخشيد).

٢- انتقل - بعد ذلك - إلى ترجمة (جد الإخشيد، ووالده)، وبيان أصل الأخير ومناصبه التي وليها، وظروف وفاته في السجن لدى الوزير (العباس بن الحسن) سنة ٢٩٤هـ، ثم انتقام ولديه: محمد، وعُبيد الله له من هذا الوزير.

(١) حملها الأستاذ عازم عام ونصف (مقاله عن ابن زولاق و ملحق جريدة السياسة اليومية) عدد ٩/١٧/ ١٩٣٢م، ص ٩٠. وهو انصواب.

(٢) راجع أخبار سيويه المصري: ص ١٧، ٥٠.

(٣) مداراته كراهية الوزير ابن كلث له (معجم الأدباء ٧/ ٢٢٨)، وتشيعه بالانتساب إلى مذهب العبيديين، وتصحيح نسبه (كثير الدرر ج ٦ ص ٤)

(*) اعتمدت في دراسة هذه السيرة ومحتوياتها على القدر، الذي احفظ لنا به ابن سعيد المغربي في كتابه: (المغرب و حتى المغرب - القسم الخاص بمصر) ص ١٤٨ - ١٩٧. وحديث بالذكر أن هناك طعة قديمة للسمنري (تلكوت) مملوءة بالأغلاط، ونشر فيها من المغرب الجزء الخاص بالدولة الإخشيدية، وذلك سنة ١٨٩٩م (مقدمة محققى المغرب لابن سعيد - قسم مصر - ص ٥١).

- ٣- حال ولديه، وتقلب (محمد بن طفج) في خدمة تكين، ومناصبه بالشام.
- ٤- ترقب (محمد بن طفج) أحوال مصر وهو بالشام، حتى توفي تكين واليها سنة ٣٢١هـ، فأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على حكم مصر، وتفاصيل دخوله مصر بالقوة، حتى فرض سيطرته عليها، ثم آمن المصريين من غب جنده.
- ٥- ذكر ابن زولاق بعض أعمال ابن طفج في مصر، مثل: نقله دار الصناعة من جزيرة الروضة إلى دار بنت الفتح بن خاقان؛ حرصاً على تأمين السفن والمراكب، وقام بتحويل موضع الصناعة الأول إلى بستان سماء (المختار)، وجعله متراً يفاخر به أهل العراق.
- ٦- بيان علاقة ابن طفج مع كل من: محمد بن علي المادرائي، ومحمد بن تكين، والوزير الفضل بن جعفر لما قدم إلى مصر.
- ٧- مصادرة ابن طفج المادرائي، حيث قبض ضياعه بالشام، وأكثر ضياعه في مصر، وقام بمصادرة أولاده، وحاشيته أيضاً.
- ٨- مظاهر ترسم ابن طفج خطوات ابن طولون، إذ قلده في مواكبه واحتفالاته، ومراسم استعراض جيوشه.
- ٩- اهتم ابن زولاق بعرض نماذج كثيرة لمصادرات ابن طفج كبار أثرياء مصر في عهده، مثل: كاتبه محمد بن كلا، وعفان بن سليمان البراز أجل تاجر في مصر أيامه (استولى على جانب من تركته لما مات).
- ١٠- عرض ابن زولاق النص المطوّل لكتاب (إبراهيم بن عبد الله النجومي) سنة ٣٢٥ هـ، الذي يرد فيه - على لسان ابن طفج - على كتاب أرمانوس (ملك الروم)، وفيه يشرح مكانة دولته وعظم اتساعها، ويبين سياسته الداخلية والخارجية، وآفاق التعامل والتعاون مع الروم في مجال التبادل التجاري، مع الاتفاق على تبادل الأسرى.
- ١١- زيادة مكانة ابن طفج لدى الخليفة العباسي (الراضي)، ومنحه إياه لقب (الإخشيد) سنة ٣٢٧هـ، بعد أن كان طلبه إليه ابن طفج سنة ٣٢٦هـ.
- ١٢- عرض ابن زولاق تفاصيل الصراع والصدام مع ابن رائق، وما نتج عنه من صلح بين الطرفين، وأحداث مقتل ابن رائق. ثم صدام الإخشيد مع سيف الدولة، وما أسفر عنه من تصالح الطرفين.
- ١٣- ذكر ابن زولاق بعض إصلاحات الإخشيد الاجتماعية في مصر، مثل: هدم المواخير، ودور المقامرین، ومعاقبة المشاركين فيها.

- ١٤- أكثر من عرض نماذج دالة على شراسته الشديدة للمال، وكثرة مصادراته؛ طمعاً في أموال الآخرين، وقيامه باحتكار العنبر للتجارة فيه.
- ١٥- لقاءه بالخليفة المتقي بالركة، وفشله - كما فشل ابن طولون مع المعتمد من قبل - في استقدام الخليفة إلى مصر، ونقل الخلافة إليها.
- ١٦- ظروف وفاة الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـ، ومقدار ما خلف من تركة (أموال وعبيد، ودواب ومراكب، ويغال، وجواهر، وغيرها).

ثالثاً - النقد الخارجي لسيرة الإخشيد (موارده):

حدد المؤرخ ابن زولاق منهجه في اختيار (موارده)، التي يستمد منها مادته التاريخية في (سيرة الإخشيد) في كلمات قاطعة واضحة محددة، يقول فيها بالنص: " ولم أضمن هذه السيرة إلا ما شاهدته، أو أخبرني به من أتق به حسبما أمكنتي ^(١) ". وهذا يعني - باختصار - أنه دقق وانتقى موارده، وحرص أن يسجل ما رآه بنفسه باعتباره معاصراً لأحداثها، وما لم يشهده بنفسه نقله من الموثوق بهم قدر الإمكان.

وبعد قراءة وتأمل هذه السيرة، وجدت أننا يمكن أن نحلل مواردها إلى الأقسام الآتية:

١- القسم الأول - موارد صريحة محددة نقل عنها سماعاً:

وهذه عددها ثلاثة وعشرون (٢٣) مورداً، توزع كالآتي:

أ- أربعة موارد:

روى عن كل منها روايتين، وهى: (الحسين بن أحمد بن أريخا) ^(٢)، وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير ^(٣)، ومحمد بن الحسن ^(٤)، ومحمد بن الحسين ^(٥).

ب- بقية الموارد:

روى عن كل منها رواية واحدة فقط (عددها ١٩ مورداً)، وهى: (أحمد بن عبيد الله ^(٦)،

(١) سيرة الإخشيد (داخل كتاب المغرب - قسم مصر لابن سعيد)، لابن زولاق: ص ١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٨، ١٦٠.

(٣) سيرة الإخشيد (داخل كتاب المغرب - قسم مصر لابن سعيد)، لابن زولاق: ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٤) السابق: ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٥) السابق: ١٦٢، ١٧٩.

(٦) السابق: ١٥٠.

وفارس بن نصر العراقي^(١)، وحزمة بن محمد الحافظ^(٢)، وعلى بن يعقوب^(٣)، والفضل بن محمد^(٤)، وعلي بن محمد الصّوري الفقيه^(٥)، ومحسن^(٦)، ويحيى بن مكي بن رجاء المعدل^(٧)، ومحمد بن الحسين المكفوف المفسّر^(٨)، وسليمان بن الحسن بن طاهر^(٩)، وعبد الوهاب بن سعيد الكاتب^(١٠)، ومزاحم بن رائق^(١١)، ومسلم بن عبيد الله الحسيني^(١٢)، وأبو الفرج البالسي الطيب^(١٣)، والأصبهاني صاحب محمد بن رائق^(١٤)، وأحمد بن عبد الله الفرغاني^(١٥)، ومنصور ابن أحمد الصيّري^(١٦)، ومحمد بن المنهال^(١٧)، ومحمد بن عبد الله^(١٨).

٢- القسم الثاني - موارد صريحة محددة، لكنها مصدّرة بلفظة (قال):

وهما روايتان اثنتان مُصدرتان بـ:

أ- وقال طُعج^(١٩).

ب- وقال أبو بكر محمد بن علي المادرائي^(٢٠).

٣- القسم الثالث - موارد صريحة غير محددة:

وهذه بلغ عددها عشرة موارد كالآتي:

(وحدثني بعض عدول مصر^(٢١)، وحدثني بعض أصحابه^(٢٢) (أى: أصحاب الإخشيد)،

(١) السابق: ١٥٤. (٢) السابق: ١٦٥.

(٣) السابق: ١٧٧. (٤) السابق: ١٦٧.

(٥) السابق: ١٨١. يُنسب إلى مدينة (صُور)، وهي بلدة كبيرة من بلاد الساحل بالشام، وتغر من تغور المسلمين المشرقة على بحر الشام (الأبيض)، وهي داخلة فيه، والماء يحيط لها من ثلاث جهات، وهي شديدة المنعة والتحصين. (الأنساب ١٤/٣، ومعجم البلدان ٤٩٢/٣).

(٦) و (٧) سيرة الإخشيد: ١٨١.

(٨) السابق: ١٨٧.

(٩) السابق: ١٨٩. ورد بلفظ الحسين محرفاً.

(١٠) سيرة الإخشيد: ١٨٣.

(١١) و(١٢) السابق: ١٨٥.

(١٣) السابق: ١٨٧. ويُنسب إلى (بالس): مدينة مشهورة بين الرقة وحلب على بعد عشرين فرسخاً من حلب. (الأنساب ٢٦٨/١، ومعجم البلدان ٣٩٠/١).

(١٤) سيرة الإخشيد: ص ١٨٩.

(١٥) السابق: ١٩٢.

(١٦) السابق: ١٩٦. نسبة إلى (الصيّتر): غر من أثمار البصرة عليه عدة قرى، أو نسبة إلى (الصيّترّة): بلدة من ديار الجبل وخوزستان (الأنساب ٥٧٦/٣، ومعجم البلدان ٤٩٨/٣ - ٤٩٩).

(١٧) و(١٨) سيرة الإخشيد: ١٩٦.

(١٩) السابق: ١٥١. (٢٠) السابق: ١٨٧.

(٢١) سيرة الإخشيد: ص ١٥٠. (٢٢) السابق: ١٥٥.

فحدثني بعض الكتاب^(١)، سمعت بعض الشيوخ المصريين من أهل التنجيم^(٢)، فحدثني بعض الوجوه بمصر^(٣)، قال: وحدثني بعض الإخشيدية^(٤)، وحدثني بعض الشيوخ^(٥)، وحدثني بعض أهل مصر^(٦)، وحدثني بعض غلمانهم^(٧) (غلمان الإخشيد)، وكنتُ أسمع الناس يقولون^(٨).

٤- القسم الرابع - موارد مجهولة:

ورد ذلك في ثلاثة مواضع هي:

(وحكى أن^(٩)، وقيل^(١٠)، ومما تُحدث عنه أنه قال^(١١)).

٥- القسم الخامس - روايات لا مورد لها:

وقد وردت في سبعة مواضع؛ بعضها مصدر بلفظة (قال)^(١٢)، وموضع مُصدّر بصيغة: ومن حكايات الإخشيد في أول أمره قال^(١٣)، وبعضها لم يُسبق بأية صيغة^(١٤).

٦- القسم السادس والآخر - الوثائق:

وقد أورد ابن زولاقي في (سيرة الإخشيد) تسع وثائق كما يلي:

(وثيقة مكاتبات تكين ومحمد بن طغج المتبادلة)^(١٥)، ومرسوم تولية الراضى الخليفة العباسي أبا بكر المادرائي تدبير شئون مصر^(١٦)، ووثيقة مطوّلة عبارة عن كتاب الإخشيد (ردّه)، الذي أرسله إلى رومانوس إمبراطور الروم^(١٧)، وكتاب الإخشيد إلى الراضى، يسأله منحه لقب الإخشيد^(١٨)، ووثيقة صلح الإخشيد مع ابن رائق^(١٩)، ورسالة القائم العبيدي إلى الإخشيد^(٢٠)، ووثيقة رد القائم على عرض الإخشيد المصاهرة بينهما^(٢١)، ووثيقة صلح جديدة بين الإخشيد وابن رائق^(٢٢)، وكتاب سيف الدولة إلى أهل دمشق بعد هزيمة جيش الإخشيد أمامه^(٢٣).

(١) السابق: ١٥٦. ورد في رواية أخرى بلفظة: (وحدثني) ص ١٨٨.

(٢) السابق: ١٥٩. (٣) السابق: ١٧٦.

(٤) السابق: ١٨٢، ١٨٨. (٥) و(٦) السابق: ١٨٩.

(٧) السابق: ١٨٦. (٨) السابق: ١٨٧.

(٩) السابق: ١٦٣. (١٠) السابق: ١٦٤. (١١) السابق: ١٨٤.

(١٢) سيرة الإخشيد: ١٥٠، ١٥٢-١٥٣، ١٨٥.

(١٣) السابق: ١٨٠. (١٤) السابق: ١٨٥، ١٩٠.

(١٥) السابق: ١٥٥. (١٦) السابق: ١٥٧.

(١٧) السابق: ١٦٧-١٧٢. (١٨) السابق: ١٧٣.

(١٩) السابق: ١٧٤. (٢٠) السابق: ١٧٥-١٧٦.

(٢١) السابق: ١٧٧. (٢٢) سيرة الإخشيد: ١٧٩. (٢٣) السابق: ١٩٣.

ملاحظات عامة على موارد ابن زولاق في (سيرة الإخشيد):

أ- قَصَّر ابن زولاق في التعريف بموارده، فلم يترجم لأى منها كما كان يفعل ابن الداية أستاذه. ومن ثم، فإننا نعانى جهلاً بهذه الموارد، اللهم إلا ما يلحق بقليل منها من ألقاب، تعطى بصيصاً خافتاً من الضوء، يكشف لنا شيئاً ما عن طبيعة هذه الموارد، كما في قوله: علي بن محمد الصوري الفقيه، ومحمد بن الحسين المفسر، وعبد الوهاب بن سعيد الكاتب، وأبو الفرج البالسي الطبيب، وهكذا. وقد أدى نقصه هذا إلى بعض المشكلات^(١)، وإن كنا حاولنا التغلب عليها^(٢).

ب- لم يستخدم ابن زولاق الإسناد الكامل لروايته التاريخية، واكتفى بذكر المورد الذي نقل عنه في معظم الأحيان. وفي بعضها كان يأتي بالمصدر الأصلي الذي نقل مورده عنه. وهذا المصدر

(١) من تلك المشكلات: التداخل الحادث - نتيجة التصحيف - بين بعض الموارد، مثل: محمد بن الحسين، ومحمد بن الحسن. وقد نشأ ذلك من تصحيف حق أحد الموارد الأخرى، وهو (سليمان بن الحسن بن طاهر). إذ ورد هكذا: (سليمان بن الحسين بن طاهر)، ولما كسا على يقين من اسم العلوي، الذي توسط في الصلح بين الإخشيد، وكل من: ابن رائق وسيف الدولة، استطاعا الحزم بتصويب الاسم. ثم ذكر ابن زولاق في روايته آخرين اسم المورد (محمد بن الحسن) هكذا، موفعنا في حيرة شديدة: هل هو محمد بن الحسين الذي روى عنه روايات أخرى، ولكن حدث تصحيف؟ أو هو شخص آخر بهذا الاسم؟ أو هو محمد بن الحسن بن طاهر أخو سليمان المتقدم لكن ابن زولاق لم يذكر اسم الجد فأشكل علينا الأمر؟! وبتقلب الأمر على وجوهه رَحَّحنا الاحتمال الأخير، خاصة أن موضوع الرواية ينصل بالن رائق، وهذه الأسرة لعمري دور في الإصلاح بين الإخشيد وبينه، وقد وردت في الرواية كنية هذا الأب (أبو محمد)، فيحتمل أن له ابناً آخر يدعى (محمد) هو صاحب هذه الرواية.

(٢) نبشأ عن تراجم عدد من الموارد؛ كي نخل مشكلة أخرى هي معرفة مدى الصلة بين المورد المقول عنه وموضوع الرواية التي يرويها، ووقفتُ في تعرف عدد منها، لكني لا أستطيع الترجمة لها فذلك مما يطول جداً، وسأكتفى بمجرد الإشارة إلى بعضها، مثل: الحسين بن أحمد بن أرنؤا (له علاقة بسبويه المصري، ومعاصر له ولابن زولاق). (راجع: أخبار سبويه المصري ص ٤٠). ومحمد بن الحسين المفسر ليس هو الذي (توفي ٣٥١هـ)، وله ترجمة في (وفيات الأعيان ٢٩٨/٤)، لأن المقصود بالمفسر هنا هو الذي يفسر الرؤى (روايته في سيرة الإخشيد ص ١٨٧)، ومحمد بن الحسين (وردت عنه روايات ألحق به فيها لقب الخوارزمي، وله صلة بسبويه المصري (أخبار سبويه المصري ص ٤٤، ٤٦، ٤٨). وربما اعتمد ابن زولاق، على ما يبدو من نصوص بعض الروايات، على موارد ذات صلة وثيقة بالأحداث التي ترويها. ومن ثم لم نجد داعياً لتعريف هذه الموارد. فمثلاً: (الحسين بن أحمد بن أرنؤا) نقل عنه ابن زولاق رواية، قال فيها: قال لي أبي: ثم شرح صلة الإخشيد الوثيقة بالوزير الفضل بن جعفر، وأن الإخشيد لما أراد وضع الترتيبات النهائية لدخول حيوته مصر بالقوة؛ ليتولى حكمها، أرسل والده هذا المورد (أحمد بن أرنؤا)؛ ليحضر الوزير إليه دمتش لتدبير الأمور، وأمره أن يكره ذلك في سرية تامة. وفعلاً توجه ابن أرنؤا إلى الوزير، ودخلا دمتش متكررين في زى النجار. ثم وصف ابن أرنؤا تفاصيل إكرام الإخشيد للوزير من طعام وشراب، ثم خلوقهما معا ليبحث الأمر، ثم انصرف الوزير بعد ذلك (سيرة الإخشيد ١٥٨). وواضح هنا أن والد هذا المورد كان من خواص علماء الإخشيد، وموضع ثقته، بحيث اتبته على ذلك السر، وكلفه هذه المهمة الدقيقة. وتبقى - بعد هذا - مشكلة عدم معرفتنا ببعض الموارد، مثل: محسن (الذي لا نعرف محرد اسم أبيه)، ومحمد بن عبد الله، وأحمد بن عبد الله، وغيرهم.

الأصلي قد يكون والد المورد^(١)، وقد يكون شخصاً آخر على صلة وثيقة بالحدث^(٢). وفي مرة وحيدة ترجم ابن زولاق لهذا المصدر الأصلي، قائلاً: "وكان أحد القواد"^(٣).

ج- من الملاحظ أن عدداً من موارد ابن زولاق، ينتمون إلى أقاليم أخرى فبعضهم لُقّب بالعراقي، وآخر لُقّب بالصيمري، وثالث لُقّب بالبلسي، على نحو ما ذكرنا في استعراض القسم الأول من أقسام موارده. ومن الممكن أن يختلط بعض موارد ابن زولاق مع علماء أقاليم أخرى يشبهونهم في الاسم (مثل: محمد بن الحسين المكفوف المفسر، ومحمد بن الحسن المفسر البغدادى)؛ ولذا كان يجب أن يعرفنا ابن زولاق بموارده، ولو بترجمة قصيرة - كما كان أستاذه ابن الداية يفعل - حتى ندرك صلة المورد بالرواية^(٤)، كما قلت من قبل.

د- نشهد لابن زولاق عموماً بالدقة في استخدام ألفاظ الرواية التاريخية، فهو - أحياناً - يُصدر الرواية بلفظة: (قال)، ويعني نفسه^(٥). ويستخدم لفظة (حدثني)، (وحدثني)، (فحدثني) في بعض المواضع بدقة كبيرة. فاللفظة الأولى يأتي بها في بداية رواية جديدة في موضوعها، وليست مكتملة لما قبلها^(٦)، ويستخدم الثانية في الرواية التي تؤكد ما قبلها ولا ترتبط بها ارتباطاً عضوياً وثيقاً^(٧). بينما تأتي الثالثة - غالباً - عندما يقدم ابن زولاق لروايته بكلام، يلحق هذه اللفظة كرابط يربطها بين موضوع الرواية التالي، والكلام الذي تقدمه^(٨). واستخدام لفظة: (وحدثنا) مرة واحدة بدقة تامة؛ لأنها استخدمت للتعبير عن تلقي ابن زولاق كتاب سيرة ابن طولون لأستاذه ابن الداية، وسماعه عليه، وقد كان يحدثه به ويحدث به غيره في مجلس علمه. يقول النص: "وَحَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ فِي كِتَابِهِ فِي سِيرَةِ ابْنِ طُولُونٍ بِمَا خَلَّفَهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَذْكَرَ فِي سِيرَةِ الْإِخْشِيدِ مَا خَلَّفَهُ"^(٩). وهذا يعني أن علم التاريخ في القرن الرابع الهجري استوى على سوقه - بعد استقلاله عن الحديث - وغدا له علماءه المتوفرون عليه، وبجأله

(١) مثل: وحدثني الحسين بن أحمد بن أرغنا قال: قال لي أبي (سيرة الإخشيد: ص ١٦٠).

(٢) وحدثني محسن قال: سمعت كافوراً يقول (السابق ١٨١)، وحدثني محمد بن الحسين المكفوف المفسر قال: قال لي الإخشيد (السابق ١٨٧).

(٣) السابق: ١٦٧.

(٤) وذلك من الأهمية بمكان؛ للتحقق من مدى صدق الوقائع والأحداث.

(٥) السابق: ١٥٠، ١٨٥.

(٦) قال: حدثني أحمد بن عبيد الله قال: ووصف ضخامة خزانة طليح التي تحمل الطيب في أسفاره. (السابق ١٥٠).

(٧) بعد الرواية السابقة قال: وحدثني بعض عدول مصر قال: رؤيته قاضي مصر الحسين ابن أبي زرع بكتر الطيب، فرد عليه القاضي بأن طليح أمير دمشق كان يعرفه أهل دمشق بكثرة استعماله له (سيرة الإخشيد ١٥٠).

(٨) في أول سنة ٣٢٦هـ أرسل الراضي إلى مصر يستدعي الفضل بن جعفر للوزارة، فامتنع أن يلبس الخنق المرسل إليه. فحدثني ابنه أبو الفضل قال: ركب الإخشيد بنفسه إليه، وألبسه إياها بيده (المصدر السابق ١٧٣).

(٩) السابق: ١٩٦.

الخاصة به، ومريدوه الذين يحضرون تلك المجالس، يسمعون من المؤرخين، ويروون عنهم كتبهم.

هـ - هناك تناسب بين بعض الموارد وموضوع الروايات المنقولة منها؛ مما يفيد دقة ابن زولاق في اختيار هذه الموارد. فعندما يرى الأمير في منامه رؤيا، يطلب الإخشيد إلى (محمد بن الحسن المكفوف مفسر الرؤى) أن يؤولها له. ولما كانت تتصل بما يتنبأ به لكافور من مكانة في دولة الإخشيد بعده، اعتمد ابن زولاق على هذا المورد المفسر في نقل هذه الرواية، فهو أقدر من يحكى تفاصيلها؛ لأنه أحد أطرافها^(١). ولما أراد التحدث عن تولى الفضل بن جعفر الوزارة للراضى، وجد أن خير من يحدثه عن ذلك ابنه جعفر بن الفضل^(٢). واختار أن ينقل عن طبيب الإخشيد أبى الفرج البالى ما يتصل بتقرب كافور من سيده بتقريب أحب الطعام إليه، وتقديمه إياه بيده إليه. فالطبيب يشرف على كل لون يُقدَّم إلى الإخشيد، وينظر في مائدة الطعام، وأدري بما يُقدَّم وما يُمنَح، وشاهد كافوراً يقوم بما قام به^(٣).

و - بالنسبة لموارد ابن زولاق غير المحددة أو المجهولة، فإنها - رغم حرصه على إيراد ألفاظ الرواية بها - أقل في درجة الوثوق بها من الموارد الصريحة المحددة. وعلى كل، فعرض مضمون الرواية على المنطق العقلى والحس التاريخى كفيل بقبولها أو رفضها.

ز - وهناك روايات لم يذكر لها مورداً؛ نظراً لارتباطها - في الغالب - بأمور عاصرها ابن زولاق، ولمسها بنفسه، وشاهدها بعينه^(٤)، فلا حاجة للسؤال عنها.

ح - وأخيراً، تأتى وثائق كتابه، وهى متنوعة بين الطول والقصر، وتصاحب الإخشيد عبر مراحل حياته، منذ خدمته في مصر أيام الأمير تكين، ومروراً بتمكّنه من حكم مصر وارتفاع مكانته وتلقبه بالإخشيد، ومبينة جوانب علاقته بالروم والبيدنيين، وابن رائق وسيف الدولة. فهى - إذن - على جانب كبير من الأهمية، ولا بد أن ابن زولاق قد نقلها عن رواة ثقات قريبي عهد من الأحداث^(٥)، أو عن طريق وثائق الدولة وسجلات ديوان الإنشاء^(٦).

(١) السابق: ١٨٧.

(٢) سيرة الإخشيد: ١٧٣.

(٣) السابق: ١٨٧.

(٤) مثل: تفاصيل دخول الإخشيد مصر بالقوة (السابق: ص ١٥٨ - ١٥٩)، ومراسم الإخشيد في مواكبه الليلة بالشموع المضأة على البغال (السابق: ١٨٥)، ومواطنته على صلاة الجمعة بالجامع العتيق (السابق)، ووصف شكل الإخشيد (السابق: ١٩٠).

(٥) سيرة الإخشيد: ١٥٥.

(٦) مثل: كتاب الراضى إلى الماذرائى بتوليه تدبير شئون مصر (السابق ١٥٧)، ووثيقة رد الإخشيد المطول على رسالة رومانوس الرومى (السابق ١٦٧ - ١٧٣)، وغير ذلك.

رابعاً - النقد الدخلى:

أحاول - في هذه الجزئية - معالجة عدد من القضايا التاريخية، التي تثيرها أحداث (سيرة الإخشيد) لابن زولاق، واضعاً في اعتباري أمرين مهمين:

الأول - ألا يحدث تكرار هنا مع ما سبق أن ذكرته في الدراسة التمهيدية، عن الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية في العصر الإخشيدى^(١). وهذا يقتضى معالجة قضايا جديدة بتفصيل أكثر من خلال ما يذكره ابن زولاق مقارنة بغيره من المصادر، مع الاسترشاد برأى وفكر الباحثين المعاصرين.

الثاني - وضع تصور شامل، وتقويم متكامل لفترة حكم الإخشيد وحدها، باعتبارها موضوع سيرة ابن زولاق. ويتأتى ذلك من خلال النقد والتمحيص لصفات هذه الشخصية، وبيان مرتكزات سياساتها الداخلية وبيان الرأى فيها، إلى جانب إعمال العقل في تفسير علاقاته الخارجية؛ لنصل - في النهاية - إلى الحكم له، أو عليه.

١- حول التكييف القانوني لحكم الإخشيد بلاد مصر والشام:

وهذه قضية أساسية لمعرفة الطريقة، التي وصل بها هذا الرجل إلى حكم هذين الإقليمين الكبيرين حكماً شبه مستقل في ظل السيادة الروحية للخلافة العباسية، والدور الذي لعبه الوزير (الفضل بن جعفر) - على وجه الخصوص - حتى وصل محمد بن طفج إلى ما وصل إليه، وطبيعة صلات هذا الرجل بالإخشيد قبل توليه حكم مصر وبعدها حتى وفاته.

أ- رأى ابن زولاق في هذا الموضوع:

١- بين ابن زولاق أن مكانة (محمد بن طفج) ارتفعت في بغداد، عندما تصدى هو وأخوه (على)، وبعض الجند لبعض قطاع الطريق، الذين حاولوا الاعتداء على موكب الحاج من الشام والعراق (وكانت فيهم جارية شغب أم المقتدر)، وذلك أثناء ولاية (ابن طفج) على عمّان وغيرها من قبل تكين سنة ٣٠٦هـ. وعُرف ابن طفج - بعد ذلك - لدى مؤنس الخادم عندما أقبل الأخير من العراق بجيوشه إلى مصر؛ لمواجهة جيش العبيديين من قبل القائم، فخدم ابن طفج مؤنساً، وقام على شئونه، وكان على رأس المدافعين عن مصر ضد هجمة العبيديين، فشكره مؤنس. بعد تقلد (محمد بن جعفر القرطبي) خراج مصر، غضب عليه محمد بن على الماذرائي وصرفه، فأكرمه ابن طفج وستره عنده. فلما سار القرطبي إلى العراق، رد لابن طفج

الجميل، وسعى له في ولاية الرملة، ثم عُوض عنها بدمشق، فخرج ابن طغج إلى هناك، حيث ولى دمشق، وقوى نفوذه وجنده^(١).

٢- ظل ابن طغج على دمشق، ووُلد له بها ابنه القاسم (أونوجور) يوم عرفة سنة ٣١٩هـ^(٢). وظل ابن طغج بدمشق يرقب أحوال مصر، حتى توفي وبها تكيين (١٦ من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ)، الذى كان قد استخلف ولده (محمدًا) في مرض موته، وباع للخليفة الجديد (القاهر) بعد وفاة (المقتدر). حدث خلاف بين محمد بن تكيين، والمادرائى خرج على أثره محمد من مصر، ثم جاءه تقليد القاهر له ولاية مصر، فمنعه المادرائى منها. انتهز ابن طغج هذا الصراع، وأرسل من دمشق كاتبه (على بن محمد بن كلا) إلى القاهر يلتمس ولاية مصر، فرفض الخليفة؛ لأنه ولى محمد بن تكيين من قبل. وظل الأمر كذلك حتى خُلع القاهر، وسُملت عيناه، فأرسل الإخشيد كاتبه سرًّا إلى بعض كتّاب القاهر، وقدم له رشوة، مقدارها ١٠ آلاف درهم، على أن يزور له كتاباً بأمر القاهر بتقليد ابن طغج مصر. وتم المراد، وأنفذ الكتاب إلى محمد بن طغج، فأرسله بدوره إلى مصر. في ذلك الوقت نجح ابن تكيين في إنزال الهزيمة بالمادرائى، وأظهر كتاب القاهر بتوليته^(٣).

٣- لما وصل كتاب تولية ابن طغج المزور، تلقفه المادرائى؛ نكاية في ابن تكيين، ودعى لابن طغج على منابر مصر، وهو لا يزال بدمشق، اثنين وثلاثين يوماً. ثم ورد تقليد القاهر (أحمد بن كيغلف) مصر وأعمالها (٩ من شوال سنة ٣٢١هـ)، فكان تقليد ابن طغج لم يكن. وسرَّ المادرائى بذلك، وعادت له نعمته، وخرج ابن تكيين إلى بُلْبُليس. لما ولى الخليفة الراضى، أرسل الوزير الفضل بن جعفر للإشراف على مصر والشام، وكان قد اشترط أن يكون له مطلق الأمر في التولية والعزل. ولَّى الراضى (محمد بن تكيين) حكم مصر، فاصطدم بابن كيغلف وهُزم، ونُفى إلى إهميم. تصاهر ابن طغج مع الفضل بن جعفر الوزير (زَوْج الأول ابنته من ابن الآخر)، وتوطدت العلاقة بينهما، فكتب الوزير للإخشيد بولاية مصر؛ استناداً إلى حقه الذى اشترط من قبل. ولما سار رسول ابن تكيين إلى دمشق، أخذ منه ابن طغج كتاب تقليد (ابن تكيين)، ومحا اسم (تكيين)، وكتب مكانه (طغج)، فصار ذا عهدين بولاية مصر (عهد الوزير الفضل، وعهد الراضى المزور). ثم فشل ابن طغج في دخول مصر سلماً؛ لوقوف المادرائى في طريقه. وفي الوقت نفسه أقر الراضى (ابن كيغلف) على مصر؛ لأنه كتب يشكره، وكان ابن كيغلف أخذ

(١) سورة الإخشيد: ١٥٣. وتم ذلك بضم قوات كثيرة بدمشق إلى قواته، وحصول إخوانه عده، فاستقرَّ بهم (عبيد الله، والحسن، والحسين، وعلى).

(٢) السابق: ١٥٥.

(٣) سورة الإخشيد: ١٥٦.

قواته، ومنع دخول بعض من ولاهم الوزير الفضل خراج مصر وغيره من المناصب. وصارت للماذرائي اليد الطولى في مصر، لما كتب إليه الراضى يفوض إليه شئونها (يقلد من شاء، ويصرف من شاء)^(١).

٤- أرسل الماذرائي إلى ابن طغج كتاب الراضى إليه بعد أن قرأه على الناس، فتأكد ابن طغج أنه لا بد من دخول مصر بالقوة، وسارع بالإرسال إلى الوزير الفضل، فجاءه سرّاً متتكرراً في زى التجار، واتفقاً معاً على ترتيبات دخول مصر^(٢). ثم جرت أحداث الصدام المسلح حتى استسلم ابن كيغلف لما رأى كتاب تقليد الراضى إياه، وتمكن ابن طغج من دخول مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٣٢٣هـ^(٣).

٥- ثم دخل الوزير (الفضل بن جعفر) إلى مصر بعد حكم الإخشيد لها، فاستقبله الإخشيد، وخلع عليه عند باب المدينة وزُينت لهما المدينة. وكشف الوزير مكان استتار الماذرائي، ثم أحضره وسأله أموالاً تُعين على نفقات الحج، فزعم قلة ما لديه من الأموال^(٤).

٦- أراد الفضل بن جعفر أن يجد رجلاً، يناظر محمد بن على الماذرائي فيما عليه من أموال، فلم يجد إلا (الحسين بن الرقى)، الذى أودى وعُذّب بسبب الماذرائي من قبل، وكان قدم من دمشق، ودخل مصر مع الفضل بن جعفر. ولم تتم المناظرة لحيلة، قام بها الماذرائي أغرى فيها الإخشيد بأموال طائلة، فأنقذه من ذلك الموقف العصيب المهين، واشترط الإخشيد - بمقتضى ذلك - على الوزير أن يكون مكرماً للماذرائي، ولا يأخذ منه إلا ما يوجد عليه من أموال، فضمن الوزير ذلك، ثم قام بقبض ضياعه بالشام، وأكثر ضياعه بمصر^(٥).

٧- جمع الإخشيد في مصر بين ولائى: (الحرب والصلاة)، و(الخراج وتبدير الأموال) كابن طولون. وكان مقر الأولى في دار الإخشيد، والثانية في دار الفضل بن جعفر. ولما انتهى الوزير من تبدير السبلد، وتقرير الأموال، وكشف الضياع في مصر، خاصة ضياع الماذرائيين، خرج إلى الشام ومعه الماذرائي موكلاً به. وعاد الإخشيد بعد توديع رسمى وشعبي للوزير، وولى أمور مصر كلها^(٦).

٨- في شهر شعبان من سنة ٣٢٤هـ، كتب الإخشيد إلى الخليفة الراضى يُقلعه بما تم في مصر على يديه ويذى الوزير الفضل، وما وفراه من أموال، وما تم بشأن الماذرائي، فقدم رسول

(١) سيرة الإخشيد: ١٥٧.

(٢) وكانت رسل الماذرائي بكتاب الراضى إليه قابلت جيوش الإخشيد بالقاهرة قادمة إلى مصر، فأرسلهم إلى الوزير الفضل بن جعفر بالرملة، فقبّدهم الوزير (السابق ١٥٨).

(٣) السابق: ١٥٧-١٥٩.

(٤) السابق: ١٦١.

(٥) السابق: ١٦٣.

(٦) سيرة الإخشيد: ١٦٢.

الراضى إليه بالخلع والطوق والسوارقين، واستقبل استقبالاً حافلاً. وخرج الإخشيد يوم الأربعاء وعليه خلع الراضى، وصليا في الجامع العتيق، وعادا إلى دار الإخشيد. وعاد الفضل بن جعفر الوزير من الشام إلى مصر، فتلقاه الإخشيد وجميع الناس^(١).

٩- في سنة ٣٢٦هـ، وبعد ما خلعه الراضى على ابن طغج من خلع وغيرها، كتب ابن طغج إليه يسأله منحه لقب الإخشيد، فوافق الراضى. وفي أول سنة ٣٢٦هـ، أرسل الراضى إلى مصر، يستدعى الفضل للوزارة (أى: في بغداد)، فامتنع من لبس الخلع، لكن الإخشيد أقنعه بقبول ذلك، وألبسه إياها بنفسه، وشيَّعه أهل مصر، فخرج إلى الشام، ثم إلى العراق. وخلف ابنه أبا الفضل (جعفرًا) بمصر. فلما بلغ الرقة، لقينته خلع أخرى للوزارة، فلبسها ودخل بغداد، وذبح الأمور، لكنه وجدها مضطربة، فاستأذن الخليفة الراضى في السير إلى الشام ومصر؛ لحمل الأمور، وكشف الأعمال، مستخلفاً مكانه (عبد الله بن علي المغربي). وسار إلى الشام، فتوفي بالرملة ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ. فحزن الإخشيد لفقده، وأرسل إلى الرملة في طلب المادرائى، الذى كان موكلاً به بالرملة في دار الفضل ثلاث سنين، ولثمانية أشهر. فلما وصل المادرائى، أنزله الإخشيد معه في داره^(٢).

ب- والآن، مع مناقشة هذه الأحداث، والتعليق عليها:

أ- أول ما نلاحظه على هذه الأحداث أنها توضح تعلق ابن طغج بحكم مصر، فيجمع بذلك بين الشام المتواجد فيها ومصر، كما كان سلفه ابن طولون من قبل. وفي سبيل ذلك أوضح ابن زولاق أن الإخشيد زوّر عقد ولايته على مصر مرتين (عن طريق الرشوة مرة، وعن طريق التزييف أخرى). ومن ثم تكون ولايته غير قانونية ولا شرعية؛ لأنها لم تصدر - أساساً - عن مملك التولية والعزل (الخليفة العباسى). وقد كان من الممكن أن نصدق كلام ابن زولاق بهذا الشأن، فحال الخلافة بلغ درجة كبيرة من الضعف، وأصبحت قراراتها في التولية والعزل متضاربة، وأصبح - كما رأينا من نصوص ابن زولاق - كتاب التقليد فاقد الأهلية والاحترام، والقوة هي أساس فرض النفوذ. كان من الممكن قبول ذلك لولا تضاربه مع الحقائق التاريخية المقررة، التى تقطع بأن الخليفة القاهر بالله ظل في الحكم، حتى خلع يوم السبت ٣ من جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـ، وسُملت عيناه^(٣). ومعنى هذا أنه كان لا يزال في الحكم عندما ولى

(١) السابق: ١٦٥-١٦٦.

(٢) سيرة الإخشيد: ١٧٣. وهذا دليل حب الإخشيد وإكرامه إياه، ولم لا والإخشيد هو الذى صانه من قبل من الإهانة الممنوعة، التى كان يستعرض لها على يد الوزير الفضل ٤.

(٣) كانت مدة حكمه خليفة سنة، و٦ أشهر، و٧ أو ٨ أيام. ويوبع بعده ابن أخيه (الراضى ابن المقنن). (النجوم ٣/

الإخشيدي مصر للمرة الأولى، فقد ورد الكتاب بولايته يوم الأحد ٧ من رمضان سنة ٣٢١هـ، وظل هكذا - وهو في دمشق لم يدخل مصر - مدة ٣٢ يوماً، حتى قدم رسول ابن كيخلف بولايته الثانية على مصر في التاسع من شوال من العام نفسه^(١) (وفي عهد القاهر أيضاً). ومن ثم، فرواية ابن زولاق التي تجعل تزوير الكاتب تقليد الإخشيدي مصر بعد خلع القاهر، غير صحيحة^(٢). ويكون القاهر قد عاد عن تمسكه بولاية محمد بن تكين لسبب لا نعرفه، لعله ضعف ابن تكين عن مقاومة المادرائي الرافض لولايته.

أما بالنسبة لما زعمته رواية ابن زولاق عن محو الإخشيدي اسم تكين من كتاب تقليد (محمد ابن تكين)، وكتابه اسم أبيه (طغج) مكانه، ونسبته بذلك كتاب الراضي إلى نفسه بولاية مصر، فأعتقد أن الرواية متكلفة، وواضح منها أنها ملفقة وغير مقنعة، فلا مناسبة لتوجيه رسول الخليفة بكتاب إلى ابن تكين، فيذهب به إلى ابن طغج بدمشق، ويسلمه إياه، فيقوم بذلك التزوير بنفسه! وأعتقد أنه لا داعي لما ذهب إليه الدكتور سيدة كاشف^(٣)، ومن تبعها من الباحثين^(٤)، من تحليل عسدم قبول كلام ابن زولاق في هذا الموضوع بأنه يرجع إلى التعديلات التي أدخلها ابن زولاق على كتابه بعد سقوط الدولة الإخشيدية، ومقدم العبيدين إلى مصر؛ تقريباً إليهم، وطلباً لرعايتهم، عن طريق الخط من شأن الإخشيد ودولته، والزعم بأن ولايته غير شرعية^(٥).

ب- يعد دخول الإخشيد مصر بجيوشه نوعاً من فرض الأمر الواقع بقوة السلاح؛ إذ إننا نعتقد أنه لم يدخلها بكتاب من الراضي سلفاً، وإنما كان معتمده على تقليد الوزير الفضل إياه^(٦)، بحكم ما بينهما من مصاهرة، ومصالح مشتركة (ابن طغج يريد حكم مصر إلى جانب

(١) كان ابن زولاق دقيقاً في تحديد هذا التاريخ (سيرة الإخشيد ص ١٥٧). أما الكندي في كتاب (الولاة - ط. جست - ص ٢٨٢)، فجعله اليوم السابع من شوال بدل التاسع، وهو تحريف واضح. أما د. حسين نصار في طبعته لكتاب (ولاة مصر) للكندي، فكتبه إلى ذلك وصحح التحريف، وعلق في هامش ١ ص ٣٠٠ بأن هذا الرقم هو الذي يتناسب مع القول بأنه قضى في ولايته الأولى ٣٢ يوماً فقط. وورد في (المخطوط) دون تحريف ٣٢٨/١. ولا صحة لما ورد في (النجوم) ٢٧٠/٣ من قوله: ولّى الإخشيد مصر للمرة الأولى من أواخر شعبان إلى أواخر رمضان.

(٢) مصر في عصر الإخشيديين: ص ٦٩.

(٣) مصر في عصر الإخشيديين: ٧١.

(٤) حسن جبر في رسالته للدكتوراه ص ٢٢٨، وفرج الأحول في رسالته للماحستير: (حضارة مصر في عهد الدولة الإخشيدية) ص ٣٥-٣٦.

(٥) سوف أوضح وجهة نظري في التعديلات، التي أشار إلى إحداثها في سيرته ابن زولاق، والمقصود منها عند تناول (منهجه التاريخي) بعد قليل.

(٦) فإذا كما لم نقل أن يزور الإخشيد كتاب الراضي كما وصمه ابن زولاق، فنحن - في الوقت ذاته - نرى أن الإخشيد لم يكن لديه أصلاً كتاب تقليد من الراضي. وما ذكره ابن زولاق من أن ابن كيخلف سلم لما رأى كتاب تقليد الراضي للإخشيد أمر مشكوك في صحته، والصواب أنه سلم؛ لأنه لا قيل له بجيوش الإخشيد، ولم يكن يريد بها حرباً منذ البداية، لكن المادرائي دفعه إلى القتال دفعاً (الولاة، للكندي ٢٨٦).

الشام، والوزير يريد فرض سيطرته على ماليتهما معاً، وعزل المادرائي وسلبه جميع نفوذه، ومصادرة ممتلكاته وما لديه من أموال لصالح الخلافة؛ كى يحظى برضاها). والدليل على صحة ما ذهبْتُ إليه أن الكندى ذكر أن الراضى ولى الإخشيد على صلاة مصر وخارجها للمرة الثانية في الرابع والعشرين من رمضان سنة ٣٢٣هـ^(١). فالخلافة لم تقرر في منصب كان فيه من قبل، وإنما وُلّته بعد أن انجملت الأمور، وتكشف لها أنه أقوى المتصارعين على ولاية مصر. ويلاحظ أن ابن زولاق أغفل ذكر هذا التاريخ المهم، وإن كان قد أشار بعد ذلك إلى جمع ابن زولاق بين الصلاة والخارج، وأوضح مكان إدارة كل، وأبرز دور الوزير الفضل، وهو الإشراف العام على الشئون المالية في كل من: مصر، والشام. وبذلك تأكدت ولاية الإخشيد الشرعية، واتضح دور الوزير الفضل إلى جانبه، وانفرد بهما معاً بعد خروج الوزير إلى الشام (وإن كان هذا لا يمنع من قيامه بدور المراقبة والمحاسبة).

ج- بالنسبة لعلاقة الإخشيد بالوزير الفضل، فقد أوضح لنا ابن زولاق دور الوزير الفَعَال في تولية الإخشيد مصر، لكنى لا أوافق على ما ورد في بعض المراجع من أن الفضل قدم سنة ٣٢٤هـ إلى مصر بالخلع إلى الإخشيد من قبل الراضى تولية له على مصر^(٢). فابن زولاق يذكر أنه قدم إلى مصر بعد الإخشيد لها، وما كان للإخشيد أن يملكها إلا بعد تقليد الخليفة له كما مر قبلاً.

(١) الولاة، للكندى ٢٨٦.

(٢) مصر في عصر الإخشيدين، للدكتورة سيدة كاشف: ص ١٠٤. وبالرجوع إلى مصادرها المذكورة في هامش ٦ ص ١٠٤ تبين ما يلي: ورد في (الولاة للكندى ص ٢٨٧) ما نصه: "ثم قدم أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن فرات مُكشّفاً (أى: لكشف الأموال، والضّباع)، وقدم بالخلع، فخلعتُ على محمد بن طنج ". وفي (المخطوط) ٣٢٩/١: ذكر أن الوزير الفضل قدم بالخلع لمحمد بن طنج. أما ابن زولاق، فنصه يختلف عما مضى، إذ يفيد أن الوزير لما قدم إلى مصر، استقبله ابن طنج، وخلع عليه عند باب المدينة خلعاً سلطانية (أى: الإخشيد هو الذى خلع على الوزير ما يليق بمكانته، وما يناسب قدره، عرفاناً بحمليه عليه في ولاية مصر). ثم إن الخلع ليست من مراسم ولاية الولايات غالباً، وإنما تُخلع على الوزراء. أما الوالى، فيكتفي كتاب التقليد من الخلافة. وإذا صح - بعد ذلك - خلع الراضى، ثم التقى على الإخشيد؛ لسمو مكانته، فذلك أمر وقع بعد الحادثة التى ناقشناها. هذا هو الفهم الذى أروجه من خلال أصبح النصوص بهذا الشأن (نص ابن زولاق). أما الكندى والمقريزى، فقد عكسا رواية ابن زولاق، وهما غير مقبولتين؛ لأن تقليد الإخشيد وصل من الراضى قبل بحى الوزير الفضل. ثم إن أياً من النصوص السابقة لم يحدد تاريخ قدوم الوزير إلى مصر. وقد حددته د. سيدة كاشف على سبيل الاستنتاج معتمدة على ما ورد في بعض المصادر من أن الإخشيد ولى سنة ٣٢٤هـ أعمال مصر مع ما كان معه من الشام. (تجارب الأمم ٣٣٢/١، وتكملة تاريخ الطبرى ٢٩٨، والكامل ١٢٦/٧، وتاريخ الإسلام ٣٤/٢٤). وأعتقد أن هذا النص يفهم على أنه تأكيد من الخلافة على جمع الإخشيد بين ولايتي مصر والشام، فتقليده مصر، كان سنة ٣٢٣هـ. ويدو أن التقى لله (ورد خطأ بلبق المقفى لأمر الله) لما ولى وسّع نفوذ الإخشيد، فجدّد له ضم الشام إلى مصر، وكذلك الحجاز، وغيرها. (وفيات الأعيان ٥٨/٥). وترى د. سيدة كاشف أن سلطة الإخشيد على الحجاز واليمن كانت شكلية (مصر في عصر الإخشيدين ص ٣٧٤).

هذا، وقد ظلت العلاقة حميمة، والاستقبالات الشعبية والرسمية قائمة على قدم وساق مع الاحتفالات والزينات في البلد كله عند دخول الوزير الفضل^(١). ومع ذلك كله، فإن ألمح رغبة دقية داخل نفس الإخشيد أن تزول سلطة إشراف الوزير على الأوضاع المالية في مصر والشام؛ ولذلك فكأنما انتهز فرصة توليه وزارة الخليفة الراضي، حتى أقنعه وألح عليه بقبول المنصب، وألبسه جُلج الوزاره يديه. وفعلًا كأنما تنفس الإخشيد الصُّعْداء بخروجه، ثم موته قريباً إلى ذلك (سنة ٣٢٧هـ)، وموت ابن رائق بعده (٣٣٠هـ)، ففرغ قلبه بموتهما على حد تعبير ابن زولاق الدقيق^(٢)، وبدأ يسلك مسلك ابن طولون، وابنه حمارويه في اختصاص نفسه بموكب معين وملبس معين دون سواه، واشترط في عسكره شرطاً معيناً^(٣).

٢- سياسة الإخشيد الداخلية، والخارجية:

تنبع سياسة الإخشيد على الصعيدين: الداخلي، والخارجي من واقع صفاته النفسية، وحالته الجسدية المركزة داخله؛ إذ إن تصرفاته هي انعكاس واضح لتلك الصفات جيداً ورديتها. ومن هنا سأعرض - باختصار - لعدد من صفاته تلك؛ حتى يصح الربط بينها وبين سياساته الداخلية والخارجية، وعلى ضوء ذلك يمكن تفسيرها.

من صفات الإخشيد الطيبة:

- أ- تمتعه بحُلة الصفح والعفو الجميل: فقد كان الإخشيد أكرم (محمد بن تكين)، وكان يؤاكله، وولاًه طرية. فلما ورد ابن رائق إلى الشام، صار ابن تكين معه ضد الإخشيد، وعندما هزم ابن رائق في موقعة العريش، استأمن ابن تكين، فلم يؤاخذه الإخشيد، وظل مكرماً إياه^(٤).
- ب- حرصه على أداء الشعائر، وحضور ختم القرآن^(٥)، وعَشَيان مجالس العلماء والفقهاء ومكافأهم^(٦)، وكراهيته تنازعهم واختلافهم^(٧).

(١) تعددت مرات دخول وخروج هذا الوزير. وسوف أرصد مدى اهتمام ابن زولاق بتوثيق ذلك مقارنة بالمصادر الأخرى، ومدى دقة في الترتيب والتسلسل المنطقي في عرض الأحداث، وذلك في (منهج ابن زولاق في سيرة الإخشيد)، بإذن الله.

(٢) سيرة الإخشيد: ص ١٨٠.

(٣) المصدر السابق: ١٨٠. وقد اشترط في عسكره ألا يكون هم شيخ، وأمر الشيوخ بصيغ لحاهم، وزاد في الرواتب للوفاء بذلك.

(٤) السابق: ١٨٤.

(٥) السابق: ١٨٥.

(٦) كافا أحد فقهاء الشافعية بدمشق بتوليته (مظالم السواحل)، لما أحابه عن معنى عبارات بذكرها الفقيه الزني الشافعي. (سيرة الإخشيد: ١٨١).

(٧) هم بمعاينة الفقيه ابن الحداد الشافعي، وعدد من فقهاء المالكية لما كثر لفظهم في مجلسه، فقد كان يصون بمجالسه التي يحضرها عما يُستقبح (المصدر السابق: ١٨٢).

ج- يبدو أن الإخشيد كان منذ بداية حياته مطالعاً للقرآن، تالياً له، واتضح ذلك في رده على كتاب تكين إليه^(١).

من صفاته السلبية:

مع ما تقدم من صفات حسنة للإخشيد، إلا أنه كان يعاني صفات نفسية ذميمة، اعتقد أن لها دخلاً في النوبات العصبية (كالصرع مثلاً)، التي كانت تتناوب بين الحين والآخر^(٢)، منها: اتصفاه بالشرة الشديد في تناول الطعام^(٣)، ونهمه الذي لا حدود له في امتلاك الأموال، وكان هذا يدفعه إلى السطو على مال الغير^(٤)، والتطلع إلى ما يمتلكه الغير وسلبه إياه^(٥)، إلى جانب البخل الشديد، الذي قد يصل إلى حد الإمساك عن تناول الطعام بعض الأيام؛ لانشغال قلبه بإخراج بعض الأموال^(٦). وكذلك البخل بالإدلاء بالرأى النافع المفيد، واحتفاظه به لنفسه^(٧).

وقد انعكست هذه الصفات وغيرها على سياسته الداخلية فترة حكمه. ومن أبرز معالم هذه السياسة ما يلي:

أ- انعدام حرمة الأموال:

لم تكن لممتلكات الناس الخاصة (أموال، وضياع، وغيرها) أية حرمة لدى ابن طنج، وكان

(١) قال تكين في رسالته لابن طنج، لما هرب من مصر إلى الشام في عهده ما حكاه القرآن على لسان فرعون يخاطب به موسى: «أَلَمْ نُؤْتِكْ فِتْنًا وَلِيَدًا، وَلَيْسَتْ فِتْنًا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَلَقَدْ عَلَّمْتُكَ الْقِيَاسَ الَّذِي فَاعَلْتَ». (الشعراء: من الآيتين ١٨-١٩). فكان من رد ابن طنج عليه: «فَقَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا عَفَيْتُكُمْ». (الشعراء: من الآية ٢١). (سيرة الإخشيد: ١٥٥). وذكر ابن زولاقي في موضع آخر أن الإخشيد كان عباً لقراءة القرآن، ويبكي عند سماعه (السابق: ١٨٨).

(٢) اعتقد أن شدة تنفقه بالمال، وعظيم انشغال قلبه به، ونهمه الذي لا حد له لامتلاكه، كان يضغط على أعصابه بقوة، فيسهم في حالات الصرع، التي تتناوب بين فترة وأخرى. وقد أورد ابن زولاقي بعض مناسبات معاودة هذه الحالة المرضية للإخشيد، فأتضح منها أنها تأتيه عندما يتعرض لضغط نفسي، وعصبي شديد. ومن مواضع ذلك: أمّا اثابته عند تأهبه للمسير لقتال ابن رائق، ففُوِّحَ أَيْامًا (السابق: ١٧٤). وكذلك عندما جاءه رد نائبه في بلاط الخليفة الراضى، وقد أخبره بأن الراضى لم يعلق على كتاب الإخشيد إليه، شاكياً طمع ابن رائق في ولاية مصر، وأن (بحكم) أرسل ابن رائق مُقْلِدًا ولاية مصر، وأن الخلافة ستكون مع من تكون له الغلبة بالسيف منهما. (السابق: ١٧٦).

(٣) سيرة الإخشيد: ١٥١، ١٨١.

(٤) السابق: ١٨١-١٨٢.

(٥) حتى ولو كان ذلك ثياباً وملاس غالية الثمن، يزعها عن صاحبها، ويرتديها هو. (السابق: ١٨٥).

(٦) حدث ذلك عندما طالبه ابن رائق بمزيد من الأموال، التي يقدمها للخلافة سنوياً، ولم يعد إلى طعامه حتى تخفف عنه المحيطون به، وحثوا عليه ذلك، وطالبوه أن يبتزها أموالاً كذلك التي قدمها الرسول للمؤلفة قلوبهم. (السابق: ١٨٢-١٨٣).

(٧) لقد احتج لنفسه بموضوع مكان نقل دار صناعة السفن من مكانها الأصلي بالجيزة على النيل؛ كى لا تكون عرضة لإحراق المراكب بها، رغم أن ذلك المكان خطر له عندما أثر الموضوع في مجلس طعام تكين وهو حاضر إياه، وقال - في نفسه - يومها: أدع ذلك الرأى لنفسى إذا ملكت مصر. وبالفعل نقله في ولايته إلى دار بنت الفتح من خاقان؛ حتى لا يفصل بينه وبينها ماء، وحول دار الصناعة القديمة إلى بستان. (السابق: ١٦٠).

يستطلع للحصول على الأموال بكافة الطرق والأساليب، وقد عُرف ذلك عنه منذ كان حاكماً لدمشق^(١)، وبدأ به عهده في حكم مصر لما سمح لجنده عقب دخول مصر بالسلب والنهب مدة يومين كاملين، ثم أعلن أن مَنْ نهب قُتل^(٢). وكذلك تعرض محمد بن علي الماذرائي لمصادرة ضياعه وممتلكاته بمصر والشام^(٣). والواقع أن الإخشيد ما كان يأتيه الخير بامتلاك أى من كتابه أو قواده شيئاً من المال، إلا بادر إلى مصادرته^(٤). وقد حدث ذلك مع كاتبه (عمران بن فارس)، إذ استدعاه من الشام ونكبه في أمواله وصارها^(٥)، وكذلك كاتبه (محمد بن كلا)^(٦)، وكان لا يتورع عن الاستيلاء على تركات المتوفقين من القادة أو التجار الأثرياء^(٧)، ناهباً بذلك حقوق وأموال الورثة (وفيهم اليتامى، والأرامل).

ومن عجب أن يدرك الإخشيد أن أموال المصادرة مشنومة، لكنه يعتذر بأنه ما أنفقها إلا في سفر إلى عدو^(٨). ويذكر ابن زولاقي أن الإخشيد كان رقيق الوجه فيه حياء، فلا يعذب أحداً عند مصادرته، ولا يتعرض للحرم^(٩)، ولا يرى المصادر إلا بعد فترة، ثم يصطفيه ويؤانسه^(١٠). ويدو أن الناس عرفت تلك السياسة الذميمة، فلم تستحب لنداء الإخشيد إليهم أن يترعوا في المسجد؛ لأجل فداء الأسرى؛ مما اضطره إلى إرسال المراكب والأموال اللازمة من طريق أخرى^(١١).

ويمكن القول بأن هذه السياسة ظالمة، خاصة أننا لم نرها مسبوقة بتحقيقات (أو منازعات) تتم مع أولئك المصادرين؛ للتأكد من مصادر ثرواتهم، ومدى أحقيتهم في امتلاك هذه الأموال. ولا نقبل دفاعه عن نفسه بأنه كان ينفقها في أسفاره؛ لصد أعدائه. كما لا نقبل دفاع البعض عنه من أنه كان يستهلك الجانب الأكبر منها في إقامة المشروعات والمنشآت، والمشاركة في نفقات فداء الأسرى، بخلاف ما يبعث به إلى الخلافة من أموال^(١٢)؛ لأن ذلك كله لا يبرر الجرم الفظيع الذى ارتكبه في أكل أموال الناس بالباطل. وتلك الأمور التي يتحدثون عنها لها مواردها

(١) فقد أتهم الإخشيد - رغم كراهيته سفك الدماء - بدم السهم ليُشرى الخادم، الذى وقع في أسره بعد قتال سهما، ثم احتوى على معناته، وضم قواته وحنده إليه. (سيرة الإخشيد: ١٥٣، د. سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيد: ص ٦٥).

(٢) سيرة الإخشيد: ١٥٩.

(٣) السابق: ١٦٢. (٤) السابق: ١٨٧. (٥) السابق: ١٥٤. (٦) السابق: ١٦٤.

(٧) فقد صادر في شهر شعبان سنة ٣٢٤هـ مبلغ مائة ألف دينار من تركة أخل تاجر في مصر بعد وفاته، وهو غفان بن سليمان البرزاز (السابق: ١٦٥).

(٨) السابق: ١٨٨.

(٩) السابق.

(١٠) سيرة الإخشيد: ١٨٨.

(١١) السابق: ١٦٦.

من خزينة الدولة، ثم إن ما وجد من أموال في ممتلكاته وخزائنه^(١) - مهما كان مبالغاً فيه - يدل على كثره هذه الأموال لنفسه؛ نتيجة فحمة، وأطماعه المادية التي لا حدود لها^(٢).

ب- انتهاجه سياسة اللين والمدافعة، وقبوله الرأي السليم:

وخير مثال ضربه ابن زولاق على ذلك حادث اغتيال جزء من كنيسة أبي شنودة سنة ٣٢٦ هـ. وقد حاول النصارى بذل الأموال للإخشيدي؛ ليسمح لهم بعمارته، لكن يبدو أنه خشى ثورة الناس عليه، فأحال على قُتيا الفقهاء، فالبعض أجاب والبعض رفض. وحدث ما توقعه الإخشيد، إذ ثارت العامة إلى دار من أفتى بتعميرها، وحاولوا إشعال النار فيها، وقتله؛ مما دفعه إلى الاستتار نادماً على فتواه. وارتكب الناس أحداث شغب عظيمة، وأغلَقوا الدروب، وأحاطوا بالكنيسة. وقد أرسل إليهم الإخشيد وجوه غلمانه، مثل: كافور، وشادن في عسكر كبير، وأمهرهم ألا يلتحموا بالناس، لكن الرعية هي التي زحفت إليهم، ورموهم بالحجارة، فأمرهم الإخشيد بالرجوع. ثم عالج الموقف بكياسة وتؤدة، إذ أوفد الفقيه ابن الحداد (وكان ممن أفتى بعدم جواز تعمير الكنيسة) إلى تلك الكنيسة، فإن كانت آيلة للسقوط هدمها، وإلا فلا. واصطحب ابن الحداد معه المهندس (على بن عبد الله البواش)، ورفق بالناس وطعأهم، حتى دخل ومعه المهندس إليها. فلما فحصها، وجد أنها يمكن بقاؤها خمس عشرة سنة، ثم يَهْوَى منها جزء، وبعدها بخمس وعشرين سنة تسقط بكاملها. فلما سمع الإخشيد ذلك الرأي، قبله وعمل به، فتركها ولم يعمرها^(٣). وبذلك تجنب ثورة الناس العارمة، ولم يَعتَدِ - في الوقت نفسه - على مقدسات النصارى.

ج- محاولة إقامة العدل، وحسن معاملة الرعية (خاصة العلويين):

يبدو أن مظالم الإخشيد المالية لم تكن تتجاوز القادة والكتّاب، والتجار الأثرياء. أما عامة الناس، فقد كان الإخشيد حريصاً على إجابة مطالبهم. فقد ورد أنه كان يجلس بنفسه للناس للقضاء في المظالم كل أربعاء^(٤). وكان يكرم الصالحين ويُنفِّذ ما يرون، فقد دخل عليه أحدهم، ويدعى (محمد بن أحمد الدِّيُورِي) منكرراً لأمر، فأزالها الإخشيد^(٥).

(١) سيرة الإخشيد: ١٩٦ - ١٩٧.

(٢) حتى لقد بلغ جشعه حدّاً، أوصله إلى الاحتكار، إذ كان يحب العنبر، فكان أكثر ما يُهدَى إليه. فإذا جاءت الأعياد، أخرجت كمياته الضخمة من خزائنه، وُتِباع إلى التجار، فيشتره الذين يهدونه إليه، فيحصل له الثمن الوفير، ثم يعود إليه العنبر ثانية. وهكذا، أقام سنين كثيرة، حتى اجتمع عنده قناطير. (السابق: ص ١٨٦ - ١٨٧).

(٣) سيرة الإخشيد: ١٨٣ - ١٨٤.

(٤) المصدر السابق: ص ١٩٠ - ١٩١.

(٥) سيرة الإخشيد: ص ١٩١.

وبالنسبة للشام، فقد كان يسير في شوارع الرملة، حتى صاحبت به امرأة من فوق سطح: أيها الأمير، قفْ على بوقفك بين يدي الله. فنظر إليها، ونزل عن دابته، وأحضرت المرأة، فشكت إليه غياب صبيها عنها، فأمر بإحضاره، وتصدق عليها بمائة دينار، عسى الله أن يرحم ذل موقف بين يديه^(١). وقد أورد ابن زولاق رواية، تفيد حسن معاملة العلويين، واحترامه إياهم، وتساهله معهم، ومنحه الأمان لأحد كتّابه المستترين عنه في دار أحد العلويين؛ إكراماً له^(٢).

بالنسبة لعلاقات الإخشيد الحارثية، فإنني أكفي - فقط - بمحاولة تفسير سياسته تجاه ابن رائق^(٣)، ثم سيف الدولة الحمداني^(٤) بالشام. يتضح من أخبار صدامه مع هذين الرجلين، ومع غيرهما من الطامعين في دولته^(٥)، أنه رجل مسالم، يميل إلى الصفع والمسالمة، ولا يلجأ إلى القتال إلا حين لا تنفع الوسائل السلمية. وقد لجأ إلى المصاهرة والمصالحة مع ابن رائق؛ لعلمه أنه رجل الخليفة، والصدام مع جيوشه وإلحاق الهزيمة بها يوقعه في الحرج الشديد. ولذلك تحمل عدواة واعتداء ابن رائق حتى خَلَّصه القدر منه سنة (٣٣٠هـ). أما سيف الدولة، فرغم انتصار الإخشيد عليه إلا أنه لم يكن معه حاسماً. وقد فسّر الإخشيد نفسه ذلك بأن سيف الدولة رجل صعب المراس، عسكر حذاءهم - رغم هزيمته - بوجه صفيق، وقلة حياء. وقد اختار الإخشيد مسالته، ولم يسمع لغلماناه المتحمسين لمواصلة القتال؛ لأنه رأى أن الأمر لن يخرج عن شيئين: إما أن ينتصر سيف الدولة، فتكون هزيمتهم عاراً وفضيحة. وإما أن ينتصر الإخشيد، ويقع سيف الدولة في الأسر، فيجهز له كل وسائل الراحة، ويكلفه - بعد ذلك - ردّه لأهله؛ لأنهم لا يتركونه. بعد ذلك لا يَسْلَم من أذى وامتنان غلماناه عليه، يطالبونه بالأموال، ويسألونه الأعمال والولايات^(٦).

والخلاصة :

أن الإخشيد نجح في إقامة دولة قوية، ضمت مصر والشام، محاولاً ترسّم خطى ابن طولون في سيرته ودولته^(٧)، وحقق لمصر الاستقرار والازدهار، لكنه أساء في أسلوب المصادرات. ونجح في إقامة علاقات متوازنة بالحارث، سالم وصالح فيها قُوَى عصره، وجنّب شعبه مخاطر الحروب وويلاتها.

(١) المصدر السابق: ص ١٩١.

(٢) راجع تفاصيل قصة هذا الكاتب (سهل بن محمد البغدادي) مع العلوي (أبي إبراهيم الرُستى العلوي)، التي انتهت بتأمين الإخشيد للكاتب، ومنحه خاتمه للعلوي وتكرمه. (السابق: ١٨٨).

(٣) تفاصيل الصدام في: زبدة الحلب ٩٩/١ - ١٠٢.

(٤) السابق: ١١٤/١ - ١١٥.

(٥) نجح الإخشيد في استقطاب كافة الطامعين إلى ولاية مصر (ذكرهم ابن زولاق في سورة الإخشيد ص ١٨٢).

(٦) سورة الإخشيد: ١٩٥، وأضاف بعض المحدثين أنه يريد الإبقاء على الحمدانيين، كحصن في مواجهة الروم (مصر في العصور الوسطى) ص ٢٤٤.

(٧) سورة الإخشيد: ١٦٣، ١٨٠ - ١٨١.

خامساً ، وأخيراً - منهج المؤرخ ابن زولاق في (سيرة الإخشيد)

ما قبل معالجة المنهج :

لدى ملاحظتنا على تلك السيرة متصلتان بمنهج الرجل ، أعرضهما كما يلي :

أ- مقدمة ابن زولاق لكتابه هذا^(١):

وفيها اتضحت منهجيته وروحه العلمي ، ونظراته الناقدة الواعية . لقد أوضح فيها - باختصار - ظروف تأليفه هذا الكتاب ، ومن سبقه في مجاله التألفي ، ورأيه فيما سبق في موضوعه هذا . ذكر ابن زولاق فيها تعلمه على أستاذه ابن الداية ، وما ألف من كتب على غمط تأليفه . وذكر أن (محمد بن موسى بن المأمون الهاشمي) عمل كتاباً في سيرة الإخشيد ، يتقرب به إليه . وقد وضع هذا المؤلف قبيل وفاة الإخشيد (قريباً من سنة ٣٣٤هـ) . وكعادة العلماء المنهجيين اطلع ابن زولاق على ما كتب في موضوعه من قبل . فلما نظر في كتاب ابن المأمون هذا ، لم يجده على منهج كتب السير التاريخية ، ووجد فيه سلبات ، منها : أنه كتاب مدح أقرب إلى الذم . ولخص ابن زولاق مسا فيه في جزئيتين اثنتين : تحدث عن نفقات الإخشيد واقتصاده فيها ، فنشر بخله بين الناس . وانتزع من القرآن آيات في الحلم والصفح ، وقال : هذه صفاته . ففهمت الناس ما وراء ذلك من وصفه بالجن والملع . وعاب ابن زولاق عليه أنه لم يستوف ولم يستقص مختلف جوانب حياة الإخشيد (من ذكر نشأته ، وحروبه ، وولاياته . . . إلخ) .

ثم ذكر ابن زولاق أنه كان مع مؤلف هذا الكتاب بمصر سنة ٣٣٤هـ ، وكان الإخشيد بالشام في سفره الذي مات فيه ، وقد سأل أحد طلاب العلم كتاب ابن المأمون ، فرد مؤلفه : إنني سألت الإخشيد عند خروجه إلى الشام فدفع الكتاب إلى الناس الذين يطلبونه لينسخوه ، لكنه رفض . وعلق ابن زولاق قائلاً : وهذا يعي أن الإخشيد قرأ الكتاب ، وفهم أنه إلى الهناء أقرب (وهو نفس فهم ابن زولاق) . ثم مدح عقل الإخشيد بأنه كان فظناً جيد الرأي .

وأخيراً ، ذكر ظرف وسبب تأليفه كتابه هذا ، وهو أن علي بن الإخشيد طلب إليه عمل سيرة أبيه ، فكان هذا الكتاب ، الذي استحسنته علي ، وكافاً هو ووالدته ابن زولاق بمبلغ جار سنوياً . ثم أوضح تدقيقه في انتقاء موارده . وذكر أن له كتاباً آخر دُبل به على كتاب (الولاة) للكندي ، وبه أتم كتابة تاريخ الدولة الإخشيدية . ثم بين أنه زاد في هذه السيرة أشياء بعد (علي بن الإخشيد) .

ب- حول حجم ما بقى من سيرة الإخشيد :

ليس الجزء المذكور في كتاب (المغرب) لابن سعيد معبراً عن الكتاب بكامله ، وإنما هو جزء لا بأس به منه ، احتفظ لنا به ابن سعيد ، وهو يؤرخ للدولة الإخشيدية ؛ لأنه نقل عنه وعن غيره من الكتب^(١). وثمة دليل آخر على ذلك ، وهو أنه بدأ عرضه لمّا احتفظ به من كتاب ابن زولاق بقوله : " ومن كتاب ابن زولاق"^(٢) ، وهذا يفيد البعوضة لا الكلية.

عناصر المنهج :

أولاً - من حيث توقيت الأحداث :

وفي هذه الجزئية نرصد مدى قدرة المؤرخ ابن زولاق على ذكر توقيت الأحداث التاريخية ، بالإضافة إلى درجة دقته في ذكرها . ويمكن أن نقسم تلك الروايات من حيث التوقيت إلى ما يلي :

١- روايات اهتم فيها ابن زولاق بذكر مواقيت أحداثها المهمة ، مثل :

تاريخ ميلاد الإخشيد^(٣) ، وتاريخ وفاة طفج^(٤) ، وتاريخ بدء سخط تكين عليه^(٥) ، وتاريخ ميلاد ابنه أونوجور^(٦) ، وتاريخ وفاة الوالي تكين^(٧) ، وتاريخ نهاية ولاية الإخشيد الأولى على مصر^(٨) ، وتوقيت دخول مصر بعد انتصار جيوشه^(٩) ، وتحديد موعد نقل دار الصناعة^(١٠). ويلاحظ أن هذه التواريخ ذكرها ابن زولاق - في الغالب - باليوم والشهر والسنة في دقة بالغة ، وكل حدث ذكر توقيته له أهميته القصوى في أحداث سيرة الإخشيد ، وبحريات حياته . وهناك روايتان ذكر ابن زولاق تاريخهما ، ويغلب على الظن أنه تفرد بذكر ذلك التوقيت ، وهما روايتان تستعمل الأولى منهما بتاريخ طلب الإخشيد إلى الخليفة الراضى منحه لقب الإخشيد^(١١) . والثانية تتصل بتاريخ وصول رسول الخليفة بهذا اللقب^(١٢).

(١) و (٢) سيرة الإخشيد: ص ١٤٨.

(٣) في النصف من رجب سنة ٢٦٨هـ. (سيرة الإخشيد: ١٥٠).

(٤) توفى في الحيس سنة ٢٩٤هـ (المصدر السابق: ١٥١).

(٥) سنة ٣١٦هـ (السابق: ١٥٣).

(٦) في يوم عرفة سنة ٣١٩هـ (السابق: ١٥٥).

(٧) ١٦ من ربيع الأول ٣٢١هـ (السابق: ١٥٦). وهو مهم لابن طفج ، فقد كان يتقرب ذلك للانقضاض على حكم مصر.

(٨) من شوال ٣٢١هـ (السابق: ١٥٧).

(٩) يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٣٢٣هـ. وهذا أرجح من تاريخ آخر سابق في رواية سابقة (لسمع بقين من رمضان). (السابق: ص ١٥٩).

(١٠) في شعبان سنة ٣٢٥هـ. (السابق: ١٦٦).

(١١) سنة ٣٢٦هـ (السابق: ١٧٣).

(١٢) في شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ (السابق: ١٧٤).

٢- روايات أغفل فيها ابن زولاق توقيت الأحداث رغم أهميتها:

لم يذكر تاريخ كتابة الإخشيد رسالته المطولة إلى رومانوس الرومي رداً على كتاب أرسله إليه^(١)، ولم يحدد في إحدى المرات متى ثارت بالإخشيد السوداء^(٢) (نوبات الصرع)، فتاريخها مهم؛ لأنه مرتبط بكتابة عدد من القادة إلى الخلافة، يسألونها توليتهم مصر مكانه. وقام الإخشيد بحركة إصلاح ديني اجتماعي، ولم نعرف متى كان ذلك تحديداً؛ لأنه قال: " وأمر الإخشيد - في وقت من الأوقات - بهدم المواخير ودور المقامرين، والقبض عليهم^(٣) ". ورغم أهمية صراع الإخشيد مع ابن رائق، لم يذكر لنا بالتحديد متى قُتل ابن رائق^(٤)، رغم تأثير ذلك الإيجابي في دولة الإخشيد. وأخيراً، تعددت مرات دخول وخروج الوزير (الفضل بن جعفر) إلى مصر والشام^(٥)، ولم يُعَنَّ ابن زولاق بتواريخ ذلك، رغم صلته الوثيقة بسيرة الإخشيد.

(١) سيرة الإخشيد: ١٦٧-١٧٣. وإن كنتُ استنتجت من رواية أول ص ١٧٣: أن الكتاب المرسل من الإخشيد مؤرخ بتاريخ سنة ٣٢٥هـ (يقول في بداية هذه الرواية: وفي هذه السنة - وهي سنة ٣٢٥هـ - جهز الإخشيد المراكب الحربية للمسم إلى الثغور؛ للفداء بين المسلمين ونصارى الروم).

(٢) السابق: ١٦٤.

(٣) السابق: ١٨٠.

(٤) ثم ورد الخبر على الإخشيد بقتل ابن رائق (السابق: ١٧٩). ولم يذكر في أية سنة كان ذلك. وقبل هذه الرواية ذكر أحداثاً ترجع إلى سنة ٣٢٩هـ (بيعة المتقي بالخلافة، وإقراره الإخشيد في مكانه). ومعلوم أن ابن رائق قُتل سنة ٣٣٠هـ.

(٥) سأحاول جاهداً استنتاج تلك التواريخ من خلال عقد المقارنات، والجمع بين النصوص التاريخية في المصادر والمراجع، التي تعرضت لهذا الموضوع. في البداية: نحن نعرف تاريخ دخول الإخشيد مصر (٢٣ من رمضان سنة ٣٢٣هـ)، ونريد أن نعرف متى دخل الوزير الفضل بن جعفر مصر (بعد امتلاك الإخشيد لها)؟ والجواب يسمى استنتاجه؛ لأنه وردت رواية - في (سيرة الإخشيد) ص ١٦١ - تذكر أن الفضل لما دخل إلى مصر، وعرف مكان الماذرائي وأحضره، طالبه بأموال ونفقات موسم الحج. وهذا يعني أنه دخل مصر قريباً من موسم الحج. ولما كانت رحلة الحج تستغرق - آنذاك - وقتاً طويلاً، فإننا نقدر أن الفضل دخل مصر (حوالي الأسبوع الأول من شوال سنة ٣٢٣هـ). ويُقَوَّى ذلك ما ورد في (الولاء للكندي) ص ٢٨٦-٢٨٧: أن الوزير أتى بعد خروج صاحب أسطول الإخشيد (صاعد)؛ لمطاردة الجند المغاربة بالقيوم بقيادة حبشي. ثم أقام الوزير في مصر يشرف على شئونها المالية، ويكشف ضيعاتها (خاصة ضياع الماذرائي) فترة عدة شهور، ثم خرج بالماذرائي موثقاً به إلى الشام. والسؤال الآن: متى خرج به من مصر إلى الشام؟ ذكرت د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين ص ٧٩): أنه أقام في مصر إلى جمادى الأولى سنة ٣٢٤هـ، ثم خرج إلى الشام. ويرى د. زيود: أنه خرج إلى الشام في جمادى الأولى سنة ٣٢٤هـ. وظل ينتقل بين مصر والشام حتى مات الفضل بالرملة في ربيع الأول سنة ٣٢٧هـ. (العلاقات بين الشام ومصر في المهديين الطولون والإخشيديين) ص ٢٨٤.

والحق أن د. سيدة كاشف أقرب إلى الصواب، والدكتور زيود جانبه الصواب. والراجع - عندي - أن الوزير الفضل ظل في مصر، حتى خُسمت معارك جيش الإخشيد ضد الجند المغاربة لصالح الإخشيد، وعاد الجيش بالأسرى فزّل الجزيرة بهم في جمادى الأولى ٣٢٤هـ، ثم طيف بالأسرى أول يوم من جمادى الآخرة. وعقب ذلك خرج الفضل من مصر لليلة خلت من جمادى الآخرة إلى الشام (الولاء للكندي ص ٢٨٨). ثم هناك تفاصيل أخرى بعد ذلك، فلنا أن تنصور مدة سفر الفضل بالماذرائي حتى وصل إلى الرملة بالشام، ولعله وصل -

ثانياً - من حيث ترتيب الأحداث وتسلسلها:

بدأ ابن زولاق كتابه - بعد المقدمة - بعنوان رئيسي (ذكر الإخشيد)^(١)، وهو يتناسب مع ما سيذكره بعد ذلك من حياة الإخشيد منذ بداياتها الأولى، حيث ذكر اسمه ونسبه بالكامل، وتفسير لفظه (طغج)، وذكر جده ووالده وهكذا^(٢)، وذلك في محاولة منه لعلاج النقص والقصور، الذي عابه على سيرة ابن المأمون الهاشمي من قبل. والمتتبع لسيرة الإخشيد يلاحظ أن هناك مواطن راعى فيها ابن زولاق (الترتيب والتسلسل المنطقي والزمني للأحداث)، مثل: الصفات الأولى التي ذكر فيها أوليات محمد بن طغج، وأخبار جده، ثم والده، وتقلب ابن طغج في الوظائف، حتى غدا حاكماً لدمشق. ثم تطورات الموقف بعد وفاة والى مصر تكين، ومعارك ابن طغج التي خاضها حتى دخل مصر منتصراً، محققاً هدفه في الجمع بين مصر والشام^(٣).

وجدير بالذكر أن هناك بعض الأجزاء من سيرة الإخشيد، ينهج فيها ابن زولاق نهجاً أقرب إلى التاريخ الحولي، لكن مع تطوير فيه، بحيث لا يقطع الحدث الممتد، أو بالأحرى لم تكن هناك حوادث مطوّلة، يمكن أن تمتد أكثر من عام. فكان ابن زولاق يقول: وفي سنة ٣٢٥هـ حدث كذا وكذا، ويتلوها بالسنة التالية وهكذا، حتى سنة ٣٣٠هـ^(٤) (التي سبق أن حددناها موعداً

= منتصف الشهر مثلاً، فحسب الماذرائي في داره، وظل هكذا حتى وفاة الفضل في ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ (وهذا هو التاريخ الصحيح لوفاة)، الذي ذكره ابن زولاق في (سيرة الإخشيد) ص-١٧٣، والصولي في (أخبار الراضى) ص-١٣٣، وغيرها. وقد أخطأ الكندي لما جعل وفاته في ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ، إذ كيف يجعله في مصر في ٨ من ربيع الأول، ثم يجعل التاريخ نفسه هو تاريخ وفاته بالرملة؟! (الولاة - ط. جست - ص-٢٨٨). وبحساب المدة بين خروج الفضل من مصر، وحسبه الماذرائي في داره بالرملة بالشام، وتاريخ إطلاق سراحه بعد وفاة الفضل يكون قضى في الحبس ثلاث سنوات إلا قليلاً (فتكون المدة التي ذكرها ابن زولاق: ٣ سنوات، و٨ شهور غير دقيقة). لم يذكر الكندي دخول الفضل مصر بعد ذلك إلا يوم الخميس ٢٥ من محرم ٣٢٧هـ، ثم خرج منها الخميس ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨). وهذا كلام غير صحيح، فقد كان الوزير الفضل - بحكم إشرافه على مصر والشام مالياً - قد دخل مصر قبل شهر شعبان سنة ٣٢٤هـ؛ بدليل أن خلع الراضى جاءت للإخشيد وهو في مصر (في شعبان ٣٢٤هـ) لما بلغه ما قام به الإخشيد والفضل في مصر (سيرة الإخشيد ١٦٥-١٦٦). ودخل مصر - أيضاً - أول سنة ٣٢٦هـ، لما استدعى للوزارة (السابق ١٧٣). وبذا يكون الفضل قضى في الوزارة حوالي سنة، وخمسة شهور (وهو أدق مما قاله مسكويه في (تجارب الأمم) ٤٠٩/١: أن مدته سنة، و٨ شهور، و٢٥ يوماً). ولما رأى الفضل دسائس دار الخلافة، أغرى ابن رائق بأموال مصر والشام، وخرج ليجمعها له. (يذكر ابن زولاق ١٧٣، والكامل ٣٦٧/٧): أنه سار إلى الشام، حيث مات. أما الكندي، فيذكر بجيئه إلى مصر، ومقامه بها من ٢٥ من محرم إلى ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨)، ثم خرج إلى الرملة حيث وافته المنية - كما قلنا - ٨ من جمادى الأولى ٣٢٧هـ.

(١) سيرة الإخشيد: ص-١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص-١٤٩، وما بعدها.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٤٩-١٥٩.

(٤) السابق: ١٩٠-١٩٧.

لمقتل ابن رائق، وظاهر سياق الرواية لدى ابن زولاق يقول هذا أيضاً. وكذلك يسير ابن زولاق على الخط ذاته بدءاً من أحداث سنة ٣٣١هـ، حتى وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤هـ. صحيح أن الأحداث لم تُسَر سنة وراء سنة على التوالي كالنماذج السابقة، إلا أن الأحداث متسلسلة ومنطقية. وبعد وفاة الإخشيد تحدث عن تركته، وما خلفه من أموال وجواهر وممتلكات ضخمة بُدئ عن الحصر^(١). وأظن سيرة الإخشيد قد انتهت عند هذا الحد.

وهناك نماذج أخرى ينهار فيها ذلك الترتيب تماماً. واعتقد أن عقلية منهجية منظمة، مثل: عقلية المسورخ ابن زولاق لا يمكن أن تقع في ذلك الاضطراب، ولعل عدم سوق ابن سعيد لها كاملة - كما كتبها صاحبها - أدى إلى ذلك الخلط. فمثلاً: نجد روايات تتعلق ببعض المظاهر الحضارية في عهد الإخشيد بعد حديثه عن إنهاء الوزير الفضل بن جعفر مهمته في كشف ضياع المادرائي، وخروجه به إلى الشام موكلاً به^(٢). هنا لا يوجد أي ترابط بين الموضوعين. وفي موضع آخر: يسوق أحداثاً وقعت سنة ٣٢٥هـ، ثم يتلوها بأخرى وقعت سنة ٣٢٤هـ، ثم يعود فيذكر أحداثاً تتصل بسنة ٣٢٥هـ مرة أخرى^(٣). ويبلغ انهيار السياق التاريخي أشده عندما يتناول بعض حكايات عن الإخشيد تعود إلى فترات تاريخية مختلفة، ولا يوجد أدنى رابط بينها^(٤). وهكذا تحتاج هذه السيرة - بوضعها الحالي - إلى صبر وأناة في قراءة الأحداث وتبويبها^(٥).

ثالثاً - من حيث الموضوعية والمنطقية في اختيار الأحداث:

ونقصد بهذا الملمح المنهجي أن نلقي الضوء على موقف المؤرخ ابن زولاق من إيراد الروايات ذات الطابع الخرافي، أو الأسطوري، أو المبالغ فيها. ويضاف إلى ذلك موقفه من صاحب السيرة (الإخشيد)، هل المؤرخ ابن زولاق متحيز إليه، أو متحامل عليه، أو أنه يقف على الحياد، فيؤرخ لحياته بأمانة ونزاهة وموضوعية، وتجرد عن الميل والهوى؟ الحق أن الدكتور سيدة كاشف - كما ذكرت من قبل - تعتقد أن نسخة سيرة الإخشيد الموجودة في كتاب (المغرب) لابن سعيد ليست هي النسخة الأصلية، وتستدل على ذلك بعبارة ذكرها ابن زولاق

(١) السابق: ١٦٣.

(٢) السابق: ١٦٦-١٧٣.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٦٦-١٧٣.

(٤) مثل: حديثه عن حكاية له في دمشق مع تكين، ثم حديثه عن موقف الإخشيد من المواخير ودور القمار في عهده، ثم بعض مظاهر تشبهه بابن طولون، وهكذا. إنما روايات لا رابط بينها على المستوى الزمني والموضوعي (السابق: ١٩٠-١٩٨).

(٥) لا أوافق على التعميم المطلق، الذي وصفت به د. سيدة كاشف (سيرة الإخشيد كما نقلها ابن زولاق) بأنها مجموعة جزاءات غير مرتبة لا موضوعياً ولا تاريخياً (تصدير مصر في عصر الإخشيديين) ص ٥٠. فذلك لا ينطبق على السيرة كلها.

نفسه، أنه أضاف إلى كتابه أشياء بعد (علي بن الإخشيد). ووصلت من ذلك إلى نتيجة مفادها أن ابن زولاق أضاف إلى سيرته - بعد سقوط الإخشيديين - إضافات فيها بحاملة ومداينة وتقرب للعبيدين حكام مصر الجدد (مثل: طعنه بالتزوير في كتاب تقليد الإخشيد ولاية مصر، وكذلك كلامه على ما حُلَّ بحثته بعد وفاته، وبعض إشارات في كتابه لا يُنتظر أن يتضمنها كتاب عن الإخشيد، يُقدَّم إلى ابنه، ويحوز رضاه)^(١). ويضيف باحث ثان - إلى ما تقدم - دليلاً آخر على تحيز ابن زولاق ضد الإخشيد، وهو أنه لم يذكر شيئاً عن أولاده بعد وفاته، قاصداً بذلك الخط من شأنهم، فكانه يريد أن يقول: لولا وجود كافور، ما قامت لدولتهم قائمة بعد وفاة عميدها ومؤسسها^(٢).

وإذا جاز لي أن أعلق على الكلام السابق، فإن أحدد تعليقي فيما يلي:

أ- لا خلاف بيني وبين الباحثين الآخرين حول عدم أصالة النسخة، التي بين أيدينا من سيرة الإخشيد، فهي - في رأيي - ليست المقدمة إلى (علي بن الإخشيد)، وليست التي طالعها ابن سعيد، وإنما هي مقتبسات مطوّلة اقتبسها في كتابه (المغرب)، تصل إلى حد النقل شبه الحرفي لجانب كبير من هذه السيرة، التي أرى أنه احتفظ لنا فيها بمقدمتها، ولمايتها، وكان أميناً في الحفاظ على ذكر مواردها. وأستبعد أن يكون ما فيها من خلل في الترتيب راجعاً إلى الأصل ولا إلى الناقل (ابن سعيد)، وإنما هو من فعل النسخ من جهة، وعودى الزمن الذي تعرضت له مخطوطات كتاب المغرب من جهة أخرى؛ لأن كلاً من ابن زولاق، وابن سعيد مؤرخان كبيران منهجيان لا يقع منهما ذلك.

ب- ولا خلاف بيننا - أيضاً - في أن ابن زولاق - وهو الذي أعلّمنا بذلك - أضاف إلى كتابه أشياء بعد وفاة علي بن الإخشيد (ت ٣٥٥هـ). لكنني أفسر هذه الإضافات ودافعها تفسيراً مختلفاً، فهي - عندي - تشمل الإضافات، التي لا أعتقد أن حصافة ابن زولاق تجعله يزلّز، ويضطدم بأسرة الإخشيد فيذكرها (وهو ما قاله الباحثون قبلي)، لكنني أضيف - إلى ذلك - التفحيحات والتصويبات، التي لا يُفعل ابن زولاق - وهو المؤرخ الكبير - عن إدخالها في كتابه عند إعادة النظر فيه. وتلك طبيعة المؤرخ المدقق، الذي ينتقد نفسه بلا هوادة، ولا يفتأ يعدّل ويصوّب؛ حتى يقرب من الكمال. وإن كنت - بطبيعة الحال - لا أستطيع تحديد تلك التصويبات، لكن دفقة التي تبدّت لنا، تشير إلى إعادته النظر مرات. إلى هنا وبين رأينا خطّي متقاربة، كما يقولون.

ج- لا أوافق على اتهام ابن زولاق بالتحيز ضد الإخشيد، وميله مع الهوى لصالح

(١) مصر في عهد الإخشيديين ص ٥٠.

(٢) ماحمستر فرج الأحول: (حضارة مصر في عهد الدولة الإخشيدية) ص ٥٨.

العبيدين، الذين رعوه حق الرعاية، فيكون الرجل بذلك قد فقد أهم شروط المورخ وهي (العدالة، والمصادقية، والحيادية). فهو - لأجل عطاء على بن الإخشيد وأمه، كما أقر هو نفسه - يطمس ما يشين الإخشيد، ولأجل منصب وعطاء العبيدين يُلصق بالإخشيد كل ما يحط من قدره؟! أعتقد أن ذلك بعيد عن الحقيقة؛ لأن الأمر لو كان كما يقولون ما صرح في مقدمته بهذه الاعترافات، ولأضعف ذلك كثيراً من قوة الاتهامات، ولأحاطها إلى مجرد استنتاجات. ثم إنه عندما اقتصر على سيرة الإخشيد دون بنيه، فلأن هذا هو موضوع كتابه، ومنهجيته وعقليته تأييان عليه أن يتجاوز، فليس الأمر انتقاصاً من قدر دولته. ثم إذا أردنا الحقيقة، فدولته - فعلاً - هَوَتْ إلى الحضيض بعده، ولولا كافور لم تقم لها قائمة. ثم إن الرجل تناول دولة الإخشيديين من بعد وفاة الإخشيد حتى دخول المعز مصر في كتاب آخر، كما ذكرت من قبل، لا لأن خلفاء الإخشيد يستأهلون الكتابة عنهم، وإنما استكمالاً للحلقات التاريخية وبيان تغيرات حركته.

د- إنني أفسر إضافاته تفسيراً جديداً، يجعلنا ننظر إلى شجاعة وأمانة هذا المورخ نظرة إكبار؛ لأنه سرعان ما عاد إلى الحق، لما ثبأت له الفرصة من قريب. لقد اضطر أن يصنع ما صنع اضطراراً، وما إن توفى (على بن الإخشيد)، حتى وجد الفرصة سانحة؛ كي يعيد الحق إلى نصابه. فهو لم ينتظر - إذن - حتى دخل العبيديون مصر، وأسقطوا بقايا الإخشيدية المنتفعين، ثم أقبل بالزُلفى إليهم، وإنما في عصر كافور قام بإحداث التغيير المطلوب؛ لأنه شعر بزوال الحرج، فغير وهو آمن مطمئن. ومن هنا تسقط الحجة القائلة بمدهانتها العبيديين في ذلك الأمر. فالرجل غير قبل مجيئهم مصر، ثم ماذا يستفيد العبيديون من الخط من شأن الإخشيد؟ إن الناس في مصر تمنوا زوال هذه الدولة بعدما عانوا في أواخرها من القحط والجوع والكوارث، وتطلعوا إلى الحكم الجديد، وأمان جوهر لهم بصدر بمنحها الأمل. ثم إن ابن زولاق انغمس عند دخول جوهر في متابعة أخبار العبيديين عن كتب من خلال صلاته بهم، وشغل بالتأريخ لفترة حكم جوهر، فالمعز، فالعزير حتى وافته مَيتته، فهو لا وقت عنده يضيعه في كتاب عن دولة زالت من الوجود.

هـ- إن مطالعتي لسيرة الإخشيد دلّت على حيادية ابن زولاق إلى حد كبير، فهو قد أعطى الرجل ماله وما عليه، فوصفه في مقدمة كتابه بجودة الرأي والفطنة، وذكر صفاته الحسنة إلى جانب مساوئه، بل أتى بالروايات التي دافع من خلالها الإخشيد عن نفسه، فبرّر لجوءه إلى مصادرة الأموال، وعَلّل عدم حسمه معاركه مع سيف الدولة رغم انتصاره عليه؛ مما جعله عرضة لاتهامه بالجبن والخَوَر والتردد. أعطاه ابن زولاق الفرصة كاملة ليعرض وجهة نظره

المقبولة، ولو كان متحيزاً ضده، لطمس ذكر ذلك كله. بل ابن زولاق أتى برواية رأى البعض^(١) أن فيها مبالغة في وصف قوة وشجاعة الإخشيد، وإن كنت أرى أنها قابلة للتصديق، وليست في حجم تهويل رواية ابن الداية عن شجاعة ابن طولون في الدفاع عن قافلة المستعين. وفي المقابل عرض الرجل لروايات اطمأن إلى صدقها، ووثق برواها، كالفعل السينة التي ارتكبها محمد بن طغج وأبوه بقتل أحد وجوه العلويين بالشام^(٢)، والروايات الخاصة بتركة الإخشيد بعد وفاته^(٣)، (رغم المبالغة فيها إلا أن لها أصلاً ونصباً كبيراً من الحقيقة؛ نظراً لكثرة مصادراته). أما الروايات التي تصف ظروف دفن الإخشيد، وتغير جثته لما شغلوا عنها بالفتنة الحادثة بالشام، وشيوع النهب والسلب هناك، ويختمهم عن كافور يغيرون به رائحته التنتة فلم يجدوا إلا مغشوشاً، فتأذى منه حاملوه إلى مثواه ببيت المقدس^(٤)، أعتقد أنها روايات مشكوك في صحتها، خاصة أن ابن زولاق كان في مصر لما مات الإخشيد بالشام، ولا نعرف شيئاً عن المورد الذي نقلها إليه، وهي تثير الاشتزاز، وتناقض المنطق والعقل، فلو كان حدث لجثته ما حدث لدفن مكانه حيث توفي. وفي سيرته روايات قليلة ذات طابع خرافي^(٥). ونلاحظ - أخيراً - تشيع ابن زولاق في بعض عباراته^(٦)، لكنها لا تؤثر في مسيرة الأحداث، ولا في حياته الذي تمتع به، فأمانته العلمية شيء، ومعتقداته الشيعي شيء آخر، وتلك سمة المؤرخ الحق.

رابعاً - مدى حضور شخصيته:

ونقصد بذلك قياس قدرة ابن زولاق على تحليل الأحداث، والتعليق عليها، ومدى دقته في العرض التاريخي المبكر، وإدراكه غرض التأريخ وفائدته.

تأثر ابن زولاق بثقافته الأدبية والفقهية، ولذلك أتى أسلوبه في العرض التاريخي للأحداث موجزاً مركزاً دقيقاً في أحيان كثيرة^(٧)، معبراً عن بعض المفاهيم التي نرجح أنه

(١) عندما تصدى بقواته لقطع طريق حاولوا البل من ركب الحاج (سيرة الإخشيد ١٥٣)، ومصر في عصر الإخشيديين ص ٦٢ هامش (٢).

(٢) سيرة الإخشيد: ١٥١.

(٣) السابق: ١٩٦-١٩٧.

(٤) السابق: ١٩٦.

(٥) رواية الطائر الذي دار فوق رأس ابن طغج ثلاث دورات وهو بالشام، فتبني إمرة مصر، فتحققت له (السابق ١٥٦)، وما قاله المحمون من موافقة طالعه طالع ابن طولون عند دخول مصر مع الانساق في التوقيت (السابق ١٥٩).

(٦) مثل قوله عن علي: (صلوات الله عليه). (سيرة الإخشيد: ١٥١)، وعن القائم: (عليه السلام). (السابق ١٥٢).

(٧) من أمثلة ذلك: إشارته المركزة إلى طغر طغج بصاحب القرامطة سنة ٢٩٠هـ (المصدر السابق: ص ١٥٠)، وتعبيره المركز المكثف عن صفح محمد بن تكين عن الماذرائي بعد كل إساءاته إليه (السابق ١٦١-١٦٢). ودقته في تحديد مكان مولد ابن طغج (ولد ببغداد بشارع باب الكوفة). (السابق ١٥٠).

يقصدها^(١). وما يُحتسب له - أيضاً - في هذا الإطار قدرته الطيبة على التجميع والتنظيم للمعلومات التي يضمها إطار واحد، وموضوع مشترك^(٢). وأخيراً، فإننا نأخذ عليه بعض التكرار^(٣)، الذي قد يكون من فعل تُسأخ المخطوطة، ولا دخل له به. وبالنسبة لقدرته على ابتكار منهج جديد، أو ما شابه ذلك، فذلك ما لا نجد له مظاهر وشواهد تدلل عليه، بل إنني أجده مقلداً أستاذه المؤرخ ابن الداية، ومكملاً رسالته في كتابة (سير الحكام التاريخية). ويبدو أنه كما كان الإخشيد متأثراً بابن طولون، معجباً به، يحذو حذوه ويحاول تقليده، فإن ابن زولاق مؤرخ (سيرة الإخشيد) كان يقلد أستاذه ابن الداية مؤرخ (سيرة ابن طولون) في أفكاره وموضوعاته^(٤).

هذا، وقد تأثرت قدرة ابن زولاق على التعليل بأسلوبه الموجز المركز في العرض التاريخي؛ ولذلك لم نجد لديه التعليقات المطولة المسهبة، التي رأينا بعض نماذجها من قبل لدى البلوى. لقد اتسمت تعليقاته بالدقة والوجازة^(٥)، وأعتقد أن بعضها - على الأقل - كان يحتاج إلى مزيد وضوح وتفصيل^(٦).

لم تكن تعليقات ابن زولاق على بعض الأحداث التاريخية بأحسن حالاً من تعليقاته، فتعليقاته محدودة موجزة لا تكاد تُبيّن، وهي تتصل بعقد مقارنة^(٧)، أو تُتبع حدث عاصره، حتى

(١) تبعه عن الخليفة العباسي بالسلطان (السابق ١٥٩، ١٦٣). وقد سبقه إلى ذلك الداية والبلوى، ولعل ذلك دليل عدم رضا عن هؤلاء الخلفاء، وقد يكون لتشييع دُخْل فيه. وكذلك استخدم لفظة (يقال)، عندما ذكر أن عسكر مصر الذي رابط لنج ابن طغش من دعوها بقواته، بلغ ثلاثين ألفاً، وقد سَدَّ من الجبل إلى البحر (السابق: ١٥٨). وهي دالة على تشكيكه في صحة ضخامة هذا الحشد.

(٢) مثل: تجميعه محاولات سبعة من الأمراء المسير إلى الإخشيد لأخذ أعماله، ولمكنه من استقطابهم وردمهم عن هدفهم. (السابق ١٨٢)، وكذلك ما ذكره عن عدد مرات سفره الخمس إلى أعدائه لقتالهم (السابق ١٨٨).

(٣) وهو تكرار في المعنى العام لرواية تفيد حرصه على صلاة الجمعة، وحضور ختم القرآن في رمضان والدعاء (السابق: ١٦٠، ١٨١، ١٨٥).

(٤) تأثر ابن زولاق - عموماً - بأستاذه ابن الداية في كتابة سير الحكام. وأعتقد أنه تأثر به في بعض الأفكار والموضوعات، التي حرص على تناولها في كتابه؛ لأن ابن الداية تناول نظائرها في كتابه (مثل: بيان عدد من المراسم التي اهتم بها الإخشيد؛ تأثراً بابن طولون (سيرة الإخشيد: ص ١٦٣، ١٦٦، ١٨١). ونجدت ابن زولاق عن الرواية التي تذكر الكثر، الذي عثر عليه الإخشيد في دار (خديجة بنت الفتح بن خاقان). عندما احتارها مكاناً لصناعة السفن (السابق: ١٦٠)، كما نتحدث - من قبل - ابن الداية عن كثر الصحراء، الذي عثر عليه ابن طولون، وبنى معه جامع، والعين، والمراستان، وأنفق منه في كثير من وجوه البر. (سيرة ابن طولون ٨٦). وقد صرح ابن زولاق بأنه يذكر ما خلفه الإخشيد في تركته، كما ذكر ابن الداية ما خلفه ابن طولون (السابق: ص ١٩٦).

(٥) راجع نماذجها في (سيرة الإخشيد): ص ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٧.

(٦) مثل: تعليله خلاف ابن طغش وتكين وإلى مصر، وهرب الأول إلى الشام (سيرة الإخشيد: ص ١٥٣).

(٧) حيث ذكر اتجاه الإخشيد - بعد تخلصه من الوزير الفضل، وقتل ابن رائق - إلى سلوك طريقة أحمد بن طولون، وابنه أبي الجيش في بعض الأمور (السابق ١٨٠).

يكمله ويبلغ به منتهاه^(١) وأحياناً، يعلق تعليقاً قاطعاً، لكنه تنقصه الدقة^(٢).

وفي نهاية هذه الجزئية أنهو إلى اهتمام ابن زولاق بجانب العبرة والعظة في أحداث التاريخ، وذلك من خلال ما أورده من رواية تدل على أن مَنْ تَوَرَّعَ عن ارتكاب الحرام، وأَرْزَى الله في سخط عباده، أبدله الله من الخوف أماناً وطمأنينة ونجاة^(٣) وثمة رواياته المتعاقبة في وصف نهاية الإخشيد، وما حَلَّ بجنته بعد موته^(٤) حتى يتعظ المتعظون، ويتيقنوا نهاية كل حي مهما عظم شأنه، وسما مقامه في هذه الدنيا، وأن الإنسان مهما جمع من الأموال من حُلَّها وحرامها، فإنه - يوماً لا بد - مفارقها، ومُخَلَّفها وراء ظهره، يستمتع بها ورثته، ويتطلع إليها المتطلعون^(٥) ويُحاسب وحده عليها: من أين اكتسبها؟ وفيما أنفقها؟

خامساً، وأخيراً - من حيث النظرة الشاملة في علاج التاريخ الحضارى:

لم تقتصر نظيرة المؤرخ المصرى ابن زولاق لتاريخ الإخشيد على أنه مجرد سرد للأحداث السياسية التي وقعت في حياته حتى مماته، وإنما عـرّض في ثنايا رواياته للعديد من المظاهر الحضارية الإدارية^(٦)، والاقتصادية^(٧)

(١) مثل: تتبعه ما حَلَّ بالكيسة، التي سقط منها جزء زمن الإخشيد، ورفض الأخير ترميمها وذلك سنة ٣٢٦هـ، وما قاله المهندس الماين لها من أنها ستسقط جميعها عند تمام أربعين سنة، علق قائلاً: "وكان أمرها كما قال ابن العوام المهندس، فَعُمِّرَتْ سنة ٣٦٦هـ قبل تمام أربعين سنة، ولو تَوَكَّثَتْ سَقَطَتْ" (السابق: ١٨٤).

(٢) كقوله: "وليس يُعرف للإخشيد وقعة قاتل فيها غير هذه" (السابق: ١٧٨)، وذلك عقب معركة دارت بين ابن رائق والإخشيد، فالغزى فيها الإخشيد أولاً، ثم دارت الدائرة على ابن رائق بعدها. وتعليقه هذا فيه تعميم وغير دقيق؛ لأن ابن زولاق نفسه ذكر - بعد ذلك - معركة، حارب فيها الإخشيد، وهزم فيها سيف الدولة. (السابق: ١٨٨).

(٣) حدث ذلك مع طمغح والد الإخشيد، لما رفض تنفيذ أوامر حمارويه بقتل (راغب) وإبى طرسوس (فيما يظهر)، واشتركا معاً في غزو الروم. ثم وصل حمارويه فجأة إلى دمشق؛ ليوقع بـ (طمغح)، ولكنه قتل في تلك الليلة، وأراح الله (طمغح) منه. (السابق: ص ١٥٠).

(٤) سيرة الإخشيد: ١٩٦.

(٥) راجع مقادير ما خَلَّفه الإخشيد في تركته. وقد جلس ابنه (أونوجور) مكانه، واستوزر المادرائي، الذي طلب من أم ولد الإخشيد المال للرجال، فقالت: ما عندي. فقال: ما قعلت سبعة أرادب أعزها من دفعة واحدة، ما أنفق منها ديناراً واحداً؟! (السابق: ١٩٦-١٩٧).

(٦) وردت عدة وظائف في سيرة الإخشيد، منها: وظيفة كامور في بادئ أمره (صاحب وضوء الإخشيد). (السابق: ص ١٥٥). ووظيفة والى الإسكندرية التي وليها ابن طمغح لتكون والى مصر (السابق: ١٥٢)، وبعده وليها (أحمد بن صالح). (السابق: ١٥٣). وهناك محمد بن جعفر القرطبي، الذي ولاه مؤنس الخسبة، ثم الخراج بمصر (السابق: ص ١٥٤).

(٧) تزرع سيرة الإخشيد بالعديد من الملامح الاقتصادية، منها: ما يتصل بصناعة مراكب الأسطول (السابق: ١٦٠)، ووضع الإخشيد رواتب ثابتة للفقراء والموزين تصرفها لهم الدولة (السابق: ١٩٠)، وأسعار بعض أدوات المائدة (السابق: ١٥٤)، وأسعار بعض الفواكه (السابق: ١٥١)، والتبادل التجاري مع دولة الروم (السابق: ١٧٢)، وتجارة العبر (السابق: ص ١٨٦-١٨٧)، ومقدار حراج مصر والشام في سنوات حكم الإخشيد (السابق: ١٨٧). إلى جانب بعض النشاط العمراني، مثل: إنشاء بستان للإخشيد ومقدار تكلفته (السابق: ١٦٠).

والاجتماعية^(١) والفكرية^(٢) بحيث يمكن - في النهاية - أن نحكم على نظرة ابن زولاق للتاريخ بأنها نظرة شاملة متكاملة متطورة، تسجل وضوح الفكرة ورحابة النظرة لدى مؤرخي القرن الرابع الهجري في مدرسة مصر التاريخية.

خلاصة مقارنة:

بعد انتهائنا من دراسة منهج ابن زولاق في (سيرة الإخشيد) نركز هذه الملاحظات العامة المقارنة بين (سيرة ابن طولون) لابن الداية والبلوى، و(سيرة الإخشيد) لابن زولاق فيما يلي:

١- الشخصية التي كتب عنها ابن الداية والبلوى، وهي شخصية ابن طولون، أعظم وأشهر من الشخصية التي كتب عنها ابن زولاق (شخصية الإخشيد). فالأولى استقلالها أبعد أثراً، وحضارتها التي خلفتها أعظم، وآثار التي كانت تدل عليها أكبر^(٣). وواجهت شخصية ابن طولون عقبات كبيرة حتى تمت له السيطرة، بينما لم يواجه الإخشيد بعقبات كبيرة. ومن هنا تفوقت (سيرة ابن طولون) على (سيرة الإخشيد)؛ لأن الإخشيد كان يقلد ابن طولون في مراسم دولته^(٤)، وكذا قلد ابن زولاق ابن الداية في معالم وأفكار كتابه.

٢- نبرة الإعجاب والانبهار والتحيز لابن طولون واضحة وعالية في كتابي: ابن الداية،

(١) حفلت سيرة ابن زولاق بكثير من النواحي الاجتماعية، كالطبيب (نوع من المطور). (سيرة الإخشيد: ١٥٠)، وأنواع الأطعمة والفواكه (السابق ١٥١، ١٥٨)، ورحلات الصيد ومجالس المائدة لابن بسطام في مصر، وخدمة الإخشيد له (السابق ١٥٢)، ووسائل الاتصال بين الناس (رسائل حمام الزاحل). (السابق ١٥٥، ١٨٨)، وإشارات تقليد الولاة (السابق ١٥٥)، ومواكب الإخشيد المختلفة، ومراسم الإضاءة الليلية لها بالشموع (ص ١٥٩، ١٨٥)، ومواكب رمضان ومظاهر الاحتفال فيه وختم القرآن، واحتفالات الجند ليلة عيد الفطر (السابق: ١٦٠، ١٦٣-١٦٤)، وألوان الاحتفالات والزينات والخلف في مواكب الإخشيد والوزير الفضل، وإطلاق الحمام المضخج بالسك وماء الورد في وجهيهما (السابق ١٦١)، ومظاهر اللهو فوق أسطح المنازل (السابق ١٦٦)، وبعض مظاهر الأغراف في المجتمع (مواخير، ودور للقمار) ص ١٨٠-١٨١.

(٢) أوضح دور الفقهاء في إصدار الفتاوى، ومكانة ابن الخداد الفقيه الشافعي لدى الإخشيد، وعامة الناس (السابق ١٨٣)، ومناقشات الفقهاء الشافعية والمالكية، وشدة اختلافهم حتى أغلق الإخشيد المسجد فترة، ثم أعاد فتحه (السابق ١٧٣، ١٨٢).

(٣) يرى د. حسن مؤنس، ود. عويس: أن الدولة الإخشيدية لا أثر لها ولا مكان لها في التاريخ (الحضارة ص ١٢٩، ودراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ص ٨٣-٨٥). وهذا ظلم كبير لها.

(٤) ولم يقف حب الإخشيد لنظريتين عند هذا الحد، بل كان يجالس ويواكل جماعة منهم، مثل: عذنان بن أحمد ابن طولون، وابن أخيه (قيس بن العباس بن طولون)، وغيرها. (سيرة الإخشيد: ص ١٦٣). ويبدو أن مجالسة أبي ممدّ (عذنان بن أحمد بن طولون) كانت في بدايات عهد الإخشيد (ولي سنة ٣٢٣هـ)؛ لأن عذنان هذا وفد على بغداد، وروى بها الحديث (حدثها عن الربيع المرادي، وبكر بن سهل الديميطي). ونقل عنه عبيد الله بن الخلال. ويبدو أنه قدم دمشق - أيضاً - وحدث بها، وكان ثقة صالحاً. (تاريخ بغداد ٣٩١/١٢، ومختصر تاريخ دمشق ٢٨٩/١٦، والنجوم ٣/٣٠٠).

والبلى. أما ابن زولاق فنبرته معتدلة، وعباراته محايدة، ولا أثر فيها للمبالغة والتهويل، اللذين نراهما بوضوح لدى سابقه.

٣- كان أثر ابن الداية والبلى بعيداً فيمن أُرّخ بعدهما للدولة ابن طولون، فاعتمدا عليهما اعتماداً أساسياً، خاصة كتاب البلى المفضل. أما ابن زولاق، فالنقول عن (سيرة الإخشيد) محدودة نوعاً ما^(١)، ولعل من تناولوا تاريخ الإخشيد لم يذكروا المصدر الذى نقلوا عنه (وهو ابن زولاق)، بالإضافة إلى الاهتمام بالطولونيين أكثر من الإخشيديين.

(من سير العلماء: أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق

تقديم:

بعد إتمام حديثنا المطوّل عن (سير الحكام التاريخية) المطبوعة والمفقودة، التى كتبها مؤرخو المدرسة المصرية التاريخية فى القرن الرابع الهجرى، أن لنا أن نتناول اتجاهاً جديداً آخر فى كتابة السير فى المدرسة نفسها والقرن نفسه، ألا وهو كتابة (سير العلماء). ولا نجد نموذجاً لهذا اللون من الكتابة التاريخية إلا فى كتاب المؤرخ المصرى الفذ الموهوب، ذى المواهب والملكات التاريخية المتعددة، وصاحب الإنتاج التاريخى الغزير، إنه (ابن زولاق)، وذلك فيما كتبه عن سيرة زميل دراسته، وصديقه المعاصر له (عالم النحو والكلام الملقّب بسبويه المصرى). وسوف نتناول - بإيجاز - هذا الكتاب، من حيث: (موضوعه، ومحتواه، وموارده، ومنهج مؤلفه فيه، ونظرة عامة على أهميته وما أثاره من قضايا).

أولاً - محتواه العام*:

١- بيان مكانة (سبويه المصرى)، الذى جمع ابن زولاق ألفاظه وحكمه، وتناول أخباره. وقد عرّف باسمه وكنيته ولقبه (هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى الصيرفى)، وميلاده (٢٨٤هـ)، ووفاته عن ٧٤ سنة (٣٥٨هـ).

٢- معرفة سبويه بالقرآن، ومعانيه، وقراءاته، وأحكامه. وكذلك علمه بالحديث وغيره، ومعانيه ورواته، وتلقيه العلم على النسائى، والطحاوى. ثقفه على قول الشافعى، وبجالسته ابن الحداد الفقيه، وحبه الجدل والكلام والاعتزال، وتلقيه على وجه المتكلمين بمصر آنذاك (أبى على محمد بن موسى القاضى الواسطى).

(١) نقل عنها ابن العديم فى (نبيه الطلب) ج ٥ - ص ٢٤٠٩، والمقريزى فى (الخطط) ج ٢ - ص ٢٥٠، ١٨١، ١٩٧.

* اعتمدت على الطبعة المعروفة لهذا الكتاب، التى قام على نشرها الأستاذان: محمد إبراهيم سعد، وحسين الذهب، ونُشرت سنة ١٩٣٣م، وقدم لها الأستاذ (محمد عبد الله عنان). ونص الكتاب (ص ١٦ - ٥٨).

٣- سر تخليطه الذى وقع له، وتناوله بالحديث القضاء والقدر، ومظاهر جنونه وخروجه عن وعيه.

٤- شدة انتقاده الوزراء والقواد والأمراء فى العصر الإخشيدى، مثل: صالح ابن نافع (أحد قواد الإخشيد)، ونقده مواكب الإخشيد، وتحمجه بالقول على (محمد بن عبد الله الخازن). وعدم رضائه عن تولية كافور الخصى الحكم،

ومهاجمته ولاية الصبى (أحمد بن علي بن الإخشيد) بعد وفاة كافور. وشيوع سخطه ونقده وإنكاره على أمور عديدة، فأنكر وشكك في صحة إسلام يعقوب ابن كلس في عهد كافور، وانتقد بيت شعر مشهوراً للمتنبي، وكراهيته - عموماً - للظلم والظالمين، ولغته إياهم. وقد عرّضه تهمجه المستمر على عليّة القوم لإدخاله المارستان للعلاج، ثم إدخاله الحبس.

٥- وأخيراً، فقد كانت لسيبويه المصرى علاقات بالأشراف العلويين، مثل: أبى جعفر مسلم، وأخيه أبى محمد عبد الله، وإحسانهما إليه. وبجالتة أونوجور، والحسين بن أحمد الماذرائى من قبل، وتلاقى الناس لسانه اللاذع عن طريق دفع المال إليه، حتى أجرى عليه أبو بكر محمد بن علي بن مقاتل الوزير راتباً شهرياً (قدره خمسة دنانير).

وفى النهاية، ذكر ابن زولاق أنه لو جُمعت ألفاظ سيبويه، وأسجاعه، وأشعاره، لكانت أكثر مما ورد في هذا الكتاب. ولكن فيما ذكره عنه كفاية.

ثانياً - موارد كتاب (أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق:

تنوعت موارد ابن زولاق في هذا الكتاب على النحو الآتى:

١- موارد صريحة محددة:

بلغ عددها اثنين وعشرين (٢٢) مورداً موزعة على النحو الآتى:

أ- سيبويه المصرى: ونقل عنه ابن زولاق (١٥ رواية)^(١).

ب- محمد بن الحسين الخوارزمى (٥ روايات)^(٢).

ج- أبى الحسن السامرى الصوفى^(٣). وأبو الحسن محمد بن عبد القاهر^(٤)، وعبد الله بن محمد^(٥) (لكل روايتان).

(١) أخبار سيبويه المصرى، لابن زولاق: ص ١٩- ٢١، ٢٨، ٣٧- ٣٨، ٣٩- ٤٠، ٤٣، ٤٨، ٥٤ - ٥٨.

(٢) المصدر السابق: ٣٩، ٤٤، ٤٦- ٤٨.

(٣) أخبار سيبويه المصرى: ص ٢٦- ٢٧.

(٤) السابق: ٣٨- ٣٩.

(٥) السابق: ٤٠، ٤٦.

د- سبعة عشر مورداً، لكل مورد منها رواية واحدة، وهذه الموارد هي:

(أحمد بن مسروان القاضي^(١)، وأحمد بن محبوب الفقيه^(٢)، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم^(٣)، ومحمد بن عبد الله بن أحمد^(٤)، والحسن بن موسى الخياط^(٥)، وعبد الله بن وليد القاضي^(٦)، وأبو عيسى عبد العزيز بن أحمد الداعي^(٧)، ويحيى بن الحسن^(٨)، ومحمد بن عبد الله الخزازي^(٩)، وأبو عليّ الحسين بن محمد الماذرائي^(١٠)، وأبو محمد الهاشمي^(١١)، وأبو طاهر القاضي^(١٢)، وأبو محمد عبد الله أخو مسلم^(١٣)، وعليّ بن أحمد^(١٤)، وإبراهيم بن عليّ المكي^(١٥)، وعبد الرحمن بن يوسف^(١٦)، وأبو جعفر مسلم^(١٧)).

٢- موارد صريحة غير محددة:

وهذه عددها ١٣ مورداً هي:

(حدثني مَنْ حضره يوم الجمعة^(١٨)، فحدثني بعض أصدقائي^(١٩)، وحدثني مَنْ حضره عند أبي بكر بن الخلداد^(٢٠)، فحدثني بعض غلمان أبي عليّ الحسين بن محمد^(٢١)، وحدثني بعض أهل عقبة بن فليح^(٢٢)، حدثني بعض أسباب أبي بكر محمد بن عليّ بن مقاتل وزير الإخشيد^(٢٣)، وحدثني مَنْ أثنى به^(٢٤)، وحدثني بعض مَنْ أثنى به^(٢٥)، وسمعتُ مَنْ يخبر عن سيبويه^(٢٦)، وأنشدني بعض إخواني لسيبويه^(٢٧) وحدثني مَنْ رأى سيبويه^(٢٨)، وحدثني مَنْ سمعه^(٢٩)، وحدثني بعض جلساء أبي جعفر مسلم الحسيني^(٣٠)).

(١) و(٢) و(٣) و(٤) أخبار سيبويه المصري: ١٦.

(٥) السابق: ١٩. (٦) السابق: ٢١. (٧) أخبار سيبويه: ٢٣-٢٤.

(٨) السابق: ٢٨. (٩) السابق: ٣٣. (١٠) السابق: ٣٤-٣٥.

(١١) السابق: ٣٣. (١٢) السابق: ٤٠-٤١.

(١٣) وردت (أبو مسلم)، والصواب ما ذكرت (السابق): ٤١.

(١٤) أخبار سيبويه المصري: ص ٤٥.

(١٥) المصدر السابق: ص ٤٩-٥٠.

(١٦) السابق: ٥٢. (١٧) السابق: ٥٨. (١٨) السابق: ١٨-١٩.

(١٩) السابق: ٣٠-٣١. (٢٠) السابق: ٣٣. (٢١) السابق: ٣٤.

(٢٢) السابق: ٣٥. (٢٣) السابق: ٣٥-٣٦. (٢٤) السابق: ٣٦.

(٢٥) السابق: ٣٦-٣٧. (٢٦) السابق: ٣٧. (٢٧) السابق: ٤٩.

(٢٨) السابق: ٥١. (٢٩) السابق: ٥١-٥٢. (٣٠) السابق: ٥٥-٥٦.

٣- موارد مجهولة:

وقد وردت حوالى ست روايات ذات موارد مجهولة كما يلى:

(وَحَدَّثْتُ عَنْ سَيَّوِيهِ^(١)، حُكِيَ لَنَا^(٢)، حَدَّثَنَا عَنْ عَلِيٍّ بْنِ الْجَعْفَرِ^(٣)، وَحَدَّثْتُ أَنْ سَيَّوِيهِ^(٤)، وَحُكِيَ لِي عَنْ سَيَّوِيهِ^(٥)).

٤- روايات لا مورد لها:

وهي متعددة؛ نظراً لزوال المؤلف (لابن زولاق) لسبيويه المصري، ومعاصرتة إياه ومصاحبتة له، فكان يلمس أحواله في كثير من الأحيان بنفسه، ويرى كثيراً من تصرفاته وسلوكه بعينه، فهي روايات تعتمد على المشاهدة والمعاينة؛ لذا لا مورد له فيها إلا نفسه^(٦).

ملاحظات منهجية عامة على طريقته في إيراد موارد:

أ- حرص ابن زولاق في كتابه هذا - رغم صغر حجمه - على توثيق رواياته عن طريق ذكر موارد التي نقل عنها مادته التاريخية والأدبية. والملاحظ أن نسبة عدد موارد الصريحة إلى موارد المجهولة لصالح موارد الصريحة، وذلك مؤشر إيجابي على وثاقة غير قليل من أحداث كتابه. وإذا كانت هناك روايات كثيرة لم يذكر لها مورداً، فذلك راجع - كما ذكرت من قبل - إلى أنها أحداث ووقائع لمسها وشاهدها وتابعها بنفسه. وجدير بالذكر أن أكبر عدد روايات نُقلت من مورد صريح محدد في كتابه، إنما هي الروايات التي رواها عن الشخصية نفسها، التي يدور حولها الكتاب، وذلك مؤشر إيجابي آخر، يزيدنا اطمئناناً إلى مادة الكتاب التاريخية.

ب- حرص ابن زولاق في مقدمة كتابه العامة على ذكر أسانيد بعض الروايات كاملة، لكنه - بعد ذلك - كان يكتفي من الإسناد بذكر مصدره المباشر فقط. ولم يقم بالتعريف بموراده، أو بالترجمة الخفيفة لها إلا نادراً^(٧)، وإن كان بعضها معروفاً^(٨) مشهوراً، اللهم إلا قليلاً^(٩).

(١) السابق: ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٦.

(٣) السابق: ٤٨.

(٤) السابق: ٥٢.

(٥) السابق: ٥٧.

(٦) وكان يعبر عنها بالرؤية (رأيت كذا)، والمقابلة (قابلتُ كذا). (أخبار سبيويه: ٢٢ - ٢٦، ٢٩ - ٣٢، ٣٧، ٤٢، ٥٢).

(٧) ذكر عن الحسن بن موسى الحياطي أنه إمام الجامع (أخبار سبيويه المصري ١٩). أو وصف المورد بـ (القاضي) كما في ص ١٦، ٢١، أو بالفقير (ص ١٦).

(٨) من موراده المشهورة: الفقيه المالكي (محمد بن عبد الله بن عبد الحكم) ص ١٦، وأبو طاهر القاضي (ص ٤٠).

(٩) ممن لا يعرف من موراده: عبد الله بن محمد (ص ٤٦)، وإبراهيم بن علي اللكي (ص ٤٩)، وعبد الرحمن بن يوسف (ص ٥٢).

ج- استخدم ابن زولاق الألفاظ المعبرة عن كيفية تلقي معلوماته على موارده بطريقة دقيقة، مثل: حدثنا، وحدثني، وسمعتُ، وأنشدني (بالنسبة للشعر). وكلما يستخدم لفظة (قال)^(١) الدالة على عدم معاصرته مورده، فهو نقل من طريق كتاب من كتبه مثلاً، أو نقل عن طريق آخر، لكنه لم يُشر إليه. ولا شك أن دقة ابن زولاق وأمانته في النقل تتبدى واضحة في ألفاظه الدقيقة، التي عُبِّر بها عن موارده المجهولة، رغم أنها تقفنا أمام الرواية بالتأمل، والتفكير، والروية^(٢).

د- يُقدِّم ابن زولاق - أحياناً - بتقديم مناسب قبل أن يذكر مورده ومحتوى روايته^(٣)، فيشعرنا بما يقوم به الباحثون المعاصرون من التمهيد لفكرتهم، التي يريدون اقتباسها من المراجع، ثم يعرضون بعد ذلك اقتباسهم بدقة. وأحياناً كان يبلغه الخبر من مصادر مجهولة غير معروفة، فيتجه بالسؤال إلى واحد من أبرز من حضر وشارك في أحداث هذا الخبر^(٤)، وذلك للاستيثاق من مضمونه، وفحواه قبل روايته.

ثالثاً - أهم الملامح المنهجية في كتاب (أخبار سيبويه المصري) لابن زولاق:

١- من حيث الترتيب العام:

قدم ابن زولاق لكتابه بمقدمة عامة مهَّدت لها لموضوع كتابه، ثم أورد على هذه المقدمة نموذجين^(٥). وبعد ذلك أتى بمقدمة خاصة، بيَّن فيها مكانة ومنزلة الشخصية، التي سيقدم لها، ويخصها بالحديث في الكتاب كله، وأوضح أنها لم تحظ بالاهتمام الكافي الذي تستحقه. ثم ذكر ظروف تأليفه هذا الكتاب، وإن لم يحدد الشخصية، أو نوعية الأفراد الذين سألوه أن يجمع من كلام (سيبويه المصري) ما يقدر عليه، مما حفظه عنه، وما بلغه عنه، فكان هذا الكتاب^(٦).

٢- مدى الترابط بين جزئيات الكتاب:

بدأه ابن زولاق ببيان اسم ونسب سيبويه هذا كاملاً، ومولده زماناً ومكاناً، ووفاته تحديداً (داكراً عمره الذي عاش). وعَرَّف بوالده. ثم ذكر صلته به، ومعاصرته إياه، ومعرفته بأحداث

(١) أخبار سيبويه: ١٦، ٥٨.

(٢) أي: التركيز على تعقل مضمونها؛ لأنها مجهولة المورد.

(٣) أخبار سيبويه المصري: ١٩، ٢١، ٣٤، وغيرها.

(٤) مثل: تأكده مما سمعه عن مظاهر عث وقعت في مجلس أوبوحو، فسأل سبويه - باعتباره أحد الحضور بها - عنها (المصدر السابق: ٣٦).

(٥) أخبار سيبويه: ١٦.

(٦) أخبار سيبويه المصري: ١٧.

حياته. ويذكر - بعد ذلك - صفات سيبويه بمجملته، وعلومه، وأساتيده، وأبرز صلته بالحسين بن محمد الماذرائي وزير مصر، وتلمذ سيبويه على المتكلمين^(١).

تعرض ابن زولاق لنماذج متفرقة عديدة من حياة هذه الشخصية، التي يُسَطَّر لنا سيرتها، فإذا بنا تُفاجأ بانعدام التسلسل والترابط بين هذه المواقف التي يعرضها^(٢)، وكأنه فقد منهجيته المعروفة عنه، وإذا بنا أمام نصوص تاريخية مهمة في ذاتها، لكن عقدها قد انفرطت حَبَّاثه، وأصبحت بلا منهج^(٣)، اللهم إلا بعض الترابط الجزئي الداخلي القليل^(٤).

٣- من حيث التوقيت:

لم يكن ابن زولاق حريصاً على الالتزام بذكر توقيت وقوع الأحداث، ربما لأنه لم يُعَنِّ بعرضها مرتبة، ولأنها حوادث متفرقة وقعت عبر الأيام والشهور والسنين المتوالية، وليست ذات صلة بأحداث سياسية مشهورة، كما أني أعتقد أن المؤلف يكتب من ذاكرته، ومن واقع صلته به (سيبويه المصري)، ومن خلال ما يسمع من موارد، فالكل يتذكر بعض المواقف والأحداث، لكنه لا يضبط متى بالتحديد وقعت، ولذلك نجد ابن زولاق كثيراً ما يستخدم تعبير: (حدث يوماً)، و(وقع يوماً)^(٥). أما إذا ارتبطت بعض المواقف بأحداث مهمة، فهو يذكر تواريخها^(٦)، ناهيك عن أهم تواريخ حياة سيبويه (من مولد، ووفاته)، مما لم يُقْتَه - بالطبع - تصدير سيرته به^(٧).

٤- القدرة على تحديد أماكن وقوع الأحداث:

فابن زولاق مصري، ومجاور - غالباً - في سكناه لسبويه؛ ولذلك فهو يصف الأماكن وصف العالم لها، ولذلك تعددت مرات ذكره لأماكن تتعلق بسبويه المصري، والأحداث التي وقعت له في حياته، مثل: المكان الذي كان يسكنه، وظروف سقوطه في البئر المقابل للدار، والمكان الذي بلغ فيه أصحابه نبأ سقوط سيبويه في البئر، فهُرَعُوا إلى إغاثنه، وإنقاذه من موت محقق وشيك^(٨)، وما وقع للبئر - بعد ذلك - من ردم، وتحديد مكانها بالضبط^(٩). وكذلك وصف مكان آخر سكنته أسرة سيبويه عند رجل نصراني^(١٠).

(١) السابق: ١٧-١٨.

(٢) السابق: راجع ص ٢٣، وما بعدها (خاصة ص ٥٠، وبعدها).

(٣) وهو ما عَبر عنه البعض بأنه نص تاريخي غير منظم، ولا مرتب من ناحية هيكله الداخلي (التعليق على النصوص التاريخية، ترجمة د. عبد الله حماد الدين عن الإسبانية) في حوليات دار العلوم العدد ١٤٦ - ١٩٩٠م، ص ٢٧٥.

(٤) أخبار سبويه المصري: ص ٣٠.

(٥) أخبار سبويه المصري: ٢٤، ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٢، ٥٨.

(٦) المصدر السابق: ٢٢، ٢٧، ٣٠، ٣٧.

(٧) السابق: ١٧. (٨) السابق: ٢١-٢٢. (٩) السابق: ٢٢. (١٠) السابق: ٢٣.

٥- شخصية ابن زولاق من خلال (سيرة سيويه المصرى):

أعتقد أنما شخصية حاضرة من خلال معاصرها حياة سيويه، ومشاركتها في بعض أحداثها. وقد علّل ابن زولاق بعض الأمور الواردة بسيرته، مثل: سبب تلقيبه بـ (سيويه)^(١)، وعرضه ما قيل عن سبب اختلاطه، وإيراده ما يدل على ترجيحه وجهاً معيّنًا في ذلك الإطار^(٢)، وكذلك سبب عدم التعرض له رغم ما يتلفظ به من كلام المعتزلة^(٣).

وكانت شخصية ابن زولاق تتضح من خلال ما يقدم من شرح لبعض العبارات المسترة التي يستفوه بها سيويه^(٤)، ومن خلال تعليقات واستنتاجات يذكرها في بعض المواضع^(٥). ويغلب على ظني أن ابن زولاق كان متحيزاً لسيويه في شرحه طبيعة اختلاطه، إذ إن هناك أمثلة على عدم تورعه من النطق بما يُفحش ويُستقبح من العبارات، وهو الشيء الذي نقاه عنه ابن زولاق دون وجه حق^(٦).

٦- بعض المظاهر الحضارية في الكتاب، ودلائل أهميته:

تعرض ابن زولاق في ثنايا حديثه عن سيرة (سيويه المصرى) للعديد من المظاهر الحضارية التي تجعل من الكتاب مصدراً مهماً للتأريخ للحياة الاقتصادية^(٧)، والاجتماعية^(٨)، والثقافية^(٩) في ذلك العصر الإخشيدى. وسواء كان ذلك يتم عن وعي من المؤرخ، أم كان يأتي عفويًا، فالخلاصة النهائية أنه كان يعطينا فكرة شاملة عن الموضوع الذي يؤرخ له. والشيء ذاته يقال عن كتاب (أخبار سيويه المصرى)، فبالرغم من أنه مختصر جداً، ويُعدّ في المقام الأول من كتب السير التي تُعرّف بسيرة عالم من العلماء، عدّوه من عقلاء المجانين، إلا أن الروايات الواردة به عاجلت جوانب حضارية شتى، جعلت الكتاب على درجة كبيرة من الأهمية لمن أراد التأريخ للعصر الإخشيدى^(١٠)، كما أعتقد أن من ترجموا لهذا العالم كانوا عالة على كتاب ابن زولاق هذا، سواء ذكروا ذلك صراحة، أم لم يذكروا^(١١).

(١) أخبار سيويه المصرى: ١٨. (٢) السابق: ٢١-٢٢. (٣) السابق: ٢٣-٢٤.

(٤) السابق: ٣٢. (٥) السابق: ٤١.

(٦) زعم ابن زولاق أن اختلاط سيويه من النوع الذي لا يُنفوه خلاله بالفيح من القول (السابق: ٢٥). وهذا منافٍ لعبارات أوردها ابن زولاق على لسانه فيها إفحاش وقبح (السابق: ٤٢، ٥٣).

(٧) يمكن مراجعة نماذجها في: السابق: ص ٢١ (النواحي المعمارية، والآبار المحفورة في الشوارع، ووجود طاقات في المنازل)، ص ٥٢ (سوق التّزّازين)، ص ٢٣، ٢٧-٢٩ (أجرة سكني البيوت شهرياً، وأنواع القرش والحصر)، ص ٢٧، ٣٨، ٤١-٤٢ (الرواتب الشهريّة التي تُمنح لبعض الأفراد).

(٨) مثل: الأظعمة (أخبار سيويه المصرى ص ٣٤)، وموكب الإخشيد لصلاة الجمعة (ص ٢٨)، وطقة الرّعاع والصبيان، وموقفها من سيويه بعد حبه (ص ٣٠-٣١)، وتعاطف أناس آخرين معه (ص ٢٦).

(٩) مثل: أسواق الورّاقين، وازدحامها يوم الجمعة (ص ١٨) ومجالس العلم بالمسجد، ومذكرات الحديث ومناقشاته (ص ٢٧، ٤٣)، وأشعار ينشدها سيويه (ص ٥١)، وعبارات فصيحة بلغة له (ص ٣٢)، ومناقشته المتنى الشاعر المشهور، وتحفظته في بيت مشهور له (ص ٤٥).

(١٠) د. سيد كاشف: مصر في عصر الإخشيديين ص ٦. (١١) معجم الأدباء ١٦٨/٧، ٣١٣-٣٢٣.

الفصل الرابع والأخير من السيرة التاريخية المفقودة

السيرة التاريخية المفقودة:

بعد أن فرغنا من دراسة (سيرة الحكام التاريخية) المطبوعة لمؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري، نتقل - الآن - ثقلًا جديدة من نوعها، لعلها تكون فريدة في بابها، ألا وهي تجميع ما تبقى من السيرة المفقودة في هذا المجال. وقد قمنا في سبيل ذلك بعملية مسح شاملة لما تيسر لنا من مخطوطات ومصادر، ثم أعدنا ترتيب هذه البقايا المتناثرة؛ لنلقى عليها - بعد ذلك - نظرة متاملة، تتناسب مع حجم وأهمية ما تم تجميعه؛ كي نخرج - في النهاية - بملاحظات منهجية عامة عليها.

أولاً - المؤرخ المصري (أحمد بن يوسف بن الداية):

درسنا له - من قبل - سيرة (أحمد بن طولون) مطبوعة. وقد عثرتُ على^(١) نص تاريخي وحيد، أرجح أنه له من بقايا كتابه المفقود: (سيرة حمارويه). وهاكم هذا النص^(٢):

"قرأتُ في سيرة حمارويه بن أحمد بن طولون في نسخة عتيقة، ولم يُسمِّ مؤلفها^(٣): أن حمارويه لما خاف أن يضطرب الشام، أنفذ إليه جيشاً، أمر عليه سعداً^(٤) الأيسر، وأمدّه بأحمد بن محمد الواسطي (كاتب أبيه)؛ ليدبر الجيش، ويتولى النفقات فيه. وكان الواسطي يطعم أن يدبر أمر حمارويه، وأنه يرُدُّ تدبير الأمر إليه، وقال: هذا صبي حَدَّثْتُ أدبَه كما أرى. فلما أخرجته إلى هذا الوجه، واستكتب محبوب بن رجاء بعده، فسدت نيته، وقال: محبوب أحد كُتَّابي يتصرف بين أمرى ونَهْيي^(٥). آل الأمر إلى أن صرْتُ بعض خلفائه؟ فتغيَّر على سعد وافترقا.

(١) أى: اطلعتُ. من باب عَثَرَ يَعْثُرُ عَثُورًا. وَاعْتَرَاهُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ: أَطْلَقَهُ. ومنه قوله (نعال) في سورة الكهف: (مِنْ آيَةِ ٢١): (وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَنْهُمْ لِيَقْتُلُوا أَنْ وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنْ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ لَهَا). لكن عَثَرَ يَعْثُرُ عَثْرًا، وَعَثَارًا: زَلَّ وَكَبَا. (تفسير الصحاح ٤١٢، والمعجم الوسيط ج ٢ ص ٦٠٥، مادة: ع. ث. ر).

(٢) بغية الطلب، لابن العديم ج ٣ ص ١١١٣ - ١١١٥.

(٣) رجحت أن يكون لابن الداية؛ لقدّم النسخة من جهة، ولصلة ابن العديم مؤلف كتاب (البغية)، الذي ورد فيه هذا النص بكتب ابن زولاقي، ونقله بخطه (سيرة الإخشيد)، فلو كان هذا النص من كتاب ابن زولاقي عن (حمارويه)، والذي ذُكِّلَ به على كتاب ابن الداية، لنسب إليه.

(٤) وردت في النص بغير النصب (سعد)، وهو خطأ نحوي.

(٥) وردت في النص (وبهي)، وهو تحريف من النساخ. هو أبو العباس أحمد بن الموفق، الذي ولى الخلافة بعد ذلك (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ)، ولُقِّبَ بـ (المعتضد بالله). (الكامل ٦/ ٣٣٨).

وتغير الواسطي، وكتب إلى ابن الموفق^(١) كتاباً، يحثه على المسير إلى مصر، وقال: أنا أسست أمر أبي الجيش، والله لأهدمن ما كنت بنيت، وضمن الكتاب هذه الأبيات: (من البسيط)

يأيها الملك المهروب جانبُهُ شمرٌ ذيول السرى^(٢) فالتصر قد قرباً
كم ذا القعود ولم يقعد قعودكم عن القتال لقد أصبحتُم عجباً
ليس المريد لما أصبحت تطلبه ولا المشمر عن ساق وإن لقياً^(٣)
لا تقعدن عن التفريط منعكفاً واجدداً، فقد قال قوم: إنه رهبا
فأنت في غفلة يقظان ذو سبة مطالب الوثر^(٤) ذو جد إذا طلبا
أحاد مروان^(٥) في بيت أصاب به عين الصواب فما أخطأ ولا كذباً
إذ قال لما رأى الدنيا تئيدهم بعد الهدوء وعاد الجبل مضطرباً
إن أرى فتنة تغلى مراحلها والملوك بعد أبي ليلى^(٦) لمن غلباً

فلما قرأ ابن الموفق كتاب الواسطي، قال لابن كنداج^(٧)، وابن أبي الساج^(٨): ما

(١) هو أبو العباس أحمد بن الموفق، الذي ولى الخلافة بعد ذلك (٢٧٩-٢٨٩هـ)، ولقب بـ (العتضد بالله).

(٢) سرى الليل، يسرى سرياً، سرياً، وسرى. أى: مضى وذهب. (المعجم الوسيط: ص. ر. رى، ج ١ ص ٤٤٤).

(٣) لقى فلان تلقى تلقياً ولقوباً: تعب، وأعيأ. (المرجع السابق: مادة ل. غ. ب) ج ٢ ص ٨٦٣،

(٤) أى: بالتأثر. (المرجع السابق، مادة: (و. ت. ر) ج ٢ ص ١٠٥١).

(٥) هو معاوية الثاني (معاوية بن يزيد بن معاوية). وذكر الطبري أنه الذى قال فيه الشاعر: إن أرى فتنة قد حان أولها والملوك بعد أبي ليلى لمن غلباً (تاريخ الطبري ٥٠٠/٥) (أحداث سنة ٦٤هـ).

(٦) يقصد: مروان بن الحكم.

(٧) هو إسحاق بن كنداج الخزرى اليهودى الأصل. كان من ساند الموفق في إحباط سعى أخيه الخليفة المعتمد المسير مع أحمد بن طولون إلى مصر، ووعده الموفق - جزاء ذلك - إقطاعات واسعة، ومالاً جزيلاً، وزيادة رياسته ومجده (وذلك في جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ). (سيرة البلوى ٢٩٠-٢٩١). وكانت له معركة - وهو على الموصل - ضد ابن دعباش عامل ابن طولون على (الزقة وأعمالها، وعلى الثغور والعواصم) سنة ٢٧٠هـ (تاريخ الطبري ٦٦٧/٩). وكان ممن شارك ابن الموفق في معركة الطواحين ضد حمارويه (بنية الطلب ١٤٩٩/٣).

(٨) أبوه هو أبو الساج، الذى نسب إليه الأحقاد الساحية ببغداد. وقد توفى هذا الأب في ربيع الآخر سنة ٢٦٦هـ بـ (جند تيسابور) من أعمال خوزستان. (وفيات الأعيان ٢٥٠/٢-٢٥١). أما ابنه محمد، فيكنى بـ (أبي عبيد الله). وكان ابن الموفق في معركة (الطواحين)، ودعا لحمارويه بعد ذلك سنة ٢٧٣هـ، وفيها هزم ابن أبي الساج إسحاق ابن كنداج بالزقة (تاريخ الطبري ١٠/١٢)، وبنية الطلب ١٤٩٩/٣). هذا، وقد توفى محمد بن أبي الساج بأذربيجان في ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ، وتفرق غلماناه بعده. (مروج الذهب ٦٢٨/٢، ووفيات الأعيان ٢٥٠/٢).

فعودكم؟! وضرب طبله وسار، وساروا معه حتى كبسهم في شَيْزَر^(١)، وقتل منهم مقتلة عظيمة. وكان الواسطي^(٢) بالرملة يقطع الطريق فيما بين ابن أبا، وسعد الأعسر^(٣) وهما بدمشق، فسار أحمد بن الموفق إلى دمشق، وكبشها على غِرَّة، فاهزمنا إلى الكسوة، وقُتل من بقي من أصحابهما. ثم إنهم اجتمعوا، وقصدوا الواسطي^(٤) فهزموه، وأخذ على طريق الساحل، حتى لحق أحمد بن الموفق. ودخل المصريون الرملة، فنهبوا دار الواسطي وخزائنه. ثم ذكر وصول أحمد بن الموفق، وأنه لما أبصر عسكر أبي الجيش هاله وأكبره، وصغر جيشه في عينه، فشجعه الواسطي، وضمن له النصره عليه، وقال له: لا يفرك هذا؛ فأكثرهم عامَّةً: بَقَال، وحائلك، وفاعل. ففتح بالنصر ولا تَجَزَع. إلى أن التقى العسكران، وكانت النصره على أحمد بن الموفق. فركبا دواب الهزائم، ومَرَّ كل واحد منهما على حدة. فأما ابن الموفق، فلم يَرُدَّ وجهه عن دمشق شيء، فلم يفتح له أهلها باها، ومنعوه من الدخول، فَمَرَّ على طَيْبته^(٥) إلى طَرَسوس. وأما الواسطي^(٦)، فأضرَّ به الهرب إلى أنطاكية، فأقام بها مُدَيِّدة، ومات كمدًا."

ملاحظات عامة على النص المفقود السابق:

١- نجح ابن الداية في انتقاء عناصر الحادثة الملائمة لغرضه الأساسي منها، وركز عليها. فرغم أن هذه الرواية تتناول موقعة الطواحين بين (أبي العباس بن الموفق)، و(جيش حماروييه)، وكانت لها أسباب ومقدمات، وفي وصفها تفصيلات هزيمته حماروييه في البداية وفسارته، ثم تغير الظروف بعد ذلك؛ مما أدى إلى انتصار حماروييه^(٧)، فإن ابن الداية لم يُعَنَّ من ذلك كله إلا بوصف دور الواسطي في إشعال المعركة في البداية، وفي إتمامها لما كاد أبو

(١) قلعة بالشام، بينها وبين حماد يوم. يجري وسطها نهر الأردن، الذي توجد عليه قلعة وسط المدينة، ويبدأ أوله من جبل لبنان. وهي قلعة قديمة، تعد داخلية في كورة حصص. (معجم البلدان ٤٣٤/٣).

(٢) هو أحمد بن محمد - ويقال: محمد بن أحمد - الواسطي الكاتب (أبو عبد الله). كان صاحب ابن طولون منذ قس، وصحبه مع المستعين في واسط. كان حلو الحديث ظريفاً، حسن المخالسة، شاعراً كاتباً. صاحب ابن طولون منذ ولايته على مصر حتى وفاته، وكان بمنزلة وزير له، وكان له دور كبير في إقام بيعة حماروييه، وقتل أخيه العباس (سيرة ابن الداية ص ٧٥-٧٦، ١٣١، وبغية الطلب ١١١١/٣-١١١٣، ومختصر تاريخ دمشق ٢٩٣/٣).

(٣) راجع ترجمة (أحمد، أو محمد بن أبا) أحد قواد ابن طولون، وحماروييه بعده في (مختصر تاريخ دمشق ٦٣/٧-٧). أما سعد الأيسر أو الأعسر، فكان من القواد البارزين، وله دور كبير في معركة الطواحين، وخرج عن الطاعة بعد ذلك، فقتله حماروييه ٢٧٣هـ، (الولاة ٢٣٦، والنجوم ٦٤/٣).

(٤) وردت في النص (ابن الواسطي)، والصواب ما ذكرت.

(٥) الطيبة: البهجة أو الناحية البعيدة. (المعجم الوسيط، مادة: ط.ى.ى) ج ٢ ص ٥٩٣.

(٦) وردت في النص (ابن الواسطي)، والصواب ما ذكرت.

(٧) تفاصيلها في: تاريخ الطبري - ٢٧١هـ - ج ١٠ ص ٨، والولاة ص ٢٣٥، والكمال ٣٤٢/٦، والنجوم ٦٣/٣-٦٤.

العباس يتراجع. واكتفى من نتائجها بمحصّلها العامة، وكان تركيزه الأساسي على ما انتهى إليه أمر الواسطي محور هذه الأحداث، وعمرها من البداية حتى النهاية.

٢- تمتاز رواية ابن الداية بميزتين مهمتين: الأولى - القدرة على الغوص وراء أسباب موقف الواسطي من حمارويه، وإبراز دور العوامل النفسية في تحريك الأشخاص نحو سلوكيات معينة^(١). الثانية - الاهتمام بذكر أبيات الشعر التي كتب بها الواسطي إلى ابن الموفق، وهي وسيلة قوية ووثيقة مؤكدة، تعكس طبيعة الواسطي وثقافته الأدبية والتاريخية ككاتب ووزير لابن طولون من قبل، وتؤكد قيامه بعملية التحريض المذكورة^(٢).

٣- تعكس هذه الرواية التاريخية نظرة الحكام إلى عوامّ الناس من بقالين، وحائكين، وصّاع في ذلك الزمان، وهي نظرة دونية، يعتقدون بمقتضاها أن هؤلاء لا يُحسنون بحاربون. ولعل مرد ذلك يتمثل في أن الجيوش كانت من الجند المحترفين، ولا يشارك فيها أهل البلاد من المصريين.

٤- يُحسب لابن الداية في هذا النص قدرته على تطويع بلاغته العالية، وأسلوبه البليغ في إزاحة جفاف المادة التاريخية، وفي حسن تصوير الأحداث التاريخية بدقة، لكن فاته في هذا النص شيء مهم يتصل بالواسطي، وهو ذكر تاريخ وفاته^(٣).

ثانياً - المؤرخ المصري ابن زولاق:

ويُنسب إلى هذا المؤرخ الفدّ ذي الإنتاج التاريخي الغزير، الكتب المفقودة الآتية:

١- (سيرة أحمد بن طولون): وجدت من بقاياها النصوص التاريخية التالية:

أ- وقفت على سيرة للإخشيدي^(٤) قديمة، عليها خط الفرغانى، فيها:

أن أحمد هو ابن ألنج من الأتراك، كان طولون صديق أبيه، ومن طبقته. فلما مات ألنج ربّاه طولون وكفله. فلما بلغ من الحداثة، مشى مع الحشوية وغزا، وتنقلت به الأحوال، إلى أن صار معدوداً في الثقات. وولى مصر، واستقر بها. قال صدر الدين بن عبد الظاهر: ولم أر ذلك لغيره من المؤرخين^(٥).

(١) يبدو أن الواسطي كان يتفان في خدمة ابن طولون؛ خوفاً ورهباً، ثم طمعاً بعد ذلك؛ بدليل تصرفه نحو حمارويه. وقد وصفه ابن طولون بأنه قوى الحيلة فاسد الدين، وكان يتوقع منه ما حدث. (سيرة البلوى ٣٣٧-٣٣٨).

(٢) أكد وقوعها طراوه في دكتوراه (حضارة مصر في العصر الطولوني) ص ٤٤-٤٦، ونقلها حسن عبد الحميد في دكتوراه (ص ١٦٤). والأول أرجح.

(٣) استكمل هذا القصّ ابنُ العديم من تاريخ المسيحي، فذكر وفاته في شعبان ٢٧٢هـ. (بغية الطلب ١١١٦/٣).

(٤) من الواضح أن هناك خطأ في العبارة؛ لأن النص التالي يتعلق بابن طولون لا الإخشيدي، فالصواب: (وقفت على سيرة لابن طولون). وأما خط الفرغانى، فلعلها نُسخت بخط ذلك المؤرخ تلميذ ابن الداية، ومعاصر وزميل ابن زولاق، وأرجح أنه الفرغانى الأب (عبد الله بن أحمد التوفى ٣٦٢هـ).

(٥) تاريخ ابن خلدون ٣٨٦/٤.

ب- قال ابن زولاق مؤرخ مصر:

"قبض على العباس بنواحي الإسكندرية، وأدخل إلى القسطنطينية على قتب على بقل مُقَيِّداً في سنة سبع وستين ومائتين. ونصّب لكتابه، ومن خرج بهم إلى ما خرج إليه ذكّة عظيمة رفيعة السَّمَك في يوم الأربعاء، لا أعرف موقعه من الشهر. جلس أحمد بن طولون في علو يوازها، وشرع من ذلك العلو إليها طريقاً. وكان العباس قائماً بين يدي أبيه في خَفَافٍ مُلَحَمٍ وِعِمَامَةٍ وَخُفٍّ، وبسيف مشهور، فضرب ابن جدار ثلاثمائة سوط وتقدم إليه العباس، ففقط يديه ورجليه من خلاف، وألقى من الذكّة إلى الأرض. وفعل مثل ذلك بالمتوف، وبأبي مَعَشَر. واقتصر بغيرهم على ضرب السُّوط. فلم تمض أيام حتى ماتوا"^(١).

ج- البالسيّ الضريّر:

شاعر من أهل البالس، ذكر له ابن زولاق في (سيرة أحمد بن طولون) أبياتاً، قالها في أحمد ابن طولون، حين حصر الموفق المعتمد على الله وحجسه، يُخاطب أحمد بن طولون، ويمدحه حين قام بنصرة المعتمد^(٢):

يا سَمِيَّ النبي لا نَسِيَّ اللَّـ	سَهُ لك الذبُّ عن حرم النبي
دولة الدين والخلافة عَزَّتْ	بك لا بالطريد عنها التفَيَّ
المزال اسمه على الرغم من كـ	ل مقام امرئ كريم سَنِيَّ
رام مالا ينال فلقد خا	ب وخاب اعتداده بالخَصِيَّ

د- قرأت في سيرة (أحمد بن طولون) من تأليف ابن زولاق المصري، قال في آخرها:

"ورآه عسبد الله بن القاسم، وكان من أصحاب سيما الطويل، قال: رأيتُ فيما يرى النائم كأن سيما الطويل متعلق بأحمد بن طولون على باب مسجد، وهو يصيح بأعلى صوته: يا رسول الله، أَعْبَدِي^(٣) على أحمد بن طولون، فإنه قتلني واصطفى ما ملكتُ، وأسرع في أهلي

(١) معجم الأدباء: ١٨٣/٧ - ١٨٤.

(٢) بنية الطلب جـ ١٠ ص/٤٧٥١. ذكر البلوي في (سيرة ابن طولون) ص ٣٠١ اسم هذا الشاعر، وأبياتاً من شعر له طويل في مخاطبة الأمير ابن طولون. لكنه لقيه بـ (البالسي)، ولا أدري أيهما أصوب، وإن كان البلوي أقدم، وعحقه رجل أدب ولغة، فمادته أضيظ وأصوب. (ورد لدى البلوي كلمة البقي) آخر الشطر الثاني من البيت الثاني. وتلاه بتوضيح له قائلاً: يعني أبا أحمد الموفق لما نفاه المهدي، فزده المعتمد. وأول لفظة في البيت الثالث: (أبزال). وفي البيت الرابع: (ما لن يناله فلقد خاف وخاب اعتصامه). ثم علق البلوي شارحاً: يعني اعتصامه بإيمان الخادم. ثم أتى بيت خامس لم يذكره ابن زولاق هو: وليبعداً له وسحقاً لإسحاق اليهودي دينه الحزريّ.

(٣) بمعنى: مكّني منه، أو اقتص لي منه. عَدَدٌ يَعدُن عَدُنًا وَعُدُونًا بالمكان، أي: أقام به. (لسان العرب، مادة (ع.د.ن) جـ ٤ ص٣٨٤٣ - ٣٨٤٤)، والمعجم الوسيط ٢/٦١٠. وقد ورد بلفظ (أعني) في (سيرة البلوي) ص ٣٥٥.

وولدى. فصاح به صائح: كذبت يا سيما، ما قتلك أحمد، بل قتلك عجيج شمل التاجر^(١)، الذى ظننت أن عنده مالاً، فضربت حتى أشرف على الملكة، ثم دختت عليه حتى مات فى التدخين. أنت واحد خاطئان إلا أن أخفكما وزراً أحسنكما سيرة، وأكثركما معروفاً أقربكما من المغفرة^(٢)."

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة ابن طولون) لابن زولاق:

أ- انفرد ابن زولاق دون غيره من المؤرخين بنسبة أحمد بن طولون إلى ذلك الرجل التركى المسمى (النخ). وقد سبق أن ذكر البلوى الرد على مَنْ نسبته إلى (يَلْبَخ). ويصدق ذلك الرد هنا أيضاً، ولعل الاسم واحد ووقع فيه تحريف، وكان ينبغي على ابن زولاق التحقق من صدق الرواية، إضافة إلى ضرورة ذكر مصدرها.

ب- اهتم ابن زولاق بإيراد أدق التفاصيل عن حال العباس، لما أدخل إلى القسطنطينية، والتضييق عليه فى مركبه^(٣)، ووصف ملبسه وحاله بين يدي أبيه^(٤). ويلاحظ الوصف الدقيق الذى أوقع فيه العقاب بالتآمرين^(٥)، والعرض البين لما حلَّ بأبرزهم وأشدهم جرمًا، وأكثرهم تحريضاً للعباس، مع جعل تمام العقاب على يد العباس نفسه؛ نكايته لهم، وتسفيهاً له فى أعين الناظرين، فلا يفكر أحد فى التآمر مع هذا الأحمق القاسى ثانية. والملاحظ أن ابن زولاق اهتم بذكر توقيت السنة التى أدخل فيها العباس أسيراً، وكان أميناً عندما لم يتذكر موقع اليوم الذى حوكم فيه الجناة من الشهر، رغم أنه كان دقيقاً، فذكر اسم اليوم، الذى حدث فيه هذا.

(١) ورد فى البلوى (المصدر السابق) ص ٣٥٦: "قتلك عجيج شمل التاجر". والعجيج: رفع الصوت بالدعاء. من قولهم: عَجَّ يَعْجُ عَجاً وَعَجِجاً. (اللسان، مادة: ع.ج.ج، ج ٤ ص ٨١٣، والمعجم الوسيط ٢/٦٠٥ - ٦٠٦). ويكون فى اسم هذا التاجر روايتان: (شمل، وسهل). ولعل الأخير أرجح.

(٢) بغية الطلب ٢/٨٣٤ - ٨٣٥.

(٣) ذكر أنه دخل على قُتْب على بعل. والقُتْب: الرُّحْل الصغير على قدر سَنَام البعير (وهو - هنا - البقل). الجمع: أَقْتَاب. (اللسان، مادة: ق.ت.ب) ج ٥ ص ٣٥٢٤، والمعجم الوسيط ٢/٧٤٠.

(٤) كان قائماً فى زى متواضع، وهبة ذليلة. الخَفَّاحف المُلَحَّم: ثوب جديد يحدث صوتاً عند تحركه وهو (الخَفَّخَفَّة)، وهو جنس من الثياب يختلف نوع سُدَاه ونوع لُحْمَتِهِ كالصوف والقطن، أو الحرير والقطن. (اللسان، مادة: خ.ف.ف) ج ٢ ص ١٢١٣، ومادة: ل.ح.م، ج ٥ ص ٤١٢/٥. وفى المعجم الوسيط (ل.ح.م) ٢/٨٥٢. ويلاحظ أنه عُبِّر عن الثوب الذى يرتديه العباس تعبيراً دقيقاً، فهو نظيف لكنه لا يليق بأبناء الأمراء، ثم إن العباس وقف مرتجفاً، فُحِّدَتِ الثوب صوتاً؛ خشية قتل أبيه له.

(٥) وصف البناء العالى الذى شاده ابن طولون؛ لإيقاع العقوبة بالتآمرين، فبراهم الجميع، وجعل لنفسه مكاناً موازياً؛ ليشفى غليل نفسه. ثم إنه بالغ فى ارتفاعه؛ ليلقى المتآمرون حتفهم عند الإلقاء بهم من هذا الشاهق. والدُّكَّة: بناء بُسَطِح أعمده للجلوس عليه. أما لفظة الدُّكَّة المحدثه، فهى مقعد مستطيل من خشب - غالباً - يجلس عليه. والجمع: دكاك. (المعجم الوسيط، مادة: د.ك.ك) ١/٣٠٢. وجعلها رقيقة السُّلْك، أى: عالية السُّف. أما السُّلْك، فهو غِلظ الشئ وتحاتته (وهى لفظة محدثة). والجمع: سُمُوك. (السابق ١/٤٦٧).

وجدير بالذكر أن ابن زولاق لم يكن دقيقاً - من وجهة نظري - في تحديد المكان، الذي أمسك فيه بالعباس؛ إذ جعله (نواحي الإسكندرية). وفي اعتقادي أنه كان في (نواحي برق)، وإلا ما طلب الواسطي إلى ابن طولون أن يعود من الإسكندرية إلى القسطنطينية، لئلا أراد الخروج إليه بنفسه. لقد قال ابن الداية بالنص عن الواسطي، لما هرب من حبس العباس: "فلقي أحمد بن طولون، وقد خرج إلى الإسكندرية، وعزم على الرحيل إلى برق، فصعّر أمره عنده"^(١). ولم تذكر الرواية مصدر معلومات ابن زولاق، فلعل ابن العديم تغاضى عن ذكره. وعلى كل، فواضح أن ابن زولاق - بالفعل - يأتي بمعلومات لم تُرد في سيرة ابن الداية، فهو يذلل على سيرته، ويأتي بما فاتته منها، لكن هذا - في نظري - لا يمنع من الاقتباس منه في بعض الأحداث، مع وضع إضافات من لدنه. وبالعودة إلى هذه الرواية في سيرة ابن الداية^(٢)، لم أجد بها جديداً، اللهم إلا في ذكر ابن زولاق يوم معاينة الخنابة، وبقية الرواية تكاد تكون منقولة بنصها من ابن الداية.

ج- وكما أعطتنا الرواية السابقة بعض لمحات عن نوعية الأزياء، وشكل العقاب الصارم في ذلك العصر، تضيف رواية (سيما الطويل) وصفاً للتعذيب الجسدي، الذي يُمارس ضد الضحية، حتى يلقي ثمايته اختناقاً. ويلاحظ وجود مصدر لهذه الرواية (عبد الله بن القاسم)، بينما كان راويها في (سيرة البلوي) عبد الله بن الفتح^(٣)، ومضمون الروايتين واحد. أما مدلولهما، فيشير بكثير من الموضوعية إلى عدم القطع بالمغفرة لابن طولون، ويشير إلى بعض مما ارتكب كلاهما من أخطاء، وإن كان يحكم لابن طولون من طرف خفي بأنه أقرب إلى مغفرة الله، على اعتبار كثرة صدقاته وإحسانه. وعلى كل، فهذه الرواية التي اختارها ابن زولاق متحفظة، بعيدة عن التحيز، وهي أقرب إلى الحيادية من روايات أخرى، عاجلناها من قبل في سيرة البلوي، وإن كان الجميع لا يُعَوَّل عليه في مصير ابن طولون.

٢- سيرة حمارويه، لابن زولاق:

من بقاياها التي وضعتُ يدي عليها بعد فحص كثير من المصادر ما يلي:

أ- قال ابن زولاق^(٤): "وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على

(١) سيرة ابن الداية: ص ١٢٢. وقد أخطأ الطبري، لما ذكر أن العباس بن أحمد بن طولون زحف لحرب أبيه سنة ٢٦٨هـ، فخرج أبوه أحمد إلى الإسكندرية، فظفر به، وردّه إلى مصر، فرجع معه إليها. (تاريخ الطبري ٩/ ٦٠٢). فلا المكان صحيح، ولا الحادثة وقعت، ولا التاريخ دقيق.

(٢) سيرة ابن الداية: ص ١٢٢.

(٣) ص ٣٥٥. والظاهر أن الاسم الوارد في (سيرة البلوي) أدق؛ إذ إن له فيها بعض روايات هذا الاسم، وفي موضوعات تتصل بما بعد وفاة ابن طولون (مواقف المعتمد من نبأ وفاة ابن طولون ص ٣٥٧-٣٥٨). فلعل السامع حرقوه في كتاب (ابن زولاق)، أو في (بغية الطلب).

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦-٨٧.

المكتاتبات والرسائل، منذ أيام أحمد بن طولون، ومكتباته وأجوبته موجودة، إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحاق بن نُصَيْرُ البغدادي من العراق، والتمس التصرف، فقال له ابن عبد كان: فيماذا تتصرف؟ فقال: في المكتاتبات والأجوبة والترسل. وكان بين يدي أبي جعفر كتبٌ قد وردت، فقال له: خذ هذه وأجب عنها، فأخذها ومضى إلى ناحية من الدار، فأجاب عنها، ثم وضع خُفَّهُ تحت رأسه ونام. وقام أبو جعفر إلى الحجرة التي له، فاجتاز به والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها. فلَمَّا تَأَمَّلَهَا جعل يُرَوِّجُ إسحاق بن نصير حتى انتبه، فقال له: عمن أخذتَ الكِتَبَ؟! وأجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر. فلم يَزَلْ مع أبي جعفر إلى أن توفي أبو جعفر، وانفرد بالأمر على بن أحمد الماذرائي، فقال لإسحاق: الزم متروك، فانصرف. فوردت كتب، فأجاب عنها على بن أحمد، ودخل على أبي الجيش حمارويه بن أحمد بن طولون، فعرضها عليه، فقال له: ما هذه الألفاظ التي كانت تخرج مني وعني؟ فمضى على بن أحمد، وعاد إليه، فما أراد أبو الجيش الجواب ولا استجاده. فخرج على بن أحمد، قال: هاتوا إسحاق بن نصير، فجئ به، فقال: أجب عن هذه، فأجاب، ودخل (على بن أحمد) على (أبي الجيش)، فقرأ الأجوبة، فقال: نعم، هذا الذي أعرف "أيش الخير"؟ فقال له: كاتب كان مع أبي جعفر، فاعتزل، وأحضرتة الساعة، فقال: هاته. فأحضرتة، فقال: كم رزقك؟ فقال: أربعون ديناراً. فقال لعلي بن أحمد: "اجعلها أربعمئة في السنة، اجعلها له أربعمئة في الشهر. وقال لإسحاق بن نصير: لا تُفارق حضرتي. فبلغ إسحاق حتى صار رزقه ألف دينار في كل شهر. فكان يجود بذلك، ويُفَضِّلُ به على الناس، ولقد أرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس: إلى أبي العباس المُبَرِّد، وإلى أبي العباس ثعلب، وإلى وراق كان يجلس عنده، دفعةً واحدة ثلاثة آلاف دينار، لكل واحد منهم ألف دينار. وجرى ذلك على يدَي أحمد بن الوليد التاجر خال القاضي بمصر". قال ابن زولاق: مات سنة سبع وتسعين ومائتين^(١)

ب- "وذكر أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فيما قرأته في سيرة أبي الجيش حمارويه بن أحمد بن طولون قال^(٢):

وفي هذه السنة، في صفر منها - يعني سنة ثمان وسبعين ومائتين - مات أبو أحمد الموفق، وعُقد العهد لابنه أبي العباس. وكان للموفق غلام خدام من جِلة غلمانه يعرف بـ (راغب)^(٣).

(١) معجم الأدباء ٨٥/٦، والمقفى ٥٩/٢.

(٢) بنية الطلب ٣٥٥٣/٨ - ٣٥٥٥.

(٣) له ترجمة في (المصدر السابق) ٣٥٥٣/٨، ٣٥٥٥ - ٣٥٥٦.

فلما مات مولاه أحرزته موته، فأحب أن يسكن طرسوس، فاستأذن في ذلك، فأذن له، فخرج قاصداً يريد الثغر. وكان حمارويه - يومئذ - بدمشق. فلما بلغ راغب إلى حلب، وهمَّ بالدخول إلى طرسوس، قيل له: طرسوس من عمل أبي الجيش، وهو بالقرب منك، فلو صرَّت إليه زائراً وقضيتَ حقَّه، وعرفته ما عزمتَ عليه من المقام بالثغر ما ضرتك ذلك، وكان أجلُّ لمَحَلِّكَ، وأقوى لك على ما تريده. فبعث بنقله، وجميع ما كان معه مع غلام له يُعرف بـ (مكنون)، وأمره أن يتقدمه إلى طرسوس، ورحل هو مُخفياً إلى دمشق، فلقى أبا الجيش، فأحسن أبو الجيش تلقيه، وسرَّ بنظره، ووصله، وأحسن إليه، وكان يكثر عنده ويحادثه. وكانت لراغب عارضة، وبسيان، وحسن عبارة، وكان قد رأى الخلفاء، وعرف كثيراً من أخبارهم، فكان يصل مجلسه بشئ من أخبارهم وسيرهم، فأنس به حمارويه، وكان يستريح إلى حديثه ومذكراته. فلما رأى راغب ما يخصه به حمارويه من التكرمة والأنس به، والاستدعاء إذا تأخر، استحمياً أن يذكر له الخروج إلى طرسوس.

فلما طال مقامه بدمشق، ظن مكنون غلامه أن أبا الجيش قد قبض عليه، ومنعه من الخروج إلى الثغر، فأذاع ما ظنه عند المطوعة وشكاه إليهم، وأكثر هؤلاء المطوعة من أهل الجبل وخراسان، معهم غلظ الأعجمية، وسوء آدب الصوفية، فأحفظهم هذا القول وظنوه حقاً، فقالوا: نَعْمُدْ إلى رجل قد خرج إلى سبيل الله؛ محتسباً نفسه لله ﷻ، وفي مقام مثله في الثغر قوة للمسلمين، وكُتِبَتْ لأعدائهم من الكافرين، فتقبض عليه وتمنعه من ذلك؛ جرأة على الله ؟ فنلففوا، وتجمعوا، ومشى بعضهم إلى بعض، وأقبلوا إلى واليهم، وهو ابن عم حمارويه، فشفعوا عليه، فأدخلهم إليه؛ لِيُسَكِّنَ منهم، ويَعُدُّهم بما يحبون، فقبضوا عليه، وقالوا: لا تزال في اعتقالاتنا، أو يطلق صاحبك صاحبنا، فإن قتلَه قتلناك به. وتسرَّع سفلهم إلى داره، فنهبت^(١)، وهتكت حرمه، ولحقه كل ما يكره.

وجاءت الكتب إلى أبي الجيش بذلك، فأحضر راغباً، وأقرأه الكتب، وقال له: والله، ما منعناك، ولا حظنا عليك الخروج. ولقد سررنا بقربك، وما أوليت وأولينك إلا حميلاً، وقد جئنا علينا سوء ظن غلامك ما لم نَحْجِهْ، فإذا شئتَ فارحَلْ مُصاحِباً، وقل لأهل طرسوس: يا جهلة، ما يومنا فيكم بواحد ؟ تتسرعون إلى ما نكره مرة بعد أخرى ونُقْضِي عنكم، ويَحْلُمُ الله ﷻ، ولولا المحافظة على ثغر المسلمين وعز الإسلام، لا خشية منكم ولا من كثرتكم، وإلى الله الشكوى، ولولا الخوف من غضبه ﷻ؛ لجازيناكم على أفعالكم. فودَّعه راغب، ورحل إلى طرسوس. فلما صح - عند أهل طرسوس - خبر راغب، أطلقوا عن محمد بن موسى بن

(١) وردت معرفة هكذا (نهبت) في: (بغية الطلب ٨/٣٥٥٤).

طولسون^(١). فلما أُطلق، قال: أصلح الله بلدكم. ورحل عنهم، فسكن بيت المقدس. وكان له دين، وفيه خير كثير.

ملاحظات عامة على ما تبقى من (سيرة حمارويه) لابن زولاق:

أ- اهتم ابن زولاق في نصه الذي تناول (إسحاق بن نصير النصراني الكاتب) بإظهار ملامح من النواحي الإدارية والاقتصادية بمصر، فقد عرفنا من خلال روايته أهم وظائف الديوان في عهد حمارويه (المكاتبات، والأجوبة، والترسل)، وعرفنا أن للديوان رئيساً هو ابن عبد كان، له حجرة خاصة به في دار الديوان. فلما مات انفرد بالأمر علي بن أحمد المادرائي. وبدت لنا أهمية العراق كرافد رئيسي لمقدم الكتاب إلى مصر (إسحاق بن نصير قدم من بغداد).

ب- وظيفة الكتابة تُدرّ على صاحبها دخلاً كبيراً، وصاحبها له وجاهته، وتُهيأ له السبل المريحة لأداء عمله بدقة وإتقان (لمسنا ذلك من خلال المروحة التي استخدمها ابن عبد كان؛ لإيقاظ ابن نصير، ولمسناه من تحول ابن نصير من فقره وحاجته الشديدة إلى يسر حاله بعد أن عُيّن في الديوان مقابل أربعين ديناراً شهرياً، تحولت بعد انتظام أمر المكاتبات على يديه إلى أربعمائة دينار شهرياً، ثم تدرّج وترقى حاله حتى وصل إلى ألف دينار شهرياً، فعدت له دار كبيرة^(٢) بعد أن كان ينام على حُفّة في الديوان، يوم أن قدم يسأل عن وظيفة له في ديوان الإنشاء في عهد حمارويه).

ج- فات ابن زولاق تحديد التوقيت، الذي توفي فيه ابن عبد كان، وانفرد بالأمر بعده (علسى بن أحمد المادرائي)، الذي فشل في القيام بمهمة ابن عبد كان في المراسلات والمكاتبات. ويبدو أن ذلك كان في بدايات عهد حمارويه، لكنه لم يُفْتَه إظهار قيمة إنسانية طيبة، تمثلت في توسعة ابن نصير على المحتاجين بعد أن زاد دخله، إلى جانب وفائه العظيم لمن له حق عليه (إرساله ثلاثة آلاف دينار للمرد، وتغلب، ورجل وراق كان يستعير منه نُسَخ الكتب لينسخها، وكان يُنظره في الأجرة إلى حين ميسرة^(٣)).

(١) والده هو موسى بن طولون، أخو الأمير أحمد بن طولون، وكان مع أخيه في مصر. وقد طلب إليه أن يوليه نجر الإسكندرية، لكن أحمد كان ينوي توليته نجر طرسوس، فغضب موسى من أخيه، وعاتبه بكلام شديد أمام الناس، فعاقبه أحمد. بعدها خرج موسى حافواً إلى طرسوس، وأقام هناك، ورفض تولي شتوما، ثمّا كلف ابن طولون بضبط الثغور الشامية. (سيرة البلوي ص ٤٦-٤٩، ٩١).

(٢) بقيت هذه الدار إلى أن دخل محمد بن طغش مصر والياً عليها سنة ٣٢٣هـ، إذ ورد أن محمد بن علي المادرائي كان مستتراً من ابن طغش في الدار، التي كانت لإسحاق بن نصير الكاتب، وظلّ لها حتى كشف الوزير الفضل مكانه، وأمر بالقبض عليه (سيرة الإحشيد ص ١٦١).

(٣) راجع ما يُحدّث به ابن الداية عن (أحمد بن وليد) في كتابه (المكافأة) ص ٢٩-٣١.

د- بخصوص النص المتصل بـ (راغب) مولى الموفق، فقد اهتم ابن زولاق بتحديد توقيت وفاة الموفق بالشهر والسنة، وهو في الوقت ذاته كان بداية توجه (راغب) مولاه للرباط في ثغر طرسوس.

هـ- رغم افتتاح الحدود بين أقاليم الدولة الإسلامية، إلا أن التنقل - خاصة تنقل راغب بغلمانته وجنده، وأثقاله للإقامة الدائمة في طرسوس - كان يحتاج إلى نوع من جواز المرور، خاصة أنه دخل منطقة خاضعة لخماريه، فاحتاج إلى استئذان للسماح له بذلك.

و- أظهر ذلك النص التاريخي الطبيعة العامة لسكان الثغور (المناطق الساحلية) بأنهم جفاة قساة. ولعل ذلك يرجع إلى حياة الشُّطَف والقلق التي يعيشونها. كما أشارت إلى طبقة الفوغاء من عوام سكان طرسوس، وما يتصفون به من فوضى واندفاع وطيش وقهور، وأبانت عن خطر سريان الشائعات الكاذبة على الأمن والاستقرار.

ز- أوضحت الرواية أن سياسة خماريه مع سكان الثغور لا تختلف عن سياسة أبيه من قبل (العفو والتسامح والصفح)؛ نظراً للورهم الخطير في صد هجمات الروم، لكنها لم تتابع تطورات علاقة خماريه براغب^(١). ويبدو أن اقتباس ابن العديم من سيرة خماريه لابن زولاق، وقف عند هذا الحد.

٣- سيرة المادرائين^(٢)، لابن زولاق:

من بقايا كتابه عن هذه الأسرة، ذات النفوذ المالي والإداري في مصر منذ عهد خماريه إلى

(١) يبدو أن خماريه خشى ازدياد نفوذ (راغب) في طرسوس، فكلف (طننج) والد الإخشيد بقتله، لكنه لم ينفذ الأمر، وشارك راغباً في جهاد الروم، حتى تعرض لغضب خماريه، الذي أتى إلى دمشق، لكنه قُتل ليلة بمجته سنة ٢٨٢هـ (المكافأة: ص ١٥٠).

(٢) واحده: المادرائي. ذكر المقرئ في (المقفي) جـ ص ١٣٨ - نقلاً عن ابن زولاق - أنهم يُنسبون إلى (مادرايا)، بفتح الميم، وبعدها ألف، ثم دال مهمله وراء مهمله مفتوحتين، بعدها ألف، ثم ياء آخر الحروف، وألف: قرية بالبصرة. وورد في (الأنساب)، للسمعاني بالذال، نسبة إلى (مادرايا)، وقال: وأظنها من أعمال البصرة (جـ ص ١٦٠). أما ياقوت في (معجم البلدان) جـ ص ٤٠، فذكر أنها بالذال، نسبة إلى (مادرايا)، وإليها يُنسب المادرائيون كتاب الطولونية في مصر. ويذكر أن (مادرايا) قرية فوق واسط، حرب أكثرها في عصره. وتابعت عليه د. سيدة كاشف في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧ وما بعدها. وذكرت أن أسرة المادرائين فارسية الأصل، ولعل وجود اسم رُسْتَم في نسها جعلها ميل إلى ذلك. وقد وردت بالذال في (كتاب الولاة، ط. جست - ص ٢٤٤)، وكذلك في (ولاة مصر - ط. نصار، ص ٦٨). وفي (المخطوط)، للمقرئ ٨٢/١، ٢/ ١٥٥: استخدم لقب المادرائي، ثم استخدم (المادرائ) جـ ص ٣٣٢. وفي (ذيل تاريخ بغداد لآل النجار ٣/ ٩٣، والكواكب السيرة ص ٧٣): ورد لقب (المادرائي). وأعتقد أن الصواب ما أورده ابن زولاق، فهو صاحب سيرة، ولا بد أنه تحقق من نسبهم، كما أن ما ورد عنه قاطع؛ لضبطه البلدة، التي يُنسبون إليها بالحروف، مما ينفي وقوع أي لبس، أو تصحيف، وتعميف.

حوالى سنة ٣٤٥هـ (وفاة أبى بكر محمد بن على المادرائى) ما يلى:

أ- حكى ابن زولاق قال:

"خرج المادرائى يودع قوماً خرجوا للغزاة، فبينما هو مارٌّ فى بعض الطرقات، إذ رأى شيخاً قد أقبل وهو يركب، وفى عنقه خريطة^(١)، وهو مقلد بسيف، وفى يده عُكَّازُهُ، فدعاه (على بن أحمد)، وقال له: إلى أين يا شيخ؟ قال: إلى بلاد الروم، أقاتل أعداء الله، فإن لحقنى أجلى على الطريق، كان أجرى على الله (تعالى). فقال له: هل لك فى شئ تركبه؟ ثم استدعى بغلام، وقال له: أحضر الساعة^(٢) غلاماً، وبغلة، وعمامة، وسيفاً. فأحضر ذلك. فقال للشيخ: خذ هذا، ولك فى كل سنة مثله. فبكى الشيخ، فقال: اللهم، لا تحرمه الشهادة. فلما كان من الغد، قُتل فى ذلك الموضع، فمات شهيداً. وكان ذلك ببركة دعاء الشيخ، فإنه كان أعظم ما فى قلبه الشهادة. وكانت وفاته سنة ٢٨٣هـ، ودفن بالمقبرة المذكورة، ودفن ولده إلى جانبه. وكانت وفاة ولده أبى بكر سنة ٣٤٥هـ، ومناقبه غير محصورة^(٣).

ب- وقال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المادرائيين):

ولما قدم الأستاذ (مؤنس الخادم) من بغداد إلى مصر، استدعى أبى على (الحسين بن أحمد المادرائى) - المعروف بـ (أبى زُبَور)^(١) - الدقاق، وهو الذى نسميه - اليوم - الطحَّان، وقال: إن الأستاذ مؤنساً قد وافى، ولى عُشْتول^(٢) قدر ستين ألف إردب قمحاً، فإذا وافى، فقم له بالوظيفة. فكان يقوم له بما يحتاج إليه من دقيق حَوَارَى^(٣) مدة شهر. فلما كمل الشهر، قال كاتب مؤنس للدقاق: كم لك حتى ندفعه إليك؟ فأعلمه الخبر، فقال: ما أحسب الأستاذ يرضى أن يكون فى ضيافة أبى على. وأعلم مؤنساً بذلك، فقال: أنا أكلُ خبز حسين؟! لا يرح الرجلُ، حتى يقبض ماله. فمضى الدقاق، وأعلم أبازنبور، فقام من فوره إلى مؤنس، فأكبَّ على رجليه، فاحتشم منه، وقال: والله، لا أجيبك إلا هذا الشهر الذى مضى، ولا تُعاوِذ. ثم رجع، فقال

- (١) وعاء من جلد أو غوه، يُشدُّ على ما فيه. وفى الاصطلاح الحديث: ما يُرسم عليه سطح الكرة الأرضية، أو جزء منه. والجمع: خرائط. (المعجم الوسيط، مادة: خ. ر. ط.) ٢٣٦/١.
- (٢) فى المصدر: السرعة. وما أثبتَّه أرفع.
- (٣) الكواكب السيارة: ص٧٣-٧٤.
- (٤) وردت كنيته فى (معجم البلدان ٤٠/٥) هكذا: أبى زنبور، وهى مُصحَّفة. تولى سنة ٣١٧هـ.
- (٥) هما قريتان: مشنول الطواحين (السوق)، ومشنول القاضى. كلتاهما من كورة الشرقية. والأولى هى المقصودة هنا، وهى حصة العمارة بها عدة طواحين لطحن الدقيق الحَوَارَى، وتجهيزه إلى مصر والحجاز (معجم البلدان ١٥٤/٥)، والقاموس الجغرافى ٢ ج١ ص١٠٤.
- (٦) الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق. (اللسان، مادة: ح. و. ر. ح) ١٠٤٤/٢، والمعجم الوسيط ٢١٣/١.

للدقاق: قم له بالوظيفة في المستقبل، واعمل ما يريد. قال: فحنته وقد فرغ القمح، ومعى الحساب، وأربعمائة دينار. قال: أئش هذا؟ فقلت: بقية ذلك القمح. فقال: اعفني منه. وتركه^(١). فتأمل ما اشتمل عليه هذا الخير من سعة حال كاتب من كتاب مصر، كيف كان له في قرية واحدة هذا القدر من صنف القمح؟ وكيف صار مما يفضل عنه، حتى يجعله ضيافة؟ وكيف لم يعبأ بأربعمائة دينار، حتى وهبها لدقاق قمح؟ وما ذاك إلا من كثرة المعاش، وقس عليه باقي الأحوال^(٢).

ج- ذكر المادرائي^(٣):

"هو أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن رستم بن أحمد وقيل: محمد بن علي بن أحمد بن عيسى بن رستم، وقيل: محمد بن علي بن أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن عيسى بن رستم المادرائي. أحد عظماء الدنيا ولد بس (تصيين) لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائتين. وقدم إلى مصر في سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وخلف أباه (علي بن أحمد المادرائي) أيام نظره في أمور أبي الجيش (همارويه بن أحمد بن طولون)، وسنه - يومئذ - خمس عشرة سنة. وكان معتدل الكتابة، ضعيف الحظ من النحو واللغة. ومع ذلك، فكان يكتب إلى الخليفة فمن دونه على البديهة من غير نسخة، فيخرج الكتاب سليماً من الخلل. ولما قتل أبوه في سنة ثمانين ومائتين، استوزره (هارون بن همارويه)، فدبر أمر مصر إلى أن قدم (محمد بن سليمان الكاتب) من بغداد إلى مصر، وأزال دولة بني طولون، وحمل رجالهم إلى العراق، فكان أبو بكر ممن حمله، فأقام ببغداد إلى أن قدم صعبة العساكر لقتال حياصة^(٤)، فدبر أمر البلد، وأمر ونهى، وحادث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي^(٥)، وغيره بسماعه منهم في بغداد. وكان قليل الطلب للعلم، تغلب عليه محبة الملك، وطلب السيادة. ومع ذلك، كان يلزم تلاوة القرآن الكريم، ويكثر من الصلاة، ويواظب على الحج. وملك بمصر من الضبائع الكبار ما لم يملكه أحد قبله، وبلغ ارتفاعه^(٦) في كل سنة أربعمائة ألف دينار سوى الخراج. ووهب وأعطى، وولى وصرف، وأفضل ومنع، ورفع ووضع، وحج سبعا وعشرين حجة، وأنفق في كل حجة منها مائة وخمسين ألف دينار.

(١) يعني: أي شن (الحطط ٣٣١/١ - ٣٣٢).

(٢) هذا تعليق المقرئ.

(٣) عنوان للمقرئ بعد تصحيح النسبة.

(٤) وردت بالحاء تصحيحاً.

(٥) هو أبو عمر الكوفي. ضعيف في الحديث، لكن سماعه للسيرة صحيح. توفي سنة ٢٧٢هـ، أو ٢٧٧هـ (سور

أعلام النبلاء ٤٥٢/١٥، وتذهب التهذيب ٤٤١ - ٤٥٠، والتقريب ١٩/١).

(٦) ورد في النص: ارتفاعه، وهو تحريف. والمقصود: ما يرتفق به ويتنفع ويستمن (المعجم الوسيط، مادة:

رف.ق: ٣٧٥/١).

وكان تكين أمير مصر يُشيعه إذا خرج للحج، ويتلقاه إذا قدم. وكان يحمل إلى الحجاز جميع ما يحتاج إليه، ويفرق بالحرمين الذهب والفضة، والثياب والحلوى، والطيب والحبوب، ولا يفارق أهل الحجاز إلا وقد أغناهم. وقيل مرة - وهو بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: ما بات في هذه الليلة أحد بمكة والمدينة وأعمالهما إلا وهو شعبان من طعام أبي بكر الماذرائي.

ولما قدم الأمير (محمد بن طهج الإخشيد) إلى مصر، استتر منه؛ فإنه كان منعه من دخول مصر، وجمع العساكر لقتاله، فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل، وحارب بهم بعد موت تكين أمير مصر. ومرت به خطوب؛ لكثرة فتن مصر إذ ذاك، وأحرقت دورته ودور أهله ومجاوريه، وأخذت أمواله. واستتر، فقُبض على خليفته وعماله، فكتب إلى بغداد، يسأل إمارة مصر، وكتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك. فعاد الجواب بإمارة ابن تكين، وأن يكون الماذرائي يدبر أمر مصر، ويولى من شاء. فظهر عند ذلك من الاستتار، وأمر ونهى، ودبر أمر السبلد، وصار الجيش بأسره يغدو إلى بابه. فأنفق في جماعة، واصطنع قوماً، وقتل عدّة من أصحاب ابن تكين، وكان محمد بن تكين بالقدس، وأمر مصر كله للماذرائي بمفرده، ومعه (أحمد بن كيغلغ)، وقد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر، وولاية أبي بكر الماذرائي تدبير الأمور، فاستمال أبو بكر (أحمد بن كيغلغ)، حتى صار معه على ابن تكين، وحاربه، وكان من أمره ما كان إلى أن قدمت عساكر الإخشيد، فقام أبو بكر لمحاربتهم، ومنع الإخشيد من مصر، فكان الإخشيد غالباً له، ودخل البلد، فاستتر منه أبو بكر إلى أن دُلَّ عليه، فأخذه وسلمه إلى الفضل بن جعفر بن الفرات.

فلما صار إلى ابن الفرات، قال له: أيش هذا الاستيحاش والتستر، وأنت تعلم أن الحج قد أُظِّل ويحتاج لإقامة الحج؟ فقال له أبو بكر: إن كان إلى فخمسة عشر ألف دينار. فقال ابن الفرات: أيش خمسة عشر ألف دينار؟ قال: ما عندي غير هذا. فقال ابن الفرات: بهذا ضربت وجه السلطان بالسيف، ومنعت أمير البلد من الدخول. ثم صاح: يا شادن، خذْ إليك. فأقيم، وأدخل إلى بيت، وكان - يومئذ - صائماً، فامتنع من تناول الطعام والشراب، ولزم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته، وأصبح فامتنع ابن الفرات من الأكل؛ إجلالاً له. فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية، امتنع أبو بكر من الفطر، كما امتنع في الليلة الأولى، فامتنع ابن الفرات أيضاً من الأكل، وقال: لا أكل أبداً، أو يأكل أبو بكر. فلما بلغ ذلك أبا بكر، أكل. فأخذ ابن الفرات في مصادره، وقبض على ضياعه التي بالشام ومصر، وتبّع أسبابه^(١)، ثم خرج

(١) كل شيء يُتوصل به إلى غيره، ويقصد: عماله، ومساعديه. (اللسان، مادة: نس. ب. ب.) ح- ١٩١١/٣، والمعجم الوسيط ١/٤٢٧).

به معه إلى الشام، وعاد به إلى مصر، ثم خرج به ثانياً إلى الشام، فمات الفضل بن الفرات بالرملة، ورجع أبو بكر إلى مصر^(١)، فردَّ إليه الإخشيد أمور مصر كلها، وخلع على ابنه، وتقلد السيف، ولَبِسَ المِنْطَقَةَ^(٢)، ولبس أبو بكر الدُّرَاعَةَ^(٣)؛ تَنَزَّهًا. ثم تَنَكَّرَ عليه الإخشيد، وقبضه في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة، وجعله في دار، وأعد له فيها من الفرش والآلات، والأواني والملبوس، والطَّيْب والطرائف، وأنواع المأكَل والمشارب ما بلغ الغاية، وتفقَّدها بنفسه، وطافها كلها، فقيل له: عملتَ هذا كله محمد بن عليّ المادرائي؟! فقال: نعم، هذا ملك، وأردتُ ألاَّ يحتقر بشيئٍ لنا، ولا يحتاج أن يطلب حاجة إلاَّ وجدها، فإنه إن فقد عندنا شيئاً مما يريد، استدعى به من داره، فنسقط نحن من عينه عند ذلك. فلم يزل مُعْتَقَلاً، حتى خرج الإخشيد إلى لقاء أمير المؤمنين (المتقي لله)، فحمله معه.

ولما مات الإخشيد بدمشق، كان أبو بكر بمصر، فقام بأمر أونوجور بن الإخشيد، وقبض على (محمد بن مقاتل وزير الإخشيد)، وأمر ونهى، وصَرَّفَ الأمور إلى أن كانت واقعة غلبون، واتصال أبي بكر به. فلما عادت الإخشيدية، قُبِضَ على أبي بكر، ونُهبت دور، وأُحرق بعضها، وأُخذ ابنه، وقام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة.

ف عندما قدم كافور الإخشيدى من الشام بالعساكر، التي كانت مع الإخشيد، أطلق أبا بكر، وأكرمه، وردَّ إليه ضياعه، وضياع ابنه. فلما ماتت أم ولده، لحقه كافور، ومعه الأمير أونوجور عند المقابر، وترجَّلا له وعزَّياه، ثم ركبا معه، حتى صَلَّيَا عليها. فلما مرض مرض موته، عادته كافور مراراً، إلى أن مات في شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، فدفن بداره، ثم نُقِلَ إلى المقابر.

وكانت فضائله جَمَّةً، منها: أنه أقام أربعين سنة، يصوم الدهر كله، ويركب كُلَّ يومٍ إلى المقابر بُكَرَةً وعشية، فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده وأهله، فيقرأ عندهم، ويدعو لهم، وينصرف إلى المساجد في الصحراء، فيصلي بها والناس وقوف له، إلا أنه كان في غاية العَجَلَةِ، لا يُرَاجَع فيما يريد، ولو كان ما كان. ولما أراد المقتدر أن يقيم وزيراً، كُتِبَ رَقْعَةٌ فيها أسماء جماعة، وأنفذت إلى (علي بن عيسى)؛ ليشير بواحد منهم. وكان أبو بكر ممن كُتِبَ معهم اسمه، فكتب تحت كل اسم واحد منهم ما يستحقه من الوصف، وكتب تحت اسم أبي

(١) سبقت دراسة تواريخ ذلك تفصيلاً في دراسة منهج ابن زولاقي في (سيرة الإخشيد)، لكن الجديد - هنا - مصاحبة أبي بكر المادرائي له عند حروجه ودخوله الشام.

(٢) هي كل ما يُشدُّ على الوَسْط من حزام ونحوه (كالإزار في المرأة قديماً، ومن ذات النطاقين. (اللسان، مادة: ن.ط.ق) ح-٥/٤٤٦٢-٤٤٦٣، والمعجم الوسيط ٢/٩٦٨-٩٦٩).

(٣) هي ثوب من صوف، أو حَبَّة مشفوقة في المقدم. (اللسان، د.ر.ع) ٢/١٣٦١، والمعجم الوسيط ١/٢٩٠.

بكر (محمد بن علي الماذرائي): "مُتَرَفَ عَجُول". وبنى أبو بكر السقايات والمساحد في المَغَافِر، وفي يَحْصُب، وبنى وائل^(١). وليس لشيء منها اليوم أثر يُعرف. ومَرَّتْ له في هذا الكتاب أخبار. وقد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة، وهذا منها. والله أعلم^(٢).

ج- وكان قد سُمع في (سيرة الماذرائيين):

أنه عَمِلَ له هذا الإفطي^(٣)، وله في كل واحدة خمسة دنانير. ووقف أستاذ على السَّمَاط^(٤)، فقال لأحد الجلّساء: افطِنْ له. وكان عَمِلَ السَّمَاط عدة صُحُون من ذلك الجنس، لكن ما فيه الدنانير صَحَن واحد. فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله: افطن له، وأشار إلى الصحن، تناول ذلك الرجل منه، فأصاب الذهب، واعتمد عليه، فحصل له جملة، ورآه الناس، وهو إذا أكل يخرج من فمه، ويجمع بيده، ويَحْطُ في حِجْرِهِ، فتنبها له، وتزاحموا عليه، فقبل لذلك من يومئذ: افطن له^(٥).

د- قال ابن زولاق في كتاب (أخبار الماذرائيين كُتَاب مصر):

وحضر أبو الحسن وهب بن إسماعيل مجلس أبي بكر بن علي الماذرائي في المسجد الجامع، وهو يعقد الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة أمر بالنداء على صفقة، فخذها شركة بيني وبينك. فنودي على صفقة، فقال أبو بكر: اعقدوها على أبي الحسن. فقعدت عليه، وتحملها، فأفضلت له أربعين ألف دينار، فاستنض^(٦) عشرين ألف دينار، ولم يدر ما يعمل فيها إلى أن اجتمع مع أبي يعقوب كاتب أبي بكر؛ ليتحدثا. فقال أبو يعقوب: رأيتُ الشيخ، يعني: أبا بكر الماذرائي في اليوم مشغول القلب، أراد جمع مال، وقد عجز عنه. فقال له أبو الحسن: عندي نحو عشرين ألف دينار. فقال: جئني بها، فأنفذها إليه، وجاءه خطه بالمبلغ، فاتفق أن مضى أبو الحسن إلى أبي بكر الماذرائي، فقال له: تلك الصفقة قد غلقت ما عليها، وفضل أربعون ألف دينار، وقد حصل عندي عشرون ألف دينار، حملتها إلى أبي يعقوب، وأرسلت في استخراج الباقي، فاحمله. فقال الماذرائي: ما هذا العجز؟ إنما قلت لك: تكسب بيني وبينك؛ خوفاً من تفریطك، وإنما أردت

(١) الخطط ١٥٥/٢ - ١٥٧.

(٢) عبارة المقرئ.

(٣) نوع من الكعك والقرص، يُعمل بالنُسْتَق والسكر الأبيض المطيب بالمسك (الخطط ١/٣٣٢).

(٤) الصف من الرجال، أو ما يُنْذَرُ ليوَضَّعَ عليه الطعام في المأذِب ونحوها. والجمع: سَطَط، وأنْصِطَ: (اللسان - س.م.ط) ٢٠٩٤/٣. والمعجم الأوسط ١/٤٦٦.

(٥) الخطط، للمقرئ ج ١ ص ٣٣٢.

(٦) استنض الشيء: شبعه. يقال: يستنض الماء: يستنظفه. ويستنض حقه منه: يستنزهه، ويأخذ الشيء بعد الشيء.

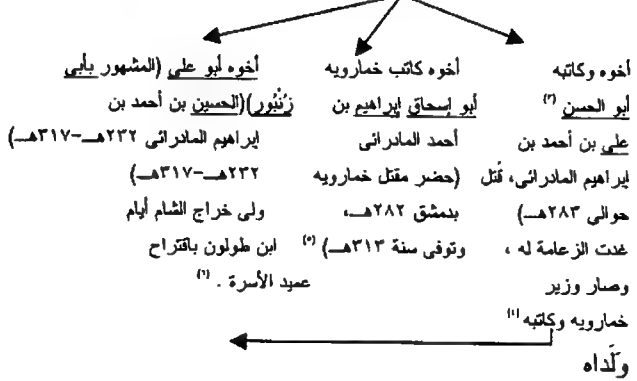
(اللسان، مادة: ن.ض.ض، ٤٤٥٥/٦ - ٤٤٥٦، والمعجم الوسيط ٢/٩٦٦).

(سيرة الماندانيين)

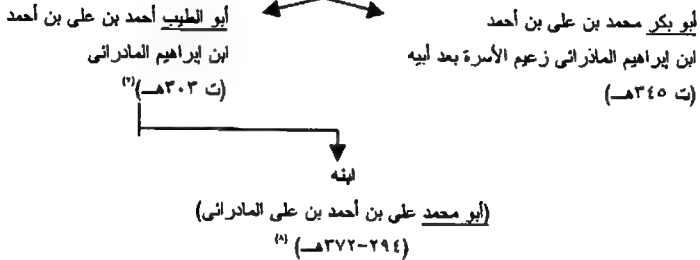
محمد بن أحمد بن إبراهيم^(١) بن أحمد بن الحسن بن رستم

أبو عبد الله المانداني الأطروش (ت ٣٢٢هـ)

عميد الأسرة . ولي خراج مصر من قبل المعتمد سنة ٢٦٦هـ^(٢)



(استقلتهما إلى مصر سنة ٢٧٢هـ)



• راجع دراسة د. سيدة كاشف عن هذه الأسرة في (مصر في عصر الإخشيديين) ص ٣٧-٥٢.

(١) سنده الخطيب في (تاريخ بغداد ٣٨٥/٤) : أحمد بن محمد بن إبراهيم . وسماه أحمد بن إبراهيم كل من : ابن الداية

في سيرته (ص ١٢٥) ، والبلوي ص ١٦١ .

(٢) المقفى للمقريزي ١٣٦/٥-١٣٨ .

(٣) المصدر السابق : ٤٦٧/٣ .

(٤) مخطوط تاريخ دمشق ٨٥٦/١١ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ١٣/٢١ ، والمقفى ١٣٧/٥-١٣٨ .

(٥) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٧/٤ ، والواق بالوفيات للصفدي ٣٠٦/٥ .

(٦) المقفى ٤٦٦/٣-٤٨١ .

(٧) الواق بالوفيات ١٨٦/٧ .

(٨) ذيل ابن النجار ٩٣/٣-٩٤ .

حفظ المال عليك. ثم أمر أبا يعقوب أن يرّد عليه ما دفعه إليه، وقال لأبي الحسن: رُدّ عليه خطّه، فقبض ما دفعه إلى أبي يعقوب^(١).

هـ— قرأت في كتاب (أخبار الماذرائيين) لأبي محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الفقيه المصري^(٢)، قال:

علّي بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن علي، أبو محمد. كان سرياً، له أملاك حسنة، ورثها عن أبيه. كتب الحديث عن. . . مولده سنة أربع وتسعين ومائتين، وتوفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة^(٣).

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة الماذرائيين) لابن زولاق:

أ— عرضت لنا هذه السيرة صورة مصغرة لما كانت عليه روح الجهاد ضد الروم في المجتمع المصري، وذلك من خلال الشيخ، الذي لا يملك إلا خريطته، وسيفه وعكازه، وهو طاعن في السن يسعى إلى الجهاد سعياً، فما كان من علي بن أحمد الماذرائي إلا أن زوده في الحال بما يعينه على الجهاد.

ب— رسم لنا ابن زولاق صورة للحياة الاقتصادية الناعمة، وروح الترف والإسراف الشديد في المآكل والمشرب والمآدب في عهد أبي بكر الماذرائي، ومن قبل في عهد (الحسين بن أحمد الماذرائي ت ٣١٧هـ). وأعتقد أن الرخاء يمكن أن يصدق على عهد الإخشيد. أما عصر ما بين الطولونيين والإخشيديين، فهو محل شك كبير؛ إذ لم تكن البلاد آمنة مستقرة، وبصعب في ظل جو التوترات والثورات، والزاعات أن تغطي البلاد بكل هذا الثراء (المبالغ في وصفه من جانب ابن زولاق). وكذا نلمح المبالغات الكبيرة في وصف صلاح أبي بكر الماذرائي وأمواله وممتلكاته، ومقدار صداقاته بما لا يصدق عاقل، وكذا المبالغة في وصف نفوذه.

ج— عرض لنا ابن زولاق الاختلافات حول نسب أبي بكر الماذرائي دون ترجيح.

د— اهتم ابن زولاق بذكر التواريخ الدقيقة الخاصة بأبي بكر الماذرائي (مولده مكاناً وزماناً، وسببته، وتاريخ استخلاف أبيه له، وتاريخ وفاته). وفي الوقت نفسه لم يذكر لنا تاريخ قدوم

(١) الخطط ٨٢/١.

(٢) في المصدر: (المصري)، وهو تحريف.

(٣) ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار ج ٩٣/٣-٩٤. ولعل هذا هو آخر أفراد تلك الأسرة في مصر، ولا ندرى عنه شيئاً إلا من خلال هذا المصدر. ويعد أبو بكر الماذرائي (ت ٣٤٥هـ)، هو آخرهم شهرة وجاهاً، ومؤلة، وتأثيراً في شئون الإدارة والمال في مصر.

مؤنس إلى مصر على الحسين بن أحمد المادرائي، ولعله اعتمد على شهرة صلة ذلك بحملة العبيدين الثانية على مصر (٣٠٧-٣٠٩هـ)، فلم يذكر تاريخه.

هـ- تعليل ما مر بأي بكر المادرائي من خطوط وعن بكثرة الفتن والثورات في مصر آنذاك، وكذلك قدرته على التعليل الواضح للأكفة المسماة (افطن له).

و- أعطانا ابن زولاق صورة حقيقية لمكانة أبي بكر المادرائي لدى الوزير الفضل بن جعفر، ثم لدى الإخشيد من خلال طريقة التعامل معه قبل مصادره، وعند التحفظ عليه والتوكيل به (حتى أفرج عنه، وأخرجه معه الإخشيد إلى لقاء الخليفة المتقي لله سنة ٣٣٣هـ، وتلك معلومة جديدة في هذا المجال).

ز- امتاز ابن زولاق بإيراد بعض الأخبار التي تفوق في دقتها ما ورد في (سيرة الإخشيد)، فقد ذكر هناك أنه لا يملك لنفقات الحج سوى خمسة آلاف دينار، وأن الإخشيد لما دخل مصر والياً تغافل عن أبي بكر المادرائي، حتى دخل الوزير الفضل، فكشف مكانه وصادره^(١). أما هنا، فالمبلغ هو ١٥ ألف دينار، وهو معقول بالنسبة لثراء أبي بكر المادرائي إلى حد ما، وإن لم يقنع الوزير الفضل بالطبع. وذكر - هنا - أن الإخشيد هو الذي كشف مكانه، وسلمه للوزير، وهو يتناسب مع تغيظه عليه؛ لما سببه له من مؤونة بتجميع الجيوش ونفقات الجند، واضطراره إلى خوض حرب، ولم يسمح له بدخول مصر مسلماً في هدوء.

ح- حظى أبو بكر المادرائي بجانب كبير من اهتمام ابن زولاق، فأفرد له كمأ هائلاً من المادة العلمية، وأطال في الترجمة له، بما يلائم مكانته ودوره الذي قام به، لكن هذا لم يدفعه إلى التحيز له، بل كان محايداً، فهو وإن بالغ في وصف غناه وصلاحه من وجهة نظرنا، ففي الوقت نفسه ذكر أخطر عيبه: الترف، والعجلة. وعلى كل، فلازلنا في حاجة إلى مزيد من الكشف عن بقايا هذا الكتاب؛ كي نتردد معرفتنا بتفاصيل الأدوار، التي لعبها أفراد هذه الأسرة الغدة في إدارة شئون مصر.

٤- بقايا (سيرة كافور) لابن زولاق:

أ- قال الحسن بن زولاق المصري المؤرخ:

"كان الشريف عبد الله بن أحمد الحسني^(٢)، وهو ابن طباطبا، يرسل إلى كافور في كل

(١) ص ١٦١.

(٢) ورد في (نهاية الأرب) ٥٨/٢٨: الحسين. وهذا تحريف. راجع ترجمته، ونسبه المنتهى إلى (الحسن بن علي)، وتبريقاً بنباته المنددة من سنة (٢٨٦-٣٤٨) ق: (المقفي ج ٤ ص ٤٤١-٤٤٢).

يوم جامي^(١) حلوى، ورغيفاً في منديل^(٢) محتوم، فخُوطب كافور في الرغبة، وقيل له: الحلوى حسن، فما تصنع بالرغيف؟! فأرسل إليه، قال: يُجربني الشريف الحلوى على العادة، ويُعفيني من الرغبة. فركب الشريف إليه، وقال: أيدك الله، أنا ما أنفذ الرغبة؛ تطاولاً ولا تعاضماً، وإنما هي صبية حسنة تمنعني بيدها وتُخزّيه، فأرسله على سبيل التبرك، فإذا كرهته قطعناه. فقال: لا والله، ولا يكون في قوتي سواء^(٣).

ب- قال ابن زولاق:

"ورأيتُ أبا جعفر مسلماً في جنازة عبد الله بن أحمد ماشياً بنعل من داره إلى المصلّى، ومشى أكثر الناس لمشيّه، وحضر كافور ومولاه^(٤)".

ج- قال ابن زولاق:

"أقام كافور الإخشيدي الأستاذ إحدى وعشرين سنة، وعشرين يوماً، يعني: أقام مدبر مملكة مصر من قبل ولدي أستاذه، وهما أونوجور، وعلى ابنا الإخشيد محمد بن طغج، وأقام هو فيها سنتين، وأربعة أشهر، وسبعة أيام ملكاً مستقلاً بنفسه^(٥)".

قال ابن زولاق: "وكان كافور ذليلاً كريماً".

قال: "ولما توفى كافور، اجتمع الأولياء وتعاهدوا ألا يختلفوا، وكتبوا بذلك كتاباً ساعة توفى كافور، وعقدوا الولاية لأحمد بن علي بن^(٦) الإخشيد، وكان - إذ ذاك - صبيّاً ابن إحدى عشرة سنة، وكافور بعد في داره لم يُدفن، ودُعي له على المنابر بمصر وأعمالها والشامات والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج. ثم عُقد للحسن بن عبيد الله المذكور على بنت عمه فاطمة بنت الإخشيد بوكيل، سيّره من الشام، وجعل التدبير بمصر - فيما يتعلق

(١) الحام: إياه للشراب والطعام من فطنة أو نخوها، وهي مؤنثة. وذكر في (اللسان): أنها عربية صحيحة. بينما جعلها (المعجم الوسيط) مؤنثة. وقد غلب استعمالها في قذح التراب. ويقال: صبّ عليه حامه، أي: غضب عليه، واستفزه. الجمع: حمامات، وخوم، وأحوام. (اللسان: ج.و.م، ١/٧٣١-٧٣٢، والمعجم الوسيط ١/١٥٤). وأثبتها الخفقي في الصر بالون (جامين). والصواب الحوى: حذف الون.

(٢) بالفتح والكسر: ما يُسح به. ويقال: تُسَدِّلْتُ. هو يسح من فطن أو حرير، أو نخوها مُرتّع الشكل، ويُسح به العرق، أو الماء. الجمع: مناديل. (اللسان: ن.د.ل، ٦/٤٣٨٤، والمعجم ٢/٩٤٨).

(٣) غاية الأرب ٥٧/٢٨-٥٨.

(٤) المقفى ٤/٤٤٨.

(٥) النجوم ١٠/٤.

(٦) سقطت كلمة (ابن) من الأصل.

بالأموال - إلى الوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات، وما يتعلق بالرجال والعساكر لسمول الإخشيدى صاحب الحَمَام بمصر. وكل ذلك كان في يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة^(١). انتهى كلام ابن زولاق رحمته^(٢).

ملاحظات على بقايا (سيرة كافور) لابن زولاق:

أ- يكشف النصان: الأول، والثاني عن العلاقة الحميمة بين كافور والشريف العلوى عبد الله بن أحمد الحسنى، ومدى ما كان يتمتع به هذا الرجل من ثراء. وهذه الصلات امتداد لصلات الإخشيد الوطيدة بهم من قبل. وفي النص الأول بيان لنوع الآنية التي كان يُهدى فيها هذا الشريف الخلسوى إلى كافور، وكذا ما يوضع فيه الرغبة، الذى تُخيز على يد ابنة الشريف غالباً في داره. وواضح أن اعتقاد بركة هؤلاء الأشراف كان مُحكَّ إرضائهم وقبول هداياهم.

ب- في النص الأخير: يذكر لنا ابن زولاق رأيه صراحة في كافور، فينتعه بالدين والكرم. وواضح دقة ابن زولاق في ذكر مدة وصاية كافور على ابنتي الإخشيد (باليوم، والشهر، والسنة)، وكذا مدة استبداده بالحكم من (وفاة على بن الإخشيد، حتى وفاة كافور نفسه).

ج- وأبرز ابن زولاق اهتمام القائمين بالأمر عَقِيبَ وفاة كافور بجمع الكلمة وتوحيد الشمل، وعدم التنازع (ربما خشية مقدم العبيدين)؛ ولذا نظّموا شئون البلاد يوم وفاة كافور، واختاروا (أحمد بن على بن الإخشيد) أميراً لمصر رغم حداثة؛ حفاظاً على وحدة الأسرة الإخشيدية. وفي الوقت نفسه جعل بعده ابن عم أبيه؛ لضمان استقرار الشام. ووطّدت الصلة به عن طريق عقده على ابنة عمه الإخشيد. واختير لشئون المال صاحب خيرة في هذا المجال (جعفر بن الفضل)، وفي شئون الحرب أحد قادة الإخشيد^(٣). وحرص ابن زولاق - في النهاية - على بيان توقيت إتمام ذلك كله، وأنه كان في غاية السرعة يوم وفاة كافور وقبل دفنه^(٤).

(١) النجوم الزاهرة: ١١/٤.

(٢) كلام صاحب (الحوم).

(٣) يُطلق عليه اسم (سمول الإخشيدى) بالسین في (الحوم) ١١/٤. وذكر ابن زولاق أنه كان (صاحب الحَمَام)، ولا أدري ماهية هذا المنصب، ولعله له صلة بمراعاة الآداب والأحلاق، وحفظ النظام، فربما كان فرعاً من الشُرَط. وورد بالشين في (وفيات الأعيان) ٣٧٦/١، وتكرر ذكره بالشين - دون ضبط (في اتعاط الحنفا، ط. دار الفكر)، ص ١٧٤، ١٧٩.

(٤) لكن الأمور لم تستقر في مصر؛ لسوء سيرة (الوزير جعفر بن الفضل)؛ إذ قام بالقبض على جماعة ومصادرهم، وهرب يعقوب بن كَلَس من بطشه إلى المعز، وتغيأت الظروف بعد احتلال النظام وثورة الجند بالوزير، فمضى جوهر بجيشه إلى مصر. (النجوم) ٢٢/٤.

٥- بقايا (سيرة جوهر)، لابن زولاق^(*):

أ- قال ابن زولاق:

" سألت أبا جعفر مسلماً^(١) عند رجوعه عن مقدار العسكر، فقال: هو مثل جمع عرفات كثرة وعدة، وسألته عن سن القائد جوهر، فقال: ثيف وخمسون سنة^(٢)."

ب- وقال ابن زولاق^(٣):

" ولما أصبح، أنفذ عليّ بن الوليد القاضي لعسكره، بين يديه أحمال مال، ومنادٍ ينادى: " من أراد الصدقة، فليصِرْ إلى دار أبي جعفر ".

فاجتمع خلق من المستورين، والفقراء، فصاروا بهم إلى الجامع العتيق^(٤)، ففرّق فيهم.

ولما كان يوم الجمعة - لعشر بقين من شعبان - نزل جوهر في عسكر إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، وخطب بهم هبة الله بن أحمد - خليفة عبد السميع بن عمر العباسي - بيباض. فلما بلغ إلى الدعاء، قرأه من رقعة، وهو: " اللهم، صلّ على عبدك ووليك، ثمرة النوبة، سليل العزة الهادية المهديّة، عبد الله الإمام معذّي أبي تميم المعزّ لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين. اللهم، ارفع درجته وأعلّ كلمته، وأوضح حجّته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته ومحبته، واجعل الرشاد في موافقته، وورثته مشارق الأرض ومغاربها، وأحمد مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٥). فقد امتعض لدينك، ولما انتبهك

(*) أعتمد أن هناك تدليلاً بين مادة (سيرة جوهر)، وكتاب (إنام أمراء مصر) لابن زولاق؛ إذ إن كليهما يتعرض لأحداث عهد جوهر، وإن كنت أعتمد أن ابن زولاق المؤرخ الخفيف لم يكرر نفسه، وكان حدثه عن جوهر في (سيرته) المخصصة له مفضلاً. وقد انقصرت في (بقايا سيرة جوهر) على ما نصه المقرئ صراحة على أنه لاس - زولاق، ثم ما التزم تحت هذا القول من مادة تاريخية، ننقل بأعمال جوهر في مصر. ورغم أن المقرئ في (اتعاظ الحفا) رتب أحداثه على السنين، ورغم أن الأحداث من (سنة ٣٥٨هـ إلى دخول المعز ٣٦٢هـ) يمكن أن تكون مقولة عن (سيرة جوهر) لاس زولاق، إلا أني لم أورد منها إلا ما صرح المقرئ بأنه من كلام ابن زولاق، خاصة أن احتمال نقله هذه الأحداث عن مصادر أخرى وارد، بل تحقّق بالفعل، عندما وازت بين أخبار حفر جوهر الخندق؛ استعداداً لصد هجوم القرامطة على مصر، التي أوردتها المقرئ في (الحفظ ٤٥٩/٢)، ونسبها إلى ابن زولاق، وبين ما بناطرها في (اتعاظ الحفا - ط. دار الفكر) ص ١٨٠، غير منسوب إليه، فوجدت اختلافاً بينهما.

(١) وردت النص غير مصونة (مسلم)، والصواب ما ذكر.

(٢) اتعاظ الحفا (ط. دار الفكر) ص ١٥٤.

(٣) المصدر السابق: ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٤) هو جامع عمرو بن العاص عليه.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

من حرمك، ودُرسَ من الجهاد في سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتك، وزيارة قبر رسولك ﷺ؛ فأعد للجهاد عُذَّتَه، وأخذ لكل خُطْب أُهْبَتَه، فسَيَّرَ الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال في طاعتك، وبذل المجهود في رضاك، فارتدع الجاهل، وقصُرَ المتطاول، وظهر الحق وزهق الباطل. فانصر - اللهم - جيوشه التي سَيَّرَهَا، وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين، وجهاد الملحددين، وللذب عن المسلمين، وعمارة الثغور والحُرْم وإزالة الظُّلْم والتُّهْم والتَّهْم، وبَسْط العدل في الأُمَم. اللهم، اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبية منصوره، وأصلح به وعلى يديه، واجعل لنا منك واقية^(١) عليه".

ج- وذكر ابن زولاق^(٢):

أن القائد جوهرًا لَمَّا اخْتَطَّ القاهرة، وكثر الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر، حفر خندق السريّ بن الحكم بباب مدينة مصر، وعمل عليه باباً في ذى القعدة سنة ستين وثلاثمائة، وحفر خندقاً في وسط مقبرة مصر، وهو الخندق الذي حفره ابن جَحْدَم. ابتداء حفره من بركة الْحَبَش، حتى وصله بخندق عبد الرحمن بن جَحْدَم، حتى بلغ به قبر (محمد بن إدريس الشافعي)، ثم حفر من الجبل إلى أن وصل لخندق ابن جحدم وسط المقابر. وبدأ به يوم السبت التاسع من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة، وفرغ منه في مدة يسيرة".

ملاحظات عامة على ما بقى من (سيرة جوهر) لابن زولاق:

أ- بدءاً من هذه السيرة يجب أن نلاحظ أن المؤرخ ابن زولاق يؤرخ لأحداث دولة العبيديين في مصر، منذ دخلها جوهر، وحتى قرب وفاة ابن زولاق نفسه (بدايات عهد الحاكم ٣٨٧هـ). وهو باعتباره شيعياً مناصراً للعبيديين، فهو مهتم جداً بتسجيل أخبارهم يوماً بيوم. والملاحظ أنه لم يشارك في استقبال جوهر عند قدومه إلى مصر، وهذا أمر طبيعي؛ لأنه لم يكن على رأس أعيان الأشراف العلويين^(٣)، ولم يكن في منزلة القاضي أبي طاهر الدُّهْلِي، فهؤلاء مثلوا وفد التفاوض نيابة عن شعب مصر، حتى حصلوا على أمان جوهر المشهور.

أما ابن زولاق، فهو من رجالهم. ولذلك سأل ابن زولاق واحداً من أبرز من كانوا في استقبال جوهر (الشريف أبا جعفر مسلماً) عن مدى كثرة، وكثافة جند جوهر، وعن سن ذلك

(١) وردت في النص (وامية)، والصحيح ما أثبتته، وأثبتته النويري في (نهاية الأرب ١٣٢/٢٨). وقد ساق النويري النص بطوله (ص ١٣١-١٣٢)، ولم ينسبه لا إلى مصدره الأصلي (ابن زولاق)، ولا إلى مصدره الوسيط (اتعاظ الحنفيا للمقريزي).

(٢) المخطوط ٤٥٩/٢.

(٣) منهم: الشريف مسلم بن عبيد الله، وإبراهيم بن أحمد الرُّسِّي (المقفى ٣٧/١ - ٣٨).

القائد، الذي يدخل مصر؛ ليحولها من المذهب السنّي إلى الشيعي^(١). وكانت الإجابة مثلجة صدره ولا شك؛ فالجند يشبهون كثافة وازدحام الحجيج يوم عرفة، والقائد ذو خبرة وحُكْمَة.

ب- اهتم ابن زولاق ببيان تفاصيل ما قام به جوهر يوماً بيوم، فذكر اهتمامه بتوزيع الصدقات على المحتاجين صبيحة غداة يوم وصوله إلى مصر، وكذلك اهتم بذكر نص الدعاء المطول، الذي قرئ من رقعة مكتوبة، وهو ما يعنى فرض توجهات الحكام الجدد منذ الأيام الأولى، التي وطئت أقدامهم فيها أرض مصر، ولم يكن خطيب الجمعة في المسجد العتيق موجوداً، فخطب بديله وألبسوه البياض شعارهم^(٢). وواضح من نص الدعاء أنه مملوء بالمغالطات. ولا شك أن ابن زولاق حرص على ذكره كاملاً، إيماناً بما فيه وإعجاباً، وتحيزاً لأصحابه.

ج- اهتم ابن زولاق بذكر تواريخ الأحداث (توقيت صلاة أول جمعة صلاها جوهر في مصر، وكذلك توقيت العمل في حفر الخندق؛ لمجابهة القرامطة، وإن لم يحدد - بالضبط - تاريخ الانتهاء من الحفر. ويلاحظ وعى ابن زولاق ببداية الخندق وخط سيره ومنتهاه؛ مما يدل على أنه يكتب عن معاناة ومشاهدة. وتلك ميزة يتميز بها عن غيره في وصف تلك الأحداث.

٦- بقايا (سيرة المعز لدين الله) لابن زولاق:

أ- "قال الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زولاق (رحمه الله)، ومن خطه نقلت: "حدثني أحمد بن جعفر قال: كان القائم بأمر الله عليه السلام يوماً في مجلس أبيه المهديّ جالساً بين يديه، وكان ابنه المنصور قائماً بين يديّ جدّه، فقال المهديّ لابن ابنه المنصور: ابني بابنك، (يعني: المعز لدين الله). فجاءت به دابته - وله سنة أو فوقها - فأخذته المهديّ في حجره وقبّله، وقال لابنه

(١) وهو تحول في التبعية من الخلافة العباسية إلى الدولة العبّيدية الوافدة من المغرب، تلك التي اتخذت التحول المذهبي أساساً لهذا التغيير.

(٢) سُمّي النبري الخطيب الأصلي للجامع العتيق (عبد السميع بن عمر العباسي). والصواب: عبد السميع بن عمر. وعلل النبري عدم خطبة هذا الخطيب بتغيّبه (نهاية الأرب ٢٨/١٣١). وهذا وقد أقدم العبّيدون على الأذان به (حتى على خير العمل) في مسجد ابن طولون يوم الجمعة ٨ من جمادى الأولى ٣٥٩ هـ. (الكامل ٧/٣٠٩-٣١٠، واتعاظ الحنفيا. دار الفكر ص ١٦٩). ثم أذن بعده في الجمعة التالية (١٥ من جمادى الأولى) بالجامع العتيق، وجُهر في الصلاة بالسملة. (نهاية الأرب للنبري ٢٨/١٣٣). قد أخطأ النبري لما جعل تاريخ تعديل الأذان في مسجد ابن طولون في ٨ من ربيع الآخر. وقد جعل المقرئ في (اتعاظ الحنفيا - ط. دار الفكر - ص ١٧٠) تعديل الأذان بالجامع العتيق ٢٦ من جمادى الأولى. وأعتقد أن المقرئ لم يكن دقيقاً لما جعل تعديل الأذان بالجامع العتيق في ذلك التاريخ؛ لأنه لا يوافق يوم جمعة، وما دام التعديل حدث في مسجد، فإنه يسرى مباشرة إلى المسجد الآخر في الجمعة التالية. وهذا غير وبذل العبّيدون في الشعائر تدريجياً.

لم أجمع من بقايا هذه السيرة إلا ما صرحت المصادر بنسبته إلى ابن زولاق في (سيرة المعز). ولذلك استبعدت الإشارة إلى (نهاية الأرب ٢٨/١٤٤) في وصف صلاة المعز عيد الفطر في مصر في شوال ٣٦٢ هـ؛ لأن النبري صُدّر الرواية به (قال ابن زولاق في تاريخ مصر) رغم أنها تتفق مع المادة المأخوذة من (سيرة المعز) في مصادر أخرى، ولعل النبري نقلها باختصار؛ ذلك أنه قال: إنما في (تاريخ مصر)، ولم يصرح أنها في (سيرة المعز)، -

القائم بأمر الله: يا أبا القاسم، ما على ظهر الأرض مجلس أشرف من هذا المجلس، اجتمع فيه أربعة أئمة، يعني المهدي نفسه، وابنه القائم، وابن ابنه المنصور، وابن ابن ابنه المعز لدين الله. وزادني أبو الفضل ريدان - (صاحب المظلة) - في هذا الخبر أن المهدي جمعهم في دُؤَاج^(١)، وقال: جمع رسول الله ﷺ معه ثلاثة أئمة في كساء سوى نفسه، وقد جمع هذا الدُؤَاج أربعة أئمة^(٢).

قال ابن زولاق^(٣): ولما وصل المعز إلى قصره بمصر في يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة^(٤)، خرّ ساجداً، ثم صلى ركعتين، وصلى بصلاته كل مَنْ دخل معه. واستقر في قصره بأولاده وحشمه، وخواص عبيده. والقصر - يومئذ - مشتمل على ما فيه من عَيْنٍ وَوَرَقٍ (ذهب، وفضة)، وجوهر وحُلِيٍّ، وفُرُشٍ وَأَوَانٍ، وثياب وسلاح، وأسفاط وأعدال^(٥)، وسروج ولُجُم^(٦). وبيت المال بحاله بما فيه، وفيه جميع ما يكون للملوك^(٧).

وخرج غَدَ هذا اليوم - وهو يوم الأربعاء - جماعة الأشراف والقضاة والعلماء والشهود،

- إمكانية حطته في النسبة للمصدر، ورغم احتمال تكرار الخبر في كلا المصدرين. كذلك استبعدت الرواية التالية لها، والمصدرة بـ (قال) العائلة على (ابن زولاق)، والتي تذكر عزل المعز جوهراً؛ لعدم تصريحه - كذلك - بنسبتها إلى (سيرة ابن زولاق). ولذا لا يصح ما ذكره عنان في (مؤرخي مصر الإسلامية) ص ٤١ من نسبة كتاب المعز المطول إلى الأعصم القرمطي إلى (سيرة المعز) لابن زولاق؛ لأن المقرئ لم ينسبه إليه (الانعاظ - طبعة الفكر - ص ٢٥١- ٢٦٥ ناقص الآخر، ويوجد هذا القسم الناقص في (ط. المجلس الأعلى) ص ٢٠٠- ٢٠٢). وبلاحظ - كذلك - أن النويري صَدَّرَه بقوله: (قال بعض المؤرخين). (نهاية الأرب ١٤٥/٢٨)، فلم أشِر إليه كذلك، ولم أعتبر الكتاب داخلاً في (سيرة المعز). وكذلك لا يصح ما ذكره عنان في (مؤرخي مصر الإسلامية) ص ٤٢ بشأن اعتبار ما ورد عن احتفال المعز يوم عرفة ٣٦٢هـ في مصر على أنه من (سيرة المعز)؛ لأن المقرئ لما أورد الخبر في (انعاظ الحنفا - ط. الفكر) ص ١٩٣، وفي (ط. المجلس) ص ١٤٠، التي صَوَّبَ د. الشبال أحد الألفاظ بها، لم يذكر أنه في (سيرة المعز).

(١) هو ضرب من الثياب، ويحسبه ابن دريد لفظاً غير عربي. داج يدوج دَوَاجاً. والدَّاجَة: ما صَفُرَ من الخواثج. والدُّؤَاج، والدُّؤَاج: مغطى غليظ (اللسان: مادة د.و.ج) ١٤٤٩/٢، والمعجم الوسيط ٣١٢/١.

(٢) انعاظ الحنفا (ط. الفكر) ص ١٨٧.

(٣) ألحقت هذا النص بـ (سيرة المعز)؛ لسياق الكلام قبله ومضمون الرواية، ولأن المقرئ نقل في الخطط هذه الرواية، وصَدَّرَهَا بقوله: (قال الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق في كتاب (سيرة المعز) ٣٨٥/١).

(٤) مأخوذة من (الخطط) ٣٨٥/١ عن (هيئة جلوس الخليفة لمجلس الملك). ووردت فيه، وفي (الانعاظ - ط. الفكر) ص ١٨٧: لسع. وهو تحريف. (راجع: وفيات الأعيان ٢٢٧/٥، وانعاظ الحنفا، ط. دار الفكر ص ١٨٦).

(٥) الأسفاط جمع سَفَط، وهو الرعاء يوضع فيه الطَّيْبُ ونحوه من أدوات النساء، أو هو من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الفاكهة ونحوها. (المعجم الوسيط، مادة: س.ف.ط) ج ١ ص ٤٥٠. الأعدال جمع عدل. ولعله يقصد الجواهر أو الغرارة التي هي عبارة عن وعاء من الخيش ونحوه، يوضع فيه القمح ونحوه. (المرجع السابق، مادة: ع.د.ل ج ٢ ص ٦٠٩، ومادة: غ.ر.ر. ج ٢ ص ٦٧٢).

(٦) سُرُوج: جمع سَرَج، وهو رَحْلُ الدابة. (السابق، مادة: س.ر.ج) ج ١ ص ٤٤١. للمجم: جمع لجام، وهو الحديدة في فم الفرس، ثم أطلق على الحديدة وما يتصل بها من سيور وآلة. (السابق، مادة: ل.ج.م) ج ٢ ص ٨٤٩.

(٧) انعاظ الحنفا - ط. الفكر - ١٨٧- ١٨٨، والخطط ٣٨٥/١.

ووجوه أهل البلد، وسائر الرعية؛ لتهنئة المعز.

ولعشر خَلَوْنَ من رمضان، أمر المعز بالكتاب على المشايخ في سائر مدينة مصر: "خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام". وأثبت اسم المعز لدين الله، واسم ابنه عبد الله الأمير. ووقع المعز بيده إلى (محمد بن الحسين بن مهذب) - صاحب بيت المال -: "تقدم يا محمد باتباع لنا ولمولايك عبد الله في كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس، ولا تُعرف الرسول؛ لئلا تقع محاباة ولا مساهمة، وكذلك حوائج المطبخ ^(١)".

وللنصف منه ^(٢) جلس المعز في قصره على السرير الذهب، الذي عمله جوهر ^(٣) في الإيوان ^(٤) الجديد، وأذن بدخول الأشراف أولاً، ثم بعدهم الأولياء، وسائر ^(٥) وجوه الناس، وجوهر قائم ^(٦) بين يديه، يقدم الناس قوماً بعد قوم، ثم مضى جوهر ^(٧)، وأقبل بهديته التي عبأها ^(٨) ظاهرة يراها الناس، وهي: من الخيل مائة وخمسون فرساً مسرجة ملجمة، منها مُدَهَّب، ومنها مرصع، ومنها مُعْتَبِر. وإحدى وثلاثون قبة على نوق بَخَاتِي ^(٩) بالدباج والمناطق والفُرُش، منها تسع بدباج مثقل، وتسع نوق مجنوبة ^(١٠) مزينة بمثقل. وثلاثة وثلاثون بغلاً، منها: سبعة مسرجة ملجمة. ومائة وثلاثون غلاً للثقل، وتسعون نجياً، وأربعة صناديق مشبكة يُرى ما فيها، وفيها أوان الذهب والفضة. ومائة سيف مُحَلَّى بالذهب والفضة، ودرجان من فضة مخزومة فيها جوهر، وشاشية مرصعة في غلاف، وتسعمائة ما بين سَفَط وتَخْت ^(١١)، فيها سائر ما أعدّه له ^(١٢) من ذخائر مصر ^(١٣).

وأذن المعز لابنه (عبد الله) في الجلوس في مجلسه، وحمل أبو جعفر مسلم بن عبيد الله

(١) اتعاط اختما - ط. الفكر - ١٨٨.

(٢) أي: من رمضان (الخطط ٣٨٥/١).

(٣) عبده القائد جهور (السابق).

(٤) الإوان، والإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفَّة واسعة، لما سقف بمحمول من الأمام على عُنْد، يجلس فيها كبار القوم. والجمع: أوان - وهي كلمة عربية. (المعجم الوسيط، مادة: أ.و.ن.) - ١ ص ٣٤.

(٥) ثم أذن بعدهم الأولياء وسائر (الخطط ٣٨٥/١).

(٦) وكان القائد جوهر قائماً (المصدر السابق: ٣٨٥/١).

(٧) القائد جوهر. (السابق: ٣٨٥/١).

(٨) عبأها (السابق).

(٩) التَخْت: الإبل الحراسية، مفردها: تَخْتٌ. والجمع: بَخَاتِي، وبَخَاتِي. ونخات. (المعجم الوسيط، مادة: ب.خ.ت.) - ١ ص ٤٢.

(١٠) أي: مُقَوَّدة (يقودها فارس). (لسان العرب، مادة: ح.ن.ب.) - ١ ص ٦٩١.

(١١) وعاء يُصان فيه الثياب. والجمع: تُخُوت. (المعجم الوسيط، مادة: ت.خ.ت.) - ١ ص ٨٦.

(١٢) ما أعدّه له (السابق).

(١٣) اتعاط اختما (ط. الفكر) ١٨٨ - ١٨٩، والخطط ٣٨٥/١.

الحسيني هديته، وهي: أحد عشر سَقَطاً من متاع ثَوْبَةٍ^(١)، وتَنيس ودمياط، وخيلاً وبغلاً، فقال: "كنتُ أشتَهي أن يلبس منها المعز لدين الله ثوباً، أو يتعمم بالعمامة التي فيها، فما عَمِلَ لخليفة - قط - مثلها". وأذن المعز لجماعة بالجلوس في مجلسه، وأطلق جماعة المعتقلين من الإخشيدية والكافورية، الذين اعتقلهم جوهر، وعَدَّهم نحو الألف.

وقال المعز للقاضي أبي طاهر: كم رأيت من خليفة؟ فقال: ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله (صلوات الله عليه). فاستحسن ذلك منه على البديهة، مع علم المعز أن أبا طاهر رأى المعتضد، والمكتفي، والمقتدر، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي، والمطيع. فشكره، وأعجب بقوله^(٢).

وركب المعز (لدين الله)^(٣) يوم الفطر - لصلاة العيد - إلى مصلى القاهرة^(٤)، التي بناها القائد جوهر. وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسيني قد بَكَرَ، وجلس في المصلى تحت القبة، ف جاء الخدم وأقاموه، وأقبلوا موضعه أبا جعفر مسلماً^(٥)، وأقبلوه (هو)^(٦) دونه. فكان^(٧) أبو جعفر مسلم خلف المعز عن يمينه وهو يصلي، وأقبل المعز في زيه وبنوده وقبايه، وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة، قرأ في الأولى بآم الكتاب، (هل أتاك حديث الفاشية)، ثم كَبَّرَ بعد القراءة وركع فأطال، وسجد فأطال. قال ابن زولاق^(٨): أنا سَبَحْتُ خلفه في كل ركعة، وفي كل سجدة نِيفاً وثلاثين تسبيحة. وكان القاضي النعمان بن محمد يُتْلَعُ عنه التكبير. وقرأ في الثانية بآم الكتاب، وسورة (الضحى)، ثم كَبَّرَ - أيضاً - بعد القراءة، وهي صلاة جده علي بن أبي طالب عليه السلام^(٩). وأطال - أيضاً - في الثانية الركوع والسجود، وأنا^(١٠) سَبَحْتُ خلفه نِيفاً وثلاثين تسبيحة في كل ركعة، وفي كل سجدة. وجهر بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل سورة، وأنكر جماعة^(١١) يتوسمون^(١٢) بالعلم قراءته قبل التكبير؛ لقله علمهم، وتقصيرهم في العلوم. (حدثنا محمد بن أحمد قال: حدثنا عمر بن

(١) جزيرة قرب تنيس ودمياط من فنوح عُمر بن وهب. يُضرب المثل بحسن نياها وطُرُزها. (معجم البلدان ٧٣/٢).

(٢) اتعاظ الحنفا (ط. الفكر) ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٣) زيادة في (الخطط) ٤٥١/١.

(٤) الجامع الأزهر.

(٥) هكذا بالنصب على الصحيح كما ورد في (الخطط ٤٥١/١) بخلاف إبقاء د. الشبال لما دون نصب (الاتعاظ - ط. الفكر) ص ١٩٠.

(٦) زيادة في (الخطط) ٤٥١/١.

(٧) في السابق ٤٥١/١: وكان.

(٨) زائدة هنا في (الاتعاظ، ط. دار الفكر) ص ١٩٠.

(٩) زيادة في (الخطط) ٤٥١/١.

(١٠) أنا (المصدر السابق: ٤٥١/١).

(١١) جماعات (الخطط) ٤٥١/١.

(١٢) هكذا في (السابق)، وهو الصواب. وردت في (اتعاظ الحنفا، ط. الفكر) ص ١٩٠: يتوسمون.

شسية، حدثنا عبد الله ورجاء، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليّ عليه السلام: أنه كان يقرأ في صلاة العيد قبل التكبير^(١).

فلما فرغ من الصلاة صعد المنبر، وسلم على الناس يمينا وشمالاً، ثم نشر البنددين^(٢) اللذين كانا على المنبر، فخطب وراءهما (على رسمه)^(٣)، وكان في أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل، فجلس عليها بين الخطبتين، واستفتح الخطبة بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، وكان معه على المنبر جوهر، وعمار بن جعفر، وشفيع (صاحب المظلة)، ثم قال: الله أكبر، الله أكبر، استفتح^(٤) بذلك، وخطب وأبلغ، وأبكى الناس، وكانت خطبته^(٥) بخضوع وخشوع.

فلما فرغ من خطبته انصرف في عسكره، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخوذ^(٦)، على الخيل بأحسن زى، وساروا بين يديه بالفيلين. فلما حصل في قصره، أحضر الناس، فأكلوا ونشطهم إلى الطعام، وعَبَّ على مَنْ تأخر، وتَهَدَّدَ مَنْ بلغه عنه صيامُ العيد^(٧).

ج- "ومن أحسن السياسات في النداء على النيل ما حكاها الفقيه ابن زولاق في "سيرة المعز لدين الله"^(٨).

"قال: وفي هذا الشهر - يعنى: شَوَّال - سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، منع المعز لدين الله من السنداء بزيادة النيل، وألا يُكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر. فلما تمَّ، أباح النداء، يعنى: لما تمَّ ست عشرة ذراعاً، وكُسِرَ الخليج"^(٩).

د- "قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله):

وفي ذى القعدة - يعنى من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهي السنة التي قدم فيها الخليفة المعز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب - ركب المعز لدين الله عليه السلام لكسر خليج القنطرة،

(١) زيادة - (الخطط) ٤٥١/١.

(٢) ستر بالسنتين (السابق)، وهو أصح.

(٣) زيادة في (السابق).

(٤) واستفتح (السابق).

(٥) خطبة (السابق).

(٦) بالذال في (الخطط). (السابق). جمع خَوْشَن، وهي الدَّرْع. (المعجم الوسيط، مادة: ج. و. ش. ن) ١٥٣/١. والخُودُ جمع خُودَة، وهي غطاء الرأس في الحرب (المرجع السابق، مادة: خ. و. ذ.) ٢٧٠/١.

(٧) اتعاط الخنفا (ط. الفكر) ص ١٩٠ - ١٩١، والخطط ٤٥١/١.

(٨) في (المصدر السابق) ٦٢/١: سورة العزيز لدين الله. وهذا خطأ ظاهر. وذكر المقرئ مضمونه بإيجاز دون نسبة إلى ابن زولاق (اتعاط الخنفا، ط. دار الفكر) ص ١٩١.

(٩) راجع تعليق المقرئ البدیع على فوائد إحصاء مقدار ارتفاع مياه النيل عن عوام الناس، وأن ذلك من حسن السياسة الاقتصادية (المصدر السابق: ص ١٩١). ورد في (الخطط) للمقرئ ج ١ ص ٩٥: أن ماء النيل إذا بلغ ارتفاعه أكثر من ست عشرة ذراعاً إصبعا واحداً، قالوا: كسر الخليج. يعنى: فُتِحَ الثَّرْع، ففاض الماء، وغمر الأراضي.

فكُسر بين يديه، ثم سار على شاطئ النيل، حتى بلغ إلى بين وائل، ومرَّ على سطح الجُرْف^(١) في موكب عظيم، وخلفه وجوه أهل الدولة، ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر، يسير معه، ويُعرفه بالمواضع التي يجتاز عليها. ونجعت له الرعاية بالدعاء. ثم عطف على بركة الحبش^(٢)، ثم على الصحراء، على الخندق الذي حفره القائد جوهر. ومر على قبر كافور، وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحسني، وعرق به، ثم عاد إلى قصره^(٣).

هـ- وقال ابن زولاق:

"وفي يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنين وستين وثلاثمائة، وهو يوم القدير، تَجَمَّع خلق من أهل مصر والمغاربة، ومن تبعهم للدعاء؛ لأنه يوم عيد؛ لأن رسول الله ﷺ عهد إلى أمير للمؤمنين علي بن أبي طالب فيه، واستخلفه. فأعجب المعز ذلك من فعلهم. وكان هذا أول ما عمل بمصر^(٤).

و- وقال ابن زولاق في كتاب (سيرة الإمام المعز لدين الله)، ومن خطه نقلت:

وفي هذا الشهر، يعني: المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة: تبسّطت المغاربة في نواحي القرافة والمغافر وما قاربها، فترلوا في الدور، وأخرجوا الناس من دورهم، ونقلوا السكان، وشرعوا في السكنى في المدينة، وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة. فخرج الناس، واستغاثوا بالمعز، فأمرهم أن يسكنوا نواحي عين شمس، وركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع، التي يتركون فيها، وأمرهم بمال ينون به، وهو الموضع الذي يُعرف - اليوم - بالخندق، والحفيرة، وخندق العبيد. وجعل لهم والياً، وقاضياً. ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر، ولم يكن القائد جوهر، يبيحهم سكنى المدينة، ولا البيت بها، وحظر ذلك عليهم، وكان مناديه ينادى كل عشية: لا يبيت أحد في المدينة من المغاربة^(٥).

ز- قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله):

في يوم عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين: قبر كلثوم، ونفيسة. ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالهم بالنيابة والبكاء على

(١) الجُرْف: شق الوادي إذا حفر الماء في أسفله. والجمع: أحراف، وجُرْفَة (المعجم الوسيط، مادة: ج. ر. ف) ج ١ - ص ١٢٣.

(٢) أرض منخفضة واسعة مشرفة على نيل مصر حنف القرافة، تُزرع فتكون حة خضراء، وهي من أعظم متزهات مصر. (معجم البلدان ١/٤٧٧).

(٣) الخطط ١/٤٧٠.

(٤) السابق ٣٨٩/١. وورد ذلك النص في (انعاط الحنفا، ط. دار الفكر) ص ١٩٤ - ١٩٥، مختصراً دون نسبة لابن زولاق.

(٥) الخطط ٢/١٣٨.

الحسين ^(١)، وكسروا أواني السقائين في الأسواق، وشققوا الرؤايا ^(٢)، وسبوا من ينفق في هذا اليوم، ونزلوا حتى مسجد الريح. وثار عليهم جماعة من رعية أسفل؛ فخرج أبو محمد الحسن ^(٣) بن عمار، وكان يسكن هناك في دار محمد بن أبي بكر، وأغلق الدرب، ومنع الفريقين، ورجع الجميع. فحسُنَ موقع ذلك عند المعز، ولولا ذلك لعظمت الفتنة؛ لأن الناس قد غنقوا الدكاكين وأبواب الدور، وعطلوا الأسواق، وإنما قويت أنفس الشيعة؛ بكون المعز بمصر، وقد كانت مصر لا تخلو منهم في أيام الإحتشيدية والكافورية في أيام عاشوراء عند قبر كلثوم، وقبر نفيسة. وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة، وتعلق السودان في الطرقات بالناس، يقولون للرجل: مَنْ خالك؟ فإن قال: معاوية، أكرموه. وإن سكت لقي المكره، وأخذت ثيابه وما معه، حتى كان كافور قد وكَّل بالصحراء، ومنع الناس من الخروج ^(٤).

ح- قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز)، ومن خطه نقلت:

"ولست عشرة بقيت من اخرم، يعني من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فقد المعز لدين الله الخراج، ووجوه الأموال، وسائر الأعمال في أرض مصر، أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلثوم الوزير، وعُشْنُوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلاً، قرئ يوم الجمعة على منبر جامع ابن طولون، فاستغضبا في الطلب واستخراج الأموال، فكان يُستخرج في اليوم ثيف وخمسون ألف دينار مِعْرِيَّة. وكان صرف الدينار المِعْرِيَّة خمسة عشر درهماً ونصفاً".

وحدثني عسلوج بن الحسن: أنه استخرج للمعز في يوم مائة وعشرين ألف دينار معزية.

وحدثني ابن السري كاتب عسلوج: "أنه حصَّل في يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين ^(٥) أكثر من مائتي ألف دينار، وعشرين ألف دينار، وهذا مما لم يسمع بمثله قط في بلد ^(٥)".

(١) الرؤايا: جمع الرواية، وهي المُرَادَة فيها الماء. ولعل المقصود: مرقوا قرب الماء. (المعجم الوسيط، مادة: ر.و.ي.)
ح ١ ص ٣٩٧.

(٢) ورد بلفظ حسين، وهو تحريف. (راجع: انعطاف الحفا - ط. المجلس - ح ٥/٢ - ص ١٣).

(٣) المصدر السابق (ط. المجلس): ٤٣٠/١ - ٤٣١.

(٤) سَآهَا يَأْفُوت (أشجود)، وهي مدينة قديمة عامرة بأهلها، وقصة كورة الأشجودين عرى النيل بصعيد مصر، ذات بساتين وخيل كثير. (معجم البلدان ١/٢٣٧ - ٢٣٨). ولعلها قرية من قرى مركز ملوى بمديرية أسبوط حديثاً.

(القاموس الحفراق) محمد رمزي، القسم الثاني، الجزء الرابع ص ٦٠.

(٥) الفضائل الباهرة ١٢٧ - ١٢٨. وردت هذه الرواية مما يقارب هذا في (الحفظ) ٢/٢٦٩، وإنجاز في (المصدر

ط- وقال ابن زولاق:

وفي هذه السنة - يعني سنة ثلاث وستين وثلاثمائة - منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة التَّوَرُّوز^(١) في السَّكَّك، وَمِنْ صَبِّ الماء يوم النوروز^(٢).

ي- قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله أبي تميم مَعْدَة):

ولأربع خلون من ذي القعدة - يعني ثلاثة وستين وثلاثمائة - وصل ابن النابلسي، وأبو المنجى، وابنه، وعشرون رجلاً من القرامطة، فطيف بهم على الإبل بالبرانس والقيود. وكان ابن النابلسي يَبْرُئ^(٣) مُقْبِداً على حمل، وخلفه رجل يحسكه، والناس يَسْتُونُه ويشتمونه، وَيَجْرُونَ برجله من فوق الحمل، واشتغلوا بسبه عن الذين كانوا معه. فلما فرغ التَّطَوُّاف ورَدُّوا إلى القصر، عُدل بأبي المنجى وابنه وَمَنْ مَعَهُمَا من القرامطة إلى الاعتقال، وعُدل بابن النابلسي^(٤) إلى المنظر؛ لِيُسَلِّخَ. فلما علم بذلك رمى نفسه عنى حجارة ليموت، فَرَدَّ وحُمِلَ على الحمل، فعاد ورمى نفسه، فَرَدَّ وشُدَّ، وأسرع به إلى المنظر، فسلخ وحشيتاً تبناً، ونُصِبَتْ جثته وجِلْدَه على الخشب عند المنظر^(٥).

ك- وقال (أى: ابن زولاق):

في سنة أربع وستين (أى: وثلاثمائة)، وفي يوم النوروز زاد اللعب بالماء، ووقود النيران، وطاف أهل الأسواق، وعملوا فيه، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السَّمَاجَات (القبايح) والخنثى في الأسواق، ثم أمر المعز بالنداء بالكف، وألا تُوقَد نَار، ولا يُصَبَّ ماء. وأخذ قوم، فطيف بهم على الجمال^(٦).

ل- قال ابن زولاق:

ولأربع خلون من صفر (أى: سنة ٣٦٥هـ) ورد حاج البر، وقد كان البر أقام سنين لم يُسلِّك^(٧).

(١) من المواسم الفارسية القديمة التي يُحتفل بها في بداية الربيع. وقد أضفه المسلمون حتى أعاده العباسيون ثانية. واحتفل في مصر بالنوروز القطي في عهد الفاطميين. (السائق: ٤٩٣/١). وورد في (المعجم الوسيط، مادة: نوروز) - ح ٢ - ص ١٠٠٠ - ١٠٠١: أنه يعرف بالنوروز في الفارسية بمعنى: اليوم الجديد. وهو أول يوم من أيام السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق الحادى والعشرين من مارس، وهو أكبر الأعياد القومية للفرس.

(٢) الخطط: ٢٦٨/١، ٤٩٣.

(٣) كل ثوب رأسه منه منزق به. والجمع: نراس. (المعجم الوسيط، مادة: ت. ر. ن. س.) - ح ١ - ص ٥٤٥.

(٤) هو أحمد بن سهل بن نصر، وأبو بكر الرُّمْلَى. يعرف بـ (ابن النابلسي). كان عبداً صالحاً عالماً زاهداً، سحبه بنو عُبيد وصلبوه؛ لدفاعه عن السنة، وتصريحه ببعضهم، وإعلانه أن قتالهم واجب. هرب من الرملة إلى دمشق، فقبض عليه، وأرسل إلى مصر. (معجم البلدان، مادة: نابلس) - ح ٥ - ص ٢٨٨ - ٢٨٩. (وبلاحظ قوله: قبض عليه وإلى دمشق أبو محمد الكنان صاحب العزيز. والصواب: أنه صاحب أبي تميم المعز).

(٥) المفقى ١٧٧/٥ - ١٧٨. (٦) الخطط ٢٦٨/١، ٤٩٣.

(٧) اتعاط الحفا (ط. المجلس الأعلى) ٢٢٧/١.

قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز):

وفي شهر صفر من سنة خمس وستين وثلاثمائة، أنشئ سوق الشرايين بالقاهرة^(١). وفيه (أى: في صفر من ذلك العام) حضر على بن النعمان القاضي جامع القاهرة، وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت، ويُعرف هذا المختصر بـ (الانتصار). وكان جمعاً عظيماً. وفي ربيع الآخر وردت رسالة القرامطة بأنهم في الطاعة.

وفيه أذن المعز لجماعة المصريين، فدخلوا عليه، وخاطبهم - وهو على سرير الملك - فصاح به رجل منهم: "يا أمير المؤمنين، قال الله ﷻ: "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"^(٢). يا أمير المؤمنين، لننظر كيف تعملون. قال: صدق الله، كذا قال ﷻ، ونسأل الله التوفيق.

واعستل المعز لثمان خلون من ربيع الأول، فأقام ثمانية وثلاثين يوماً، ووُصف له البطيخ البرلسي يؤخذ مائة، فطلب بمصر فلم يوجد سوى واحدة اشترت بخمسة دنانير، ثم وجد منها ثمان عشرة بطيخة، اشترت بثمانية عشر ديناراً. وكان الناس يُغدون إلى القصر ويروحون، والذي يُمرضه طبيبه (موسى بن العازار)، وعبيده جوهر.

فلما كان لأربع عشرة بقيت من ربيع الآخر، اشتدت العلة، وعُرف باجتماع الناس، وكثرة الرقاع في الظلمات والحوائج، وسئل فيمن ينظر في ذلك، فأمر أن ينظر فيه ولي عهده نزار فاستخلفه، وخرج للسلام إلى الناس، فانصرفوا.

وخسرج القائد جوهر وموسى بن العازار الطبيب بالعزير فأجلسوه، وخرج إليه إخوته وعمومته وسائر أهله فبايعوه، ثم أدخل إليه أكثر الأولياء، فبايعوه وسلموا عليه بالإمرة وولاية العهد، فابتهج الناس بذلك.

ودخل عليه من الغد القاضي أبو طاهر، وجماعة من الشهود والفقهاء، فسلموا عليه بولاية العهد، وقبّلوا له الأرض، فردّ عليهم أحسن ردّ، وأخبرهم بأن المعز بخير، قال: "مولانا - صلوات الله عليه - في كل عافية وسلامة في أحواله، وفي رأيه لكم". وانصرفوا.

(١) المخطوط ١٠٠/٢. سماها المقرئ بس (سوق الشرايين)، وذكر أنها أول سوق وضعت بالقاهرة، وكانت تعرف بس (سوق الشرايين)، وكانت تمتد من باب حارة الروم إلى سوق الخلاوين. ثم لما سكنه بعض بائعي الشواء حوالي سنة ٧٠٠هـ، عرف السوق بهم، وانتقل سوق الشرايين - زمن المقرئ - إلى خارج باب زويلة، وعُرف بس (البيطين).

(٢) سورة يونس: الآيات ١٣ - ١٤.

وكان يوم الجمعة، فدعا له عبد العزيز بن عمر العباسي على منبر الجامع العتيق بعد أن دعا للمعز، فقال: " اللهم، صلِّ على عبدك ووليِّك، ثمرة النبوة، ومعدن الفضل والإمامة، عبد الله معدَّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله، كما صليتَ على آبائه الطاهرين، وأسلافه المنتخبين من قبله. اللهم، أئنه على ما وليته، وأنجز له ما وعدته، وملِّكه مشارق الأرض ومغاربها، واشدّد - اللهم - أزره، وأعزّ نصره بالأمير نزار أبي المنصور ووليّ عهد المسلمين، ابن أمير المؤمنين، الذي جعلته القائم بدعوته، والقائم بمحتجه. اللهم، أصلح به العباد، ومهّدْ لديه البلاد، وأنجزْ له به ما وعدته، إنك لا تخلف الميعاد".

وتوفى المعز لدين الله عشية هذا اليوم ليلة السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر. وقيل: يوم الجمعة حادى عشر، وقيل: ثالث عشر. ولم يظهر ذلك، ولا نطق به أحد مدة ثمانية أشهر. وقيل: إن السيدة - لما اشتدت علة المعز - أحضرت القائد جوهر^(١)، وهو ملتفّ في بُرد من... وحضر يعقوب بن يوسف بن كلّس، وعُسْلُوج القائد، وأفلح الناشب، وطارق الصقلي، فقالوا للمعز: نريد أن تبصرنا رشدنا، وتعلمنا لمن الأمر. فلم يُجيبهم، فقال له جوهر: قد كنت سمعتُ منك قولاً في هذا، استغيتُ به عن إعادة السؤال، غير أنهم أكرهوني على الدخول. وقال لهم: قابلتموني بما لا يجب. وبكى، فخرجوا. فلما كان اليوم الثالث مات، فصار العزيز إذا رُفعت إليه الأمور يدخل كأنه يشاوره، ويخرج بالأمر.

— قال ابن زولاق:

وكان - يعنى المعز - في غاية الفضل والاستحقاق للإمامة، وحسن السياسة. وكان مولده سنة تسع عشرة وثلاثمائة، أدرك من أيام المهدي جدّ أبيه أربع سنين، وتوفى القائم، وللمعز ست عشرة سنة. واجتمع للمعز بمصر ما لم^(٢) يجتمع لآبائه، وذلك أنه حصل له بالمغرب أربعة وعشرون بيتاً من المال، منها: أربعة عشر خلفها المهدي، ولم يُخلف القائم عليها شيئاً، وخلف المنصور بيتاً واحداً وكسوة، وأضاف إليها المعز تسعة، فصارت أربعة وعشرين بيتاً، أنفق أكثرها على مصر إلى أن فتحت ودخلها، وحصل له من مال مصر أربعة بيوت سوى ما أنفق، وسوى ما قدم به معه. واجتمع له أن خلفاءه بمصر استخرجوا له ما لم يُستخرج لأحد بمصر، فاستخرج له في يوم واحد مائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار.

وهُزمت القرامطة في أيامه أربع مرار: مرتين في البر على باب مصر، ومرتين في

(١) وردت غير منصوبة في (اتعاظ الحنفا - ط. المجلس الأعلى): ٢٢٩/١، وهو خطأ نحوي.

(٢) وردت هكذا في (اتعاظ الحنفا، ط. المجلس الأعلى ٢٣٠/١). لا. هذا تحريف.

البحر، وما تم عليهم هذا قط، منذ ظهر أمرهم. وأقيمت له الدعوة يوم عرفة في مسجد إبراهيم الفقيه، وبمكة والمدينة، وسائر أعمال الحرمين، ولم تُرد له راية.

وسار ابن السمينق ملك الروم إلى رثان عبد المعز - وهو بطرابلس - فانهمز، وأخذت غنائمه، وأسر رجاله. وكتب اسمه على الطُرُز بتتيس، وديباط، والقيس، والبهنسي قبل أن يملك مصر. وتتابعت له الفتوح. ودُعي لفاطمة ولعلّ - عليهما السلام - في أيامه على المنابر في سائر أعماله، وفي كثير من أعمال العراق. وتُصبت الستائر على الكعبة وعليها اسمه. وتُصبت له الحارِب: الذهب، والفضة داخل الكعبة، وعليها اسمه. وكتبه أهل العراق، وأهل اليمن، وأهل خراسان، وأهل الحرمين، والترك بالخلافة.

وكان على التجهز للمسير للحج، ثم إلى قسطنطينية للجهاد. وكان مقامه بمصر سنتين، وسبعة أشهر، وعشرة أيام^(١).

قال مصنفه - رحمه الله عليه - : ليس الأمر كما قال ابن الأثير، فقد حكى الفقيه الفاضل المؤرخ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصري في كتابه: (سيرة المعز) - وقد وقفت عليها بخطه - رحمه الله - أخبار المعز منذ دخل مصر إلى أن مات يوماً يوماً، وأن المعز إنما عهد لابنه يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر قبل موته بيومين، وذكر أن سبب العهد إليه اجتماع الناس بباب القصر وكثرة الرقاق، وأنه سئل فيمن ينظر في ذلك، فأمر ابنه نزاراً العزيز أن ينظر فيه فاستخلفه. وقد ذكرت ملخص هذه السيرة فيما مر من أخبار المعز، وأن ابن زولاق أعرف بأحوال مصر من ابن الأثير خصوصاً المعز، فإنه كان حاضراً ذلك، ومشاهداً له، ومن يدخل إليه، ويُسلم مع الفقهاء عليه، ويروى في هذه السيرة أشياء بالمشاهدة، وأشياء مدّته بما ثقات الدولة وأكابرها، كما هو مذكور فيها، إلا أن ابن الأثير تبع مؤرخي العراق والشام فيما نقلوه. وغير خاف على مَنْ تَبَحَّر في علم الأخبار كثرة تحاملهم على الخلفاء الفاطميين، وشنيع قولهم فيهم. ومع ذلك، فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العالية، فكثيراً ما رأيتهم يحكون في تواريخهم عن أخبار مصر مالا يرتضيه جهازة العلماء، ويردّه الحذاق العالمون بأخبار مصر. وأهل كل قطر أعرف بأخباره، ومؤرخو مصر أدري بمآجرياتهم، وفوق كل ذي علم عليهم^(٢).

(١) انعاظ الحنفا (ط. المجلس الأعلى) ج ١ ص ٢٢٧ - ٢٣١.

(٢) هذا تعليق المقرئ (السابق: ٢٣٢/١). وعلق د. الشبال بالهامش بقوله: " هذه نظرية نقدية هامة للمؤلف - المقرئ - للمراجع التي أرخت للفاطميين ". راجع ما نقله ابن الأثير من روايات تشين المعز (الكامل) ج ٧ ص ٣٦٠ - ٣٦١.

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة المعز) لابن زولاق:

أ- يلاحظ أن بقايا كتاب (سيرة المعز لدين الله) لابن زولاق مؤرخ مصر كبيرة، ولا شك أن ما ضاع منها أكبر وأكبر. فمن طريقة عرضها يتضح أن صاحبها كان يؤرخ لعهد المعز يوماً بيوم، على حد تعبير المقرئ، وقد رأى الكتاب، ونقل عن خط مؤلفه ابن زولاق. والحق أنه كتاب ضاف، لكنني لا أعتقد أنه ألف بتكليف رسمي من جوهر^(١)؛ لأن إعجاب ابن زولاق بالدولة العبيدية، وبالمعز خاصة كما سنرى، وحاسته التاريخية تجعله يدرك أهمية استكمال التأريخ لعصره، خاصة إذا كان عهد المعز هو محور الانقلاب الحاصل في تاريخ مصر ومصائر^(٢). لقد أحسن ابن زولاق إعداد العدة، وكان على قرب من الأحداث، يسجل تاريخها عن كتب، وهو أعرف بأحوال بلده وعصره من غيره.

ب- من ملامح بقايا كتاب ابن زولاق نلمس نغمة الإعجاب والانبهار، التي يديها ابن زولاق به. ورغم أن المعز قدم لدولته خدمات جليلة (يكفيه أنه فُتحت مصر في عهده، واتسعت ممتلكاته شرقاً وغرباً)، إلا أن رواية ابن زولاق يؤخذ عليها شيء من المبالغة كقوله عن نبوءة المهدي بفتح المعز مصر، وأنه سيتم على يديه ما لم يتم على أيدي آبائه، وما ألح إليه المهدي - والمعز لا يزال في المهدي رضيعاً تحمله دابته - أنه سيكون خليفة، وأن الكساء الذي دخل تحته المهدي وأبناؤه، يفوق من دخلوا تحته من أدخلهم الرسول تحت كسائه.

ونلمح التجاوزات والمبالغات - أيضاً - في أرقام الخراج، وما استخرج من الأموال في أيام قليلة في عهد المعز، إلى جانب أن يقال: إن العزيز أخفى خير وفاة والده شهوراً طويلة، فذلك ما لا بد أن يكشف عنه، ولا سبيل لإخفائه تلك المدة الطويلة.

ج- يُحسب لابن زولاق اهتمامه بتحديد التواريخ بدقة، فكتابه أشبه باليوميات والمذكرات التاريخية، التي يسجلها صاحبها يومياً. وقد ساعده على ذلك معاصرته للأحداث وقربه من رجال الدولة ومشاركتها فيما يحكى لنا عنه (مثل: وصفه صلاة عيد الفطر للمعز، وقد كان حاضراً تلك الصلاة، حتى عدَّ خلف المعز نبياً وثلاثين تسبيحة في كل مرة من: ركوعه، وسجوده على مدار الركعتين).

د- كشفت بقايا هذا الكتاب عن عمق وتأصل اهتمام ابن زولاق بالنواحي الحضارية، كالمظاهر الاجتماعية ممثلة في المواكب والمراسم والاحتفالات، وتقاليد الجلوس في مجلس الملك،

(١) عنان: مؤرخو مصر الإسلامية ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣، ومقالة عنان في (ملحق جريدة السياسة اليومية) ص ٩ (تاريخ ١٧/٩/١٩٣٢م).

وبسروتوكولات وترتيبات المجلس في أثناء خطبة الجمعة للمعز، وفي الصلاة. لمست روايات الكتاب مقدار الثراء الفاحش الذي كان عليه القادة وحكام العبيدين من خلال استعراض هدايا المعز وجوهر المتبادلة. وكذلك تعرض مؤرخنا لبيان تطور العلاقات الاجتماعية بين الشعب المصرى من جهة، والخذ المغاربة الوافدين في جيوش جوهر والمعز من جهة أخرى، وما شابها من تغير وتطور دفع ثمنه عامة الناس من أموالهم وأعراضهم وديارهم ودمائهم. كما أبرز ابن زولاق أهم ما اتسمت به الدولة العبيدية في مصر من كثرة الأعياد والاحتفالات، وما يشوب ذلك من انحرافات جسيمة خطيرة، يضطر - مع تزايد معدلها والإغراق فيها - المعز إلى الحد منها، لكنها ما تلبث أن تعود كما (في الاحتفال بيوم عاشوراء على طريقة الشيعة المنحرفة، ويوم وليلة النيروز).

هـ- وكشف ما بقى من الكتاب عن محاولات المعز المجدية للحفاظ على قوة الدفع الاقتصادية، وعدم التسبب في ارتفاع الأسعار، أو الاحتكار من خلال كتمان مقدار ارتفاع مياه النيل.

و- وأخيراً، أعطانا صورة حية لما تبذله الدولة الشيعية في مصر من صبغ الحياة العلمية والدينية بالصبغة الشيعية الإسماعيلية، وذلك من خلال مجالس الدعوة، وما يملبه على بن النعمان سنة ٣٦٥هـ من مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت، وذلك من كتاب (الاقتصار)، في جامع القاهرة (الأزهر)، وفي حضور جمع عظيم من الناس (حضرُوا - في اعتقادي - عن جهل وبجاعة للأوضاع، أو رهبة ومدارة للحكام).

٧- وأخيراً، بقايا (سيرة العزيز بالله) لابن زولاق:

أ- "وحدث ابن زولاق في كتاب (سيرة العزيز) المتغلب على مصر، المنتسب إلى العلويين، من تصنيفه، حاكياً عن نفسه، قال: لما خلُع على الوزير يعقوب بن كِلْس، وكان يهودياً فأسلم، وكان مكيناً من العزيز. فلما أسلم، قلَّده وزارته، وخلع عليه.

قال ابن زولاق: وكنتُ حاضراً مجلسه، فقُلْتُ: أيها الوزيرُ، روى الأعمش، عن زيد ابن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: حدثني الصادق رسول الله ﷺ: " أن الشقيَّ مَنْ شَقِيَ في بطن أمه، والسعيدُ مَنْ سَعِدَ في بطن أمه ". وهذا غلو سَمَوَى. فقال الوزير: ليس الأمرُ كذلك، وإنما أفعالي وتوفيراتي وكفائتي، ونيابتي وثبتي وحرصى، الذى كان يُهَجِّى ويُعاب. وقد مات قوم ممن كان وبقي قوم. وكان هذا القول بمحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل، الذى خرج من العزيز في ذكر تشريفه. قال ابن زولاق: فأمسكتُ، وقلْتُ: وفق الله الأمير، إنما رَوَيْتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً. وقمتُ، وخرجتُ وهو ينظر إلى.

وانصرف الوزير إلى داره بما حباه العزيز به. قال: فحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسيني الزيني قال: عاتبني الوزير على ما تكلم به، وقلت: إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه، وما أراد إلا الخير. فقال لي: خفي عنك، إنما هذا مثل قول المتنبي:

وَلله سِرٌّ في عَمَلِك وإِنَّمَا كَلَامُ الْعَبْدِي ^(١) ضَرْبٌ مِنَ الْهَذْيَانِ

وأجمع الناس على أن ذلك هَجْوٌ في كافور؛ لأنه أعلمه أنه تقدم بغير سبب. وابن زولاق هجان على لسان صاحب الشريعة رحمه الله، فما أمكنني السكوت. وكان في نفسي شيء، فجعلت كلامه سبباً. قال أبو عبد الله الزيني: فأشهد أن الوزير لم ينقض يومه، حتى تكلم بمثل كلامي، الذي أوردته عن النبي ﷺ، وذلك أن رجلاً عرض عليه رقعة، فقال: كم رِقَاع، كم جَرَصٍ هو ذا الرجل، يطوف البلدان، ويتقلب في الدول، ويسافر فلا ينجح، وآخر يأتيه أمْلُهُ عَفْواً، قد فرغ الله من الأرزاق والآجال والمراتب، ومن الشقاوة والسعادة. ثم التفت إليّ وضحك، وقطع كلامه. قال ابن زولاق: وكنت هتأت ابن رشيقي بهذه التهنية، في مجلس عظيم حفل، حين جاءته الخلع من بغداد، والتقليد والبسوة. ورويت له هذا الخبر، فبكي وشكر، وحسنت على ذلك أكثر الحاضرين، وكافأني عليه أحسن مكافأة ^(٢).

ب- قال شيخنا المقرئ (عليه رحمة الله تعالى): وقد عاينت أنا في (سيرة العزيز بالله): أن حسين بن القاسم، وعلي بن عمر بن العدا، وعبد الله بن خلف الرصدي استخرجوا له في ثلاثة أيام مائتي ألف دينار، وعشرين ألفاً عزيزية، منها: أول يوم أربعة وستون ألفاً، والباقي في يومين، وذلك في سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، بعد قبضه على وزيره (يعقوب بن كلس) ^(٣).

ملاحظات عامة على (بقايا سيرة العزيز) لابن زولاق:

أ- من الملاحظ أن صاحب (معجم الأدياء) ممن لا يعرفون بنسب العبيدين المدعى، ولا بخلافاتهم المزعومة؛ بدليل قوله في التقديم للنص، الذي اقتبسه والذي احتفظ لنا به من (سيرة العزيز)، بأنه المتقلب على مصر، المنتسب إلى العلويين. نأتي بعد هذه الملاحظة المبدئية إلى النص الأول الذي بقى من تلك السيرة، وهو يدور حول الحوار بين ابن زولاق المؤلف المؤرخ، ووزير العزيز ابن كلس، الذي منحه العزيز خلعاً وتشريفه، وصدر بذلك سجل قرئ على رجال الدولة والمقرئين، وكان من الحضور ابن زولاق. وقد حاول ابن زولاق تهنته ابن كلس بهذا الشرف العظيم، الذي

(١) أي: الأعداء (مادة: ع. د. و). (المعجم الوسيط ٢/ ٦١٠).

(٢) معجم الأدياء ٧/ ٢٢٢ - ٢٣٠.

(٣) الفضائل الباهرة لابن ظهيرة ١٢٨.

أحلّه منه العزيز، وذكر له أن هذا دليل رضا الله عنه، لكن ابن كلس زعم أن ذلك بمجهوده واجتهاده وحرصه. فسكت ابن زولاق عن مواصلة الكلام وانصرف. وقد حاول أحد العلويين الحاضرين الدفاع عن ابن زولاق، لكن ابن كلس كان يحمل في نفسه ضغناً وكرهية - لم يذكر سببها - تجاه ابن زولاق، فتعمد أن يرد عليه هذا الرد الجاف؛ إخراجاً له، رغم أنه يعلم صدق نيته وقصده. ثم تبين الرواية أن ابن كلس - أثناء نظره في رقايع الناس المرفوعة إليه - ردّد نفس مقولة ابن زولاق بأن المقادير أحكمت، والأرزاق والأجّال لا حيلة للمرء فيها. وكذا الشقاوة والسعادة، ومهما بذل الإنسان فهو ميسّر لما خلق له. وبعدها حدثنا ابن زولاق أنه سبق أن هتأ بالطريقة نفسها رجلاً يدعى ابن رشيقي - يبدو أن له مكانة ومثولة، لكننا لا نعرفه - فبكى فرحاً وشكراً بتهنئته أنه من أهل السعادة لا الشقاوة، وكافأه أحسن مكافأة، حتى حسده الحاضرون.

ب- يلاحظ على النص المتقدم بعد أن شرحناه، أنه لا يهتم بذكر تاريخ منح هذه الخلع لابن كلس، ولم يتوسع في تفاصيل ونص سجل تشريفه، ومراسم واحتفالات مثل هذا اليوم، كما أن ابن زولاق استطرد فيه استطراداً معيياً، فلم نر من خير يتعلق بالعزيز في هذا النص المطول، سوى سجله الذي أمر فيه بالخلع على ابن كلس، وبعد ذلك أطلال مؤرخنا في الحديث عما دار بينه وبين الوزير، وبين الشريف العلوي والوزير بخصوصه، ثم ما منحه إياه ابن رشيقي من عطاء ومكافأة حسنة.

ج- أما نص (الفضائل الباهرة)، فأعتقد أن ابن زولاق جنح فيه إلى المبالغة حول هذا الكم الضخم من الأموال، التي جمعت للعزيز في ثلاثة أيام فقط. وقد حدد تاريخ ذلك، لكنه جعله أثناء القبض على الوزير ابن كلس. ونعتقد أنه منافع للحقائق التاريخية، التي تذكر أن الأمور اضطربت لما عزله، فاضطر لإعادته^(١).

ملاحظة أخيرة:

نسب ريبيرا نصاً لابن زولاق يعود إلى عهد الحاكم بأمر الله، وفيه يعمل الحاكم الحيلة ضد السراق والمجرمين؛ لقمعهم عن الجريمة وردّ ما سرقوا، وإيأهم الناس بمعرفته الغيب، وإحضاره ما يفقده الناس^(٢). والحق أن المؤلف لم يذكر مصدر هذا الكلام، ولم يعلق المترجم عليه. ومعلوم أن ابن زولاق توفي أوائل عهد الحاكم، وأنه لم يؤثر عنه كتابة (سيرة الحاكم بأمر الله)، كما أن

(١) ليس صحيحاً أن ابن كلس كان مقبوضاً عليه سنة ٣٧٤هـ كما يذكر ابن زولاق، إنما قبض عليه مدة شهرين سنة ٣٧٣هـ، ثم أعيد إلى منصبه بعد التدهور الحادث. ولعل ابن زولاق ذكر استرجاع كل هذه الأموال عند غياب الوزير؛ لما في قلبه عليه مما دار بينهما من حوار تعرضنا له منذ قليل.

(٢) التربة الإسلامية ص ٢٦١ (ترجمة د. الطاهي مكي).

هذه الفعلة للحاكم لا تكون إلا بعد بزوغ شخصيته، وسيطرته على مقاليد الأمور، وذلك لا يكون قبل مقتل (برجوان) سنة ٣٩٠هـ، بينما مات زولاق ٣٨٧هـ. وقد بحث - قدر الطوق - عن هذا النص في المصادر المختلفة، حتى وقفت عليه في كتاب لابن زولاق^(١).

وهكذا يمكن القول: إن ابن زولاق المؤرخ المصري من أوائل الذين آثروا التخصيص على التعميم في مؤلفاتهم، واقتصر نشاطهم على تاريخ بلدهم ورجاله. وقد أتم بكتبه جهود سابقيه، وكانت مشاهداته وتحقيقاته أعظم مصادره. واستطاع التخلص من قيود الإسناد إلا إذا نقل عن مسود مهم موثوق به، وتحررت لغة التأريخ على يديه وانطلقت. وتشيعه لم يَحْنِ على مجهوده ونساجه التاريخي، فروايته جديرة بالاعتماد والثقة، بل هي أنفس ما لدينا من وثائق العصر ومؤلفاته^(٢).

(ثانياً، وأخيراً - وماذا عن كتب السير التاريخية)

(للحكام وللعلماء في الأندلس؟)

بعد هذه المرحلة الشاقة الطويلة من التحوال والتطواف في ربوع الكتابات المصرية من (سير الحكام، والعلماء) المطبوع منها والمفقود، آن الأوان لننتقل إلى الشق الثاني من هذا الموضوع، وهو كتب السير التاريخية في الأندلس في القرن الرابع الهجري؛ كي تتم دراستها، ومقارنتها بمثلتها في مصر.

والحق أنني لم أظفر - للأسف الشديد، رغم البحث والتقصي والسؤال - بسيرة واحدة كاملة، سواء مطبوعة، أم مخطوطة، أم ببقايا سيرة مفقودة، كتبها مؤرخو الأندلس في القرن الرابع الهجري موضع البحث والدراسة، وذلك على مستوى الحكام، أو العلماء، أو حتى العُباد. وكل ما وجدته تُنف من إشارات يسيرة جداً لبعض مؤرخين، لا نعرف عن معظمهم سوى الاسم والنسب غالباً، واسم كتاب يمكن أن يندرج تحت كتب السير التاريخية؛ مما لا يشفى الغُلة، ولا يعطى فكرة ما عن صاحب الكتاب، ناهيك عن عدم وجود قِطْع من هذه المؤلفات التاريخية المفقودة - اللهم إلا اليسير جداً - يمكن أن تُجمَع وتُدرس على نحو ما فعلنا مع مؤرخي مدرسة مصر التاريخية.

(١) وهو مخطوط (تاريخ مصر وفنائها على التمام) ورقة ٥٤ (نسخة المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨٧١). والحق أن هذا المخطوط قد أضيف إليه صفحات تعود إلى فترات تاريخية متأخرة عن وفاة ابن زولاق، ومنها هذا النص.

(٢) مؤرخو مصر الإسلامية، لعنان ص ٤٧-٤٨.

وهاكم كل ما وقعت عليه يدي من مادة:

أولاً - (في السير التاريخية للحكام):

أ- حسين بن عاصم*: وهو من أهل العلم والأدب. له كتاب (المآثر العامرية) في: سير المنصور بن أبي عامر، وغزواته، وأوقاتها^(١).

ب- محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي: له تاريخ في الدولة العامرية^(٢).

ج- عبد الرحمن بن محمد بن المشاط الرُعَيْني (ت ٣٩٧هـ): قلده المنصور (التاريخ)، فكان صاحب (الظلم)، وجمع للمنصور تاريخه في كتاب، سَمَّاه (الباهر). وقد نُهب هذا الكتاب في نكبة آل عامر^(٣).

ثانياً - (في سير العلماء):

أ- عبد الله بن الخليفة الناصر* (ت ٣٣٩هـ):

كان هذا الأمير الأندلسي عالماً، فقيهاً شافعيًا، مؤرخاً. ومن مولفاته التي يمكن أن تدخل في مجال (سير العلماء): مجلد (مناقب بَقِيَّ بن مَخْلَد ت ٢٧٦هـ)، رواه عنه (مسلمة ابن قاسم)^(٤). وفي مصدر آخر ورد أن هذا الكتاب يُعرف بـ (المُسَكَّنَة)، وأنه مكون من ستة أحزاء^(٥). ولا أدري معنى هذا الاسم الأخير، ولا المقصود به. ولعله يدافع فيه عن الفقيه الشافعي الأندلسي أمام تيار المالكية الجارف في بلاده. أما أجزاءه الستة، فلعلها صغيرة، وتُمثل في مجموعها المجلد المذكور آنفاً.

* يلاحظ التفريق بين هذا المؤرخ الذي عاصر (المنصور بن أبي عامر ت ٣٩٢هـ)، وآخر بالاسم نفسه، وإن كان نسبه كاملاً، وولى السوق أيام الأمير محمد، وتوفي في صدر أيامه، كما يذكر ابن الغرضي خطأ (وسوف أناقش ذلك عند دراسة كتابه في الباب التالي). المهم أنهما شخصيتان مختلفتان.

(١) هذه أَوْفَى ترجمة له حتى الآن (الصلة، ط. الحسين) لابن بشكوال ١ ص ١٤٠. وله ترجمة مختصرة في: (الخنوة ٣٠٠/١)، والبغية ٢٦٦، وتكملة الصلة - ط. الحسين - لابن الأبار ٢٧٢/١، والفتح ١٧٤/٣.

(٢) تكملة الصلة - ط. الحسين - ٣٨٤/١.

(٣) ترتيب المدارك ٦٧٩/٤/٢، وتكملة الصلة - ط. الحسين - ٢٩٦/١ - ٢٩٧، وكتاب بونس بوميس عن المؤرخين في الأندلس بالإسبانية ص ٩٨ (عن ترجمة خاصة إلى العربية بخط الدكتور عبد الله جمال الدين).

* له ترجمة في: البغية ص ٣٤٦ - ٣٤٧، ٣٥٠، والمغرب (قسم الأندلس) ١٨٦/١، وتاريخ ابن خلدون ١٨٤/٤، والنجوم ٣٤٦/٣.

(٤) تاريخ الإسلام ٤٥/٢٥، والنجوم ٣٤٦/٣.

(٥) تكملة كتاب الصلة لابن الأبار (ط. الحسين) ٧٨٠/٢. وحديث بالذكر أن له كتاباً في أخبار بني العباس سَمَّاه (العليل، والقيل).

هذا، وقد احتفظ لنا ابن الأثير بجزء يسير من هذا الكتاب، أورده فيما يلي:

١- عيسى بن قُطَيْس بن أَصْبَغ بن عيسى بن قُطَيْس الوزير: المكِّي (أبا الأصْبَغ). له رواية عن (أحمد بن بَقِيّ بن مخلد). ذكر ذلك أبو محمد (عبد الله بن الناصر) في (المسكنة)^(١).

٢- ترجمة لأحد المحدثين - فيما يبدو، وبها سقط - الموجود منها: ويكنى بأبي عون. ولم يذكر اسمه. له رحلة إلى صنعاء اليمن. وقع ذكره في (المسكنة) من تأليف الأمير عبد الله بن الناصر عبد الرحمن في (فضائل بقي بن مخلد)^(٢).

٣- أم الحسن بنت أبي لواء سليمان بن أصْبَغ بن عبد الله بن وانسوس بن يَرْبُوع المكناسي، مولى سليمان بن عبد الملك. روت عن (بقي بن مخلد). سمعت منه، وصحبه، وقرأت عليه بلفظها كتاب (الدهور)، وحضر ذلك ابنه (أبو القاسم أحمد بن بَقِيّ)، وهو يحسب عليها كتاب الشيخ. قال الأمير عبد الله ابن الناصر عبد الرحمن بن محمد في (المسكنة): "كانت الزاهدة ابنة أبي لواء تسمع في داخل دار أبي عبد الرحمن (بَقِيّ بن مخلد) منه يوماً في الجمعة، منفردة بدولتها، يعني: بقي بن مخلد. ولها رحلة حَجَّتْ فيها، وكانت امرأة صالحة زاهدة فاضلة عاقلة، وقع ذكرها في كتاب (فضائل بقي بن مخلد).

وذكرها الرازي، وقال: حَجَّتْ وسمعت الفقه والحديث. وقد سمع منها بقي بن مخلد، ثم حَجَّتْ حجة ثانية، فتوفيت بمكة، ودُفنت هنالك. هكذا قال. وسماع بقي منها غلط في ظني. والصحيح سماعها منه^(٣).

ب- محمد بن يحيى بن أحمد (ابن الحذاء القرطبي):

ولد سنة ٣٤٧هـ، وطلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة (٣٦٢هـ). له كتاب (الخطب، وسير الخطباء) في سفينتين. توفي سنة ٤١٦هـ^(٤).

(١) تكملة كتاب الصلة: (ط. مدريد ١٩١٥م): ص ٢٣٨ (وذكر اسم الكتاب بالنون، وهو تصحيف، وسيرد في النص التالي بالتاء، وهو الصواب).

(٢) السابق: ٢٦٦.

(٣) تكملة كتاب الصلة (ط. مدريد): ٤٠١-٤٠٢، وورد بعد ذلك أن (عبد الله) جد أبيها كان خيراً فاضلاً، وله رحلة حج فيها، وبجأ إليه بشر كثير يوم هُجِر الرِّض في عهد الحكيم بن هشام ١٨٠-٢٠٦هـ، فأغلق عليهم باب مسجده وكان يوم جمعة، وكب إلى الحكم في تأمينهم، فأجابهم، وسكن رَوْعَتهم. وأرجع أن هذا من كلام ابن الأثير.

(٤) الصلة (ط. الحسيني): ج ٢ ص ٤٧٨-٤٨٠.

ملاحظات عامة:

١- من الملاحظ أن كتب السير التاريخية في الأندلس سارت في مسارين^(١) شبيهين، بمسار نظائرها في مدرسة مصر التاريخية، وأن ما بقي من أسماء سير الحكام في الأندلس منحصر في سيرة (المنصور بن أبي عامر) مع التركيز على غزواته، كما في كتاب (حسين بن عاصم). أما في كتاب ابن معمر اللغوي في تاريخ الدولة العامية، فالظاهر أنه شمل سير ولدنيه بعده، وإن كنا نتوقع أن يُكتب معظم ما فيه عن المنصور بحكم طول فترة حكمه، وكثرة أحداث عصره، ومنجزاته بالقياس إلى ولدنيه من بعده، خاصة ابنه (عبد الرحمن)، الذي لم يصنع شيئاً قط، وتُسبب في هدم دولتهم، وانحيار خلافة بني أمية. وبالنسبة لابن المشاط الرعي، فلعل المنصور استحدث منصب صاحب (النظم)، وجعل للمؤرخين مكانة سامية في دولته، ونتوقع أن يكون كتابه عن (المنصور) جُمع بأمر منه، وامتلاً بأخبار عجائب انتصاراته الباهرة، فهو كتاب أقرب إلى المديح والمبالغة منه إلى التاريخ المحاييد.

٢- وبخصوص كتابي (عبد الله بن الناصر)، و(ابن الحذاء)، فهما يمثلان النوع الثاني من كتب (السير التاريخية) بالأندلس. وقد كتب أولهما كتابه بدافع حبه وتقديره لواحد من أعظم فقهاء ومحدثي الشافعية في الأندلس. والمادة العلمية المتبقية منه لا تتناول صاحبه مباشرة، وإنما تتعرض لعدد من تلاميذه، الذين تلقوا العلم على يديه، أو على يد ابنه (أحمد). ولتمة إشارة مهمة اتضح من حديثه عن إحدى النساء الفضليات في الأندلس، فأعطتنا فكرة لا بأس بها عن مكانة العلم وانتشاره بين النساء، وما تمتعت به هذه المرأة من إقبال على طلبه في دار بقى، وفي حضور ابنه، في يوم محدد أسبوعياً، تقرأ عليه العلم فيه. وخرجت إلى المشرق حاجة، ولا يعد أن تطلب العلم هناك أيضاً. وبالنسبة للخطباء فهو كتاب أرجح صدوره في القرن الرابع الهجري، وكم كنا نود الاطلاع ولو على جزء منه، فهو - على الأقل - يتناول بعض خطباء القرن الرابع المتميزين، ويأتي على رأسهم: (القاضي منذر بن سعيد البلوطي ت ٣٥٥هـ).

٣- أعتقد أن خليفة مثل: الناصر، وولده (المستنصر) لا بد أن يكونا قد حظيا بمن أفردهما بكتاب أو أكثر عن سيرة كليهما؛ نظراً لطول فترة حكمهما (خاصة الناصر)، وعظمة منجزاتهما داخلياً، وخارجياً. وإذا كان الأندلسيون ليسوا مؤلفين بتقديس حكامهم، وسريعي

(١) قد يكون هناك مسار ثالث عن (سير العابدين في الأندلس)، لكنني لم أعث على عنوان كتاب بهذا الشأن، وإن وجدت مادة عن نساء طالعن، وتدارسن سير العابدين، مثل: أم الحسن أخت القاضي (مذر بن سعيد البلوطي)، وهي امرأة فاضلة متعبدة، يقصدها عجايز ونساء صواخ في ناحيتها، يجلسن معاً للذكر والفقه، ويتدارسن سير العابدين. (ذكر ذلك ابن الأثير نقلاً عن ابن حبان) في (تكملة الصلة - ط. مدريد) ص ٤٠٢ - ٤٠٣. وقد تكون هناك مؤلفات، ورجع إليها بشأن (سير العابدين).

الملل والسأم منهم خاصة أهل قرطبة، فبختلفوا بذلك عن المصريين، إلا أنني أعتقد أنه كانت هناك كتب عن هذين الخليفين العظيمين، لكن ما تعرضت له الأندلس من محاولة المنصور الاستبداد المطلق بالحكم، وإحراق العديد من كتب مكتبة المستنصر، ثم ما وقع من فتنه آخر القرن الرابع الهجري، أتت على ما كُتب عن المنصور نفسه، ثم ما جرى لمكتبات الأندلس على يد نصارى الإسبان بعد ذلك، كل ذلك كفيل بإضاعة هذا التراث، الذي لو بقي لأثرى هذه الدراسة كثيراً.

وفي نهاية هذا الباب، أعتقد أننا حاولنا أن نعرض للاتجاه الأول من الاتجاهات الثلاثة المتبعة للتأليف التاريخي في ذلك القرن في مصر والأندلس، بقدر ما سمحت به المصادر والمادة العلمية المتوافرة. وبقي أن تنتقل إلى الباب التالي، واتجاه جديد للمؤرخين، يتناسب مع ازدهار الحركة العلمية في ذلك القرن، وهو اتجاه (التراجم والطبقات)، بإذن الله.

الباب الثاني

مؤرخو التراجم والطبقات

يحتوي هذا الباب الفصول الأربعة التالية:

- أولاً - المؤرخان المصريان: محمد بن الربيع الجيزي،
ومحمد بن يوسف الكندي.
 - ثانياً - المؤرخ الأندلسي: الخشني.
 - ثالثاً - المؤرخان الأندلسيان: ابن جلجل، والزبيدي.
 - رابعاً - المؤرخ الأندلسي: ابن الفرضي.
- خلاصة عامة مقارنة.

مدخل

نتناول - في هذا الباب الجديد - كتب (التراجم والطبقات في مصر والأندلس في القرن الرابع الهجري). ويمثل هذا الباب جانباً مهماً من جوانب المكتبة التاريخية في كلا الإقليمين في الفترة المشار إليها، وفي الموضوع المتحدث عنه. أما بالنسبة للفترة الزمنية، فالقرن الرابع الهجري يعد قرن النضج والازدهار في اتجاهات التأليف التاريخي في مصر، ويعد طفرة كبرى، في بلاد الأندلس، وابتدت عصر الخلافة بما فيه من تقدم وازدهار حضارى. وأما الموضوع، فهو رصد دقيق وأمين لحركة النهضة العلمية في كلا البلدين منذ الفتح الإسلامى لهما حتى عصر مؤرخي هذه الحركة، وذلك من خلال تصوير البيئة العلمية لعلماء مصر والأندلس، مما قد لا نجده في كتب (التاريخ العام)، أو حتى في كتب (الحوادث التاريخية المحلية).

وأحب أن أشير - في هذا المدخل - إلى أمرين مهمين:

الأول - أن عملي في هذا الباب قائم على دراسة أبرز وأهم كتب التراجم والطبقات في مصر والأندلس؛ إذ لا يتسع المجال للإحاطة بكل صغيرة وكبيرة من الكتب المؤلفة؛ نظراً لكثرتها الكاثرة، ولفقد معظمها^(١)، حيث لم يبق منها سوى القليل، الذى نحاول - من خلاله - عرض صورة شاملة متكاملة - ما أمكن - لمنجزات مؤرخينا في هذا النطاق.

الثاني - أن الدراسة منصبة - أساساً - على المؤرخين المصريين، الذين ترجموا لعلماء بلدهم خاصة، وكذلك نركز في دراسة للمؤرخين الأندلسيين على أعمامهم التى ترجموا فيها لعلماء الأندلس. أما ما كان خارج علماء بلديهما، فهو خارج عن نطاق البحث^(٢)، فلا أفرده بالدراسة والتحليل المنهجي، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستفادة منه عند تلمس الملامح الشخصية لمؤرخينا عند الترجمة لهم، والتعريف بهم. وكذلك لا تخضع للدراسة تلك الكتب التى أخذت شكل التراجم، لكنها أُدخلُ في علم آخر كعلم الرجال مثلاً^(٣)، منها في علم (التاريخ).

(١) ويمثل ذلك في الأندلس، إذ اهتم الأندلسيون، بوضع مؤلفات في تراجم علماء كثير من أقاليم الأندلس. وكثيراً ما تظالعا المصادر بأسماء مؤلفات في تراجم المحدثين والفقهاء في أقاليم، مثل: رُبّة، وطليطبة، وقرطبة، وغيرها. وهذا يُنبئ عن الحصر، كما أنها مفقودات لا نكاد نعتز منها إلا على النثر اليسير.

(٢) مثل: كتاب (علماء إفريقية) لـحُشَى، وفيه يترجم هذا المؤرخ لعلماء إفريقية، ونحو بهما ما أُلغى عن علماء الأندلس فحسب.

(٣) مثل: كتاب (الألقاب) لابن الغرضي، وكتاتبي: (المؤلف والمحتلف)، و(مشته السنة)، لعبد العزى بن سعيد المصرى (ت ٤٠٩هـ).

هذا، وقد بدأتُ هذا الباب بدراسة (كتب التراجم في مصر)، فهي المدرسة الأم والأقدم، ذات التأثير في المدرسة التاريخية الأندلسية فيما مضى، بل كان مؤرخو الأندلس عالة على المؤرخين المصريين في كتابة (التاريخ الأندلسي في أحداث الفتوح الإسلامية الأولى).

والملاحظ على كتب المؤرخين المصريين في مجال التراجم أنها جميعها تنسم ببسمة واضحة، هي أنها كلها (مفقودة). فلم أجد - فيما طالعته - كتاباً مطبوعاً، ولا حتى مخطوطاً، يمكن أن نستفي به عن مشاق وصعوبات البحث عن بقايا المفقود، وتجميعه، وتنسيقه، وعرضه على نحو أقرب ما يكون - قدر الجهد والاستطاعة - لصورته الأولى، التي تركها عليها صاحبه.

وإزاء ما تقدم، فقد كان لزاماً عليّ أن أخوض غمار البحث عن المفقود. وقد تمكنتُ من تجميع بقايا كتب أربعة في هذا المجال:

أولها - عن الصحابة الذين دخلوا مصر. وقد ألفه محمد بن الربيع الجيزي (ت ٣٢٤هـ)، وهو يُعدُّ تطويراً وتفصيلاً لما بدأه ابن عبد الحكم في القرن الثالث الهجري^(١).

وثانيها - كتاب ترجم فيه ابن يونس لعلماء مصر منذ الفتح الإسلامي حتى عصره.

وثالثها - كتاب للمؤرخ السابق نفسه، يكمل به كتابه السالف، وفيه يترجم للعلماء الوافدين على مصر.

وأخيراً - يأتي كتاب المؤرخ المصري الكندي، الذي ترجم فيه لنوعية خاصة من علماء مصر، وهم (الموالي).

وقد تراوحت بقايا هذه الكتب بين القلة (كما في الكتابين: الأول، والرابع)، والكثرة

(١) إذا كان ابن عبد الحكم يركز على ما تيسر من الأحاديث التي رواها الصحابة في مصر (وذلك في القسم السابع والأخير من كتابه: فتوح مصر وأخبارها ص ٢٤٨ - ٣١٩)، فإن ابن الربيع الجيزي يبدو مهتماً بصورة أكثر بالترجمة لهؤلاء الصحابة، مع محاولة حصر أعدادهم. وحديث بالذکر أن استبعدتُ المحدث المؤرخ البغدادي الأصل (أبا عليّ سعيد بن السُّكَّر، المتوفى سنة ٣٥٣هـ) من الدراسة، رغم أنه أتى إلى مصر، واستقر بها على ما يبدو. (سير أعلام النبلاء ١١٧/١٦ - ١١٨، وحسن المحاضرة ٣٥١/١ - ٣٥٢)، لأن كتابه عن (تاريخ الصحابة) لا يقتصر على الترجمة للصحابة، الذين نزلوا مصر على نحو ما صنع ابن الربيع الجيزي في كتابه، وإنما - ومن خلال بقاياه المفقودة - يتضح أنه كتب كتاباً عاماً عن الصحابة في مختلف الأقاليم الإسلامية لا في مصر وحدها. ونحن لا نستطيع معرفة نسبة ما ذكره عن صحابة مصر إلى ما ذكره عن سواهم؛ لأن الكتاب مفقود، ونصوصه المتبقية قليلة، ومعظمها تعليقات حديثة على مرويات هؤلاء الصحابة، كما أننا لا ندرى مكان تأليفه إياه (في بغداد، أو في مصر). ومن هنا كان لا يصلح للدراسة وفق منهجنا.

(كما في نتاج ابن يونس)^(١). وفي ضوء ما جُمع حاولتُ استنباط الملامح العامة لمنهج المؤرخين المصريين من خلال بقايا كتبهم المفقودة.

وأما بخصوص الأندلس، فالكتب الأربعة - محل الدراسة - كلها مطبوعة بحمد الله. وقد بدأ الخشنى بالترجمة لأهم فقهاء ومحدثي الأندلس، بينما اهتم ابن جلدل بالتأريخ لطبقات الأطباء، بينما ترجم المؤرخ اللغوي الزبيدي لعلماء النحو واللغة على مختلف طبقاتهم وبلادهم^(٢). وأخيراً أتى ابن الفرضي؛ ليكون مسك الختام، إذ أطلّ على علماء الأندلس إطلالة عامة شاملة، وقام بالترجمة لما تيسر له منهم على مختلف علومهم واختصاصاتهم، فأفاد من سبقه، وأضاف إلى جهودهم جهداً مشكوراً. وقد قمتُ بتحليل مناهج هؤلاء المؤرخين بعد الترجمة لهم على النحو المعتاد.

وفي النهاية، أتت زبدة هذا الباب المطوّل، ممثلة في جوانب المقارنات المتعددة، التي عقّدتُها بين مؤرخي البلدين في مجال (التراجم والطبقات)؛ وذلك لرصد أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وبيان أوجه العلاقة القائمة على قدر ما سمحتُ به المادة العلمية في المصادر المختلفة، مع الوضع في الاعتبار أننا نقارن بين نتاج مفقود، وآخر كامل مطبوع.

(١) وأحب أن أشير - في هذا الصدد - إلى أن هذا الكتاب يخلو من دراسة كتابي ابن يونس المشار إليهما سلفاً؛ لأنني جمعت ما تيسر لي منهما، وقمتُ بدراستهما دراسة مفصلة في عمل علمي مستقل، نشر في مجلدين اثنين في (دار الكتب العلمية ببيروت) سنة ٢٠٠٠م.

(٢) أدخلتُ كتابي: ابن جلدل، والزبيدي، رغم أنهما لم يقتصرَا على أطباء الأندلس، ونحويها ولغويها؛ لأن الكتابين مطبوعان، وهذه ميزة مهمة، تساعدنا على تعرف منهج المؤرخين وغايتهم في عرض أجزاء كتابهما، وتفتح أمامنا مجالاً للدرس والمقارنة بين اهتمام كُلِّ بلده وبغورها من البلاد، ونصيب كل في الإسهام العلمي في مجالي: الطب، والنحو واللغة. بالإضافة إلى أنهما النموذجان الوحيدان، اللذان تم ترتيب مادتهما على الطبقات في هذه الدراسة، كما أنهما ترجما لنوعية جديدة من العلماء، أفردا لهم هذين الكتابين، وتلك ظاهرة فريدة، تستاهل التأمل والدرس.

الفصل الأول

المؤرخان المصريان:

(محمد بن الربيع الجيزي، ومحمد بن يوسف الكندي)

أولاً - (مؤرخو التراجم في مدرسة مصر التاريخية)

(١) المؤرخ المصري (ابن الربيع الجيزي)

تقديم:

نبدأ في دراسة (مؤرخي التراجم) في مصر بـ (المؤرخ المصري محمد بن الربيع الجيزي)، وكتابه الذي يترجم فيه للصحابة، الذين نزلوا مصر. ويتقدم تلك الدراسة - على ما تعودنا - تعريف هذا المؤرخ. ومن الملاحظ أن المعلومات الواردة عنه في المصادر نادرة، وسأحاول عن طريق هذه المادة، ومن خلال ما ورد عن والده (الربيع بن سليمان الجيزي)، إلقاء الضوء على ثقافة وحياة هذا المؤرخ، والبيئة العلمية التي نشأ في رحابها قدر المستطاع.

والده: ويمكن تركيز الحديث عنه في النقاط الآتية:

١ - هو أبو محمد، الربيع بن سليمان بن داود الأزدي، مولاهم المصري^(١) الجيزي^(٢)، المعروف بـ (الأعرج)^(٣).

(١) وقع أكثر من خطأ في ترجمته -لمله من النشاح- (تقريب التهذيب) لابن حجر: ٢٤٥/١؛ إذ لُقّب بـ (المصري) بدل (المصري)، وقيل في نسبه: (الجيزي المرادي)، وهذا خلط بينه وبين الربيع المرادي، فصاحبتنا هذا هو (الأزدي بالولاء، الجيزي المصري).

(٢) نسبة إلى الجيزة، وهي بُلْدَة في غربي مُسْطَاط مصر قُبْلَها، يفصل بينهما عرض النيل، والأهرام في عملها، وبالقرب منها. وقد سكنها عقيب فتح الإسكندرية بعض قبائل العرب من جند هَمْدَان، والأزد، وغيرهم. (معجم البلدان ٢٣٢/٢، ووفيات الأعيان ٢٩٣/٢).

(٣) تفرد ابن خلكان بجعله الحدّ الأكبر للربيع (الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدي بالولاء). (المصدر السابق: ٢٩٢/٢). واعتقد أن الصواب على خلاف ذلك، وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى، فحملته لقباً للربيع. وصرّح ياقوت بذلك، فقال: ويكنى أبا محمد، ويعرف بـ (الأعرج). (معجم البلدان ٢٣٢/٢).

وهذا النسب^(١) يعني: أنه يُنسب إلى قبيلة (الأزد) بالولاء، وأنه عاش على أرض مصر؛ مولداً وحياة و وفاة، كما سنرى بعد قليل. ويتضح - أيضاً - أنه عاش بالجيزة، ولُقّب بلقب الأعرج؛ ربما لِعَرَج كان في إحدى رجلَيْه.

٢ - ولد الربيع بن سليمان بعد سنة ١٨٠هـ^(٢)، وتوفي - في الغالب - يوم الأحد لليستين بقيتا من شهر ذي الحجة سنة ٢٥٦هـ^(٣)، عن عمر يفوق السبعين عاماً. وخلال هذه الفترة من عمره المبارك اهتم بتحصيل العلم وروايته. ويأتى الحديث النبوى الشريف على رأس العلوم، التى تلقاها على يد أعلام المحدثين في مصر^(٤) من أمثال: إسحاق بن بكر بن مضر، وأسد ابن موسى^(٥)، وأصبغ بن الفرج، وطلّح بن المسّح الإسكندرانى^(٦)، وعبد الله بن عبد الحكم (وأكثر في الرواية عنه)^(٧)، وعبد الله بن وهب، وغيرهم^(٨). ومن روى عنه من علماء مصر: الإمام أبو جعفر الطحاوى^(٩).

وكانت للربيع بن سليمان صلات علمية بالعلماء من خارج مصر، فروى عن (إسماعيل بن أبى أُوَيْس)، وغيره من أهل المدينة^(١٠). وروى عنه: أبو داود، والنسائى^(١١)، ومحمد بن بسّطام

- (١) ورد هذا النسب صحيحاً كاملاً في: تهذيب الكمال ٨٦/٩، وسم أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣.
- (٢) تفرد هذا النص ابن حجر في (المصدر السابق) ج ٣ ص ٢١٣، نقلاً عن الكندى في كتاب (الموالى المفقود، ولا أدوى سر عدم تحديد تاريخ ولادته قبل ذلك، لكنى أعتقد أن ولادته لا تتأخر عن سنين: ١٨١، ١٨٢هـ؛ كى تستنى له الرواية عن أستاذه (عبد الله بن وهب)، الذى استتر من الوالى (عبد بن محمد) لما أراد توليته القضاء؛ مما حمله بولى (لهيئة بن عيسى) بدلاً منه في مستهل شعبان ١٩٦هـ، ومات بعدها ابن وهب بحوالى عام (١٩٧هـ). (القضاء، للكندى ص ٤١٧، ووفيات الأعيان ٣٦/٣).
- (٣) تهذيب الكمال ٨٧/٩، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣. وهو أصح من تاريخ ٢٥٧هـ، الذى ذكره البعض بصيغة الظن (قيل)، إلى جانب التاريخ الرابع (سنة ٢٥٦هـ). ذكرهما معا: السبكي في: (طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ١٣٢، وطاش كبرى زاده في: (مفتاح السعادة) ٣٠١/٢.
- (٤) تهذيب الكمال ٨٦/٩.
- (٥) ذكر السيوطى أنه أحد حفاظ الحديث في مصر، وجعل الربيع بن سليمان الجيزى أحد الرواة عنه، وجعل هذا العالم الملقب بـ (أسد السنة) ممن توفوا سنة ٢١٢هـ. (حسن المحاضرة ٣٤٦/١).
- (٦) توفى سنة ٢١١هـ، وهو أحد مشاهير أتباع التابعين، الذين وردت لهم أحاديث في الكتب الستة. (حسن المحاضرة ٢٨٦/١).
- (٧) وفيات الأعيان ٢٩٢/٢.
- (٨) مثل: عبد الله بن يوسف التميمى، وأبى الأسود الثمري بن عبد الجبار. (تهذيب الكمال ٨٦/٩، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢١٢، وإن كان قد وقع فيه خطأ في اسم والد النضر، فذكر أنه (عبد الحميد) بدلاً من (عبد الجبار).
- (٩) سم أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣.
- (١٠) الأنساب، للسمعاني ١٤٤/٢. راجع ترجمته في (تهذيب التهذيب): ٢٧١/١ - ٢٧٣.
- (١١) سم أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣.

ابن رجاء الضبيّ السُوسيّ (ت ٣١٣هـ) لما رحل إلى مصر^(١).

٣ - يعدد (الربيع بن سليمان الجيزي) أحد فقهاء المذهب الشافعي، وواحدًا من علمائه، الذين تلقوا على أيدي مؤسس المذهب^(٢)، إلا أنه كان أقل تلاميذه رواية عنه^(٣)؛ مما دفع البعض للتشكيك في تلقيه على يد الإمام الشافعي^(٤)، بالإضافة إلى الخلط بينه وبين قرينه (الربيع بن سليمان المرادي)، الذي فاقه شهرة، ورواية، ومصاحبة للشافعي^(٥).

والخلاصة:

أن الإمام (الربيع الجيزي) من علماء الحيزة (المُبرزين)^(٦)، وكان من الرجال الصالحين^(٧)، الذين أحسبوا الحديث، فأكثرُوا من روايته، وكان مأموناً ثقة^(٨). وكان من فقهاء الشافعية المقلّين، ولم يُؤثّر عنه وضعه مؤلفات في الحديث أو الفقه، كما لم تُعرف عنه اهتمامات بعلم التاريخ.

(١) الديباج المُتّعب: ١٨٨/٢.

(٢) ذكرت كثير من المصادر أنه روى عن الشافعي (تذيب الكمال ٨٦/٩، وسر أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتذيب التهذيب ٢١٢/٣). ونص البعض صراحة على أنه صاحب الشافعي (تذيب الأسماء واللغات للنزوي، ١ ج ١ ص ١٨٧، ووفيات الأعيان ٢٩٢/٢).

(٣) ذكر البعض قلة رواية الربيع الجيزي عن الشافعي دون ذكر غاذج من ذلك القليل (مثل: ابن العماد الأصفهاني في شذرات الذهب ١٥٩/٢ - ١٦٠، وعبد الحليم الجندي في: الشافعي ناصر السنة ص ٢٥٥). وقد أثر عنه أنه روى عن الشافعي في الفقه في موضعين اثنين: في كراهية قراءة القرآن بالألحان، وفي أن شِعْرَ الميتَ يَطْهَرُ بالدباغ تبعاً للحلّد. (طبقات فقهاء الشافعية للعبّادي ص ١٦، وطبقات الشافعية، للسبكي ١٣٢/٢، والإسنوي ٣١/١، ولابن هُدَاية الله الحسيني ص ٢٥٥). وقد أشار سركيس في (معجم المطبوعات العربية والمعربة) ص ٤٦٩، إلى أن الربيع الجيزي روى عن الشافعي كتاب: (اختلاف الحديث)، وأنه مطبوع بمماش كتاب (الأم). فإن صحّت تلك المطبوعة، فهي إضافة جديدة لما رواه الربيع الجيزي عن الشافعي، تدعم صحته له، وتتملّذه عليه في بحالي: (الحديث، والفقه).

(٤) الأنساب ١٤٤/٢، والشافعي: حياته وعصره، لأبي زهرة ص ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) ترجم السبكي للربيع المرادي (ت ٢٧٠هـ) في (طبقات الشافعية): ١٣٢/٢ - ١٣٩. وذكر الإسنوي في طبقاته ٣١/١: أن ما رواه المرادي عن الشافعي كثير، وأنه إذا أُطلق (الربيع) فقط، فالمرادى هو المقصود.

(٦) عاش الربيع بالحيزة، وما مات، ودُفن. (حسن المحاضرة ٣٩٨/١).

(٧) وفات الأعيان ٢٩٢/٢. ويستدل على ذلك بما رواه ابن حلكان في (المصدر السابق)، والقُتْرُجِي في (التاج المُكَمَّل ص ٤٧: أنه كان راكباً بمصر، فسقط رماد على ثيابه، فنفذه ولم يتكلم، فقبل له: ألا ترزحهم ١٩ قال: من استحق النار ووصل بالرماد، فقد ربح. وذلك دليل على فرط صلاحه، وتقواه.

(٨) تذيب الكمال ٨٧/٩، وسر أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وخلاصة تذهيب تذيب الكمال ٣١٩/١.

(١) المؤرخ المصرى (محمد بن الربيع الجيزى ٢٣٩ - ٣٢٤هـ) (*):

يمكن التعريف به فيما يلى:

أ - هو أبو عبد الله^(١)، محمد بن الربيع بن سليمان بن داود الجيزى المصرى. ولد سنة ٢٣٩ هـ، وتوفى في شهر ربيع الأول سنة ٣٢٤ هـ^(٢)، عن عمر يبلغ الخامسة والثمانين عاماً.

ب - كان اتجاه محمد بن الربيع إلى تحصيل علوم عصره اتجاهاً ذاتياً فطرياً في الغالب الأعم^(٣).

وقد اتجه إلى تعلم القراءات القرآنية، فتلقها على يد العالم المشهور (يونس بن عبد الأعلى)^(٤). ويبدو أنه أنفق في ذلك وقتاً ثميناً طويلاً من عمره، حتى بلغ منزلة سامية، أهّلته لأن

(*) تعرض هذا المؤرخ لإهمال شديد من مولف (التراجم)، فلم يحظ بالقدر المطلوب للتعريف به وإلقاء الضوء الكافية على حياته. ويلاحظ أن المصادر اهتمت بالترجمة لوالده (الربيع الجيزى) على حساب الترجمة لانه المؤرخ، وحيث المصادر التي ترجمت لان الربيع، معلوماً - في الغالب - سطحية، ومكررة. وقد بدلت ما في وسعي من جهد لكتابة ترجمته في ضوء المادة المتاحة فيما يلى: (الإكمال ٤٦٣/٣، والأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢٣٢/٢، وتاريخ الإسلام ١٦٦/٢، ووظائف القراء لان الجيزى ١٤٠/٢، وتبصير المشتبه ٣٦٤/١، (اكفى بذكر اسمه، وعرف باسم سرياً)، ومقدمة جست بالإنجليزية لكتانى (الولاء، والنصافة للكندى ص ٢٠). أما السيوطي، الذي كنا ننتظر منه ترجمة وافية - وهو أعرف بقدرة مؤرخنا، واحتفظ لنا بجزء لا بأس به من كتابه: تاريخ الصحابة، كما سترى - فإنه ذكره ضمن قوائم المؤرخين في مصر (حسن المحاضرة ١/٥٣٣)، وذكر أنه (متر)، أى: سقت ترجمته، وبسج الكتاب لم نجد أية ترجمة لمؤرخنا المذكور، وتلك واحدة من هفواته في هذا الكتاب.

(١) اختلفت المصادر في كنيته، فالبعض كُناه بـ (أبى عُبيد الله)، مثل: (الاستقاء) لان عبد البر ص ١١٣، وتاريخ الإسلام ١٦٦/٢، بينما جعله البيهقي (أبا عُبيد) في: (مناقب الشافعى) ج ١/٢١٧. وبعضهم حلف في كنيته بين اسم جده الثالث (داود)، وبين كنية محرقه (عبيد الله)، فذكرت له كنيان: (أبو داود)، وأبو عُبيد الله. (طبقات القراء) لان الجيزى ١٤٠/٢. هذا، وقد اكفى د. البرى بقل ذلك، مع الإشارة إلى وجود حلف بين اسمه (والصواب: اسم جده الثالث)، وكنيته (والصواب: كنيته المحقرة)، ولم يصوّب خطأ، أو يخلق المسألة. (القرآن وعلومه في مصر ص ٢٦١، وهامشها رقم ٣). وأنه عدد من المصادر إلى تكتبته بـ (أبى عبد الله)، كما في: (مخطوط تاريخ عنما أهل مصر)، لان الطحان، ورقة ٢٣٩، والأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢٣٢/٢، ومعجم الأدباء ٥١/٣، وابن حجر في (الإصابة) ح ٧ ص ٣٨٥. والراجح - عدى - رأى الأحرار؛ لكثرة القائلين به، ووثافتهم خاصة ابن الطحان) أفدهم، الذى عقد في باب (الغير) ترجم من يُسمون بـ (عبد الله)، هكذا ضبطها. وكان من هذا الباب (عبد الله بن محمد بن الربيع)، الذى به يكفى مؤرخنا. وامتد هذا الباب من ورقة ٢٣٨ إلى ورقة ٢٤٠. أما المصادر الأخرى، ففعل الساجح حرقوا عبد الله إلى (عبد الله).

(٢) تاريخ الإسلام ١٦٦/٢٤.

(٣) وذلك لأن أباه توفى وهو ابن سبعة عشر ربيعاً، فلم يكن تأثره العنمى فيه كثيراً، وإن كان له بعض الأثر في توجيهه، كما ينصح من بعض روايات له عن والده، سراجها فيما بعد. ويبدو أن همه للعلم مد الصغر، وما خلفه أبوه من روايات كان له أثر في تحصيله العلوم.

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٠/٧، ووظائف القراء ١٤٠/٢.

يكون مقصد طلاب القراءات، فروى عنه، وتلمذ عليه: جعفر بن أحمد البزاز، ومحمد بن إبراهيم بن زاذان^(١)، وغيرهما. ويبدو أن شهرته في علم القراءات جعلت طلاب العلم يتلقون عليه القراءة، سواء كان ذلك خارج مصر، أم داخلها. فمثلاً: روى عنه القراءة (أبو بكر، محمد ابن إبراهيم بن علي بن عاصم المقرئ) بمكة، ثم أتى إليه في مصر؛ للتلقى عليه ثانية في أخريات حياة (ابن الربيع الجيزي) سنة ٣١٦هـ^(٢).

ج - ويأتى الحديث النبوى الشريف على رأس العلوم، التى شكّلت ثقافة ابن الربيع الجيزي. فقد روى عن: والده (الربيع بن سليمان الجيزي)، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، والربيع المرادى، ويونس بن عبد الأعلى، وغيرهم^(٣). هذا، وقد قصد ابن الربيع عددًا من علماء الأقاليم الإسلامية الأخرى، فتلقوا عليه الحديث، منهم: سعيد بن خلف القيرواني^(٤)، وأحمد بن هلال بن زيد العطار القرطبي^(٥)، وأحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدي القرطبي أيضًا^(٦)، ومحمد بن عبد الله بن خالد الخراساني (نزىل مصر)^(٧).

لم يُخَلَّف لنا (ابن الربيع الجيزي) مؤلفات حديثة^(٨)، ولكن بعض المصادر احتفظت لنا بتعريف مقتضب بولديته: عبد الله^(٩)، والربيع، اللذين كانا من المشتغلين برواية الحديث، خاصة ثانيهما الذى سمع من عبّيد الله^(١٠) بن سعيد بن عُفَيْر، وعبد الله بن محمد بن أبي مريم، وكتب عنه قوم من أصحاب الحديث، وتوفى في شهر ربيع الأول سنة ٣٤٢هـ^(١١).

د - أعتقد أن ابن الربيع كان من المنتمين إلى المذهب الشافعى كوالده (رحمه الله تعالى).

(١) السابق ١٤٠/٢.

(٢) طبقات القراء ٤٤/٢.

(٣) المدارك ٦٣/٣/٢، والأنساب ١٤٤/٢.

(٤) تكملة الصلة (ط. مدرسد): ص ٣٢٣.

(٥) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (ط. الحانجي)، لابن الفرضي ٥٨/١ - ٥٩.

(٦) وكان من كبار محدثي الأندلس (ت ٣٥٠هـ)، وله تاريخ في تراجم المحدثين مفقود. وقدم إلى مصر، وتلمذ على يد ابن الربيع (تاريخ العلماء والرواة، لابن الفرضي ٥٦/١، ومعجم الأدباء ٥٠/٣ - ٥٢).

(٧) تهذيب التهذيب ٢٢٦/٩.

(٨) الموحود قليل من الروايات الحديثة (منها): ما ورد في: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ١١٨/٢ - ١١٩، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣٤٨/٣.

(٩) راجع ترجمة مقتضبة عنه في مخطوط تاريخ علماء أهل مصر) ورقة ٢٣٩، حيث ورد ما: أنه يكنى (أبا بكر). روى عن أبيه. ثم قال ابن الطحان: حدثونا عنه.

(١٠) ورد في (الإكمال) ٤٧/٣ باسم عبد الله، وهو تحريف صوابه ما ذكرته في المتن (راجع فهرس أعلام الولاة والقضاة للكندى ص ٦٥٢).

(١١) الإكمال ٤٧/٣، وتبصر المنبه لابن حجر ٣٦٤/١.

وقد وجدتُ بعض إشارات يسيرة تشير إلى ذلك، منها: مصاحبته لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨هـ) — تلميذ الإمام الشافعي، وروايته عنه ما يتعلق بمناظرات الشافعي الفقهية في مصر، وأنه كان يبدو متحمساً على النيرة، قوى الحجة، منصفاً في مناقشته خصوصه^(١). وكذلك روى عن محمد هذا أنه سمع من الشافعي كتاب (أحكام القرآن) في أربعين جزءاً، وكتاب (الرد على محمد بن الحسن) في سبعة أجزاء^(٢). ويترجح لدى أن (ابن الربيع الجيزي) تلقى قدراً من الفقه الشافعي على محمد هذا خلال مصاحبته إياه، أو أنه استعار منه بعض كتب الشافعي، التي كانت في بيت بني عبد الحكم، مثل: (سنن الشافعي)^(٣).

هـ - كان (ابن الربيع الجيزي) يتمتع بقدر لا بأس به من علوم عصره ومعارفه، رغم ندرة المادة العلمية عنه في المصادر المتاحة، وعدم وجود ما يفيد أنه ألف كتباً في أي من المجالات السابق تعرضنا لها. لكن الشيء اليقيني أن هذا القدر من العلوم، بالإضافة إلى ما يجب أن يكون عليه من سمعة طيبة بين الناس، ونزاهة وعدالة وأمانة، وأخلاق فاضلة، إلى جانب اختلاطه بأفراد مجتمعه، ومعرفته بهم عن كثب، وإطلاعه الواسع على ظروفهم وحياتهم، ودقائق أمورهم، لا شك أن ذلك كله جعله جديراً بأن يكون مقدماً في شهود مصر^(٤)، مقبولاً لدى قضائها، ذا دور فعال مؤثر في إقامة ميزان العدالة لها، ورد الحقوق إلى أصحابها^(٥)، بل كان على قدر من العلم والخلق جعله في مصاف كبار فقهاء عصره؛ مما دفع قاضياً من أعظم قضاة مصر علماً وفقهاً وثقافة، وخلقاً ومهابة وعدالة وحرماً، يحرص على مجالسته؛ لمذاكرة العلم معه^(٦)، بل يجعل من كلمة نطق بها (ابن الربيع الجيزي) سيفاً مسلطاً على رقبة أحد فقهاء الشافعية البارزين في عصره^(٧).

(١) مناقب الشافعي، للبيهقي: ج ١/ ٢١٧.

(٢) الانتقاء: لابن عبد البر: ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٣. ولعل في تلميذ (أبي الحسن) علي بن محمد بن إسحاق الجبلي الفقيه القاضي الشافعي نزيل مصر (٢٩٥ - ٢٩٦هـ) على يد ابن الربيع - في الفقه على الراجح - دليلاً على بلوغه منزلة جيدة في مجال الفقه الشافعي (سمر أعلام النبلاء ١٦/ ٥٥٣).

(٤) الأنساب ١٤٤/ ٢، ومعجم البلدان ٢/ ٢٣٢.

(٥) كشاهدته في قضية، تظلمت فيها امرأة من محمد بن علي الماذرائي، فظهرت براعة الرجل أمام القاضي أبي غنيد، علي بن الحسين بن حرب. (راجع تفاصيل القضية في: رفع الإصر ج ٢ - ص ٣٩٧ - ٣٩٨).

(٦) كان القاضي (ابن حربويه ٢٩٣ - ٣١١هـ) حريصاً على مذاكرة العلم، فكان له مجلس كل عشية، يتدارس فيه مع أحد كبار علماء مصر آنذاك، فمرة يجلو بالفقيه الشافعي (منصور بن إسماعيل التميمي ت ٣٠٦هـ)، ومرة بأبي جعفر الطحاوي الفقيه الحنفي (ت ٣٢١هـ)، ويوماً - (محمد بن الربيع الجيزي الفقيه، والمحدث الشافعي، والمؤرخ المصري)، وهكذا. (وفيات الأعيان ٥/ ٢٩١).

(٧) تذكر المصادر أن العلاقة بين القاضي ابن حربويه، والفقيه الشافعي (منصور بن إسماعيل) كانت وطيدة، إلى أن وقع خلاف فقهي بينهما (ل عهد الوالي ذكاً ٣٠٣ - ٣٠٧هـ) حول نفقة المطلقة ثلاثاً، فوقع الخلاف =

و - وأخيراً، ماذا عن (محمد بن الربيع الجيزي) مؤرخاً؟ الحق أن التزعة التاريخية لدى مؤرخنا (ابن الربيع) لها جذور متأصلة داخله منذ فترة مبكرة، ومن خلال اهتماماته بالحديث والمحدثين، والفقه والفقهاء؛ بدليل ما رواه عن اجتهاد المحدث (علي بن المديني ت ٢٣٤هـ) في طلب العلم^(١)، وما رواه بمكة عن (يحيى بن بُكَيْر) فيما يتصل بتاريخ ميلاد (الفقيه الليث بن سعد ت ١٧٥هـ)^(٢). وفي اعتقادي أن الرجل ظل يُطَوّف بين علوم القراءات، والحديث، والفقه فترة طويلة من حياته، ثم حطّ رحاله - في النهاية - عند (علم التاريخ). ولربّ سائل يسأل: هل له من آثار تاريخية تشهد له بالولوج في عالم (المؤرخين)؟ وإذا كانت له تلك المصنّفات، فأين هي الآن؟ ثم إذا أمكن العثور عليها بصورة أو بأخرى، فهل صاحبها الذي عاش ما يزيد على ستين عاماً من عمره المديد في القرن الثالث الهجري، بينما عاش أقل من ربع قرن في القرن الرابع الهجري، يصلح أن يدخل في عداد مؤرخي مصر في القرن الرابع الهجري؟! أحجب عن التساؤلات السابقة، فأقول: إن كل الثقافات التي اكتسبها مؤرخنا (ابن الربيع الجيزي) في فترة حياته التي غطّت القرن الثالث الهجري، وصلاحته بالقضاة والقضايا من خلال

- والعداء. وزاد الأمر تعقيداً أن ابن الربيع الجيزي سمع الفقيه منصوراً، يقول مقالة للنظام المعتزلي (يسدو ألفاً خمس العقيدة)، فأبلغها للقاضي ابن حريويه كشهادة على ذلك الفقيه، فقال القاضي: إن شهد عددي شاهد آخر، مثل: محمد بن الربيع الجيزي، ضربت عنق منصور، فهلّع منصور، وخشى على نفسه، ولزم جامع ابن طولون، لا يخرج منه إلى المساء، محزوناً مغموماً. ثم اتفق أن مات منصور بعدها بقليل (أيام يسيرة) في جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ، فكان يعتقد أن القاضي جنى عليه بتهديده إياه، حتى إن الحند والعامة كادوا يفتكون بالقاضي؛ لتعصبهم لمصور، فلم يخرج القاضي للصلاة عليه، فصلى عليه الوالي (ذكا)، الذي كان متعصباً له في خلافه مع القاضي (معجم الأدباء ١٩/١٨٥ - ١٨٦، ووفيات الأعيان ٥/٢٩١ - ٢٩٢، والمغرب (قسم مصر) لابن سعيد ص ٢٦٣، وطبقات الشافعية للسبكي ٣/٤٧٩ - ٤٨٠). والحق أن أفسر هذه الوقائع تفسيراً يرجع إلى سوء الفهم والاندفاع والدّد في الخصومة دون داع، فأساس الخلاف: أن القاضي ذكر - وهو يذّكر الفقيه منصوراً الضّير - أن هناك من يزعم أن لا نفقة للمطلقة ثلاثاً، فاندفع منصور بنفى الإسلام عن قائل ذلك. فلما انصرف، حدّث بذلك الفقيه ابن الحداد، ناسباً القول إلى القاضي (وهو لم يقنه). فلما ناقش ابن الحداد القاضي، أنكر نسبة ذلك الكلام إليه، ووقعت مشادة بين منصور والقاضي، كل يكذب الآخر، حتى طرده القاضي من مجلسه، ورفض عودته واعتذاره. ثم أشعل الخصومة تعصّب الوالي والحند لمصور، وانضمام آخرين للقاضي. ولا أعتقد صحة ما ذكره السبكي في (طبقاته) ح ٣ ص ٤٧٩: أن ابن الربيع تعامل ضد منصور، وأوقع بين القاضي وبينه بشهادته؛ لأن ابن الربيع إنما حكى مقالة عن النظام ذكرها منصور، فتسرّع القاضي في تهديده منصوراً؛ متأثراً بالخصومة القائمة، وربما درعاً لانتشار كلام المعتزلة بين الناس، وكان قدر الله مفعولاً، فتوفى منصور بعدها بقليل.

(١) كان يذكر الحديث في الليل، فيأمر الحاربه أن تُسْرِج السّراح، فينظر فيه. (تاريخ بغداد ١١/٤٦٣).

(٢) حيث روى المقدسي بسنده إلى ابن الربيع الجيزي، أن ابن بكّر أنباه أنه سمع الليث ابن سعد يقول: ولِدْتُ في شعبان سنة ٩٤هـ. (الجمع بين رجال الصحيحين ٢/٤٣٣).

عمله كبيراً لشهود مصر حتى سنة ٣١١هـ تقريباً^(١)، لم تضع هباء منثوراً، وإنما صَبَّتْ بكل خبراتها العلمية والعملية في عقل وفكر ذلك الرجل، لما اعتزل العمل في سلك القضاء، وتفرغ لتأليف كتابيه التاريخيين^(٢). إننا نرجح أن يكون ذلك المؤرخ قد أبدع كتابيه هذين في القرن الرابع الهجري (بعد سنة ٣١١هـ)، بعد أن استكمل أدوات البحث التاريخي، وجمع مادته (خاصة كتابه الثاني). ولا أظنه ألَّف شيئاً منها قبل ذلك، وإلا لألَّف في فروع العلم الأخرى، التي تَمَرَّس بها، وأطال الاطلاع عليها، والرواية فيها. لقد أفاد الرجل من اطلاعاته ورواياته الحديثة في تأليف كتابه الأول، عن الصحابة الذين دخلوا مصر^(٣)، واهتم في أثنائه بمروياتهم الحديثة، فمزج في كتابه هذا، الذي يدخل في باب (التراجم) بين المادة التاريخية والحديثة، مستفيداً في ذلك من سلفه المؤرخ المصري (ابن عبد الحكم)، مهتماً لمؤلفي تخلفه (ابن يونس المؤرخ). والكتاب الثاني - وهو كتاب مفقود أيضاً - كتبه عن (أخبار قضاة مصر)، وهو حصيلة تجربته الطويلة في التعامل مع قضاة مصر، وقضايا أهلها، على اعتبار أنه يأتي على رأس الشهود، الذين يحضرون جلسات حكم القضاة، ويشاركون في مناقشة القضايا، ويشهدون على أحكامها الصادرة فيها. ولا شك أن علمه بالفقه خدمه في حسن فهمه وأدائه لمهام وظيفته، ثم ساعده كثيراً في تصنيف مؤلفه القضائي. ومن هنا عددتُ (ابن الربيع الجيزي) من مؤرخي القرن الرابع الهجري؛ لأن مؤلفيه - فيما أرى - وُضِعَا في ذلك القرن موضع الدراسة.

* * * * *

(١) اخترتُ هذا التاريخ؛ لأنه تاريخ إعفاء القاضي (ابن حربويه) من منصب القضاء في مصر. (ذيل ابن بُرد على قضاة مصر للكندي ص ٤٨١). وبعد ذلك لم نجد ذكراً لابن الربيع الجيزي في عصور القضاة التاليين حتى وفاته سنة ٣٢٤هـ (السابق ٤٨١ - ٤٨٧)، إذ إن آخر قضية ورد ذكره فيها كأحد الشهود كانت في عهد ابن حربويه القاضي (رفع الإصر ٣٩٧/٢ - ٣٩٨).

(٢) ولا مانع من أن يقوم بإقراء القرآن خلال تلك الفترة؛ بدليل تلقي البعض القراءة عليه سنة ٣١٦هـ بمصر (طبقات القراء لابن الجزري ٤٤/٢).

(٣) وهذا الكتاب مفقود، لكن السيوطي اختصره في (حسن المحاضرة: ١٦٧/١ - ٢٥٢)، كما وردت بعض شذرات منه في كتاب (الإصابة) لابن حجر وغيره، على نحو يأتي تفصيلاً فيما بعد.

تعريف عام بكتاب " تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر "

محمد بن الربيع الجيزي (٢٣٩ - ٣٢٤هـ)

أولاً - فقد هذا الكتاب ضمن ما فقد من تراثنا التاريخي، لكن السيوطي - لاهتمامه بهذا الشأن في كتابه: "حسن المحاضرة" - نعى هذا العمل، وزاده معتمداً على كتاب (ابن الربيع) كثيراً، وغيره من المصادر.

ثانياً - يعد هذا العمل تطوراً لما بدأه المؤرخ المصري (ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ)، عندما خصّص (القسم السابع) من كتابه: (فتوح مصر) لأحاديث الصحابة، الذين دخلوا مصر. فتوسع ابن الربيع في ذلك المجال، وزاد في عدد الصحابة وتراجمهم، مع المحافظة على إيراد ما تسر له من مروياتهم، إذا وجدت.

ثالثاً - جمعت من بقايا هذا الكتاب ١٣٣ ترجمة، رجّحت ترتيبها على حروف الهجاء (حرف الألف - الباء. . . وهكذا حتى (لام ألف، وياء). وبعدها أوردت باب (الكُنى)، ورتبت التراجم فيه على حروف الهجاء (حتى الواو). ثم أوردت باب (المبهمات)، وفيه: رجل صحابي من صُداء، وأخيراً، (الخاتمة).

رابعاً - يلاحظ أن السمة الغالبة على تراجم ابن الربيع هي الوجازة والقصر، لكن هذا لا يمنع وجود بعض التراجم النادرة المطوّلة الباقية. ولعل قصر وسطحية بعض التراجم يرجع إلى تفريغ السيوطي لها من محتواها، واكتفائه بالتركيز على ما يتصل بالرواية الحديثة للمترجم له.

خامساً - لم أكتف بدقة جميع ما تبقى من هذا الكتاب، بحيث يُصرّح بنسبة الترجمة إلى ابن الربيع في (كتابه)، وإنما وثّقت هذه التراجم - ما أمكن - في الحواشي، وعلّقت - ما أمكن - عليها بعض التعليقات.

سادساً - هذا كتاب له أهميته في تراجم الصحابة المصريين، وعليه اعتمد ابن الأثير في (أسد الغابة)، وابن حجر في (الإصابة)، والسيوطي في (حسن المحاضرة)، وهو مُمهّد لكتاب (تاريخ المصريين) لابن يونس الصدقي المؤرخ المصري، الذي كتبه في التراجم، فأضاف إلى الصحابة غيرهم من العلماء المصريين.

بقايا كتاب: (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر) (*)

محمد بن الربيع الجيزي

(حرف الهمزة)

- ١ - أبيض بن حمَّال السَّيْنِي: أخبرني يحيى بن عثمان: أنه شهد فتح مصر^(١).
- ٢ - الأحبَّ بن مالك بن سعد الله: أدرك النبي ﷺ، ودخل مصر، لكنه لا تُعرف له رواية^(٢).
- ٣ - إياس بن البَكَّير اللَّيْثِي: بدرى، شهد فتح مصر. ولأهل مصر عنه حديث واحد، أخبرنيهِ مقدام^(٣) بن داود، حدثنا أبو الأسود النَّضْر^(٤) بن عبد الجبار، عن ابن لَهْيعة، عن عُبَّاش بن عَبَّاس، عن عيسى بن موسى، عن إياس بن البَكَّير، أن رسول الله ﷺ قال: "من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووُفِّيَ لُتْنَةُ الْقَبْرِ"^(٥).

(حرف الباء)

- ٤ - بُسْر بن أَرْطَاة^(٦): لأهل مصر عنه حديث واحد، وحكاية^(٧). روى ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، قال: كان بسر إذا ركب البحر، قال: أنت بحر وأنا بسر، علىّ وعليك الطاعة لله، سمروا على بركة الله. مات أيام معاوية بدمشق^(٨).

(١) ورد بهذا الاسم في: (الإصابة) لابن حجر ج ١ ص ٤٤١، وحسن المحاضرة ٣/١ - ٤ (مقدمة السيوطي، وفيها ذكره ضمن مصادر كتابه). وأحياناً يأتي باسم آخر يتفق مع موضوعه (من دخل مصر من الصحابة)، كما في: (حسن المحاضرة ١/١، ١٦، وبدائع الزهور لابن إياس ٣٣/١). وذكره ابن حجر في موضع في (الإصابة) باسم: (من سكن مصر من الصحابة) ج ٤ ص ٧٣٣ - ٧٣٤. وهي عناوين متقاربة، أدفها ما ورد أولاً، فهو المعتمد في مصادر السيوطي.

(١) حسن المحاضرة ١/١٦٧.

(٢) المصدر السابق: ١/١٦٩.

(٣) أوردها السيوطي (مقدم) في (السابق) ١/١٧٠، وهو تحريف. والصواب ما ذكرت.

(٤) ورد في النص باسم (نصر)، وهذا تصحيف.

(٥) السابق: ١/١٧٠.

(٦) أو (ابن أبي أَرْطَاة). (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم ص ٢٦٠، وحسن المحاضرة ١/١٧٤.

(٧) ورد الحديث، والحكاية الواردة في النص بعد ذلك في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٢٦٠.

(٨) أورده السيوطي هذه الترجمة في (حسن المحاضرة ١/١٧٥).

- ٥ - بشر بن ربيعة الحنَعمي: دخل مصر^(١).
٦ - بلال بن حارث المُرَقي: شهد فتح مصر، وتوفي سنة ستين، وهو ابن ثمانين سنة^(٢).

(حرف التاء)

- ٧ - قميم بن أوس الدَّارِي^(٣): شهد فتح مصر. ولأهل مصر عنه حديث واحد. وسكن فلسطين بعد قتل عثمان، وكان النبي ﷺ أقطعها بها قرية (عَيْتُون)^(٤). مات سنة أربعين^(٥).

(حرف الثاء)

- ٨ - ثوبان بن يَجْدُد^(٦): شهد فتح مصر، واختطَّ بها، ولهم عنه حديث واحد^(٧).

(حرف الجيم)

- ٩ - جابر بن عبد الله الأنصاري: قدم مصر على عقبة بن عامر - ويقال: على يد عبد الله بن أنيس - يسأله عن حديث القصاص، وذلك في أيام (مَسْلَمَةَ ابن مُخَلَّد). ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث. حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثني عَمِي ابنُ وهب، حدثني محمد بن مسلم الطائفي، عن القاسم بن عبد الواحد، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل بن أبي طالب، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كان عبد الله بن أنيس الجُهَنِي - وكان عَداده في الأنصار - يحدث عن رسول الله ﷺ حديثاً في القصاص. قال جابر ابن عبد الله: فخرجتُ إلى السوق، فاشتريتُ بعوراً، ثم شددتُ عليه رَحْلاً، ثم سرتُ إليه شهراً. فلما قدمتُ عليه مصر، سألتُ عنه، حتى وقفتُ على بابه، فسَلَّمْتُ، فخرج إلى غلام أسود، فقال: من أنت؟ قلتُ: جابر بن عبد الله. فدخل عليه، فذكر ذلك، فقال: قل له: أصاحب رسول الله ﷺ؟ فخرج الغلام، فقال ذلك، فقلتُ: نعم. فخرج إلى الترمذي والترمته، فقال: ما جاء بك يا أحمي؟ قلتُ:

(١) المصدر السابق: ١٧٥/١.

(٢) السابق: ١٧٦/١ - ١٧٧.

(٣) ذكر ابن حجر، والسيوطي: أنه كان نصرانياً فأسلم، وكان راهب عصره، وعابد فلسطين. (الإصابة ١/٣٦٨، وحسن المحاضرة ١/١٧٧).

(٤) من قرى بيت المقدس. (معجم البلدان ٤/٢٠٣).

(٥) حسن المحاضرة ١/١٧٧.

(٦) ويقال: ابن جحدر، وهو مولى رسول الله ﷺ. (الإصابة ١/٤١٣، وحسن المحاضرة ١/١٨٠).

(٧) المصدر السابق: ١٨٠/١.

حديث تُحَدَّثُ به عن رسول الله ﷺ في القصاص، لم يبق أحد يُحَدِّثُ به عن رسول الله غيرك، أردتُ أن أسمعك منك، قبل أن تموتَ، أو أموتَ. قال: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إذا كان يوم القيامة، حشر الله الناس حُفَاةَ عَرَاةٍ غُرُلًا بُهْمًا، ثم جلس على كرسية (تبارك وتعالى)، ثم ينادى بصوت، يسمعه مَنْ بَعُدَ، كما يسمعه من قُرْبٍ، يقول: أنا الملك الديان، لا ظُلُمَ اليومَ. لا ينفي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة، ولا ينفي لأحد من أهل النار يدخل النارَ عنده مَظْلَمَةٌ، حتى لطمَةٌ بيد". قيل: يا رسول الله، فكيف، وإنما نأتى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً^(١) بُهْمًا؟! قال: "من الحسنات والسيئات". قال له بعض القوم: ما البُهم؟ قال: سألتُ عنها جابر ابن عبد الله، فقال: الذين لا شئَ معهم^(٢).

وحدثنا علي بن الحسن، عن^(٣) الربيع بن إسحاق، عن أحمد بن يحيى بن دريد، عن أبي نُعَيْمٍ، عن ابن المبارك، عن داود، عن عبد الرحمن العطار، عن القاسم بن عبد الواحد ابن محمد بن عَقِيل، عن جابر بن عبد الله، قال: سرتُ إلى عبد الله بن أبي أُنَيْسٍ - وهو بمصر - أسأله عن حديث. . . ثم ذكره^(٤).

١٠ - جابر بن ماجد^(٥) الصَّدَقِيُّ: جابر الصدقي، ويقال: قيس الصدقي. روى ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن جابر بن قيس، عن أبيه، عن جده مرفوعاً، قال: "سيكون بعدى خلفاء، وبعد الخلفاء أمراء، وبعد الأمراء ملوك، وبعد الملوك جبابرة، وبعد الجبابرة يخرج رجل من أهل بيتي، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، ثم يكون من بعده القَحْطَانِي. والذي نفس محمد بيده ما هو بدونه." ورُوي عن عبد الرحمن بن قيس بن جابر^(٦).

١١ - جاحِل، أبو مسلم^(٧) الصَّدَقِيُّ: لا نعرف له حضور الفتح، ولا خِطْبَةً بمصر. ولم يرو عنه

(١) جمع أَعْرَل، وعُرْلَاء. والمُفْرَنَة: حنطة الصبي التي تُقَطَّع في الحتان. وتُجمع على (عُرْل). والمقصود: أن الناس تُحسِر يوم القيامة على هبتها، التي كانت قد وُضعت عليها في الدنيا (قبل الحتان). (لسان العرب: مادة ع. ر. ل.) جـ ٣٢٤٦/٥. والمعجم الوسيط ٦٧٥/٢.

(٢) حسن الخاضرة ١٨٢/١.

(٣) وردت في (المصدر السابق) ١٨٢/١ هكذا: س.

(٤) السابق: ١٨٢/١ - ١٨٣.

(٥) ورد اسم والده في (الإصابة) ٤٤٠/١، وحسن الخاضرة ١٨٣/١.

(٦) حسن الخاضرة: ١٨٣/١.

(٧) ورد مُكْتَبًى - (أبو محمد) في (المصدر السابق) ١٨٤/١. والصواب ما ذكرت في المتن، فهو الواضح من حلال سد الحديث. وكذا ذكره ابن حجر في (الإصابة) جـ ١ ص ٤٤١.

غير أهل مصر فيما أعلم. وللمصريين عنه حديث واحد من طريق ابن وهب، ثنا أبو الأشعث مؤذن مسجد دمياط، عن شُرْحَيْل بن يزيد، عن محمد بن مسلم بن جاحل، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ^(١)، قال: "إن أحصاهم لهذا القرآن من أمتي منافقوهم"^(٢).

١٢ - جِبَارَةُ^(٣) بن زُرَّارة البَلَوِيّ: بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وكان اسمه (جبارة)، فسماه النبي (جبارة)^(٤).

١٣ - جَبَلَةُ بن عمرو الأنصاري^(٥): توجد رواية عنه من طريق خالد بن أبي عمران، عن سليمان بن يسار، أنه سئل عن الثَّقَلِ^(٦) في الغزو، فقال: لم أر أحداً يعطيه غير ابن حُذَيْج، ثَقْلًا^(٧) في إفريقية الثالث^(٨) بعد الخُمُس، ومعنا من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناسٌ كثير، فأبى جَبَلَةُ بن عمرو الأنصاري أن يأخذ منه شيئاً^(٩).

١٤ - جَرْهَد بن خُوَيْلِد: شهد فتح مصر^(١٠).

(١) المصدر السابق ٤٤١/١. (٢) حس المحاضرة ١٨٤/١.

(٣) هكذا ورد بكسر الخيم مع فتح الباء وتخفيفها في كل من: الاستيعاب ٢٧٨/١، والإكمال ٤٦/٢، وأسد الغابة ٣١٦/١، والإصابة ٤٥٠/١، وحسن المحاضرة ١٨٤/١.

(٤) وانتفهم سر تعيين الرسول اسم هذا الصحابي، رجعتُ إلى معاجم اللغة، فأنقيتُ مادة (ج.ب.ر.) بها (الخيار): أثر الشيء، مثل: بُيِسَ اليد من أثر العمل، أو من صَدَمَ ونحوه في الجدل. تقول: أُخْبِرْتُ الصرة حُلْدَةً، وتُحْلَدُ: أثرت فيه. ورحل مُخْبِرٌ: إذا أكلت الراغيث حِلْدَةً، فتركت آثاراً. (لسان العرب ٧٥٠/٢)، والمعجم الوسيط ١٥٨/١. وبالسبب لمادة (ج.ب.ر.): حَبَرٌ يَحْبُرُ جُيُوراً وجَارَةً. ومنه: حَبَرُ القَطْمِ: أصلح. والجَبَار: جمع حَبَرٍ، والجَارَةُ: والجَبيرة: عِبدان يُحْبِرُها العظام. وفي الدعاء: "اللهم أَخْبِرْنِي وأَهْدِنِي. أَيْ: عَوِّضْنِي ما فقدته. (عنتار الصحاح ص ٩١)، والنساق ٥٣٥/١، والمعجم الوسيط ١٠٩/١. ومعنى ما تقدم: أن الرسول عيّر اسمه إلى الأحسن، بدلاً من أن يعمل ظلال عيب جلدي، حَوَّلَهُ إلى لفظة فيها معنى الإصلاح والتعويض والخير.

(٥) حسن المحاضرة ١٨٥/١.

(٦) و(٧) الثَّقَل: العنينة والذية. والجمع (أفغال). وذلك لخلاف (الثَّقَل) تسكين الفاء، الذي يعنى ما شرع زبادة عن الفريضة. تقول: ثَقَلْ فلاناً: أعطاه نافلة من المعروف. ثَقُلَ (بالتشديد): أعطاه زيادة على نصبه الواجب. (لسان العرب. مادة (ث.ق.ل.): ٤٥٠٩/٦، والمعجم الوسيط ٩٨٠/٢).

(٨) ورد النص في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٣١٨، بنقطة (الصف) بدلاً من (الثالث).

(٩) معلوم أن الأصل في توزيع العائتم قوله تعالى: "وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لَهُ حُصْنَهُ وَلِرَسُولٍ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا لَنُبَوِّدَنَّكُمْ يَوْمَ الْقُرْآنِ يَوْمَ تُنْفَى الْخُمُوعُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ". (سورة الأنفال: الآية ٤١). فالعائتم تُوزَع أربعة أحماسها على المقاتلين: للرجل سهم، وللفراس سهمان (أو ثلاثة). والحمس الباقي يُقَسَّم إلى خمسة أقسام: للرسول (أو القائد)، ولذِي الْقُرْبَى، ولْيَتَامَى، ولْمَسَاكِينِ، وإِنَّ السَّبِيلَ. ومن حق القائد (أو الإمام) أن يُحْرَج من سهمه ما يراه في صلاح المسلمين. وقد رأى ابن حديج أن يزيد المقاتلين على نصيبهم الثلث أو النصف من هذا السهم. فظه عمرو بن حَبْلَة عملاً غير مطابقاً لنسبة، فحرج من أحده، بما هو صحيح، ولم يعترض عليه كبار المهاجرين الأولين. (راجع تفاصيل توزيع العائتم في تفسير اس كثير (الآية الأولى من سورة الأنفال) ج ٢ ص ٢٨٤. والآية رقم ٤١، ج ٢ ص ٣١٠ وما بعدها).

(١٠) حسن المحاضرة ١٨٦/١.

١٥ - جُنَادَة بَن أَبِي أُمَيَّة الْأَزْدِي^(١): كَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، شَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ، وَرَوَى عَنْهُ أَهْلُهَا، وَوَلَّى الْبَحْرَ لِمَعَاوِيَةَ^(٢).

(حرف الحاء)

١٦ - حَبَّانُ بْنُ يُحْيَى الْأَنْصَارِيُّ: لِأَهْلِ مِصْرَ عَنْهُ حَدِيثٌ وَاحِدٌ^(٣).

١٧ - حِزَامُ بْنُ عَوْفٍ الْبَلَوِيُّ: مِنْ بَنِي جُعْلٍ. حَكَى سَعِيدُ بْنُ عُفَيْرٍ أَنَّهُ مِمَّنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فِي رَهْطٍ مِنْ قَوْمِهِ^(٤)، فَقَالَ لَهُمْ: "لَا صَخْرَ وَلَا جَعْلَ. أَنْتُمْ بَنُو عَبْدِ اللَّهِ"^(٥).

١٨ - حِمَزَةُ بْنُ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيُّ: شَهِدَ فَتْحَ مِصْرَ^(٦).

١٩ - حَنْظَلَةُ: صَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ. دَخَلَ مِصْرَ^(٧).

٢٠ - حُصَيْنُ بْنُ حِرَامٍ اللَّيْثِيُّ: لِأَهْلِ مِصْرَ عَنْهُ حَدِيثٌ وَاحِدٌ^(٨).

(حرف الخاء)

٢١ - خَارِجَةُ بْنُ خُذَافَةَ: لَمْ يَرَوْهُ عَنْهُ غَيْرُ الْمَصْرِيِّينَ^(٩).

٢٢ - خَالِدُ بْنُ الْغَنَيمِيِّ: صَحَابِيُّ دَخَلَ مِصْرَ، وَلَا تُعْرَفُ لَهُ رِوَايَةٌ^(١٠).

٢٣ - خُرَّشَةُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَزْدِيُّ: لِأَهْلِ مِصْرَ عَنْهُ حَدِيثٌ وَاحِدٌ^(١١).

(١) هذا هو الراجح (ابن أبي أمية). راجع: ابن سعد في (طبقاته) ٣٠٦/٧، وابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها) ص ٣٠٦، وابن حجر في (الإصابة) ٥٠٢/١. وذكر ابن حجر في (مذهب التهذيب) ج ٩٩/٢: يقال: إن اسم أبيه (أبي أمية) كثير. وورد باسم (أمية) في (حسن المحاضرة) ١٨٦/١، وأعتقد أنه سهو من الناسخ، أو خطأ مطبعي لم يُصَوَّب، فهو مما لا يفوت ابن الربيع الجيزي، ولا السيوطي.

(٢) المصدر السابق: ١٨٧/١.

(٣) المصدر السابق: ١٨٩/١ - ١٩٠، وحديثه في (فتوح مصر) ص ٣١١ - ٣١٢.

(٤) الإصابة ٦٠/٢، وحسن المحاضرة ١٩٠/١.

(٥) الإصابة ٦٠/٢.

(٦) حسن المحاضرة: ١٩١/١.

(٧) المصدر السابق: ١٩٢/١.

(٨) السابق: سَمَّاهُ ابن عبد الحكم دون أن ينسبه، وذكر له رواية واحدة (فتوح مصر ٣١٦).

(٩) الإصابة ٢٢٢/٢، وحسن المحاضرة ١٩٣/١. وقد أورد له ابن عبد الحكم روايتين في (فتوح مصر) ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(١٠) أسد الغابة ١٠٦/٢، والإصابة ٢٤٦/٢ (وذكر أن مُغْلَطَايَ تَعَقَّبَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَثَرِ فِي (المصدر السابق)، من ذكر ابن الربيع - لا أبي الربيع كما ورد تحريفاً - له في الصحابة، ولم يُعَقَّبْ). والصواب: أن ابن الأثير على صواب فيما قال؛ بدليل إيراد السيوطي لهذا الصحابي نقلاً عن (كتاب ابن الربيع). وقد رد على مغلطاي ما قال، وذكر أن هذا الصحابي في آخر كتاب ابن الربيع (حسن المحاضرة ١٩٤/١).

(١١) المصدر السابق ١٩٤/١. ذكر ابن عبد الحكم له رواية في (فتوح مصر) ص ٣١٦.

(حرف الدال)

- ٢٤ - دَحْيَةُ بن خليفة الكلبي: شهد فتح مصر، وقد نزل دمشق، وسكن المزة^(١)، وعاش إلى خلافة معاوية^(٢).
- ٢٥ - ذَيْلَم بن هَوْشَع الجَيْشَانِي^(٣): من موالى بنى هاشم، ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٤).

(حرف الراء)

- ٢٦ - ربيعة بن شَرْحَبِيل بن حَسَنَة: صحابي شهد فتح مصر. وقد أدرك النبي، وهو غلام. وأخوه عبد الرحمن بن شرحبيل. ولا يُعرف له حديث^(٥).
- ٢٧ - ربيعة بن عباد الدَّيْلِي^(٦): ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة؛ لغزو الغرب^(٧).
- ٢٨ - رشيد بن مالك^(٨): من أصحاب النبي ﷺ، وذكر في أهل مصر، ولأهل مصر عنه حديث^(٩).
- ٢٩ - رَكْبُ المِصرى: له صحبة^(١٠).
- ٣٠ - رُوَيْفَع بن ثابت^(١١): شهد فتح مصر، واختلط بهم. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث^(١٢).

(١) صِبْغَة حسنة على باب دمشق. (الأنساب ٢٨٢/٥).

(٢) حسن المحاضرة ١٩٦/١.

(٣) المصدر السابق: ١٩٦/١.

(٤) حديثه في (فتوح مصر) لابن عبد الحكم ص ٣٠٣. ولم يذكر هذا المؤرخ اسم والد هذا الصحابي، ويمكن مراجعة ترجمته في (الإصابة) ج ٢ ص ٣٩٢، حيث يوجد أكثر من اسم محتمل له.

(٥) الإصابة: ٥٠٤/٢، وحسن المحاضرة ١٩٧/١.

(٦) ورد نسبه بالياء تصحيحاً في (المصدر السابق ١٩٨/١)، وقد أثبتته كما في (فتوح مصر) ص ٣١٩. أما ابن حجر في (الإصابة) ج ٢ ص ٤٦٩، فرجح ضبط أسم أبيه كما في المتن، وجعل نسبه (الدلي).

(٧) حسن المحاضرة ١٩٨/١.

(٨) وهو أبو عَمْرٍو المَزَنِي (فتوح مصر ص ٣١٣)، وحسن المحاضرة ١٩٨/١.

(٩) راجع حديثه في (فتوح مصر) ص ٣١٣ - ٣١٤.

(١٠) حسن المحاضرة ١٩٩/١.

(١١) المصدر السابق: ١٩٩/١.

(١٢) ذكر ابن عبد الحكم أن له عند المصريين أحاديث أقل من العشر، ذكر منها خمسة أحاديث (فتوح مصر ٢٧٩ - ٢٨٠).

(حرف الزين)

٣١ - الزُّبَيْرُ بن العَوَّام: شهد فتح مصر، واختلط بها. ولأهل مصر عنه حديث واحد: روى عبد الله بن المغيرة بن أبي بُرْدَةَ: سمعتُ سفيان بن وهب الخَوْلَاني يقول: " لما فتحنا مصر بغسر عهد، قام الزبير بن العوام، فقال: يا عمرو، اقسّمها. فقال عمرو بن العاص: لا أقسمها. فقال الزبير: والله، لَتَقْسِمَنَّها كما قسم رسولُ الله ﷺ خَبِيرٌ. فقال عمرو: لم أكن لأُحَدِّثَ حَدَثًا، حتى أَكْتُبَ بذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه عمر ابن الخطاب: أقرّها حتى تغزو منها حَبْلَ الحَبْلَةِ ". لم يرو أهل مصر عن الزبير بن العوام غير هذا الحديث الواحد^(١). قُتِلَ راجعاً من وقعة الجمل بوادي السَّباع في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وله ست أو سبع وستون سنة^(٢).

٣٢ - زياد بن الحارث الصُّدائي^(٣): شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٤).

(حرف السين)

٣٣ - السائب بن خَلَّاد: شهد فتح مصر، وقدم على عقبة، فاستذكره حديث: "من ستر عورة. . ."، الذي رحل فيه السائب بن خَلَّاد إلى مصر^(٥).

قال ابن عبد الحكم: ذكر يحيى بن حسان، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: إن السائب بن خلاد الأنصاري قدم على (عقبة بن عامر الجهني)، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "من ستر مسلماً، ستره الله" فقال: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فراح، ولم يَقْدَمْ من المدينة إلا لذلك^(٦).

أخبرني يحيى بن عثمان بن صالح، أنبأنا يونس^(٧) بن عبد الأعلى، أخبرني عبد الجبار بن عمر: أن مسلم بن أبي حرة، حَدَّثَهُ عن رجل من أهل قُباء، أنه قدم مصر على مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد،

(١) مسند أحمد ١/١٦٦، وفتوح مصر: ٢٦٣، وحسن المحاضرة ١/١٢٦ - ١٢٧. والمقصود أن عمر ﷺ حمل الأرض في أيدي أهلها يزرعوها، ويحيى المسلمون خراجها، فنستفيد من ذلك الأحيال الأتية.

(٢) المصدر السابق: ١/٢٠٠.

(٣) السابق: ١/٢٠٠.

(٤) راجع: فتوح مصر: ٣١٢ - ٣١٣.

(٥) حسن المحاضرة ١/٢٠٢. وقد ورد نص الحديث في (فتوح مصر) ص ٢٧٥ بلفظ: "من ستر مسلماً، ستره الله".

(٦) حسن المحاضرة ١/٢٠٢.

(٧) ورد في (المصدر السابق) باسم (يوسف)، وهو تحريف. ويونس المذكور (ت ٢٦٤هـ) يمكن أن يروي عن أستاذه (عبد الجبار بن عمر الأيلي) المتوفى بين ٢٦٠ - ٢٧٠هـ. راجع ترجمة الآخر في (لهذب التهذيب) ٦/٩٤.

فضرب عليه الباب واستأذن عليه، فخرج مسلمة إليه، فقال: انزل، فقال: لا، ولكن أرسل معي إلى فلان - رجل من أصحاب النبي ﷺ - ، قال: حسبك أنه قال: سرق. فذهب إليه في قرية، فقال له: هل تذكر مجلساً، كنتُ أنا وأنتُ فيه مع رسول الله ﷺ، ليس معنا أحد غيرنا؟ فقال: نعم. فقال: كيف سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: " من اطلع من أخيه على عورة، ثم سترها، جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار ". قال: كنتُ أعرف ذلك، ولكني أوهمتُ أن أحدث به على غير ما كان. ثم ركب على صدر راحلته، ثم رجع^(١).

٣٤ - السائب الغفاري^(٢): لا يوقف له على حضور الفتح، ولأهل مصر عنه حديث واحد من طريق ابن لبيعة، عن أبي قبيل، عن رجل من بني غفار، حدثه أن أمه أتت به إلى رسول الله ﷺ، وعليه ثَمِيمة. قال: فقطع رسول الله ﷺ ثَمِيمتي، وقال: ما اسم ابنك؟ قالت: السائب. فقال النبي ﷺ: بل سمَّه^(٣) عبد الله. فقلت: أتجيب بكليهما؟ فقال: لا والله، ما كنتُ لأجيب إلا على اسم رسول الله ﷺ، الذي سمَّاني^(٤).

٣٥ - سعد بن أبي وقاص^(٥): شهد فتح مصر، ووردها رسولاً من قبل عثمان. سمعتُ يحيى بن عثمان بن صالح يقول: قدم سعد بن أبي وقاص في خلافة عثمان رسولاً من قبل عثمان إلى أهل مصر أيام ابن أبي حُدَيْفَةَ، فلقيه خارجاً من الفسطاط^(٦)، ومنعه من دخولها، فقال لهم: فلتسمعوا ما أقول لكم. فامتنعوا عليه، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل^(٧). ولأهل مصر عنه

(١) حسن المحاضرة ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

(٢) ورد في (الإصابة) ٢٦/٣.

(٣) لعل الصواب: سمَّيه.

(٤) حسن المحاضرة ٢٠٣/١. ويلاحظ أن هناك خلافاً بغيراً بين رواية ابن الربيع الواردة في المتن، ورواية ابن حجر في (الإصابة ٢٦/٣)، حيث تذكر الأخيرة أن الرسول سأل السائب نفسه عن اسمه، فأجاب، فقُيِّر اسمه. وهنا سأل أبو قبيل: بأيهما تجيب، فقال: بكليهما. فعُتِق أبو قبيل لأنه لو كان مكانه، ما أحاب إلا عن الاسم الذي سمَّاه إياه رسول الله ﷺ. أما في رواية ابن الربيع بالمتن، فسؤال الرسول ﷺ عن اسمه موجهٌ إلى أم الصحابي، فأمرها بتسميته (عبد الله). ولما سأل أبو قبيل عما إذا كان يجيب بكليتا التسميتين، نفى أن تكون إجابته إلا عن الاسم الذي سمَّاه إياه رسول الله ﷺ.

(٥) ذكر السيوطي أن أباه اسمه (مالك). (حسن المحاضرة ٢٠٥/١).

(٦) المقصود: فسطاطه، أي: خيمته التي نزل بها، وليست مدينة الفسطاط؛ لأنهم منعه من دخولها.

(٧) ذكر الحادثة الكندي بدقة، وأورد دعاء سعد على مانعيه دخول مصر بنصه، لا بمعناه كما ذكره السيوطي (حسن المحاضرة ٣٣٦/٢). قال في (الولاء ص ١٦): " فخرج إليه (إلى سعد) منهم مائة أو نحوها، فلقيه بمرحلة بني سعد، وقد ضرب فسطاطه وهو قاتل: فقللوا عليه فسطاطه، وشجَّروه، وسَّبروه، فركب راحلته، وعاد راحلاً من حيث جاء، وقال لهم: " ضربكم الله بالذل والفرقة، وشئتُ أمركم، وجعل بأسكم بينكم، ولا أرضاكم بأمر، ولا أرضاه عنكم ".

حديث واحد^(١). مات بالقيق^(٢)، وحُمل إلى المدينة، فدفن بالقيق^(٣) سنة خمس وخمسين. وقيل: سنة ست. وقيل: سبع. وله بضع وسبعون سنة. وهو آخر العشرة وفاة^(٤).

٣٦ - **سفيان بن وهب الخولاني**: لم يرو عنه غير أهل مصر فيما أعلم. ولهم عنه^(٥) حديثان^(٦). مات سنة إحدى وتسعين^(٧).

٣٧ - **سلامة بن قيسر الحضرمي**: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد^(٨).

٣٨ - **سلطان بن مالك**: ذكره الواقدي فيمن دخل مصر من الصحابة؛ لغزو المغرب^(٩).

٣٩ - **سلمة بن الأكوع**: ذكره الواقدي فيمن دخل مصر؛ لغزو المغرب مات بالمدينة سنة سبع وسبعين، وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعاً رامياً، وكان يسبق الفرس شداً على قدميه^(١٠).

٤٠ - **سندّر**^(١١): لأهل مصر عنه حديثان:

أحدهما من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن ربيعة بن لقيط التميمي، عن عبد الله بن سندر، عن أبيه: أنه كان عبداً لزبناع بن سلامة الجذامي، فعتب عليه، فخصاه وجذعه. فأتى رسول الله، فأخبره. فأغلظ لزبناع القول، وأعتقه منه. قال: أوصي بي يا رسول الله. قال: أوصي بك كل مسلم^(١٢).

(١) يذكر ابن عبد الحكم أن (سعد بن أبي وقاص) ممن دخل مصر من الصحابة، وليست له - فيما بلغه - حكاية (فتوح مصر ٣١٨).

(٢) قال باقوت: تقول العرب لكل سبيل ماء، شقَّه السيل في الأرض، وجعل منه وادياً واسعاً: هو عقيق. والأعقة متعددة في بلاد العرب، لعل المقصود منها: عقيق بناحية المدينة فيه نخل وعيون. (معجم البلدان ١٥٦/٤). ويرجح ذلك ما أورده ابن الأثير في (أسد الغابة) ج ٢/٣٦٩: أنه توفي بالقيق على سبعة أميال من المدينة، فحُمل على أعناق الرجال إلى المدينة، وصلى عليه مروان بن الحكم، وأزواج النبي ﷺ في المسجد النبوي.

(٣) موضع بالمدينة، فيه شجر كثير، وهو مقبرة أهل المدينة. (معجم البلدان ٥٦٠/٢).

(٤) حسن المحاضرة ٢٠٥/١ (صُدِّرَ النص - قال الربيع). والصواب: ابن الربيع.

(٥) وردت في النص: (عنده). وهي غير دقيقة.

(٦) ذكر ابن عبد الحكم أن له أحاديث في مصر، ذكر منها حديثين (فتوح مصر ٣٠٧).

(٧) حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(٨) المصدر السابق: ٢٠٦/١.

(٩) السابق: ٢٠٦/١.

(١٠) حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(١١) سَمَّاه ابن عبد الحكم: (ابن سندر) في (فتوح مصر) ص ٣٠٣. وصُدِّرَ السيوطي النص - (قال ابن أبي الربيع).

(حسن المحاضرة ٢٠٧/١. والصواب: (قال ابن الربيع).

(١٢) المعجم الكبير ١٦٩/٧ (حديث رقم ٦٧٢٦)، وذكره السيوطي في (معظوظ جمع الجوامع) ج ١ ص ١١٨٨.

والثاني - من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير مَرْثَد بن عبد الله الزَيْنِي، عن سندر، قال: سمعتُ رسول الله يقول: " أَسْلَمَ سَأَلَهَا اللهُ، وَغَفَرَ اللهُ لَهَا، وَتُحِبُّ أَجَابَتْ اللهُ وَرَسُولَهُ^(١)."

٤١ - سهيل بن سعد: قدم مصر - بعد الفتح - على مسلمة بن مَخْلَد، ولأهل مصر عنه أحاديث^(٢). مات سنة إحدى وتسعين، وقيل: سنة ثمان وثمانين، وهو ابن مائة سنة. وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة^(٣).

(حرف الشين)

٤٢ - شَيْث بن سعد البلوي: ذكر سعيد بن عُفَيْر: أنه شهد فتح مصر، وله صحبة^(٤).

(حرف الصاد)

٤٣ - صُحَار بن صَخْر: شهد فتح مصر. وروى عنه ابنه: عبد الرحمن، وجعفر. نزل البصرة، وكان من الفصحاء. سأله معاوية عن البلاغة، فقال: لا تُحْطِي، ولا تُبْطِئُ^(٥).

٤٤ - صِلَّة بن الحارث الغفاري: عنه حديث واحد: بينما سُلَيْم بن عُثْر كان يقص على الناس وهو قائم، إذ قال له شيخ من بني غفار له صحبة (صلة بن الحارث الغفاري): والله، ما تركنا عهد نبينا، ولا قطعنا أرحامنا، حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا^(٦).

(حرف الضاد)

٤٥ - ضَمْرة بن الحصين البلوي: شهد ذكر سعيد بن كثير بن عُفَيْر: أنه ممن بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وسكنها^(٧).

(حرف العين)

٤٦ - عَائِد بن ثعلبة البلوي: شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة، واختلط بمصر، واستشهد باليرلس^(٨).

(١) المعجم الكبير للطبراني جـ ٢١/٧ (حديث رقم ٦٢٥٥) من طريق آخر، ويحذف ما يخص (تجيب) من الحديث.

(٢) ذكر ابن عبد الحكم منها أربعة أحاديث. (فتوح مصر: ص ٢٧٥ - ٢٧٦).

(٣) حسن المحاضرة: ٢٠٧/١.

(٤) حسن المحاضرة: ٢٠٨/١.

(٥) الإصابة ٤١١/٣، وحسن المحاضرة: ٢٠٨/١.

(٦) فتوح مصر: ٣١٤ (وعبر عن مقالته تلك بالحديث)، والإصابة: ٤٤٧/٣، وحسن المحاضرة: ٢١٠/١.

(٧) الإصابة: ٤٨٩/٣، وحسن المحاضرة: ٢١٠/١.

(٨) الإصابة: ٦٠٧/٣، وحسن المحاضرة: ٢١٠/١ - ٢١١.

- ٤٧ - عبادة بن الصامت: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه عشرة أحاديث^(١). مات بفلسطين سنة أربع وثلاثين، وله اثنان وسبعون سنة^(٢).
- ٤٨ - عبد الله بن أنيس الجهنني: ويقال: ابن أنيسة، أبو يحيى المدني، حليف الأنصار. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وأخذاً، وما بعدها من المشاهد. ولقبه النبي ﷺ سرية وحده. نزل مصر، ورحل إليه جابر بن عبد الله في حديث القصاص. مات في خلافة معاوية سنة أربع وخمسين^(٣).
- ٤٩ - عبد الله بن الحارث بن جَزء الزبيدي: لأهل مصر عنه عشرون حديثاً^(٤).
- ٥٠ - عبد الله بن خُذافة السهمي: هو من الصحابة البديرين الذين دخلوا مصر، ولا رواية لأهل مصر عنه^(٥).
- ٥١ - عبد الله بن حوالة الأزدي: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد^(٦). نزل الأردن سنة ثمان وخمسين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة^(٧).
- ٥٢ - عبد الله بن الزبير بن العوام: قدم مصر في خلافة عثمان، وشهد إفريقية. ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٨). بويغ له بالخلافة بعد موت يزيد ابن معاوية سنة أربع وستين، وغلب على أهل الحجاز واليمن، والعراق ومصر، وأكثر الشام، فأقام في الخلافة تسع سنين، إلى أن قتله الحجاج سنة ثلاث وسبعين^(٩).
- ٥٣ - عبد الله بن سعد بن أبي سرح: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد، ولم يروى عنه غير أهل مصر، فيما أعلم. مات بعسقلان سنة ست وثلاثين. والحديث الذي رواه في قصة: (أُسْكُنْ حِرَاءَ)^(١٠).

(١) ذكر له منها ابن عبد الحكم سنة أحاديث. (فتوح مصر ٢٧١ - ٢٧٣).

(٢) حسن المحاضرة ٢١١/١. وحدد ابن عبد الحكم وفاته في مدينة الرملة سنة ٣٤هـ (فتوح مصر) ص ٢٧٣.

(٣) حسن المحاضرة ٢١١/١. وسماه ابن حجر (عبد الله بن أبي أنيسة) في (الإصابة) ١٨١/٥.

(٤) حسن المحاضرة: ٢١٢/١. هذا، وقد ذكر ابن عبد الحكم أن له عند المصريين قريباً من عشرين حديثاً، ذكر له منها أحد عشر حديثاً في كتابه (فتوح مصر) ص ٢٩٩ - ٣٠٢.

(٥) حسن المحاضرة ٢١٢/١.

(٦) ذكر له ابن عبد الحكم حديثاً في (فتوح مصر ص ٣١١).

(٧) حسن المحاضرة ٢١٢/١.

(٨) أورد اسمه ابن عبد الحكم، وذكر أنه لم تبلغه عنه حكاية (فتوح مصر: ص ٣١٨).

(٩) حسن المحاضرة ٢١٢/١ - ٢١٣.

(١٠) المصدر السابق ٢١٣/١. وورد هذا الحديث في: (فتوح مصر ص ٢٦٢، والمعرفة والتاريخ للقسري ج ١ ص

٥٤ - عبد الله بن عباس بن عبد المطلب: دخل مصر في خلافة عثمان، وشهد فتح المغرب، ولأهل مصر عنه أحاديث. مات بالطائف سنة ثمان وستين، وهو ابن إحدى - أو اثنتين - وسبعين^(١).

٥٥ - عبد الله بن عُدَيْسِ الْبَلَوِي: لا يُعرف له رواية عن النبي ﷺ^(٢).

٥٦ - عبد الله بن عمر بن الخطاب: شهد فتح مصر، واختط بها دار البركة، ولهم عنه أحاديث. مات بمكة سنة ثلاث وسبعين. وقيل: سنة أربع. وله من العمر أربع وثمانون سنة. وقيل: سبع^(٣) وثمانون سنة^(٤).

٥٧ - عبد الله بن عمرو بن العاص: شهد فتح مصر، واختط بها، ولأهلها عنه أكثر من مائة حديث^(٥). ومات - فيما ذكره ابن عبد الحكم^(٦) - بمصر، وقيل: بالشام، وقيل: بعسقلان، ويقال: بمكة سنة خمس وستين، وله اثنتان وسبعون سنة^(٧).

٥٨ - عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق: دخل مصر في سبب أخيه محمد. ولأهل مصر عنه حديث واحد^(٨). مات بمكة سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة خمس، أو ست^(٩).

٥٩ - عبد الرحمن بن شُرَحْبِيل بن حَسَنَة: أخو ربيعة. له رواية، وشهد فتح مصر^(١٠). وكان قد أدرك النبي، ولا يُعرف له عنه حديث هو أخو ربيعة^(١١).

(١) حسن المحاضرة ٢١٤/١.

(٢) الإصابة ١٧٧/٤، وحسن المحاضرة ٢١٤/١. وجانب ابن حجر الصواب، لما ذكر أن (ابن الربيع) نسب حديثاً إلى (عبد الله بن عُدَيْسِ الْبَلَوِي)، رغم أن ابن حجر ذكر أنه لا يُعرف له رواية (وهو نفس الذي نقله السيوطي عن ابن الربيع، وهو الصواب). والغريب أن ابن حجر لم يعلق على ذلك التناقض، ولم ينتبه إليه، وعاد في ترجمة أخيه (عبد الرحمن)، وذكر الحديث نفسه له، كما سيأتي (الإصابة ٣٣٤/٤). فلعل النسبة الخاطئة المشار إليها زيادة من النسخ، لم يقطن المحقق إليها.

(٣) وردت بلفظة (سبعة). والصواب ما أثبت.

(٤) حسن المحاضرة ٢١٤/١. وبخصوص الأحاديث التي رواها عنه المصريون، فلما تبلغ حوالي ثمانية أحاديث، وروى منها ابن عبد الحكم أربعة (فتوح مصر ص ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٥) قال ابن عبد الحكم: له شبه بمائة حديث. (السابق: ٢٥٤).

(٦) السابق: ٩٦.

(٧) حسن المحاضرة ٢١٥/١.

(٨) راجعه في (فتوح مصر) ص ٢٦٧.

(٩) حسن المحاضرة ٢١٦/١.

(١٠) السابق ٢١٦/١. واكتفى ابن الأثير في (أسد الغابة) ٤٦٠/٣ بقوله: ذكره ابن الربيع في الصحابة، الذين دخلوا مصر.

(١١) الإصابة: ٣٨/٥.

- ٦٠ - **عبد الرحمن بن عذيس البلوى**: شهد فتح مصر، وهم عنه حديث واحد، مثته: "يخرج أناس من أمي يَمْرُقُونَ من الدين، كما يَمْرُق السهم من الرميّة، فيقتلون بجبل لبنان، أو الخليل"^(١). ولم يرو عنه غير أهل مصر. توفي بالشام سنة ست وثلاثين^(٢).
- ٦١ - **عبد الرحمن بن غنم الأشعري**: له صحة^(٣). أخبرني يحيى بن عثمان: أن ابن لبيعة والليث بن سعد قالا: له صحة^(٤). حكى أبو قبيّل أن عبد الرحمن بن غنم الأشعري قدم من الشام إلى عبد الله بن عمرو، فقال له عبد الله: ما أقدمك إلى بلادنا؟ قال: أنت. قال: لماذا؟ قال: كنت تحدثنا أن مصر أسرع الأرضين خراباً، ثم أراك قد اتخذت فيها الرّباع، وبنيت القصور، واطمأنت فيها. قال: إن مصر قد أوفت خرابها، دخلها (بختصر)، فلم يدع فيها إلا السباع والرّباع. وقد مضى خرابها، فهي - اليوم - أطيب الأرض تراباً، وأبعدّها خراباً، ولن تزال فيها بركة، ما دام في شيء من الأرضين بركة. دخل مصر في زمن مروان، ولأهلها عنه حديث واحد^(٥)، رواه ابن وهب عن إبراهيم بن نسيط^(٦)، عن ابن أبي حسين^(٧)، عن شهر^(٨)، عن عبد الرحمن بن غنم، أفهم بينما هم عند رسول الله ﷺ، وقد نزلت: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ... الآية"^(٩).
- ٦٢ - **عبد العزيز بن سنجرة الغافقي**: شهد فتح مصر هو وابنه (شفعة)^(١٠). حدثني يحيى ابن عثمان بن صالح قال: إنه وفد على النبي ﷺ، وكان اسمه (عبد العزى)، فسمّاه النبي عبد العزيز^(١١).

(١) ورد هذا الحديث في (فتوح مصر) ص ٣٠٤، ودلائل النوة للبيهقي ٣٩٤/٦.

(٢) حسن المحاضرة ٢١٦/١.

(٣) المصدر السابق: ٢١٧/١.

(٤) حسن المحاضرة ١٨/١.

(٥) المصدر السابق ٢١٧/١.

(٦) ورد في (الإصابة) ج ٤ ص ٣٥١ محرفاً هكذا (نُسيط). والصور ما أثبتته في المتر، إبراهيم بن نسيط هذا من أساتيد

ابن وهب، الذين روى عنهم (قديد التهذيب ١٥٣/١)، وكذا ورد صحيحاً في (فتوح مصر) ص ٣١٩.

(٧) هو عبد الله بن أبي حسين أستاذ (إبراهيم بن نسيط). (قديد التهذيب ١٥٣/١).

(٨) هو شهر بن حوشب (فتوح مصر ٣١٩).

(٩) نعمة الآية: "... إِنْ يُدْ لَكُمْ نَسُؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُدْ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ

حليم". (سورة المائدة: ١٠١). وللحديث نعمة عن طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أبي مالك

الأشعري... قال: فحين لا نسأله إذ قال: إن الله عباداً ليسوا بأنساء ولا شهداء، يغطهم السيوف والشهداء... .

(مسند أحمد ٣٤١/٥، والأسماء والصفات للبيهقي ٢١٤/٢ - ٢١٥).

(١٠) حسن المحاضرة ٢١٧/١.

(١١) الإصابة ٣٧٥/٤ - ٣٧٦.

- ٦٣ - عُتْبَةُ بْنُ الثَّذَرِ السُّلَمِيُّ^(١): حدثني يحيى بن عثمان بن صالح: أنه شهد فتح مصر. ولأهلها عنه حديث واحد، روى من طرق عدة، منها: طريق عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ قَالَ: سَمِعْتُ عْتَبَةَ بْنَ الثَّذَرِ، وكان من أصحاب النبي ﷺ يقول: . . . فذكر حديثاً في قصة (موسى مع شعيب) في الغنم، وصفة أولادها^(٢).
- ٦٤ - عثمان بن عفان: دخل مصر في الجاهلية للتجارة، وصار إلى الإسكندرية^(٣).
- ٦٥ - عَدِيُّ بْنُ عَمْرَةَ الْكِنْدِيُّ: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث. روى عنه ابنه عدى^(٤).
- ٦٦ - الْعُرْسُ بْنُ عَمْرَةَ الْكِنْدِيُّ: شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديثان. روى عنه ابن أخيه عدى، وغيره^(٥).
- ٦٧ - عقبة بن الحارث المكي: شهد فتح مصر، وهو الذي شرب بها مع عبد الرحمن ابن عمر الخمر. وله رواية عن النبي ﷺ، وليس لأهل مصر عنه شيء^(٦).
- ٦٨ - عقبة بن كُذَيْمٍ^(٧) الأنصاري: لأهل مصر عنه نحو مائة حديث. مات بمصر سنة ثمان وخمسين^(٨).
- ٦٩ - عقبة بن نافع الفهري: شهد فتح مصر، ولا يعرف له حديث^(٩).
- ٧٠ - عَلْقَمَةُ بْنُ رَمْثَةَ الْجُلُؤِي: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد^(١٠).

(١) ورد باسم: عُتَيْدُ بْنُ الثَّذَرِ في (حسن المحاضرة) ٢١٨/١. والصواب ما ذكرت.

(٢) يتناول هذا الحديث صفات الغنم، التي منحها شعيب لموسى وزوجه لما هَمَّا بالرحيل، بعد قضاء موسى الأجل الأول في خدمة شُعَيْبٍ؛ كى يتميضا منها. (فتوح مصر ٣٠٤، والمعجم الكبير للطبراني ١٣٤/١٧ - ١٣٥ (رقم ٣٣٢)، ومجمع الزوائد باب (سورة القصص) جـ ٧ ص ٨٧ - ٨٨.

(٣) حسن المحاضرة ٢١٨/١.

(٤) السابق: ٢١٩/١.

(٥) السابق: ٢١٩/١.

(٦) حسن المحاضرة ٢١٩/١.

(٧) ذكره السيوطي مُتَرَفِّعًا، فقال: (عقبة بن كرم). وكذلك ورد محرفاً - لعله من الناسخ - لدى ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص ١٠٩. والصواب في المتن، ولدى ابن الأثير في (أسد الغابة) ٥٨/٤ (وقد نقل مادته في ترجمته عن أبي نعيم)، ورمز له بـ (ع)، وابن منْذَةَ، الذي رمز له بالرمز (د)، على نحو ما شرح رموزه في مقدمته (جـ ١/١١)، وابن حجر في (الإصابة ٥٢٥/٤).

(٨) حسن المحاضرة ٢٢٠/١.

(٩) المصدر السابق: ٢٢٠/١. والراجح أنه لا تصح صحبته (الاستيعاب ١٠٧٥/٣، وأسد الغابة ٥٩/٤، والإصابة ٦٤ - ٦٥).

(١٠) الإصابة: ٢٢١/١. وحديثه المشار إليه موجود في (فتوح مصر) ص ٣٠٢.

٧١ - **عَمَّارُ بْنُ يَاسِرِ الْعَنْسِيِّ**^(١): دخل مصر رسولاً من قِبَلِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ، وصار إلى صِقْيَةٍ^(٢).

ولأهل مصر عنه حديث واحد من طرق عدة، منها: طريق أبي عُشَّانَةَ^(٣)، قال: سمعتُ أبا اليَقْظَانَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ صَاحِبَ الْبَيْتِ ﷺ يقول: "أبشروا، فوالله لأنتم أشدُّ حُبًّا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَلَمْ تَرَوْهُ - مِنْ عَامَةٍ مَنْ رَأَاهُ"^(٤). قُتِلَ بِـ(صِفَيْنِ) سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة^(٥).

٧٢ - **عَمْرُو بْنُ الْحَقِّمِ الْخُرَاعِي**: دخل مصر في خلافة عثمان. ولهم عنه حديث في الجند الغربي^(٦)، من طريق عبد الرحمن بن شَرِيح، قال: سمعتُ عَمِيرَةَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْغَفَرِيَّ، يقول: حدثني أبي: قال: سمعتُ ابنَ الْحَقِّمِ يقول: قال رسول الله ﷺ: "يَكُونُ فِتْنَةٌ يَكُونُ أَسْلَمُ النَّاسِ فِيهَا - أَوْ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا - الْجُنْدُ الْغُرِّي". قال ابن الحَقِّم: فلذلك قدمتُ عليكم مصر^(٧).

وورد الحديث من وجه آخر^(٨)، عن عمرو بن الحَقِّم، أنه قام عند المنبر بمصر، وذلك عند فتنه عثمان، فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: "تَكُونُ فِتْنَةٌ خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا الْجُنْدُ الْغُرِّي". وأنتم الجند الغربي، فحجثكم لأكون معكم فيما أنتم فيه^(٩).

٧٣ - **عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ السَّهْمِيِّ**: لأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث^(١٠).

(١) كنيته: أبو اليَقْظَانَ. ووقع تصحيف في لقبه، فأُطلقَ عليه (العَنْسِيُّ). (حسن المحاضرة ٢٢٢/١). والصواب: نسبتُه إلى (عَنْسٍ)، كما ورد ذلك في (الاستيعاب ١١٣٥/٣، وأسد الغابة ١٢٩/٤، والإصابة ٥٧٥/٤).

(٢) هذا كلام غير صحيح، ولم أحد في تراجمه (طبقات ابن سعد ٩٣/٦، والاستيعاب ١١٣٥/٣ - ١١٤١، وأسد الغابة ١٢٩/٤ - ١٣٥، والإصابة ٥٧٥/٤) ما يفيد دهايه إلى هذه الجزيرة من جزر البحر الأبيض. وقد فتحها المسلمون على يد أسد بن الفرات (ت ٢١٣هـ) أيام الأغالية (معالم الإيمان ٢٤/٢).

(٣) هو خَتَنُ بَنِي يُمُومِ الْمَصْرِيِّ الثَّقَةِ (ت ١٢٨هـ). (تهذيب التهذيب ٦٣/٣، والتقريب ٢٠٨/١).

(٤) فتوح مصر: ص ٢٦٧.

(٥) حسن المحاضرة: ٢٢٢/١. وورد في نهاية ترجمته كلمات لا علاقة لها بما هي: (بتقديم البناء على السين)؛ ولذا قُتِلَ باستعادها من النص.

(٦) حسن المحاضرة: ٢٢٣/١.

(٧) ورد في (فتوح مصر) ص ٣٠٩. وأخرجه القَسَوِيُّ في (المعرفة والتاريخ) ٤٨٣/٢، والحاكم في (مستدرکه)، كتاب (الفتن والملاحم) ح ٤٤٨، وذكر أنه صحيح الإسناد ولم يُخرِّجْهُ (البحار، ومسلم)، ووافقه الذهبي وصحَّحه صراحةً وبمجم الزوائد ٣٠٤/٧.

(٨) لم يذكر السيوطي في نقله عن ابن الربيع ذلك الوجه الآخر (الإسناد).

(٩) حسن المحاضرة ١٦/١.

(١٠) السابق: ٢٢٤/١. وقد روى ابن عبد الحكم أن له عدد أهل مصر أكثر من عشرين حديثاً (فتوح مصر ص ٢٤٨)، أورد له منها عشرة أحاديث (السابق: ص ٢٤٩ - ٢٥٣).

- ٧٤ - عمرو بن مَرْة الجُهَنِي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث. روى عنه عيسى بن طلحة^(١).
- ٧٥ - عَنَسٌ^(٢) بن ثعلبة البلوى: له صحبة، وباع تحت الشجرة بيعة الرضوان، وشهد فتح مصر^(٣).
- ٧٦ - عَنَسَةُ بن عَدَى: أبو الوليد البلوى. روى سعيد بن عُفَيْر: أنه شهد الحديبية، وقال له النبي ﷺ، ولرَهْط من قومه، وانتسوا إليه: لا إلى جَعْد، ولا إلى صخر، أنتم بنو عبيد الله^(٤). بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، ورجع إلى الحجاز^(٥).
- ٧٧ - عَوْف بن مالك الأشجعي الفُطَافِي: دخل مصر مع معاوية، ولأهلها عنه حديثان^(٦).

(حرف الفاء)

- ٧٨ - قُضَالَةُ بن عُبيد الله الأنصاري: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه نحو عشرين حديثاً^(٧). مات سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة خمس وخمسين^(٨).

(حرف القاف)

- ٧٩ - قيس بن سعد بن عُبادة الأنصاري: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه أحاديث^(٩). أدرك الإسلام عشرة، طول كل رجل عشرة أشبار: عبادة بن الصامت، وسعد بن معاذ، وقيس بن سعد بن عبادة، وجريز بن عبد الله الجَلِي، وعدى بن حاتم الطائي، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي، والأشعث بن قيس الكندي، وليبد بن ربيعة، وأبو زيد الطائي، وعامر ابن الطفيل، ويقال: طلحة بن خويلد^(١٠).
- ٨٠ - قَيْسَبَةُ بن كلثوم: شهد فتح مصر^(١١).

(١) حسن المحاضرة ١/٢٢٤.
 (٢) ورد في (المصدر السابق ١/٢٢٥) مصحفاً (عنس). راجع: (أسد الغابة ٤/٣٠٣).
 (٣) الإصابة ٤/٧٣٣، وحسن المحاضرة ١/٢٢٥.
 (٤) الإصابة ٤/٧٣٤. (٥) حسن المحاضرة ١/٢٢٥.
 (٦) المصدر السابق: ١/٢٢٥.
 (٧) ذكر ابن عبد الحكم منها اثني عشر حديثاً (فتوح مصر) ص ٢٧٦ - ٢٧٩.
 (٨) حسن المحاضرة: ١/٢٢٦.
 (٩) المصدر السابق: ١/٢٢٧. ذكر منها ابن عبد الحكم أربعة أحاديث (فتوح مصر) ص ٢٧٣ - ٢٧٤.
 (١٠) حسن المحاضرة ١/٢٢٨.
 (١١) السابق: ١/٢٢٩.

(حرف الكاف)

٨١ - **كثير بن أبي كثير الأزدي**^(١): لم عنه حديث واحد إن كان صحيحاً، وهو حديث **خَبْرَةُ** بن **شُرَيْح**، عن عقبة بن مسلم، أنه سأل عن الوضوء مما مَسَّتْ النار، فقال: إن كثيرًا - وكان من أصحاب النبي ﷺ - يقول: " كنا عند النبي ﷺ، فَوُضِعَ له طعام فأكلنا، ثم أُقيمت الصلاة، فقمنا فصلينا، ولم نتوضأ"^(٢). والمشهور فيه عقبة بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث^(٣).

٨٢ - **كعب بن عدى التنوخي**: شهد فتح مصر، ولم عنه حديث^(٤). روى سعيد بن كثير^(٥) بن عفير، حدثني عبد الحميد بن كعب بن علقمة بن كعب بن عدى التنوخي، عن عمرو ابن الحارث، عن ناعم بن أُجَيْل، عن كعب بن عدى، قال: أُبْلِغْتُ في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ﷺ، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم انصرفنا إلى الحيرة، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة رسول الله ﷺ، فارتاب أصحابي، وقالوا لو كان نبياً لم يَمُتْ. فقلت: فقد مات الأنبياء قبله، فبُتَّ على الإسلام، ثم خرجتُ أريد المدينة، فمررتُ براهب كنا لا نقطع أمراً دونه، ففُجْتُ إليه، فقلت: أخبرني عن أمر أردته، لَقَحَ في صدري منه شيء. قال: انت باسلك من الأشياء، فأتيتُ بكعب. قال: ألقه في هذا الشَّعْر - لشَّعْرٍ أخرجه - فألقيتُ الكعب فيه، فإذا بصفة النبي ﷺ كما رأيته. وإذا موته في الحين الذي مات فيه، فاشتدت بصيرتي في إيمان، فقدمتُ على أبي بكر، فأعلمته، وأقمتُ عنده، ووجهني إلى المقوقس، ورجعت، ثم وجهني عمر أيضاً، فقدمتُ عليه بكتابه بعد وقعة اليرموك، ولم أعلم بما: فقال لي: علمتَ أن الروم قتلوا العرب، وهزمتهم؟ قلت: لا. قال: ولم؟ قلت: لأن الله وعد نبيه لِيُظْهِرَهُ على الدين كله، وليس يخلف الميعاد. قال: فإن العرب قتلوا الروم - والله - ثَلَّةَ عاد، وإن نبیکم قد صدق، ثم سألتني عن وجوه الصحابة، فأهدى لهم. وقلتُ له: إن العباسَ عَمَّه حَيٌّ، فَتَصِلْهُ؟^(٦).

٨٣ - **كعب بن یَسَار بن ضِنَّة الغبسي**: لأهل مصر عنه حديث^(٧).

(١) لم يذكر نسبه ابن حجر (الإصابة) ٥٧٤/٥.

(٢) السابق: ٥٧٤/٥ - ٥٧٥.

(٣) السابق: ٥٧٤/٥.

(٤) حسن المحاضرة: ٢٢٩/١.

(٥) ورد في (الإصابة ج ٥ ص ٦٠١) بلفظ (خبر) خطأ.

(٦) الإصابة ٦٠١/٥ - ٦٠٢. وذكر السيوطي في (حسن المحاضرة ١/٢٣٠): أنه ساق هذا الأثر في قصة المقوقس، ولم أحده.

(٧) المصدر السابق: ٢٣٠/١.

(حرف الميم)

- ٨٤ - مالك بن زاهر: لم عنه حديث^(١) من طريق ابن لهيعة، عن بكر بن سَوَّادة، عن سعيد ابن عثمان، أنه رأى مالك بن زاهر، وكان من أصحاب النبي ﷺ يُنْقَى باطن قدمه إذا توضأ^(٢).
- ٨٥ - مالك بن عَتَاهِيَةَ التَّجِيبِي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(٣).
- ٨٦ - مالك بن قُدَامَةَ: تابع النبي ﷺ. صحابي دخل مصر^(٤).
- ٨٧ - مالك بن هُبَيْرَةَ التَّجِيبِي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(٥).
- ٨٨ - محمد بن بَشِيرِ الأنصاري: شهد فتح مصر، وليس له حديث في مصر^(٦).
- ٨٩ - محمد بن أبي حبيب المصري: صحابي دخل مصر، وله حديث من رواية عبد الله بن السعدي، مثته: " لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار"^(٧).
- ٩٠ - محمد بن مَسْلَمَةَ: قدم مصر رسولاً من عمر إلى عمرو بن العاص، يقاسمه ماله. مات بالمدينة في صفر سنة ثلاث وأربعين، وله سبع وسبعون سنة^(٨). وكان طويلاً معتدلاً أصْلَع^(٩).
- ٩١ - مَحْمُودُ بن جَزْءِ الزُّبَيْدِي: شهد فتح مصر^(١٠).
- ٩٢ - المستورد بن شَدَّادِ الفَهْرِي: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه أحاديث^(١١)، ولم يرو عنه إلا أهل مصر فيما أعلم إلا قيس بن أبي حازم، فإن له عنه رواية. وقيل: إن أبا إسحاق السَّيِّمِي روى عنه أيضاً^(١٢).
- ٩٣ - مسعود بن أوس الأنصاري: صحابي دخل مصر^(١٣).

(١) السابق ٢٣١/١.

(٢) الإصابة ٧٢٥/٥ - ٧٢٦. وورد حديثه هذا في (فتوح مصر) ص ٣١٧.

(٣) حسن المحاضرة: ٢٣٢/١. وحديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٩.

(٤) حسن المحاضرة ٢٣٢/١.

(٥) اكتفى بالشطر الأول من العبارة في كل من: تذيب التهذيب ٢٢/١٠، والإصابة ٧٥٧/٥، ووردت كاملة في (حسن المحاضرة) ٢٣٢/١. أما حديثه، فرواه ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص ٣١٠.

(٦) السابق: ٢٣٣/١. (٧) المصدر السابق: ٢٣٣/١.

(٨) الإصابة: ٣٥/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٤/١.

(٩) إضافة في (الإصابة) ٣٥/٦.

(١٠) حسن المحاضرة ٢٣٤/١.

(١١) السابق ٢٣٥/١. وله قرابة سنة أحاديث روى منها خمسة في (فتوح مصر ٢٦١).

(١٢) الإصابة ٩٠/٦.

(١٣) حسن المحاضرة ٢٣٥/١.

٩٤ - مَسْلَمَةُ بْنُ مُخَلَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ: روى موسى بن عُلى، عن أبيه، عن مسلمة بن مخلد، قال: وَلِدْتُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَقَبَضَ النَّبِيُّ، وَأَنَا ابْنُ عَشْرٍ سَنِينَ^(١). وفي رواية أخرى من وجه آخر: قدم النبي وأنا ابن أربع سنين، ومات وأنا ابن أربع عشرة سنة^(٢). شهد فتح مصر، واختلط بها، ولأهل مصر عنه حديثان^(٣) أحدهما - أَغْرَوْا النِّسَاءَ يَلْزِمْنَ الْحِجَالَ، وَلَمْ يَصْرَحْ فِيهِ بِالسَّمَاعِ. والثاني - أنه ولد سنة الهجرة. ولى إمرة مصر، وهو أول من جُمِعت له مصر والمغرب، وذلك في خلافة معاوية، وصُدِّرَ من خلافة يزيد بن معاوية^(٤).

ورد من طريق ضِمَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ أَبِي قَبِيلٍ، قَالَ: بَعَثَ إِلَى حَنْظَلَةَ (يعني: أمير مصر)، فَقَالَ: شَيْخٌ، لَوْ كَانَ فِي جَسَدِكَ لِلْسُّوْطِ مَوْضِعٌ لَضْرِبْتُكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو قَبِيلٍ: وَلَمْ ذَاكَ؟ قَالَ: صِرْتُ كَاهِنًا تَقُولُ: الْآخِرُ فَالْآخِرُ شَرٌّ! فَقَالَ لَهُ أَبُو قَبِيلٍ: لَيْسَ أَنَا الَّذِي قُلْتُ هَذَا، إِنَّمَا سَمِعْتُهُ مِنْ مُسْلِمَةَ ابْنِ مُخَلَّدٍ، وَقَدْ قَالَ - وَكَانَ زَادَ فِي بَعْثِ الْبَحْرِ، فَكَرِهَ الْجَنْدَ ذَلِكَ، وَهُوَ عَلَى أَعْوَادِكَ هَذِهِ يَقُولُ: يَا أَهْلَ مِصْرَ، مَا تَقَعَّمْتُمْ مِنِّي؟ وَاللَّهِ، لَقَدْ زِدْتُ فِي مَدَدِكُمْ، وَعَدَدِكُمْ، وَقَوْتَكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ. اعْلَمُوا أَنِّي خَيْرٌ مِنْ بَعْدِي، فَالْآخِرُ شَرٌّ. وفي لفظ: والذي نفسى بيده، لَا يَأْتِيَنَّكُمْ زَمَنٌ إِلَّا الْآخِرُ فَالْآخِرُ شَرٌّ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّخِذَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ، فَلْيَفْعَلْ^(٥). مات بمصر سنة اثنتين وستين^(٦). وقيل: مات بالإسكندرية^(٧).

٩٥ - مَعَاذُ بْنُ أَنَسٍ الْجُهَنِيُّ: شهد فتح مصر، ولهم عنه ستة وأربعون حديثاً^(٨).

٩٦ - مَعَاوِيَةُ بْنُ حُذَيْجٍ التَّجِيبِيُّ: شهد فتح مصر، وهو الوافد على عمر بفتح الإسكندرية^(٩).

٩٧ - مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ: دخل مصر، وبلغ إلى سَلَمَنْتٍ من كورة^(١٠) عين شمس،

(١) الإصابة ١١٧/٦.

(٢) المصدر السابق: ١١٧/٦.

(٣) حسن المحاضرة ٢٣٥/١.

(٤) الإصابة ١١٧/٦.

(٥) الإصابة: ١١٧/٦ - ١١٨.

(٦) المصدر السابق: ١١٧/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٥/١ - ٢٣٦.

(٧) المصدر السابق: ٢٣٦/١.

(٨) السابق: ٢٣٧/١. وقد ذكر ابن عبد الحكم أن أهل مصر رَوَوْا عنه حوالي ٤٠ حديثاً، أورد منها ١٨ حديثاً

(فروح مصر ص ٢٩٥ - ٢٩٨).

(٩) حسن المحاضرة ٢٣٧/١.

(١٠) وردت في (المصدر السابق ٢٣٧/١): (كُور). وخُذَّ ابن عبد الحكم تاريخ دخوله في سنة ٣٧هـ (فروح مصر ٢٦٦).

ورجع من ثمّ. ولهم عنه حديثان^(١). مات بدمشق في رجب سنة ست وستين، وله اثنتان ولثمانون سنة^(٢).

٩٨ - **مُعَيْقِبُ بْنُ أَبِي فَاطِمَةَ الدَّوْسِي**: شهد فتح مصر. مات سنة أربعين في خلافة عثمان^(٣).

٩٩ - **المُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَد**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديثان^(٤). مات بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين، وله نحو سبعين سنة. روى يزيد بن أبي حبيب: أن المقداد بن الأسود غزا مع عبد الله بن سعد إفريقية. فلما رجعوا، قال عبد الله بن سعد للمقداد في دار بناها: كيف ترى بنيان هذه الدار؟ فقال له المقداد: إن كان من مال الله، فقد أفسدت، وإن كان من مالك فقد أسرفت. فقال عبد الله: لولا أن يقول قائل: أفسدت مرتين، لهدمتها^(٥).

١٠٠ - **الْمُنَيِّرُ الْأَسْلَمِيُّ**: دخل مصر، ولهم عنه حديث، وسكن إفريقية^(٦).

١٠١ - **مُهَاجِرٌ**^(٧): مولى أم المؤمنين أم سلمة. روى يحيى^(٨)، عن إبراهيم بن عبد الله التميمي، عن عمران بن عبد الله الكندي، عن بُكَيْرٍ^(٩) مولى عَمْرَةَ: سمعت المهاجر يقول: خدمتُ رسول الله خمس سنين، فلم يقل لي لشيء صنعتُه، لِمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته: لم تركته^(١٠)؟ دخل مصر، وسكن الصعيد، ولهم عنه حديث^(١١).

روى عنه: بُكَيْرٌ (جَدَّ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ)، ولم يرو عنه غير أهل مصر^(١٢).

(١) السابق: ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) حسن المحاضرة ٢٣٧/١. والصواب: أنه تولى بدمشق سنة ٦٠هـ. (فتوح مصر ٢٦٧).

(٣) حسن المحاضرة ٢٣٨/١. والصواب: في خلافة عليّ. (أسد الغابة ٢٤١/٥).

(٤) قال ابن عبد الحكم: لأهل مصر عنه ثلاثة أحاديث (روايات) عن نفسه، وليس لهم عنه، عن رسول الله شيء (فتوح مصر ٢٦٥).

(٥) السابق: ٢٦٦.

(٦) حسن المحاضرة ٢٣٩/١.

(٧) ورد معمرى من (ال) في (فتوح مصر ٣١١)، وحسن المحاضرة ٢٣٩/١. وعُرفت في: (أسد الغابة ٢٧٩/٥)، والإصابة ٢٣٠/٦. والظاهر أن كليهما وارد.

(٨) هو يحيى بن عبد الله بن بُكَيْرٍ.

(٩) هو جد المحدث والمؤرخ المصري السابق.

(١٠) الإصابة ٢٣٠/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٩/١.

(١١) حسن المحاضرة ٢٣٩/١. ويلاحظ أنه ورد في الحديث السابق أنه خدم الرسول سبع سنين (فتوح مصر ٣١١)، بينما ورد في (الإصابة ٢٣٠/٦) دون تحديد مدة.

(١٢) ورد النص كاملاً في (حسن المحاضرة ٢٣٩/١)، واقتصر في (الإصابة ٢٣٠/٦)، على آخره.

(حرف النون)

١٠٢ - نعيم بن حَبَّاب العامري: صحابي دخل مصر^(١).

(حرف الهاء)

١٠٣ - هُبَيْب بن مُغْفَل: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه حديث^(٢)، وإليه يُنسب وادي هُبَيْب؛ لأنه كَانَ اعتزل في فتنه عثمان هناك، وتوفى به^(٣).

(حرف الهمزة)

١٠٤ - لاجب بن مالك بن سعد الله البلوي: صحابي بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، ولا رواية له^(٤).

(حرف الياء)

١٠٥ - يزيد بن أنيس الفهري: شهد فتح مصر، واختط بها، ولم يرو إلا حديثاً واحداً في غزوة حُنَيْن رواه عنه غير أهل مصر^(٥).

(الكُنى)

(حرف الألف)

١٠٦ - أبو الأعور السُّلَمي: قدم مصر مع مروان بن الحكم، ولهم عنه حديث^(٦).

١٠٧ - أبو أيوب الأنصاري: شهد فتح مصر، وغزا بجرها، ولهم عنه نحو عشرين حديثاً^(٧). مات بالقسطنطينية غازياً مع يزيد بن معاوية في سنة اثنتين وخمسين، وقبره هناك يستسقى به الروم إذا قَحَطُوا^(٨).

(حرف الباء)

١٠٨ - أبو بَصْرَةَ الغفاري: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرة أحاديث^(٩).

(١) حسن المحاضرة ٢٤٠/١.

(٢) أورده ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) حسن المحاضرة: ٢٤٠/١ - ٢٤١.

(٤) المصدر السابق: ٢٤١/١.

(٥) السابق: ٢٤٢/١.

(٦) حسن المحاضرة ٢٤٢/١. وحديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٩.

(٧) ذكر ابن عبد الحكم أن له تسعة أحاديث، أورد منها ستة. (السابق: ص ٢٦٨ - ٢٧٠).

(٨) حسن المحاضرة ٢٤٣/١.

(٩) المصدر السابق ٢٤٣/١. قال ابن عبد الحكم: له خمسة أحاديث ذكرها في (فتوح مصر) ص ٢٨٣ - ٢٨٤.

(حرف الثاء)

١٠٩ - أبو ثور الفهمي: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(١).

(حرف الجيم)

١١٠ - أبو جبر: بدرى. أخبرني يحيى بن عثمان بذلك، وأنه دخل مصر^(٢).

١١١ - أبو جُدَيْع المرادى: ذكر ابن وزير، وعبد العزيز بن ميسرة: أنه كان عاملاً للنبي ﷺ، وأنه كان من أهل مصر^(٣).

١١٢ - أبو جمعة الأنصاري: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(٤).

(حرف الدال)

١١٣ - أبو الدرداء: شهد فتح مصر، ولهم عنه خمسة أحاديث. مات سنة اثنين وثلاثين^(٥).

(حرف الذال)

١١٤ - أبو ذرّ الغفاري: شهد فتح مصر، واختلط بها، ولهم عنه عشرون حديثاً^(٦)، منها: حديث قال فيه أبو ذرّ الغفاري^(٧): قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط^(٨)، فاستوصوا بأهلها خيراً؛ فإن لهم ذمّةً ورحماً. فإذا رأيت رجلين يقتتلان على موضع لَبَنَةٍ، فاحرجْ منهما". قال: فمرّ أبو ذرّ بـ (ربيعة، وعبد الرحمن) ابني^(٩)

(١) حسن المحاضرة ٢٤٣/١. ذكر حديثه في (فتوح مصر) صـ ٣٠٣.

(٢) حسن المحاضرة ٢٤٤/١.

(٣) حسن المحاضرة: ٢٥٢/١. أورده السيوطي في (باب المبهات)، وقد نقلته إلى (باب الكنى)، فهو به أليق.

(٤) الإصابة: ٦٦/٧، وتهذيب التهذيب ٦٣/١٢، وحسن المحاضرة ٢٤٤/١. هو حبيب ابن سباع، وحديثه في (فتوح مصر) صـ ٣٠٨.

(٥) حسن المحاضرة ٢٤٥/١.

(٦) قال ابن عبد الحكم: لأهل مصر عنه أحاديث، ذكر منها تسعة. (فتوح مصر ٢٨٤ - ٢٨٦).

(٧) هو جُدَيْع بن جُنَادَة (هكذا ضبط ابن حجر الاسمين خلال تعريفه بـ (جندب بن مكيث، وحنادة بن أبي أمية). (التقريب ١٣٤/١).

(٨) نوع من الأوزان المستخدمة في مصر آنذاك. ويذكر د. الرئيس أن الدينار إذا انقسم إلى عشرين قيراطاً، فإن مقدار القيراط يكون ٢٥ ÷ ٤ = ٢٠ و ٢١٢٥. من الجرام. وإذا اعتبرناه إلى اثنين وعشرين قيراطاً، فإن القيراط يساوي ٢٥ ÷ ٢٢ = ١٩٣. من الجرام. وإذا عُدَّ منقسماً إلى أربعة وعشرين قيراطاً، فإن القيراط يساوي ٢٥ ÷ ٢٤ = ١٧٧. من الجرام. (الخراج والظم المالية للدولة الإسلامية) صـ ٣٥٤.

(٩) وهو الأدق كما في (فتوح مصر) صـ ٢٨٥، وهو أصح مما ورد في (حسن المحاضرة) ١٢/١، إذ ورد بلفظ (ابن).

شرحبيل بن حسنة، وهما يتنازعا في موضع لبنة، فخرج منها^(١). وقد سكن مصر مدة، ثم خرج منها، لما رأى اثنين يتنازعا في موضع لبنة، كما أمره رسول الله بذلك. مات بالرَّيْدَة في ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين^(٢).

(حرف الراء)

١١٥ - أبو رافع القبطي: شهد فتح مصر، واختط بها، ولم يمض عنه حديث. مات بالمدينة بعد عثمان بيسر^(٣).

١١٦ - أبو الرَّمْدَاء البلوي: شهد فتح مصر، ولم يمض عنه حديث^(٤).

(حرف الزين)

١١٧ - أبو الزَّعْرَاء: صحابي دخل مصر. ولم يمض عنه حديث^(٥)، رواه ابن وهب، عن عبد الله ابن عبيد بن جراح، عن عبد الله بن جنادة الماعري، عن أبي عبد الرحمن الحُبَلِي، عن أبي الزَّعْرَاء، قال: خرجت مع رسول الله في سفر، فسمعتُه يقول: "غير الدُّجَال أخوفُ علي أمي من الدجال أئمة مُضِلُّون"^(٦).

١١٨ - أبو زَمْعَةَ البلوي: شهد فتح مصر، ولم يمض عنه حديث في الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وسأل: هل لي من توبة؟ ولم يرو عن النبي ﷺ غيره، ومات بإفريقية. ويقال: اسمه مسعود بن الأسود^(٧).

(حرف السين)

١١٩ - أبو سعيد (صاحب رسول الله): ويقال: أبو سعاد. واسمه: عبد الله بن بشر. صحابي دخل مصر^(٨).

(١) ورد هذا النص في (المصدر السابق) ١١/١ - ١٢، وكذلك ورد في (فتوح مصر) ص ٢٨٥ من طريق ابن وهب، عن حَرَمَةَ بن عمران التميمي، عن ابن شماس المَهْرِيِّ، عن أبي ذر. هذا، وقد أخرج هذا الحديث الإمام أحمد في (مسنده): ١٧٣/٥ - ١٧٤، والإمام مسلم في (صحيحه)، كتاب (فضائل الصحابة)، باب (وصية النبي بأهل مصر) ج ٤ ص ١٩٧ (رقم ٢٥٤٣).

(٢) حسن المحاضرة ١/٢٤٥. (وحَدَّث ابن عبد الحكم ظروف وفاته، بأنه تولى منصرفه من المدينة إلى الكوفة). (فتوح مصر ٢٨٦).

(٣) حسن المحاضرة ١/٢٤٥ - ٢٤٦.

(٤) السابق: ١/٢٤٦. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٢. وأكثر المحدثين على أنه بالميم، وأهل مصر ينطقونه بالباء (أبو الريداء). (الاستيعاب ٤/١٦٥٨، وأسد الغابة ٦/١١٢).

(٥) حسن المحاضرة ١/٢٤٦.

(٦) الإصابة ٧/١٥٣ - ١٥٤.

(٧) حسن المحاضرة ١/٢٤٧. تراجع الحديث كاملاً في (أسد الغابة) ٦/١٢٢.

(٨) حسن المحاضرة ١/٢٤٧.

(حرف الصاد)

١٢٠ - أبو صِرْمَةَ الأنصاري: صحابي نزل مصر، وشهد فتح مصر^(١)، فيما يذكر يحيى بن عثمان. وذكر أحمد بن يحيى بن الوزير: أنه قدم على (عقبة بن عامر). وروى زياد بن أيوب، قال: كنا مع أبي أيوب في البحر، ومعنا أبو صرمة الأنصاري صاحب رسول الله... الحديث^(٢). ويقال: هو أبو صرمة، الذي نزلت فيه^(٣): "وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ... الآية"^(٤).

(حرف الضاد)

١٢١ - أبو ضُبَيْس^(٥) البَلَوِي: صحابي دخل مصر؛ لفزو المغرب^(٦).

(حرف العين)

١٢٢ - أبو عبد الرحمن الجُهَنِي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديثان^(٧).

١٢٣ - أبو عبد الرحمن القَيْنِي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث^(٨).

(حرف الفاء)

١٢٤ - أبو فاطمة الأزدي: شهد فتح مصر، واختلط بها، ولهم عنه حديث^(٩).

(حرف الميم)

١٢٥ - أبو مالك^(١٠) الأشعري: هو الصحابي كعب بن عاصم، شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث^(١١).

(١) المصدر السابق: ٢٤٨/١.

(٢) لم يكمل ابن حجر نص الحديث.

(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٧.

(٤) الإصابة: ٢١٩/٧.

(٥) وردت هذه اللفظة معروفة في (الإصابة) ٢٢٥/٧.

(٦) حسن المحاضرة ٢٤٨/١.

(٧) المصدر السابق: ٢٤٨/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٨) حسن المحاضرة ٢٤٨/١.

(٩) السابق: ٢٤٩/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(١٠) ذكر ابن حجر في (تهذيب التهذيب): ٣٨٩/٨ - ٣٩٠: أن كنيته (أبو مالك). ولا يصح تسمية السيوطي له بـ

(أبي فاطمة). (حسن المحاضرة ٢٤٩/١).

(١١) حسن المحاضرة: ٢٤٩/١.

- ١٢٦ - أبو مسلم الغافقي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث^(١).
 ١٢٧ - أبو مُلَيْكَةَ^(٢) البلوي: صحابي دخل مصر، لهم عنه ثلاثة أحاديث^(٣)، منها: ما رواه عَلِيُّ ابن رَبَاح، عن أبي مليكة البلوي، أنه قال لأبي راشد، الذي كان بفلسطين: كيف بك - يا أبا راشد - إذا وليك وفاة، إن عصيتهم دخلت النار، وإن أطعتهم دخلت النار؟!^(٤).
 ١٢٨ - أبو موسى الغافقي: خدام النبي، وشهد فتح مصر، ولهم عنه ثلاثة أحاديث^(٥).

(حرف الهاء)

- ١٢٩ - أبُو هُرَيْرَةَ الدَّوْسِي: قدم مصر على مسلمة بن مخلد في خلافة معاوية، ولهم عنه ثلاثة وثلاثون حديثاً^(٦).

- ١٣٠ - أبو هند الداري: دخل مصر، ولهم عنه حديث^(٧).

- ١٣١ - أبو الهيثم: صحابي دخل مصر^(٨).

(حرف الواو)

- ١٣٢ - أبو وَخَّوحَ البلوي: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث^(٩).

(المبهمات)

- ١٣٣ - رجل من صُداء: لأهل مصر عنه حديث واحد من طريق أبي عبد الله بن جزء، عن بكر بن سواده، عن رجل من صداء، قال: أتينا النبي ﷺ - اثنا عشر رجلاً - فبايعناه، وترك منا رجلاً، لم يبايعه، فقلنا: بايعه يا رسول الله. فقال: لن أبايعه، حتى يترع النبي عليه، إنه مَنْ كان عليه مثل الذي عليه، كان مشركاً ما كانت عليه. قال: فنظرنا، فإذا في عَصْده سَيْرٌ فيه شيء من لحناً شجرة^(١٠).

(١) المصدر السابق: ٢٥٠/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣١٤.

(٢) ورد محرفاً (مُلَيْكَة) في (حسن المحاضرة): ٢٥٠/١.

(٣) المصدر السابق: ٢٥٠/١.

(٤) الإصابة ٣٨٥/٧. أوضح ابن عبد الحكم أن أبا راشد هذا كان أميراً، أو والياً بفلسطين. (فتوح مصر ٣١٥).

(٥) هو مالك بن عباد (حسن المحاضرة ٢٥٠/١). له حديثان في (فتوح مصر) ص ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٦) حسن المحاضرة ٢٥٠/١. ذكر ابن عبد الحكم أن له شيئاً بعشرين حديثاً، أورد منها ثمانية (فتح مصر) ص ٢٨٠ - ٢٨٢.

(٧) حسن المحاضرة ٢٥١/١.

(٨) حسن المحاضرة ٢٥١/١.

(٩) المصدر السابق: ٢٥١/١. حديثه في (فتوح مصر) ص ٣١٤.

(١٠) حسن المحاضرة: ٢٥٢/١. ولها الشجرة: النَّحَاء: قشرة كل شيء، ويُطلق على السبيح الوعاني، الذي يوصل

الغذاء في النبات (المعجم الوسيط مادة: ل. ح. ج. ١) ص ٨٥٣.

(خاتمة)

ذكر ابن وزير: أنه دخل مصر مع عمرو بن العاص من بليّ - ممن بايع تحت الشجرة - مائة رجل. والمقلّ يقول: سبعون رجلاً^(١).

(دراسة كتاب ابن الربيع الجيزي عن الصحابة)

والآن مع دراسة المحاولة المتواضعة التي قمت بها لتجميع بقايا كتابه الأول على ضوء ما سمحت به المادة المتاحة في بطون المصادر المتأخرة المعنية بذكر تراجم الصحابة المصريين (رضي الله عنهم). وقد حاولت أن أتحرى الدقة، فلا أنسب إلى (مورخنا) ما لم تصرح المصادر الناقلة عنه بنسبته إليه، مرتباً تراجمه على (حروف المعجم)، رغم عدم وجود ما يدل على انتهاج ابن الربيع هذا النهج، إلا أنه النهج الذي تَوَخَّاهُ السيوطي في استدراكه^(٢)، فلعله تبع منهجه.

ضوابط دراسة بقايا كتاب (ابن الربيع الجيزي)
عن (الصحابة في مصر)

الضابط الأول - ينبغي - قبل تلك الدراسة - أن نتذكر أننا لسنا أمام كتاب كامل مطبوع، بل نحن أمام أشلاء كتاب مفقود، لعب المؤرخ السيوطي دوراً كبيراً في الحفاظ على قدر لا بأس به منه. غير أن السيوطي - بدافع الاختصار - فرغ كثيراً من التراجم من محتوياتها، فجاءت سطحية، تكاد تخلو من مادتها التاريخية^(٣)، بل أغفل النقل عن (ابن الربيع) في بعض الأحيان، خاصة ما يتعلق بترجمة صحابي مهم^(٤) في مصر. ومن هنا يجب أن تكون ملاحظاتنا العامة المنهجية حذرة، واضحة ذلك في الاعتبار.

الضابط الثاني - ألا ننسب لابن الربيع إلا ما صرّحت المصادر الناقلة عنه بصحة نسبة ما

(١) حسن المحاضرة ١/ ٢٥٤.

(٢) وذلك في كتاب (دَر السحابة) الموجود داخل كتابه: (حسن المحاضرة) ج ١ - ص ١٦٦ - ٢٥٤.

(٣) راجع - مثلاً - تراجم الصحابة: بشر بن ربيعة الخنمى (رقم ٥)، وجرهد بن خويلد (رقم ١٤)، وحمزة بن عمرو الأسلمي (رقم ١٨).

(٤) هو الصحابي الجليل الفقيه والي مصر (٤٤ - ٤٧هـ) عتبة بن عامر الجهمي، الذي لعب دوراً رائداً مهماً في حياة مصر العلمية، وذكر ابن عبد الحكم أن له في مصر قرابة مائة حديث، ذكر له منها ٣٨ حديثاً في (فتوح مصر) ص ٢٨٧ - ٢٩٤. هذا الصحابي لم نعد له ذكراً في بقايا كتاب ابن الربيع، ويصعب علينا التسليم بأنه كان يجهله، ولا يعرف قدره.

نقلتُ إليه. ومن هنا يجب تحديد بداية ونهاية الاقتباس عن ابن الربيع؛ لئلا يلتبس بما أخذ عن غيره من المصادر الأخرى^(١).

الضابط الثالث والأخير - وقع حذف لكثير من أسانيد مرويات (ابن الربيع)، وكذلك اكتفى السيوطي بنقل إشارة ابن الربيع إلى عدد الأحاديث، التي رواها الصحابي دون ذكر الأحاديث نفسها بطرقها المختلفة؛ مما أدى إلى انطماس عدد من موارد ابن الربيع، ونقص مادته، واختفاء معالم حضور شخصيته تعليلاً، وتعليقاً، اللهم إلا في مواطن محدودة للغاية. ولذا وجب مراعاة ذلك كله عند النظر إلى منهج ابن الربيع.

الملاحظات العامة على بقايا (ابن الربيع الجيزي) عن (تاريخ الصحابة في مصر):

أولاً - ذكر السيوطي أن المؤرخ (محمد بن الربيع الجيزي) أَلَفَ كتاباً في مجلد عن تاريخ الصحابة، الذين دخلوا مصر، وأنه أورد به مائة، وثيقاً وأربعين صحابياً، وأنه استدرك عليه ما فاتته منهم، والسيوطي استكمل ذلك من كتاب ابن عبد الحكم، وتاريخ ابن يونس، وطبقات ابن سعد، وتجرید الصحابة للذهبي، وغيرها، حتى وصل بعددهم إلى ما يزيد على (ثلاثمائة) صحابي^(٢).

والحق أنه بالنظر إلى عدد الصحابة، الذين أوردتهم السيوطي، نقلاً عن كتاب (ابن الربيع)، نلاحظ أنهم بلغوا حوالي (١٣٢ صحابياً)، وذلك يعني أن معظم أسماء الصحابة الموجودين في كتاب (ابن الربيع) موجودة بين أيدينا. أما محتوى تراجم هؤلاء، فهو الذي حدث فيه اختصار شديد - كما أشرتُ من قبل، وسأشير بتفصيل آخر من بعد - بحيث وجدنا المادة التاريخية المُتَبَقَّة - مثلاً - في ترجمة صحابي مهم كعمرو بن العاص^(٣)، وابنه عبد الله^(٤) شحيحة، ولا تتناسب - بحال - مع أهميتهما، ودورهما الرائد على المستوى الحربي، والسياسي، والإداري،

(١) حدث تداخل في ترجمة الصحابي (أبي بصرة الغفاري) بين مادة نقلها السيوطي عن ابن الربيع، وأخرى عن ابن سعد كما يلي: "قال ابن الربيع: شهد فتح مصر، واحتط ما، ولم عنه عشرة أحداث، وكانت وفاته بمصر، ودُفن بالمقطم. قاله ابن سعد". (حسن المحاضرة ٢٤٣/١). وبالرجوع إلى (طبقات ابن سعد ٣٤٦/٧)، وجدت أن ما به يتعلق بوفاة الصحابي، ودفنه. ومن ثم، فيرجع أن ما قبل ذلك لابن الربيع، وكان على محقق (حسن المحاضرة) الفصل بينهما بنقطة، وكان على السيوطي تقديم اسم المصدر على النص المفتس منه؛ منعاً للخلط.

(٢) حسن المحاضرة ١٦٦/١. وقد أشار إلى أنه سيضع علامة ورمز (ك) فوق الصحابي، الذي أضافه على ما في كتاب ابن الربيع، إلا أنه لم يطق ذلك في ترجمة الصحابي أبي فاطمة (الأزدی)، الذي وضعت فوقه هذه العلامة رغم أنه نقل في ترجمته عن (ابن الربيع الجيزي). (حسن المحاضرة ٢٤٩/١).

(٣) ترجمة رقم (٧٣).

(٤) ترجمة رقم ٥٧.

والعلمي في تاريخ مصر الإسلامية المبكر. وكان على ابن الربيع أن يستبعد الصحابة المجاهيل^(١)، والمبهمين^(٢)، ويكتف جهوده في مزيد من التعريف والترجمة للمبرزين منهم، ولعله فعل ذلك في أصل كتابه، وذكر -إلى جانب هؤلاء - مَنْ ضعفت شهرتهم؛ للوفاء بشرط كتابه.

من الواضح أن مفهوم الصحبة لدى ابن الربيع يُطلق على (الصحبة العامة)؛ بدليل أنه اعتبر من أدرك الرسول ﷺ - وهو غلام - صحابياً^(٣). وبالنظر إلى مدى انطباق عنوان الكتاب على مضمونه، فقد كان ذلك متحققاً، إذ إن كل مَنْ ترجم لهم دخلوا مصر بعد إسلامهم، وتحققت صفة الصحبة لهم على النحو العام الذي قصده مؤرخنا، اللهم إلا في موضع واحد يغلب على ظني أنه خرج فيه عن إطار كتابه، وذلك عندما ترجم للصحابي (عثمان بن عفان)، فذكر أنه دخل مصر تاجراً في الجاهلية، وتوجه إلى الإسكندرية^(٤). ولم يذكر عنه مزيد معلومات، تفيد دخوله إليه بعد إسلامه، حتى نعهده صحابياً من الصحابة الذين أتوا إليها^(٥).

وأخيراً، فإن ابن الربيع لم يتعرض - فيما بين أيدينا من كتابه - لترجمة أية امرأة من النساء الصحابيات في مصر. ولا يُردّ على ذلك بأنه إنما عني بالصحابة الرجال؛ لأن الصحبة - في نظري - تنسحب - أيضاً - على النساء، ما دُمّن أدركن رسول الله ﷺ. والحق أن ابن الربيع لم يجد مادة تاريخية عن النساء الصحابيات في مصر، شأنه شأن ابن عبد الحكم من قبل. وقد فطن السيوطي إلى ذلك، فعقد في كتابه باباً للنساء^(٦)، حاول فيه أن يتلمس بعضهن في مصر، لكنه ما وصل إلى ترجمة قاطعة بهذا الشأن^(٧).

ثانياً - يبدو أن ابن الربيع كان حريصاً على توثيق مادته التاريخية^(٨) - إلى جانب أسانيد

(١) مثل: قيسية بن كلثوم (رقم ٨٠)، وأبو جبر (رقم ١١٠)، وغيرهما.

(٢) مثل: رجل من صُداء (رقم ١٣٣). وقد أسقطته من إحصائي عدد الصحابة الثقبين من كتاب (ابن الربيع).

(٣) مثل: الصحابي (ربيع بن شرحبيل بن حسنة): ترجمة رقم (٢٦).

(٤) ترجمة رقم (٦٤)، وهي كل ما ذكره السيوطي عنه في (حسن المحاضرة): ٢١٨/١.

(٥) وكذلك بحثت في عدد من المصادر، التي ترجمت لهذا الصحابي رحمه الله، فلم أجد أي ذكر لذهوله إلى مصر، لا في جاهلية ولا في إسلام. (طقات ابن سعد ٣٩/٣ - ٦١، والاستيعاب ٣٧/٣ - ١٠٥٣، وأسد الغابة ٣/٥٨٤ - ٥٩٦، والإصابة ٤/٤٥٦ - ٤٥٩، وتذويب التهذيب ٧/١٢٧ - ١٢٩. وحديث بالذكر أن ابن عبد الحكم لم يذكر هذا الصحابي ضمن الصحابة، الذين دخلوا مصر، ولا فيمن رووا أحاديثها.

(٦) حسن المحاضرة ١/٢٥٢ - ٢٥٤ (وجعله في ذيل كتابه: در الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة)، الذي استدرج فيه ما فات كتاب ابن الربيع، وذلك كله داخل كتابه (حسن المحاضرة).

(٧) فهي كلها مجرد استنتاجات، كأن يقول: دخل أبو ذر مصر، فالظاهر أن امرأته (أم ذر) كانت معه. وكذلك قوله عن: عبد الله بن أبيس الجهلي بأن امرأته صحابية، فالظاهر أنها أقامت معه في مصر. (المصدر السابق: ٢٥٣/١).

(٨) وإذا كانت بعض مروياته في نقابا كتابه جُزئاً من أسانيدها (مواردها)، فذلك إنما يرجع إلى حذف السيوطي لها -

أحاديث الصحابة - فاحتفظ لنا السيوطي بعدد من موارده التي استقى منها معلوماته. ومن هذه الموارد: الواقدي (ت ٢٠٧هـ)، الذي صرح ابن الربيع بالنقل عنه. ويبدو أن ذلك كان من كتابه عن (الصحابة في مصر)^(١).

والملاحظ أن ابن الربيع اعتمد عليه - في ضوء ما لدينا من بقايا كتابه - في التعريف بالصحابة، الذين دخلوا مصر؛ لغزو المغرب^(٢). وكذلك المؤرخ المصري (سعيد بن كثير بن عفير ت ٢٢٦هـ)^(٣)، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ)^(٤) من خلال كتابه (فتوح مصر وأخبارها)، وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ت ٢٦٤هـ)^(٥)، ومؤرخ مصر يحيى ابن عثمان بن صالح السهمي (ت ٢٨٢هـ)^(٦)، ومقدم بن داود (ت ٢٨٣هـ)^(٧).

وهكذا، جمع المؤرخ ابن الربيع بين المصادر المكتوبة (الواقدي، وابن غفير، وابن عبد الحكم، ويحيى بن عثمان بن صالح السهمي)، وهي مؤلفات مهمة لمؤرخين كبار، وبين روايات شفهية حديثة (أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، ومقدم بن داود). وكان موفقاً - إلى حد كبير - في اختيار كثير من موارده، التي بين أيدينا.

- بدافع الاختصار. ولما مثلاًن يؤكدان ذلك: ١ - وردت ترجمة الصحابي (محمد بن مسلمة) في كتاب (ابن الربيع) - وهي رقم ٩٠ - بدون ذكر المورد، وبالرجوع إلى ما اقتبسه ابن حجر - في ترجمة هذا الصحابي. (١) وحديث بالذکر أن ابن الربيع لا يذكر - أحياناً غير قليلة - مصدره المباشر، الذي روى عنه أحاديث الصحابة في مصر - كما في تراجم أرقام: ١١، ١٣، ٤٠ - واعتقد أن ذلك من السيوطي، الذي كان يكتفي بجزء من الإسناد، ويغفل بدايته. (٢) أشار إلى ذلك الكتاب، ونقل عنه: ابن الأثير في (أسد الغابة) ج٢ ص٤١٤، وابن حجر في (الإصابة) ج٣ ص١٣٧.

(٣) راجع مواضع النقل عنه في تراجم أرقام: ١٧، ٤٢، ٤٥، ٧٦، ٨٢ (وما معلومات جديدة). وهو أمر غير مستغرب على هذا المؤرخ المصري، الذي يرجع أن له كتاباً في (تاريخ مصر). لمزيد من المعلومات عن هذا المؤرخ راجع: رسالتي للمباحث (الدراسات التاريخية في مصر الإسلامية في القرن الثالث الهجري) ج٢/١٣٣ - ١٥٢. (٤) صرح بالنقل عنه في موضعين (ترجمة ٣٣، ٥٧).

(٥) وهو ابن أخي المحدث والمؤرخ المصري (عبد الله بن وهب). وقد نقل عنه (ابن الربيع) حديث (جابر بن عبد الله)، الذي رواه عن عبد الله بن أنس البهني في القصاص، وجاء لأهله حصصاً من المدينة إلى مصر. (ترجمة رقم ٩). (٦) وهو حافظ وعالم بأخبار مصر وتاريخها، وابن المؤرخ (عثمان بن صالح السهمي المتوفى سنة ٢١٩هـ). (راجع دراساتي عنهما في: رسالتي للمباحث ج٢ ص ٨٠ - ٩٦). وقد نقل ابن الربيع عن (يحيى) في تراجم أرقام: (١، ٣٥، ٦١، ٦٣، ١١٠، ١٢٠).

(٧) هو مقدم بن داود بن عيسى بن ثلید الرعيني، أبو عمرو المصري. روى عن: ابن بكير، وعنه سعيد بن ثلید، وأسد بن موسى. روى عنه: ابن أبي حاتم، والطبراني. توفي سنة ٢٨٣هـ. وهو فقيه مفت، وإن كانت روايته غير محمودة. (تاريخ الإسلام ٣٠٩/٢١ - ٣١٠). وتذهيب ٦٤/٤، وسماه: المقدم). وعلى كل، فقد نقل عنه (ابن الربيع) رواية حديثة واحدة في ترجمة رقم (٣).

ثالثاً - يمكن إلقاء الضوء على بعض الملامح المنهجية المستنبطة من بقايا كتاب (ابن الربيع الجيزي). كما يلي:

١ - بالنسبة إلى منهجه العام في ترتيب تراجم كتابه: سبق أن رجّحت الترتيب الألفبائي وطبقته في تجميع بقايا ذلك الكتاب. ولا يطعن في ذلك عبارة، جاءت عَرَضاً في ثانيا كلام السيوطي، أوضح فيها أن ترجمة الصحابي (خالد بن العنيس) موجودة في كتاب (ابن الربيع)، وأنها في آخره^(١). هذه العبارة لا نفهم مدلولها تماماً. هل تعني أن ترجمة هذا الصحابي كانت في نهاية الكتاب؟ أو أنها وردت في ثانيا ترجمة أخرى لا نعرفها خُتِمَ بها الكتاب؟ وإذا كان التساؤل الأول صحيحاً، فما هو المعيار الذي خُتِمَ بناء عليه الكتاب؟ إنه - بالتأكيد - ليس معيار الترتيب المعجمي؛ لأن حرف الحاء ليس نهاية المطاف، ولا بد أن بعده تراجم أخرى عديدة، حتى نهاية حروف الأبجدية. ونمة تساؤل آخر: هل وضعت هذه الترجمة في نهاية الكتاب؛ لأن صاحبها لا تُعرف له أحاديث مروية في مصر؟ إن ذلك يعني أن ابن الربيع استخدم في ترتيب تراجمه معيار (الرواية الحديثة)، فما كانت له روايات قُدم، وما لم تكن له رواية أُخرى. هي - كما نرى - مجرد احتمالات، تدخلنا في متهاتات، ولا توجد دلائل وقرائن أخرى قوية تؤكدها. ومن ثم، اعتمدنا الترتيب المحائلي؛ لشيوعه، ولاستخدام السيوطي - في استدراكه على ابن الربيع - له، ولو كان مُجّ ابن الربيع مخالفاً لمنهجه، لبين السيوطي ذلك.

٢ - هناك عناصر يحرص ابن الربيع على إبرازها، تتضح لنا من خلال مجموع التراجم التي بين أيدينا، منها: الحرص على بيان دخول الصحابي مصر، وشهوده أحداث فتوحها من عدمه^(٢)، وبيان عدد ما روى من أحاديث نبوية شريفة في مصر مع عرضها بأسانيدها، وطرقها المختلفة^(٣). وأحياناً يورد آثاراً لهذا الصحابي، أو ذاك^(٤). وقد تحتوي الترجمة

(١) راجع ترجمته في (بقايا كتاب ابن الربيع) رقم ٢٢، وفي (حسن المحاضرة) ١/ ١٩٤.

(٢) من مخادح ذكره شهود الصحابي فتح مصر (تراجم: ١، ٣، ٦، ٧، وغيرها كثير). وأحياناً يذكر أنه لم يقف على شهود الفتح (ترجمة ٣٤)، وأحياناً يصرح بعدم شهود الفتح، ودخوله مصر بعدها (ترجمة ٤١).

(٣) يتسلل اهتمام ابن الربيع بذكر عدد الأحاديث، التي رواها الصحابي في مصر معظم تراجم كتابه. ونادراً ما لا تُعرف للصحابي رواية، فيذكر هذا (مثل: ترجمة رقم: ٢، ٢٢، ٢٦). وأما حرصه على إبراز الأسانيد المختلفة للحديث الواحد، فذلك نغمة في مثل: (تراجم أرقام: ٩، ٣٣، ٧٢). وقد يكون الهدف من ذلك مزيداً من توثيق تلك الروايات الحديثة، أو إضفاء المزيد من المعلومات التاريخية حول الظروف الموقلة فيها تلك الأحاديث.

(٤) كما في وصف (قيس بن سعد) رقم ٧٩، وكما في وصف (محمد بن مسلمة) رقم ٩٠.

على بعض معلومات تفيد وصفاً لذلك الصحابي^(١)، أو بيان مواصفات وميزات ومؤهلات معينة يتسم بها^(٢). ويبدو أن ابن الربيع لم يكن يتوسع في نسب الصحابي وكنيته^(٣)، وإن تعرض أحياناً لشيء من ذلك^(٤). وفي بعض الأحيان يتعرض لتاريخ الصحابة قبل شهودهم فتح مصر، متتبعاً ما وقع لهم من أحداث^(٥)، مهتماً بإبراز تاريخ الوفاة^(٦)، وسن الصحابي^(٧)، ومكان دفنه^(٨).

٣ - تراوحت تراجم (ابن الربيع) بين الطول والقصر^(٩): وقد يكون قصر الترجمة سطحية معلوماً ناتجاً - في الغالب - عن اختصار السيوطي لها^(١٠)، ونادراً ما يكون لندرة المعلومات المتوفرة لدى ابن الربيع نفسه^(١١). وقد تغزر معلومات ابن الربيع أحياناً، فتسوقه نحو الاستطراد^(١٢).

٤ - حول البدء والختام: لم يحتفظ لنا السيوطي بمقدمة كتاب (ابن الربيع)؛ كي يتسنى لنا معرفة منهجه في معالجة محتواه، واكتفى ببعض إشارات يسيرة، تلمسنا منها عدد الصحابة المترجم لهم بالتقريب، وبعض ملامح منهجية تعرضنا لها من قبل. وبالنسبة للختام، فقد عدتُ النص الذي يشير إلى كثرة من دخل مصر مع عمرو بن العاص من الصحابة الأوائل من (بَيْلِي)^(١٣) بمنسولة ختام لكتاب ابن الربيع، وكأنه إشارة واضحة إلى أن من عرض لتراجمهم ليسوا كل الصحابة في مصر، فهم يَنْدُون عن الحصر.

- (١) كان ابن الربيع يطلق على بعض الآثار التي يرويها الصحابة في مصر (أقوالهم غير مرفوعة إلى الرسول) أحاديث، وذلك على سبيل التحرز، واعتبار أنها مستوحاة من روح الإسلام وأحاديث الرسول (مثل: ترجمة ٤٤، ٨٤، ١٢٦).
- (٢) كما في وصف (سلمة بن الأكوع) - (الشجاعة، ودقة الرمي، وسرعة العدو) في ترجمة رقم ٣٩. وكذلك ما ورد عن بعض مناصب ولّيها الصحابة، أو مهام قاموا بها (رقم ٤، ١٥، ٣٥، ٨٢).
- (٣) كما يفهم من كلام السيوطي، وإضافاته التي تناولها في (حسن المحاضرة ١/١٦٦).
- (٤) مثل: ترجمتي رقم (١٠)، (١١٩).
- (٥) راجع: ترجمتي: (٤٨، ٨٢).
- (٦) راجع تراجم أرقام: (٧، ٣٥، ٣٩، وغيرها).
- (٧) مثل: تراجم أرقام: (٣٥، ٣٩، ٤١).
- (٨) تراجم أرقام: (٣٥، ١٠٧، ١١٣، ١١٧، وغيرها).
- (٩) من التراجم المطولة: أرقام (٩، ٣١، ٨٢). ومن التراجم القصيرة أرقام: (٢١، ١٧، ٣١).
- (١٠) كما في تراجم أرقام: (١٢، ١٤، ١٨، ٢٩، وغيرها).
- (١١) كما في ترجمة رقم (١٩)، وهي ترجمة (حنظلة صاحب النخبة) الذي لم يقل عنه ابن الربيع سوى أنه دخل مصر. وعلق السيوطي قائلاً: "كذا ذكره ابن الربيع، ولم يزد عليه". (حسن المحاضرة ١/١٩٢).
- (١٢) كما في ترجمة (قيس بن سعد بن عباد)، التي استطردها فيها، ليذكر أسماء عشرة من الرجال، أدركوها الإسلام، وكانوا على قدر مفرط في الطول (ترجمة رقم ٧٩).
- (١٣) حسن المحاضرة ١/٢٥٤.

رابعاً، وأخيراً - بقايا كتاب ابن الربيع في الميزان:

أ - إذا نظرنا نظرة شاملة على هذه البقايا، لا حظنا أن تاريخ الصحابة في مصر لا يزال يشغل بال المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري، حتى إن مؤرخنا ابن الربيع أفرد كتاباً بهذا الشأن. وهذا يدل على أن في حياة ومرويات هؤلاء الصحابة من العظات والعبر، والدروس النافعة، والعلم المفيد^(١) ما يمكن اعتباره عطاء متجدداً، يلزم الأجيال تفهمه وتدارسه، في وقت كانت الأجيال تبتعد فيه شيئاً فشيئاً عن ذلك المعين الصافي، فكان لا بد للمؤرخ ابن الربيع أن يقوم بدوره في جذب الناس إلى تراثهم المجيد، وتاريخ أسلافهم التليد.

ب - لم تتضح شخصية ابن الربيع الجيزي فيما بقي من كتابه الوضوح الكافي^(٢)، وإن كنا لا نعتمد وجود الإشارات المتناثرة هنا وهناك بما يفيد تعليلاً^(٣)، أو دقة وأمانة علمية في العرض^(٤)، أو تشكيكاً في صحة نسبة رواية في صورة تعليق خفيف يظهر على استحياء^(٥)، أو نقد يفهم بطريق غير مباشر^(٦).

ج - امتازت كثير من الروايات التاريخية في كتاب ابن الربيع بالصحة التاريخية كقوله عن (سعد بن أبي وقاص): إنه آخر العشرة المبشرين بالجنة وفاة^(٧)، وقوله عن الصحابي (سهل بن سعد): إنه آخر الصحابة وفاة بالمدينة^(٨).

ونلفت النظر إلى أن بعض المعلومات الواردة لدى ابن الربيع خاطفة، مثل: خطته في القول:

- (١) كما في ترجمة الصحابي (جابر بن عبد الله) رقم (٩)، وما فيها من درس بليغ، وقنوة تُحتذى في طلب العلم، والسعي إليه، وتعمل المشاق في سبيله لذاته. وكذلك (ترجمة جبلة بن عمرو الأنصاري - رقم ١٣)، تورعه عن أخذ مال، رأى فيه شبهة، فأبى أن يقبله، رغم قبول كثير من المهاجرين الأولين.
- (٢) وخير مثال على ذلك: عدم ميله إلى الترجيح، خاصة عندما يكفى بذكر التواريخ المختلفة، ثم يترك الأمر على ذلك دون نظر أو تمحيص لاختيار التوقيت الصحيح. وذلك شائع لديه في تواريخ الوفيات، ومبلغ أعمار بعض الصحابة، ومكان وقيامهم (راجع: ترجمة رقم: ٣٥، ٥٦ - ٥٨، وغيرها).
- (٣) مثل: تعليبه تسمية أحد الصحابة باسم (هَبَّيب) في (ترجمة ١٠٣)، وتعليق دخول بعض الصحابة مصر (مهدف غزو المغرب). (رقم ٣٨، ٣٩، ١٢١).
- (٤) كقوله عن عدم الثبوت من المعلومة، التي بوردها: فيما أعلم. (راجع تراجم أرقام: ١١، ٣٦، ٥٣). والملاحظ أنها كلها تتعلق بتفرد أهل مصر في الرواية الحديثة عن بعض الصحابة.
- (٥) كان ابن الربيع يستخدم لفظة (فيل) الدالة على التشكيك. (راجع ترجمة ٧٩). وصرح - ذات مرة - بالتشكيك في نسبة رواية حديث لأحد الصحابة (رقم ٨١).
- (٦) ويتضح ذلك من خلال رواية، عتب فيها (المقداد بن الأسود) على (عبد الله بن سعد)؛ لإسرافه ومبالغته في الإنفاق على إقامة دار له بمصر. (ترجمة رقم ٩٩).
- (٧) ترجمة رقم (٣٥)، ولغذهب التهذيب ٤٢٠/٣.
- (٨) ترجمة رقم (٤١)، ولغذهب التهذيب ٢٢٢/٤.

إن لأهل مصر عن (عقبة بن كسلم) نحو مائة حديث^(١)؛ إذ إن هذا الصحابي غير مشهور، وغير معقول أن تكون له كل هذه الأحاديث في مصر، ثم لا يورده ابن عبد الحكم في (قسم الأحاديث) من كتابه. والصواب ما ذكره ابن حجر - نقلاً عن ابن يونس - أنه لا تُعرف له رواية^(٢). ويُذكر لابن الربيع ذكره تاريخ وفاة هذا الصحابي^(٣)، وهو ما غفل عنه كل من ابن الأثير^(٤)، وابن حجر^(٥). وأخطأ ابن الربيع في موضعين آخرين، ما كان لمثله أن يقع فيهما؛ لاستفاضتهما وشهرتهما.

أما الأول، فهو تاريخ وفاة معاوية، إذ جعله سنة ست وستين^(٦)، والصواب أنه سنة ستين.

والثاني - أنه جهل تاريخ وفاة (عثمان بن عفان)، لما جعل خلافته تمتد إلى سنة أربعين^(٧). والصواب: أنها انتهت بوفاته شهيداً سنة ٣٥هـ. وأعتقد أن الخطأ نابع من نسخ النسخ، وكان على محقق (حسن المحاضرة) التنبيه إلى ذلك.

د - أعتقد أن ابن الربيع أفاد حق الإفادة من كتاب ابن عبد الحكم واستوحى منه فكرته (الواردة في القسم السابع من كتابه)^(٨)، فطورها بالتوسع في التراجم^(٩)، والزيادة في أعداد الصحابة المصريين^(١٠)، حتى بلغ بهم كتاباً كاملاً، وحوى معلومات جديدة مفيدة^(١١)، واعتمد عليه من بعده جلة من المؤرخين المعنيين بتراجم الصحابة كابن الأثير، وابن حجر، والسيوطي.

(١) ترجمة رقم (٦٨).

(٢) تاريخ المصريين لابن يونس - ٣٤٨ (ترجمة رقم ٩٥٠)، والإصابة ٥٢٥/٤.

(٣) ذكر أنه توفي في سنة ٥٨هـ.

(٤) أسد الغابة ٥٨/٤.

(٥) الإصابة ٥٢٥/٤.

(٦) ترجمة رقم (٩٧).

(٧) وذلك لما ذكر أن الصحابي (معيقيب بن أبي فاطمة النوسي) مات سنة ٤٠هـ في خلافة عثمان. (ترجمة رقم ٩٨).

(٨) بل استوحى منه خاتمه، التي تشبه حاملة ابن عبد الحكم (فتوح مصر - ٣١٩)، التي ذكر فيها أنه دخل مصر صحابة كثيرون للاشتراك في فتوح إفريقية. ولذا كان تورى محققاً في اعتباره مصدراً رئيسياً لابن الربيع الجيزي في كتابه (مقدمته بالإنجليزية لكتاب فتوح مصر وأخبارها) ص ٢٢.

(٩) لقد اكتفى ابن عبد الحكم بمجرد ذكر أسماء عدد من الصحابة الذين دخلوا مصر، لكن ابن الربيع اهتم ببعضهم وترجم لهم (فتوح مصر - ٣١٩). وهناك عدد كبير من الصحابة تناولهم ابن الربيع، ولا وجود لهم في كتاب ابن عبد الحكم (تراجم أرقام: ١ - ٢٥٠٧ - ٨٤١٠ - ١٢٠١٤، ١٧٠١٩، ٢٢٠٢٤، ٢٨ - ٢٩، ٣٤، ٣٧، ٤٢ - ٤٣، وغيرهم كثير).

(١٠) راجع تراجم أرقام: ٣٩، ٧١، ٨٢، ١٣٣.

(١١) من ذلك - مثلاً - الترجمتان: (٨٢، ٥٨).

٢ - المؤرخ المصري (الكندى) (*)

المؤرخ المصري محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى (٢٨٣ - ٣٥٠هـ) مؤرخ مشهور. وواضح من تاريخي ميلاده ووفاته أنه معاصر لمؤرخنا (ابن يونس). والذي يهمننا من نتاجه التاريخي في هذا الفصل ما يتصل بالتراجم. وقد أثر عنه كتاب مفقود، أوردت له المصادر عناوين متعددة، لكنها متقاربة^(١)، وكلها يدور حول (الموالي). وهاك ما تيسر لي تجميعه من بقايا هذا الكتاب، ثم أنثى - بعد ذلك - بملاحظات عامة منهجية على تلك البقايا التي تم تجميعها.

من بقايا كتاب " أعيان الموالى بمصر " للكندى

(باب الهمة)

١ - إبراهيم بن شريط الوغلاقي المصري: كان فقيهاً^(٢). توفي سنة ثلاث وستين ومائة^(٣).

٢ - إبراهيم بن أبي يعقوب بن عيسى بن عبد الله: كان فقيهاً، وتوفي في صدر ستين ومائتين^(٤).

٣ - أحمد بن إسحاق بن واضح: مولى بني هاشم. توفي سنة أربع وثمانين ومائتين، وله تصانيف كثيرة، منها: كتاب (التاريخ) كبير، وكتاب (أسماء البلدان) مجلد، وكتاب في (أخبار الأمم السالفة) صغير، وكتاب (مشاكل الناس لزمالمهم)^(٥).

(*) رأيت تأجيل كتابة ترجمة المؤرخ المصري (الكندى) إلى بداية (الباب الثالث والأخير من الرسالة)، بإذن الله؛ لأننا سندرس هناك أهم مؤلفات الكندى المطبوعة : (الوالة)، و(القضاة)، ففيها ملامح مفيدة في ترجمة هذا المؤرخ، فالترجمة هناك ألصق وأليق.

(١) مثل : (موالى أهل مصر). (الإكمال ٢٥٥/٤، ومخطوط تاريخ دمشق ١٦٥/٤)، و(تابعى أهل مصر) كما في (الإكمال ٤٤٠/٧، وأسند الغاية ٥١٣/٤)، و(أعيان الموالى مصر) كما في (تذهيب الكمال ١٩٣/١٥)، والموالى (الإعلان بالتوبيخ، ط ٢ - مؤسسة الرسالة) ص ٥٨٤.

(٢) تذهيب الكمال ٢٢٩/٢ (وقال الكندى في كتاب الموالى).

(٣) تاريخ الإسلام ٦٦/١٠ (ذكر محمد بن يوسف الكندى).

(٤) المدارك ٨٨/٢ (قال الكندى). وأضاف : أنه مولى سلمة بن عبد الملك الطحاوى. ويقال: مولى قريش. من أصحاب ابن وهب. روى عنه جل روايته، وعن الشافعى. وكان من قبط مصر. وكتب لعيسى بن المنكدر، وهارون الزهرى، والحارث بن مسكين (قضاة مصر).

(٥) معجم الأدباء ١٥٤/٥ (صُدِّرت بـ " ذكره أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري الكندى المؤرخ في تاريخ له ابتداء سنة ٢٨٠هـ). والغالب أنه كتاب (الموالى). وكلام ياقوت في وصف ابتدائه بهذا العام غير دقيق؛ لأنه كتاب تراجم، لا أحداث.

- ٤ - أحمد بن سعد بن الحكم بن محمد بن سالم (المعروف بابن أبي مريم): كان من أهل العلم، والرحلة، والتصنيف. روى عنه بقي بن مخلد، وكان لا يحدث إلا عن ثقة^(١).
- ٥ - أحمد بن صالح (المعروف بابن الطبري): كان فقيهاً صاحب مناظرة، وتوفى في ذي القعدة سنة ثمان وأربعين ومائتين. مولده سنة اثنتين وسبعين ومائة^(٢).
- ٦ - أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السرح: كان أبو الطاهر فقيهاً، وكان صالحاً ثقة^(٣)، وشرح موطأ (عبد الله بن وهب). وتوفى سنة خمسين ومائتين، وقبل سنة ثلاث وخمسين. مولده سنة سبعين ومائة^(٤).
- ٧ - أحمد بن معاوية بن عبد الله الأسواني: كان من أصحاب الحارث بن مسكين، وبكار بن قتيبة. روى عنه ابن قُذَيْد. توفى يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومائتين^(٥).
- ٨ - أحمد بن يحيى بن الوزير بن سليمان بن المهاجر: مسولى الأزدي من رفاة النجاشي. كان فقيهاً^(٦) من أصحاب ابن^(٧) وهب. كان أعلم أهل زمانه بالشعر، والغريب، وأيام الناس^(٨). مولده سنة إحدى وسبعين ومائة^(٩). وكان يتقبل، فأنكر^(١٠) عليه خراج، فسجنه أحمد ابن محمد بن المدبر^(١١)، فمات في حبسه - بمصر^(١٢) - في شوال سنة خمسين ومائتين^(١٣).
- ٩ - إسحاق بن الفرات بن جعفر الكندي: من موالى (معاوية بن خُديج^(١٤)). أقام

- (١) تهذيب التهذيب ٢٦/١ (قال أبو عمر الكندي في كتاب الموالى). راجع تفاصيل ترجمته في (تهذيب الكمال) ١/ ٣٠٨ - ٣١٠، وسمير النبلاء ٣١١/١٢، وتهذيب التهذيب (ت ٢٥٣هـ) ٢٦/١.
- (٢) المذرك ٥٨٢/١ (قال الكندي). وتوجد تفاصيل ترجمته في ص ٥٨٠ - ٥٨١. وذكر عن مكان وزمان وفاته ما يلي: وقال أبو عمر (له ابن عبد البر)، والقرئ: مولده بمصر سنة ١٧٠هـ. وأبوه من عجم الجند من أهل طبرستان.
- (٣) حرفت إلى (موضحا كله) في (المذرك) ٧٨/٢. والتصويب بتصريف من (تهذيب التهذيب) ٥٦/١.
- (٤) المذرك ٧٨/٢ (قال الكندي). وفي ص ٧٧: حده مولى عتبة بن أبي سفيان.
- (٥) الطالع السعيد ص ١٤ (قال أبو عمر محمد بن يوسف الكندي في كتابه في الموالى).
- (٦) المذرك ٨١/٢، وتاريخ الإسلام ١٥٢/١٨.
- (٧) السابق (قال أبو عمر الكندي).
- (٨) المذرك ٨١/٢ (من أعلم)، وتاريخ الإسلام ١٥٢/١٨.
- (٩) المذرك ٨١/٢.
- (١٠) حرفت في (السابق) إلى (فأنكر)، وسقط ذكر الخراج.
- (١١) حرفت في (السابق) إلى (سدير).
- (١٢) السابق.
- (١٣) العبارة في (تاريخ الإسلام) ١٥٢/١٨ - ١٥٣.
- (١٤) صحفت إلى (خديج) في (رفع الإصر) ١١٢/١. وفي ص ١١٣: أول من ولي قضاء مصر من الموالى، وكان من كبار أصحاب مالك. وفي ص ١١٤: شهد له الشافعي بالعلم باختلاف الفقهاء (وكذا ورد في القضاة، للكندي ص ٢٩٣).

إسحاق بن الفرات على القضاء منذ استخلفه^(١) محمد بن مسروق، إلى أن قدم العمرى في صفر سنة خمس وثمانين ومائة. قال أحمد بن يحيى بن وزير: كان عند سعيد بن عفير شيء من أموال اليتامي، فدعاه إسحاق بن الفرات، وهو على القضاء بمصر، فقال: سَلِّمْهَا. فكان سعيداً عَرَضَ بالقاضي؛ بأنه من الموالى، فقال إسحاق بن الفرات: هل تعرف معاوية بن حديج؟ إنه سيد الناس كلهم من الفرما إلى الأندلس. قال ابن عفير: إني لعارف. قال: فإنه مولى، فمن أنت؟ فأصمَّتْ سعيد بن عفير، وسَلِّمْ ما عنده^(٢). توفي سنة أربع ومائتين^(٣).

١٠ - أصْبَغُ بن الفرَج بن سعيد بن نافع، مولى عبد العزيز بن مروان: كذا زعم أصبغ. وكثير من أهل مصر لا يصححون له ولاء^(٤). سألت ابن يزيد عن أصبغ: لمن ولاؤه؟ قال: ليس لهم ولاء، هم من عبدة المسجد. وحدثني ابن قديد، عن أبي نصر، قال: سمعتُ المزني والربيع يقولان: كنا نأتى أصبغ قبل قدوم الشافعي، فنقول له: عَلَّمْنَا بما علمك الله^(٥).

قال أبو نصر: وسمعتُ عُمى عبيد بن صالح يقول: قال لي مطرّف بن عبد الله الأصم: من أى بلد أنت؟ قلت: من مصر. قال: ما فعل عبد الله بن عبد الحكم؟ قلت: مات. قال: ما فعل أصبغ؟ قلت: باق^(٦). قال: الحى أفاقه عندنا من الميت^(٧).

وأخبرني ابن يزيد، عن ابن عثمان، قال: كانت بين عبد الله بن عبد الحكم وبين أصبغ منازعة ومباعدة^(٨)، وكان أحدهما يرمى صاحبه بالبهتان^(٩).

قال ابن قديد: وأخبرني مقدم، قال: أرسل ابن عتبة إلى عبد الله بن عبد الحكم: إن هذا الرجل قد وجب لك عليه حَدٌّ، قد شهر عندى بذلك، فصِرْ إلىَّ حتى أحذه. فأبى، وقال: إن هو حَدّه، صرنا حديثاً، وقالوا: حَدٌّ فلان في سَبِّ فلان^(١٠).

(١) حرفت في (رفع الإصر) ١١٥/١ إلى (استخلف). والصواب ما أثبت، فقد استخلفه القاضي السابق (محمد بن مسروق ١٧٧ - ١٨٤هـ) على أهل مصر عند خروجه منها؛ غضباً عليهم. (القضاة ٣٩٢).

(٢) رفع الإصر ١١٥/١ (قال أبو عمر الكندي في كتاب الموالى من أهل مصر).

(٣) السابق (أرخه أبو عمر الكندي).

(٤) المدارك ٥٦١/١ (قال أبو عمر الكندي في موالى مصر).

(٥) المصدر السابق ٥٦٣/١ (حكى الكندي)، والمقفى ٢١٥/٢.

(٦) وردت خطأ في المقفى ٢١٥/٢ هكذا (باقى).

(٧) المصدر السابق ٢١٥/٢، وتغذيب التهذيب ٣١٦/١ (باختصار).

(٨) المدارك ٥٦٤/١ (ذكر أبو عمر الكندي في كتاب الموالى)، والمقفى ٢١٥/٢.

(٩) السابق ٢١٥/٢.

(١٠) السابق (وحرفت فيه سب إلى سب).

قال ابن قديد: وكتب المعتصم في أصبع؛ ليحمل إليه في المنعة، فهرب إلى حلوان، واستتر بها. وفي ذلك يقول الجمل المصري في مدح الأصم^(١):

وطويت أصبع حقبة^(٢) في بيته فسترته جُدْرُ البيوت السُّرير
أبدلته برجاله وجموعه خوفاً^(٣) مقاعدة النساء الخُدْر^(٤)
فإذا أراد مع الظلام الحاجة أخذ النقاب، وفَضِّلَ مِرْطَ المعجِر^(٥).

وكان أصبع فقياً نظاراً. وُلد بعد الخمسين ومائة، ولم يلق مالكا^(٦). توفي بمصر يوم الأحد خمس ليال بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائتين^(٧).

(باب الحاء)

١١ - الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف (مولي محمد بن زبّان):^(٨) يكنى

أبا عمرو. قدم المأمون مصر، وكان بها رجل، يقال له: الحضرمي، يتظلم من ابن أسباط، وابن تميم. فجلس الفضل بن مروان في المسجد الجامع، وحضر مجلسه يحيى بن أكثم، وابن أبي دؤاد، وحضر إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد (وكان على مظالم مصر)، وحضر جماعة من فقهاء مصر، وأصحاب الحديث. وأحضر الحارث بن مسكين؛ ليؤكّي قضاء مصر، فدعاه الفضل بن مروان. فبينما هو يكلمه، إذ قال الحضرمي للفضل: سَلِّ - أصلحك الله - الحارث عن ابن أسباط، وابن تميم. قال: ليس هذا أحضرناه. قال: أصلحك الله، سَلِّه. فقال الفضل للحارث: ما تقول في هذين الرجلين؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: ليس لهذا أحضرناك. فاضطرب المسجد، وكان الناس متوافرين، فقام الفضل، وصار إلى المأمون بالخير، وقال: خفت على نفسي من تَوَرَّان الناس مع الحارث. فأرسل المأمون إلى الحارث، فدعاه، فابتدأه بالمسألة، فقال: ما تقول في

(١) لعله القاضي المصري عماد بن أبي الليث الجوازمي المعروف بالأصم، الذي كان الشاعر الجمل يمدحه (ترجمته في القضاء ص ٤٤٩ - ٤٦٧، سنة ٢٢٦ - ٢٣٧هـ). وقد وردت في (المدارك) ٥٦٥/١ (في مدحه الأصم)، وفي (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦ (مدح الخليفة).

(٢) حُرِفَتْ في (المدارك) ٥٦٥/١ إلى (خفية)، والتصويب من (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦.

(٣) كَذَا في (المدارك) ٥٦٥/١. ووردت في (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦: خَرَقًا.

(٤) البتآن في (المدارك) ٥٦٥/١.

(٥) ورد في (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦. والراجح أن الكندي ذكره أيضاً؛ فالرواية مصدرة نفسه (قال ابن قديد).

(٦) المفقى ٢١٦/٢ (قال الكندي).

(٧) المدارك ٥٦٥/١ (قال الكندي). وقد نقل ابن حجر عنه خبر علاقته بابن عبد الحكم، وموقفه في المنعة هارباً حتى

مات بخلوان (باختصار شديد). (تهذيب التهذيب) ٣١٦/١.

(٨) حُرِفَتْ إلى (ربان) في (المخطوط) ٢٥٠/٢.

هذين الرجلين ؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: هل ظلماك بشئ ؟ قال لا. قال: فعاملتهما ؟ قال: لا. قال: فكيف شهدت عليهما ؟ قال: كما شهدت أنك أمير المؤمنين، ولم أرك - قط - إلا الساعة، وكما شهدت أنك غزوت، ولم أحضر غزوك. قال: اخرج من هذه البلاد، فليست لك ببلاد، ويغ قليلك وكثيرك؛ فإنك لا تعانيتها أبداً. وحبه في رأس جبل في قبة ابن هرثمة. ثم انحدر المأمون إلى البُشُرود، وأحضره معه. فلما فتح البُشُرود، أحضر الحارث، فلما دخل عليه، سأله عن المسألة التي سأله عنها بمصر، فردّ عليه الجواب بعينه، فقال، فأى شئ تقول في خروجنا هذا ؟ قال: أخبرني عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك: أن الرشيد كتب إليه في أهل (دهلك)، يسأله عن قتالهم، فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان، فلا يحل قتالهم، وإن كانوا إنما شقوا العصا، فقتالهم حلال. فقال المأمون: أنت تئس، ومالك أئس منك. ارحل عن مصر. قال: يا أمير المؤمنين، إلى الثغور. قال: الحق بمدينة السلام. فقال له أبو صالح الحراني: يا أمير المؤمنين، تغفر زلتك. قال: يا شيخ، تشققت، فارتفع^(١).

كان مفتياً فقيهاً^(٢). ولى القضاء من قبل المتوكل على الله في سنة سبع^(٣) وثلاثين ومائتين، وحفر خليج الإسكندرية^(٤)، وأمر ببناء الرحبة في المسجد؛ ليتسع الناس بها، وحول سلم المؤذنين إلى غربي المسجد، وكان عند باب (إسرائيل)، ولبط زيادة ابن طاهر، وأصلح بنيان السقف، وبني سقاية في الحدائق، وأمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب؛ ليتسع الناس بها^(٥). وورد الكتاب بصرفه في شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين^(٦).

١٢ - حملة بن عامر: أبو تريس. من تابعي أهل مصر. روى عن عمر^(٧).

(باب العين)

١٣ - عبد الرحمن (أبو المهاجر البلهبي): كان من سبى بلهيب، حين انتقضت في

(١) الخطط ٢٠٢/٢ (قال الكندي في كتاب الموالي). والترجمة ذاتها - دون نسبة إلى الكندي - موجودة في (تاريخ الإسلام) ٢١٢/١٨ - ٢١٤، ورفع الإصر ١٦٩/١.

(٢) المدارك ٥٦٩/١ (قال الكندي).

(٣) حرفت إلى (تسع)، وحملت ولايته من قبل الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) في (الخطط) ١٧١/١ (وقال أبو عمر - لا عمرو - الكندي). وهذا خطأ بالطبع. ثم وردت صواباً في (المصدر نفسه) بعد ذلك، كما سيأتي.

(٤) الخطط ٢٥٠/٢ (وذكر أبو عمر الكندي في كتاب الموالي).

(٥) المصدر السابق: ٢٥٠/٢ (ذكر أبو عمر الكندي في كتاب الموالي).

(٦) السابق ١٧١/١ (راجع تفاصيل ولايته القضاء من سنة ٢٣٧ - ٢٤٥هـ في (القضاء) للكندي ص ٤٦٧ - ٤٧٥).

(٧) الإكمال ٤٤٠/٧ (ذكر أبو عمر الكندي في تابعي أهل مصر). وقد نقل ابن الأثير كلام ابن مأكولا لكنه سماه (لبدة بن كعب)، وقال: أظنهما واحداً، والاختلاف في الاسم. (أسد الغابة ٥١٣/٤).

خلافة عمر، فأعتقه بنو الأعجم بن سعد بن ثُجيب. وكان في مائتين من العطاء، وكان معاوية قد عَزَّقه على موالى ثُجيب. وهو الذى خرج إلى معاوية بشيراً بفتح (خَرِبَتَا) ^(١). أخرين بذلك كله ابن قديد، عن عُبيد الله بن سعيد، عن أبيه. وأخرين ابن قديد، قال: بنى له معاوية داراً في بنى الأعجم في الزقاق المعروف بـ (البلهيسى)، وكُتِبَ على الدار: (هذه الدار لعبد الرحمن سيد موالى ثُجيب).

وأخرين عمى، عن ابن الوزير، عن أبي ميسرة: أن البلهيسى كان في مائتين من العطاء، وأن معاوية وهب له سيفاً لم يزل عندهم، وأن عُبيد الله بن الحبحاب قال لأبي المهاجر البلهيسى: لا أستعملك، ثم لا وليتُك إلا على قرينك الخبيثة (بلهيب). فقال له ابن البلهيسى: إِذَا أَصِلَ رَحْماً، وَأَقْضَى ذِمَّاماً.

قال ابن وزير: لما توفى سليمان بن أبي رجاء، ولم يُخَلَّفْ ذكراً، طلب ابن البلهيسى ميراثه، وقال: إنه مولاي. وروى ابن وهب، عن سليمان بن أبي رجاء (وهو سليمان بن مسلم بن جابر، مولى البلهيسى) ^(٢).

١٤ - عبد الرحمن بن عبد الحميد بن سالم المَهْرِيّ: أبو رجاء. توفى سنة اثنتين وتسعين ومائة، وكان من أفضل أهل مصر ^(٣).

١٥ - عبد الرحمن بن ميسرة (مولى الملامس بن جذيمة بن سُلَيْم)، من حضرموت، ثم من الأششاء: أبو ميسرة. كان فقيهاً مقرئاً ^(٤)، عفيفاً شريفاً. ولد سنة عشر ومائة، وكان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة ^(٥).

١٦ - عَيَّان بن بُعْثَم بن سعيد بن دافع: مسجده بالجيزة، ويُعرف بـ (مسجد عَيَّان) ^(٦).

(١) مخطوط تاريخ دمشق ٢٧٥/١٠ (ذكره أبو عمر محمد بن يوسف الكندى في كتاب "مَوالى أهل مصر"، ومختصر تاريخ دمشق ٨٣/١٥ - ٨٤).

(٢) مخطوط تاريخ دمشق ٢٧٥/١٠ - ٢٧٦.

(٣) تهذيب التهذيب ١٩٩/٦ (وقال أبو عمر - لا عمرو - الكندى).

(٤) الإكمال ٢٥٥/٤ (ذكره الكندى في موالى أهل مصر).

(٥) المخطط ٣٣٢/٢ (وذكر أبو عمر - لا عمرو - الكندى).

(٦) الإكمال ٣٥٨/٧ (قاله الكندى).

ملاحظات عامة على بقايا (أعيان الموالى بمصر) للكندى:

١ - من الملاحظ أن الكندى اختار موضوعاً فريداً في بابهِ، جعله مجالاً لتراجمهِ. وأعتقد أنه أراد بذلك التفرد والتميز؛ إذ لم يؤثر التفات أى من المؤرخين المصريين طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة على الأقل، للتأليف في هذا الموضوع^(١).

٢ - أتوقع أن يكون هذا الكتاب - في الأصل - كبيراً^(٢)، لكنه لم يحظ بالاهتمام الكافي من المصادر المتأخرة للنقل عنه؛ لأن كتابي ابن يونس غطياً عليه، إلى جانب اشتهاار الكندى بكتابين آخرين في مجال (الحضارة والنظم)، وهما (الولاء)، و(القضاء). وما يقوى الاعتقاد بكون حجم هذا الكتاب الضائع أن الموالى كانوا على قدر عظيم من الاهتمام بالعلم والتقدم فيه، وبرز منهم العديد من القادة والولاة والقضاة، والمحدثين والفقهاء وغيرهم؛ مما جعلهم يتفوقون في أحيان كثيرة على العرب أنفسهم^(٣). ويضاف - إلى ما تقدم - أن الكندى لم يجعل كتابه مقصوداً على طائفة محددة من الموالى^(٤)، ولم يخصص موالى مصر وحدهم بالتراجم^(٥)، وإنما كان تناوله شائعاً على مستوى طوائفهم المتعددة، وبلدانهم المختلفة. وكذلك يبدو أنه لم يقف عند نوع واحد من الولاء، وإنما كان يتناول الموالى ألباً كان نوع ولائهم^(٦)، وهو بهذا يجعل الإسلام، والعمل الصالح هو المحكّ والأساس الراسخ، ويهدم أية نزعة شعوبية عنصرية في مجتمعه المصرى^(٧).

٣ - من الواضح أن تراجم الكتاب تراوحت بين الطول والقصر، وإن كان في بعضها

(١) ولا يقدح في ذلك ما ورد في (رفع الإصر، نشر جست، ضمن ذبول كتاب (القضاء) للكندى ص ٥٥٧)، من أن الكندى ألف كتاب (الموالى) من أجل بدر بن عبد الله - أو عبد العزيز - الكنانى الصيرفى، مولاها مصرى. ذلك الرجل الذى كان مولى لـ (يحيى بن حكيم الكنانى)، وكان صديقاً موسراً. وكان ابنه محمد، على قضاء مصر، وورث عن أبيه غناه وثراءه، وتوفى سنة ٣٣٠هـ (السابق: ص ٥٦٢). أقول: قد يكون الكندى أهدها إليه لصداقة، أو مودة بينهما، وليس شرطاً أن يكون هو صاحب فكرته.

(٢) وسبقنى في الإشارة إلى ذلك الأستاذ عنان في (مؤرخى مصر الإسلامية) ص ٣٢.

(٣) راجع في ذلك مقارنة بين علماء العرب، والموالى في مصر وغيرها على مستوى الفقهاء في (مختصر تاريخ دمشق ٧٠/١٧ - ٧١، والمخطوط ٣٣٢/٢).

(٤) فهو لم يقتصر - إذن - على القادة المميزين من غير العرب، كما يرى صاحب (مؤرخى مصر الإسلامية) ص ٣٢.

(٥) بدليل ترجمته لأناس وأفنديين على مصر (ترجمة ٩ في الموالى).

(٦) راجع ما ورد عن أنواع الولاء في (تذيب الأسماء واللغات للنوى: ج ١ ص ١٤، وكتايب (معالم الثقافة الإسلامية في القرنين الأولين من الهجرة) ص ٢٠٨ (هامش ٣).

(٧) راجع ترجمة ١٣ من (الموالى)، وما بها من عرض مفصل لمكانة أحد الموالى.

تفاصيل كثيرة جديدة، كما في ترجمة (الحارث بن مسكين)، الذي كان يلي قضاء مصر. ففي ترجمته أظهرت شخصية هذا الرجل قبل ولايته القضاء (في عهد المأمون)، وشجاعته في الإجابة عن أسئلته. ثم عرضت الترجمة للعديد من المنجزات الزراعية والمعمارية الحضارية، التي عُهد بها إلى هذا القاضي في عهد المتوكل (وهي جزئية جديدة، تحتاج إلى تفسير، فالمعلوم أن تلك الأعمال من اختصاصات الولاة في المقام الأول)^(١).

٤ - وأخيراً، فقد ظهرت دقة الكندي ومنهجيته في المادة القليلة المتقدمة من زاويتين: الأولى - دقته في إيراد تواريخ مواليده ووفيات مترجميه من الموالى، حتى إنه تفوق على ابن يونس في إحداها، وأتى بتاريخ الوفاة الصحيح^(٢). والثانية - أنه كان حريصاً في مواضع كثيرة على ذكر موارده التي انتقى منها مادته العلمية، وهي موارد أصيلة في بابها، فهو ينقل عن مؤرخين عظميين (ابن قديد، وابن وزير)، ولعله نقل من أولهما شفاهة وكتابة. أما الثاني، فالغالب أنه نقل عن كتاب له مؤلف في التراجم. وكذلك نقل عن عمه، الذي نجعل مزلته في العلم، لكن يبدو أنه على قدر طيب منه، بحيث غدا معتمد المؤرخ الكندي في بعض الروايات^(٣). بالإضافة إلى ذكر بعض الأشعار كوثائق تؤكد الحدث^(٤). وهكذا، انتهينا من المؤرخين المصريين، وبقي الحديث عن (الأندلسيين).

(١) راجع أعمال القاضي المذكور في (أعيان الموالى بمصر) ترجمة (١١).

(٢) ترجمة ١٤ في (المصدر السابق). راجع ما ذكرته عن تاريخ الوفاة الصحيح الوارد لدى الكندي، وتحفظه ما جاء لدى ابن يونس، وتعليل الخطأ (دراسي لكتاني ابن يونس في أواخر مجلد تاريخ الغرباء ص ٤٠٠ - ٤٠١، هامش رقم ١٣).

(٣) أعيان الموالى بمصر: ترجمة (١٠، ١٣).

(٤) السابق: ترجمة (١٠).

الفصل الثاني

المؤرخ الأندلسي الحشني

ثانياً - مؤرخو التراجم والطبقات في الأندلس

بقيت لنا - في هذا الباب - دراسة أربعة من مؤرخي التراجم والطبقات في الأندلس، وهم:

- (١) الحشني.
- (٢) ابن جليل.
- (٣) الزبيدي.
- (٤) ابن الفرضي.

والآن، نفرّد هذا الفصل لدراسة أولهم (الحشني)؛ ترجمة، وتحليلاً منهجياً لكتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين).

أولاً - حياة المؤرخ الحشني (ت ٣٧١هـ) (*):

١ - المولد والنشأة: ولد أبو عبد الله محمد بن حارث^(١) بن أسد الحشني^(٢) في مدينة

(*) تُرجّم له في: (تاريخ العنماء والرواة للعلم بالأندلس)، لابن الفرضي (ط. الحانجي) ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥، والإكمال ٢٦١/٣، والخدوة ٩٤/١، وترتيب المدارك ٥٣١/٢ - ٥٣٢، والأنساب ٣٧٠/٢، ٣٧٢، والغبة ص ٧١، ومعجم الأدباء ١١١/١٨، وتاريخ الإسلام ٢٨٣/٢٦ - ٢٨٤، ومرآة الجنان ٣٧٥/٢، والذبيح ٢/٢١٢ - ٢١٣، وتبصير المتنبه ٥٠٣/٢، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩١/٢ - ٩٢.

(١) كذا وردت في معظم المصادر المترجمة له، النهم إلا (تاريخ ابن الفرضي، ط. الحانجي) ١١٤/٢، و(الإكمال) لابن ماکولا ٢٦١/٣ (فوردت فيهما معرفة بـ (ال)).

(٢) هكذا ضبطه ابن ماکولا في (المصدر السابق) ٢٦٠/٣ - ٢٦١ (بالحروف)، والسمعان في (الأنساب) ٣٧٠/٢، وأضاف قائلاً: هذه النسبة إلى قبيلة، وقريبة. أما القبيلة، فهي بطن من قضاة، وهو حشني بن النمر بن مرة بن نعلب بن حنوان بن عمران بن الحاف بن قضاة). والظاهر من كلام السمعان أنه يُعَدُّ مؤرخاً الحشني الذي معنا هذا، والمحدث الأندلسي (محمد بن عبد السلام الحشني) مسوِّسٌ إلى قرية (حشّين) الموجودة بـ (إفريقية). وأنا أميل إلى نسبتها معاً إلى القبيلة المعروفة بذلك الاسم. ولا داعي للتردد في صحة ذلك، كما تردد الإيباري (محقق قضاة قرطبة) للحشني في (مقدمته ص ٨)، عندما وجد أن ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الحانجي) ج ٢ ص ١١٤، قد جعل الحشني المؤرخ من أهل القيروان؛ لأن هذه إشارة إلى أصل مولده، ونشأته، كما سبى بعد. وتجدد الإشارة إلى أن هناك فارفاً بين الحشني المؤرخ (أحد مؤرخي ق ٤هـ)، ومحمد بن عبد السلام الحشني المتوفى سنة ٢٨٦هـ (وهو من رجال ق ٣هـ) بالأندلس. (راجع ترجمة الأخير في (سير النبلاء) ج ١٣/٤٥٩ - ٤٦٠. وفي شرح هذه التفرقة راجع (الخدوة ١١٩/١، والغبة ص ١٠٤).

القيروان في تاريخ نجهله تحديداً^(١)، وإن كان من الممكن أن نقر به تقريباً، فنقول: إنه وُلد أواخر القرن الثالث (ما بين سنتي ٢٩٥، ٣٠٠هـ)^(٢)؛ إذ إن ذلك - في نظري - يتوافق مع ما ذكرته بعض المصادر من أنه قدم الأندلس حَدَثًا^(٣) سنة إحدى عشرة^(٤)، أو اثني عشرة^(٥) (أى: وثلاثمائة)، على اختلاف فيما بينها.

نشأ الحشني - إذن - بالقيروان، وتلقى معارفه وعلومه - في الفترة القصيرة، التي قضاه - على أيدي علمائها. والراجح أنه كان شغوفاً بالعلم، نهماً في تحصيله منذ صباه المبكر. ولدينا نصوص تؤكد ذلك، منها ما يلي:

أ - تذكر بعض المصادر أنه تفقه بالقيروان على أيدي بعض علمائها، مثل: أحمد بن نصر^(٦)، وأحمد بن أحمد بن زياد^(٧)،

(١) ولا أدري على أي مصدر اعتمد د. عبد الواحد ذنون طه في (نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) ص ١٣، والإيباري في مقدمة تحقيقه لـ (قضاة قرطبة) للحشني ص ٩، فيما ذكرنا من رحيل الحشني إلى الأندلس، ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره (أو وستة اثنا عشرة سنة)، فكأنما تحرفت كلمة (سنة) في عنيهما إلى (وسنة).

(٢) وهذا التحديد أرجح عندي، مما رآه الإيباري محقق (قضاة قرطبة) للحشني في مقدمته ص ١٠ (جعل ميلاده بين سنتي ٢٩٩ - ٣٠٠هـ)؛ لأنني أعتقد أنه ولد - غالباً - سنة ٢٩٥هـ، أو بعدها بقليل؛ كي يتناسب هذا مع وصفه - بعد ذلك - بالحدّث، وما سرود من تلقية العلم، وحضوره المناظرات بالقيروان.

(٣) شاب حَدَث: فتي السن، ورجل حَدَث شاب. وهؤلاء غلمان أحدث وأحدثان. (اللسان: مادة ح. د. ث) ج ٢ ص ٧٩٧. والحدّثة: سن الشباب. ويقال: أخذ الأمر بحدّثته: بأوله وابتدائه. (المعجم الوسيط ١/١٦٦). وهذا يعني أن الحشني كان في مقتبل الشباب (١٦ - ١٧ سنة) على ما أرجح، أو ستته (١١ - ١٢ سنة) على الاحتمال الآخر المرجوح عندي.

(٤) المدارك ٥٣١/٢.

(٥) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ١١٤/٢، والديباج ٢١٢/٢.

(٦) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ١١٤/٢ (ونظر فيه بالفقه: تعلم منه المأطرة، ونظر في حلقة العلمية الفقهية)، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ١٥٨/١ (سمع منه ابن حارث).

(٧) ما ذكرته بالمتن ما هو الصواب (راجع الديباج ١٦٩/١)، فقد ترجم له، وكناه بأبي جعفر، ولقبه بالفارسي. ذكر أنه من أهل إفريقية. صحب ابن عيونس، وابن مسكين القاضي. عالم بالوائائق، وله كتب كثيرة، وكان فقيهاً لا يقلد. توفى سنة ٣١٩هـ. (السابق: ١٧٠/١). وترجم له الحشني في (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ٢٢١ - ٢٢٣ (توفى سنة ٣١٨هـ). هذا وقد سماه ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ١١٤/٢، وعياض في (المدارك) ٥٣١/٢: (أحمد بن زياد). ويلاحظ أنه إذا ذكر هكذا، على سبيل الاختصار، كما فعل الحشني نفسه في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١١٨ فلا بأس. أما الاكتفاء بـ (أحمد بن زياد) فقط في موضع يُذكر فيه أساتذته الحشني الإفريقيون، فهو صحيح؛ لأنه يؤدي إلى الاختلاط بعالم أندلسي قرطبي، يكنى أبا القاسم (توفى سنة ٣٢٦هـ)، وترجم له ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ٤٣/١ (رقم ١٠١)، وهو أحد موارد الحشني في كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين)، كما سنرى. وهو - بالطبع - ليس المقصود في هذا الموضع.

والمُسنِّي^(١)، وابن اللباد^(٢).

ب - سلك الخشني - خلال فترة إقامته القصيرة بالقيروان - كل سبيل ممكن لتحقيق العلم، فكان إذا فاتته لقاء عالم من العلماء، يقوم بتعويض ذلك عن طريق سماع روايات الآخرين عنه، ويأتي في طليعة من روى عنهم ذلك والده^(٣). وأحياناً كان يجد بغيته في مطالعة كتب العلماء ببلده (القيروان)، وينقل عنها العلم الغزير، الذي أفاده في بعض مؤلفاته بعد ذلك^(٤). وقد نجد كتباً لعلماء أندلسيين، قدموا إلى بلده قديماً، فيطالعها ويقرؤها ويستحسن ما فيها من علم، كما هو الحال مع كتب العالم القرطبي (قاسم بن محمد المتوفى سنة ٢٧٨هـ)^(٥).

ج - لم يكتف مؤرخنا الخشني بذلك - على حداته سنة - بل كان يرسل بعض فقهاء الأندلس ويكاتبهم، ويستفسر عما يعن له من مسائل العلم، ويتلقى الأجوبة عن استفساراته^(٦).

د - كان الخشني ذا عقلية تتوقد ذكاء وفطنة، فتذكر لنا المصادر أنه كان يشهد مجالس العلم والمناظرة بين كبار علماء وفقهاء القيروان، وسَطَّر لنا قلمه بأسلوبه البارع ما دار في عدد

(١) عالم زاهد عابد فاضل. من أهل إفريقية، مسوب إلى (مُسن)، وهي إحدى القرى هناك. (راجع ترجمته باسم

العباس بن عيسى، المتوفى في رجب سنة ٣٣٣هـ) في (المدارك) ٣١٣/٢ - ٣٢٣.

(٢) هو العالم الإفريقي (محمد بن محمد بن وشاح، المتوفى سنة ٣٣٣هـ في شهر صفر). (السابق ٣٠٤/٢ - ٣١١). ويلاحظ أنه صرح بسماع ابن حارث منه في (السابق) ٣٠٤/٢.

(٣) راجع (أخبار الفقهاء والمحدثين) لفخشي رقم (٤٥٩، ٥٠٦)؛ في أولهما ترجمة لأحد وجوه حَيَّان. وثانيهما -

عالم من حَيَّان - أيضاً - بكثرة الرواية عن (سحنون). حدته عنهما والده، فاستفاد من ذلك في كتابه. ويلاحظ

أن معلوماتنا عن هذا الوالد ضئيلة جداً؛ إذ لم نجد عنه سوى خبر في (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ١٩٤

(قال لي أبي: فكثيراً ما كنت أدخل على عيسى (يقصد: عيسى بن مسكين قاضي إفريقية المتوفى سنة ٢٧٥هـ)

في مجلس قضائه، وهو صامت لا يطق، وكتبه (ابن الباء يقضي بين الناس). فقله كان صديقاً للقاضي، أو أحد

الشهود المترددين على مجلسه. ولا شك أن والد الخشني من رجال ق ٣هـ، ما دام قد عاصر هذا القاضي (وُلد

٢٦٦ أو ٢٦٧، وتُؤرَل ٢٧٥هـ) بناء على طلبه لدى خروج إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩هـ)

إلى صقلية. (راجع في فترة حكم الأمير الأغلب المذكور: البيان المغرب ج ١ ص ١١٦ - ١٣٢). وراجع في

ترجمة القاضي (عيسى بن مسكين) كتاب (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ٣٠٨، والمدارك ٢١٢/٢ - ٢٢٨.

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين، للخشني ص ١٦٦ (ترجمة محمد بن عبيد العزيز القرطبي، رقم ١٩٣)، الذي قدم إلى

القيروان، وروى عنه رجال من أهلها قبل انصرافه. قال: ووجدت اسمه مثنياً في كتبهم، وقد كتبت عنهم من

روايتهم عنه علماً كثيراً (ثم ذكر بعضه في الترجمة).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة رقم ٤١١، ص ٣٠١)، قال عنه: قرأت له قديماً بالقيروان كتاباً حسنة، ألفها

على أصحابه القرطبيين، من شاكلة رد (الشافعي) على (أصحاب مالك).

(٦) المصدر السابق ص ٢٩٨ (رقم ٤١٥)، ترجمة (الفضل بن سلمة أجهي، من أهل نخاعة، ت ٣١٩هـ). قال محمد

عنه: وردتني له بالقيروان غير ما صحيفة بأحوية مسائل، وتلخيص أصول، ورأيت كلاماً، قل في أهل العلم من

يُحس مثله. وكان مذهبه في الفقه مذهب التصحيح والتهذيب على مذهب مالك، والرواية من أصحابه.

من هذه المجالس^(١). صحيح أنه لم يذكر تفاصيل ما كان، ولا يهمننا أن نعرف ذلك في هذا المقام، لكن الذي تبين لنا مما ذكره أنه كان يستخدم كافة حواسه، التي منحها الله إياها في متابعة أدق الدقائق، التي تدور من حوله في تلك المجالس العلمية العامرة، فهو يتعرف الحاضرين ويصاحبهم^(٢)، ويتأمل الداخل والخارج، ويفحص وجوههم وحركاتهم، ونظرات الشيخ لهم، وما يدور من حوار عام، ثم ينتظر ليعرف ما يدور من حوار خاص، يخص به الشيخ أحد الحاضرين^(٣). ومن ثم، فلا غرابة أن يكون الخشني قد وصل في تلك المرحلة إلى القدرة على الدخول في معترك المناظرات الفقهية حامية الوطيس، وأن يكون مُبرِّزاً فيها. وقد عبّر عن ذلك أحد من شهدوه (وهو أحمد بن عباد)، فقال: رأينا ابن حارث في مجلس (أحمد بن نصر) - يعني: في وقت طلبه بالقيروان - وهو شعله، يتوقّد في المناظرة^(٤).

هـ - لا ريب أن الخشني عاصر حكم العبيديين لإفريقية، ويغلب على الظن أنه عانى ما عاناه بعض طلاب العلم وشيوخه من أهل السنة من اضطهادات وتعذيب وتكيد العبيديين وأتباعهم بهم. والحقيقة أن النصوص لا تمدنا بمعلومات كافية بهذا الشأن، اللهم إلا نصاً ذكره الذهبي، قال فيه الخشني: إنه صحب أحد علماء القيروان، وكان قد هَرِمَ، وأنه كان يقرأ هو وزملاؤه عليه بعض كتاب (محمد بن سحنون) في خفية وتوار؛ لما كانوا فيه. وشرح الخشني - فيما أرجح - ذلك بقوله: (يعني: خوفاً من الدولة، وهم بنو عُبيد الرافضة). وأضاف قائلاً: عن هذا العالم الذي كانوا يتلقون عليه: إنه أمّحن - رحمه الله - على يد قاضي الشيعة (محمد ابن عمر المروزي)، الذي قام بضربه في الجامع، وجبسه. فُعل ذلك به، وبجماعة من الفقهاء

(١) علماء إفريقية، للخشني (ط. الخانجي) ص ١٩٩. وعنه نقل المالكي في (رياض النفوس، ط. بيروت) ٢٧٤/٢. (وقد سرد لنا بعضاً مما قيل عن أحد شيوخ القيروان في بعض المجالس، التي حضرها لأهل العلم، وفيها تُخَدَّث عن طبيعة انتقاد الناس بعضهم بعضاً).

(٢) من هؤلاء الذين صحبوا الخشني في القيروان، وتفقهوا معه على علمائها: (محمد بن حضر) الأندلسي (من أهل بلنسية)، الذي روى عن علماء بلده، ثم جاء إلى القيروان، ثم عاد إلى بلده ثانية، فتوفي بها (آخر سنة ٣٥٠ هـ، أو أول ٣٥١ هـ). (المدارك ٤٦٢/٢ - ٤٦٣).

(٣) علماء إفريقية، للخشني ص ٢١١ - ٢١٢. وعنه نقل - باختصار - ابن عذارى في (البيان المغرب) ١٩٤/١ - ١٩٥ (وهو الوصف الرائع والبيان البديع الذي ذكره عن دخول محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي حلقة علم أحمد بن نصر القيروان، وما دار بينهما آخر المجلس، ووصف الخشني ابن مسرة بأنه من أهل العلم (من خلال جَوْلان نظراته في الحاضرين، وتقليبه البصر في وجوه المتكلمين، فأيقن الخشني هو وصديقه الفقي ربيع القطان أنه راسخ في الصنعة. وقال عن منطق: كلامه مصنوع، لكن حسن جيد).

(٤) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ١١٥/٢، والمدارك ٥٣٢/٢ (بلفظ: رأيت، وذكر أنه كان بالقيروان)، والديباج ٢١٣/٢.

والنُسرة؛ إذ كان البلاء عظيماً بين عبید الباطنية^(١).

وبناء على هذه الإلماحة الحاطفة، فإنني أتوقع - خاصة بعد بزوغ نجم الخشني في العلم - أن يكون قد ارتحل سراً؛ نجاة بنفسه من ظلم واضطهاد العبيديين في التاريخ الذي سبق ذكره، وهو في مقتبل الشباب. ولا أدري شيئاً عن موقف أسرته من ذلك الرحيل الاضطرابي، وهل فرّ بنفسه وحده، أو كان ذلك في صحبة أسرته. ذلك ما لم يُكشف عنه النقاب بعد. المهم أنه حطّ رحاله في بلاد الأندلس، حيث يحكمها الأمويون السنيون، فيجد بغيته لديهم في البحث والدرس والتأليف^(٢).

٢ - النضج والازدهار:

أ - بعد أن انتقل الخشني إلى الأندلس (سنة ٣١١ هـ، أو ٣١٢ هـ)، واصل جهاده العلمي، متقللاً بين كور الأندلس المختلفة^(٣)، وتلقى على عدد من العلماء، منهم محمد بن عبد الملك بن أيمن^(٤)، وقاسم بن أصبغ، وأحمد بن عبادة، ومحمد بن عمر بن لبابة^(٥)، وأحمد بن زياد، والحسن ابن سعد، وغيرهم^(٦).

- (١) تاريخ الإسلام ٥٥٢/٢٣ (وفيات سنة ٣١٧ هـ)، ترجمة (محمد بن خالد، أبو القاسم الطويري).
- (٢) ذكر الدكتور أحمد مختار العبادي: أن الخشني أحضر إلى الأندلس بدعوة من الخليفة الأموي الحكم المستنصر (بحث: من التراث العربي الإسباني)، مجلة (عالم الفكر)، مجلد ٨، ١٤ (أبريل - يونيه)، ١٩٧٧ م (ص ٤٥). وأعتقد أن هذا القول محل نظر؛ لأنه يعني أنه قدم الأندلس بعد تولي المستنصر الخلافة (٣٥٠ هـ)، وهو يخالف لما نصت عليه المصادر من قدومه ٣١١ هـ، أو ٣١٢ هـ. ويضاف إلى ما سبق أن مقولة د. العبادي لم أجد لها فيما طالعت من مصادر ترجمت للخشني. وحتى لو قيل: إن الحكم أرسل يدعو الخشني أثناء ولايته للعهد، فذلك لا يصح أيضاً؛ لأن الحكم ولد سنة ٣٠٢ هـ، ويحتمل الخشني إلى الأندلس يتزامن مع بلوغ الحكم سنّاً، لا تسمح له بتوجيه مثل هذه الدعوة.
- (٣) فنلاً: لقي في (كُطَيْلَة) الفقيه الفاضل محمد بن عبد الله الفهري (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ١٨٩ (ص ١٦٥). وفي (قرطبة) جالس كثيراً من العلماء، مثل: المحدث (محمد بن زكريا بن عبد الأعلى). (السابق: رقم ١٨٣، ص ١٦٢)، وحاور أحد زهادها وفقهائها، وصحبه دهرًا (محمد بن مهلهل الزاهد). (السابق: رقم ٢١٥، ص ١٨٠). وكذلك جالس الفقيه (أحمد بن يحيى بن محمد)، وروى (العهد الحكم). (السابق: ص ٢٠).
- (٤) قرأ عليه مؤرخنا الخشني (السابق ص ٣٦٠).
- (٥) كان الخشني يحضر مجالس (محمد بن عمر بن لبابة)، ويسمع منه (السابق: ١٩٤، ٣٤٠).
- (٦) ذكر بمجلد هؤلاء العلماء: ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢. ومن الملاحظ أن الحميدي ذكر في (الجنوة) ٩٤/١، والضي في (البغية) ص ٧١، وياقوت في (معجم الأديان) ١١١/٨، وابن حجر في (تصوير المنتبه) ٥٠٣/٢، ذكروا أن الخشني روى عن ابن وضاح، ونحوه. وفي (الإكمال) ٢٦١/٣، و(الأنساب) ٣٧٢/٢: أن الخشني روى عن محمد بن وضاح، وطبقته. وأعتقد أن ذلك غير صحيح بحرّة؛ فهو غير معاصر للخشني؛ إذ توفى ابن وضاح المحدث القرطبي ٢٨٧ هـ، كما يرى ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ١٧/٢ - ١٩، وهو غير معاصر للخشني. وكذلك لا تصح روايته عن (محمد بن وضاح الشذوني) المتوفى صدر أيام الناصر (السابق ٣٢/٢). وأيضاً لا يجوز رواية محمد بن وضاح الآخر الشذوني أيضاً، المتوفى سنة ٣٦٣ هـ؛ لأنه لم يكن محدثاً، وإنما مجرد ناسخ للمصاحف. (السابق ٧٥/٢).

ب - يبدو أن علم وفقه الخشني قد ذاع في أرجاء الأندلس، وتعداها إلى المغرب الأقصى، فيذكر لنا القاضي عياض أن الخشني دخل بلدهم (سبتة^(١)) قبل العشرين وثلاثمائة، وأن أهلها تمسكوا ببقائه عندهم. ويبدو أنه مكث بينهم فترة من الوقت، لا نستطيع تحديدها، فيها تفقه عليه قوم منهم، وقام بضبط قبلة جامعهم؛ إذ وجدها تتجه غرباً، فعُدّها جهة الشرق، فامتثلوا رأيه^(٢). ثم عاد إلى الأندلس مرة أخرى في وقت لا نعرفه، فتردد في كور الثغور^(٣)؛ ربما للمرابطة ومداواة العلم مع علمائها، حتى استقر - أخيراً - في حاضرة الأندلس (قرطبة)^(٤)، حيث روى عنه بعض علماء الأندلس، مثل: (عبد الرحمن بن أحمد بن محمد التحيبي القرطبي)^(٥)، و(محمد بن مروان بن زهر الإيادي الإشبيلي)^(٦).

ج - كانت للخشني اهتمامات ثقافية متعددة في (الحديث، والفقه، والتاريخ، والشعر)^(٧)، لكن شغفه بالفقه غطّى على علومه الأخرى، واستطاع أن يوجّه الفقه في خدمة التاريخ، واستفاد - كذلك - من معلوماته عن رجال ورواة الحديث، واستغل ذلك كله استفلااداً حسناً في تأليف كتابه (أخبار الفقهاء، والمحدثين)، الذي سندرسه بعد ذلك؛ مما يدل على علمه بالأخبار، وأسماء الرجال^(٨). هذا، وقد وصفه البعض بأنه كان حافظاً للفقه، متقدماً فيه، نبهاً ذكياً، فقيهاً فطناً متفتناً، عالماً بالفتيا، حسن القياس في المسائل^(٩). فلا غرو - بعد هذا كله - أن يُلَفّت نظر (الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦هـ) خليفة الأندلس، الذي شجعه على التأليف العلمي، فوضع الخشني عدة مؤلفات، أهمهاها إليه، منها: (الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك)، و(كتاب الفتيا)،

(١) كذا ضبطها باقوت بفتح السين على المشهور، وهي بلدة مشهورة، من قواعد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس، وبينها وبين فاس عشرة أيام. وهي مدينة حصينة تشبه (المهدية) بإفريقية؛ لأنها ضاربة في البحر. (معجم البلدان ٢٠٥/٣ - ٢٠٦).

(٢) المدارك ٥٣١/٢.

(٣) المصدر السابق ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢.

(٤) المصدران السابقان: نفس الجزء والصفحة.

(٥) الصلاة، لابن بشكوال ٣٠٣/١ (وذكر أن أبا عبد الله محمد بن حارث الخشني أجاز له الرواية عنه).

(٦) وكان مقدماً في الشورى، ومن أهل الرواية، والدرية (ت ٤٢٢هـ). (المصدر السابق ٤٨٧/١ - ٤٨٨). ويلاحظ أن بعض المصادر ذكرت أنه روى عنه أبو بكر بن حرميل، وغيره. (ولا أدري بلد هذا التلميذ). (المدارك ٢٠٣/٢، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (حُرِّثَ حرميل إلى حوثيل)، والديباج ٢١٣/٢).

(٧) ذكر ابن الفرضي في (تاريخه، ط. الخانجي) ١١٥/٢: أنه كان شاعراً بليغاً، إلا أنه كان يلحن. وقال: بلغني أنه ألف للمستنصر مائة ديوان. وعنه نقل هذا الكلام عياض في (المدارك) ٥٣١/٢ - ٥٣٢، والنحوي في (تاريخ الإسلام) ٢٨٤/٢٦. وفي رأي أن الشعر البليغ يتناقض مع اللحن، ولو كان الخشني له كل هذه الدواوين، لنقلت عنه المصادر شيئاً من أشعاره تلك. لذلك كله، فإن أشك في صحة هذا الكلام.

(٨) الديباج ٢١٣/٢.

(٩) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ١١٤/٢ - ١١٥، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢ - ٢١٣.

و(أخبار الفقهاء والمحدثين)^(١)، و(تاريخ قضاة الأندلس)^(٢)، وكتاب (تاريخ الإفريقيين)^(٣)، وكتاب (فقهاء المالكية)^(٤)، و(كتاب التعريف)، وكتاب (المولد، والوفاة)، وكتاب (النسب)، وكتاب (الاقباس)^(٥)، وغيرها^(٦). ومن الواضح أن مؤلفاته - في الغالب - تدور حول الفقه، وتراجم الفقهاء والمحدثين، والقضاة. من أجل ذلك كله، ولآه الحكم المستنصر بعض المناصب، التي تتلاءم مع كفاءته وعلمه، فجعله مسئولاً عن (الموارث) بـ (بجائة)^(٧)، كما ولّاه الشورى بقرطبة^(٨)، وإن كنا لا نستطيع تحديد توقيت ذلك بالضبط.

ثانياً - من خصائص شخصيته:

١ - دقته، واعتزازه بنفسه:

لعل أول ما يطلعه الناظر فيما بين أيدينا من مؤلفات الخشنى التاريخية تصديره عدداً غير

- (١) ورد هذا العنوان في (الجنوة) ٩٤/١، والبغية ص ٧١، ومعجم الأدباء ١١١/١٨. وربما كان هو المشار إليه باسم (تاريخ علماء الأندلس) في (الدباج) ٢١٣/٢، والمذكور في (تاريخ ابن الغرضي، ط. الخانجي) ١١٥/٢: أن الخشنى جمع للمستنصر كتاباً في (رجال الأندلس).
- (٢) وهو مطبوع بين أيدينا بعنوان: (قضاة قرطبة).
- (٣) اعتقد أنه الموجود بين أيدينا بعنوان: (علماء إفريقية). وربما كان هو نفسه المسمى في بعض المصادر بـ (تاريخ الأفارقة)، والمنقول عنه بذلك الاسم في (المدارك) ١٩٥/٢ - ١٩٦، ومعالم الإيمان ١٥٩/٢. وسمى في (الأنساب) ٥/١٧٧، ونقل عنه السمعاني فيه باسم (تاريخ الغاربة)، وصرح أنه للخشنى. بينما سئته بعض المصادر الأخرى، ونقلت عنه، باسم (علماء، أو مشايخ القروان). (الجنوة ٢٤٩/١ - ٢٥٠، والبغية ص ٢٢٩، والصلة ١٠٥/١).
- (٤) لعله المسمى بـ (طبقات الفقهاء المالكية) في (الدباج) ٢١٣/٢. والغالب أنه ترجم فيه لفقهاء المذهب المالكي في مختلف الأمصار. ومن هنا وجدنا به ترجمة للفقهاء المصريين المالكيين الموزان (٢٦٩هـ)، فيما نقله عنه عياض في (المدارك) ٧٢/٢، ٧٤. وكذلك نقل عن هذا الكتاب - في الغالب - المقرئ في (المقفى) ٤٥٧/٧ في ترجمة الفقيه (محمد بن يحيى بن مهدي الأسوان المالكي المتوفى سنة ٣٤٠هـ).
- (٥) وردت عموم هذه المؤلفات في (المدارك) ٥٣١/٢، و(مرآة الجنان) ٣٧٥/٢ (وسمى كتاب النسب بالنسب، وتاريخ علماء الأندلس بـ (تاريخ الأندلس)، و(علماء إفريقية) بـ (تاريخ إفريقية)، و(الدباج) ٢١٣/٢، وبحث (مكنة الأمويين الإسلامية في قرطبة)، للدكتور زغروت (مجلة البحوث الإسلامية) بالرباط، مجلد ١٧، عدد (ذى القعدة - صفر) ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ، ص ٣٤٥. وذكر أنها كانت بتكليف من الناصر والمستنصر؛ ليوقف المذهب المالكي أمام محاولات الشيعة تسريب مذهبهم من الشمال الإفريقي إلى الأندلس.
- (٦) أضاف ابن فرحون إلى مؤلفات الخشنى كتاب (مناقب سحنون). (الدباج ٢١٣/٢، ٣٠).
- (٧) (المدارك) ٥٣١/٢. وصُحِّفَ في (الدباج) ٢١٣/٢ إلى (بجاية). وبجاية بالمغرب. أما (بجائة)، ففى الأندلس، وهي من أعمال كورة البيرة، بينها وبين المرسة فرسخان، ولها علماء كثيرون (معجم البلدان ٤٠٣/١). ولعلها خطة (توزيع الموارث، والإشراف على البيتمى مالياً، وتقسيم التركات).
- (٨) تاريخ ابن الغرضي (ط. الخانجي) ١١٥/٢، و(المدارك) ٥٣١/٢، و(الدباج) ٢١٣/٢. وهي من الخطط المساعدة للقضاة بالأندلس، إذ تتكون من كبار الفقهاء، الذين يشاورهم قاضى الجماعة بقرطبة في القضايا التي تُعرض عليه، ويستأنس برأيهم قبل الفصل فيها.

قليل من رواياته بـ (قال محمد)^(١)، أو (قال محمد بن حارث)^(٢)، أو (قال ابن حارث)^(٣). وهذه الصيغة التي يستخدمها كثيراً تدل على دقته في نسبة الروايات إلى نفسه، فهي من تجميعه وتنسيقه هو؛ ولذلك تجده - أحياناً - يصدر بها مورداً صريحاً، أو مجهولاً. إلى هنا وأتوقف مكثفياً بهذه اللمحة السريعة التي تمس شخصيته، موجلاً التفصيل من الزاوية الأخرى عند الحديث عن (الموارد). وبالنسبة للجانب الآخر المستفاد هنا، فيتمثل فيما نشره به من اعتزاز الخشني بنفسه، وهو ما يتأكد بصورة واضحة، عندما يتلو هذه الصيغة تعليق خاص للخشني على حدث ما، أو خبر ما في رواية من الروايات، فكأنه يفصح عن نفسه وشخصه ورأيه. وسوف نذكر عدداً من مواضع حضور شخصيته عند دراسة منهجه في كتابه: (أخبار الفقهاء والمحدثين)، بإذن الله (تعالى).

٢ - أدبه، وصراحته:

تميز الخشني بالعفة في استخدام الألفاظ، حتى إذا وردت لفظة مستحبة مستهجنة على لسان أحد المشاركين في الحدث، ترفع وتزهر بنفسه عن ترديدها كما وردت، وإنما يكتفي عنها. ومثال ذلك: تعبّره عن ألفاظ، قالها الأمر عبد الرحمن بن معاوية غاضباً (١٣٨ - ١٧٢ هـ) لمصعب بن عمران، الذي أصر على إبقاء منصب القضاء، لما عرضه عليه الأمير، إذ قال: " فقال لمصعب: اذهب، فعليك كذا وكذا، وعلى اللذين أشارا بك "^(٤).

والصراحة تلمسها من واقع ما أورد الخشني في بعض مؤلفاته التاريخية. فمن ذلك: أنه كان إذا بحث عن المادة التاريخية المرتبطة بشخصية معينة في فترة معينة من فترات حياتها، فلم يعثر على ما ينبغي، صرّح بذلك دون أدنى مواربة^(٥)، بل قد يتعدى الأمر ذلك إلى ما هو أكثر؛ إذ قد لا يجد - عمن يترجم له، ويعرف به - أي خبر لدى رواة الأخبار، يقيده عنه، فيشير إلى ذلك بوضوح تام^(٦). واعتقد أن ذلك لا يعيبه في شيء، ما دام قد استفرغ وسعه، وبذل ما في طاقته.

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٩ - ١٠، ١٦، ٢٧، وغيرها، وقضاة قرطبة للخشني (ط. الإيباري) ص ٢٧ - ٣١، ٣٨، ٤٢، وغيرها كثير، وعلماء إفريقية (ط. الخانجي) ص ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٨، ١٩٥، وأخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٧، ١٩.

(٣) علماء إفريقية (ط. الخانجي) ص ١٨٤، ١٨٦، ١٩١.

(٤) يقصد: ابنه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وأحمد بن مغيث (قضاة قرطبة، ط. الإيباري) ص ٢٧.

(٥) قال الخشني في (المصدر السابق) ص ٩٨، عند تناوله للقاضي (الفرج بن كنانة): ولم أجد عند رواة الأخبار للفرج بن كنانة بعد مقدمه من الثغر خبراً.

(٦) كما في ترجمة القاضي (قطن بن جزء التميمي)، فيعد أن ذكر نسبه، وولده، وتوليته الحكم من هشام له قضاء قرطبة، قال: (ولم أجد له عند رواة الأخبار خبراً، أقيده عنه). (السابق: ص ٩٩). ويمكن مراجعة المزيد من

النماذج في (السابق: ص ١٠٠ - ١٠١، ١٢٤).

٣ - رقة مشاعره، وحيه للناس:

من خلال مطالعتي كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشنى، تبين لى أن هذا المؤرخ هادئ الطبع، حلو المعاشرة، حسن القول، يفيض رقة وعلوبة وإيماناً، ووفاء وعرفاناً لمن يترجم لهم من علماء الأندلس. وهناك عبارات، وجمل قصيرة كان يواظب على ذكرها في تراجمه، وهى على بساطتها الشديدة، ذات مدلول طيب، ومغزى عميق. ومن ذلك: مواظبتة شبه التامة - بعد ذكر اسم المترجم له في صدر الترجمة - على (الترحم عليه)، بقوله: (رحمه الله)^(١). وفى أحيان نادرة، يترحم على المترجم له - بعد ذكر تاريخ وفاته - آخر الترجمة^(٢). وكان يترضى على إمام أهل السنة، ودار الهجرة الإمام مالك، فيقول: ﷺ^(٣). وقد يستخدم عند الترحم صيغاً أخرى، مثل: (رحمه الله، ورحم المسلمين)^(٤)، و(رحمة الله عليه، وعلى جميع المسلمين)^(٥)، و(عفا الله عنا، وعنه)^(٦)، و(رحمنا الله، وإياه)^(٧).

٤ - عقليته الواعية المنظمة المجتدة:

تميز مؤرخنا الخشنى بحب العلم، وشغف مطالعته، وبرز في عدة علوم، منها: (الفقه، والحديث، والتاريخ). ومن هنا، فقد شكّلت هذه الثقافة العريضة عقليته، ووسّعت مداركه، فكان فطناً لبيباً، ذا قدرة على التنسيق، والابتداع. ومن شواهد ذلك ما يلي:

أ - كان الخشنى يدرك تماماً أن العلم والفقه شيء، والعبادة والخير والزهد شيء آخر؛ إذ لم يلزم أن يكون العابد الفاضل زاهداً عالماً فقيهاً. ومن هنا كان يفرق بين هذين الأمرين، ويحرص على بيان ذلك في تراجمه^(٨). وهذا فهم صائب دقيق.

ب - كان الخشنى حسن الفهم دقيقه عند النظر إلى كل من: (المحدث)، و(الفقيه)؛ ولذلك

(١) هذا هو ديدنه في معظم تراجم كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين). وقد تسقط هذه الجملة الدعائية في مواضع نادرة، مثل: ترجمة (٤) ص (١١)، وترجمة ٦١ ص (٦٣).

(٢) راجع (المصدر السابق): ترجمة ١٢ ص ١١، ورقم ٢٠ ص (٢٢).

(٣) السابق: ترجمة ٨ ص ١٣.

(٤) السابق: ص ١٩، ٢٤، ٢٦.

(٥) السابق: رقم (٥٨)، ص ٦٢.

(٦) السابق: ص ٢٠.

(٧) السابق: ترجمة (٥٠) ص ٤٢، وترجمة ٧١ ص (٧٣).

(٨) كما في ترجمة (أبي الأحوص، رقم ١٨) الواردة في (علماء إفريقية، ط. الخانجي) ص ١٩٨ (وكان الخير والعبادة أغلب عليه من الفقه). وكذلك ترجمة (أحمد الصواف) في السابق رقم ٢٥ ص (٢٠٦).

كان يرى أن للحديث رجاله، وللفقه رجاله أيضاً^(١). وبلغت به الدقة والفطنة مدى أوسع من ذلك، عندما رأى أن هناك من لم يكن عنده فقه، ولا حفظ، وإنما كانت عنده رواية عن بعض العلماء^(٢).

ج - علق الخشنى على ما رواه له (أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القصيرى)، من أنه كان يسأل (يحيى بن عمر الأندلسى) عن مسألة من المسائل فيجيبه. وبعد زمان يسأله عنها، فلا يختلف قوله، ولا يتناقض جوابه. وغيره كان على خلاف ذلك. علق الخشنى على ذلك بقوله: وهذا الوصف منه يدل على ركود النظر، وقلة الإحالة للفكر، وعلى الاقتصاد على المقال (المحفوظ)^(٣). فالخشنى يرى - إذن - أنه لا بد للفقهاء من إعمال فكره، وإعادة النظر في فتاواه، وعدم التوقف عند حدود ترديد المحفوظ من المسائل الفقهية لدى السابقين، وعدم الاقتصاد على التقليد، بل لا بد من الاجتهاد والتجديد.

د - القدرة على تنسيق المادة العلمية، وحسن توزيعها، ليس على مستوى الكتاب الواحد فحسب، بل على مستوى أكثر من كتاب من كتبه، بحيث إنه لا يقع في التكرار، فما ذكره في مكان من كتاب، لا يعيده مرة أخرى في موضع آخر من الكتاب نفسه، وإنما يكتفى بالإشارة إلى أنه سبق بيانه من قبل^(٤). وقد يتوسع ويفصل في كتاب، بينما يختصر الأمر في كتاب آخر، مشيراً إلى أنه سبق له البيان والتفصيل في كتاب سابق، يقوم بالنص عليه؛ كى يرجع إليه من شاء^(٥).

(١) هناك من نص على تقدمهم في الفقه، وبصرهم بالرأى والحجة في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ترجمة (إبراهيم بن حسين بن خالد القرطبي)، رقم (١) ص ٩ - ١٠، وأحمد بن مدرك الفقيه الملقب الفاضل المالكي القُيرى (رقم ٨ ص ١٣). بينما برع البعض في حفظ الحديث، والسنن والرجال (مثل: أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري)، رقم ١٢ ص ١٤ - ١٦. وهناك من اهتم برواية الحديث، مع قلة إحسانهم الفقه (بأتى بالحديث على وجهه في زكاة الشياه، ولا يعرف الحكم الفقهي) ص ١٩.

(٢) السابق: (رقم ٤٨٣)، (ص ٣٤٣).

(٣) علماء إفريقية (ط. الخاغي) ص ١٨٤. وقد أورد الخشنى روايات، تفيد معرفته بأن الفقه هو معرفة المسألة، لا مجرد الحفظ دون فهم. (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١٢٠، ٢١٩.

(٤) علماء إفريقية ص ٢١٤ (ترجمة حسن بن البناء)، الذى ضمه إبراهيم بن أحمد بن الأغلب إلى كتابة (القاضى عيسى بن مسكين) على الوجه الذى ذكرته - قبل هذا - عند ذكر (عيسى بن مسكين). وبالفعل هذه المعلومة موجودة في ترجمة القاضى المذكور سلفاً في (المصدر السابق) ص ١٩٣.

(٥) في آخر ترجمة (يحيى بن عمر الأندلسى) في (السابق) ص ١٨٦، قال: (وأراق أودعت كتاب (التعريف) من ذكر يحيى، ما لم يمتص في هذا الكتاب. وكذا في ترجمة (حمديس القطان) رقم ١٦ ص ١٩٧: وقد ذكرت في كتاب (التعريف) من أخباره ما لم أذكره في هذا الكتاب. وفي ترجمة (عبد الله بن طالب) ص ٣٠٦: ذكر مناظرة له عند الأمر (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب)، قال: ذكرته في كتاب (التعريف).

٥ - تفاعله مع أحداث عصره:

عرفنا - فيما سبق - أن الخنسي وُلِد، ونشأ النشأة الأولى في القيروان، ثم انتقل إلى الأندلس وهو في مقتبل الشباب، واستقر بها حتى الممات^(١). وبهذا يكون قد غمى إلى علمه أخبار دولة الأغالبة السابقة (١٨٤ - ٢٩٦هـ)، وعاش بدايات دولة العبيدين المشيعية، ثم عاش في كنف الأمويين بالأندلس. والآن ما موقفه من هاتين البيتين وحكامهما؟ والجواب: أنه على الرغم من مغادرة الخنسي القيروان، إلا أنه كان يتابع أخبارها، ويرصد ما يتنامى إليه من أحداثها، ويقارن بينها وبين ما يروى له من أحوال شبيهة بها^(٢).

أما موقفه من حكام (الأغالبة)، فالملاحظ أنه لم يعاصر حكمهم، لكن يبدو أنه روي له كثير من مفاسدهم؛ مما أثر في طريقة تعبيره عنهم، فهو لا يصفهم بالأمرء، بل اكتفى بذكر أسمائهم^(٣)، وقد يعبر عن كل منهم - (السلطان) عند ذكر الخن التي تعرض لها بعض العلماء^(٤). وما وُجد من حالات قليلة، نُسبت فيها الإمارة إلى بعضهم، فذلك مسوق على لسان مصدره الذي نقل عنه^(٥).

(١) من الملاحظ أن الدكتور حسين مؤنس جعل الخنسي من أعلام العلم والفقه بالمغرب (مقدمته لتحقيق رياض النفوس) صفحة (٣٥). وهذا غير صحيح؛ بدليل تلقيب المالكي له بالأندلسي في نقله عنه ترجمة (محمد بن سحنون) في (رياض النفوس) - ط. بيروت - ج ١ - ص ٣٥٦. وهذا هو ما نغلب إليه، ورجحه قبلنا د. عبد الواحد ذنون طه في (نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) ص ١٥، إذ رأى أنه قرواني الأصل، لكن ثقافته وطريقة تفكيره تشكلت على أيدي أساتذته بالأندلس، وتناحه انمكس لحياته الفكرية والثقافية والاجتماعية، التي عاشها بالأندلس، التي قضى عمره فيها، وتروى، ودُفن بها.

(٢) لم تقطع صلة الخنسي بالقيروان، وتوقع أن تكون له صلة بأحوالها، عن طريق القادمين إليها من القيروان، أو بالمراسلة، فيما أظن؛ بدليل أنه في بعض تراجم (علماء إفريقية) - وهو نتاج أندلسي كُتبه بالأندلس فيما نرجح - قال: (قال أبو جعفر أحمد بن أبي خالد الدباغ - وهو اليوم - أحد عقلاء رجال القيروان) ص ١٩٩. وفي ص ٢٤٦: أخيراً أبو جعفر بن شهرين الذي هو - اليوم - قاضي برقة. وفي (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١٥٩: ذكر أحداثاً بلمنته - فيما نرجح - عن القيروان سنة ٣١٥هـ (وهو بالأندلس)، عندما قام السفهاء، والأحداث هناك بامتحان الناس في تقليد مالك وأصحابه؛ مما أدى إلى التشيت والفرقة، حتى اضطر المهدي إلى تنعيف (إسحاق بن أبي المنهال)، طالباً إليه تسكين الأحوال، حتى هدأت الفتنة. (ذكر ذلك تعليقاً على ما رواه بعض تجار القيروان عن خلاف بين رجلين من عوام بغداد حول معنى المقام المحمود)، وما أحدثه ذلك من سباب وشجار، وكذلك ما حكاه له محمد بن عبد الملك بن أيمن حول ما رواه من اشتجار الفتنة بين أهل بغداد حول الموضوع نفسه). (السابق: ص ١٥٨ - ١٥٩).

(٣) علماء إفريقية (ط. الخناجي)، للخنسي: ص ١٨٩، ١٨٣، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٨، وغيرها.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٣٣.

(٥) السابق: ص ١٧٩ (في ترجمة محمد بن سحنون على لسان "لقمان بن يوسف"، وهو المرد الذي نقل عنه الخنسي تلك الرواية)، ص ١٩١ (في ترجمة أحمد بن أبي سليمان في حوار مع إبراهيم بن الأغلب).

وبخصوص الحكام العبيديين بالمغرب، فقد رأينا - سلفاً - أنه قرّر من موطنه، ومسقط رأسه (القيروان)؛ خوفاً من بطشهم وتنكيلهم بعلماء السنة وأتباعهم. ولا شك أنه كان يحمل لهم في قلبه قدراً من البغض والكراهية في الله والله (فقد بدّلوا وغيّروا في عقائد المسلمين الصحيحة، وأذوا أهل السنة، واضطروه إلى هجران بلده). ومن هنا، فقد رأينا أثناء ترجمته لأحد علماء وزهاد إفريقية يقول: مات - رحمه الله - باب المردية^(١). "وعلق القاضي عياض بعدها مباشرة قائلاً: يريد (ابن حارث) - (المردية): (المهذية)، مناقضة لاسمها، الذي سمّاها به بنو عبيد؛ إذ كانت عيش كفرهم، ودار ضلالهم^(٢)."

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان الخشني يُزرى من شأن من تشيع بالقيروان، وجارى العبيديين^(٣).

وبالنسبة لطبيعة نظراته إلى الحكام الأمويين بالأندلس، فإن الخشني كان عظيم الامتنان لهم، شديد الاحترام والإكبار لذكورهم. واعتقد أن الخشني كان مبالغاً في جانب من جوانب هذا الأمر، ذلك أنه بلغت به المغالاة حدّاً جعلته يترضى عند ذكر عبد الرحمن بن معاوية، فيقول: الإمام^(٤)، وكذلك عند ذكر غيره من بني أمية^(٥). وكان يضيف على الأمراء الأمويين بالأندلس لقب (خليفة)^(٦)، رغم أن إمارتهم لم تتحول إلى خلافة إلا في عهد (عبد

(١) ترتيب المدارك ٣١٥/٢ (في ترجمة العباس بن عيسى المشي ت ٣٣٣هـ). وصرح القاضي عياض في هذا النص بنقله عن (تاريخ الأفرقة) للخشني. وقد رجعت إلى (علماء إفريقية، ط. الخانجي)، الذي بين أيدينا في ترجمة المذكور (ص ٢٣٤، ٢٨٥)، فلم أجد النص فيه، فغالبا أن النسخة المطبوعة بين أيدينا مختصرة على يد العالم الأندلسي (أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي ت ٤٢٩هـ)، خلافاً للأصل الكامل الذي ظالمه عياض.

(٢) عقد الخشني فصلاً قصيراً في (علماء إفريقية) ص ٢٩١ - ٢٩٦، عنوانه - (من تشرك - أي: تشيع - من ينسب إلى العلم بالقيروان). فهو - إذا - جعلهم يدعون الانتساب إلى العلم، ولم يتوسع في الترجمة هؤلاء (عالم مدني الأصل بالقيروان، والباقون عراقيون؛ لأن التشيع كان هم بارزاً)؛ ربما لأن هؤلاء هم الذين حضروا ذكرهم في ذهنه، وهو بالأندلس، أو لم يتوسع في ذكرهم؛ إهمالاً لشأنهم.

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٩.

(٤) فمثلاً: كان يترضى على الداخل والولد، فيقول عند ذكره عبد الرحمن بن معاوية: (رضي الله عنهما). (قضاة قرطبة، ط. الإيباري) ص ٢٧، ويترضى على الخليفة الحكم (رضي الله عنه). (السابق: ٢٩)، ويترضى على خلفاء بني أمية عموماً بالأندلس على حد تعبيره، فيقول: (رضي الله عنهم)، (السابق: ٢٤ - ٢٥، ٣٨).

(٥) فيقول مثلاً: الخليفة الحكم، والخليفة عبد الله، والخليفة محمد (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ٣٢، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٥٩، ٨٠، ٨٣، ٩٩، ١٠٧، وغيرها. ويلاحظ أنه قال: الخليفة عبد الرحمن في (ترجمة رقم ١٢٢، ص ١٠٧)، وأدى هذا الوصف إلى الخلط بين (عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠هـ)، و(عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ - ٢٣٨)، لولا وجود قرينة في الترجمة، تُصَرِّفُ الفهم إلى (الأمير عبد الرحمن بن الحكم)؛ لأن الترجمة ورد بها أن المترجم له (كرز بن يحيى الصداق الاستحقي). روى عن (عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨هـ)، فهو معاصر للأمير، لا للخليفة. وكذلك في (ترجمة محمد بن يحيى السباتي) رقم ١٢٧، ص ١١٢، فقد ورد أنه كان في أيام -

الرحمن الناصر) في ذى الحجة سنة ٣١٦هـ. ولعل الخشني أراد أن يعبر عن مشاعره تجاههم، ويُرضى (الناصر، والمستنصر)، خاصة أنه وافد مهاجر إلى بلاد غريبة، يخشى على نفسه بما الدسائس والوشايات، ثم هو يعبر عن شديد وفاته لحكامها السابقين والحاليين؛ إذ احتضنته بلادهم، وآوته في كنفها بعد فراره من بلده.

ومن جهة أخرى، فإن مدح الخشني الخليفة الناصر، وابنه المستنصر من بعده لا يدخل - في نظري - في باب التحيز، أو المبالغة؛ لأن الخليفتين كليهما جديران بكل تجلّة واحترام؛ كفاء ما قدّما للإسلام وللمسلمين في بلاد الأندلس من عدالة ورعاية^(١)، وما حققا من تقدم وازدهار، وعزة ونصر وتمكين. لقد حظى المستنصر بشيء خاص، وتقدير كبير من المؤرخ الخشني؛ نظراً لجهوده الطيبة المتميزة في خدمة الثقافة، ونشر العلم. فالخشني يعرف للعلم قدره، ويفهم - تماماً - أنه أساس الفضائل والمفاخر، وأن الحكام المثقفين الذين يشجعون العلم والعلماء يقودون شعوبهم وأممهم إلى الخيرات والفضائل والمكارم^(٢). فإذا عرفنا صلة الخشني بالمستنصر، وتوجيه الخليفة له إلى التأليف في الموضوعات التي أُلّف فيها؛ مما جعله يُهدّي هذه المؤلفات إليه؛ أدركنا سر إعجاب الخشني به. وأيقنّا أن مدحه إياه لم يكن من باب المجاملة، أو التزلف والنفاق، ولكن من باب نسبة الفضل إلى ذويه.

حول تاريخ وفاة الخشني:

ظل مؤرخنا (الخشني) على صلة طيبة، ومكانة متميزة على عهد الخليفة الأموي الأندلسي (الحكسم المستنصر)، إلى أن توفي سنة ٣٦٦هـ. ويبدو أن المنصور بن أبي عامر عزل مؤرخنا الخشني من منصبه؛ تنفيذاً لسياسته الرامية إلى التقصير بصنائع الحكم (أي: إهمالهم، وإبعادهم عن مناصبهم). ولا ريب أن الخشني تأثر بذلك تأثراً بالغاً، إذ آلت به الحال بعد كل هذا العلم والفقه، والشهرة والمكانة المرموقة، والتفريب من الخليفة، وإهداء مؤلفاته - خاصة التاريخية -

- الخليفة الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦هـ). وبالنظر إلى محتوى الترجمة، وجدنا أنه يروي عن مالك (ت ١٧٩هـ)، فيكون المقصود هو الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ). وفي ترجمة رقم ١٣٠ - ص ١١٦ لـ (عبد بن تليد): ورد أن الخليفة (الحكم بن هشام) استفضاه على سرقسطة، وأنه كان - أيضاً - في أيام الخليفة عبد الرحمن (رضي الله عنه) قاضياً. وواضح أنه يقصد توليه القضاء في عهد الأمير (الحكم بن هشام)، ثم ابنه الأمير (عبد الرحمن بن الحكم بن هشام).

(١) ورد رأى الخشني صراحة في (الخليفة الناصر) في ترجمة (أحمد بن عيادة القرطبي) ص ٢٦، لما قال: (وكان له عند أمير المؤمنين (عبد الرحمن بن محمد) جاه عريض، وحرمة وفرة، وأفضل ما كان لعالم عند إمام عادل).

(٢) راجع (قضاة قرطبة، ط. الإيباري)، للخشني ص ٢٣ - ٢٤.

إليه، أقول: انتهى به المطاف إلى الجلوس في حانوت لبيع الأدهان^(١)؛ كى يتكسب من دخله. ويبدو أن الخشني كان على معرفة قديمة بدراسة الكيمياء، وتجارة العقاقير في بداية شبابه^(٢)؛ مما جنبه مذلة السؤال، فوجد في صناعته تلك ملاذاً، يتعيش منه، ودخلاً يسد به رمقه. ولعله كان يحتسب بعض الوقت؛ لإتمام بعض مؤلفاته.

ويغلب على الظن أن مؤرخنا قد انفطر فؤاده وتصدّع قلبه؛ حسرة وأسى، لما وجد نفسه مضطراً إلى هذا العمل، الذي لا شك أنه أبعد كثيراً عن عمله الرئيسي، وهوائيه المفضلة المتمثلة في البحث والدرس والتأليف. وأعتقد أن حياته لم تطل بعد وفاة (المستنصر)، فتوفى - على الأرجح - سنة ٣٧١هـ^(٣)، لا سنة ٣٦١هـ كما يرى الكثيرون^(٤)، ولا سنة ٣٣٠هـ^(٥)، ولا سنة ٣٦٤هـ (كما يرى البعض)^(٦)؛ لأنه ثبت أن الرجل عاش بعد وفاة المستنصر (ت ٣٦٦هـ)، وأكمل كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) بعده؛ بدليل ترجمه عليه في معظم المواضع،

(١) تاريخ ابن الفرضي ١١٥/٢ (قال مختصراً: كان يعمل الأدهان، ويتصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة، يقصد: الكيمياء)، والمبارك ٥٣١/٢ - ٥٣٢، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (بتعاطي الكيمياء)، والديباغ ٢١٣/٢، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩٢/٢.

(٢) القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، للدكتور ريتون ص ٤٠٤ - ٤٠٥ (ورجح أن يكون تعلم في القيروان).

(٣) هذا هو الراجح لدى، وسرى أدلته بعد قليل. وسبقني إليه دون سوق أدلته: بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي) ٩٢/٢ (توفى ٢ من صفر ٣٧١هـ - ٩ أغسطس ٩٨١م)، وناشر (تاريخ فضاء الأندلس) للباهي (مقدمته صفحة ٥).

(٤) تاريخ ابن الفرضي (ط. الخاني) ١١٥/٢ (توفى بقرضة في الثالث عشر من صفر سنة ٣٦١هـ، ودفن مقبرة مومرة. فهو الوحيد الذي أشار إلى مكان الدفن، الذي لم أقف عليه بالتحديد)، والمبارك ٥٣٢/٢ (نقلاً عن ابن الفرضي في إحدى روايتين، ذكرهما عياض)، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (توفى في شهر صفر)، والإعلام بوفيات الأعلام للذهبي ص ٢٤٨، ومرآة الجنان ٣٧٥/٢، والديباغ ٢١٣/٢ (في رواية)، والنجوم ٦٨/٤. وقال بذلك من المحدثين: دزيتون في (القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية) ص ٤٤٠، ود. عبد الواحد دنون طه في (نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس) ص ١٥. وأخيراً، فمن الملاحظ أن د. أحمد مختار العبادي تفرد بعمل تاريخ وفاة الخشني سنة (٣٦٠هـ/٩٧١م). ينحط: من التراث العربي الإنسان في بحلة: (عالم العكر) مجلد ٨، ١٤ - (أبريل - يونيو) ١٩٧٧م (ص ٤٥). ولعله خطأ مطبعي بحرف عن (٣٦١هـ).

(٥) قال ياقوت في (معجم الأدباء) ١١١/١٨: مات في حدود الثلاثين والثلاثمائة (وهو نقل غير دقيق عن الحميدي، كما سنرى). أما (الإكمال) ٢٦١/٣، والجودة ٩٤/١، والأنساب ٣٧٢/٢، والغبية ص ٧١، فذكر مؤلفوها أنه كان حياً في حدود الثلاثين وثلاثمائة (أي: مات بعد ذلك في وقت غير محدد) وهذا المذكور هنا بشأن وفاته غير صحيح، فقد وردت بعض في كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين) فقد أنه لا يزال حياً سنة ٣٣٦هـ (ص ١٧٨)، ثم لا يزال حياً أيضاً سنة ٣٤١هـ (السانق: ترجمة ٩٧، ص ٨٥). ثم ترجم في عدة مواضع على الخليفة الناصر (ت ٣٥٠هـ) ص ١٨، ٢٦، ٧٠، وغيرها. وسيأتي ترجمه عن ابنه الخليفة المستنصر (ت ٣٦٦هـ).

(٦) سبق إلى إبراز ذلك التاريخ عياض - نقلاً عن ابن عفيف - في المبارك ٥٣٢/٢، ونقله عن (عياض) - في الغالب، ولم يصح - ابن فرحون في (الديباغ) ٢١٣/٢ (وقبل: توفى سنة ٣٦٤هـ). ويبدو أن (المبارك) هو مصدر د. حسين مؤنس في (مقدمة تحقيقه للرياض) ص ٣٥م.

الشيء ورد ذكره بها؛ إذ إنه نقل عنه مادة، ضَمَّنَهَا تراجم كتابه المذكور^(١)، وكأنه يترحم على ذلك الزمان الذي ولَّى، ولن يعود. ولعله كان يرى - بحاسة المؤرخ - في أعمال المنصور إرهابيات الردة الحضارية بعامة (والثقافية بخاصة)، عندما استبعد المنصور رجلاً من طراز الخشنى، لا لشيء سوى أنه من رجالات العهد السابق.

دراسة كتاب: (أخبار الفقهاء والمحدثين)^(*) للمؤرخ الأندلسي الخشنى

تشمل دراسة الكتاب المذكور النقاط الآتية:

أولاً - عنوان، ومحتوى الكتاب.

ثانياً - الموارد.

ثالثاً - بعض ملاحظات نقدية.

رابعاً، وأخيراً - المنهج المتبع في تأليف هذا الكتاب.

أولاً - العنوان، والمحتوى:

١ - لهذا الكتاب - كما سبق أن ذكرنا - عنوانان: (أخبار الفقهاء والمحدثين)، و(تاريخ علماء الأندلس). ولكل منهما إيجابية، وسلبية؛ فالأول حدّد نوعى العلماء المذكورين في هذا الكتاب بدقة (الفقهاء، والمحدثين)، لكنه لم يحدد الإطار الزمني والمكاني لتراجم الكتاب، فلم يبين

(١) من المواضيع التي ترحم عليه فيها في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ١٧٨ (هو وأبوه الناصر)، ص ٢١٥ (ولى عهد المسلمين رحمه الله)، وكذلك ص ٣٤١ (وكان هشام المؤدّب القرطبي يؤدّب أولاد أمير المؤمنين (رحمه الله)؛ ولى العهد (رحمه الله)، وسائر إخوانه)، ص ٣٦٣. وللأمانة أقول: هناك بعض مواضع نادرة لم يترحم عليه فيها (مثل: ص ٢٧، حيث قال عنه: (أعزه الله)؛ لأن الرواية المسوقة كان لا يزال الحكم في حبرها حيّاً، ولعل الخشنى ذرّها في حياته (في ترجمة ٣١، لأحمد بن دحيم بن خليل القرطبي ٢٧٨ - ٣٣٨هـ: سمع منه ولى العهد - أعزه الله - بعد أن عاد إلى الأندلس سنة ٣١٩هـ، بعد رحلته التي بدأت للحج سنة ٣١٥هـ، وفيها دخل بغداد سنة ٣١٦هـ - (لأواخرها). ويوجد موضع آخر ص ٣٧ (ذكر الحكم فيه موضع شك).

(٢) اعتمدت - في دراسة هذا الكتاب - على طبعة مدريد الصادرة سنة ١٩٩٢م، التي حققها: ماريا لويسا أبيلا، ولويس مولينا. وتجدر الإشارة إلى أن د. عبد الواحد ذنون ذكر في (هوامش ص ٧٦ من كتاب: نشأة تدوين التاريخ العربى في الأندلس) الصادر سنة ١٩٨٨م، أن زميله د. رضا هادى عباس شرع في تحقيق مخطوطة هذا الكتاب. ولم أقف على طبعة هذا التحقيق بعد.

الفترة الزمنية التي عاش فيها هؤلاء، ولا البلدان التي ينتمون إليها. وأما العنوان الثاني، فميزته تحديد القطر الذي ينتمي إليه هؤلاء المترجمون، لكن يعيبه أنه لم يحدد أى نوع من العلماء يقصد.

٢ - وعلى كل، فإننا إذا ارتضينا العنوان الأول - رغم تحفظنا عليه - فإننا نستطيع القول: إن مؤرخنا الحشني واطب على بيان نوعية العلم الذي يتسم به المترجمون، فالبعض يغلب عليه معرفة الفرائض^(١)، أو هو من أهل البصر بالحجة^(٢)، أو مائل إلى الرأي^(٣)، أو بصير بالفتيا^(٤)، أو له بصر بالمسائل وعلم الوثائق^(٥)، أو هو معدود في جماعة الفقهاء^(٦). وهناك آخرون على الجانب الآخر (الحديث) لهم رواية^(٧)، أو ضابطون لما سمعوا حافظون لما جمعوا^(٨)، أو هم أعلم بالحديث والرجال وأحفظ للسنة والآثار^(٩).

٣ - ولا يمنع ما تقدم أن يكون بعض المترجمين جامعاً بين (الفقه، وحفظ الحديث)^(١٠)، أو أن تكون له اهتمامات بعلوم أخرى أيضاً^(١١)، أو تكون له موهبة بارزة^(١٢).

وفي اعتقادي أن مؤرخنا الحشني كان موفقاً في تقديم (الفقهاء) على لفظة (المحدثين) في عنوان الكتاب، فالنظرة الفاحصة المتأملّة في تراجم الكتاب ككل تشير بوضوح إلى غلبة الاهتمام بالفقهاء، وكثرة تراجهم بالنسبة إلى المحدثين^(١٣). ولعل غلبة الفقه على ثقافة الحشني لها دخل في ذلك.

- (١) أخبار الفقهاء والمحدثين (ترجمة أحمد بن إبراهيم الغرضي القرطبي، رقم ٢ ص ١١).
- (٢) المصدر السابق: (ترجمة إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتبيل، ترجمة ١ ص ٩).
- (٣) السابق: ترجمة (أحمد بن عبد الله بن خالد بن مرتبيل القرطبي، رقم ٤ ص ١١).
- (٤) السابق: ترجمة (أحمد بن مارك الغري، رقم ٨ ص ١٣، و ترجمة (أحمد بن عتبة الحضرمي البخاري، رقم ١٠ ص ١٣).
- (٥) السابق (ترجمة أحمد بن محمد البحصي القرطبي، رقم ٥ ص ١٢).
- (٦) السابق: ترجمة (أحمد بن بشر بن أغبس القرطبي، رقم ١٦ ص ٢٠).
- (٧) السابق: ترجمة أحمد بن الوليد بن عبد الخالق الطليلي، رقم ١١ ص ١١).
- (٨) السابق (ترجمة أحمد بن عبد الله بن خالد بن مرتبيل القرطبي (رقم ٤ ص ١١).
- (٩) السابق: (ترجمة أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري، برقم ١٢ ص ١٥ - ١٦).
- (١٠) السابق: ترجمة: حفص بن عمرو بن نجيح الإلبيري رقم ٨٠، ص ٧٧، و ترجمة (حامد بن أخطل الإلبيري، رقم ٨٢، ص ٧٧).
- (١١) السابق: ترجمة (إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتبيل، رقم ١ ص ١٠: له تأليف في التفسير معروف به، و ترجمة (أحمد بن بشر بن أغبس، رقم ١٦ ص ٢٠: غلب عليه علم اللغة).
- (١٢) السابق: (ترجمة أحمد بن محمد بن عجلان المرقسطي، رقم ٧ ص ١٢: له شعر بارع)، و ترجمة (أحمد بن عمرو ابن منصور الإلبيري، رقم ١٢ ص ١٥: من الخطباء البلغاء).
- (١٣) من الفقهاء المترجم لهم في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، راجع تراجم أرقام: (٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٥٣، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٦، ٨٨، ٩٠، وغيرها كثير جداً. ومن المحدثين: تراجم أرقام: (٢٥، ٣٢، ٣٥، ٤٤، ٦٤، ١٠٠، ٢٠٣، وغيرها).

٤ - بخصوص عدم التحديد المكاني في عنوان الكتاب، فقد عَوَّضَ مؤرخنا ذلك النقص بالنص - في غالبية التراجم - على البلدة التي ينتمي إليها المترجمون داخل الأندلس^(١). ويمكن أن نرتب أقاليم الأندلس المذكورة في تراجم الفقهاء والمحدثين - وهي ثمانية وعشرون - حسب عدد المنتمين إليها من علماء الأندلس على النحو الآتي:

- ١ - قرطبة: نُسب إليها (٢١٦ عالماً)^(٢).
- ٢ - طَلَيْطَلَة^(٣)، والبرية^(٤): نُسب إلى كل منهما (٤٣ عالماً).
- ٣ - سرقسطة^(٥): نُسب إليها (٣٤ عالماً).
- ٤ - وَشَقَّة^(٦): نُسب إليها (٢٢ عالماً).
- ٥ - رِيَّة^(٧): نُسب إليها (١٧ عالماً).
- ٦ - وادي الحجارة^(٨)، وجِيَان^(٩): نسب إلى كل منهما (١٦ عالماً).
- ٧ - إِسْتِجَة^(١٠)، وإشيلية^(١١)، وتُطَيْلَة^(١٢)، وتُدْمِير^(١٣): نُسب إلى كل واحد من هذه الأقاليم (١٤ عالماً).

(١) كان اسم بلدة الترجمة له يسقط أحياناً، كما في ترجمة رقم (١) ص ٩ (إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتيل). وبالعود إلى (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ١٦/١، ذكر أنه قرطبي. وكذلك حدث في ترجمة (شيبان بن سليمان الزاهد) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ٤٦٧. وبالعود إلى (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٢٣٣/١، قال: من أهل قرطبة. وكذلك (محمود بن حفاظ) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ٢٦٠، لم يذكر بلده. وجعله ابن الفرضي في (تاريخه) ١٢١/٢ في أهل (قرطبة). وكذلك (قاسم بن أصبغ البياض) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ٤١٧ (في ترجمته) سَقَطَ ربما سَقَطَ خلاله اسم بلده. وهو من قرطبة، كما جاء في (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٦/١). ويلاحظ أن هناك شخصين آخرين، لم يذكر الحشني بلديهما عند الترجمة هما (قاسم بن عساكر، رقم ٤٢١ في "أخبار الفقهاء والمحدثين"، ويحتمل أن يكون هو المذكور في (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٤٠٥/١ (هو قرطبي). وأما الشخصية الأخرى، فهي شخصية (عبد المؤمن بن ذي النون)، رقم (٣٤٩)، ولم أقف على بلده في المصادر المتاحة لي.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: من ذلك تراجم أرقام: (١٧ - ١٨، ٢٠ - ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٣١ - ٣٤، ٣٨، وغيرها كثير.

(٣) المصدر السابق: تراجم أرقام: (٣، ٦، ٦٦، ٨٥، ١٠٣، وغيرها).

(٤) السابق: تراجم أرقام: (١٢، ٢٩، ٣٦ - ٣٧، ٤٠، وغيرها).

(٥) السابق: تراجم أرقام: (٧، ٥٠ - ٥١، ٥٩ - ٦٠، ٦٣، ٧٤ - ٧٥، وغيرها).

(٦) السابق: تراجم أرقام (١٩، ٩٢، ٩٨، ١١٠، ١٩٦، وغيرها).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام (٢٤، ٥٥، ١٤٢، ١٦١، ١٦٦، ١٨٠، ٢٠٨، وغيرها).

(٨) السابق: أرقام (٢٦، ٣٥، ٧٨، ٩٩، ١٢٥، وغيرها).

(٩) السابق: أرقام (٦٧، ٩٠، ١١٩، ١٤١، ١٧٦، ٢٤٩، وغيرها).

(١٠) السابق: أرقام (٢٣، ٤٦، ٥٧، ٧٦، ١٢٢، ٢٣٦، وغيرها).

(١١) السابق: أرقام (٥٤، ٦٩، ١٠١، ١٤٩، ١٦٧، ٢٩٣، وغيرها).

(١٢) السابق: أرقام (٦١، ٨٩، ١٤٧، ١٨٩، ٢٠٦، ٢١٨، وغيرها).

(١٣) السابق: أرقام (٩٥، ١٢٠، ١٣٤، ٢١١، ٢٣٢، ٢٣٧، وغيرها).

- ٨ - الجزيرة^(١)، وبجانة^(٢): نُسب إلى كل منهما (١٢ عالماً).
- ٩ - قبرة^(٣): نُسب إليها (٧ علماء).
- ١٠ - شذونة^(٤)، وبطليوس^(٥): نسب إلى كل منهما (٦ علماء).
- ١١ - فريش^(٦): نُسب إليها (أربعة علماء).
- ١٢ - ماردة^(٧)، وقرمونة^(٨): نسب إلى كل منهما (ثلاثة علماء).
- ١٣ - طرطوشة^(٩)، وباجة^(١٠): نسب إلى كل منهما (علمان اثنان).
- ١٤ - لورقة^(١١)، وأشونة^(١٢)، ومالقة^(١٣)، ولاردة^(١٤)، ولشبونة^(١٥)، والتغر^(١٦): نُسب إلى كل منها (عالم واحد).

ويلاحظ على التوزيع السكاني للمترجمين، الذي ذكرناه آنفاً ما يلي:

١ - مدى الجهد الكبير الذي بذله الخشني في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب لهذا الكم الهائل من الفقهاء والمحدثين، والذي نعتقد أنه عاصر عدداً لا بأس به منهم، وأنه كان يتنقل بين كور الأندلس المختلفة؛ للسؤال والتحري عند جمع معلوماته عنهم. ولذا، فالمرجح أن هذا

- (١) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام: (٢٨٩، ٢٢١، ١٨٦، ٥٦ - ٣٣٩، ٢٩٠، وغيرها).
- (٢) السابق: أرقام (٩ - ١٠، ٢٨، ٣٠، ١٨٢، ٢١٢، ٣٤٧، وغيرها).
- (٣) السابق: أرقام (٨، ٦٢، ١١٢، ١١٧، ٢٤٥، ٣٨١، ٤٦٦).
- (٤) السابق: أرقام (٤٥، ٩٤، ١٣٥، ١٦٤، ٣٩٧، ٤٢٦).
- (٥) السابق: أرقام (٦٨، ٨٦، ٢٤٧، ٣٨٦، ٤٥١، ٤٦٥).
- (٦) السابق: أرقام (٢٦٧، ٤٥٢ - ٤٥٣، ٤٧٢). ذكرها باقوت بكسر أولها وثانيها (وشدّد المحقق الرء). وهي مدينة بالأندلس غربي فحص البلوط، بها الرعام الأبيض الجيد، والبنديق الكثير، والشجر، ومعادن الحديد (معجم البلدان ٤/٢٩٥).
- (٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: أرقام (٢٤٢، ٣٢٩، ٣٣٥).
- (٨) السابق: أرقام (٧٩، ١٦٣، ٢٤٦).
- (٩) السابق: رقم (١٤، ٣٢٣).
- (١٠) سكنها وتردد بينها وبين فحص البلوط المترجم له في (السابق)، برقم ١١٤ (ص ١٠١)، وسكن باجة فقط المترجم له في (السابق)، برقم ٢٥١.
- (١١) السابق: رقم (٧٧).
- (١٢) السابق: رقم (٨٣). وهي حصن بالأندلس، من نواحي (إستجة). (معجم البلدان ١/٢٣٩).
- (١٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٣٣٢).
- (١٤) السابق: رقم (١٦٩).
- (١٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم ٣١٨ (وكان يترد بقرطبة). و(لشبونة) مضبوطة بالحروف، ويقال، أشبونة، مدينة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال شترين، وهي قديمة قريبة من البحر (غربي قرطبة)، ولعلها فضل على كل عسل (معجم البلدان) ١٩/٥.
- (١٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: (رقم ٢٥٩). ولم يحدد أي ثغر من ثغورها.

الكتاب استغرق إعدادده وقتاً طويلاً، ووضعت لمساته الأخيرة بعد المستنصر، وهو من أواخر ما دَبَّجَتْهُ قريحته مؤرخنا الحشني.

٢ - أن قرطبة (حاضرة الأندلس) نالت قسطاً وافراً، ونصيباً أكبر من اهتمام الحشني، فهي العاصمة، وهي ملتقى طلاب العلم من كل مكان، وبها فطاحل العلماء، الذين حرصت الخلافة على الانتفاع بعلمهم.

٣ - غالبية من ترجم لهم الحشني أندلسيون مولداً، ونشأة، وثقافة. ويوضع في الاعتبار أن هناك قوماً أتوا من أقاليم أخرى، لكنه ترجم لهم، وعَدَّهم أندلسيين بحكم الإقامة والاستقرار بالأندلس^(١).

المحتوى:

ترجم الحشني في هذا الكتاب لعدد من الفقهاء والمحدثين، بلغت أعداد تراجمهم (٥٢٧ ترجمة)، وهم موزعون على (٢٨ مدينة أندلسية). وبالنظرة الشاملة إلى النطاق الزمني للمتراجمين، ألفينا الرجل يركز اهتمامه على فقهاء ومحدثي القرنين الثالث^(٢)، والرابع المجرين^(٣)، بينما لا يلتفت كثيراً إلى فقهاء ومحدثي القرن الثاني المجرى. ولعل رغبته في التمييز بين المحدثين والفقهاء هي التي أُلْجَأَتْه إلى ذلك، حيث تطور العلوم وازدهارها بالأندلس، ثم إن استقلالها عن المشرق شيئاً فشيئاً، يرتبط بهذين القرنين (خاصة الرابع منهما). وعلى كل، فأقدم علماء هذا الكتاب وفاة تعود سنة وفاته إلى عام (١٨٠هـ)^(٤)، وبعده آخر توفي سنة (١٩٣هـ) أو (١٩٤هـ)^(٥).

(١) مثل: (أسيد بن عبد الرحمن السبائي، شامي، نزل إحدى قرى البيرة. (المصدر السابق)، ترجمة رقم (٥٣)، ص (٤٧).
(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: مثل تراجم: (أحمد بن إبراهيم الفرضي)، رقم (٢) ص ١١ (ت ٢٩٠هـ)، و(أحمد بن سليم القروي)، رقم ٩ ص ١٣ (ت ٢٩٠هـ)، و(أحمد بن يونس بن عاس)، رقم ١٩ ص ٢٢ (ت ٢٩٨هـ)، و(أسامة بن صخر)، رقم ٥٠ ص ٤٢ (ت ٢٧٦هـ)، و(حفص بن عمر)، رقم ٧٨ ص ٧٦ (ت ٢٨٨هـ)، و(خطاب بن إسماعيل الغافقي)، رقم ٩٨ ص ٨٦ (ت ٢٩٧هـ)، و(زياد بن محمد بن زياد)، رقم ١٠٥ ص ٩٨ (ت ٢٧٣هـ)، و(زكريا بن يحيى النفقي)، رقم ١٠٦ ص ٩٨ (ت ٢٧٦هـ)، و(زكريا بن إسماعيل بن عبد الرحيم)، رقم ١٠٨ ص ٩٩ (ت ٢٨٨هـ)، و(زكريا بن عيسى بن عبد الواحد)، رقم ١٠٩ ص ٩٩ (ت ٢٩٤هـ)، و(طوق بن عمرو بن شعيب)، رقم ١١٩ ص ١٠٤ (ت ٢٨٥هـ)، ومحمد بن يوسف ابن مطروح) رقم ١٣١ ص ١١٩ (ت ٢٧١هـ).

(٣) السابق: مثل: (أحمد بن زياد بن محمد بن زياد) رقم ٢٥ ص ٢٤ (ت ٣٢٦هـ)، و(أحمد بن دحيم بن خليل) رقم ٣١ ص ٢٧ (ت ٣٣٨هـ)، و(أحمد بن محمد بن عمر بن لبابة) رقم ٣٤ ص ٣١ (ت ٣٢٦هـ)، و(أحمد بن سعيد بن مسعدة)، رقم ٣٥ ص (٣١)، و(أحمد بن موسى بن الطفيل)، رقم (٣٧)، ص ٣١ (ت ٣٢٩هـ)، و(حسن بن سلمون) رقم ٧١ ص (٧٣)، المتوفى سنة ٣٣٥هـ، و(حسان بن عبد الله بن حسان)، رقم ٧٦ ص (٧٥)، المتوفى ٣٣٤هـ، و(حلف بن هاشم الأشعري)، رقم (٩٥)، ص ٨٤ (ت ٣٣٤هـ)، ومحمد بن عيسى بن رفاعه، رقم (٢٠٨)، ص ١٧٨ (ت ٣٣٧هـ).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ٧٣ ص ٧٤ (حسين بن عاصم - عاش ٧٠ سنة).

(٥) السابق: (زياد بن عبد الرحمن اللخمي)، رقم (١٠٤)، ص ٩٨.

وبالنسبة للمترجمين المتسبين إلى القرن الثالث الهجري، فإن أقدمهم توفي سنة ٢٢٤هـ^(١)، وأواخرهم وفاة توفوا سنة ٢٩٩هـ^(٢)، ٣٠٠هـ^(٣)، ٣٠٢هـ^(٤)، وغير ذلك من السنوات الأولى من القرن الرابع الهجري^(٥). وأخيراً، فإن أحدث مترجمي القرن الرابع الهجري وفاة هو (عيسى بن خلف الإشبيلي) المتوفى سنة ٣٤٣هـ^(٦).

ثانياً - الموارد:

تنقسم موارد كتاب مؤرخنا الخشني إلى الأقسام الآتية:

١ - موارد صريحة:

ويبلغ عددها (٥٠) مورداً، هي كما يلي:

أ - خالد بن سعد^(٧): روى عنه الخشني في كتابه هذا (٢٤٥ رواية)^(٨).

ب - أحمد بن خالد^(٩): بلغت مروياته التي نقلها عنه الخشني (٤٠ رواية)^(١٠).

(١) السابق: (محمد بن خالد بن مرتيل)، رقم (١٢٦)، ص ١١٢.

(٢) السابق (أصحب بن مالك)، رقم ٤٤، ص ٣٩.

(٣) السابق (الحضر بن شامخ)، رقم (٩٧)، ص ٨٥.

(٤) السابق (زكرياء بن هلال النجبي)، رقم ١١٣، (ص ١٠٠)، وترجمة (أبوب بن سليمان المعافري)، رقم (٣٨)، ص (٣٣).

(٥) السابق: مثل ترجمة: (أحمد بن عبد الله بن فرج النعمري)، رقم (٢٠)، ص ٢٢ (ت ٣٠٣هـ)، وترجمة (حزم الأحمر)، رقم ٨٦، ص ٧٩ (ت ٣٠٥هـ)، وترجمة (أحمد بن محمد، المعروف بابن البعري)، رقم ١٨، ص ٢١ (ت ٣١٢هـ، عن ٧٥ سنة).

(٦) السابق: (عيسى بن خلف)، رقم (٣٥٨)، ص (٢٧٤).

(٧) من أهل قرطبة. يكنى أبا القاسم. كان إماماً في الحديث، حافظاً له، بصيراً بعلمه، عالماً بطريقه، مُقَدِّماً على أهل وقته في ذلك. روى عن سعيد بن عثمان الأعناق، وظاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وغيرهم. له كتاب في (رجال الأندلس) ألفه للمستنصر. توفي سنة ٣٥٢هـ (تاريخ ابن القرضي، ط. الخانجي) ١٥٤/١ - ١٥٦. ولعل الكتاب المشار إليه هو الذي نقل عنه الخشني كثيراً من تراجمه.

(٨) من هذه الروايات الكثيرة ما يلي: ما ورد في تراجم أرقام: (١ - ٢، ٦، ٨، ٢١، ٢٦، ٤٣ - ٤٥، ٧٥ - ٧٦، ٧٨ - ٧٩، ٩٨ - ٩٩، ١٠٤ - ١٠٥، ١٢١، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢ - ١٦٤، ١٦٨، ٢٠٧، ٢١٤، ٢٢١ - ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٧٢، ٢٧٤، ٣١٨، ٣٢٠ - ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٧ - ٣٢٨، ٤٠٠ - ٤٠١، ٤٠٨، ٤١١ - ٤١٢، ٤٣٨، ٤٤١، ٤٥٣ - ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٣، ٤٨٧، ٤٩٢ - ٤٩٣، ٤٩٦ - ٤٩٩، ٥٠١ - ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٩ - ٥١٢، ٥١٨، ٥٢٥).

(٩) هو أحمد بن خالد بن يزيد، يعرف بـ (ابن الحباب). من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. سمع محمد بن وضاح، وقاسم بن محمد، والخشني، وغيرهم. رحل، وسمع الحديث، ثم عاد إلى الأندلس، فكان إمام وقته غير مدافع في الفقه، وأخذ الحديث، والعبادة. ولد سنة ٢٤٦هـ، وتوفي سنة ٣٢٢هـ. (أخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٧ - ١٨، وتاريخ ابن القرضي، ط. الخانجي) ٤٢/١.

(١٠) من هذه الروايات ما ورد في تراجم أرقام: (٢، ١٥، ٤١، ٢٥٨، ٣١٠، ٣٥٢، ٤١١، ٤٣٨، ٤٩٢ - ٤٩٣).

- ج - أحمد بن سعيد بن حزم^(١): وعنه نقل الخشني (٣٦ رواية)^(٢).
- د - محمد بن عبد الملك بن أيمن^(٣): أورد عنه الخشني (٢٢ رواية)^(٤).
- هـ - محمد بن عمر بن لبابة^(٥): روى عنه الخشني (١٩ رواية)^(٦).
- و - قاسم بن سقذان^(٧): أورد له مؤرخنا الخشني (١٧ رواية)^(٨).
- ز - عثمان بن محمد^(٩): ذكر عنه الخشني في كتابه (١٦ رواية)^(١٠).

- (١) هو أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصديق. من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. عُني بالآثار والسنن، وجمع الحديث. سمع عبيد الله بن يحيى، وسعيد بن عثمان الأعناقى، وأسلم بن عبد العزيز، وغيرهم. رحل سنة ٣١١هـ مع أحمد بن عبادة الرعيني، وعحمد بن عبد الله بن أبي عيسى، فسبح بمكة، ومصر، والقنبروان. وعاد إلى الأندلس، فكتب (تاريخاً في المحدثين)، بلغ فيه الغاية. وتوفى سنة ٣٥٠هـ. (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٥٥/١ - ٥٦. ولعل تأليفه المشار إليه هو الذى احتفظ لنا بالعديد من تراجم الخشني في كتابه، من خلال مقتبساته منه.
- (٢) منها ما ورد في تراجم أرقام: (١١، ١٣٧، ١٥٤، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٩٦، ٣١٥ - ٣١٦، ٣٢٤، ٤٣٨، ٤٩٢، ٥٠٠).
- (٣) يكنى أبا عبد الله. من أهل قرطبة. سمع محمد بن وضاح، ومحمد بن عبد السلام الخشني، وإبراهيم بن قاسم بن هلال، وغيرهم. رحل سنة ٢٧٤هـ مع قاسم بن أصبغ، وغيره. سمع بمصر، وبغداد، ومكة. فقيه عالم، حافظ للمسائل والأفضية. وكان مشاوراً في الأحكام، وولى الصلاة بعد (أحمد بن يحيى بن غنم). ضابط لكعبة ثقة. له مصنف في السنن على تصنيف (أبي داود). (ولد ٢٥٢هـ، وتوفى ٣٣٠هـ). (أخبار الفقهاء والمحدثين ص ١٥٧ - ١٥٩، وتاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي)، ٥٢/٢ - ٥٣).
- (٤) راجع بعضها في أخبار الفقهاء والمحدثين صفحات: (١٢، ٥٦، ٧٤، ١١٧ - ١١٨، ١٨٦، ٢٦٢، ٣٤٩).
- (٥) فقيه من أهل قرطبة. يكنى أبا عبد الله. روى عن عبد الله بن خالد، وعبد الأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى بن دينار، ومحمد بن وضاح، وغيرهم. مقدم على أهل زمانه في حفظ الرأى، والبصر بالفتيا. وكان مشاوراً في أيام الأمير عبد الله، ثم انفرد بالفتيا من أول أيام الناصر، ولم يكن له علم بالحديث. وكان يحفظ أخبار الأندلس. وتوفى سنة ٣١٤هـ. (المصدر السابق: ص ١٤٤ - ١٤٥، وتاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ٣٦/٢ - ٣٧).
- (٦) منها: عدة روايات في ترجمة رقم (١) ص ٩ - ١٠، وتراجم أرقام: (٤٨، ٩٣، ١٣٣، ١٥٤، ٢٤١، ٢٩١، ٤٧٦).
- (٧) هو قاسم بن سعدان بن عبد الوارث. من أهل (رَبَّة)، وسكن قرطبة. سمع عبيد الله بن يحيى، وطاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأحمد بن خالد، وابن أيمن، وغيرهم. ضابط لكعبة، متفنن لروايته، حسن الخط، جيد الضبط. كان عالماً بالحديث، بصيراً بالنحو، والغريب والشعر. توفى سنة ٣٤٧هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٨/١ - ٤٠٩). واعتقد أن له مؤلفات في تراجم العلماء ببلده (رَبَّة)، وهو الذى اعتمد عليه الخشني في النقل عنه في كتابه.
- (٨) راجع مروياته في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، تراجم أرقام (١٢٩، ١٤٢، ١٦١، ١٦٦ (٤ روايات)، ١٨٠، ٢٥٠، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٦٨، ٤١٣، ٤٢٤، ٤٥٧، ٤٦٠، ٥٢١).
- (٩) هو عثمان بن محمد بن أحمد بن مدرك القُرَني (من أهل قُرّة). وكان متنبئاً بالمسائل، حافظاً لها، عاقداً للشروط، وكان مفتي أهل بلده. توفى سنة ٣٢٠هـ. (السابق: ترجمة ٣٨١، ص ٢٨٤، تاريخ ابن الفرضي (ط. الخانجي) ٣٤٧/١ (رقم ٨٩٣)).
- (١٠) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم (٥٨، ٦٥، ١٢٦، ١٣٧ - ١٣٨، ١٤٩، ١٥١، ١٧٠، ١٨٤، ٢٣١، ٢٧٩، ٣٧٨، ٤٣١، ٥١٧).

- ح - أحمد بن عبادة الرعي^(١): روى عنه مؤرخنا الخشني (١٤ رواية)^(٢).
- ط - ولي عهد المسلمين (الحكم بن عبد الرحمن الناصر): تتلمذ عليه الخشني، وأورد عنه في كتابه (٩ روايات)^(٣).
- ي - محمد بن عمر بن عبد العزيز^(٤)، ويعلى بن سعيد^(٥): أورد عنهما الخشني (٨ روايات).
- ك - قاسم بن أصبغ^(٦): روى عنه الخشني في كتابه (٦ روايات)^(٧).
- ل - أحمد بن مطرّف المشاط^(٨)، وأحمد بن زياد^(٩)، والزيادي^(١٠): روى الخشني عن كل (٤ روايات).
- م - والد الخشني^(١١)، والحسن بن سعد^(١٢)، وأحمد بن نصر^(١٣): روى الخشني عن كل منهم (ثلاث روايات).

- (١) هو أحمد بن عبادة، عَلَمَةُ الرُّعَيْنِ. من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. سمع من الخشني، وابن وضاح. ورحل، فسمع من ابن المدر كتابه في (الاختلاف). توفى في رجب سنة ٣٣٢هـ. (السابق: ص ٢٥٥، وتاريخ ابن الفرضي ط. الخانجي ٤٥/١).
- (٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٧، ٢٥، ٣٢، ١٣٤، ١٤٢، ٢١٧، ٣٢١ - ٣٢٢، ٣٧١ - ٣٧٢.
- (٣) السابق: ص ٢٠، ٥٥ - ٥٦، ٨٨، ٢١٥، ٣٦٣.
- (٤) من أهل قرطبة، وأصله من (إشبيلية). يكنى أبا بكر. سمع بقرطبة من طاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وقاسم بن أصبغ، وغيرهم. عالم بالبحر، حافظ للغة، ولأخبار الأندلس. وله مؤلفات في الصرف. توفى سنة ٣٦٧هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٧٨/٢ - ٧٩).
- (٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام (٥٥، ٢٤٤، ٢٧٧، ٣٣٢ - ٣٣٣، ٣٤٧، ٣٤٩).
- (٦) قاسم بن أصبغ بن يوسف البتيان. من أهل قرطبة. سمع ما من بقي بن مخلد، وأبي عبد الله الخشني، ومحمد بن وضاح، وأصبغ بن خليل، وغيرهم. رحل إلى المشرق، فسمع بمكة، والكوفة، وبغداد، ومصر. كان بصيرا بالحدث، والرجال، وكان يشارف في الأحكام. ولد سنة ٢٤٦هـ، وتوفى سنة ٣٤٠هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٦/١ - ٤٠٨ (رقم ١٠٧٠)).
- (٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٣١ (ثلاث روايات)، ١٣٢، ٢١٧ - ٢١٨، ٣٣٦.
- (٨) السابق: ص ١١، ٣٨، ٢٣٠، ٢٣٢.
- (٩) هو أحمد بن زياد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي. من أهل قرطبة. يكنى أبا القاسم. سمع من ابن وضاح، وكان مختصا به. حدث كثيرا. زاهد فاضل. توفى سنة ٣٢٦هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٤٣/١ - ٤٤ (رقم ١٠١)). وردت مروياته في (أخبار الفقهاء والمحدثين) ص ٩٥ - ٩٦، ٣٦٢.
- (١٠) لم أقف على اسمه ونسبه. (مرويات الخشني عنه في المصدر السابق) رقم ٩٩، ١٥٨، ١٨٣.
- (١١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٣٧٨ (٤ ثلاث روايات عنه).
- (١٢) السابق: ص ٥٨ - ٥٩، ٧٢، ٢٦١.
- (١٣) هو أحمد بن نصر بن زياد. من فقهاء القيروان. سمع محمد بن سحنون، وابن عبدوس، وكان عالما بالنظرية، صحيح المذهب، سليم القلب. توفى سنة ٣١٧هـ. (البيان المغرب ١٩٤/١ - ١٩٥). وردت مروياته في كتاب الخشني (أخبار الفقهاء والمحدثين)، تراجم (٣٢، ١٦٥، ٤٩٩).

ن - محمد بن عيسى بن عاصم^(١١)، ومحمد بن قاسم^(١٢)، وشامخ بن الخضر^(١٣)، وعبد الوهاب بن حزم^(١٤)، وأبو عبيدة مسلم بن أحمد^(١٥)، وأصبغ بن مثنى^(١٦)، ووهب بن مسرة^(١٧)، وأحمد بن عبد الرحمن القصري^(١٨)، وفرج بن سلمة^(١٩). (لكل روايتان).

س - فضل بن سلمة^(٢٠)، وسلمة بن الفضل بن سلمة الجهني^(٢١)، وسعيد بن عثمان^(٢٢)، وسعيد بن يحيى^(٢٣)، ومحمد بن إبراهيم بن الحباب^(٢٤)، ومطرف بن عيسى^(٢٥)، ومحمد ابن عبد العزيز^(٢٦)، وعمر بن حفص^(٢٧)، وأحمد بن محمد بن عمر بن لبابة^(٢٨)، ومحمد بن إبراهيم بن حيون^(٢٩)، ومحمد بن حفص^(٣٠)، ووليد بن إبراهيم بن ليب^(٣١)، وسعيد بن عثمان الأعنقي^(٣٢)، وسعيد بن فحلون^(٣٣)، وهرقل بن عبد الرحمن^(٣٤)، وزرقون بن حزم^(٣٥)، وموسى بن هارون^(٣٦)، وعبد الله بن محمد بن قاسم^(٣٧)، ومحمد بن ربيع الصباغ^(٣٨)، ومحمد ابن عيسى بن رفاعة^(٣٩)، وإسحاق بن إبراهيم الطليطلي^(٤٠)، وعلى بن أبي شبة^(٤١)، وعبد الله بن إسماعيل البرقي^(٤٢). (لكل رواية واحدة).

٢ - كتب طالعها الخشنى، ونقل عنها في كتابه:

١ - كتاب (طبقات فقهاء الأندلس) لعبد الملك بن حبيب: وقد أشار المؤرخ الخشنى إلى نقله عنه في (ثمانية مواضع)^(٤٣).

- | | |
|--|---|
| (١٧) السابق: ٢٧٦ - ٢٧٧. | (١) المصدر السابق (ترجمة ٧٣٠، ص ٧٣). |
| (١٨) السابق: (ترجمة ٤٣١). | (٢) السابق: ص ٦١، ١٨٧. |
| (١٩) السابق: ص ٣٢٣. | (٣) السابق: ص ٨٥ (ترجمة رقم ٩٧). |
| (٢٠) السابق: ص ٣٥٩. | (٤) السابق: ص ٣٤٠ - ٣٤١. |
| (٢١) السابق: ص ٣٦٧. | (٥) السابق: ١٩٤ - ١٩٥. |
| (٢٢) السابق: (ترجمة رقم ٣٢٠). | (٦) السابق: ١٩٦ - ١٩٧. |
| (٢٣) السابق: رقم ٢٦٩. | (٧) السابق: ص ٢٠٤، ٣٤٣. |
| (٢٤) السابق: رقم (٣٢٨). | (٨) السابق: ص ٩٧، ٣٦٦. |
| (٢٥) السابق: رقم (٢٧٦). | (٩) السابق: ترجمة ١١٤، ٣٣٦. |
| (٢٦) السابق: الترجمة نفسها. | (١٠) السابق رقم ٣٩٥ (ص ٢٩٣). |
| (٢٧) السابق: رقم (٢٧٨). | (١١) السابق: ص ٢٩٧. |
| (٢٨) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٣٠٥). | (١٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة رقم (٧٨). |
| (٢٩) السابق: ص ١٨٦ - ١٨٧. | (١٣) السابق: ص ٧٨. |
| (٣٠) السابق: ترجمة رقم ٨٥. | (١٤) السابق: ص ٦١. |
| (٣١) السابق: ص ١٤١. | (١٥) السابق: ترجمة رقم (٣٣٤). |
| (٣٢) السابق: ترجمة رقم ١٨٢، ص ١٦٢. | (١٦) السابق: ٢٧٦. |
| (٣٣) السابق: (ترجمة ٧٣، ص ٧٤)، وترجمة (٨٧)، ص ٨٠، وترجمة (١٢٨)، (ص ١١٣)، وترجمة ٣١٣ (ص ٢٣٣) - (٢٣٤)، وترجمة ٣٧٠ (ص ٢٧٩)، وترجمة ٣٩٣ (ص ٢٩١)، وترجمة ٤٢٣ (ص ٣١١)، وترجمة ٤٩٢ (ص ٣٤٧). | |

٢ - كتاب (محمد بن عبد الملك بن أيمن)^(١).

٣ - كتاب (عنكدة بن نوح الرعيي)^(٢).

٤ - كتاب (أخبار علماء حفص)^(٣).

٣ - الوثائق:

ومتابعة ما ورد في (أخبار الفقهاء والمحدثين) تبين لنا أن الحشني لم يطالع بنفسه في (الديوان) - فيما نعلم - إلا وثيقتين اثنتين: الأولى - شهادة المترجم له (سعيد بن عبد الله السبائي) على بعض ما عقده الأمير (عبد الرحمن بن معاوية)^(٤). والثانية - كتاب الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ). تمتع الأمان للفقهاء (عيسى بن دينار)، وذلك بعد أحداث ثورة الرِّبض الشهيرة (سنة ٢٠٢هـ)^(٥).

والملاحظ أن هناك عدة وثائق آخر واردة في كتاب (الحشني)، لكنه لم يطالعها بنفسه مباشرة، وإنما طالعها الرواة، الذين نقل عنهم مباشرة، كما هو الحال في كتاب كتبه (عبد الرحمن بن معاوية) لجَدَّ المترجم له، الذي نقل عنه الحشني ذلك^(٦). وكذلك ما طالع بعض الرواة، وحدث به الحشني، من أنه شاهد في الديوان نص أمان الحكم بن هشام للفقهاء (يحيى بن يحيى)، حيث أحياه إلى ما طلب من أمان نفسه، وردَّ ما له إليه، وقبل شفاعته في اثنين آخرين معه (وذلك بعد ثورة الربض)^(٧).

وأخيراً، فإن الكتاب قد حوى نوعية أخرى من الوثائق، لم ينقلها الحشني عن الرواة الذين رأوها، وإنما وردت إليه من خلال رواة آخرين وسطاء، مثل: نص كتاب موجز وضعه الفقهاء (عبد الرحمن بن موسى الهواري الإستحجي)، وأرسل به إلى بعض الولاة، يوصيه فيه خيراً بأحد الناس، ويدعوه إلى قضاء حاجته التي كتمها من دونه، فإن كانت في مرضاة الله قضاءه

(١) السابق: ص٣٤٩ (قال محمد: قرأت تلك المواضع كلها في كتاب (محمد بن عبد الملك بن أيمن).

(٢) قال محمد بن حارث: رأيت في كتاب لعنكدة بن نوح الرعيي (السابق: ص٣٦٣).

(٣) رأيت في كتاب (أخبار علماء حفص). (السابق: ص١٨٧).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص٣١٦.

(٥) السابق: ص٢٧١.

(٦) السابق: ص٧٣ (وقال لي - أي قال محمد بن عيسى بن عاصم - : بأيدينا كتاب، كتبه الإمام عبد الرحمن بن معاوية (رحمه الله)، بأمر فيه بعض عماله ألا يعرض لمولاه - لا لمواليه، كما حرفت - عاصم العريان في سبب ذكره).

(٧) السابق: ص٣٦١.

إياها، وإلا فليؤثر رضا الله (تعالى) على رضا المخلوق. وفي النهاية، يذكّره بأنهم جميعاً موقوفون غداً بين يدي الله عز وجل^(١).

٤ - الموارد المجهولة:

وهذه استخدمها الخشنى في روايات كثيرة جداً يصعب حصرها، وجعل لها صيغاً متعددة، مثل: (ذكر بعض الرواة^(٢))، وذكر بعض أهل العلم^(٣)، وقال لى بعض أهل العلم^(٤)، وأخبرنى غيره^(٥)، وأخبرنى غير واحد من أصحاب أحمد بن خالد^(٦)، وذكر بعض الرواة من أهل الثغر^(٧)، وذكر غيره من أهل العلم^(٨)، ويحكى^(٩)، وذكر لى^(١٠)، وفيما أخبرنى مَنْ أتق به^(١١)، وأخبرنى من أتق به من أهل العلم^(١٢)، وذكر بعض أهل العلم والرواية^(١٣)، وسمعت من أتق به يقول^(١٤)، وفيما ذكر لى بعض أهله^(١٥)، وقيل^(١٦)، وأخبرنى غير^(١٧)، ومما حفظتُ وحفظ الناس مما تُسبب إلى ابن وصّاح^(١٨)، وسمعتُ على الاستفاضة من القول والفاشى من الذّكر^(١٩)، وسمعتُ من يحكى^(٢٠)، وقال لى غير واحد من إخوانى^(٢١)، وأخبرنى غيرهما من مشائخنا^(٢٢)، وسمعت بعض من كتب عنه^(٢٣).

ملاحظات على موارد (الخشنى) في كتابه:

أولاً - بالنسبة للموارد الصريحة: يمكن بيان منهج الخشنى في إيرادها، واستخدامها على النحو الآتى:

١ - الدقة في انتقاء هذه الموارد:

لقد كان الخشنى حريصاً على التدقيق قبل النقل والاقتراس، وتلك سمة مهمة للغاية، ينبغى أن يتسم بها المؤرخ الحق. ومن هنا - وكما رأينا من قبل، ومن خلال تراجم أهم موارد -

- (١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٢٣٥.
- (٢) السابق: (ترجمة رقم ١)، ص ١٠، ترجمة ١٢٩ (ص ١١٥).
- (٣) السابق: ترجمة ٢٤ (ص ٢٣)، وترجمة ٧٤ (ص ٧٥).
- (٤) السابق: ترجمة ٢٥ (ص ٢٤).
- (٥) و(٦) السابق: الترجمة، والصفحة نفسها.
- (٧) السابق: ترجمة ٥١ (ص ٤٢).
- (٨) السابق: ص ٤٨.
- (٩) السابق: ص ٥٦.
- (١٠) السابق: ص ٦٩.
- (١١) السابق: ص ٧٤.
- (١٢) السابق: ص ٧٨.
- (١٣) السابق: ص ٩٥.
- (١٤) و(١٥) السابق: ص ١١٣.
- (١٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١١٣.
- (١٧) السابق: ص ١١٤.
- (١٨) السابق: ص ١٣٠.
- (١٩) السابق: ص ١٣٢.
- (٢٠) السابق: ص ١٣٣.
- (٢١) السابق: ص ٢١٨.
- (٢٢) السابق: ص ٢٧٩ - ٢٨٠.
- (٢٣) السابق: ص ٣٥٩.

وجدناه ينقل عن العلماء الثقات؛ حتى تتوفر لكتابه ولتراجمه المصادقية المطلوبة. هذا بصفة عامة. فإذا خصّصنا القول، فإننا نقول: إنه كان يحرص على النقل عن مورد بينه وبين المترجم له صلة، كأن يكون ابناً له^(١)، أو له معرفة حقيقية به^(٢). وفي الوقت نفسه كان المورد - كخالد بن سعد مثلاً، وعنه نقل كثيراً جداً من التراجم - يصدق هو الآخر قبل تسجيل معلوماته، وقبل الرحيل إلى مصادره^(٣)، وكان يستفسر عن مترجم له، ويسأل عنه ويتحرى^(٤)، ويدخل إلى مصدره بنفسه، فيسمع منه، ويروى عنه^(٥).

وما يحسب للخشني - في هذا الصدد - أنه كان - أحياناً - يذكر معلومة عن مورده الذي ينقل عنه كنوع من التعريف السريع به^(٦)؛ بئاً للطمأنينة في قلوب ونفوس قرائه، وقد يتعدى ذلك إلى ذكر معلومة تتصل بأحد أفراد الإسناد الخاص بالرواية المنقولة، توضح صلته بالمترجم له^(٧). وأخيراً، فإن الدقة تبلغ غايتها، عندما يكون المترجم له معاصراً للخشني، فيتقدم إليه الخشني بالسؤال عند الترجمة له، فيكون مورده هو المترجم له في آن واحد^(٨).

٢ - استخدم الخشني صيغاً متنوعة صدر بها موارده غالباً، مثل: (ذكر^(٩))، وقال^(١٠)، وحدثني^(١١)، وسمعت^(١٢) وحدثنا^(١٣)، وأخبرنا^(١٤)، وقال لي^(١٥)، وحكى لي^(١٦)، ولا

(١) السابق: ص ٢٩٧ (ترجمة رقم ٤٠٥).

(٢) السابق: ص ٣٦.

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٢ (ص ١٦)، وفيها يسأل خالد بن سعد (سعيد بن عثمان الأعناقى)، عن أحمد ابن عمرو بن منصور قبل الرحيل إليه، فوصف له عنايته بالعلم، وأنه كان معهم عند (نصر بن مرزوق)، للتلقى عليه في مصر.

(٤) كدخوله إلى بلد (محمد بن جنادة) الفقيه - (إشبيلية) بعد وفاته بـ ٩ سنوات (٣٠٤هـ)، فرأى أهل بلده، يحسنون الثناء عليه. (السابق: ص ١٤٢).

(٥) السابق: ص ١٩٤ (ترجمة ٢٤٤)، وفيها يروى عن المترجم له (أخبرني أبو عبيدة).

(٦) السابق: (ترجمة ٢٧٧)، ص ٢١٧، وترجمة ٤٧٨ (ص ٣٤٠).

(٧) السابق: ص ٣٦٩ (ترجمة ٤٩٤) - (يحيى بن معمر الألمان): ولقد أخبرني محمد بن عبد الملك بن أئمن، عن عمه (وكان قريب الخاصة بابن معمر).

(٨) السابق: ص ١٧٦ - ١٧٧ (ترجمة محمد بن عيسى بن رفاعه)، ورقم ٢٠٨ (وذكر محمد هذا عن نفسه). ولـ ١٧٨: توفى سنة ٣٣٧هـ (فهو معاصر للخشني).

(٩) المصدر السابق: ص ٩، ١٦، وغيرها.

(١٠) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٠، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٥٩، وغيرها.

(١١) السابق: ترجمة رقم (١)، ص ٩، وترجمة ٣٧٨ ص ٢٨٢.

(١٢) السابق: ص ١٩٢.

(١٣) السابق: ص ١٠ (ثلاث مرات).

(١٤) السابق: (ترجمة ٨٧)، ص ٨٠.

(١٥) السابق: ص ٧٣.

(١٦) السابق: ص ٣٧٨.

شك أنه - باعتباره ملماً بالثقافة الحديثة - كان حريصاً على الدقة في أداء هذه الألفاظ. وكذلك كان دقيقاً في بيان الطريقة التي وصلت بها إليه بعض الروايات، كقوله: (ووجدتُ اسمه - أى: المترجم له - مثبتاً في كتبهم. وقد كتبتُ عنهم من روايتهم عنه علماً كثيراً. فالذي أجدني أحفظه هو ما أذكره من ذلك). ثم قال: (حدثني)، وبدأ يذكر الموارد التي نقل عنها^(١). وبلغ حرصه - كذلك - درجة كبيرة عند أداء اللفظ الذي عبر به المورد عن كيفية نقله للرواية، كما في قوله: (قال لي عبد الله بن إسماعيل البرقي: شهدته - أو قال: أخبرني من شهدته)^(٢).

٣ - كان الخشني شديد الحرص على توثيق المعلومات التي يوردها في كتابه، وكان يسلك لتحقيق ذلك طرقاً عديدة منها:

أ - تعدد الموارد المستخدمة في الترجمة الواحدة، فهو يأخذ ويقتبس من كل مورد ما يناسبه ويحتاج إليه، فيما يتعلق بجزئيات الترجمة الواحدة^(٣).

ب - الحرص في مواضع عديدة على ذكر السند كاملاً (سواء كان المذكور بعده حديثاً نبوياً، أم غير ذلك)^(٤).

ج - الجمع والتنسيق بين المرويات المتشابهة، بحيث يذكر أكثر من مورد للرواية الواحدة؛ لتأكيد ما بها من معلومات^(٥).

د - ذكر المورد الواحد أكثر من مرة، مهما تعددت النقول عنه في الترجمة الواحدة (فقد تصل مرات ذكره إلى ست مرات مثلاً)^(٦). فالخشني يوثق منقولاته، وقد يكتفي بلفظة (قال) عند تكرار ذكر المورد، أو يذكر اسمه مختصراً، وقد يذكره كاملاً^(٧).

هـ - الحرص في ردوده أو تعليقاته، أو بيان تعدد وجهات النظر في الأمر الواحد باسم مورد ما في رواية ما؛ ليرد بذلك على ما جاء في رواية سابقة، اعتمد في إيرادها على مورد آخر^(٨). ويكمل هذه الجزئية ويطورها أن مؤرخنا كان يتحرى ويستفسر عن المسألة الواحدة

(١) السابق: ترجمة ١٩٣ (ص ١٦٦).

(٢) السابق: ترجمة ١٨٢ (ص ١٦٢).

(٣) السابق: ترجمة ١٥ (ص ١٧ - ١٩).

(٤) أبحار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٢ (ص ١٥).

(٥) السابق: ص ٣٧٠ (أخبرني أحمد بن خالد، وعثمان بن عبد الرحمن، قالوا).

(٦) السابق: ترجمة (٣٥٢).

(٧) عند تكرار المورد عنه - (قال)، كما في (المصدر السابق)، ترجمة (١٢٦)، وفيها: (قال عثمان بن محمد، ثم قال).

وقد يختصر المورد عند تكراره هكذا: (قال لي محمد بن عبد الملك بن أيمن، ثم قال لي ابن أيمن مرتين). (السابق: ترجمة ٢٣١).

وقد يكرره كاملاً كما في (محمد بن عمر بن ليابة). (السابق: ترجمة ٢٤١).

(٨) السابق: (ترجمة رقم ١١، ص ١٤).

لدى أكثر من مورد^(١)؛ كى تأتى تراجمه على درجة عالية من الصحة.

٤ - وأخيراً، فقد كان الخشنى يستعمل الطريقة التقليدية المتمثلة فى تصدر المورد نص الرواية، وقد يصدر الاثنين بقولته المشهور: (قال ابن حارث)^(٢)، أو (قال محمد بن حارث)^(٣)، أو (قال محمد)^(٤). ولمة طريقة ثانية كان يستخدمها، فيها يصدر بقولته المشهورة، ثم يذكر المعلومة، ثم يأتى بعدها برواية مصدرة بمورد، يدلل بذلك على صحة المعلومة المتقدمة^(٥) (وقد يستخدم المورد عند ضرب الأمثلة والنماذج)^(٦).

وهناك طريقتان أخريان فى مكان إبراد المورد، هما: الإتيان به وسط الرواية على هيئة جملة اعتراضية^(٧)، أو يتقدم نص الرواية (وفى ختامها يذكر موردها المنقولة عنه)^(٨).

ثانياً - بالنسبة للكتب التى طالعها، ونقل عنها:

كان يعبر عن ذلك بلفظة (ذكر)، أو (رأيت)^(٩). وكان يذكر اسم الكتاب ومؤلفه قبل المنقول منه^(١٠)، وقد يذكر اسم الكتاب بعد نهاية النقل عنه^(١١)، أو يذكر اسم الكتاب، والنص المنقولة عنه، ثم السند الذى وصل به إليه^(١٢).

ثالثاً - وبخصوص الموارد المجهولة:

فإننا لاحظنا كثرتها الكثرة، وتعدد وتنوع الصيغ المعبرة عنها، وجدة بعضها^(١٣). وبعضها

(١) السابق (ترجمة ١٣١)، (ص ١١٨)، وفيما يسأل (أحمد بن سعيد بن حزم)، ثم (محمد بن عبد الملك بن أبى) عما يتصل بكذب المترجم له (محمد بن يوسف بن مطروح).

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ص ٢٦١).

(٣) السابق: ص ٢٦٢، ٢٧٦، ٣٧١.

(٤) السابق: ص ٢٠، ٣٤٩، ٣٦٣، ٣٦٧.

(٥) السابق: ص ٣٧١ - ٣٧٢.

(٦) السابق: ص ١٣١.

(٧) السابق: ترجمة ٨٥ (ص ٧٩): وكان حزم بن غالب - فيما ذكر لى إسحاق بن إبراهيم الطليطلى - صاحب رأى وفياً.

(٨) السابق: ص ٢٣٠ (بعد انتهاء الرواية قال: هكذا روى أحمد بن مطرف بن المشاط).

(٩) السابق: رقم ١٢٨ (ص ١١٣)، قال: ذكر عبد الملك بن حبيب فى كتابه. وفى ص ٣٦٣: (رأيت فى كتاب لعلكدة بن نوح).

(١٠) السابق: رقم ٣٧٠ (ص ٢٧٩).

(١١) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة ٣١٣) ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(١٢) السابق: ص ١٨٧ (رأيت فى كتاب أخبار علماء حمص)، ثم ذكر الرواية، ثم قال: هكذا حكاه أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادي، روى ذلك بكر بن محمد بن حفص الشعراى التنيسى المصرى.

(١٣) هناك صيغ جديدة بمجهولة، جعلها الخشنى أساس قبول الرواية، مثل: مما حفظت وحفظ الناس (المصدر السابق) ص ١٣١، وسمعت على الاستفاضة من القول، والفاشى من الذكر (السابق: ص ١٣٢).

مدلول معين (مثل: "يقال" الدالة على عدم التأكد من الشيء، أو التشكيك في صحته)^(١). وسلك الخشنى في إيراد أماكن صيغها الطرق الثلاثة المعهودة (قبل، ووسط، ونهاية الرواية)^(٢).

رابعاً، وأخيراً - وماذا عن الروايات ساقطة المورد؟

الحق أن هذا النوع من الروايات موجود في كتاب الخشنى، ويحتاج إلى تفسير، نركزه من خلال ما يلي:

أ - هناك تراجم كاملة خلت من ذكر الموارد، اكتفى فيها مؤرخنا بصيغتي: (قال محمد)، وقال محمد بن حارث). ويلاحظ أنه معاصر لأصحاب تلك التراجم، فالغالب أنه نقلها عنهم، فليس بحاجة إلى النقل عن غيره^(٣).

ب - وقد يكون المترجم له معاصراً للخشنى، لكن - فيما يبدو - لا ينقل عنه كل ما يحتاج من معلومات، فتأتى بعض أجزاء الترجمة مصدرة به (قال محمد)، بينما يأتى ذكر بعض الموارد في أجزاء الترجمة الأخرى^(٤).

ج - يسقط الخشنى اسم المورد - أحياناً - ويكتفى به (قال محمد) عند تجميعه خلاصة ما ورد في موضوع معين، كما في إيجازه وتركيزه ما ورد بشأن (محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي)^(٥).

د - يكتفى الخشنى في بعض الأحيان بذكر (قال محمد) عند ذكر تاريخ وفاة أحد المعاصرين له^(٦)، أو عند ذكر نسب^(٧)، أو أصل المترجم له^(٨)، (فقد يكون ذلك النسب، أو الأصل مشهورين، بحيث لا يجد داعياً لذكر المورد أحياناً).

هـ - هناك مواضع لا نستطيع تفسيرها سقطت فيها الموارد؛ لأنه يترجم لأناس غير معاصرين له^(٩)، مما كان يستوجب عليه ذكر موارده، لكنه لم يفعل، إما خطأ، أو سهواً ونسياناً.

(١) تدل على الشك كما في (المصدر السابق): ترجمة (٢١٣)، وعلى عدم التأكد من الشيء (السابق): ترجمة (٢٤٢).

(٢) قبل الرواية: (السابق) ص ٣٥٩، ٥٢٣. وسط الرواية: وكان - فيما أخبرني من وقت به - أن. . . (ترجمة ٢٠٢). وقد يأتي الموارد المجهول آخر الرواية (حكى ذلك من وقت به). (ترجمة ٢٣٣).

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة (١٦) ص ١٩ - ٢٠.

(٤) السابق: ترجمة (١٧) ص ٢٠ - ٢١.

(٥) كما في اختصاره بمجل ما ورد بشأن (محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي) من آراء (السابق): ترجمة ٢٠٩ ص ١٧٨، مصدرة به "قال محمد".

(٦) السابق: ترجمة ٢٥، ص ٢٤.

(٧) السابق: ترجمة ٢١، ص ٢٢، وترجمة ٢٥، ص ٢٤.

(٨) السابق: (ترجمة ١٩ ص ٢١).

(٩) السابق: (ترجمة ٣ ص ١١)، وترجمة ٧ ص ١٢، وترجمة (٩) ص ١٣، وترجمة (١٤) ص ١٧. (وهي كلها مصدرة به (قال محمد)، و(قال محمد بن حارث).

ثالثاً - ملاحظات نقدية عامة:

هذه بعض الإلماعات الخاطفة، التي تلقى فيها نظرة سريعة على بعض الروايات الواردة في كتاب الخشني، مما يستلقت الانتباه، نوجزها فيما يلي:

١ - خطأ تاريخي:

ذكر الخشني أن (أحمد بن مسيرة) الفقيه (المتوفى سنة ٣٢٢هـ)، انصرف من رحلته في المشرق إلى الأندلس قبل سنة ٢٩٠هـ في عهد (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب) صاحب إفريقية، وأنه كان في الرفقة، التي كان فيها (عبيد الله المهدي الشيعي)، وأن أحمد بن مسيرة هو الذي نصح عبيد الله في طريق مصر أن يقتصر في مأخذه على نفسه، ويدع ما كان يُظهر من أمة الملك، وحذره لصوص البربر في أرض المغرب، فيُضَيِّع نفسه، ويضيّعهم. وتذكر الرواية أن عبيد الله استجاب لهذا النصح، وأنهم لم يسروا إلا يسراً، حتى خرج على الرفقة بعض البربر، فسلبوا ما معهم، ولم يبق من مال عبيد الله غير حملين من كنان، وصل بهما إلى أطرابلس^(١).

وبالنظر إلى الأحداث المذكورة نلاحظ ما يلي:

أ - التاريخ المذكور للانصراف إلى الأندلس صحيح بالنسبة لتاريخ وفاة أمير الأغالية المذكور، وإن كان الأدق منه أن يقال: (قبل ذي القعدة سنة ٢٨٩هـ)، على اعتبار أنه تاريخ وفاة ذلك الأمير^(٢).

ب - أما ما ورد بشأن مصاحبة المترجم له لـ (عبيد الله المهدي) في الطريق من مصر إلى المغرب، فغير صحيح؛ لأن الثابت هو أن المهدي مر بمصر في ولاية (عيسى التوشري) سنة ٢٩٦هـ، وأنه أفلت من ذلك الوالي بالحيلة والمال^(٣)، فكيف يتفق ذلك - إذاً - مع التاريخ المحدد لعودة المترجم له إلى الأندلس ١٤. ولا يقول قائل: لعل المقصود (أبو عبد الله الشيعي)؛ لأن هذا وصل إلى أرض كُثَامَة منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ^(٤)، أي: قبل التاريخ المذكور بعشر سنوات كاملة. ثم إنني أشك أن يكون ما ذكره الخشني - وهو لم يذكر مصدر هذا الكلام، والغالب أنه لم يعاصره - صحيحاً بشأن مسير المهدي في أمة الملك؛ لأنه قدم مستراً جاداً في الحرب، بعدما تعرض في مصر لما تعرض له، لكن هذا لا يمنع من أن يكون قد قدم ببعض

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين، للخشني: ص ١٧.

(٢) البيان المغرب ١/ ١٣٢.

(٣) الكامل، لابن الأثير ج ٦ ص ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٤) المصدر السابق: ٤٥١/٦.

الأموال والأثقال، التي كان يخفيها، وأنه تعرض لسرقة بعض متاعه، وكتب وملاحم آثاته، كما ذكر ابن الأثير^(١).

٢ - تناقض:

وذلك نلاحظه في ترجمة (أحمد بن إبراهيم)، الذي وصفه الخشني بـ (الفرضي)، أي: العالم بالفرائض وأحكامها (المواريث)، ثم إذا بنا نجد في مضمون الترجمة أنه ما كان إلا حافظاً لأحد المؤلفات في هذا الشأن، وأنه لم يكن بالوزن العنمي المتمشي مع هذا الوصف، إضافة إلى قول خالد بن سعد عنه: ولم يكن بارعاً في علم (الفرائض)^(٢). وكذلك ما رواه أبو عثمان (سعيد بن عثمان الأعناقى القرطبي) من أن ما رواه أصبغ بن خليل من حديث عن (القرآن) مفتعل، وأن ولي عهد المسلمين بن أمير المؤمنين (يقصد الحكم بن عبد الرحمن الناصر) ذكر لهم هذا الحديث، وبين وجه الخطأ في إسناده، مكتوباً بخط يده، مما أفاده عن الثقات من العلماء. ووجه الاعتراض هو: كيف يحضر أبو عثمان (المتوفى سنة ٣٠٥هـ)^(٣) مجلس الحكم (المولود سنة ٣٠٢هـ) ١٩؟

٣ - خطأ في التوقيت:

جعل استشهدا المحدث (محمد بن عبيد الجزيري القرطبي) في إحدى غزوات القائد ابن أبي عبدة سنة ٣٥٠هـ^(٤). والصواب: أنها كانت سنة ٣٠٥هـ^(٥).

٤ - بعض روايات تحمل طابع التنبيؤ^(٦)، والخرافة^(٧)، والفييات^(٨): وكان يجب على مؤرخنا أن ينأى بنفسه عن مثل هذه الروايات الضعيفة، التي لا تمت للتاريخ الصحيح بصلة.

(١) السابق: ٤٥٤/٦.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٠ - ١١ (ترجمة رقم ٢).

(٣) راجع ترجمته في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، للبخاري نفسه ص ٣٢٢ - ٣٢٣ (رقم ٤٣٩)، حيث قال: (ولد سنة ٢٢٣هـ، وتوفى سنة ٣٠٥هـ)، وكذلك في تاريخ ابن الفرضي، ص ١٩٥/١ - ١٩٦.

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٦٦ - ١٦٧ (ترجمة رقم ١٩٣).

(٥) المتنبس، لاس حبان: ص ١٣٥ - ١٣٦. وبلاحظ أن محقق كتاب الخشني المذكور أشار إلى تاريخ الاستشهد الصحيح في (ص ١٦٧)، هامش رقم ٢٩. وحديث بالذكر أن القائد المذكور استشهد - أيضاً - في هذه الموقعة أمام نصارى الشمال.

(٦) راجع (أخبار الفقهاء والمحدثين) للبخاري ص ١١٦.

(٧) راجع الفصل السابق: ص ٢١٦ - ٢١٧ (ترجمة ٢٧٦).

(٨) راجع السابق: ص ٧٨، ٣٢٣ (حاشية الأخيرة التي لها رؤيا عن مصير المترجم له في الآخرة. وأنه مع السفرة الكرام البررة (الملائكة)، وهو ما لا يجوز الحوض فيه، خاصة أنه ذكر - من قبل - رواية عن أحد العلماء يدكر فيما ما يلي: (من حُسِّن إسلام المرء تركه ما لا ينفيه). (السابق: ص ٩٧).

رابعاً، وأخيراً - منهج الخشني في تأليف هذا الكتاب:

هذه هي القضية الأخيرة المثارة في دراستنا للمؤرخ الأندلسي (الخشني)، وفيها نرصد منهجه في تقسيم كتابه وتبويبه، والعناصر التي تتكون منها تراجمه (وما يتصل بذلك من ملامح منهجية)، ومدى الترابط والتناسق في العرض التاريخي داخل الترجمة الواحدة. وبعد ذلك، نبحث مدى اهتمام الخشني بذكر التواريخ في تراجمه، ومقدار ما يحويه الكتاب من حكم وفوائد تبرز غاية التاريخ وبغيته المهمة، ثم ننتقل لإبراز مدى نجاح الخشني في تصوير الحياة الثقافية بالأندلس إبان الفترة، التي يترجم فيها للعلماء من فقهاء ومحدثين. وأخيراً، مدى حضور شخصيته في كتابه، وتأثيره فيمن بعده.

١ - حول منهجه في تقسيم الكتاب، وتبويبه:

لم نجد مقدمة لكتاب الخشني، يشرح لنا فيها منهجه في كتابه، والظروف الداعية إلى تأليفه، وطريقته في تقسيمه وتبويبه. ويغلب على الظن أن رجلاً منهجياً كالخشني لا تفوته مقدمة من هذا النوع، لكن الغالب أنها سقطت من مخطوطة الكتاب.

وبالنظر إلى (أخبار الفقهاء والمحدثين) في طبعته التي بين أيدينا الآن، نجد أنه رتب تراجمه على (أبواب حروف المهجاء): (باب حرف الألف)^(١)، وبعده (باب حرف الباء)^(٢)، وهكذا حتى تنتهي من باب (حرف الدال)^(٣)، فنجد باب (حرف الذال)، وبعده (باب حرف الراء)، وكتب تحت عنوانهما: (فارغ لا اسم فيه)؛ مما يفيد أن الخشني كان ينوي العودة إليهما ملء هذا الفراغ، وسد ذلك النقص في التراجم، لكنه لم تُنح له تلك الفرصة؛ ربما للظروف الصعبة، التي قاساها بعد وفاة الحكم المستنصر؛ مما أثر بالسلب في تفرعه للبحث، والدرس، والتأليف. ثم يأتي باب (حرف الزاي)^(٤)، ثم نفاجاً بتخطي أبواب (حروف السين إلى الضاد)، وبعد ذلك نجد باب (حرف الطاء)^(٥). أما باب (حرف الظاء) فكتب تحته: (فارغ لا اسم فيه). ثم نفاجاً مرة ثانية بعدم وجود أبواب (حروف العين حتى القاف)، ونجد باب (حرف الكاف)^(٦)، فاللام، فاليم، فالنون^(٧)، ثم نجد سوا الصفحات أرقامها متتابعة متسلسلة - باب (حرف الصاد)^(٨) وباب

(١) ص ١٠ - ٤٨. (٢) ص ٤٩ - ٦٣.

(٣) ص ٨٧ - ٨٩. (٤) ص ٩٥ - ١٠١.

(٥) ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٦) ص ١٠٧.

(٧) نجد هذه الأبواب الثلاثة من (ص ١٠٩ - ٢٠٤).

(٨) ص ٢٠٧ - ٢٠٩.

(حرف الضاد)^(١١)، وبعده باب (حرف العين)^(١٢)، فالعين، فالفاء، فالقاف^(١٣). ثم بعده مباشرة يأتي حرف (السين)^(١٤)، و(الشين)^(١٥)، وبعدهما باب (حرف الهاء)^(١٦)، فـ(الواو)^(١٧)، فباب (حرف الياء)^(١٨).

ملاحظات على تقسيم الكتاب:

أ - من الواضح أن الخشني رتب أبوابه على (حرف الهاء)، وأن الخلل والاضطراب الحادثين في ذلك الترتيب العام ليس راجعاً إليه، وإنما إلى فعل النساخ في ترتيب الأوراق التي نسخوها^(١٩). ثم جاء المحققان، فأبقيا على الترتيب بخلله كما هو في (المخطوط) من باب الأمانة العلمية. وكان الأصوب - عندي - أن يعيدا ترتيب أبوابه على الوضع الصحيح، مع التنبيه إلى الخلل الحادث.

ب - قسّم الخشني الأبواب الرئيسية إلى (أبواب فرعية) حسب كل (حرف هجائي). فمثلاً: باب (حرف الألف) جعل تحته (باب أحمد)^(٢٠)، فـ (باب أيوب)^(٢١)، فـ (باب (أصبع)^(٢٢)، فـ (باب أبان)^(٢٣)، فـ (باب أسامة)^(٢٤). ومن البين أن الأبواب الفرعية لا يُراعى فيها الترتيب الهجائي، وكذلك التراجم المذكورة تحت (الأبواب الفرعية) لا يُراعى فيها الخشني الترتيب الهجائي^(٢٥).

(١) ص ٢١١.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٢١٣ - ٢٨٩.

(٣) تمتد هذه الأبواب الثلاثة في (المصدر السابق) من ص ٢٩١ - ٣١٢.

(٤) السابق: ص ٣١٣ - ٣٣٣.

(٥) السابق: ص ٣٣٥ - ٣٣٨.

(٦) السابق: ص ٣٣٩ - ٣٤٢.

(٧) السابق: ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

(٨) السابق: ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

(٩) ورد في نهاية كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشني ما يلي: (تم الكتاب، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على محمد، وعلى آله. وكان ذلك في شعبان من عام ٤٨٣هـ). فهذا هو تاريخ نسخ هذه المخطوطة قبل تحقيقها، ونشرها، فلعل لناسخها دخلاً في خلل ترتيب أبوابها.

(١٠) يلاحظ سقوط هذا العنوان: (باب أحمد) من الناسخ، وهو الباب الذي يمتد من (رقم ٢) إلى ترجمة رقم (٣٧)، ص ١٠ - ٣١. وكذلك سقط هذا العنوان: (باب سليمان)، وهو الممتد من (ص ٣١٣ - ٣١٥).

(١١) يمتد من (ترجمة رقم ٣٨ - ٤٠)، ص ٣٢ - ٣٣.

(١٢) يمتد من (ترجمة رقم ٤١ - ٤٧)، ص ٣٣ - ٤٠.

(١٣) يمتد من (ترجمة ٤٨ - ٤٩)، ص ٤٠ - ٤٢.

(١٤) يمتد من (ترجمة ٥٠ - ٥١)، ص ٤٢.

(١٥) الترتيب الداخلي الهجائي غير مُراعى، فمثلاً: في (باب أحمد)، ترجم لـ (أحمد بن إبراهيم)، برقم (٢) -

ج - عند وجود بعض الأسماء المتفرقة، التي لا تدخل تحت (الأبواب الفرعية)، يقوم الخشنى بتجميعها ووضعها آخر الباب الهجائي التابعة له، ويقول: باب (أسماء مختلفة)^(١). وقد تكون جميع تراجم الباب من قبيل الأسماء المختلفة، كما في باب (حرف الجيم) مثلاً، فيقول: (وهي أسماء مختلفة)^(٢)، أى: وتراجم هذا الباب متباينة الأسماء، فلا تدخل تحت باب معين.

د - تتراوح أبواب الكتاب بين الطول والقصر، بعضها محدود جداً، لا يتجاوز الصفحة^(٣)، وبعضها يطول جداً، كباب (حرف الميم). الذى أعده أطول أبواب الكتاب^(٤)، يليه باب (حرف العين)^(٥)، الذى يتسم بسمة، ينفرد بها، ذلك أن بأواسطه باباً للأسماء المختلفة^(٦)، وهو خاص بـ (العبادلة)، ولم يوضح الخشنى ذلك، ثم استؤنفت بقية أبواب هذا الحرف^(٧) ثم وضع باباً آخر للأسماء المختلفة^(٨)، وهو متعلق بالأبواب الأخرى المستأنفة، ولم يُعَيِّزْ الخشنى عن سابقة.

٢ - عناصر تكوين التراجم، ومدى تحقق التناسق بينها، والملاحم المنهجية المتصلة بذلك:

١ - سوف أعرض - هنا - العناصر المكونة للترجمة عند الخشنى، وسأراعى - ما أمكن - أن تكون لها صفة العموم والانطباق على كثير من تراجم الكتاب (معقولة الطول). ويمكن ذكرها على النحو الآتى:

أ - ذكر اسم المترجم له، ونسبه موجزاً، وأنه من أهل كذا (المدينة الأندلسية التابع لها)،

- (١٠ - ١١)، وبعده ترجم لـ (أحمد بن الوليد بن عبد الخالق)، برقم (٣) صـ (١١)، ثم ترجم لـ (أحمد ابن عبد الله بن خالد)، برقم (٤) صـ (١١)، ثم ترجم لـ (أحمد بن محمد الحصى) برقم (٥) صـ (١٢)، ثم عاد فترجم لـ (أحمد بن الحسن)، برقم (٦)، صـ (١٢)، ثم ترجم لـ (أحمد بن محمد بن عجلان)، برقم (٧)، صـ (١٢)، وهكذا دون ترتيب.

(١) راجع - مثلاً - ما ورد في آخر (حرف الألف)، حيث جمع تراجم (أسلم، وأسيد، وأسد، وأحطل، وأزهر، وأمية) بأرقام (٥٢ - ٥٧)، صـ (٤٣ - ٤٨). وكذا آخر (حرف الحاء)، برقمى (٩٨ - ٩٩)، صـ ٨٦.

(٢) وفيه ترجم لـ (جعفر، وجابر، وخديب) بأرقام: (٦٥ - ٦٧)، (صـ ٦٩).

(٣) مثل: باب (الجيم) السابق، وباب (الكاف) صـ ١٠٧، وباب (اللام) صـ ١٠٩.

(٤) ويمتد من ترجمة رقم (١٢٦ - ٢٦٠)، صـ (١١١ - ٢٠٢). ويلاحظ أن أطول أبوابه الفرعية هو باب (محمد)، وبه من ترجمة رقم (١٢٦ - ٢٣٠)، صـ ١١١ - ١٨٥.

(٥) يمتد هذا الباب ككل من ترجمة (٢٧٢ - ٣٩٢)، (صـ ٢١٣ - ٢٨٩). ويجوز في شقه الأول أسماء العبادلة في أبواب: (عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الملك، وعبد الأعلى، وعبد الجبار، وعبد الوهاب، وعبد المجيد، وعبد الكريم، وعبد الواحد، وعبد السلام). ويمتد هذا الجزء من ترجمة (٢٧٢ - ٣٤٧)، صـ ٢١٣ - ٢٦٨.

(٦) ويمتد من ترجمة (٣٤٨ - ٣٥١)، صـ ٢٦٩، وبه تراجم (عبد القادر، وعبد المؤمن، وعبد الودود، وعبد العزيز).

(٧) وبه أبواب: (عيسى، وعمر، وعمر، وعامر، وعمران، وعميرة، وعثمان، وعباس، وعلى). ويمتد من ترجمة (٣٥٢ - ٣٨٨)، صـ (٢٧٠ - ٢٨٧).

(٨) وبه تراجم (علكنة، وعكرمة، وعبيدون، وعريف). ويمتد من ترجمة (٣٨٩ - ٣٩٢)، صـ (٢٨٧ - ٢٨٩).

والتراجم عليه غالباً^(١).

ب - بعد عنوان الترجمة السابق: يذكر - في أحيان كثيرة - نسب المترجم له، وهو موزع بين القصر^(٢)، والطول المتوسط^(٣)، وأحياناً يأتي به مطولاً مفصلاً^(٤). وقد يردف ذلك بتناول أصله، وشرح ولائه (إن كان من الموالي)^(٥).

ج - الاهتمام بذكر علم المترجم له، وأى العلوم غالباً عليه (الفقه، أم الحديث)، وما قد يكون لديه من علوم أخرى^(٦).

د - ذكر بعض أساتيد المترجم له من الأندلسيين^(٧)، ثم الاهتمام بذكر ما يتصل برحلته إلى المشرق، فإن لم يكن للمترجم له رحلة - وقلما يكون ذلك - ينص عليه^(٨)، وإذا كانت له رحلة - وكثيراً ما يكون ذلك - يبين لنا صحبته فيها - أحياناً^(٩) - والبلاد التي زارها، وأساتيده الذين تلقى عليهم في كل بلد منها، على تفاوت في ذكر هؤلاء الأساتيد كثرة وقلة^(١٠) (ربما حسب نشاط المترجم له، وحديثه ومثابرته في التلقي).

هـ - التعرض للصفات الطيبة من علم وزهد، وورع وعبادة، وغيرها^(١١). وإلى جانب ذلك يهتم بإبراز رأى العلماء فيه، وثنائهم عليه، ومدحهم إياه^(١٢). وغالباً ما تنتهي الترجمة

(١) راجع - مثلاً - في (أخبار الفقهاء والمحدثين) تراجم أرقام ١ (ص ٩)، ٦ (ص ١٢)، ٨ (ص ١٣)، ١١ (ص ١٤).

(٢) السابق: رقم ٢ (ص ١٠)، ٦ (ص ١٢)، ١١ (ص ١٤).

(٣) السابق: ترجمة ١ (ص ٩).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ٢١ (ص ٢٢)، وترجمة ١٠٤ (ص ٩٥)، وترجمة ٢٤١ (ص ١٩١).

(٥) السابق: ترجمة ١٢ (ص ١٤): نسبة في الأمويين، وأصله من ترجمة قيس (لعلمها القرية المشهورة بين إربل والموصل)، من أعمال الموصل. (معجم البلدان ٢/٢٥٠). وترجمة ١٩ (ص ٢١): أحمد بن يوسف بن عباس (سرقسطي الأصل). وكذلك ترجمة ١٢٦ (ص ١١١): محمد بن خالد بن مرتيل. تناول أصل مرتيل هذا (كان عبداً مملوكاً للداحل، فأعتقه، وكان ليوسف الفهري قبله. وكان مرتيل يعمل لعبد الرحمن بن معاوية الجثنان، التي كانت في المكان الذي فيه - زمن الحشني - دور بني خالد داخل قرطبة). وأخيراً، عريف مولى لث بن فضل (كان فيها منظرًا مفتياً، وأصله من سبي الإفرنج، إذ كان طفلاً، فملكه لث هذا، ورأى منه بقطة ونباة، فعلمه ونشأه على حفظ القرآن، ومال للعلم، فساعدته مولاد. (السابق: رقم ٣٩٢، ص ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٦) راجع ما تقدم بهذا الشأن حول عنوان كتاب الحشني ومحتواه.

(٧) السابق: رقم ٣ (ص ١١)، ورقم (٣٣)، ص ٣٠.

(٨) السابق: رقم ٦ (ص ١٢)، ورقم ٤٨٩ (ص ٣٤٥)، ورقم ٥٠٣ (ص ٣٧٧)، ورقم ٥٠٧ (ص ٣٧٩).

(٩) السابق: رحلة (أحمد بن محمد بن عجلان، وأخيه معاً)، (رقم ٧ ص ١٢)، ورقم ٧٥ (ص ٧٥)، ورقم ٨٧ (ص ٨٠).

(١٠) أحياناً، يذكر الحشني عدداً قليلاً منهم (السابق: رقم ٢ ص ١١، ورقم ١٦٩ ص ١٥٤). وفي تراجم بعض العلماء المشهورين المطولة، يتوسع جداً في ذكر أساتيدهم بكل إقليم، ويذكر أعدادهم (ترجمة بقي بن مخلد رقم ٥٨، ص ٥٠ - ٥٥).

(١١) السابق: ص ١٨، ٢١، ٢٣، ٣١، وغيرها.

(١٢) السابق: رقم ١٠ ص ١٣، ورقم ١٣ ص ١٦، ورقم ١٨ ص ٢١، ورقم ٢١ ص ٢٣، ورقم ٤٨ ص ٤١، ورقم ٧١ ص ١٣٧، وغيرها.

بذكر تاريخ وفاة المترجم له^(١).

ملامح منهجية مرتبطة بطريقة الخشني في العرض التاريخي للتراجم:

أ - حول طول الترجمة:

من تتبع تراجم الخشني في هذا الكتاب، تبين لي أن بعض تراجمه سطحية^(٢) (نادرة المعلومات جداً)، فلعل الخشني لم تسعفه مصادره بأكثر من هذا، أو لم تساعده ظروفه للعود إليها؛ لتكتملتها. وهي قليلة في أعدادها على كل حال، إذا قيس بالطابع العام لتراجم الكتاب (قصيرة الطول)^(٣). وهناك تراجم معدودة أطال فيها الخشني كثيراً، وفصل القول فيها تفصيلاً^(٤).

ومن حقنا أن نحاول استنباط المعيار، الذي كان يُحكّمه الخشني في تراجمه من حيث الطول والقصر. والحق أن وضع اليد على هذا المقياس غير ممكن بدرجة كافية؛ لأن الرجل لم نعر له على مقدمة كتابه، التي يُصور أنه يُضمّن كثيراً من الإجابات عن العديد من التساؤلات المثارة حول كتابه، ومنها ما نحن بصدد الآن. وعلى كل، فلم أعدم وسيلة أو أخرى، أستشف منها جانباً من هذا المعيار. لقد رأينا الرجل يطيل جداً في ترجمة (يحيى بن يحيى الليثي)^(٥)، وكان مما جلب هذا التطويل إصراره على إثبات حوالى ثلاثين موضعاً في أسانيد أحاديث الموطأ، رواها العالم المترجم له، واشتدّت وأخذت عليه من جانب (محمد بن وضاح، وغيره من العلماء)^(٦)، وقال مبرزاً وجهة نظره في التطويل قبل أن يسرد هذه المواضع وقد رأيت أن أحثليها على وجهها في هذا الكتاب كثيراً مبسوطاً، فلا يُنكر في مثله شدة الشرح، وكثرة التطويل^(٧). فهو - إذن - يرى أن قضية انتقاد أسانيد مرويات المحدثين الكبار مما يجب تفصيله، ما دام كتابه يترجم للمحدثين. وقد رأينا أن المناقشات الفقهية المطولة - أيضاً - مما يرى ضرورة إثباته، ما دام الفقهاء يمثلون جزءاً كبيراً من تراجم هذا الكتاب^(٨). وبالنسبة لمواضع (الاختصار)، فقد رأينا

(١) وهذا كثير شائع في مختلف تراجم الكتاب، والخروج عليه هو الاستثناء.

(٢) السابق: راجع تراجم أرقام: (٩٥، ٩٨، ١٧٦، ٢١٩، ٢٣٠، ٣٢٣، ٣٤٩، ٣٥٧، وغيرها).

(٣) راجع في (السابق): أرقام (٢٠٦ - ٢١٣، ٣٦٩، وغيرها).

(٤) راجع تراجم (٣١، ٤١، ٥٢، ٥٨، ١٠٤، ١٣٧ - ١٣٨، ١٣٠، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٥٢، ٤١١، ٤٩٣).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٣٤٨ - ٣٦٧.

(٦) السابق: ص ٣٤٩ - ٣٥٧.

(٧) السابق: ص ٣٤٩.

(٨) يعد كتاب الخشني صورة حية للمظاهر الحضارية الثقافية في ذلك العصر، فإننا نجد به مجالس العلم والمناقشات بين العلماء (السابق: ص ١٨)، وبعض الفتاوى الفقهية الصادرة في مجالسهم (السابق: ص ٩٦)، والردود الفقهية المطولة، والتأويلات المفصلة (السابق: ص ٢٤٨ - ٢٥٤)، وجانباً من الخلافات بين بعض العلماء (السابق: ص ٦٩، ١٠٠ - ١٠١)، والأخذ والرد في حلقة العلم بين الأستاذ وتلامذته (ص ١٠٣ - ١٠٤)، ومظاهر الحركة -

الخشني يؤثره ويرتضيه في مواضع معينة، منها:

١ - عند التعليق على سند رواية سابق، يكتفي بالإشارة إلى مضمون الرواية المتقدمة، ويقول: (فذكر لي الحكاية)^(١).

٢ - عند تلخيص خلاف الناس حول عقيدة أحد العلماء، (كما هو عندنا لخص اشتجار الناس حول اعتقاد ابن مسرة القرطبي، وحصر ذلك في فرقتين، قام ببيان رأييهما في إنجاز وتركيز)^(٢).

٣ - عند التعرض لذكر الروايات المتصلة بمكارم العلماء، وفضلهم، وعلمهم: فقد رأيناه، يروي عدداً من الروايات التي تشير إلى فضل (يحيى بن يحيى الليثي)، وعلمه، وإجابة الله دعاءه. ثم توقف عن المضى عن ذكر المزيد من هذه النوعية من الروايات قائلاً: (وأخباره كثيرة غزيرة، لو استقصيناها واستوعبناها، لطال الكتاب جداً، يخرج عن حد ما بُني عليه من معرفة العلماء)^(٣). فكان الخشني يريد أن يوضح لنا أن جل اهتمامه في هذا الكتاب مُنصَّب على تصريف القارئ بعلماء الأندلس (فقهائه، ومحدثيه)، مع التركيز على مناقشة القضايا الحديثية والفقهية المرتبطة بهم، مع عدم المبالغة والتطويل في ذكر الآثار المادحة علمهم وفضلهم؛ لأنها من الممكن أن تخرجه عن حيز الموضوعية إلى الغلو والإسراف في المدح والثناء.

٤ - عند الإشارة إلى المكان الذي يترله بعض العلماء، مكتفياً في ذلك بأقل القليل^(٤)، وعلى اعتبار أنه أشار في صدر الترجمة إلى الكورة، التي ينتمي إليها العالم غالباً؛ إذ إن شرح الأماكن وتفصيل وصفها مما لا يشغل الخشني هنا.

ب - مدى التزام الخشني بموضوع الترجمة:

ونقصد بذلك: هل خرج الخشني إلى (الاستطراد المريب) في تراجمه ؟ والحق أنه بالنظر إلى يحمل هذه القضية، فإننا نستطيع القول: إنه التزم - إلى حد بعيد - بموضوع الترجمة. وإذا كان يذكر أشخاصاً لهم صلة بالمترجم له، فقد كانت إشاراته - إلى أخيه^(٥)، أو ابن^(٦)، أو والد

- العلمية النشطة في المساجد، وفي حلقات الفقه والقصاص (ص ٢١٧)، وتآديب الصبيان في المساجد، وتآديب أبناء الأمراء (ص ٨٧، ٣٤١)، وغير ذلك من مظاهر الحركة العلمية التي لموج لها الأندلس.

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٩٧.

(٢) السابق: ص ١٧٨.

(٣) السابق: ترجمة ٤٩٣ (ص ٣٦٧).

(٤) راجع: تراجم أرقام (٣٠، ٣٤٥، ٤٦٥، ٥١٧).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة (٧)، (ص ١٢)، ورقم ٧٥ (ص ٧٥).

(٦) السابق: ترجمة ٢٤ (ص ٢٣).

صاحب الترجمة^(١) - سريعة مقتضبة. وفي أحيان نادرة كان يطيل بعض الشيء^(٢). لكن الطابع العام لتراجمه هو (مراعاة الالتزام بموضوع الترجمة وصاحبها). ومن هنا، رأينا الخشني يجعل للأب - مثلاً - ترجمة، وللأبن ترجمة أخرى خاصة به^(٣). وأعتقد أنه يوجد تشتت في توزيع تراجم الأسرة الواحدة^(٤)، بناء على الترتيب الهجائي لأبواب الكتاب الذي اختاره الخشني لتنظيمه، والذي فضله على نظام الترتيب على (الطبقات)^(٥).

ج - مدى القدرة على تنمية، وتعميق المعلومات الواردة بالترجمة:

كانت للخشني أساليبه التي يستخدمها لتأكيد ودعم بعض المعلومات المذكورة في الترجمة. ومن وسائل ذلك: (الاستشهاد بالشعر). فقد أورد لنا عدة أبيات من الشعر في مدح العالم (بقي بن مخلد)، في الرد على شائيه الذميين له^(٦)، تأكيداً لمزته، وعلمه، وتميزه على غيره من العلماء.

وما قاله بعضهم في هذا الشأن:

رَأَيْتُ بَقِيَّ الْخَيْرِ خَيْرَ زَمَانِهِ وَغَيْرَ بَقِيٍّ فِي الْعُلُومِ كَلَّاشِي

أَبَى اللَّهِ إِلَّا أَنَّهُ أَفْضَلُ الْوَرَى^(٧) وَأَعْلَمُ كَهْلٍ فِي الْبِلَادِ وَنَاشِي^(٨)

وفي ختام ترجمة (بقي بن مخلد) أورد الخشني المؤرخ موقف (محمد بن عبد السلام المحدث) لما رأى الناس قد خرجوا بنعش (بقي)، وما أصابه عند ذلك من هول الفجعة، بحيث سقط

(١) السابق: رقم ٤٠ (ص ٣٣).

(٢) السابق: رقم ٧٧، ص ٧٦ (ذكر معلومة قصيرة عن المترجم له: حفص بن عبد الله الأنصاري، ثم معلومين أطول نسباً عن ولده (يوسف) ثم (حفيدة محمد). وكذلك ترجمة (٢٤٠) ص ١٩١ (فيها ذكر المترجم، وابن أخيه، وأولاده). وكذلك ذكر أحى المترجم له (ص ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٣) السابق: (ترجمة الأب رقم ٣١٣، وترجمة ابنه أحمد رقم ٣٦، وابنه أيوب رقم ٤٠).

(٤) فمثلاً: يوجد تباعد بين ترجمتي الأب، والأبن، رغم اتفاق أول (استهما في الحروف على اعتبار أن الترتيب العام قائم على أساس (الحروف الهجائية). أما أساس ترتيب الأبواب الفرعية، فغير معروف لنا. (فترجمة الأب (محمد بن وضاح) رقم (١٣٧ - ١٢٢)، وترجمة الابن (محمد بن محمد بن وضاح) رقم ١٧٨ (ص ١٦٠).

(٥) وقد أشار الخشني في ترجمة (قاسم بن هلال) رقم (٤١٠)، ص ٣٠١ إلى أن المترجم له أنجب بين عناية في العلم والزهد والخير، وأنه سيذكرهم مع طفتهم في موضوعهم من كتابه هذا (إن شاء الله). ولست أدري أي تقسيم طفتي يعنى، وحيث إذا كان أساس تقسيمه التراجم الفرعية غير المعروف لنا، جعل أبناء المترجم له، يذكرون مع طفتهم من أهل العلم مثلاً، وإنما لم نجد هؤلاء الأبناء ذكراً، اللهم إلا أننا له يسى (يحيى) ورد رقم (٥٠٠) ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٥٨ - ٥٩.

(٧) هذه مائقة مقمونة، فلا أفضل في الخلق من رسول الله، ولا يصح أن يقال: إن العلماء الآخرين - بخانه - لا يساوون شيئاً.

(٨) السابق: ص ٥٩.

مغشياً عليه. فلما أفاق مشى حاسراً، وقال: (هكذا ينبغي أن يُعْمَسَى في جنازات أهل العلم)^(١). وأعقب مؤرخنا ذلك بشعر لابن عبد ربه، يُعَمِّقُ فيه مكانة (بَقِيَّ) في النفوس والقلوب، مثل قوله:

إذا استلموا ركنًا من النعش خلَّتْهُمُ قد استلموا رُكْنًا من البيت أسودا
وسوِّوًا بأيديهم جوانب قبره فلما استوتْ خَرُّوا على القبر سُجَّدًا^(٢)

ومن وسائل الخشني في تأكيد المعلومة الواردة في الترجمة - أيضًا - إبرازه طبائع المترجمين. ومثال ذلك: أنه نقل عن بعض الرواة وصفهم المحدث (محمد بن وضاح القرطبي ٢٨٧هـ) بأنه كان دمث الأخلاق منشرحًا، وأنه ربما مازح وضحك، حتى يسيل لعابه، ثم أراد تأكيد ذلك ودعمه، فأردفه بمقارنة المترجم له بآخر هو (إبراهيم بن محمد القزاز)، الذي كان قَفْظًا سَكُونًا، لا ينشرح، فكان بعض الناس يقول في ذلك الوقت: "لو أن ابن وضاح، وابن القزاز عَمِلَ منهما رجل، كان معتدلاً"^(٣).

د - حول درجة تنظيم المادة التاريخية، وحسن توزيعها، ودقة أسلوبها، ومدى الترابط والتناسق الداخلي بها:

من خلال دراستنا السابقة لموارد الخشني في كتابه، ومنهجه في عرضها، اتضح لنا أنه على قدر كبير من القدرة على تنسيق المادة العلمية وتجميعها، وتوثيقها بنسبتها إلى مصادر المتنوعة. والآن، نحاول تلمس قدرته على توزيع مادة تراجمه في أماكنها المناسبة. والملاحظ أن مؤرخنا نجح في أكثر من موضع في ذلك. فمثلًا: ذكر في ترجمة (أحمد بن سليمان بن نصر): أنه ذُكر نسبه، حيث وقع ذكر أبيه^(٤). وفي ترجمة (أيوب بن سليمان بن نصر) قال: كان أبوه من أهل العلم. وقد وقع ذكره في (حرف السين)^(٥). وبالرجوع إلى باب (السين) المذكور، وجدنا ترجمة الأب - بالفعل - موجودة هناك^(٦) ومن المشاهد أن الخشني لم يذكر نسب (أحمد بن سليمان)، باعتبار أنه ذُكر في ترجمة والده. وبالعود إلى ترجمة الأب السابق الإشارة إليها تبين أنه لم يزد على ما ورد في ترجمة ابنه إلا اسم (حامل)، مع الإشارة إلى أنه من (مُرة غَطْفان). ولعل

(١) السابق: ص ٦١ - ٦٢.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق: ص ١٢٨.

(٤) السابق: ترجمة رقم (٣٦)، ص (٣١).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة رقم (٤٠)، ص (٣٣).

(٦) السابق: ص ٣١٣ (ترجمة سليمان بن نصر بن منصور الإلبيري، رقم ٤٢٥).

بقية النسب سقط مع السُّقْط الوارد في المخطوطة. وكان الأوفى - في نظري - ما دام الابن ذُكر في الكتاب أولاً في باب (أحمد) أن يُذكر نسبه كاملاً، ثم عندما تأتى ترجمة الأب في باب (السين) يشير - إذا أراد - إلى أنه سبق ذكر النسب في ترجمة ابنه الواردة من قبل، لكن يبدو أن الخشني له وجهة نظر أخرى معتبرة أيضاً؛ لأنه - فيما يبدو - عَدَّ الأب هو الأصل، ولولتأخرت ترجمته (حسب ترتيبه). وأحب أن أشير إلى أن هناك إحالات، ذكرها الخشني في مواضع أخرى، وعند التثبت من مدى دقتها، لم نعثر لها على أثر^(١)، وأحياناً نجد جزءاً مما أشار إليه^(٢)، فلعل الدقة خاتنه في بعض توزيع مادته، أو أن المخطوطة بها نقص بفعل الناسخ.

وثمة لون آخر من التنسيق والتنظيم في عرض المعلومات، تمثل في ذكر العنصر، ثم ضرب الأمثلة والشواهد الدالة عليه، كما في ترجمة (بقي بن مخلد) في الروايات المتعلقة بكراماته^(٣).

وإذا نظرنا في ألفاظ الخشني، التي يؤدي بها بعض جملة وتعبيراته، ألفيناه دقيقاً في انتقائها، أصيلاً في استخدامها، مع إيجاز وتركيز شديد. ومن النماذج المعبرة عن ذلك:

١- قوله عن (أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيري): (وكان رجلاً صالحاً، ثبتاً فيما روى، حافظاً لما قيّد)^(٤).

٢- وتظهر وجازته، وجملة القصيرة المركزة في أسلوبه، عندما وصف (طاهر بن عبد العزيز القرطبي المحدث) بقوله: (وكان طاهر طَيِّبَ الخُلُقِ، حُلُوَّ اللسان، بَلِيغَهُ فصيحته، كَرِيمَ المجالسة، غاية في رقة الأدب، وحسن معاملة الناس، وتقريب التلاميذ، والرفق بالمعتدى، والتواضع مع المروءة الظاهرة)^(٥).

٣- قوله عن ابن أخى (مطرف بن حميد الوشقى): (وكانت فيه حركة عجيبة، وطلب باحث)^(٦). وهو تعبير دقيق عبّر به عن نشاط (حميد بن ثوبة بن حميد) في الرحلة إلى العراق، والحج، وطلب العلم، وجمعه، بينما كان عمه غير ذى رحلة. ومن هنا تبدو المفارقة بين الاثنين، ودور التعبير المستخدم في إظهارها.

(١) كما هو الحال في إشارته إلى خبر وقوع مجاعة بالأندلس سنة ٢٦٠ هـ، وشهادة أحد العلماء خلالها (السابق ص ١١٥ - ١١٦)، وأنه سبق أن أشار إليها في كتابه هذا، وبالبحت - قدر الجهد - لم أجدها. كذلك لم أجد ما أشار إليه في ترجمة (٤١٥) ص ٣٠٧، وكذلك ما أشار إليه في (ترجمة رقم ٣٥٧)، ص ٢٧٣.

(٢) فقد وجدنا أيضاً واحداً للعالم (قاسم بن هلال) المترجم له رقم (٤١٠) ص ٣٠١، وذكر أنه سترجم لأبنائه الفقهاء، فلم نجد منهم سوى ابن واحد هو يحيى (ترجمة ٥٠٠ ص ٣٧٥ - ٣٧٦).

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٥٦، ص ١٣٠ - ١٣١ (نماذج من زلات ابن وضاح في الحديث).

(٤) السابق: ص ١٥ (جمع بين الرواية الشفهية، والدقة الخطية الكتابية، وتميز فيها).

(٥) السابق: ص ١٠٣.

(٦) السابق: ص ١٩١.

وفي النهاية، فباستعراض عدد من تراجم الكتاب، والنظر إلى مدى مراعاة التناسق والترابط الداخلي بين عناصر الترجمة الواحدة، ظهر لنا وجود هذا الترابط إلى حد بعيد في عدد من التراجم، مثل: ترجمة (أصبغ بن خليل القرطبي الفقيه) ^(١)، و(أسلم بن عبد العزيز القرطبي) ^(٢)، و(نقش بن مخلد القرطبي) ^(٣)، و(محمد بن وضاح القرطبي) ^(٤) مع بعض تحفظات يسيرة لنا. وأحياناً، كان يختلف الترتيب المنطقي لعناصر الترجمة، كما في ترجمة (أحمد بن دحيم ابن خليل القرطبي) ^(٥).

٣ - التوقيت:

اهتم مؤرخنا الخشن بتوقيت الأحداث المختلفة الواردة في معظم تراجم كتابه موضع الدراسة. وقد سلك في ذلك طرقاً شتى على النحو الآتي:

١- الاهتمام بذكر عدة تواريخ ترتبط بالترجم له داخل الترجمة الواحدة: مثل تاريخ رحيله للحج، ثم تاريخ دخوله بغداد، ومدة إقامته بها، ثم تاريخ عودته إلى بلده (الأندلس)، إضافة إلى تاريخ مولده، ووفاته ^(٦).

٢- الاهتمام بذكر تاريخ انصراف المترجم له من المشرق إلى الأندلس (ولو بالتقريب)، وتاريخ وفاته ^(٧).

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٤١)، ص ٣٣ - ٣٩: وفيها بدأ بذكر أهم أساتيد الأندلس، ومكانته في التصوري، والعلم. ثم عاد فذكر شهرته بعب العلم منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم، وذكر إجادته الفقه والوثائق، وبين حسن قياسه وحفظه، إلى أن تأثر الأخير آخر حياته. وذكر فقره وترفعه - رغم ذلك - عن قبول الهدايا، وشهادة علماء مصر له بالعلم، وقلة علمه بالحديث وأسماء الرجال، وورعه. وأخيراً، وفاته ودفنه، والصلاة عليه. ومن الواضح أن الترتيب يمثل في بداية الترجمة! إذ كان الحديث عن مكانته وشوهاد أولى به أن يتأخر بعد بيان طلبة العلم، وجده في الطلب، حتى عُرف ذلك منه.

(٢) السابق: ترجمة ٥٢، ص ٤٣ - ٤٧ (وبلاحظ - أيضاً - أنه صغر ترجمته بيان منصفه القضائي، وهو ما حققه التأخير).

(٣) السابق: (ترجمة ٥٨، ص ٤٩ - ٦٢). وقد بدأ - أيضاً - بذكر منزلته العلمية، ورحلته إلى المشرق، ومدة كل منهما. وكان الأولى البدء مرحلة الطلب في الأندلس وشيوخه بها.

(٤) السابق: (ترجمة ١٣٧، ص ١٢٢ - ١٣٢). ويلاحظ أنه صغر ترجمته بالتدقيق في النقل عن الرجال. ثم ذكر أساتيدته في رحلته إلى مختلف الأقاليم، ثم ذكر ميله للعرب ضد الموالي. وكان الأولى تقديم رحلته، ثم بيان ما برع فيه من علم، وموقفه من الموالي بعد العود إلى الأندلس.

(٥) السابق: ترجمة ٣١ (ص ٢٧ - ٢٩). وقد بدأ الترجمة بدابة طبية (السب)، ثم عجل بذكر معرفته بالرأي والحديث، وكان الأفضل تأخيرها، ثم ذكر أساتيدته بالأندلس، ورجعته لطلب العلم، وعودته للأندلس، ثم ذكر مولده ووفاته، ثم عاد وتذكر - فيما يبدو - أنه لم يسرد أسماء شيوخ المترجم له في الأقاليم التي ارغى إليها، فذكر لهم الترجمة (وهذا حلل واضح).

(٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة أحمد بن دحيم بن خليل)، رقم (٣١)، ص (٢٧).

(٧) السابق: (ترجمة أحمد بن ميسرة)، ترجمة ١٤ (ص ١٧)، قال عنه: انصرف قبل سنة ٢٩٠هـ.

٣- الاهتمام الأساسي بذكر تاريخ وفاة المترجم له في غالبية التراجم. وله في ذلك عدة مناهج يتبعها في إيرادها، منها:

أ- الاكتفاء بذكر سنة الوفاة آخر الترجمة، وبعدها يذكر ما يتعلق بعقب المترجم له^(١)، أولاً يذكر^(٢).

ب- ذكر سنة الوفاة، ثم شهرها الحادثة فيه^(٣).

ج- ذكر سنة الوفاة، ثم يومها وشهرها، وما يتعلق بدفن المتوفى، والصلاة عليه، ومكان الدفن، والدعاء له بالرحمة^(٤).

د- ذكر شهر، وسنة الوفاة، ومكان الدفن، ثم يوم الدفن^(٥).

هـ - عمر المتوفى، والليلة التي توفى بها، وتاريخها تفصيلاً، وسنة الوفاة^(٦).

و- الجمع بين تاريخ الوفاة تفصيلاً، ثم الميلاد تفصيلاً آخر الترجمة^(٧).

ز - الاهتمام بذكر ظروف القتل، وتاريخه (في إيجاز شديد)^(٨)، وأحياناً ظروف الوفاة، والدفن (العود من غزو مع الناصر)^(٩).

٤- هناك عديد من المواضع يأتي فيها التوقيت غير محدد تماماً، منها: (قدم الموت)^(١٠)، وقدم الموت مات في بضع وثمانين ومائتين^(١١)، وتوفى في أيام عبد الرحمن بن الحكم^(١٢)، وتوفى في أخريات أيام الأمير محمد^(١٣)، وكانت وفاته قريباً من قدمه من رحلته^(١٤)، وتوفى ولم يبلغ الأربعين^(١٥).

(١) السابق: ترجمة رقم (٩) (ص١٣)، وقال بعدها: (ولم يعقب)، وترجمة (٢٩)، ص٢٦.

(٢) السابق: ترجمة ١٢ (ص١٦)، وترجمة ١٣ (ص١٦)، وترجمة ١٤ (ص١٧).

(٣) السابق: ص٢٤.

(٤) السابق: ترجمة ١٥ (ص١٩).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٥ (ص٢٦).

(٦) السابق: ترجمة ٢ (ص١١).

(٧) السابق: ترجمة (٧٠).

(٨) السابق: ترجمة ٢٦ (ص٢٥).

(٩) السابق: ص٣١.

(١٠) السابق: رقم ٨٤، ٩٦.

(١١) السابق: ترجمة ٦ (ص١٢).

(١٢) السابق: ترجمة (٨٨).

(١٣) السابق: ترجمة (١٠١).

(١٤) السابق: ص١٨٩.

(١٥) السابق: ص١٠٩.

ملاحظات عامة:

أ - ليس لمؤرخنا منهج محدد في ذكر توقيت الأحداث، ولا تاريخ الوفاة والميلاد، وإنما هو يذكر التواريخ كيفما اتفق.

ب - قد يتجاوز الخشنى المترجم له، فيذكر تاريخ وفاة ابنه أيضاً، متبوعاً بإياه خارج الأندلس (حيث توفي بمصر قبل وصوله إلى مكة سنة ٢٠٥هـ^(١)). وبالنسبة لتاريخ وفاة الوالد المذكور، فإنه يذكر له أكثر من تاريخ وفاة دون ترجيح^(٢).

ج - هناك بعض التراجم لا نجد فيها ذكرًا لتاريخ وفاة المترجمين. وقد يكون ذلك؛ لعدم وقوف الخشنى عليه^(٣)، أو لسقوطه من المخطوطة^(٤).

٤ - مدى القدرة على رسم صورة واضحة للعلماء في الأندلس:

حرصص المؤرخ الخشنى في تراجم كتابه عن (الفقهاء والمحدثين) على إبراز جانبيين مهمين يتعلقان بالعلماء في الأندلس:

أ - الجانب الأول: جانب الحكمة، والموعظة، والصواب: وذلك نلمسه من خلال كلمات يرويها المترجمون عن العلماء^(٥)، أو من خلال تصرفات بعض المترجمين^(٦).

ب - والجانب الآخر: يتمثل في الدور الإيجابي الذي لعبه العلماء في المجتمع الأندلسي، فهم يتولون العديد من المناصب كالصلاة^(٧)، والقضاء^(٨)، والفتيا^(٩)، والشورى^(١٠)، وعقد الوثائق^(١١). وقد رسم لهم الخشنى صورة مشرفة في كتابه، فهم ذوو جاد ومزلة سامية بين الناس، ولدى الأمراء

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٠٤ (ص ٩٨).

(٢) السابق: (توفي والده زياد بن عبد الرحمن سنة ١٩٣، أو ١٩٤هـ).

(٣) السابق: ترجمة (٣)، ص (١١)، وترجمة ٤٣ (ص ٣٩)، وترجمة ٧٧ (ص ٧٦)، وترجمة ٨٣ (ص ٧٨).

(٤) السابق: ترجمة ٥٠، ص ١٢ (توفي أحمد بن محمد هذا. ولا يكمل العارة)، وتوفي حوشب هذا (ترجمة ٨٩). وأحياناً يقول: توفي (فقط)، كما في (ترجمة ٧ ص ١٢)، وترجمة ٤٦، ٥٩، ٧٩). وقد يقول: توفي (رحمه الله). (ترجمة ٤٣، ٤٥، ٥١)

(٥) مثل: (إذا تردد الرجل على القاضي ثلاث مرات فلا حاجة، فلا تجوز شهادته). (السابق: ص ٨٣). وكما في قول لآخر ورد في (ص ٢٤١). لو كان العلم كما يقول صاحبنا هذا، لكانت الفتيا أمراً سهلاً؛ لا تحتاجه بسواد الكتاب، ونحن إنما نحب أن نعرف أين الحق).

(٦) مثل: تصريح الأستاذ بخططه في المجلس التالي أمام تلاميذه (ص ١٠٤)، وصلاة عالم آخر في الحق، وتنفيذه على خاصة الأمير، والسوقة والعوام على السواء (ص ١١١)، والتوجه إلى ذى العلم في بيته وبجسمه، فد (في بيته يؤتى الحكم) (ص ١١٨).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٢٦، ٤١ (صلاة الجماعة بقرطبة)، ٥٠ (صلاة سرقسطة).

(٨) السابق: ص ٢٧ (قضاء طليطلة، والبيرة)، ورقم ٥٣ (قضاء البيرة)، ورقم ٦١ (قضاء تطبنة). ومنهم من ولى قضاء الجماعة بقرطبة (رقم ١٧ ص ٢٠، ورقم ٥٢).

(٩) السابق: رقم ٣٧. (١٠) السابق: رقم ٤١، ٧٠. (١١) السابق: ص ٣٥ - ٣٦.

فمكائتهم محفوظة وحرمتهم وافرة^(١). والعلماء لهم دور - كذلك - في سياسة الحكام^(٢)، وإصلاح شئون الناس^(٣).

وهناك جانب سلبي لا يفوتني الإشارة إليه؛ لأن الخشني كان حريصاً على إظهاره؛ لتتم ملامح الصورة الواقعية للعلماء، فهناك رواية صورت لنا (صراع الأجيال من العلماء)، ومثل ذلك في تخطيطه (المحدث محمد بن وضاح) في بعض ما يرويه من جانب طلاب العلم، بل خطأه ابنه نفسه، لكنه استنكف من العود إلى الحق والصواب، وقال لهؤلاء: (طلبنا نحن هذا الأمر، وأنتم في بطون أمهاتكم) !^(٤).

٥ - مدى حضور شخصية الخشني في كتابه:

الحقيقة أن ما مضى من حديث عن مجهوده الذي بذله في جمع مادة كتابه من أوثق مصادرها المتاحة، والعمل على تنسيقها وتنظيمها يدلُّ على حضور شخصيته في كتابه، وأنه لم يكن متوارياً سلبياً، قابعاً وراء مادة تراجمه. إلا أن ذلك الحضور غير مباشر. ونحن في هذه الجزئية الختامية من تناولنا منهج هذا الرجل في تأليف كتابه، نبحت عن (الحضور المباشر)، وقد تلمسناه واستقصيناه، فألفينا بعض نماذجه، نعرضها على النحو الآتي:

أ - التعلييل:

حاول مؤرخنا أن يفسر ما أورد من معلومات في تراجمه. ومن خلال محاولة تتبع مواضيع تعلييله، ظهر لي أن تعليلاته خفيفة ويسيرة ومحدودة، وموجزة جداً في غالبيتها، مثل: تعليله إكرام الناصر للعالم (أحمد بن خالد)؛ لفضله، وتعظيمه إياه لعلمه^(٥)، أو تفسيره عدم فصل قاضى شذونة (خلف بن حامد بن الفرج) بين اثنين في فترة قضائه، بأن ذلك يرجع إلى ورعه وفضله، فقد كان يفصل على جهة الإصلاح بين المتخاصمين فحسب^(٦)، إلى غير ذلك من المواضيع^(٧).

(١) السابق: ص ١١١ - ١١٢، ١١٧، ١٩٥.

(٢) السابق: ص ٣٠٥.

(٣) السابق: رقم ٣٧، ص ٣١ (بقي بالبلد، وبوق،) أي: يصلح بين المتخاصمين.

(٤) السابق: ص ١٣١.

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٨.

(٦) السابق: ص ٨٤.

(٧) السابق: ص ٢٣٣ (علل ولاية عبد الرحمن بن أبي هند الوزارة؛ بصدقه وبعده عن الوقوع في الكذب). وفي ص ٣٧٦: علل معرفة (بجي بن عبد الرحمن) بـ (أبيض)؛ لبياض شعر رأسه، ولحيته، وحاجبيه، وأشفاق عينيه.

وهناك موضعان لجأ فيهما الخشني إلى ذكر أكثر من سبب في تفسير بعض ما ورد في تراجمه، فيكون بذلك قد فصل نوعاً ما في هذا المجال^(١).

ب - التعليق والاستدلال:

وهذا ملمح أرقى من سابقه في اتضاح شخصية مؤرخنا الخشني؛ لأن التعليق على الروايات يحتاج إلى فهم للقضية المثارة، وعلم بمجانبها، وتكوين رأي فيها. وتزداد الشخصية وضوحاً إذا أنسى المعلق برأي جديد صائب، واستدل على صحته بما يؤكد. هذا، وقد تنوعت تعليقات، واستدلالات الخشني كما يلي:

- ١- تعليق فيه استحسان لتصويب ذكره أحد العلماء^(٢).
- ٢- تعليق خفيف حذر (حول توقيت وفاة أحد العلماء^(٣)، واسم عالم آخر^(٤)، والاختلاف حول مضمون إحدى الروايات)^(٥).
- ٣- تعليق فقهي متميز (يتصل بمنهج بقى بن محمد الفقهى^(٦)، وآخر يرتبط بخطأ ورد في إحدى الوثائق)^(٧).

- (١) السابق: ص ١٠٣ (ذكر أن طاهر بن عبد العزيز كان على درجة محمد بن عبد السلام الخشني في رواية كتب أبي غنيد إلا أن من روى عنه طاهر هذه الكتب عمكة (وهو علي بن عبد العزيز) صاحب أبي عبيد وكتابه، وهو أوعى وأوثق من (محمد بن وهب المنفرد المؤبد المجهول)، وهو أحد أصحاب أبي عبيد، وعنه نقل الخشني المذكور كتب أستاذة. وهناك سبب آخر لأشهر طاهر: أنه كان من أجمع الناس بكتبه، فكثر الناس عليه، وكتبوا عنه). أما (محمد ابن عبد السلام الخشني)، فكان لا يغير أصوله أحدًا، ثم إن الخشني هذا مات، فانفرد طاهر برواية كتب أبي عبيد، فازداد شهرته، ثم إن (أحمد بن خالد) توفى أيضًا، وكان - فيما يبدو - يقطع (منية عجب)، التي كان يقطعها (أحمد ابن خالد)، فحلت المساحة هناك فكثر تلاמידه. وكذلك يوجد تعليل من هذه النوعية (ص ١٧٨)، فقد علل شهرة (محمد بن عيسى بن رفاعه)، الذي كان يسكن (رقة)، واستقدمه المستنصر إلى (جامع الزهراء)؛ ليعلم الناس. علل الخشني نقل الناس عنه علمًا كبيرًا في مدة تسعة شهور أقامها عندهم (ربيع الآخر ٣٣٦ هـ، ثم انصرف إلى بلده، فمات في ربيع الآخر سنة ٣٣٧ هـ)، فأدرك الناس عنه ما لم يدركه عن (أحمد بن خالد) في أعوام كثيرة، قال: (لصبره على الخلو، ومثابرته على الخروج، إلى سماحة أخلاقه، وعذوبتها، وتواضعه، وقربه).
- (٢) قال الخشني: (كذا كل صاحب همه، إنما يستفيد من باب همه، ويتفق عدده ما أتاه من شكل صنعته). (ص ١٤٤).
- (٣) علّق على ما نقله عن صاحب (أخبار علماء حمص) بأن (معاوية بن صالح) توفي بالأندلس سنة ١٥٨ هـ قائلاً: (إن صحّت هذه الرواية، فإن معاوية مات في أيام الإمام عبد الرحمن - يعني: ابن معاوية - رحمه الله). (ص ١٨٧).
- (٤) قال في نهاية ترجمة (عبد الرحمن بن أبي هند): (يُخيل إلى أن هذا الرجل هو الذي ذكرته في رجال قرطبة، وسينه سعيد بن أبي هند، فلا أدري أهو رجلان، أم رجل واحد). (ص ٢٣٣).
- (٥) قال محمد بن حارث: سمعت أحمد بن عباد الرعيّ قديمًا وحديثًا، يخبرني فتوى (يحيى بن إبراهيم بن مزين) عن غير هذا الوجه، فلا أدري إن كانت الحكايتان جميعًا عن محضر واحد فاختلت، أو عن محضرين، فاشتبهت. (ص ٣٧١).
- (٦) فقد ذكر أحمد بن يحيى: أن أبا لا يتعدى مذهب مالك إلى غيره، ولا يتألف أصحابه فيه. فعلق الخشني قائلاً: يمكن أن يكون هذا منه عند الشورى، والأحكام القضائية؛ لأنه يعلم أن الأحكام تخرى على مذهب مالك. أما مذهب بقي في الحديث والنظر، فلا يفتد أحدًا من أهل العلم ما يظهر له الحق في غيره. (ص ٥٥٥).
- (٧) إذ لم يبين الأصل، الذي تنتهي إليه التوقية؛ وذكر رأي مالك في ذلك (ص ١٤٥).

٤ - تعليق فيه تصويب لبعض المعلومات التاريخية^(١).

٥ - الاستدلال على صحة معلومة^(٢).

٦ - تعليق، واستدلال على صحته برواية مسندة^(٣). وأحياناً، فقد كان الخشني يكتفي بالسرد - أحياناً قليلة - دون تعليق، كما في إيراد اختلاف الناس حول (ابن مسرة القرطبي) ما بين مثنى على علمه ومادح إياه، وما بين طاعن فيه، ومهاجم له^(٤). ولم يقيم الخشني بتحقيق الأمر، ولا ترجيح رأي على آخر.

والخلاصة:

- ١- أن الخشني نموذج للمؤرخ الذي لم يحصر اهتمامه في (مجال التاريخ) وحده؛ لأنه كان ذا اهتمامات بتحصيل الفقه، وشهود مناظراته، والمشاركة فيها، والتأليف والتدريس له^(٥). واهتمامه بالتأليف في تراجم الفقهاء والمحدثين نابع من اهتمامه بهذين العلمين.
- ٢- أن كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين) نموذج طيب لكتب التراجم في الأندلس في القرن الرابع الهجري (سواء في موضوعه، أم في محتوياته وموارده، أم في منهجه).
- ٣- أن هذا الكتاب سد ثغرة مهمة في المكتبة التاريخية الأندلسية، وحوى في ثناياه معلومات جديدة دقيقة، لا تتعلق بالأندلس فقط، بل تتصل بما رواه علماءها أثناء رحلاتهم إلى

(١) في ترجمة (زيد بن عبد الرحمن اللخمي): ذكر أن هذا العالم كانت له صلة بالأمير (هشام بن عبد الرحمن)، فرد الخشني بأن صلة هذا العالم كانت مع الأمير (الحكم بن هشام) (ص ٩٦)، وأورد رواية عن ابنه تثبت أن رأي الخشني صواب. وفي موضع آخر ترجمة (عبد الملك بن حبيب) رقم ٣٢٨، ص ٢٥٤، قال محمد (الخشني): ذكر بعض الناس أنه صلى على (عبد الملك) سليمان بن أسود القاضي. قال محمد: وهو وهم؛ لأن القاضي (سليمان بن أسود) لم يلي القضاء بعد ذلك إلا إلى أعوام كثيرة، وإنما كان القاضي - وقت وفاة (عبد الملك) - أحمد بن زيد، ثم من بعده (عمرو بن عبد الله)، ثم غُزل عمرو، وولي سليمان بن أسود. والمحموظ أن الذي صلى عليه محمد (ابنه).

(٢) استدلل على رواية (أحمد بن عمرو بن منصور) عن (يونس بن عبد الأعلى) في مصر برواية ابن قطيس، التي قال فيها عنه: (كان وسيلتنا إلى يونس؛ لتقديمه عنده قبلنا). (ص ١٦). وفي موضع آخر قال محمد: ومررت بمكاتبه لابن وضاح، رواها عنه أحمد بن زيد، دلّني على أن (حسين بن عاصم) بولي الحكومات (الفصل في القضايا). (ص ٧٤).

(٣) قال محمد: كان أحمد بن زيد وأخوه - ولا شك - تلميذين لابن وضاح، نسخا كعبه، فيمكن أن تكون الكتب في يد (أحمد بن زيد) إجازة. قال محمد: ودلّني على صحة ما توهمت من ذلك أن ابن وضاح كان أسمع الناس بإجازة الكتب. ثم دعم ذلك برواية مسندة، رواها الخشني عن أستاذه (عثمان بن محمد القنري): أنه حضر ابن وضاح عند موته، وعنده جماعة، فأوصى حاضريه أن يُعلموا غيرهم أن كل من سمع منه وجالسه، فقد أجاز له كل كتاب عنده، فليحدث به عنه (ص ٢٤).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ١٧٨.

(٥) عدّه مصطفى محمد إبراهيم في (رسائله للدكتوراه): (الحياة العلمية في قرطبة على عهد الناصر والمستنصر) ص ٤٢٣، مؤرخاً غير متخصص في مجال (التاريخ)، وجعل اهتمامه بالتأريخ للرجال فرعاً من اهتمامه بالعلم عامة في مجتمع، يحب العلم والعلماء.

المشرق^(١). ويضاف إلى ذلك تأثير ذلك الكتاب بعيد الأثر في كثير من المؤرخين التاليين، الذين نقلوا عنه الكثير من نصوص تراجمه (وعلى رأس هؤلاء: ابن الفرضي^(٢)، وابن حيان^(٣)، وابن ماکولا^(٤)، والحميدى^(٥)، وعياض^(٦)، والضي^(٧)، وابن الأبار^(٨)، وابن خلکان^(٩)، وابن فرحون^(١٠)).



تم الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله الفصل الثالث: المؤرخان الأندلسيان: ابن جليل، والزبيدي

- (١) نقتل المصادر الأندلسية عنه كثيراً من المعلومات، التي كان له السبق إليها، وسنرى - بعد قليل - مواضع التأثير بالخشني. وما نقله ابن الفرضي عن الخشني - مثلاً - أن حارث بن أبي سعد أول من أحدث له الشرطة الصغرى بالأندلس (كتاب الخشني ص ٨٠)، نقله عنه ابن الفرضي في (تاريخه ط. الخانجي) ١٢٤/١. ويمكن التقاط معلومات مشرقية جديدة في ثانيا كتاب الخشني، كالذي ذكره (أسلم بن عبد العزيز) في ترجمة رقم ٥٢ ص ٤٣ - ٤٤، عن الربيع المرادي المؤذن في مصر، وما نسب إليه من قول أثناء الأذان بالجامع في صومعته بمصر، وكذلك ابتداء مساجد مصر في الأذان بعد انتهائه منه نحواً من ٤٠ سنة. وكذلك ورد نص وصية مطولة عهد بها ابن حنبل عند وفاته، وهي - فيما أعلم - وثيقة حديثة، رواها أسلم في رحلته إلى بغداد (ص ٤٥٥ - ٤٦).
- (٢) راجع (تاريخه، ط. الخانجي): ٢١٦/١، ٢١٩ - ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٦، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٩.
- (٣) القتيبي: ج ٥ ص ٣٣، ٣٦ - ٣٧ (وهو نص موجود في كتاب الخشني ص ١٧٨ عن ابن مسرة).
- (٤) الإكمال ١٨٥/٥، ٢٨٠/٦.
- (٥) الحلوة ٤١١/٢، ٤١٨، ٥٠٢، ٥٦٠، ٥٦٢ - ٥٦٣، ٥٧٠، ٥٧٢ - ٥٧٨، ٥٧٩، ٥٨٣، ٥٨٥.
- (٦) ترتيب المدارك ٣٤٧/١، ٣٥٠، ٣٥٣ - ٣٥٤، ٤٤٥/٢، ٤٤٦ - ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦٣، ٥٧١.
- (٧) البغية ص ٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٢، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٩٦، ٣٠٠ - ٣٠١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٦، ٣٤٢، ٣٣٧ - ٣٧٨.
- (٨) تكملة كتاب الصلة (ط. الحسيني) ١٠/١، ١٧٨، ١٩١، ١٩٨ - ١٩٩، ٢٣٧، ٢٥٢، ٢٨٣. وفي المصدر نفسه (ط. مدريد): ص ١٧٣، ٢٥٩، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣١٣، ٣٣١.
- (٩) وفيات الأعيان ١٤٣/٦ - ١٤٦.
- (١٠) الديباج ١٤٧/١، ٤٤٠.